محمد قاسم الهاشمي

المصابيح الساطعة الأنوار

تفسير أهل البيت عليهم السلام

الامام زيد بن علي(ع)
(٧٢هـ - ١٢٢هـ)

الامام القاسم بن ابراهيم(ع)
(١٩٦هـ - ٢٤٦هـ)

الامام محمد بن القاسم(ع)
(٢٨٤هـ)

الامام الهادي الى الحق يحيى بن الحسين(ع)
(٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ)

الامام أبو الفتح الديلمي(ع)
(٤٥٠هـ)

الامام الحسين بن القاسم العياني(ع)
(٣٧٦هـ - ٤٠٤هـ)

الجمعة ـــ الأحقاف

جمع وتأليف

العلامة عبدالله بن أحمد بن إبراهيم الشرقي (١٠٦٢هـ)

الجزء الثاني

تحقيق

محمد قاسم الهاشمي — عبد السلام عباس الوجيه

أشرف عليه

السيد العلامة صلاح بن محمد الهاشمي

مكتبة التراث الإسلامي

الجمهورية اليمنية ـ صعدة ـ مفرق الطلح

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

الطبعة الثالثة
١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م

منشورات

مكتبة التراث الإسلامي

الجمهورية اليمنية - صعده
ت: ٥١٣١٥٠

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده على ما أنعم به علينا من الهداية لطريق الحق وصراط مستقيم، ونصلي ونسلم على نبي الأمة محمد الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين.

وبعد

فإننا نقدم اعتذارنا لتأخر صدور هذا الكتاب عن الوعود التي كنا قد قطعناها على أنفسنا لانجاز هذا المجلد، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

كما نتقدم بالشكر والعرفان لإخوة لنا ساهموا في اخراج هذا الكتاب إلى النور ليكون بين يدي القراء الأعزاء، وطلبة العلم، وأهل البحث والتحقيق وعلى رأس هؤلاء سيدي العلامة محمد بن الحسن العجري والأخ خالد بن قاسم بن محمد المتوكل جزاهما الله خير الجزاء عن جهودهم التي كان لها دور أساسي في إنجاح عملنا هذا.

كذلك نشكر آباءنا العلماء الأفاضل والأخوة المهتمين بهذا الكتاب الذين ابدوا ملاحظاتهم لنا في الجزء الأول من هذا السفر العظيم وقدموا نصائحهم؛ حرصاً منهم على أن يكون هذا العمل متميزاً، قليل الأخطاء، حسن المظهر.

كما نرجو أن نكون قد وفقنا، وعملنا بنصائحهم، ونطلب منهم ومن غيرهم المزيد من التوجيه والنصح فالكمال لله وحده جل وعلا.

عملنا في هذا الكتاب

يتميز هذا الكتاب بأننا قد عدنا إلى الأصول التي اعتمدها المؤلف رحمه الله والمتوفرة لدينا، وكذلك جرى تصحيحه على اكثر من نسختين خطيتين له.

وقد اضفنا في حاشية الكتاب تفسير الإمام الأعظم الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام والمسمى (بغريب القرآن) وكذلك تفسير (غريب القرآن) للإمام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم العياني عليه السلام واضفنا إليه في الحاشية أيضاً كثيراً من الفوائد المهمة اعتمدنا فيها على كثير من كتب التفسير واللغة من أهمها تفسير الحاكم الجشمي، وحاشية العلوي على الكشاف، حاشية الشهاب، إعراب القرآن (لمحي الدين درويش)، تفسير التبيان للطوسي، ومجمع البيان للطبرسي، وغير هذه الكثير من المراجع كما سيلاحظه القارىء الكريم.

وقد تتبعنا أقوال الأئمة عليهم السلام من مصادرها التي ذكرها المؤلف وأضفنا في الحاشية أيضاً الأقوال التي وجدت لهم في مصادر أخرى لم يتعرض لها المصنف تتميماً للفائدة.

أخيراً نسأل الله الكريم أن يعيننا على إتمام بقية هذا التفسير وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

ولا غنى لنا عن النصح والإرشاد والتقويم.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

بيروت ١٤/ ٢/ ١٩٩٩م

المحققان

محمد قاسم عبد الله الهاشمي

عبد السلام عباس الوجيه

سورة الجمعة

إحدى عشرة آية اتفاقا ، مدنية ، وقيل: مكية

قوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال الهادي إلى الحق عليه‌السلام : معنى ﴿بسم﴾ فهو: باسم الله يبدأ كل شيء ﴿الرحمن﴾ فهو ذو الرحمة والإحسان ﴿الرحيم﴾ فهو ذو التعطف بالرحمة والامتنان ، وقد مر تفسيره في سورة عم .

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [1] أراد سبحانه ما يتأتى منه التسبيح الحقيقي ، وأراد كل ما فيهما يقضي له بالتسبيح ، ويحمل الناظر إليه على التسبيح، أي : التنزيه لله من السوء ، وألا يكون له شريك بدلالة صنعه فيه ، فكأنه ينطق بتوحيده وعدله لما في مصنوعاته من الدلالة على ذلك.

قال الرازي : (وإنما قال في هذه السورة :﴿يسبح﴾ بلفظ المستقبل ليدل على التسبيح في زماني الحاضر والمستقبل)[2] .

---

(١) في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليه‌السلام في هذه السورة ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي ، عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام في قوله تعالى :﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا﴾ معناه : في الذين لا يكتبون

وقوله تعالى :﴿ويزكيهم﴾ معناه : يطهرهم .

وقوله تعالى :﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ هم الأعاجم .

وقوله تعالى :﴿كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ معناه : كتب ، واحدها سفر.

وقوله تعالى :﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ معناه : أجيبوه ، وذكر الله تعالى : موعظة الإمام ، ويقال : الوقت .

وقوله تعالى :﴿وإذا رأوا تجارة أو لهوا﴾ اللهو : الطبل ﴿انفضوا إليها﴾ معناه : أسرعوا ، وتفرقوا عنك .

(٢) الفخر الرازي هو : أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي ، الطبرستاني الأصل ، شافعي المذهب ، مفسر متكلم ، أصولي ، متطبب ، صاحب التصانيف المشهورة ، إذا نقل عنه علماء الأصول ، قالوا : قال الإمام ، أو : وعند الإمام ، ولد في ٢٥ من شهر رمضان سنة ثلاث ، أو أربع ، أو خمس وأربعين وخمسمائة ، قال في ترجمته في تفسيره :

(وقد جاء في بعض الفواتح ﴿سبح﴾ على لفظ الماضي ، وفي بعضها على لفظ المضارع وذلك إشارة إلى أن كون هذه الأشياء مسبحة غير مختص بوقت دون وقت ، بل هي كانت مسبحة أبدا في الماضي ، وتكون مسبحة أبدا في المستقبل ، وذلك لأن كونها مسبحة صفة لازمة لِمَاهِيَّاتها ، فيستحيل انفكاك تلك الماهيات عن ذلك التسبيح) [1] .

قال الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام :معنى ﴿يسبح﴾ فهو: يقدس وينزه ، وأصل التسبيح هو التنزيه لله ، و التبعيد له من شبه المخلوقين ، ومعنى (سبحان الله) هو : بعدان الله من كل قبيح من الصفات ، وكل صنيع لله في الأرضين والسموات يبعده عن ذوي العقول من الآفات ، ويسبحه عن شبه المصنوعات [2] .

قلت : وقد أوضح الهادي عليه‌السلام معنى التسبيح ، وبين مخارجه ، وما يؤول إليه في أول سورة التغابن ، فارجع إليه ، فإنه رِيٌّ من الضَّمَا ، وشفاء من داء الجهالة والعمى [3]

كان الفخر الرازي من أفضل علماء عصره في الفقه وعلوم اللغة والمنطق والمذاهب الكلامية ، ومن أبرع أهل زمانه في الطب والحكمة ، يقول ابن خلكان : إن كتبه ممتعة ، وقد انتشرت تصانيفه في البلاد ، توفي بهراة يوم الاثنين أول شوال من سنة ست وستمائة ، وقيل : إنه مات مسموما ، وله كلام عظيم في تنزيه الأنبياء عن المطاعن التي تنسب إليهم ، وقد أفرد لها كتابا مطبوعا ، وقد شنع على من نسب المعاصي إلى الأنبياء ، ونزههم بوجه لطيف حسن ، وقد نقل منه في هذا الكتاب كما ستجده في سورة يوسف وغيرها . كما صنف السيد العلامة علي بن محمد العجري كتابا في التفسير يرد فيه على الفخر الرازي الكثير مما يذهب إليه وسماه نهج السعادة و لم يتمه .

وما بين القوسين من كتاب الرازي التفسير الكبير في سورة الجمعة ٢/٣٠. وكان في الأصل لتفسير المصابيح (في الزمان) وفي الرازي (في زماني) فأثبتنا ما في الرازي .

(١) ما بين القوسين هو من تفسير الرازي في سورة الحديد ٢٩/٢٠٦.

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه‌السلام الآتي قريبا في الحاشية .

(٣) قال الإمام الهادي إلى الحق عليه‌السلام في تفسير سورة التغابن : قول الله سبحانه ﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير﴾ معنى ﴿يسبح﴾ فهو يقدس ويعظم ، ويجل ويكرم ﴿ما في السموات وما في الأرض﴾ فهو : كل ما أنشأ وبرأ من الخلق ، فمن الخلق ما يسبحه ويقدسه بلسان ناطق ويذكره ، وهم أهل الأمر والنهي من الخلق المأمورين بالطاعة ، المنهيين عن المعصية ، من الملائكة والثقلين من الجن والإنس المذكورين ، فهؤلاء يسبحون له ويذكرونه بالتقديس والتكبير ، والإجلال والتعظيم ، وما كان مما في السموات

والأرض من غير المأمورين من الأشياء المخلوقات ، والأمور المدبرات من سائر ما خلق الله وذرا ، من جميع ما أوجد من الأشياء ، من النجوم والشجر ، وغيرهما من كل ما فطر ، فإنما تسبيحه وتقديسه تسبيح من يسبح من أجله ، ولعظم ما فيه من صنعة ربه فإذا رأى المؤمنون أثر صنع الله في هذه الأشياء ، سبحوه بما رأوا فيها ، وقدسوه لعظم ما رأوا من صنعه في إيجادها فكان تسبيحهم لما رأوا من أثر الصنع فيها سببا لقول القائل : إنها سبحت ، لما كان التسبيح من أجلها وبها ، ولما رأوا فيها من أسبابها ، كما كان من السجود من الملائكة لآدم عليه‌السلام هو سجودهم لله الذي أوجد آدم ، فكان سجودهم لله من أجل ما رأوا من أثر صنعه في عبده ، وعظم تقديره في خلقه ، فجاز أن يقال : سجدوا لآدم ، إذ كان السجود من أجل آدم وسببه ، ولما أظهر الله سبحانه فيه من قدرته ، فعلى ذلك ومثله جاز أن يقول القائل في قوله : سبح كل شيء لربه من حجر أو مدر ، أو نجم أو شجر ، وفي هذا المعنى يدخل ما قال الله تبارك وتعالى:﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير﴾(مجموع تفسير الأئمة).

وقال الرازي في تفسيره ٢٠٦/٢٩ : زعم الزجاج أن المراد بهذا التسبيح التسبيح الذي هو القول ، واحتج عليه بوجهين الأول : أنه تعالى قال :﴿وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ فلو كان المراد من التسبيح هو دلالة آثار الصنع على الصانع لكانوا يفقهونه ، والثاني : أنه تعالى قال :﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن﴾ فلو كان تسبيحا عبارة عن دلالة الصنع على الصانع لما كان في ذلك تخصيص لداود عليه‌السلام . واعلم أن هذا الكلام ضعيف لحجتين أما الأولى : فلأن دلالة الأجسام على تنزيه ذات الله وصفاته وأفعاله من أدق الوجوه ، ولذلك فإن العقلاء اختلفوا فيها فقوله :﴿ولكن لا تفقهون﴾ لعله إشارة إلى أقوام جهلوا بهذه الدلالة ، وأيضا فقوله :﴿لا تفقهون﴾ إشارة إن لم يكن إشارة إلى جمع معين فهو خطاب مع الكل ، فكأنه قال : كل هؤلاء ما فقهوا ذلك ، وذلك لا ينافي أن يفقهه بعضهم .

وأما الحجة الثانية : فضعيفة لأن هناك من المحتمل أن الله خلق حياة في الجبل حتى نطق بالتسبيح ، أما هذه الجمادات التي نعلم بالضرورة أنها جمادات يستحيل أن يقال : إنها تسبح الله على سبيل النطق بذلك التسبيح ، إذ لو جوزنا صدور الفعل المحكم من الجمادات لما أمكننا أن نستدل بأفعال الله تعالى على كونه عالما حيا ، وذلك كفر ، بل الحق أن التسبيح الذي هو القول لا يصدر إلا من العاقل العارف بالله تعالى ، فينوي بذلك القول تنزيه ربه سبحانه ، ومثل ذلك لا يصح من الجمادات ، فإذا التسبيح العام الحاصل من العاقل والجماد لابد وأن يكون مفسرا بأحد وجهين الأول : أنها تسبح بمعنى أنها تدل على تعظيمه وتنزيهه . والثاني : أن الممكنات بأسرها منقادة له يتصرف فيها كيف يريد ليس له عن فعله وتكوينه مانع ولا دافع ، إذا عرفت هذه المقدمة فنقول : إن حملنا التسبيح المذكور في الآية على التسبيح بالقول كان المراد بقوله :﴿ما في السموات﴾ من في السموات ومنهم حملة العرش ﴿فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون﴾ ومنهم المقربون ﴿قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم﴾ ومن سائر الملائكة ﴿قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا﴾ وأما المسبحون الذين هم في الأرض ، فمنهم الأنبياء كما قال ذو النون :﴿لا إله إلا أنت سبحانك﴾وقال موسى : ﴿سبحانك إني تبت إليك﴾ والصحابة يسبحون كما قال :﴿سبحانك فقنا عذاب النار﴾ .

ثم قال سبحانه :﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ ﴾[1] أي :البليغ النزاهة عما يستقبح .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام[2]: معنى ﴿الملك﴾ هو المالك المدبر ، السيد الخالق البارئ المصور ، و﴿القدوس﴾ هو المستحق للتقديس . والتقديس : هو التنزيه لله والتعظيم ، وهذا قول الهادي صلوات الله عليه وما كان يذهب في تفسير هذه الآية إليه. اهـ

وأما إن حملنا التسبيح على التسبيح المعنوي : فأجزاء السموات ، وذرات الأرض والجبال والرمال والبحار والشجر والدواب والجنة والنار ، والعرش والكرسي ، واللوح والقلم ، والنور والظلمة ، والذوات والصفات ، والأجسام والأعراض كلها مسبحة خاشعة خاضعة لجلال الله منقادة لتصرف الله كما قال عز من قائل :﴿وإن من شئ إلا يسبح بحمده﴾ وهذا التسبيح هو المراد بالسجود في قوله :﴿ولله يسجد ما في السموات والأرض﴾ .

(١) قال الحاكم الجشمي : القدوس مشددة العين فالفاء منصوبة نحو سَفُّود وكَلُّوب إلا ثلاثة أحرف سُبُّوح ... وحكى الفراء عن الكسائي قال : سمعت أبا الدنيا وكان أعرابيا فصيحا يقول : القدوس بفتح القاف لعلها لغة .

(٢) الحسين بن القاسم عليه السلام : هو الإمام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن علي بن عبد الله بن محمد بن الإمام القاسم بن إبراهيم الرسي الحسني ، المعروف بالعياني ، كوالده الإمام القاسم بن علي[٣٧٦هـ ــ ٤٠٤هـ] أحد أئمة الآل الكرام ، مجتهد ، فقيه ، عالم ، مفسر ، نابغة ، أخذ عن والده وعلماء عصره ، وحكم بعد وفاة والده ، وفي عهده تقلص نفوذ الدولة وأصبح محصورا بين ناحية الهان وصعدة ، وقوي نفوذ الدولة الزيادية ، ونازعه الإمام محمد بن القاسم بن الحسين الزيدي ، ووقعت بينهما معارك كثيرة ، واستشهد المترجم في سن مبكرة بعرار في وادي البون بالقرب من مدينة ريدة ، وقبره هناك مشهور مزور ، وقد خلف آثارا عظيمة للفكر الإسلامي في اليمن ، وقد شنع عليه وعلى أبيه مسلم اللحجي المطرفي ، وأثار الشكوك حول عقيدته ، فالف السيد حميدان كتابا ينفي عنه الشائعات المغرضة بعنوان (بيان الإشكال فيما يحكى عن المهدي الحسين بن القاسم العياني من الأقوال) أنظره ضمن مجموع السيد حميدان خ ، وللمترجم مؤلفات كثيرة تزيد على الثلاثين مؤلفا بالرغم من استشهاده في سن مبكرة ، منها تفسير الغريب من كتاب الله ، وهو الذي رجع إليه مؤلف هذا الكتاب منه نسخ كثيرة . عنه وعن مؤلفاته وأماكن مخطوطاتها ومصادر ترجمته انظر (أعلام المؤلفين الزيدية وفهرست مؤلفاتهم) .

في تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام (خ ١٣٤، ١٣٥) ما لفظه :

﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض﴾ يريد بالتسبيح التقديس ، ومعنى يسبح : هو يقدس وينزه ، وأصل التسبيح هو التنزيه لله ، والتبعيد له من شبه المخلوقين . ومعنى سبحان الله : هو بعدان الله من كل قبيح من الصفات ، وكل صنع الله في الأرضين والسموات يبعده عند ذوي العقول من الآفات ، ويسبحه عن شبه المصنوعات ﴿الملك القدوس﴾ معنى الملك : هو المالك المدبر السيد الخالق الباري المصور ، والقدوس : هو المستحق للتقديس ، والتقديس : هو التنزيه لله والتعظيم ، وهذا قول الهادي إلى الحق صلوات الله عليه ، وما كان يذهب في تفسير الآية إليه ، ومعنى

ومعنى ﴿الْعَزِيزِ﴾ فهو الغالب القادر على كل شيء .
﴿الْحَكِيمِ﴾ الذي لا يفعل شيئا إلا بحكمة وصواب ، وهو أيضا الذي يضع الأشياء في مواضعها ، والله تعالى حكيم بهذا المعنى .

قوله :﴿بعث في الأميين رسولا منهم﴾ هو أرسل إليهم رسولا يعرفونه ، ويميزون كلامه ويفهمونه ، ومعنى قوله :﴿يزكيهم﴾ هو يطهرهم من الذنوب ، والتزكية : هي التطهير ، ومعنى قوله :﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ يريد عز وجل أنه بعث رسوله إلى الأميين ﴿يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ ويعلم آخرين منهم من ذريتهم لم يلحقوا بهم بعد ، و لم يخلقوا و لم يحدثوا ، فهو يريد الأولين والآخرين ، وهذا لمن كان في عصره وبعده من العالمين ، ومعنى قوله عز وجل :﴿ومثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ هو أن حملهم الأمانة في البيان ، والدعاء إلى الحق والهدى والبرهان ، فلم يحملوا ذلك و لم يقبلوه و لم يميزوه و لم يدبروه ، و لم يعقلوه ، ولكنهم رووا ذلك وهذرموه ، وتلوه تلاوة ظاهرة و لم يتبينوه ، ولكنهم عموا عنه وجهلوه ، ومعنى ﴿كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ قيل : إن الأسفار هي السفر التي هي الكتب فهم يحملونها ، ولا يميزون ما فيها فهم بمنزلة الحمار الذي يحملها وهو لا يميزها ولا يعقلها ، ولا يعمل بما فيها ولا يقبلها ،قال الشاعر في مثل ذلك :

زوامل للأخبار لا علم عندهم بمكنونها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأحماله أو راح ما في الغرائر

ومعنى قوله عز وجل :﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ هو أنه عز وجل لا يجبرهم على الهدى ولا يخرجهم من الضلال والردى ، ولا يوفقهم للصواب أبدا ؛ لأن من قبل الهدى الأول زاده هدى إلى هداه ، وبصره وكشف ضلالته وعماه ومن أدبر عن الهدى الأول لم يعطه الثاني ولا كرامة له ، و لم ينزع من قلبه ضلاله ولا جهله ، ومعنى قوله :﴿يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ يريد عز وجل أنكم إن كنتم ترهبون الموت فأنتم كاذبون ، وفي زعمكم وادعائكم للإيمان مبطلون ، لأن المؤمن لا يهاب الموت ثقة بالثواب ، والكافر لا يثق بعمله خوفا من العقاب ، وأيضا فلا فرج له في الموت والحساب .
ثم قال عز وجل :﴿ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾ يريد عز وجل أنهم لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم ، فقامت الباء مقام اللام ، ومعنى قوله بما قدمت أيديهم هو من أجل ما قدموا عند الله من الأفعال والكفر والجحدان بالضمير والمقال ، وما ارتكبوا من الفواحش والمحال ، والفسق والفجور وأنواع الضلال ، فهم من أجل ذلك للموت راهبون ، وله في كل سبب متجنبون ، حتى يحل بهم وهم له كارهون ، وينزل بهم وهم صاغرون ، ومعنى قوله :﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم﴾ يريد عز وجل أنه لا ينفعهم من الموت فرارهم ، ولا يغني عنهم إشفاقهم وحذارهم ، ومعنى قوله :﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ يريد أنه يوقفهم ويخبرهم يوم القيامة بما كانوا يعملون .

ثم تمنن الله سبحانه على عباده ، واستحمد إليهم بما طرحه بين ظهرانيهم من الكتاب والسنة لما لهم في ذلك من المطلب الصالح والمتجر الرابح ، فقال عز وجل : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ أي : من العرب ، أرسل إليهم رسولاً يعرفونه ، ويميزون كلامه ، ويفهمونه ؛ لأنه صلى الله عليه وآله ، أميٌّ مثلهم منسوب إلى أمة العرب ؛ لأنهم كانوا لا يقرؤون ، ولا يكتبون من بين الأمم ، وقيل: بُدِئَتْ الكتابة من الطائف ، أخذوها من الحيرة ، وهم من أهل الأنبار بلد بالعراق [١].

(فإن قيل : ما وجه الامتنان بأن بعث فيهم نبيا أميا ؟ فالجواب عنه من ثلاثة أوجه :

أحدها : لموافقة ما تقدمت بشارة الأنبياء به في الكتب التي تقدمت ، بأنه النبي الأمي

والثاني : لمشاكلة أحواله أحوالهم فيكون أقرب إلى موافقتهم .

والثالث : لينتفي عنه سوء الظن في تعلمه ما دعاهم إليه من الكتب التي قرأها ، والحِكَم التي تلاها) [٢] وكونه بهذه الصفة أبعد من توهم الاستعانة على ما أتى به من الحكمة بالكتابة ، فكانت حاله مشاكلة لحال الأمة التي بعث فيهم ، وذلك أقرب إلى صدقه [٣].

ومعنى ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ هو القرآن ، أي : يقرأها عليهم ، وقراءة الأمي بغير تعلم آية بينة .

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي : يطهرهم من الشرك ، وخبائث الجاهلية ، وجميع الذنوب ، ويجعلهم أزكياء القلوب [٤].

﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي : القرآن ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ هي الفهم والفقه في الدين،وقيل : السنة

---

(١) قال الحاكم الجشمي : والأمي : الذي لا يكتب كأنه منسوب إلى ولادة الأم في أنه لا يحسن الكتابة .

(٢) ما بين القوسين مثله في البرهان بلفظه (انظر البرهان خ ٣٧٨) .

(٣) وانظر أيضا زاد المسير في علم التفسير ، فهذه الثلاثة الأوجه مذكورة فيه (زاد المسير ٨/٢٥٨) .

(٤) في البرهان : ويجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان (البرهان ٣٧٨) قال الحاكم الجشمي : والتزكية : التطهير ، زكاه يزكيه إذا وصفه بالطهارة ، وقيل: منه الزكاة ، وقيل : من النماء ، يقال : زكى الزرع .

قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام[١]: فالكتاب : هو القرآن ، والحكمة معانيه ، فالحكمة تفيد المعرفة بمعاني كتاب الله تعالى ، وعليه يحمل قوله تعالى :﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا﴾[٢].

ومثل هذا التأويل مروي عن جدنا عبد الله بن الحسين[٣] عليهما السلام . انتهى

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي : وإنهم كانوا من قبل أن يبعث إليهم ﴿ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي : ذهاب عن الصواب لا يرى أبين منه .

ثم قال سبحانه :﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ أي : بعثه في الأميين الذين على عهده ، وفي آخرين منهم ﴿ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي : لم يلحقوا حينئذ بهم وسيلحقون[٤] وهم الذين بعد الصحابة ، فالمعنى : ويعلمهم الكتاب و الحكمة ، ويعلم آخرين من ذريتهم لم يلحقوا بهم ، و لم يحدثوا فهو يريد الأولين والآخرين ، وهذا لمن كان في عصره ، ومن بعده من العالمين[٥] .

---

(١) تقدمت ترجمته في الجزء الأول ص ٢٢ ، ونحن نحاول الآن العثور على تفسيره ليمكن الاستفادة منه .

(٢) البقرة : ٢٦٩

(٣) عبد الله بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم الرسي عليهم السلام ، المعروف بصاحب الزعفرانة ، المتوفى بعد سنة ٣٠٠ هـ ، عالم مجتهد ، مفسر إمام في العلوم ، قدم اليمن مع أخيه الإمام الهادي إلى الحق ، وكان من أعلم أهل زمانه أخباره كثيرة مبثوثة في سيرة الإمام الهادي ، وهو أحد الرجال الأشداء ، الذين كان يعتمد عليهم الإمام الهادي عليه السلام في إدارة معاركه ، ويؤمرهم على البلدان ، وله وقائع مشهورة مع القرامطة ، من مؤلفاته كتاب الناسخ والمنسوخ من القرآن ، مخطوطة ، وفي مكتبة الوالد العلامة عبدالله بن اسماعيل الهاشمي رحمه الله نسخة منه بخط جميل ، وقد سلمت للأخ الأستاذ المحقق عبد الله الحوثي الذي شارف على الانتهاء من تحقيقها وإخراجها إلى الوجود إنشاء الله

(٤) وهذا مستفاد من النفي بلما ؛ لأن النفي بها يستمر إلى الحال ، ويتوقع حصوله بعده ، وهذا هو الفرق بين النفي بلم ، والنفي بلما .

(٥) قال الحاكم الجشمي : في قوله ﴿وآخرين﴾ وجهان من الإعراب أحدهما : الكسر تقديره وفي آخرين عطفا على الأميين ، وثانيهما : النصب ردا على الهاء والميم في قوله :﴿ويعلمهم﴾ أي :ويعلم آخرين منهم .

ثم قال تعالى :﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي :القوي الغالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تمكينه رجلا أميا فقيرا من ذلك الأمر العظيم ، والملك الجسيم ، واختياره إياه من بين البشر [١].

﴿ذَلِكَ ﴾ الذي أعطاه محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ أي :عطاؤه ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي :من يشاء إعطاءه ، وتقتضيه حكمته .

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (والفضل : النبوة والإمامة ، يؤتيهما من اختاره واصطفاه من خلقه) [٢] .

ثم إنه تعالى حث على العمل بكل واحد من الكتاب والسنة ، والاهتداء بما فيهما ، وأمر بذلك وشدّد ، وكرّر وردّدَ ، ووعَد وأوعَد على ترك ما هنالك ، فضرب لهم مثلا في اليهود ، الذين أعرضوا عن العمل بالتوراة ، والإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ أي :كلفوا علمها [٣] والعمل بها ، وهم اليهود ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أراد لم يعملوا بها ، فكأنهم حيث لم ينتفعوا بما في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وآله ، والأمر بمتابعته ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ شبه اليهود ــ في أنهم حملة التوراة ، وحُفّاظ ما فيها ، ثم انهم غير عاملين بها ، ولا منتفعين بآياتها ، وذلك أن فيها نعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والبشارة به ، والغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار بما يحمل من أسفار الحكمة ، وتساوي الحالتين عنده من حمل أسفار الحكمة ، وحمل ما سواها من الأوقار ، ولا يشعر من ذلك إلا بما يزيد فيه من الكد والتعب به ، ولم يؤمنوا به ــ بالحمار حمل أسفارا ، أي :كتبا كبارا من [كتب] العلم ، فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا بما يمر بـ[جنبيه و]ظهره من الكد والتعب ، كذلك اليهود حظهم التعب من حمل التوراة فقط ، وهذا المثل يدخل فيه

---

(١) ومثله في الكشاف ٥٣٠/٤ بزيادة (وتأييده عليه) بعد قوله : الأمر العظيم .

(٢) ما بين القوسين مثله في البرهان ٣٧٨.

(٣) وفي نسخة (حملها) وفي الكشاف : علمها ، وفي الحاكم الجشمي : كلفوا العمل فلم يعملوا بها .

كل من علم علما و لم يعمل به[1] . **قال الإمام الحسين بن القاسم** عليه‌السلام : "المعنى هو أنه حملهم الأمانة في البيان ، والدعاء إلى الحق والهدى والبرهان ، فلم يحملوا ذلـــك و لم يقبلوه ، و لم يميزوه ، و لم يعقلوه ولكنهم رووا ذلك ، وهذرموه [2] وتلوه بتلاوة ظاهره ، و لم يبينوه ، ولكنهم عموا عنه وجهلوه ، ومعنى ﴿يحمل أسفارا﴾ قيل: إن الأسفار هي السفر التي [هي] [3] الكتب ، فهم يحملونها ولا يميزون ما فيها ، فهم بمنزلة الحمار الذي يحملها وهو لا يميزها ولا يعقلها ، ولا يعمل بما فيها ويقبلها ، قال الشاعر في مثل ذلك :

زوامـــل للأسفار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأبـــاعر

لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأحماله أو راح ما في الغرائر[4]

(**قال أهل المعاني** : هذا [المثل] مثل من لم يفهم معاني القـــرآن ، و لم يعمـــل بـــه ، وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه .

فإن قيل : ما الحكمة في تعيين الحمار من بين سائر الحيوانات ؟

قلت : قال بعض المفسرين : تعيين ذلك لوجوه منها : أنه تعالى خلق الخيل والبغـــال والحمير لتركبوها وزينة ، والزينة في الخيل أكثر وأظهر بالنسبة إلى الركوب وحمل الشيء

---

(١) ما بين أقواس الزيادة من الكشاف ، فهذا اللفظ موجود في الكشاف بنصه . (انظر الكشاف ٤/٥٣٠) .

(٢) الهذرمة : السرعة في القراءة والكلام ، يقال : هذرم وِرْدَه ، أي : هَذَّه (مختار الصحاح) .

(٣) ما بين المعقوفين من تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه‌السلام ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

(٤) في الأصل زال الأحبار ، والصحيح ما أثبتناه ، وهو الموجود في تفسير الطبرسي فقال : عن أبي سعيد الضريـــر ، بلفظ: زوامل للأسفار في البيت الأول ، وفي البيت الثاني المطي بدلا عن البعير ، وبأسفاره بدلا عن أحماله ، ونســـبها المحقق إلى مروان بن سليمان . وزوامل : جمع الزاملة البعير الذي يحمل عليه الطعام والمتـــاع ، وفي تفســـير القرطـــي ٩٤/١٨ للأسفار في البيت الأول ، وأوساقه بدلا عن أحماله في البيت الثاني ونسبها المحقق كذلك لمروان بن سليمان بن يحي ابن أبي حفصة يهجو قوما من رواة الشعر ، وقال الحاكم الجشمي : والأسفار : الكتب واحدها سفر ، نحو شئ وأشياء ، وإنما سمي سفرا لأنه يكشف عن المعنى بإظهاره، أسفر الرجل عن عمامته إذا كشف ، وسفرت المرأة عـــن وجهها ، ومنه الصبح إذا أسفر . وفي تأويل مختلف الحديث لعبدالله بن مسلم بن قتيبة ، الجزء الثالث :

زوامل للأشعار لاعلم عندهم ....الخ ماهنا مثله تماما .

عليه ، وفي البغال دون الخيل ، وفي الحمار دون البغال ، فالبغال كالمتوسط في المعاني الثلاثة ، وحينئذ يلزم أن يكون الحمار في معنى الحمل أظهر وأغلب بالنسبة إلى الخيل والبغال ، وغيرهما من الحيوانات .

ومنها : أن هذا التمثيل لإظهار الجهل والبلادة [وذلك في الحمار أظهر] .

ومنها : أن في الحمار من الذل والحقارة مالا يكون في الغير ، والغرض من الكلام في هذا المقام تعيير أولئك القوم وتحقيرهم ، فيكون تعيين الحمار أليق وأولى .

ومنها : أن حمل الأسفار على الحمار أتم وأعم وأسهل [وأسلم] لكونه ذليلا سلس القياد ، وهين الانقياد ، يتصرف فيه الصبي الغبي من غير كلفة ومشقة ، وهذا من جملة ما يوجب حسن الذكر بالنسبة إلى غيره)[1].

ثم ذم تعالى هذا المثل فقال :﴿ **بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ**﴾ أي : بئس مثلا مثل[2] ﴿ **الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ**﴾ الدالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهم اليهود .

﴿**وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ لأنفسهم بالتكذيب لما علموا صحته ، فهم لا يقبلون الهدى .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام :"معناه : أنه عز وجل لا يجبرهم على الهدى ، ولا يخرجهم من الضلالة والردى ، ولا يوفقهم للصواب أبدا ؛ لأن من قبل الهدى الأول زاده

---

(١) المراد ببعض المفسرين ، هو الفخر الرازي ، والكلام كله مثله في تفسير الرازي ، وكذلك ما بين القوسين زيادة منه وفيه أيضا (ولين الانقياد) بدلا من (هين الانقياد) وكذلك (ذلولا) بدلا من (ذليلا) كل ما بين أقواس الزيادة في هذا النص مثله في الرازي ، وفيه أيضا زيادة وجه آخر وهو قوله :

ومنها : أن رعاية الألفاظ والمناسبة بينها من اللوازم في الكلام ، وبين لفظي الأسفار والحمار مناسبة لفظية لا توجد في الغير من الحيوانات فيكون ذكره أولى . (انظر الرازي ٣٠/٥ ، ٦) .

(٢) يجوز أن يكون ﴿مثل القوم﴾ فاعل بئس ، و﴿الذين كذبوا﴾ هو المخصوص بالذم ، بتقدير مضاف كما ذكره فيتحد الفاعل والمخصوص بالذم ، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، ويجوز أن يكون ﴿الذين كذبوا﴾ صفة للقوم ، فالمخصوص بالذم محذوف والتقدير : مثلهم .

الله هدى إلى هداه ، وبَصَّرَه ، وكشف ضلالته وعماه ، ومن أدبر عن الهدى الأول لم يعطه الثاني ، ولا كرامة له ، ولم ينزع من قلبه ضلاله وجهله ".

ثم أمر النبي صلى الله عليه وآله بهذا الخطاب وهو قوله تعالى :﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ تهودوا : أي : دخلوا في دين اليهود ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ لأنهم كانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، أي : [فلو][1] كان قولكم حقا وكنتم على ثقة ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ أي :فتمنوا على الله الموت لينقلكم سريعا إلى دار أوليائه ، أي :حبُّوه بقلوبكم ، وارغبوا فيه ؛ لأن الآخرة خير لكم من الدنيا ، وقيل : معناه :الفظوا بتمني الموت فقولوا : ليتنا نموت . وهذا تحد لهم بأن يلفظوا بالتمني للموت ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم : نحن أبناء الله وأحباؤه .

﴿وَ﴾ أخبر الله أنهم ﴿لَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فكان كما أخبر ، وهذه معجزة من معجزات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال العلماء : وكان التحدي مختصا بقوم منهم كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم :(والذي نفسي بيده لا يقولها واحد منهم إلا غص بريقه)[2].

وقوله تعالى :﴿بما قدمت أيديهم﴾ أي :بسبب ما قدموا من الكفر ، فلولا أنهم كانوا موقنين ، بصدق رسول الله لتمنوا الموت ليكذبوه صلى الله عليه وآله وسلم لكنهم علموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم ، ولحقهم الوعيد ، فلم يتمنوا خوفا من العقاب ، فهم من أجل ذلك للموت راهبون[3] ، وله في كل سبب متجنبون ، حتى يحل بهم وهم صاغرون .

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي :بظلمهم ، من تحريف الآيات ، وعنادهم لها ومكابرتهم إياها ، فهم يردون إليه فيجازيهم بما هم أهله .

---

(١) ما بين القوسين مثله في الرازي ٦/٣٠.

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره بلفظ (والذي نفس محمد بيده لو تمنوا الموت ما بقي على ظهرها يهودي إلا مات) ٩٦/٨.

(٣) في الأصل (راهبين) والصواب رفعه بالواو خبرا .

ثم قال تعالى :﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ ولا تجسرون أن تتمنوه خيفة أن تؤخذوا بوبال كفركم ﴿فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ لا محالة ، وأنتم لاتفوتونه ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ قيل : الغيب المعدوم ، أو الغائب عن العباد ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الموجودة ، أو الشاهد للعباد ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي :تردون إلى العالم بسرائركم ، فيجازيكم بما أنتم أهله من العقاب ، ومعنى إنبائهم بعملهم : توبيخهم وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد ، حين يوقفهم على فعلهم ، ويخبرهم يوم القيامة بما كانوا يعملون .

ثم قال تعالى :﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ إذا : بمعنى الوقت ، الذي وقع فيه النداء ، و﴿من﴾ بيان لإذا [١] و تفسير له . والنداء : الأذان ، وقالوا : المراد به الأذان عند قعود الإمام على المنبر ، وقيل: أذان الجمعة للوقت كأذان الظهر ، وقد كان له صلى الله عليه وآله وسلم مؤذن واحد ، فكان إذا جلس على المنبر أذن على باب المسجد ، فإذا نزل أقام الصلاة ، ثم كان أبو بكر وعمر على ذلك ، ثم زاد عثمان مؤذنا كان يؤذن من داره لما كثر الناس ، وكانت في سوق المدينة ، فإذا جلس على المنبر أذن المؤذن الثاني ، فإذا نزل أقام الصلاة ولم يعب عليه أحد [٢].

﴿فَاسْعَوْا﴾ (المراد بالسعي القصد ، وهو السير المعتدل ، دون العدو ، والسعي : التصرف في كل عمل ، ومنه ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [٣] **الحسن** [٤]: "ليس السعي على الأقدام ، ولكنه على النيات والقلوب) [٥] .

---

(١) من هذه تحتمل التبعيض ، وأن تكون بمعنى في كما ذهب إليه أبو البقاء ، فإن أراده المصنف رحمه الله فالبيان لغوي لأن تعيين اليوم الذي فيه ذلك الوقت تعيين له ولا لبس فيه ؛ لأن المعاني متقاربة ومثله يسمى إجمالا لا لبسا ؛ لأن اللبس باحتمال مالا يصح كما ذكره ابن الحاج في المدخل ، وظاهره أنه أراد البيان المشهور لكن أورد عليه أن شرط من البيانية أن يصح الحمل فيها ، وهو منتف هنا ؛ لأن الكل لا يحمل على الجزء ، واليوم لا يصح أن يراد به مطلق الوقت لأن يوم الجمعة علم لليوم المعروف لا يطلق على غيره في العرف ولا قرينة عليه هنا . (انظر حاشية الشهاب ٨/ ١٩٦) .

(٢) الخبر موجود في مجمع البيان للطبرسي عن السائب بن زيد ٣٦٦/٩.والكشاف وتخريجه ٥٣٢/٤، والرازي ٨/٣٠

(٣) النجم : ٢٩

ومعنى ﴿ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ فهو إلى سماع موعظة الإمام ، أي :الخطبة والصلاة ، وذكر الصالحين فيها من جملة ذكر الله ، نبه الله تعالى المؤمنين بقوله :﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ معناه : إلى ما ينفعكم في الآخرة ، وهو حضور الجمعة ؛ لأن الدنيا ومتاعها فانية ، والآخرة وما فيها باقية قال تعالى :﴿والآخرة خير وأبقى﴾ [1] .

(وكان اسم يوم الجمعة في الجاهلية عروبة ، وأول من سماه باسمه هذا كعب بن لؤي بن غالب لاجتماع قريش فيه إلى كعب[2] .

ثم قال تعالى :﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ منع تعالى منه عند صلاة الجمعة ، وحرَّمه في وقتها على كل من كان مخاطبا بفرضها ، ووقت التحريم من بعد الزوال إلى الفراغ من الصلاة) [3] والمراد ترك كل عمل يلهي عن ذكر الله ، وإنما خص البيع لأنه مظنة الذهول في ذلك الوقت ، من ذلك اليوم لاجتماع الناس فيه من كل أوب .

قال في البرهان : "وإن عقد في هذا الوقت المحرَّم [بيعا] [4] بطل لظاهر قوله تعالى في النهي عنه ، والنهي يقتضي فساد المنهي عنه". اهـ

---

(٤) في مجمع البيان ٣٦٧/٩ ، وقال الحسن : ما هو السعي على الأقدام ، وقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، ولكن بالقلوب والنية والخشوع .

والحسن : هو الحسن بن أبي الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد مولى أم سلمة ، أحد الأعلام ، كان إمام أهل البصرة ومن عظماء التابعين وكبارهم ، اشتهر بعلمه وزهده وتقواه ، وهو من أشهر المحدثين روى عنه أمم كثيرة ، انظر معجم الرواة في أمالي المؤيد بالله ص ١٥٤ ، الجداول مخطوط ، الطبقات مخطوط ، رأب الصدع ٧٢٥/٣، معجم المفسرين ٨٤/١ ، معجم رجال الاعتبار وسلوة العارفين ، وانظر بقية المصادر فيه .

(٥) ما بين القوسين مثله في الكشاف ٥٣٥/٤.

(١) الأعلى : ١٧

(٢) في مجمع البيان ٣٦٤/٩ ، وقيل : إن أول من سماها جمعة كعب بن لؤي ، وهو أول من قال في الخطبة : أما بعد وكان يقال للجمعة : العروبة .

(٣) ما بين القوسين مثله في البرهان بلفظه ٣٧٨ .

(٤) ما بين المعقوفين زيادة من البرهان ٣٧٨.

﴿ذَلِكُمْ﴾ المذكور من السعي إلى تجارة الآخرة ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من تجارة الدنيا ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم [١].

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ﴾ أي :فرغ منها ﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لمنافع دنياكم التي أمرتم بتركها عند النداء ، وهذا أمر إباحة .

قال في البرهان : وروينا أن **يحي بن زيد** عليهما السلام [٢]كان إذا صلى الجمع انصرف فوقف على باب المسجد فقال :"اللهم قد أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي :نعمة الله في الدنيا موصولة بنعمة الآخرة [٣] اهـ.

وقيل : اطلبوا من رزقه بالتجارة .

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي : لإرادة أن تظفروا بمرادكم .

قال في البلغة [٤] : "تستعمل لفظ لعل على وجوه ، **أحدها** : لام كي ، **والثاني** : الشك ، **والثالث** : التعرض للأمر ، فمعناه على الوجه الأول : اذكروا خالقكم لكي تفلحوا ، وإذا حمل على معنى الشك ، حمل على شك المخاطبين ؛ لأن أمورهم وأحوالهم تجري بين الخوف والرجاء والطمع ، وعلى هذا الوجه يؤول قوله تعالى :

---

(١) قال في البرهان : ﴿إن كنتم تعلمون﴾ يعني أن الصلاة خير لكم من البيع والشراء ؛ لأن الصلاة تفوت بخروج وقتها والبيع لا يفوت .

(٢) الإمام الشهيد يحي بن زيد عليهما السلام ، تقدمت ترجمته في الجزء الأول ص ١٦٣.

(٣) انظر البرهان ٣٧٨ .

(٤) لمحمد بن محمد بن احمد بن الحكم الفلكي الطوسي ، أبو العباس ،.والكتاب : هو البلغة لمن لايحضره المفسر في تفسير القرآن الكريم ، منه نسختان خطيتان ، هما الجزء الثالث والرابع ، برقم ١١ و ١٢ تفسير / المكتبة الغربية ، ونسخ أخرى في جامع شهارة وغيره ، انظر مصادر التراث في المكتبات الخاصة ، وإلى الآن لم نحصل على نسخة منه ليتسنى لنا المراجعة بالرجوع إلى الأصل ، ونسأل الله أن ييسر لنا نسخة منها .

﴿فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾ [1] أي: قولا له ذلك على ظنكما ورجائكما أن يتذكر أو يخشى

وعلى الوجه الثالث معناه : اذكروا الله متعرضين للفلاح ، فجميع ما في القرآن من لفظ لعل متأول على أحد هذه الثلاثة " اهـ .

(فالله سبحانه أباح لهم الانتشار ، وطلب الربح مع التوصية بإكثار الذكر ، ولا يلهيهم عنه شيء .

ابن عباس [2] "لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا ، إنما هو عيادة المرضى وحضور الجنائز ، وزيارة أخ في الله" .

الحسن وابن المسيب [3] (طلب العلم" . وقيل : صلاة التطوع) [4] .

ثم قال عز وجل :﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ أي :تفرقوا عنك إليها [5]

---

(١) طه : ٤٤

(٢) هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، تقدمت ترجمته في الجزء الأول ص ٣٢.

(٣) ابن المسيب : هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي [١٣ ــ ٩٤هـ] أبو محمد ، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، ومن كبار التابعين ، جمع الحديث والفقه والورع ، وكان يعيش من تجارة الزيت ، أجمعوا على توثيقه ، روى العجلي بإسناده عن سعيد ابن المسيب أنه قال : كان أبو هريرة إذا أعطاه معاوية سكت ، وإذا أمسك عنه تكلم ، خرّج لابن المسيب أئمتنا الخمسة والسمان . (انظر معجم رجال الاعتبار) (تحت الطبع) ، (معجم الرواة في أمالي المؤيد بالله ص ١٧٩) و(الجداول) و(الطبقات) خطية ، وبقية المراجع في معجم رجال الاعتبار .

(٤) ما بين القوسين مثله في الكشاف (انظر الكشاف وتخريجه ٥٣٦/٤) .

(٥) قال في البرهان : ﴿وانفضوا﴾ معناه : تفرقوا ، قال الشاعر :

انفض جمعهم عن كل نائرة تبقى وتدنس عرض الراحم الشتم

قال الحاكم الجشمي في تفسيره : الانفضاض : الانحلال والتفرق ، والفض : تفريق الشيء ، وانفض القوم : تفرقوا ، وفضضت عن الكتاب ختمه : فرقته ، والفضفضة شقة الثوب ، ودرع فضفاضة لتفرقها على الثوب ، والفضفاض : ما تفضفض عن الشيء إذا انفض ، واللهو واللعب : نظيران ، وكلما شغلك فقد ألهاك ، ومن ذلك سميت المرأة لهوا ، والجماع لهوا .

[سبب النزول] روي أن أهل المدينة أصابهم غلاء شديد ، فقدمت تجارة والرسول صلى الله عليه وآله وسلم يخطب يوم الجمعة ، فضرب لقدومها طبل فتفرق الناس عن النبي صلى الله عليه وآله إلى التجارة والطبل و لم يبق معه إلا اليسير ، فنزلت هذه الآية ، والذي قدم بالتجارة دحية بن خليفة الكلبي[١] من الشام عند مجاعة وغلاء سعر ، وكان معه ما يحتاج إليه الناس من بر ودقيق وغيره ، فنزل عند أحجار الزيت[٢] ثم ضرب الريح ليؤذن الناس بقدومه ، وكانوا في خطبة الجمعة فانفضوا إليه و لم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ثلاثة رجال[٣]

﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي :في الخطبة ، فقال صلى الله عليه وآله :(والذي نفس محمد بيده لو خرجوا جميعا لأضرم الله عليهم الوادي نارا)[٤] .

﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ أي :قل لهم يا محمد توبيخا لهم ، على اختيار القليل الفاني ، على الجزيل الباقي : ما عند الله من الثواب على تجارة الآخرة خير لكم من اللهو ومن تجارة الدنيا .

---

(١) هو الصحابي دحية بن خليفة بن فروة الكلبي ، الذي كان يحب رسول الله صلى الله عليه وآله من جبريل أن يراه على صورته فيما رووا .

(٢) موضع بالمدينة ، وهو الموضع الذي ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله أنه يسيل دم الإمام محمد بن عبد الله النفس الزكية إليه عند قتله عليه السلام .

(٣) وفي مجمع البيان للطبرسي ٣٦٩/٩ نفس مضمون الحديث ، إلا أنه قال : و لم يبق مع رسول الله في المسجد إلا اثنا عشر رجلا وامرأة ، وقيل : إلا ثمانية رهط عن الكلبي وابن عباس ، وقيل : إلا أحد عشر رجلا عن ابن كيسان ، وقد روي عن جابر بن عبد الله مختصرا ، وفيه : لم يبق إلا اثنا عشر رجلا ، أخرجه أبو يعلى في مسنده ٤٠٥/٣، قال محققه وأخرجه مسلم في الجمعة ٨٦٣/ ٣٧، ٣٦، ٣٨، والبخاري في الجمعة رقم ٩٣٦، والبيوع ٢٠٥٨، ٢٠٦٤ـ ٤٨٩٥ والترمذي في التفسير ٣٣٠٨. والبيهقي في الجمعة ١٩٧/٣، والدار قطني في الجمعة ٥/٢، وفي التفسير ، والطبري في التفسير ١٠٤/٨، ١٠٣، والواحدي في أسباب النزول ص ٣١٩،٣٢٠ ، وفي تفسير النسائي ٤٢٩/٢، قريب من هذا التخريج . (١٢/ ٩٨ ط دار الكتب العلمية) .

(٤) وفي البرهان : (والذي نفسي بيده لو ابتدرتموها حتى لا يبقى معي أحد لسال الوادي نارا) البرهان ٣٧٩. وفي تفسير الطبري ٥٨/١ عن قتادة ، فقال : والذي نفسي بيده لو اتبع آخركم أولكم لالتهب عليكم الوادي نارا ، ومثله عن قتادة موقوفا ، وفي تفسير القرطبي ١١١/١٨، الحديث بلفظه عن الزمخشري .

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي :خير من توجه العباد إليه في [طلب] [١] الرزق ، فاجعلوا همكم طلب الرزق العظيم منه بتجارة الآخرة ، دون تجارة الدنيا ، فقد ضمن أرزاقكم في العاجلة ، وكلفكم إصلاح الآجلة [٢].

والله أعلم



(١) ومثله في البرهان ، و ما بين أقواس الزيادة من البرهان (انظر البرهان ٣٧٩) .

(٢) في كتاب فيه مسائل عن القاسم بن إبراهيم ، قال محمد بن القاسم : وسألته عمن يترك الأعمال يوم الجمعة وفيها من الرجال والنساء تعظيما لها ؟. قال : لقد بلغني أن بعض الصحابة كان يكره ذلك لما فيه من التشبه باليهود في تـــرك الأعمال يوم السبت ، ولقد بلغني أن عمر بن الخطاب عاتب رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أيضـــا عـــن التعجيل للجمعة ، فقال : أهذه الساعة ؟ فقال الرجل : كنت في السوق ، وهذا خلاف ترك الأعمال فيها تعظيما لها .



سورة الصف

أربع عشرة آية ، مدنية ، وقيل : مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[1] أراد : أن كلما فيهـا يقضـي لـه بالتسبيح ويحمل من نظر إليه على التسبيح ؛ لما في مصنوعاته من عجائب الحكمة ، وقد مر تفسيره ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قال الرازي :"العزيز : من عزَّ إذا غلب ، وهو الذي يغلب على غيره أي :شيء كان ذلك الغير ، ولا يمكن أن يغلب عليه غيره ، والحكيم : من حكم على الشيء إذا قضى عليه ، وهو الذي يحكم على غيره أي :شيء كان ذلـك الغير ، ولا يمكن أن يحكم عليه غيره".

فأخبر سبحانه أنه العزيز القادر ، والقاهر الذي ما أراد كان بلا كلفة ولا أعوان ، وأنه الحكيم : أي :المتقن لفطرته وجعله وخلقه ، الذي لا يتغير ما أثبت ، ولا يثبت ما غير ، الحسن التدبير ، الجيد التقدير ، الذي لا تفاوت في خلقه ، ولا فساد في تدبيره .

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي : لأيِّ سبب تقولون مالا تفعلون ؟ هذا يتناول الكذب ، وإخلاف الوعد .

---

(١) في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليهما السلام من تفسيره لهذه السورة ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبـي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام في قوله تعالى :﴿كبر مقتا عند الله﴾ يعني : عظم مقتا .

وقوله تعالى :﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾ معناه : منظم بعضه إلى بعض .

وقوله تعالى :﴿فلما زاغوا﴾ معناه : عدلوا .

وقوله تعالى :﴿كما قال عيسى بن مريم للحواريين﴾ الحواريون : هم صفوة الأنبياء عليهم السلام .

وقوله تعالى :﴿فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم﴾ معناه : قويناهم عليهم ﴿فأصبحوا ظاهرين﴾ معناه : قاهرين .

[سبب نزول الآية]

وهذه الآية نزلت في قوم قالوا قبل أن يؤمروا بالقتال : لو نعلم أحب الأفعال إلى الله لعملناه ، ولبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا ، فدلهم الله على الجهاد في سبيله فتثاقلوا عنه ، وفروا يوم أحد ، فعيرهم الله[1] .

وقيل : كان الرجل يقول : قَتَلْتُ و لم يَقْتُلْ ، وطَعَنْتُ و لم يَطْعَنْ ، وضَرَبْتُ و لم يَضْرِبْ وكان ذلك بعد وقعة بدر[2] .

قوله :﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ نصب على التمييز [3] والمقت : أشد البغض ، أي :عَظُمَ بُغْضًا ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي ﴿كَبُرَ﴾ مبالغة ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ هذا من أفصح الكلام وأبلغه في معناه ، قصد في ﴿كبر﴾ التعجب من غير لفظه ، ومعنى التعجب : تعظيم الأمر في قلوب السامعين ؛ لأنه لا يكون إلا من خارج عن نظائره لزيادته عليه[4] .

وقال الحسين بن القاسم عليه‌السلام :"هذا خطاب من الله عز وجل لهؤلاء المتسمين بالإيمان ، الذين آمنوا باللسان وكفروا بالجوارح والجنان ، وتكلموا بعد بما لا يفعلون ، فمقتهم الله فيما كانوا يقولون وعاتبهم في قبيح ما به يتكلمون ، ومقت الله عز وجل :

---

(١) ومثله في البرهان ص ٣٧٧ .

(٢) هذا القيل نشر للأول الذي هو الكذب ، وقوله : وهذه الآية نزلت في قوم .. الخ نشر للثاني الذي هو إخلاف الوعد ، وهذا لف ونشر غير مرتب . (انظر حاشية العلوي مخطوط ص ٣١٤) .

(٣) قال العلوي : والحق أن مقتا تمييز عن نسبة كبر إلى أن تقولوا كما أن نفسا تمييز عن نسبة الطيب إلى زيد في طاب زيد نفسا لا فرق بين الصورتين إلا في تقديم التمييز على الفاعل في الآية .

(٤) قال السيد العلوي رحمه الله في حاشيته على الكشاف ص ٣١٤: لما كان التعجب محال في حق الله تعالى ؛ لأنه حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء بين معناه هنا فكأنه قال : معنى هذا التعجب هو التعظيم ، ثم بين إفادة التعجب معنى التعظيم بقوله : لأنه لا يكون إلا من خارج عن نظائره .. الخ يعني أن التعجب يستلزم كون المتعجب منه خارجا عن نظائره فأطلق لفظ التعجب، وأريد كون الشيء خارجا عن نظائره ، فيكون مجازا ، أو يقال لما لم يعهد مثله: إنه عجب .

بغضه وعذابه ، ونقمته للكاذبين وعقابه ، فاحترزوا رحمكم الله عن هذا ومثله ، فقد سمعتم وعيد الله فيما نزل في هذه السورة من وحيه وتنزيله"[1] . اهـ

---

(١) قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام في تفسيره غريب القرآن (خ ١٣٥ ، ١٣٦)

بعد قوله : (من وحيه وتنزيله) :

(ومعنى ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾ والمرصوص : المصفوف بعضه إلى بعض ، لا يبرح ولا يتحول عن اصطفافه ولا يتزحزح ، ومعنى قوله :﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ يريد عز وجل لما زاغوا وما لوا عن الهدى ، أي : تركهم على الضلالة والميل والردى ؛ إذ لم يجبرهم على الثبات فصدوا ، ومعنى ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ معنى ذلك : أرادوا إهلاك الحق ومقال الدين الواضح المبين من الصدق ـ بكلامهم القبيح وكذبهم وبهتانهم ، وجهلهم وعمى قلوبهم وخذلانهم ﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ ومعنى ﴿ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ هو أن الله عز وجل وعد رسوله صلى الله عليه وآله بإظهار دينه وعلوه وارتفاعه على جميع الأديان ، فكان ما وعد به عز وجل من الظهور والبيان حتى علا دين خاتم النبيين ، وقهر بالحجج جميع المختلفين ، فلم تزل أئمة الهدى الذين [هو] جدهم قائمين وبكتاب ربهم لجميع الأمم قاهرين ، وأتى في الخبر عن الأئمة عن الرسول صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين أن معنى هذه الآية وتفسير ما ذكرنا من ظهور دين جدنا ونبيئنا وعلو دين ربنا وخالقنا عند ظهور رجل في آخر الزمان يقهر بدين جده جميع أديان الأمم ، ويبين فضل هذا الدين على أديان العرب والعجم ، وقد بينا ذلك بحمد الله بكل البيان ، وأوضحناه بأعظم الحجج والبرهان ، ولكن شغلهم عن ذلك زهدهم في الرحمن ، وقلة شوقهم إلى الثواب والجنان ، وتركهم للهرب من النيران ، وركاكتهم وتفريطهم في طلب الإيمان إلا نفر قليل ، خطرهم عند الله عظيم جليل ، تمسكوا بنا خوفا من العذاب ، وطمعا بالرحمة من الله والثواب ، فهم بما ذكرت عارفون ، وبعقولهم فيما ادعيت منصفون ، وإلا فأين حجة بعد الرسول أبين من حجتنا ، وأين درجة في دين الحق مثل درجتنا حتى نرجع إليه مسلمين ، ونقر بذلك إن رأيناه معترفين ، أرونا ذلك إن كنتم صادقين حتى نرجع لقولكم مصدقين ، فوالله ما تجدون من ذلك مثل معشار كلامنا من غير نقص وتقصير عند آبائنا ، وكيف يكون ذلك وبهم اقتدينا ، وبهدايتهم عليهم السلام اهتدينا ، وفي آثارهم إلى الجنة مشينا .

ومعنى قوله عز وجل :﴿في جنات عدن﴾ أي : في جنات وإقامة لا تزول ، ولا تغير أبدا ولا تحول ، ومعنى ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ أي : ذلك هو الظفر والربح الكثير ، والرزق الأعظم الأجل الكبير ، وأي :فضل أعظم وأفضل وأظفر وأجل وأنبل من حياة ليس بعدها موت ، ونعمة ليس بعد دركها فوت ، في الرحمة من الله والرضوان ، والحور العين الحسان ، وعجائب تحف الجنان .

ومعنى ﴿فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم﴾ فالتأييد : هو التقوية ، قال الشاعر : وأطرقني تحت صلب مؤيد

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾[١] أي : صافين أنفسهم ، أو مصفوفين صفوفا كالصلاة ؛ لأنهم إذا اصطفوا مثلا صفين كان أثبت لهم وأمنع لعدوهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين ، ذكره في البرهان [٢].

﴿كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ أي : كأنهم في تراصهم من غير فرجة بنيان رص بعضه إلى بعض ، أي : رُصِفَ ، وأُلْصِقَ ، فالمرصوص : هو المصفوف بعضه إلى بعض لا يتزحزح ولا يتحول عن اصطفافه ولا يبرح ، وقيل : معناه كالبنيان الذي ألحم بالرصاص [٣] قال الراجز[٤] :

ومعنى ﴿فأصبحوا ظاهرين﴾ هو فصاروا ظاهرين وعالين ، ولكن أصبح تقوم مقام صار ، وهما من الحروف التي ترفع الأسماء والنعوت وتنصب الأخبار ، وهي كان ، وصار ، وليس ، وأليس ، وأصبح ، وأمسى ، وظل ، وأضحى ، وبات وما دام ، وما انفك ، وما برح ، وما زال ، وما أشبه ذلك في اللفظ والمقال .

(١) في تفسير الرازي ، قرأ زيد بن علي (يقاتلون) بفتح التاء .

(٢) ذكره في البرهان خ ٣٧٧، وقال السيد العلوي : صفا .. كأنهم بنيان ـ حالان متداخلتان قال في الانتصاف : يريد أن معنى الأولى مشتمل على الثانية ، فإن هيئة التراص هي هيئة الاصطفاف ، قال صاحب الإنصاف ليس المراد بالتداخل هذا بل إن الحال الثانية وقعت جزاء من الحال الأولى ؛ لأن معنى صفا : مصطفين ، وفيه ضمير ، وقوله : ﴿كأنهم بنيان﴾ حال من الضمير المذكور فالحال الثانية داخلة في الحال الأولى ، وهي كقوله :﴿إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم﴾ وقال الطيبي : فرق بين الصورتين فإن قوله : ﴿صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾ مشبه ومشبه به ، والمشبه به في الحقيقة بيان للمشبه ووصف له ، وقلت : ثبوت الفرق بين الصورتين لا يقدح فيما قاله صاحب الإنصاف من أن التداخل عندهم هو ما ذكره . (انظر حاشية العلوي ٣١٥)

(٣) ذكره الفراء (الرازي ٢٩/٣١١) .

(٤) الحرقوص : دويبة صغيرة تنقب الأساقي وتقرضها ، وهي من جنس الجعلان ، إلا أنها أصغر منها ، وهي سوداء منقطة ببياض ، قالت أعرابية :

ما لقي البيض من الحرقوص ... من مارد لص من اللصوص

يدخل تحت الغلق المرصوص ... بمهر لا غال ولا رخيص

وقيل : هي دويبة صغيرة مثل القراد ، وقيل : هو النبر ، وقيل : دويبة كالبرغوث نبت له جناحان فطار (انظر لسان العرب ٦١٤/١ ترتيب يوسف خياط) .

ما لقي البيض من الحرقوصي   يفتح باب المغلق المرصوص

وللأول قول الشاعر :

وأسمر مرصوص بطين وجندل   له شرفات فوقهن نضائب

ومعنى قوله تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَ﴾ أي : واذكر يا محمد [1]حين قال ﴿مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ أي : لأي :سبب كانوا يؤذونه بأنواع الأذى ، من النقص والعيب في نفسه وجحود آياته وعصيانه وتكذيبه ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ﴾ أي : تؤذونني في حال كونكم عالمين يقينا ﴿أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ وقضية علمكم بذلك توجب تعظيمي لا أذيتي ؛ لأن من عرف الله وعظمته عظم رسوله ، وقد معناه : التوكيد [2] [كأنه] قال : وتعلمون علما يقينيا لا شبهة فيه .

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ يريد : لما زاغوا ، ومالوا عن الهدى ــ تركهم على الضلالة والميل والردى ، إذ لم يجبرهم على الثبات قصدا ، بل خذلهم وتركهم على زيغهم

---

(١) يعني أنه منصوب بإضمار اذكر .

(٢) ما بين أقواس الزيادة من الرازي ، والنص موجود فيه بلفظه . انظر الرازي ٣١٢/٢٩.

قال في الانتصاف : أهل العربية تقول : إنّ قد تصحب الماضي لتقريبه من الحال ، ومنه قول المؤذن : قد قامت الصلاة ، وتشتمل المصاحبة للماضي أيضا على معنى التوقع ، فلذلك قال سيبويه : قد فعل . جواب لما يفعل ، وقال الخليل : هذا الخبر لقوم ينتظرونه ، وأما مع المضارع فإنها تفيد التقليل مثل : ربما ، كقولهم : إن الكذوب قد يصدق ، فإذا كان معناها مع المضارع التقليل ، وقد دخلت في الآية على مضارع ــ فالوجه ــ والله أعلم ــ أن يكون هذا من الكلام الذي يقصدون به الإفراط فيما ينعكس عنه ، وتكون قد في هذا المعنى نظيرة ربما في قوله :﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ فإنها في هذا الموضع أبلغ من كم في التكثير ، فلما أوردت ربما في التكثير على عكس معناها الأصلي في التقليل ، فكذلك إيراد قد هاهنا لتكثير علمهم ، أي : تحقيق تأكيده على عكس معناها الأصلي في تقليل الأصل ، وعليه (قد أترك القرن مصفرا أنامله) وإنما مدح نفسه بكثرة هذا الفعل منه عكس ديدنه الأصلي ، ولا يقال : إن حملها في الآية على التكثير متعذر لأن العلم معلوم التعلق لا يتكثر ولا يتقلل ؛ لأنا نقول : يعبر عن تمكن الفعل وتحققه وتأكده وبلوغه الغاية في نوعه بما يعبر به عن التكثير ، وهو تعبير صحيح ، ألا ترى إلى قوله :﴿ربما يود الذين كفروا﴾ هو من هذا القبيل ، فإن المراد شدة ودهم لذلك ، وبلوغه أقصى منتهاه لا غير . انظر الكشاف ٥٣٤/٤.

عن الحق ، و لم يمدهم بألطافه لعدم قبولهم الهدى ، وقيل : معناه حكم بزيغها ، وقيل : المعنى فلما زاغوا عن الحق عاقبهم الله بعقاب الزيغ ، فسمي جزاء الزيغ زيغا .

وقال في **البرهان** :"فلما زاغوا عن الإيمان أزاغ الله قلوبهم عن الثواب ، وهذه الآية عامة في كل من زاغ عن الهداية والرشد والطاعة " .اهـ

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يريد المتمردين ، أي : لا يحكم لهم بالهدى ، ولا يسميهم به ، وقيل : إنما لم يهدهم ؛ لأنه لا لطف لهم ، لعلمه أنهم لا يقبلون الهدى ، والفسق إذا استعمل في نوع من المعاصي وقع على أعظم ذلك النوع من كفر وغيره ، وهذا تسلية له صلى‌الله‌عليه‌وآله مما كان يلقى من أذى قومه .

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى﴾ أي :واذكر حين قال عيسى **﴿ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾** أي : أمامي : أي : أرسلت حال تصديقي لما تقدمني **﴿مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا﴾** أي : وحال تبشيري [1]**﴿بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾** قرئ بسكون الياء في ﴿بعدي﴾ والخليل وسيبويه [2] يختاران الفتح ، أي : ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه ، من تقدم ومن تأخر .

وعن **كعب الأحبار** "أن الحواريين قالوا لعيسى : يا روح الله هل بعدنا من أمة ؟ قال : نعم أمة أحمد حكماء علما أبرار أتقياء ، كأنهم من الفقه أنبياء ، يرضون من الله باليسير من الرزق ، ويرضى منهم باليسير من العمل" ذكره في **التجريد** [3].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الدالة على صدقه **﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾**.

---

(١) قال الزمخشري : فإن قلت : بم انتصب مصدقا ومبشرا ؟ أبما في الرسول من معنى الإرسال أم بإليكم ؟ قلت : بل بمعنى الإرسال ؛ لأن إليكم صلة للرسول فلا يجوز أن تعمل شيئا ؛ لأن حروف الجر لا تعمل بأنفسها ، ولكن بما فيها من معنى الفعل ، فإذا وقعت صلات لم تتضمن معنى فعل فمن أين تعمل ؟ ٤/٥٢٥ كشاف . وهو هنا لا يريد عملها الجر ، وإنما عمل الفعل ، أي : أنها لا تعمل هنا عمل الفعل بنفسها لأنها لم تتضمن فعلا ، وذلك لوقوعها صلة

(٢) لأن الياء بمنزلة كاف الخطاب ، لأنها كلمة على حرف واحد فبنيت على الفتح فيختار الفتح لأنه الأصل .

(٣) انظر تجريد الكشاف مع زيادة نكت لطاف ، لعلي بن ابي القاسم (مخطوط) .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحق : هذا سحر ﴿ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ أي : لا أشد ظلما ممن يدعوه ربه إلى الإسلام ، الذي فيه سعادته في الدارين ، فجعل مكان إجابته إليه افتراء الكذب على الله ، بقوله لكلامه : إنه سحر ؛ لأن السحر كذب وتمويه ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي : لا يحكم لهم بالهدى ، أو لا يسميهم به ، لعلمه أنهم لا يقبلون الهداية .

قال في البرهان : "وهذه الآية عامة في الكفار والمنافقين .

وقوله تعالى :﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ تهكم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام ومقال الدين الواضح المبين بقولهم ـــ القبيح وبهتانهم في القرآن ـــ : هذا سحر.

﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي : ولو كرهوا ذلك فهو متم له على رغم أنوفهم قال فيه [1] : وهذه عامة في كل من أبطل أحكام رب العالمين ، وكذب بالأئمة الطاهرين ، والهداة المهتدين ، وإنما ضرب الله تعالى ذلك مثلا بالنور لمن أراد إطفاء نور الشمس بفمه ، فوجده مستحيلا ممتنعا ، كذلك من أراد إبطال نور الحق" . اهـ

ثم قال تعالى :﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ أي : محمدا صلى الله عليه وآله ﴿بالهدى﴾ وهو الدلالة الموصلة إلى الخير ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الملة الحنيفة ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ أي :يعليه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي :على جميع الأديان المخالفة له ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ وقد فعل ، فما بقي دين إلا وهو [2] مقهور بدين الإسلام .

مجاهد : إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض إلا دين الإسلام .

قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام : "معنى ﴿ليظهره على الدين كله﴾ هو أن الله عز وجل وعد رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بإظهار دينه ، وعلوه وارتفاعه على الأديان ، فكان ما وعد من الظهور والبيان ، حتى علا دين خاتم النبيئين ، وقهر بالحجج جميع المختلفين ، فلم تزل أئمة الهدى بدين جدهم قائمين ، وبكتاب ربهم لجميع الأمم قاهرين ، وأتى في

---

(١) أي : في البرهان ، انظر البرهان ص ٣٧٧، ٣٧٨.

(٢) في الكشاف : إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام .

الخبر عن الأئمة عن الرسول صلى الله عليه وآله أن معنى هذه الآية ، وتفسير ما ذكرنا من ظهور دين جدنا ، وعلو دين ربنا وخالقنا ، عند ظهور رجل في آخر الزمان يقهر بدين جده جميع أديان الأمم ، ويبين فضل هذا الدين على أديان العرب والعجم "[1] . اهـ

قوله :﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ .

قال في التجريد : نزلت جوابا في قولهم : لو نعلم أيَّ الأعمال أفضل وأحب إلى الله لعملناه وبذلنا فيه الوسع [2].

وسمى العمل الصالح تجارة ؛ لأنه ينال به الثواب والنجاة من النار ، فأشبه الربح .

وقوله :﴿تُؤْمِنُونَ﴾ استئناف كأنهم قالوا : كيف نعمل ؟ فقال : تؤمنون ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ خبر في معنى الأمر ، ولهذا أجيب بـ ﴿يغفر﴾ بالجزم ، وجيء به على لفظ الخبر إشعارا بوجوب الامتثال ، وهو أبلغ من الأمر في المعنى ، كأنه قد فعل ، وهو يخبر عن موجود [3].

---

(١) وفي مجمع البيان للطبرسي ٩/٣٥٤ روى العياشي بالإسناد عن عمران بن ميثم ، عن عبد الله أنه سمع أمير المؤمنين عليه السلام يقول :﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ : أظهر بعد ذلك ؟ قالوا : نعم قال : كلا فوالذي نفسي بيده ، حتى لا تبقى قرية إلا وينادى فيها بشهادة أن لا إله إلا الله بكرة وعشيا .

وفي تفسير القمي : بالقائم من آل محمد عليهم السلام ، حتى إذا خرج يظهره الله على الدين كله ، حتى لا يعبد غير الله وهو قوله : (يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا) ١/٣٧٨.

(٢) عزاه في الكشاف لابن عباس ٤/٥٢٧ .

(٣) قال السيد العلوي رحمه الله : قال الزجاج : قد غلط بعض النحويين فقال : ﴿يغفر لكم﴾ جواب ﴿هل أدلكم﴾ وذلك أنه ليس إذا دلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ما ينفعهم غفر الله لهم ، إنما يغفر الله لهم إذا آمنوا وجاهدوا وإنما هو جواب ﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون﴾ لأن معناه معنى الأمر أي : آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا يغفر لكم أي: إن فعلتم ذلك يغفر لكم ، ويدل عليه قراءة ابن مسعود ، وخلاصة هذا الكلام أن قوله :﴿تؤمنون بالله﴾ الخ بيان لجملة قوله :﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم﴾ على سبيل الاستئناف ، وقد علم أن البيان والمبين واحد ، فبهذا الاعتبار كان جوابا . وقال صاحب الانتصاف : هذا التأويل لا يحتاج إليه فإنه يلتحق بقوله :﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة﴾

ثم قال سبحانه :﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ﴾ ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من أموالكم وأنفسكم ؛ لما فيه من السعادة في دار الخلود ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم ؛ لأنكم إذا علمتموه أحببتم الإيمان [والجهاد] أكثر مما تحبون أنفسكم وأموالكم فتفلحون .

[فضل الجهاد]

قال الهادي عليه‌السلام :"إن قال قائل : أليس المؤمنون ــ ولله الحمد ــ عند الله من العذاب فمبعدون ؟ ومن غيرهم في يوم الدين فمميزون ؟ كما قال الرحمن الرحيم فيما نزل على نبيئه الكريم صلى الله عليه وعلى آله :﴿يوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون﴾ (١) وفي ذلك من تمييزهم ما يقول :﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون﴾ (٢) فأخبر تبارك وتعالى بالفرق بين المؤمنين والفاسقين ، وقص علينا ما يكون في عباده يوم الدين ؟ .

قيل له : إنما أراد الله الواحد الأحد ، المتقدس الفرد الصمد ، الدلالة على فضل الجهاد ، والقيام بالحق في الخلق والبلاد ، فدلهم بما قال ، وبما ضرب من التجارة في الأموال على أنه أفضل ، لاشيء عنده يعدل الجهاد ، ومن جميع ما افترض على العباد ، فنبههم للحظ والفضل المبين ، وأخبر أنه أعظم وأجزل ما يلقونه به يوم الدين ، وكيف لا يكون ما ذكر الله من الجهاد عنده كذلك ، ولا تكون تجارة عند الله سبحانه للعباد نجاة من

وأمثاله .... وقال أبو البقاء : ﴿يغفر لكم﴾ جواب شرط محذوف ، أي : إن تؤمنوا يغفر لكم ، أو جواب لما دل عليه الاستفهام ، أي : هل تقبلون إن دللتكم . حاشية العلوي ٣١٥، ٣١٦.

وقرأ الإمام زيد بن علي عليه‌السلام (تؤمنوا ... وتجاهدوا) ووجهها أنها جزمت على إضمار لام الأمر كقوله :

محمد تفد نفسك كل نفس إذا ما خفت من أمر تبالا (كشاف ٤/٥٢٧)

(١) الروم : ١٤ــ ١٦

(٢) السجدة : ١٨

العذاب والمهالك ، وبه تقوم أحكام رب العالمين ، ويحي دين خاتم النبيئين ، ويعز المؤمنون ويذل الفاسقون ، وتشبع الأكباد الجائعة ، وترفع الرقاب الخاضعة ، وتظهر حجج الحق الدامغة ، وتموت البدع الشائعة ، وتعلو وتظهر الخيرات ، وتماط وتنفى الفاحشات ، ويعمل في كل البلاد بالصالحات ، وينصر المظلومون ، ويردع الجائرون ، وتكسى الظهور والجنوب العاريات ، ويمات الظلم والشرور ، وتقضى عن الغارمين الغرامات ، فيالها من تجارة ما أربحها ، ودعوة ما أنورها ، لو كان لها من الأنام مجيبون ، أوفي هذه الأمة المخذولة طالبون ، ولكن لا طالب ولا تاجر فيها ، ولا مقبل إليها ، تعلقوا بالشبهات ، وتسلوا بالأمنيات ، وكرهوا الوفاة ، واستطابوا تافه الحياة ، ومالوا إلى غرور الدنيا ، وجروا واستبقُوا في ميادين الهوى ، وزهدوا في دار الخلد التي تبقى ، لانصب فيها ولا تعب ولا شقاء ، كأن لم يسمعوا الواحد العلي الأعلى يقول فيما نزل من الوحي على نبيئه المصطفى :﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾[1] ..'' إلى آخر كلامه عليه‌السلام.

ثم قال سبحانه :﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي :طاهرة من جميع الأقذار والأكدار ، كاملة الأوصاف .

وفي **التجريد** عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله في قوله :﴿ومساكن طيبة﴾ (قصر من لؤلؤ في الجنة ، في ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء ، في كل دار سبعون بيتا من زمرد أخضر ، في كل بيت سبعون سريرا ، على كل سرير سبعون فراشا من كل لون ، على كل فراش امرأة من الحور ، في كل بيت سبعون مائدة ، على كل مائدة سبعون لونا من

(١) العنكبوت : ٦٤ ، والكلام للإمام الهادي عليه‌السلام .

طعام ، في كل بيت سبعون وصيفا ووصيفة ، قال : فيعطى المؤمن من القوة في مقدار غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله» رواه الثعلبي والحاكم [١] .

ومعنى ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي :جنات إقامة وخلود لا انتقال عنها ﴿ذَلِكَ﴾ أي : الجزاء والربح في هذه التجارة ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي : الظفر الذي لا أعظم منه ﴿وَأُخْرَى﴾ أي :.ولكم إلى هذه النعمة المذكورة في الآجلة نعمة أخرى عاجلة ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ أي : محبوبة لكم

ثم فسرها فقال :﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ فتح مكة [٢] وقيل : فارس والروم ، وفي قوله :﴿تحبونها﴾ نوع توبيخ لهم على حب العاجل ، وقوله :﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوف على ﴿تؤمنون﴾ لأنه في معنى الأمر كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا .. إلى آخره ، وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك .

قوله تعالى :﴿ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ الحواريون : هم أصفياؤه [٣]كانوا أول من آمن به ، وكانوا اثني عشر ، وحواري الرجل صفيه الخالص من الحور ، وهو البياض الخالص ،

والتشبيه محمول على المعنى ، وعليه يصح ، أي : كونوا أنصارا لله ، كما قال الحواريون من أنصار عيسى حين قال لهم :﴿من أنصاري إلى الله﴾ وإلى بمعنى مع ، ومنه المثل "الذود إلى الذود إبل " أي : مع الذود .

---

(١) أورده في مجمع البيان ٣٥٦/٩، بلفظه عن الحسن عن عمران بن الحصين وأبي هريرة ، وهو في الترغيب والترهيب ٥١٦/٤ ، عنهما ، وقال : رواه الطبراني والبيهقي بنحوه ، وعزاه في موسوعة أطراف الحديث النبوي ٦٩٥/٦ إلى كتاب الزهد لابن المبارك ٥٥٠، وتفسير القرطبي ٨٨/١٨، والطبري ١٢٤/١٠، واللآلي المصنوعة للسيوطي ٢٥٤، وتنزيه الشريعة للعراقي ٣٨٢/٢، والدر المنثور ٢٥٧/٣ ، وموضوعات ابن الجوزي ٢٥٢/٣. وذكره الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه السورة (مخطوط) .

(٢) في مجمع البيان ٣٥٧/٩ فتح مكة عن الكلبي ، وقيل : يريد فارس والروم وسائر الفتوحات عن عطاء .

(٣) وسبق في تفسير الإمام زيد بن علي عليه‌السلام أن الحواريين هم صفوة الأنبياء عليهم‌السلام ، وفي مجمع البيان ٣٥٧/٩: الحواريين ، وهم خاصة الأنبياء وسموا بذلك لأنهم أخلصوا من كل عيب ، عن الزجاج .

وقال في **الكشاف** [1]: بل هي على معناها الأصلي ، أي :من جندي متوجها إلى نصرة الله وإضافة ﴿أنصاري﴾ خلاف إضافة ﴿أنصار الله﴾ فإن معنى ﴿نحن أنصار الله﴾ : نحن الذين ينصرون الله ، ومعنى ﴿من أنصاري﴾ من الأنصار الذين يختصون بي ؟ ويكونون معي في نصرة الله ؟ ولا يصح أن يكون معناه :من ينصرني مع الله ؟ لأنه لا يطابق قول الحواريين .

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ أي :ينصرون دينه **﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾** أي : صدقت بعيسى **﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾**.

وفي **التجريد** عن ابن عباس "يعني في زمن عيسى بن مريم أنه لما رفع تفرق قومه ثلاث فرق ، فرقة قالت : كان الله فارتفع ، وفرقة قالوا : كان ابن الله فرفعه إليه ، وفرقة قالوا: كان عبد الله ورسوله فرفعه ، وهم المؤمنون ، واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس فاقتتلوا فظهرت الفئتان الكافرتان على المؤمنين ، حتى بعث محمد صلى الله عليه وآله فظهرت الفرقة المؤمنة على الفرقتين الكافرتين ، قيل: بالحجة ؛ لأنه صلى الله عليه وآله وافقهم ، وقيل : بالسيف" [2].

﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾ التأييد : هو التقوية **﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾** أي : فصاروا عالين لهم .

وعن **زيد بن علي** عليه السلام : "بالحجة لا بالسيف" . والله أعلم .

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ووجوه التأويل ، تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، المتوفى سنة ٥٣٨ هـ . والنص في الكشاف : ٩٥/٤ ، "فإن قلت : ما معنى قوله :﴿من أنصاري إلى الله﴾ قلت : يجب أن يكون معناه مطابقا لجواب الحواريين :﴿نحن أنصار الله﴾ والذي يطابقه أن يكون المعنى : من جندي ؟ متوجها إلى نصرة الله وإضافة ﴿أنصاري﴾ خلاف إضافة ﴿أنصار الله﴾ فإن معنى ﴿نحن أنصار الله﴾ : نحن الذين ينصرون الله ، ومعنى ﴿من أنصاري﴾ من الأنصار الذين يختصون بي ؟ ويكونون معي في نصرة الله ؟ ولا يصح أن يكون معناه :من ينصرني مع الله ؛ لأنه لا يطابق الجواب ، والدليل عليه قراءة من قرأ (من أنصار الله)" .٥٢٨/٤.

(٢) وفي مجمع البيان ٣٥٧/٩ عن ابن عباس بلفظه .

سورة المودة
[الممتحنة]

ثلاث عشرة آية اتفاقا ، مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾(١) أي : أصدقاء .

(١) الولي : خلاف العدو ، والولاية : نقيض العداوة ، والمحبة والمودة من النظائر ، والمرضاة : للرضاء وهو خلاف الغضب . (التهذيب للحاكم الجشمي) .

في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليهما السلام من تفسيره لهذه السورة ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام في قوله تعالى :﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم﴾ فالعدو : واحد وجمع ، وتلقون إليهم : معناه تخبرونهم سرا أنكم على مودتهم ، وأنهم يقولون إياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، فلا تتخذوهم أولياء ، إن كنتم خرجتم جهادا في سبيل الله وابتغاء مرضاته .

وقوله تعالى :﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ يعني : جار عن وسط الطريق . وقوله تعالى :﴿إن يثقفوكم﴾ معناه : يلقوكم

وقوله تعالى :﴿لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾ معناه : لا تنصرهم علينا فيظنوا أنهم على حق ، ونحن على الباطل .

وقوله تعالى :﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن﴾ معناه : أختبروهن وجربوهن .

وقوله تعالى :﴿وآتوهم ما أنفقوا﴾ معناه : أعطوهم مهور النساء اللاتي يخرجن إليكم منهم مسلمات .

وقوله تعالى :﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ معناه : بحبلهن وسنتهن .

وقوله تعالى :﴿وإن فاتكم شئ من أزواجكم إلى الكفار﴾ معناه : أعجزكم أحد من الكفار ، معناه : إن ذهبت امرأة مسلمة فلحقت بالكفار من أهل مكة مرتدة ، وليس بينكم وبينهم عهد فاعطوا زوجها مهرها من الغنيمة بدل الخمس

وقوله تعالى :﴿فعاقبتم﴾ يعني : فأصبتم عقبى مثلهن ، ويقال : فغنمتم .

السبب : أن حاطب بن أبي بلتعة [١] كتب إلى قريش مع ضعينة [٢] يخبرهم أن رسول الله صلى الله عليه وآله يريدهم ، وذلك أيام تهيؤ النبي صلى الله عليه وآله للفتح ، فنزل جبريل بالخبر ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله في أثرها فرسانا فيهم علي عليه السلام إلى روضة خاخ [٣] فجحدت وحلفت فهموا بالرجوع ، فقال علي عليه السلام : والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسل سيفه فأخرجته من عقاص رأسها [٤] فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لحاطب : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : ما كفرت منذ أسلمت ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكني كنت ملصقا [٥] في قريش ، وكل من معك لهم قرابات بمكة يحمون أموالهم

---

(١) حاطب بن أبي بلتعة ، بفتح الموحدة ، وسكون اللام بعدها مثناة ثم مهملة مفتوحات ، ابن عمرو بن عمير بن سلمة بن صعب بن سهيل اللخمي ، حليف بني أسد بن عبد العزى ، يقال : إنه حالف الزبير ، وقيل : مولى عبيد الله ابن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد فكاتبه ، فأدى كتابته ، اتفقوا على شهوده بدرا ، وعلى قصته في كتابه إلى أهل مكة يخبرهم بتجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت الآية .

قال في الإصابة ٢٩٩/١ روى قصته ابن مردويه من حديث ابن عباس ، وروى ابن شاهين والباوردي والطبراني من طريق الزهري ، عن عروة عن عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة ، الخ بنحو هذا الحديث ، كما رواه ابن مردويه من حديث أنس وفيه نزول الآية ، ورواه ابن شاهين من حديث ابن عمر بإسناد قوي ، وفي الاستيعاب للقرطبي بهامش الإصابة ٣٤٧/١ : حاطب بن أبي بلتعة ، اللخمي من ولد لخم بن عدي ، في قول بعضهم ، ويقال : إنه من مذحج ، شهد بدرا والحديبية ، ومات سنة ٣٠ هـ بالمدينة ، وهوا بن خمس وستين سنة ، وصلى عليه عثمان ، وروى قصة كتابه إلى أهل مكة ، وقال : فبعث رسول الله في طلب المرأة علي بن أبي طالب وآخر معه قيل : المقداد بن الأسود ، وقيل : الزبير بن العوام . وفي مجمع البيان للطبرسي ٣٤٦/٩ مضمون القصة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث عليا وعمارا وعمر والزبير ، وطلحة والمقداد بن الأسود وأبا مرثد ، وذكر رواية البخاري ومسلم عن عبد الله بن أبي رافع ، قال : سمعت عليا عليه السلام يقول : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وآله والمقداد والزبير ، وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ضعينة ، معها كتاب ، فخرجنا ، وذكر نحوه ، وفي تفسير القمي ٣٧٤/٢ أن اسم المرأة : صفية .

(٢) الضعينة : أصلها الراحلة التي يرحل ويضعن عليها ، أي : يسار ، وقيل للمرأة : ضعينة . (علوي)

(٣) روضة خاخ ، موضع بقرب حمراء الأسد من المدينة ، وقيل : إنه موضع قريب من مكة ، والأول أصح ، تفسير الخازن ٢٨٨/٤.

(٤) أصل العقص : اللي وإدخال أطراف الشعر في أصوله . (علوي ٣١٢) .

(٥) ملصقا : أي : غريبا . ذكره في الكشاف

وأهاليهم غيري ، فأردت أن أتخذ عندهم يدا ، وقد علمت أن كتابي لا يغني عنهم من الله شيئا ، فصدقه رسول الله صلى الله عليه وآله" ومثل هذا في **البرهان** [١].

وفي رواية أن حاطب كتب إلى أهل مكة مع امرأة مولاة لبني عبد المطلب يقال لها : سارة ، جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من مكة إلى المدينة ، فقال صلى الله عليه وآله : أمسلمة جئت ؟ قالت : لا ، قال : أمهاجرة جئت ؟ قالت : لا ، قال : فما حاجتك ؟ قالت : ذهبت الموالي يوم بدر ، أي : قتلوا في ذلك اليوم فاحتجت حاجة شديدة ، فحث عليها بني عبد المطلب [٢] فكسوها وحملوها وزودوها ، فأتاها حاطب فأعطاها عشرة دنانير ، وكساها بردا ، واستحملها الكتاب إلى أهل مكة ، فبعث صلى الله عليه وآله عليا وعمر وعمارا وطلحة والزبير خلفها ، وهم فرسان فأدركوها..) الخبر كما مر آنفا[٣].

ثم فسر اتخاذهم الأولياء [فقال] عز وجل :﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾[٤] التي بينكم وبينهم والباء إما زائدة [٥] أو للسببية [٦] والمفعول محذوف ، أي تلقون إليهم أسرار رسول الله صلى الله عليه وآله بسبب المودة ، وكذلك ﴿تسرون إليهم بالمودة﴾[٧] .

---

(١) انظر البرهان خ ٣٧٥ . وتخريج هذه الرواية والرواية الثانية بعدها مذكور في تخريج الكشاف لابن حجر ٥١١/٤ وذكر الروايتين أيضا الحاكم الجشمي في تفسيره التهذيب خ .

(٢) في تفسير الرازي : مولاة لبني هاشم يقال لها : سارة ، وكذلك في تفسير الطبري ٥٧/١٨، وتفسير الخازن ٢٧٨/٤، تفسير ابن الجوزي ٢٣٠/٨، أما في تفسير القمي فقال : إن اسم المرأة صفية ٣٧٤/٢.

(٣) النص في تفسير الرازي وفي تفسير الطبري من عدة طرق ٥٧/٢١، وفي تفسير النسائي ٢/ ٤١٤ ووردت قصة حاطب عن علي ، وأخرجه البخاري كتاب الجهاد ، باب الجاسوس رقم ٣٠٠٧ وكتاب المغازي باب غزوة الفتح رقم ٤٢٧٤، وكتاب التفسير رقم ٤٨٩٠، ومسلم في صحيحه رقم ١٦/٢٤٩٤، وأبو داود رقم ٢٦٥٠، والترمذي رقم ٣٣٠٥ ، وفي في تفسير الخازن ٢٨٠/٤ وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٢٣٠/٨ وفي مجمع البيان للطبرسي ٣٤١/٩ .

(٤) الإلقاء : عبارة عن إيصال المودة ، والإفضاء بها إليهم ، يقال : ألقى إليه خراشي صدره ، وأفضى إليه بقشوره .

(٥) وهو قول الفراء وأبي عبيدة ، وابن قتيبة ، والجمهور ، ذكره ابن الجوزي في تفسيره . وهي زائدة مؤكدة للتعدي مثلها في ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ .

(٦) وهو قول الزجاج . أي : أنها ثابتة لا زائدة ، والمفعول محذوف كما ذكر .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : "يريد عز وجل النهي عن المودة للكافرين ، الذين باينوا الله والمؤمنين ، ولا يجوز لأحد أن يكاتبهم ، ولا يوادهم ، [ولا يذل] ولا يخضع لهم (١).

---

(٧) أي : تفضون إليهم بمودتكم سرا ، أو تسرون إليهم أسرار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسبب المودة .

(١) **ما بين القوسين من تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام ، وقال فيه بعد هذا الكلام :**

ومعنى ﴿يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم﴾ هو أنهم فعلوا ذلك لئلا تؤمنوا بالله ، ومعنى قوله عز وجل :﴿إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي﴾ على التقديم والتأخير ، وهو راجع إلى قوله :﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾ ﴿إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي﴾ ولكن قدم وأخر .

﴿ومن يفعل ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ يريد عز وجل أن من كاتب أعداء الله ، وأرسل إليهم بالمودة فقد ضل سواء السبيل . السواء : هو الوسط ، والسبيل : هو طريق الإسلام ، الذي جعله الله برحمته لجميع الأنام .

ومعنى ﴿إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء﴾ يريد : إن يظفروا بكم ويستمكنوا منكم ، قال الشاعر :

فإما تثقفن بني لؤي جذيمة إن قتلهم دواء

﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم﴾ يريد عز وجل أنه لا ينفع أحدا من الناس مواصلة ذوي الأرحام ، بل النفع في هجرتهم غضبا لذي الجلال والإكرام ، ومعنى ﴿يفصل بينكم﴾ هو : يفرق بينكم ، ولا ينفعكم في ذلك اليوم مواصلتكم ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة﴾ أي : مساواة حسنة بإبراهيم ومشابهة وقدوة ، وبمن تبعه وهاجر قرابته وكان معه ﴿إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم﴾ والبراءة : هي المقاطعة والمباينة ، ومعنى ﴿كفرنا بكم﴾ هو تبرأنا منكم وعاديناكم ، قال الشاعر :

كفرت به حين احتبى بكسائه

﴿وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء﴾ ومعنى ﴿بدا﴾ هو : ظهر وبانَ بيننا وبينكم ، حتى لم يخف ولم نكتم عداوتنا لكم أبدا ﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ . ومعنى ﴿وإليك أنبنا﴾ هو : رجعنا وتبنا . ومعنى ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾ يريد : عند توبتهم ورجعتهم سيجعل المودة والمحبة بينكم وبينهم ، وهو جعل أمر وحكم . ثم قال عز وجل فرقا بين المحاربين منهم وبين المسيئين في فعلهم ، الذين لا يطعنون على أولياء الله ولا في دينهم :﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ فرخص بهذا القول في مكاتبتهم ، والانتفاع في بعض الأوقات بهم ، ولكن لا يجوز مع ذلك الركون ولا تجاب دعوتهم ، ولا تؤكل ذبائحهم ، ولا تقبل شهادتهم ، ولا تجوز ولايتهم ، بل يحترز منهم ، ولا يشر إليهم ولا يتكل في أكثر الأمور عليهم ، ولكن تقضى حوائجهم ويلقون الكلام الجميل فيهم ، ويكرمون ويوعظون في غفلتهم .

ثم قال سبحانه :﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ الذي فيه نجاتكم وسعادتكم ، وهو القرآن ودين الإسلام .

﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ من مكة ، وهو معطوف على الرسول ، وقوله :﴿أَنْ تُؤْمِنُوا﴾ تعليل ليخرجون ، أي : يخرجونكم لأجل إيمانكم ﴿بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي﴾ أي : للجهاد في حق ديني ولأجله ﴿وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ عنكم"

ثم قال عز وجل :﴿إن الله يحب المقسطين﴾ يعني : المحسنين ، والقسط : هو العدل والإحسان ، والمقسط : هو المحسن العدل في أفعاله ، والقاسط : هو الجائر عن الحق في فعله ومقاله ، وهذان وجهان متضادان متغايران ، وهما في الكلام واللفظ متقاربان ، فافهم الفرق بينهما ، وميز بين تفسير معناهما ، ومعنى ﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم﴾ يعني ظاهروا ، أي : عاونوا على إخراجكم ، فنهى عز وجل عن بر أولئك ، ومكاتبتهم ، وأمر بعداوتهم ومقاطعتهم ومنابذتهم ومحاربتهم . ومعنى قوله :﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن﴾ يريد : فاختبروهن ﴿فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار﴾ إلى قوله :﴿وآتوهم ما أنفقوا﴾ روي ـ والله أعلم ـ أن هؤلاء الكفار الذين أمر الله عز وجل برد ما أنفقوا إليهم ، وأمروا أن يعوضوا بدل نسائهم المهاجرات ما أنفقوا من المهور والصدقات قوم كانوا معاهدين ، وقيل : إنه ما كان ليردوا إليهم عوضا لو كانوا محاربين ؛ لئن الله قد أحل من المحاربين أكثر من الأموال من سفك دمائهم وقتلهم عند القتال وأخذهم وهلاكهم في كل الأحوال . ومعنى قوله :﴿ولا جناح عليكم﴾ أي : لا مأثم عليكم ، والجناح : هو المأثم قال الشاعر :

فبالله لو أرسلت فيهن مطلقا وقالوا تخير ما عليك جناح

يريد : ما عليك مأثم . ومعنى ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ العصم : هي عقد النكاح . ومعنى ﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾ وروي في هذه الآية أن الله عز وجل أمر لمن ذهبت زوجته إلى الكفار المحاربين بمثل ما أعطاها تؤخذ له من أموال الكافرين ، وتكون عوضا له من الغنيمة التي أخذت عند معاقبة المشركين ، وفي هذا نظر سنبينه إن شاء الله تعالى . ومعنى قوله :﴿يبايعنك﴾ هي البيعة اليمين والعهد والميثاق ومعنى :﴿ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾ والبهتان : هو الكذب . والافتراء : هو الاختراق والاختراع للمحال بأنفسهن اللواتي ما بين أيديهن وأرجلهن . ومعنى ﴿قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ يريد كما يئس المشركون الذين حصلوا في القبور ، فصاروا في ترك التوبة في حياتهم بمنزلة الأموات الذين في قبورهم ، ويحتمل وجها آخر : وهو أنهم قد يئسوا من الوعد والوعيد والحساب ، وجحدوا ما وعد الله من الثواب والعقاب ، كما جحد الكفار بعث أهل القبور ، ويئسوا لهم من البعث والنشور .

وقال عليه‌السلام : "معنى الآية على التقديم والتأخير ، وهو راجع إلى قوله :﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ... إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي﴾ ولكنه قدم وأخر[١]. اهـ

وقوله :﴿إن كنتم خرجتم﴾ متعلق بـ ﴿لا تتخذوا﴾ أي لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي ، فهو شرط حذف جوابه لدلالة ما قبله عليه[٢] .

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ تفضون إليهم بمودتكم سرا [٣] أو تسرون إليهم أسرار رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله بسبب المودة ، وهو استئناف معناه : أيُّ طائلٍ لكم في إسراركم ، وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان في علمي [وأنا مطلع رسولي على ما تسرون] [٤] وفيه نوع من تأكيد التوبيخ ، ولذلك قال سبحانه :[﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ و لم يقل : بما أسررتم وما أعلنتم ، مع أنه أليق بما سبق ، وهو ﴿تسرون﴾ وذلك لأن فيه من المبالغة ما ليس في ذلك، فإن الإخفاء أبلغ من الإسرار ،دل عليه قوله : ﴿يعلم السر وأخفى﴾ أي : أخفى من السر] [٥].

﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أي : الإسرار ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي : أخطأ وسط طريق الحق والصواب ، وهو الطريق إلى الإسلام ، الذي جعله الله برحمته لجميع الأنام .

---

(١) قال الزجاج : هو شرط جوابه متقدم ، أي : لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء .

(٢) إشارة إلى أن قوله :﴿إن كنتم خرجتم﴾ متعلق بـ﴿لا تتخذوا﴾ وأن جوابه محذوف غير منوي ، وأنه قد جعل تتميما للكلام السابق ومبالغة فيه كما يقال : لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي ، ولو قيل : إن كنتم أوليائي لا تتولوا أعدائي لم يكن بذلك ، لأن الشرط في الأول كالتعليل للنهي يقتضي حصول مضمونه قبل ذلك ، وفي الثاني بمجرد التعليق ، ومحله على الحالية من فاعل لا تتخذوا ، أي : لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ، والحال حال خروجكم في سبيل الله وابتغاء مرضاة الله .

(٣) أي : أنه ضمن تسرون معنى تفضون وعدي تعديته ، فالباء هنا زائدة للتوكيد ،والمفعول هو مودتكم ، وقوله : أو تسرون . هو الوجه الثاني وهو كون المفعول محذوف والباء سببية .

(٤) ومثله في الكشاف ، وما بين أقواس الزيادة من الكشاف ٥١٢/٤.

(٥) طه : ٧ . والنص بين المعقوفين مثله في تفسير الرازي ٢٩٩/٢٩.

ثم قال تعالى :﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي : إن يظفروا بكم ، والثقف : الأخذ بقدرة [1] ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ أي : خالصي العداوة ، ولا يكونوا لكم أولياء ، كما أنتم لهم ، والمعنى : إن يثقفوكم تظهر عداوتهم لكم ، ويعظم أثرها ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ﴾ أي : بالقتال والشتم ﴿وَوَدُّوا﴾ تمنوا ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي : ترتدون عن دينكم ، الذي فيه سعادتكم ، فإذاً مودتهم خطأ عظيم[2] .

(﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قراباتكم ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الذين توالون الكفار من أجلهم [وتتقربون إليهم محاماة عليهم] ثم قال :﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ وبينهم ،كقوله : ﴿يوم يفر المرء من أخيه﴾ [3] فمالكم ترفضون حق الله [مراعاة] لحق من يفر منكم غدا ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ من الموالاة وغيرها)[4] .

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ﴾ أي : إقتداء ، وهي اسم لما يُؤتَسَى أي : يُقتَدَى به[5] وقرئ بضم الهمزة أسوة ﴿حَسَنَةٌ﴾ مرضية ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين التابعين

---

(١) يثقفوكم : يصادفوكم ويجدوكم ، يقال : ثقفته أثقفه ثقفا ، وأنا ثاقف ، ومنه ثقيف ، ومنه المثاقفة طلب مصادفة في المسافة . (التهذيب للحاكم) .

(٢) ذكر في الكشاف أنه أورد جواب الشرط ماضيا فقال : ﴿وودوا﴾ وعدل عن المضارع لنكتة ، وهي كأنه قيل : وودوا قبل كل شئ كفركم وارتدادكم ، قال السيد العلوي : وذلك لأن أعظم متمنى الكفار ، والأهم لديهم كان ارتداد المسلمين ولانحسام مادة العداوة به صرح بتمنيهم إياه عدل إلى لفظ الماضي لبيان الأولوية ، والأولية ، وتحريره : أنه تعالى لما نهى المسلمين عن اتخاذ من يعاديهم أولياء بقوله : ﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾ وأراد أن يخبر عن مطوي سرائرهم من تمنيهم للمسلمين عثار الدنيا والدين ، وانتهاز الفرصة لتحقق متمناهم قال : ﴿إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء﴾ كما قررنا فظهر أن الجزاء مقدر ، وهذا دال عليه ، وهو من إطلاق السبب على المسبب . (علوي ٣١٣)

(٣) عبس : ٣٤

(٤) ما بين القوسين مثله في الكشاف ، وما بين أقواس الزيادة منه (انظر الكشاف ٥١٣/٤) .

(٥) وفي الرازي : الأسوة لما يؤتسى به مثل القدوة لما يقتدى به ، يقال : هو أسوتك ، أي : أنت مثله وهو مثلك ، وجمع الأسوة أسى ، فالأسوة لكل ما يقتدى به ٣٠٠/٢٩.

لأثره ، وقيل: هم الأنبياء ﴿إذْ قَالُوا﴾ أي : وقت قالوا ﴿لقَوْمِهِمْ﴾ الكفار منهم ﴿إنَّا بُرَآءُ منكُمْ وَممَّا تَعْبُدُونَ منْ دُونِ اللهِ﴾ فكاشفوهم بالعداوة ، وأفصحوا عن محض الإخلاص ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي : بدينكم ، وبمعبودكم من دون الله ، والمعنى : أنكرناكم وقطعناكم ﴿وبَدَا﴾ أي : ظهر وبان ﴿بيْنَنا وبيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ حتى لم نخف ، ولم نكتم عداوتنا لكم ﴿أبَدًا﴾ مادمتم كافرين ﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ لا تشركوا به شيئا .

(إن قيل : ما الفائدة في قوله :﴿وحده﴾ والإيمان به وبغيره من اللوازم ، كما قال : ﴿كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾[1] ؟ .

قيل له : ـــ ولا قوة إلا بالله ـــ والإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر من لوازم الإيمان بالله وحده ؛ إذ المراد من قوله :﴿وحده﴾ هو وحده في الإلهية ، ولاشك في أن الإيمان بإلهيته وبإلهية غيره لا يكون إيمانا بالله ؛ إذ هو الإشراك في الحقيقة ، والمشرك لا يكون مؤمنا)[2] .

وقوله :﴿إلَّا قَوْلَ إبْرَاهِيمَ لِأبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ مستثنى من أسوة أي : قد كانت لكم في مكاشفتهم أسوة ، بقول إبراهيم صلى الله عليه وآله ماخلا وعده لأبيه بالاستغفار[3].

قال ابن عباس : كانت لكم أسوة حسنة في صنيع إبراهيم ، إلا في استغفاره لأبيه وهو مشرك ، فإنه لا يجوز الاستغفار للمشركين .

وقد روى السيد العلوي عن الزمخشري أنه قال : القدوة والأسوة لكل واحد منهما معنيان ، أحدهما : الإقتداء والإئتساء وهو الأصل ، والثاني : المقتدى به والمؤتسى به ، والآية تحتمل الأمرين (علوي ٣١٣) وقال الحاكم الجشمي في تفسيره : الأسوة : القدوة ، ولي فيه أسوة وهو أن يفعل مثل فعله متأسيا به ، وتأسى به أي : اقتدى به .

(١) البقرة : ٢٨٥.

(٢) ومثل ما بين القوسين موجود في الرازي بلفظه (٢٩/٣٠١) .

(٣)قال السيد العلوي : والظاهر أنه استثناء منقطع لاختلاف القولين .. قال أبو البقاء :﴿إلا قول إبراهيم﴾ هو استثناء منقطع من غير الجنس ، إلا تأتسوا به في الاستغفار للكفار .

وقوله :﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لم يقع عليه الاستثناء ؛ إذ لا يحسن استثناؤه ، لكنه تابع للوعد الذي وقع عليه الاستثناء ، كأنه قال : أنا أستغفر لك ، وما في طاقتي إلا الاستغفار دون الغفران[1] .

وقوله :﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ متصل بما قبل الاستثناء من جملة الأسوة الحسنة ، ويجوز أن يكون المعنى : قولوا : ربنا ، أمراً ، أمر المؤمنين أن يقولوا : أسندنا جميع أمورنا إليك [وتعليما منه لهم]تتميما لما أوصاهم به من قطع علائق الكفار ، والإئتساء بإبراهيم وقومه[2].

﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أي : رجعنا وتبنا عما لا يرضيك ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع يوم القيامة ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي : لا تجعلنا موضع فتنة لهم ، أي : موضع عذاب لهم ، يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا ، أو تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حق فيفتتنوا بذلك

﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ القادر على إجابة دعوتنا ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل شيئا إلا الحكمة وصواب .

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ﴾ إبراهيم والذين معه ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ كرره تأكيدا وتقريرا[3] وقوله :﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ بدل من ﴿لكم﴾ في ﴿قد كانت لكم

---

(١) قال الزمخشري في الكشاف ٥١٤/٤ : فإن قلت : فإن كان قوله :﴿لأستغفرن لك﴾ مستثنى من القول الذي هو أسوة حسنة فما بال قوله :﴿وما أملك لك من الله من شئ﴾ وهو غير حقيق بالاستثناء ألا ترى إلى قوله :﴿قل فمن يملك من الله شيئا﴾ قلت : أراد استثناء جملة قوله لأبيه ، والقصد إلى موعد الاستغفار له ، وما بعده مبني عليه وتابع له كأنه قال : أنا أستغفر لك وما في طاقتي إلا الاستغفار .

(٢) ومثله في الكشاف ، وما بين أقواس الزيادة منه وزاد في الكشاف بعد قوله : والإئتساء بإبراهيم وقومه : وتنبيهــا على الإنابة إلى الله ، والاستعاذة به من فتنة أهل الكفر ، والاستغفار مما فرط منهم . (انظر الكشاف ٥١٤/٤)

(٣) ولذلك جاء به مصدرا بالقسم ؛ لأنه الغاية في التأكيد ، وأبدل عن قوله :﴿لكم﴾ قوله :﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ وعقبه بقوله :﴿ومن يتول الله فإن الله هو الغني الحميد﴾ فلم يترك نوعا من أنواع التأكيد إلا جاء بــه (انظر الكشاف ٥١٤/٤) .

أسوة حسنة﴾ ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ يعرض عن الإتساء بإبراهيم والذين معه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عنه وعن موالاته ، وهو المحتاج إليه ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستوجب للحمد على عباده وإن لم يحمدوه .

قال **الرازي** : والحميد قد يكون بمعنى الحامد ، وبمعنى المحمود ، فالمحمود : هو الذي يستحق الحمد من خلقه بما أنعم عليهم ، والحامد: [أي] يحمد الخلق ويشكرهم ، حيث يجزيهم بالكثير من الثواب عن القليل من الأعمال (١).

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ يا مسلمون ﴿وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ﴾ مشركي مكة ﴿مَوَدَّةً﴾ بأن يهديهم للدين ، فيصيرون لكم أولياء وإخوانا ، وقد فعل ذلك بعد الفتح فأسلم قومهم ، وتم بينهم من التحاب ماتمّ، و ﴿عسى﴾ وعد من الله على عادة الملوك ، حيث تقول في بعض الحوائج : عسى ولعل ، فلا تبقى شبهة للمحتاج في تمام ذلك ، أو قصد [به] إطماع المؤمنين .

﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على تقليب القلوب وتيسير أسباب المودة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢)لمن أسلم من المشركين .

ولما رأى تشددهم في عداوة آبائهم وأبنائهم وأقاربهم وعدهم بعسى كما مر ، ورخص لهم في صلة من لم يقاتلهم فرقا بين المحاربين منهم وبين المسيئين(٣) في فعلهم ، الذين لا يطعنون على أولياء الله [في فعلهم] (٤) ولا في دينهم فقال :

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ من مكة ﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ قيل : خزاعة (٥)كان لهم عهد ، فأمرهم الله تعالى ، أن يبروهم بالوفاء ، حتى نسخت بآية السيف ، ذكره في **البرهان** (٦).

---

(١) تفسير الرازي ٣٠٢/٢٩ ، وما بين المعقوفين منه وكذلك تصحيح بعض الألفاظ منه .

(٢) في تفسير القمي ٣٧٥/٢ قال : وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام في قوله تعالى :﴿عسى ربكم أن يجعل بينكم﴾ إلى قوله :﴿والله غفور رحيم﴾ : فإن الله أمر نبيه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والمؤمنين بالبراءة من قومهم ماداموا كفارا ، فقال :﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم﴾ إلى قوله :﴿والله قدير والله غفور رحيم﴾ .

(٣) هنا اشتباه في اللفظ هل هو (المسيين) بلون (في فعلهم) لأنه يحتمل أن يكون مكانها هو موضع أقواس الزيادة .أو ما أثبتناه

(٤) ما بين القوسين زيادة ليستقيم الكلام .

وقيل : من لم يهاجر من مكة [١] وقيل: نزلت في قتيلة [٢] أم أسماء بنت أبي بكر أتت بنتها أسماء مشركة بهدايا من مكة ، فلم تأذن لها بالدخول ، ولا القبول حتى أذن لها صلى الله عليه وآله ففعلت [٣].

وقيل : إنها منسوخة بقوله تعالى :﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ الآية [٤]

وقيل : بقوله :﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون﴾ [٥] .

وقيل : إنها لا تنافي النهي عن موالاة المشركين ؛ لأن هذه في البر بين المسلمين والمشركين ، وإن كانت الموالاة منقطعة ، وهي المحبة والنصرة ، ذكر معناه **الواحدي**

وقال في **البلغة** :"لما عوتب حاطب بن أبي بلتعة ، وأمر المؤمنين بالبراءة من المشركين بين أنه لا ينهى المسلمين عن حسن العشرة ، ولين القول مع الكفار الذين لم يقاتلوهم ، ولم يخرجوهم من ديارهم ، فرقا بينهم وبين المحاربين ".اهـ

وهذا هو الأولى ، وهو معنى كلام الواحدي ، ويدل عليه أنه ذكر البر ولم يذكر الموالاة . والله أعلم .

وقوله :﴿أن تبروهم﴾ بدل من ﴿الذين لم يقاتلوكم﴾ أي : لا ينهاكم عن برهم وصلتهم

---

(٥) قال في الرازي : وهم خزاعة إلى قوله : وهذا قول ابن عباس والمُقَاتِلَيْن والكلبي ، وروي عن الحسن البصري .

(٦) انظر البرهان ص ٣٧٦. وقد نسب الكشاف هذا القول إلى قتادة ٥١٦/٤.

(١) في تفسير الرازي : وهو قول مجاهد ، وكذلك في الكشاف ٥١٦/٤.

(٢) وفي تفسير الطبري ٦٢/١٨ عن عبد الله بن الزبير ، نزلت في أسماء بنت أبي بكر ، وكانت لها أم في الجاهلية يقال لها : قتيلة ابنة عبد العزى الخ ، وفي تفسير الخازن نفس الرواية ٢٨١/٤.

(٣) هذا القول هو قول عبد الله بن الزبير .

(٤) المجادلة : ٢٢

(٥) التوبة : ٢٩

﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي: تعدلوا فيهم بالإحسان، وناهيك ــ بتوصية الله المؤمنين، أن يقسطوا مع المشركين، ويتحاموا ظلمهم ــ مترجمة عن حال مسلم يجتري على ظلم أخيه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ القائمين بحق الرحامة.

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: "يعني المحسنين، والقسط: هو العدل والإحسان، والمقسط: هو المحسن العدل في أفعاله، والقاسط: هو الجائر عن الحق في فعله ومقاله، وهذان وجهان متضادان، وهما في الكلام متقاربان فافهم الفرق بينهما، وميز تفسير معناهما"[1].اهـ

قال المرتضى عليه السلام[2]: "هذا إطلاق من الله سبحانه لأوليائه في المسالمة والمعاملة والمكاتبة لمن لم يطعن عليهم، ولم يقاتلهم ولم تبن العداوة منه لهم، ممن كان مهادنا لهم مخالفا، وذلك أن الله تبارك وتعالى لما حظر على أوليائه الموالاة والموادة والمكاتبة لمن كان حاربهم، وأخرجهم من ديارهم، وأبان العداوة لهم، فلما منعهم سبحانه منهم امتنعوا منهم ومن غيرهم ممن كان من أحلافهم، طلبا لرضاء الله، ومباينة لأعدائه، فأخبرهم الله سبحانه أنه إنما نهاهم عمن حاربهم وطعن عليهم وقاتلهم، فأما من لم يطعن عليهم ولم ينقض عهدهم، لم يُنْقَضْ عهدُه وذمتُه، فهم على ما كان بينهم حتى ينقضوه بفعلهم فإذا كان ذلك منهم وجب عليهم الترك والمباينة، والمعاداة لهم". اهـ

ثم أخبر سبحانه عما نهاهم عنه، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي: عن تولي الذين قاتلوكم في الدين بسبب الإيمان والدخول فيه ﴿وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ﴾ والمظاهرة: المعاونة، أي: وعاونوا على إخراجكم، فنهى عز وجل عن بر أولئك ومكاتبتهم، وأمر بمقاطعتهم وعداوتهم ومنابذتهم ومحاربتهم ﴿أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ أي: عن أن تولوهم، وهو بدل من ﴿قاتلوكم﴾ ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم بموالاة أعداء الله وموادتهم

---

(١) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام أوائل هذه السورة.

(٢) تقدمت ترجمته في الجزء الأول ص ٢٧.

ثم قال سبحانه :﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾[١] سماهن مؤمنات ، لنطقهن بالشهادة ، و لم يظهر فيهن ما ينافيها ، أو لمشارفتهن [لثبات] [٢] الإيمان بالامتحان .

﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي : فاختبروهن بالحلف ، والنظر في الأمارات .

وكان صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول للممتحنة :(بالله الذي لا إله إلا هو ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، بالله ما خرجت التماس دنيا ، بالله ما خرجت إلا حبا لله ورسوله ، بالله ما خرجت من بغض زوج) [٣].

---

(١) قال الجشمي في التهذيب : الهجر : ضد الوصل ، وهو الأصل في الباب ، قال الأزهري : المهاجرة عند العرب خروج البدوي من البادية إلى المدن إذا أقام بها ، وهاجر القوم من دار إلى دار تركوا الأولى للثانية ، وتهجر : إذا تشبه بالمهاجرين ، وفي الحديث (هاجروا ولا تهجروا) قاله عمر ، والهُجر : الهذيان ، والهجر : الفحش في المنطق لأنه هجر الصواب . والامتحان : الاختبار يقال : امتحنت الذهب والفضة إذا أذبتها لتختبرها حتى خلصت الذهب والفضة ، واصله من المحنة . والعصمة : سبب به يمنع من المكروه ، وجمعه عصم ، والاعتصام : التمسك بالشيء ، واعتصم به : امتنع به ، وكلما يتمسك به فهو معصم ، وأصل الباب المنع ، ومنه ﴿والله يعصمك من الناس﴾ ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله﴾ والعصمة : العقدة ، يقال : عصمة المرأة بيد الرجل . الكوافر : جمع كافرة كقابلة وقوابل ، وزانية وزواني ، فعلى هذا كوافر جمع النساء ، وقيل : هي على تقدير فرقة كافرة ، وفرق كوافر ، ويقع على الرجال والنساء ، وقيل : كوافر جمع كافر ، وقد يجمع فاعل على فواعل إذا كان اسما كفارس وفوارس ، وخالد وخوالد قال جرير :

أخالد قد علقتك بعد هند فتنسيني الخوالد والهنود

وقيل : فواعل جمع فاعل إذا أجري بها مجرى الاسم ، وإذا أجري بها مجرى الصفة ، في جمع فاعلة ، وكافر أجري مجرى الاسم ، قال تعالى :﴿فمنكم كافر﴾ و لم يقل : رجل كافر .

قال الرازي في قوله تعالى :﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات ... إلى قوله ﴿والله عليم حكيم﴾ : في نظم هذه الآيات وجه حسن معقول ، وهو أن المعاند لا يخلو من أحد أحوال ثلاثة ، إما أن يستمر عناده ، أو يرجى منه أن يترك العناد ، أو يترك العناد ويستسلم ، وقد بين الله تعالى في هذه الآيات أحوالهم ، وأمر المسلين أن يعاملوهم في كل حالة على ما يقتضيه الحال .

(٢) في الكشاف : أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان ٥١٧/٤، وفي الرازي : أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان ، فاستحسنا كتابة [لثبات] لهذا .

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ منكم ، يعني بما في قلوبهن بعد امتحانهن ، ولو حلفتموهن ، لكن ذلك جهدكم ، والتحقيق عند الله تعالى [١].

والسبب في نزول هذه الآية : أن رسول الله صلى الله عليه وآله هادن قريشا عام الحديبية ، فقالت قريش : على أن ترد إلينا من جاءك منا ، و[لا] [٢] نرد عليك من جاءنا منك ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : على أن نرد إليكم من جاءنا منكم ، ولا تردون علينا من جاءكم منا ، من اختار الكفر على الإيمان أبعده الله ، فعقد الهدنة بينه وبينهم على هذا ــ إلى أن جاءتهم منهم أم كلثوم ابنة عقبة ابن أبي معيط ، وقيل: إن زوجها جاء في طلبها ،فقال: يا محمد قد شرطت لنا رد النساء ، ورطب [٣] الكتاب لم يجف بعد ، وهذه امرأتي فارددها علي فلما طلب المشركون رد من أسلم من النساء منع الله من ردهن بعد امتحان إيمانهن بقوله :﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ (أي : العلم الذي في وسعكم ، وهو الظن الغالب) [٤] ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ (أي : إلى أزواجهن المشركين) [٥] و لم

---

(٣) الحديث في الرازي ٣٠٥/٢٩. وفي الطبري من طريق ابن عباس ٦٤/١٢. وفي الكشاف بتقديم وتأخير ، وانظر تخريجه في الكشاف ٥١٧/٤.

(١)قال الزمخشري ٥١٨/٤: فإن قلت : ما فائدة قوله :﴿الله أعلم بإيمانهن﴾ وذلك معلوم لا شبهة فيه ؟ قلت : فائدته بيان أن لا سبيل لكم إلى ما تطمئن به النفس ويثلج به الصدر من الإحاطة بحقيقة إيمانهن ، فإن ذلك مما استأثر به علام الغيوب ، وأن ما يؤدي إليه الامتحان من العلم كاف في ذلك ، وأن تكليفكم لا يعدوه .

(٢) في الأصل : ونرد ، والصحيح ما أثبتناه بين قوسي الزيادة ، وفي البرهان مثل الأصل ، ونرد (البرهان ٣٧٦) .

(٣) كذا في الأصل ، ومعناه أن الشئ الرطب في الكتاب سواء كان الطين الذي يجفف به حبر الورقة ، كما ورد في مجمع البيان ، أو طية الكتاب ، وفي البرهان (وطين) وفي مجمع البيان (وطينة) وفي الكشاف (وطينة) وفي الكشاف أن التي جاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية ، فأقبل زوجها مسافر المخزومي ، وقيل : صيفي بن الراهب ، وفي الرازي الروايتين ، سبيعة ، وأم كلثوم ، وزاد الرازي وكانت هربت من زوجها عمرو بن العاص ، ومعها أخواها عمارة والوليد فرد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخويها وحبسها ، فقالوا : ارددها علينا ، فقال عليه السلام : كان الشرط في الرجال دون النساء ..

(٤) وفي هذا دليل على أن الظن الغالب وما يفضي إليه الاجتهاد جار مجرى العلم ، ولذا سماه الله علما . وما بين القوسين زيادة عما في البرهان ، وكذلك ما بين المعقوفين بعد هذا ، وما بين أقواس الزيادة ، وتصحيح الألفاظ من البرهان ، ومن قوله : سبب نزول الآية .. إلى قوله :﴿لا هن حل لهم﴾ مثله في البرهان بلفظه إلا ما جعلناه بين المعقوفين .

يشترط ردهن [في العقد] لفظا ، وإنما أطلق العقد في رد من أسلم ، فكان ظاهر العموم اشتماله عليهن مع الرجال فبين الله خروجهن من العموم ، وفرق بينهن وبين الرجال لأمرين : ــ أحدهما : أنهن ذوات فروج ، يحرمن عليهم .

والثاني : أنهن أرق قلوبا ، وأسرع تقلبا منهم ، فأما المقيمة منهن على الشرك فمردودة عليهم ، وقد كان من أراد منهن إضرار زوجها قالت : سأهاجر إلى محمد ، فلذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بامتحانهن .

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ الحل : بمعنى الحلال ، أي لا يحل أحدهما للآخر

﴿وَآتُوهُمْ﴾ أي أزواجهن ﴿مَا أَنفَقُوا﴾ يعني بالنفقة مهور من أسلم منهن ، إذا سأل ذلك أزواجهن ، وهاجرن إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مؤمنات ، راغبات في الحق ومسلمات.

قال الهادي إلى الحق عليه السلام :"وهن أم الحكم ابنة أبي سفيان [١] كانت عند عياض بن شداد الفهري[٢] ومرة ابنة ربيعة ، يقال لها : بروع [٣]كانت تحت شماس بن عثمان المخزومي ، وعمرة ابنة عبد العزيز [بن] نضله [٤]ويقال : هند بنت أبي جهل كانت تحت هشام بن العاص بن وائل السهمي ، فهؤلاء اللواتي هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعطى رسول الله أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهور ، وكان مما أعطاهم فيه من

---

(٥) من قوله : ولم يشترط .. إلى قوله :﴿لا هن حل لهم﴾ تعليل لعدم رد النساء إلى المشركين .

(١) في تفسير الرازي : أم الحكيم . وفي الكشاف : أم الحكم .

(٢) عياض بن غنم بن زهير بن أبي شداد الفهري ، شهد بدرا وأحدا والخندق ، والمشاهد ، وكان يقال له : زاد الراكب ؛ لأنه كان يطعم رفقته ما كان عنده ، وإن كان مسافرا آثرهم زاده ، فإن نفد نحر لهم جمله .زاد المسير ٢٤٣/٨

(٣) هي بروع بنت عقبة ، كما في تفسير الخازن وفي الكشاف أيضا ٥١٩/٤.

(٤) في تفسير الخازن ٢٨٣/٤ ، وعمرة بنت عبد العزيز بن نضلة ، وتزوجها عمرو بن ود . وفي الكشاف ٥١٩/٤ : عبدة بنت عبد العزى بن نظلة ، وتزوجها عمرو بن عبد ود .

الغنيمة وكان مما أعطى في ذلك عمر بن الخطاب كانت عنده قريبة[1] ابنة أمية بن المغيرة المخزومي ، فلما هاجر أدارها على الهجرة فأبت عليه ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله ما أنفق عليها ، ولم تكن آمنت ولا هاجرت ، وتزوجها معاوية بن أبي سفيان ، وهو كافر يومئذ ، وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضا ما أنفق على امرأته أم كلثوم ابنة جرول الخزاعي ، حيث أبت أن تهاجر معه[2] .

ثم قال سبحانه ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي لا إثم ﴿أَنْ تَنكِحُوهُنَّ﴾ يعني المؤمنات إذا أسلمن عن أزواج مشركين ، أباح نكاحهن للمسلمين إذا انقضت عدتهن ، أو غير مدخول بهن .

﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ غير ما دفع إلى أزواجهن .

وعن **الضحاك**[3] كان بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين المشركين عهد : لا تأتيك منا امرأة ليست على دينك إلا رددتها إلينا ، فإن دخلت في دينك ولها زوج أن ترد على زوجها الذي أنفق عليها ، وللنبي صلى الله عليه وآله وسلم من الشرط مثل ذلك .

قال **قتادة**[4] : ثم نسخ هذا الحكم وهذا العهد ﴿براءة﴾ ذكره في **التجريد** .

---

(١) ذكر الزمخشري أن اسمها فاطمة بنت أبي أمية ، وهي أخت أم سلمة وكانت تحت عمر بن الخطاب (٥١٩/٤).

(٢) عن الزهري : طلق عمر بن الخطاب امرأتين كانتا بمكة مشركتين ، قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة فتزوجها معاوية بن أبي سفيان ، وهما على شركهما بمكة ، والأخرى أم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية ، وهي أم ابنه عبيد الله ، فتزوجها أبو جهم بن حذافة بن غنم ، وهما على شركهما . تفسير الخازن ٢٨٣/٤. وبعض المفسرين يطلق عليها كلثوم بدون لفظ أم ، ومثل ما ذكره الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام ذكر الثعلبي ، ثم البغوي عن ابن عباس بلا إسناد

(٣) وقد ذكره البغوي هكذا عن ابن عباس بدون إسناد ، وانظر الكشاف ٥١٨/٤.

والضحاك : هو الضحاك بن مزاحم الهلالي ، البلخي ، الخراساني ، ابو القاسم ، ويقال : أبو محمد ، المتوفى سنة ١٠٥هـ وقيل : ١٠٢ هـ وقيل : ١٠٦هـ ، تابعي ، محدث ، مفسر ، مشهور ، روى عن أنس ، وابن عمر ، وأبي هريرة ، وجماعة من التابعين ، قال سفيان الثوري : خذوا التفسير عن أربعة ، مجاهد وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والضحاك . مات بخراسان ، وله تفسير استخدمه الثعلبي ، والطبري عن طريق الرواية ، وبواسطة النقول من المراجع المختلفة . (انظر معجم المفسرين ٢٣٧/١) .

(٤) ومثله في الكشاف ٥١٨/٤

ثم نهى تبارك وتعالى عن نكاح الكوافر فقال سبحانه :﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ جمع عصمة ، وهي ما يعتصم به من عقد أو سبب ، أي : لا يكون بينكم وبينهن علقة زواجة ، فإن العصمة لا تبقى بين المشركة والمؤمن ، المعنى : إن لحقت بالمشركين واحدة من نسائكم فلا تمسكوا نكاحها [1].

والمذهب الشريف : أن اختلاف الدينين يغني عن الطلاق في رفع النكاح ، ويكون ذلك فسخا لا طلاقا .

﴿وَاسْأَلُوا﴾ يا مسلمون ﴿مَا أَنفَقْتُمْ﴾ من مهور أزواجكم .

قال في البرهان :"يعني أن المسلم إذا ارتدت زوجته ، إلى ذي العهد من المشركين المذكورين أن يرجع عليهم بمهرها ، كما ذكرنا أن للمشرك أن يرجع بمهر زوجته إذا أسلمت ، فإن لم يكن بينهم عهد شرط فيه الرد فلا يرجع ، وللأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يعقدوا في أعصارهم على قدر مصالح الخلق من العهود والعقود والشروط ما كان لأبيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وقته " [2] .

﴿وَلْيَسْأَلُوا﴾ الكفار ﴿مَا أَنفَقُوا﴾ من مهور نسائهم المهاجرات ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي جميع ما ذكر في هذه الآية ﴿حُكْمُ اللَّهِ﴾ وقوله :﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ كلام مستأنف [أو حال من ﴿حكم الله﴾ على حذف الضمير] أي : يحكم الله بينكم ، وهذا من أحكامه ، أو جعل الحكم حاكما على المبالغة [3]﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل معلوم ، ومنه كيفية الحكم على الصحيح ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يحكم إلا بالصواب .

---

(١) قال ابن عباس : من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدن بها من نسائه ؛ لأن اختلاف الدارين قطع عصمتها منه ، وعن النخعي : هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر . وعن مجاهد : أمرهم بطلاق الباقيات مع الكفار ومفارقتهن (انظر الكشاف ٥١٨/٤) .

(٢) انظر البرهان ص ٣٧٦.

(٣) المعنى لا يستقيم إلا بالزيادات التي أثبتناها ، وقد اعتمدنا في إثباتها الكشاف ؛ لأن مثل اللفظ الذي أثبته المصنف موجود فيه (انظر الكشاف ٥١٨/٤، ٥١٩) .

روي (لما نزلت [هذه]الآية أدى المسلمون ما أمروا به ، وأبى المشركون أن يؤدوا مهور من لحقت بهم إلى المسلمين فنزل قوله :﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ﴾ يا مسلمون ، أي : انفلت منكم وسبقكم ﴿شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي : أحد منهن أوقع ﴿شيء﴾ موقع أحد[1] لفائدة ، وهو ألا يترك شيء من جنس الأزواج وإن قل غير معوض عنه تغليظا في هذا الحكم ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي : أصبتم وغنمتم من أموالهم ، وقيل : من العقبة وهي النوبة ، شبه ما حكم به على الفريقين تارة بتارة بأمر يتعاقبون فيه ، كما في الركوب وغيره ، ومعناه : فجاءت عقبتكم من أداء المهر .

وقال الزجاج [2]: وعاقبتم : من المعاقبة ، أي فكانت المعاقبة لكم على المشركين والظفر. ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ أي : فاعطوا الأزواج من رأس الغنيمة مثل ما أنفقوا على زوجاتهم اللاحقات بالمشركين ، أي : مثل مهرها الذي أعطاها قيل : من مهر المهاجرة ، ولا تؤتوه زوجها الكافر .

وفي البرهان :"أن من فاتته زوجته بارتدادها إلى أهل العهد المذكور و لم يصل إلى مهرها منهم ، ثم غنمهم المسلمون ردوا عليه مهرها من أموال غنائمهم[وفيئهم]" [3] .

قال الحاكم :"ورد المهر من الجانبين منسوخ ، وكذا رد مهر من فاتته زوجته".اهـ

قيل : وجميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين ست نسوة [4] رجعن عن الإسلام ، وأعطى رسول الله أزواجهن من الغنيمة مهور نسائهم .وقوله :﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ تشديد في التوصية

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما دخل مكة عام الفتح بايعه الرجال ، وجاء النساء فأمر أميمة[5] أخت خديجة ابنة خويلد خالة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن تبايع النساء عنه

---

(١) وقد قرأ ابن مسعود (وإن فاتكم أحد) (انظر الكشاف ٥١٨/٤) .

(٢) انظر الكشاف (٥١٩/٤) .

(٣) البرهان : ٣٧٦، ٣٧٧.

(٤) وهن اللواتي تقدم ذكرهن عن الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام .

فإن قيل : فما معنى مبايعته لهن ، ولسن من أهل الجهاد ، فتؤخذ عليهن البيعة ؟ .

فالجواب : أن بيعته لهن تعريفا لهن ما عليهن من حقوق الله تعالى وحقوق أزواجهن ؛ لأنهن دخلن في شرع لم يعرفن حكمه ، فبينه لهن ، وكان أول ما أخذ عليهن ألا يشركن بالله شيئا توحيدا له ، ومنعا من عبادة غيره [1].

وقوله :﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ يتضمن النهي عن الخيانة في الأموال ، والنقصان من العبادة ، فإنه يقال : أسرق [من] السارق من سرق من صلاته .

ثم قال :﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ يحتمل حقيقة الزنى ، ودواعيه ، على ما قال صلى الله عليه وآله وسلم : (اليدان تزنيان والعينان تزنيان والرجلان تزنيان ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه) [2] .

ثم قال :﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ يريد : وأد البنات ، الذي كانت الجاهلية تفعله .

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ﴾ البهتان والافتراء : هو الكذب [3] أي : لا يأتين بولد فينسبنه إلى الزوج ، يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم ، لأن المرأة كانت تلتقط ولدا فتلحقه بزوجها ولدا﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾ أي : ما أخذنه لقيطا ﴿وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي : ما ولدنه من

---

(٥) أميمة : هي أميمة بنت رقيقة ، وأمها : رقيقة بنت خويلد بن أسد ، أخت خديجة ، قال ابن حجر في (الإصابة) كانت من المبايعات ، وهي خالة فاطمة الزهراء .

وأورد ابن الأثير بأنها بنت خالتها ، فإن خويلدا والد خديجة هو والد رقيقة لا أميمة ، وورد عن طريق ابن المنكدر أنه سمع أميمة بنت رقيقة تقول : بايعت النبي صلى عليه وآله وسلم في نسوة ، فقال لنا : فيما استطعتن وأطقتن ، فقلن : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، وقال في الإستيعاب : أميمة بنت رقيقة ، أمها : رقيقة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى ، أخت خديجة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهي أميمة بنت عبد بن أبجاد بن عمير ، بن الحارث ، روى عن أميمة بنت رقيقة محمد بن المنكدر ، وابنتها حكيمة بنت أميمة (الإصابة ٢٣٤/٤) .

(١) من قوله تعالى :﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات﴾ إلى قوله : ومنعا من عبادة غيره . مثله في البرهان ٣٧٧.

(٢) من قوله : وقوله :﴿ولا يسرقن﴾ إلى قوله : أو يكذبه . مثله في الرازي والحديث فيه بنصه ٣٠٨/٢٩.

(٣) قال الحاكم في التهذيب : البهتان : الباطل والافتراء والاختلاق بمعنى ، وهو الكذب ، والمعروف : ما تعرف صحته عقلا وشرعا ، وضده المنكر ، والتولي : أخذ بعضهم وليا ، واليأس : ضد الرجاء ، وهو قطع الطمع على اليقين.

زنا ، وقيل: كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذبا ، لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين ، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين [١].

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ المعروف : كل فعل كان لله فيه طاعة ولرسوله ، والمنكر : كل فعل كان فيه معصية لله ولرسوله ، يعني فيما يأمرهن به من المحسنات ، وينهاهن عنه من المقبحات ، وقد علم أنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يأمر إلا بالمعروف إلا أنه نبه بذلك على أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، فكان جديرا بغاية التوقي .

وقوله :﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ جواب إذا ، أي إذا بايعنك على هذه الشرائط [فبايعهن ، واختلفوا في كيفية المبايعة]فقيل : بايعهن بالكلام [وقيل]: بايعهن وبين يده وأيديهن ثوب .

وقيل : كان يشترط عليهن البيعة ، وعمر يصافحهن ، قاله الكلبي [٢] .

وقيل : دعا بقدح فيه ماء فغمس يده فيه [ثم غمسن أيديهن] وما مست يد رسول الله صلى الله عليه وآله يد امرأة قط [٣].

---

(١) قال الجشمي في التهذيب : ﴿ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾ يعني : لا يأتين بكذب في مولود وجد بين أيديهن وأرجلهن . قال ابن عباس : لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن ، وقيل : هو السحر ، وهو السعي بالنميمة فذلك بين أرجلهن ، وما يعمل باليد مما يوهم عن أبي مسلم،وقيل : كانت المرأة تلتقط الولد وتقول لزوجها : هذا ولدي منك فذلك البهتان المفترى عن الفراء ، وقيل : المراد لا يقذف بعضهن بعضا ، وقيل : أراد بالبهتان ما نهي عنه من جميع ما يتعلق به من إلحاق ولد بالزوج ليس منه ، أو سعي بالنميمة ، أو قذف المحصنات والكذب على الناس ، وقيل : الخيانة للزوج في المال والنفس من خلفه ، والرمي بالعظائم بين يديه ، وقيل : البهتان والافتراء واحد ، ومعناه أن تأتي ببهتان عظيم من زنا أو غيره ثم تفتري بذلك على غيره فيكون هوا لفاعل لذلك وترمي به غيره .

(٢) الكلبي : هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي ، ابو النضر ، عالم مفسر ، مشهور في التفسير والأنساب وأخبار العرب ، مولده ووفاته بالكوفة ، وفاته سنة ١٤٦هـ روى عن الشعبي وجماعة ، استدعاه والي البصرة سليمان بن علي العباسي ، ففسر القرآن بالبصرة ، أخرج له أبو داود في المراسيل ، والترمذي ، وابن ماجه ، في التفسير ، وشهد وقعة دير الجاجم مع ابن الأشعث ، من كتبه (تفسير القرآن) مخطوط في مكتبات استانبول (انظر معجم المفسرين ٢/٥٣٠) .

فإن قيل :ما الفائدة في قوله تعالى :﴿بين أيديهن وأرجلهن﴾ وما وجهه ؟ .

قيل : منهم من قال : المرأة إذا التقطت ولدا ، فإنما التقطته بيديها ، ومشت برجلها إلى أخذه ، فإذا أضافته إلى زوجها فقد أتت ببهتان تفتريه بين يديها ورجليها .

وقيل: يفترينه على أنفسهن حيث يقلن:[هذا] ولدنا ، وليس كذلك ، إذ الولد ولد الزنى.

وقيل : الولد إذا وضعته أمه سقط بين يديها ورجليها ـــ والله أعلم [1] .

ثم أمر تعالى رسوله بالاستغفار لهن فقال عز وجل :﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهن ويرحمهن ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا﴾ أي : لا تصـــافوا ﴿قَوْمًـــا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ والمغضوب عليهم جميع العصاة المذنبين .

وقيل : فيما روي أن بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ، ليصيبوا من ثمارهم

وقيل : كانوا يخبرون اليهود بأخبار المسلمين يتوصلون بذلك إلى أن يصيبوا من ثمارهم فنهاهم الله عن ذلك ، أي : لا توادوهم لمنافع دنيوية .

﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ من أن يكون لهم حظ فيها ، لعنادهم رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وسلم مع علمهم بأنه حق بما نعت لهم في التوراة .

﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أي : من موتاهم أن يرجعوا أحياء .

وقال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : "معنى ﴿يئس الكفار﴾ يريد كما يئس المشركون ، [مـــن] الذين حصلوا في القبور فصاروا في ترك التوبة في حياتهم بمنزلة الأموات ، الذين في قبورهم .

---

(٣)قوله : وقيل : دعا بقدح ..الخ أخرجه ابن سعد عن الواقدي عن أسامة بن زيد ، عن عمرو بن شعيب نحوه ، وله شاهد في الطبراني عن عروة بن مسعود ، وآخر في تاريخ أصبهان لأبي نعيم في حرف الحاء ، من حديث أسماء بنـــت يزيد . (انظر الكشاف ٥٢١/٤) .

(١) من قوله : فإن قيل : ما الفائدة .. إلى قوله : والله أعلم ، مثله في الرازي ٣٠٨/٢٩، ٣٠٩.

ويمكن أن يضاف إلى هذه الأوجه التي ذكرها ما ذكره المصنف أولا وهو قوله : ﴿بين أيديهن] ما أخذنـــه لقيطـــا ، و﴿بين أرجلهن﴾ ما ولدنه من زنا ، وقيل : كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجهـــا كذبا ؛ لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين ، وفرجها الذي تلده بين الرجلين .

ويحتمل وجها آخر : وهو أنهم قد يئسوا من الوعد والوعيد والحساب ، وجحدوا ما وعـــدوا الله من الثواب والعقاب ، كما جحد الكفار بعث أهل القبور، ويئسوا من البعث والنشور". اهــ

وقيل : ﴿من أصحاب القبور﴾ بيان للكفار أي كما يئس الكفار المقبورون من خـــير الآخرة ؛ لأنهم علموا ذلك بعد موتهم ،

ومثل هذا في **البرهان** [1] وهذا أظهر . والله أعلم

---

(١) ولفظ البرهان ٣٧٧: ﴿قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ بعد المعاينة من ثواب الآخرة ؛ لأنهم قد تيقنوا العذاب . اهــ

و﴿من﴾ على هذا الوجه الذي ذكره المصنف بيانية ، أي : يئس الكفار أصحاب القبور من ثواب الآخرة .

قال الحاكم الجشمي في تفسيره التهذيب : ﴿قد يئسوا من الآخرة﴾ قيل : يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس الكفـــار من النشأة الثانية عن ابن عباس ، وقيل : يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس منه أصحاب القبور ؛ لأنهم أيقنوا بعـــذاب الله عن مجاهد . وقيل : يئسوا من الآخرة ـــ اليهود كما يئس كفار العرب أن يحيا أهل القبور عن الحسن ، وقيل :هم أعداء المؤمنين من قريش يئسوا من خير الآخرة كما يئس سائر الكفار من أصحاب القبور من حظ الآخرة .

وقيل : كما يئس الكفار أن ينال الموتى في القبور جزاء ، وقيل : كما يئس الكفار من لقاء أقاربهم وأصدقائهم الموتـــى بخلاف المؤمنين . وقيل : كما يئسوا أن ينالهم خير من أصحاب القبور .

قال : وتدل الآية أن الاستغفار لا يقع إلا بهذه الشرائط ، فيبطل قول المرجئة في الشفاعة .

سورة الحشر

أربع وعشرون آية باتفاق القراء ، مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [1] قد مر تفسير التسبيح ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القادر على كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل شيئا إلا بعدل وحكمة .

---

(١) التسبيح : التنزيه والبراءة من السوء ، والمعنى : سبّحَ لله أي : نزّهَهُ كلُّ شيء بأن دل على توحيده وعدله ، وكأنه ينطق بتنزيهه (انظر التهذيب ٤٩٠، ٤٩٢) .

في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليهما السلام من تفسيره هذه السورة ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام في قوله تعالى :﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم﴾ معناه : الخروج من أرض إلى أرض ، وهو الحشر ، ويقال : القتل .

وقوله تعالى :﴿ذلك بأنهم شاقوا الله﴾ معناه : حاربوا الله ، وعادوه .

وقوله تعالى :﴿ما قطعتم من لينة﴾ معناه من نخلة وهو ألوان النخل ما خلا العجوة ، أو البرني .

وقوله تعالى:﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ فالدولة : في الملك والسير التي تغير وتبدل ، والدولة بفتح الدال في الجيش ، يهزم هذا ثم يهزم الهازم ، فيقال : قد رجعت الدولة على هؤلاء .

وقوله تعالى :﴿والذين تبوءوا الدار﴾ معناه : نزلوها .وقوله تعالى :﴿ولو كان بهم خصاصة﴾ معناه فقر وحاجة .

وقوله تعالى :﴿ومن يوق شح نفسه﴾ معناه يمنع بخل نفسه .

وقوله تعالى :﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة﴾ معناه : حسد .وقوله تعالى :﴿ولا تجعل في قلوبنا غلا﴾ يعني : غشا .

وقوله تعالى :﴿لأنتم أشد رهبة﴾ معناه : خوف . وقوله تعالى :﴿تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى﴾ معناه : متفرقة .

وقوله تعالى :﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله﴾ يعني : تركوا طاعته .

وقوله تعالى :﴿المهيمن﴾ هو الشاهد لكل شئ ، والمهيمن من الناس : المؤتمن على الشيء .

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني بني النضير ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يريد عز وجل أخرجهم من نواحي المدينة ، ومنازلهم بالحجاز ، وهم نفر من اليهود كانوا هنالك ، فخرجوا صاغرين[١] كانوا صالحوا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم ألا يكونوا عليه [ولا له][٢] فلما غلب يوم بدر ، قالوا : هو الذي في التوراة لا ترد له راية[٣] فلما غلب يوم أحد ارتابوا فحالفوا[٤] قريشا ، فأصبحهم[٥] بالكتائب ، فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة، وكان عبد الله بن أبي المنافق وعدهم بالنصرة ، قال ﴿لئن أخرجتم لنخرجن معكم﴾[٦] فلما قذف الله الرعب في قلوبهم طلبوه الصلح ، فأبى عليهم إلا الجلاء ، فجلوا إلى الشام ، وطائفة إلى خيبر ، وطائفة إلى الحيرة ، وأطلق لهم أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤا من متاعهم .

قوله :﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ متعلق أخرج[٧] أي : أخرجهم عند أول الحشر ؛ لأنهم أول من أجلاه من اليهود ، وحشرهم جمعهم إلى أرض الشام[٨].

قال في التجويد : وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء ، وهم أول من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام ، إلى أذرعات[٩] وآخر حشرهم إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام إلى أريحا[١٠].

---

(١) صاغرين : أي : ذليلين مهانين

(٢) ما بين القوسين زيادة في الكشاف ٤/٤٩٨، والبرهان ٣٧٢.

(٣) كناية عن نصرته ، وعدم خذلانه .

(٤) أي : عاهدوا ، وتحالفوا تعاهدوا .

(٥) في الأصل (فأصبحهم) وفي الكشاف (فصبحهم) (٤/٤٩٨) .

(٦) الحشر : ١١

(٧) ذكر في (الانتصاف) أن اللام هنا لام التأريخ ، كقوله : كتبته لعام كذا ، أو لشهر كذا ، وقيل : هي لام العلة ، والمعنى : أخرجوا ليكون حشرهم إلى الشام أول الحشر ، وقيل : هو بمعنى في . تمت علوي ٣٠٨ ، ومثل هذا في الرازي ٢٩/٢٧٨.

(٨) ومثل هذا في البرهان ٣٧٢، والحشر : الجمع من سوق ومنه ﴿وحشرناهم﴾ وكل جمع حشر ، تهذيب ٤٩١.

(٩) أذرعات : بلد في أطراف الشام تجاور أرض البلقاء وعمّان .

قال في البلغة :" ورد في الخبر أن الله تعالى يبعث نارا قبل يوم القيامة تطرد النـــاس إلى الشام ، وتنزل إذا نزلوا ، وترتحل إذا ارتحلوا ،وتقوم عليهم ساعة في الشام ، وهو قولـــه تعالى :﴿أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ الآية [1] ثم تقوم الساعة وهـــو الحشر الثاني ، ولهذا قيل لخروج بني النضير إلى ناحية الشام : أول الحشر .اهـ ومثله في التجريد.

وقال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام :"إن معنى قوله تعالى :﴿لأول الحشر﴾ هـــو أنهم خرجوا صاغرين من أجل ما رأوا وشاهدوا من أول الجمع جمع المؤمنين فزعا ورهبة لجمع خاتم النبيئين [2] .

---

(١٠) أريحا : مدينة في من أرض الأردن بالشام ، قال في زاد المسير ، وهي مدينة فلسطينية ، وهي الآن تحت الاحتـــلال الإسرائيلي اليهودي . وانظر الكشاف ٤٩٩/٤.

(١) في الأصل ﴿ألم تر أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ ولا يوجد في القرآن آية بهذا اللفظ ، والموجود هو مـــا أثبتناه هنا (سورة الرعد : ٤١) وفي (سورة الأنبياء : ٤٤) بلفظ ﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾.

(٢) قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام في تفسيره غريب القرآن :

تأويل قول مولانا عز وجل :﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر﴾ يريد عز وجـــل أنه أخرجهم من نواحي المدينة وهم نفر من اليهود كانوا هنالك فخرجوا صاغرين لأول الحشر ، وأصل الحشر : هـــو الجمع ، فخرجوا من أجل ما رأوا وشاهدوا من أول الجمع جمع المؤمنين فزعا ورهبة بجمع خاتم النبيين .

ومعنى قوله :﴿ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله﴾ يريد أنهم ظنوا أن حصونهم تمنعهم من أمر الله الذي أمر به المسلمين من جهاد الكفرة البغاة المحاربين ، ومعنى ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾ يريد عز وجل : من حيث لم يعلموا و لم يقدروا ، و لم يظنوا ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ يريد : رمى في قلوبهـــم بـــالخوف والفـــزع والرعب والهرب والفزع ، قال الشاعر :

نالت عصاي جناحها وعاجلها يهتز يهرب منها وهو مرعوب

ومعنى قوله :﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ هو أنهم فيما روي كانوا يهدمون بعض السقوف لينتفعوا بها عند خروجهم وهربهم ، ومعنى قوله :﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ هو تفكروا يا ذوي العقول في هذا الرعـــب الـــذي قذفه الله في قلوبهم حتى أخربوا منازلهم بأيديهم ، وهربوا ورحلوا عن أموالهـــم ، وقـــد كـــانوا في العـــز والمنعـــة في حصونـــهم ودورهم ، وقد كان المؤمنون يظنون في أنفسهم أن ذلك لا يكون أبدا من فعلهم ، فسهل الله برحمتـــه ذل

أعدائهم بما قذف في قلوبهم" ومعنى قوله :﴿لولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم﴾ يريد أنه أوجب عليهم الخروج والهرب من بلدهم ، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا والآخرة على كفرهم ، والجلاء في لغة العرب : هو الهرب والخروج من المقام والبلد قال الشاعر : والله ما حاربنا أقوام إلا جلوا من حيث ما أقاموا

ومعنى ﴿شاقوا الله ورسوله﴾ يريد : باينوا الله وقاطعوه ، وعصوا رسوله وعادوه وحاربوه ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله﴾ يريد عز وجل أنكم ما قطعتم من نخلة ، أو تركتموها فهو بأمر الله عز وجل حين أمر نبيه بقطع بعض نخيلهم وترك بعضها ، واللِّينة : هي النخلة ، والليان : هي الجماعة من النخل قال الشاعر: وسالفة كسحوق الليان أضرم فيها الغوي السعر"

ومعنى ﴿وليخزي الفاسقين﴾ هو أراد أن يفضحهم ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ ومعنى ﴿وما أفاء الله﴾ هو ما رد الله إلى نبيه من الأموال والغنائم وجاء به إليه وأوصله إلى رسوله صلى الله عليه وآله ﴿فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ هو فما ركضتم عليه ولا نهبتموه له ، ولكن أخذه الله لنبيه بالرعب والفزع الذي جعله في قلوبهم وألقاه سبحانه في صدورهم ، والإيجاف : هو الخبب والركض ﴿ولكن الله يسلط رسله على من يشاء﴾ يريد : أنه يرسل الرسل على من يشاء أن يعذبهم وأراد أن ينتقم منه ويعاقبه، ومعنى قوله: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل الكتاب فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ يعني الفيء ، ويريد أنه حكم بهذا الحكم لئلا يكون دولا بين الأغنياء ، فحكم به لمن هو أحق به منهم وأولى ، وأنت تجد قسمة ذلك وبيانه في كتاب الأحكام في باب الغنائم مما وضعه الهادي إلى الحق صلوات الله عليه .

﴿وما آتاكم الرسول فخذوه﴾ يريد : ما أعطاكم فاقبلوه ، وما نهاكم عنه فخلوه واتركوه .

﴿والذين تبوؤا الدار والإيمان﴾ يعني الذين سكنوا الدار واتخذوا الإيمان يعني بذلك أهل المدينة الأنصار ، والتبوؤ : هو التسكن والحلول ، قال الشاعر : كم من أخ لي ماجد بوأته بيدي لحدا

يريد حللته وأسكنته ، ومعنى ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ يريد بالحاجة : الضيق والحرج مما أوتوا من الحق ، ومعنى ﴿يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ يريد أنهم يقدمون غيرهم بقوتهم ، ويؤثرون سواهم بنفقاتهم ، ولو كان بهم خصاصة ، يريد ولو كان بهم فقر وفاقة ، والخصاصة : هي الفاقة ، قال الشاعر :

أم غاب ربك فاعترتك خصاصة ولعل ربك أن يؤب مؤيدا

ومعنى ﴿ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا﴾ الغل : هو الحقد والمقت والشنآن ، ومعنى ﴿وقلوبهم شتى﴾ يريد أنها متشعبة مختلفة مفترقة غير مجتمعة ، قال الكميت بن زيد رحمة الله عليه :

فمن أوتي وكيف ضلالهم هدى والهوى شتاتهم

ومعنى ﴿فذاقوا وبال أمرهم﴾ هو : ذاقوا النكال على فعلهم . ومعنى ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ هذا مثل ضربه الله للمنافقين الذين كانوا يقولون لليهود : إنهم معهم وإنهم بزعمهم أنصارهم ، فلما حاربوا رسول الله صلى الله عليه وآله قال المنافقون : لا نحارب رسول الله ونحن

مسلمون ، وهم على الحقيقة فاسقون ومنافقون في قولهم كاذبون ، فضرب الله لهم مثلا بالشيطان ، وهو شيطان منافق من الآدميين ، وليس فيما أظن من تلك الشياطين ؛ لأنه قال : ﴿إني أخاف الله [رب العالمين﴾ لما جبن وذل ، ويخشى أن يعاقب أو يقتل ، فجعل الدين جنة يحتمي بها ، وينافق خوفا من العقوبة لما رهبها ، وشياطين الجن لا تقع أبصار المؤمنين عليهم ، ولا ينافقون خوفا لعقوبتهم ﴿فكان عاقبتهما أنهما في النار﴾ أي : كان عاقبة أمرهما وآخر شأنهما في النار ، محل الظلمة الأشرار ، ومعنى ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ يريد عز وجل أنهم لما نسوا الله تركهم على نسيانهم لأنفسهم ؛ لأن من نسي الله فقد نسي نفسه من الخيرات ، وأوقعها في أعظم المهلكات ، فلما نسوا الله كان ذلك منهم نسيانا لأنفسهم ، ولما تركهم الله على نسيانهم جاز أن يقول : أنساهم ، ومعنى قوله عز وجل :﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾ يريد عز وجل : أنا لو ركبنا في الجبل من العقل ما ركبنا فيكم ثم يسمع هذا القرآن وما فيه من التهديد والوعيد ﴿لرأيته خاشعا متصدعا﴾ متقطعا متحركا من الرهبة ، فزعا ، وهذا مثل ضربه الله على ما ذكرنا يدل على ذلك قوله في آخر الآية :﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ ومعنى ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ فالغيب : ما غاب عن أبصارنا ، والشهادة ما حضرنا وشاهدنا لمواجهتنا ، والغيب : هو ما غاب عن محضرك قال الشاعر :

وليس أخي من كان لي عند محضري ولكن أخي من كنت بالغيب أطلبه

والشهادة : هي الأسباب الحاضرة قال الشاعر : ولقد شهدت الخيل تضبح في حياض الموت ضبحا

يريد حضرت وشاهدت ، ويحتمل التفسير وجها آخر وهو أن الغيب : هو الضمير [بالجنان] والشهادة : هي الكلام والإقرار باللسان ، ومعنى قوله :﴿الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن﴾ فهو المستحق من خلقه التقديس ، والتقديس: هو التنزيه لله والتعظيم ، وكذلك ربنا الواحد الكريم قال الشاعر :

قد علم القدوس مولانا القدس أن أبا العباس قولا يقتبس في معدن الملك القديم الكرس

والسلام : هو السالم من الآفات ، الذي لا تحل به النازلات قال الشاعر :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

والمؤمن : هو المؤمّن لأوليائه من أليم عذابه [وإنما سمى نفسه مؤمنا ، لأمانه للمؤمنين ، وأنهم لا يكونون عنده أبدا مفزعين ، بل يؤمن روعتهم بأمانه للمحسنين ، لأنه كريم يحب الكرم والإحسان ، مؤمن يحب الرحمة والإيمان ، وما عسى أن يبلغ من نعته الناعتون أو ينال من وصف كرمه الواصفون] والمهيمن : فهو الشاهد العالم المتقدس الفاصل الحاكم قال الشاعر : مليك على عرش السماء مهيمن لعزته تعنو الوجوه وتسجد

والعزيز : هو الغالب الجليل المنيع ، والجبار : هو الذي ما جبر من الأشياء كلها انجبر ، وما فعل بقوته أطاع واقتهر قال العالم صلوات الله عليه : عسى جابر العظيم الكسير بلطفه سيرتاح للعظم الكسير فيجبر .

والمتكبر : هو العظيم الكبير ، وهو الجليل العظيم الخبير ، هو الله الخالق البارئ المصور ، معنى الباري هو المصور ، قال الإمام الهادي إلى الحق صلوات الله عليه وعلى آبائه : والله يفعل ما يشاء بقدرة باري البرية عادل الأحكام

﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ من ديارهم لشدة بأسهم ومنعتهم ، وإنما ذكر الله ذلك تعظيما لهذه النعمة ، فإن النعمة إذا وردت على المرء والظن بخلافه تكون أعظم ، فالمسلمون ما ظنوا أنهم يصلون إلى مرادهم في خروج هؤلاء اليهود ، فيتخلصون من ضروب مكائدهم ، فلما تيسر لهم ذلك ، كان موقع هذه النعمة أعظم .

ثم قال تعالى ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِنَ اللَّهِ﴾ أي : أن حصونهم تمنعهم من بأس الله[1]

(وقوله :﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي : أمره ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن يكون الضمير في قوله :﴿فأتاهم الله﴾ عائداً إلى اليهود، أي : فأتاهم عذابُ الله وأخْذُه من حيث لم يحتسبوا .

والثاني : أن يكون عائداً إلى المؤمنين ، أي : فأتاهم نصر الله وتقويته من حيث لم يحتسبوا ، ومعنى ﴿يحتسبوا﴾ أي : لم يُقدِّروا و لم يَظُنُّوا ، وذلك أنْ سَهَّلَ قتل رئيسهم كعب بن الأشرف على يدي أخيه من الرضاع محمد بن مسلمة الأنصاري أمره النبي صلى الله عليه وآله بقتله غيلة فقتله ، وكان ذلك مما فَتَّ في أعضادهم ، وَثَبَّطَ الله المنافقين عن نصرتهم)[2] .

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ يريد : ما في قلوبهم من الخوف والفزع .

والرُّعب : هو الهَرَجُ والفَزَع قال الشاعر:

نالت عصاي جناحها وعاجلها يهتز يهرب منها وهو مرعوب

قال في التجريد :" أي : ألقى في قلوبهم الخوف الذي يرعب الصدر ، أي : يملأه ، وقذفه إثباته فيه وركزه "[3] .

---

(١) الحصن : البناء العالي المنيع ، وجمعه : حصون ، وتحصن فلان : امتنع . تهذيب ٤٩١.

(٢) ما بين القوسين مثله في الرازي بلفظه ١٧٩/٢٩، ٢٨٠. وزاد بعده قوله : المسألة الثانية : قوله :﴿فأتاهم الله﴾ لا يمكن إجراؤه على ظاهره باتفاق جمهور العقلاء ، فدل على أن باب التأويل مفتوح ، وأن صرف الآيات عن ظواهرها بمقتضى الدلائل العقلية جائز . اهـ وقد نقلته ليظهر فساد من يمنع التأويل ، ويحمل ألفاظ القرآن على ظواهرها وإن تعارضت مع كل عقل ومنطق سليم .

(٣) ومثله في الكشاف ٤٩٩/٤ وزاد فيه : ومنه قالوا في صفة الأسد : مقذف ، كأنما قذف باللحم قذفا لاكتنازه وتداخل أجزائه .

﴿يُخْرِبُونَ بيوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقرأ ﴿يخرّبون﴾ بالتخفيف والتشديد[١] كانوا يخربون بواطنها حاجة إلى الخشب والحجارة ، ليسدوا بها أفواه الأزقة أيام الحرب ولئلا يتحسروا بعد جلائهم على بقائها مساكن للمسلمين ، وليحملوا معهم من جيدها كالساج وكان المؤمنون يخربون ظواهرها زيادة في غيظهم ، وليتسع مجال الحرب .

ومعنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين : أنهم بمعاداتهم عرضوهم لذلك ، وكانوا السبب فكأنهم أمروهم به وحثوهم عليه ، وكل ذلك لم يكن في حسابهم[٢].

ثم قال تعالى :﴿فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي : البصائر[٣] .

قال ابن عباس : يريد يا أهل اللب والعقل والبصائر وقيل : يا من عاين تلك الواقعة المذكورة ، أي : أن اتعظوا بما دبر الله ويسر من أمر إخراجهم من غير قتال .

قال الإمام الحسين عليه‌السلام : "معناه هو : تفكروا يا ذوي العقول في هذا الرعب الذي قذفه الله في قلوبهم حتى أخربوا منازلهم بأيديهم ، وهربوا ورحلوا عن أموالهم ، وقد كانوا في العز والمنعة في حصونهم ودورهم ، وقد كان المؤمنون يظنون في أنفسهم أن ذلك لا يكون أبدا من فعلهم ، فسهل الله برحمته ذل أعدائهم بما قذف في قلوبهم" . اهـ

والاعتبار : النظر في الأمور ليعرف بها شيء آخر من جنسها .

(وفي بيان الوجه الذي أمر الله فيه بالاعتبار احتمالان :ـ أحدهما : أنهم اعتملوا على حصونهم وعلى قوتهم وشوكتهم ، فأباد الله شوكتهم وأزال قوتهم ، ثم قال : ﴿فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ ولا تعتملوا على شيء غير الله فليس للزاهد أن يعتمد على زهده ، فإن زهده لا أكثر من زهد (بلعام بن باعوراء) وسيأتي ذكر قصته في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى ، وليس للعالم أن يعتمد على علمه . انظر إلى الراوندي مع كثرة ممارسته كيف صار، بل لا اعتماد لأحد في شيء إلا على فضل الله ورحمته.

---

(١) التخريب والإخراب : الإفساد بالنقض والهدم ، والخربة : الفساد .

(٢) من بعد قوله : قال في التجريد إلى هنا مثله في الكشاف ٤/٥٠٠ .

(٣) الاعتبار : النظر في الشيء ، ومعنى اعتبروا : استدلوا بما شاهدتم على ما غاب عنكم ، والعابر : الناظر في الشيء ومنه : تعبير الرؤيا ؛ لأنه ينظر ويعتبر فيخبر بما يؤول إليه أمره ، والعبرة : الدليل . تمت تهذيب ٤٩١.

والثاني : " أن المراد أن يعرف الإنسان عاقبة الغدر والكفر والطعن في النبوة ، فإن أولئك اليهود وقعوا بشؤم الغدر والكفر في البلاء والجلاء ، والمؤمنون أيضا يعتبرون به فيعدلون عن المعاصي) " .

والمعنى تدبروا عاقبة الغدر ، وتدبروا لطيف صنع الله بما دبر ويسر من إخراجهم بغير قتال وإظهار نبيئه ، وتصديق ما وعد من نصره .

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ أي : الظعون من أوطانهم مقهورين ، أي : لولا حكمة الله التي اقتضت عذابهم بالجلاء ، إذ كان أشق عليهم من القتل ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل كما فعل بإخوانهم بني قريظة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ سواء أجلوا أو قتلوا ﴿ذَلِكَ﴾ الجلاء ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ﴾ أي : عادوه ﴿وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن عاداه ، وقيل للمعاداة : مشاقّة ؛ لأن كلاً من المتعادين في شِقٍّ خلاف شِقِّ صاحبه ، ومعنى ﴿شاقُّوا الله ورسوله﴾ يريد باينوا الله وقاطعوه وعصوا رسوله ، وعادوه وحاربوه [٣].

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ﴾ هي النخلة من الألوان ، وهي ضروب النخل ، سوى البرنية والعجوة ، وهما أجود النخل [٤] وقيل : اللينة النخلة الكريمة كأنها مأخوذة من اللين لكرمها ، وجمعها : لِيَن .

وقال **الحسين بن القاسم** عليه السلام : "اللِّينة : هي النخلة ، والليان : هن الجماعة من النخل قال الشاعر [٥] :

---

(١) مثل هذا في الرازي ، ونسب القول الثاني : للقاضي ، والمراد به القاضي البيضاوي .

(٢) ما بين القوسين من قوله : وفي بيان الوجه ، إلى هنا مثله في الرازي ٢٩/٢٨١.

(٣) يشاق : بكسر القاف لاجتماع الساكنين .

(٤) كذا في الكشاف ٤/٥٠٠، وفي تفسير الرازي ٢٩/٢٨٢، ٢٨٣. وأصله اللّوْن قلبت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبله ، قال محي الدين الدرويش في كتابه (إعراب القرآن) : (لينة) اللينة بالكسر في اللغة مصدر لان ، والمراد بها هنا النخلة من الألوان ، وهي ضروب النخل ماخلا العجوة والبرنية ، وهما أجود النخيل ، وياؤها عن واو قلبت لكسرة ما قبلها كالديمة ، وقيل : اللينة النخلة الكريمة ، كأنهم اشتقوها من اللين (إعراب القرآن ١٠/ ٣٦.

وسالـــفة كسحوق الليان أضرم فيها الغوي السعر" اهـ

وذكر في البرهان الاستشهاد في اللينة بقول الشاعر :

غرسوا لينها بمجرى معين ثم حفوا النخيل بالآجام[1]

وخصت اللينة بالقطع ليستبقوا الجيد لأنفسهم ، وإن كانت من الكرائم فليشتد غيـــظ اليهود ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما نزل على حصون بني النضير ، وهي النويـــرة قطع المسلمون من نخلهم ما قطعوا ، وأحرقوا ما أحرقوا .

وفي ذلك قال حسان بن ثابت[2]

وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير

(٥) البيت لامرئ القيس يصف عنق فرسه ، انظر القرطبي ، وقد أصلحنا البيت من مجمع البيـــان ، والسـحوق مـن النخل: الجرداء الطويلة ، والسالفة : ناحية مقدم العنق ، وهي هنا العنق .

(١) انظر البرهان ٣٧٣ ، وزاد فيه : قال ذو الرمة : طراق الحوافي واقع فوق لينة ندى ليلة في ريشه يترقرق

(٢) حسان بن ثابت : هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي ، الأنصاري ، أبو الوليد ، الصحابي ، شاعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ، عاش ستين سنة في الجاهلية ، ومثلها في الإســـلام ، وكان من سكان المدينة ، واشتهرت مدائحه في الغسانيين ، وملوك الحيرة قبل الإسلام ، وعمي قبيل وفاته ، لم يشهد مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم مشهدا ، قيل لجبنه ، وكان شديد الهجاء ، فحل الشعر ، ومما كتب في سيرته وشـــهره (أخبار حسان) للزبير بن بكار ، و(حسان بن ثابت) (لحنا نمر)ومثله (لخلدون الكناني) ومثله (لفؤاد البستاني) . مصادر الترجمة (الأعلام ١٧٥/٢، ١٧٦) وبقية مصادره مذكورة هناك .وفي البرهان (حريق بالنويرة مستطير) ٣٧٣، وكذلك في الأصل (بالنويرة) وقد أصلحنا اللفظ من تفسير الطبري ٣٤/١٢ بالبويرة ، وكذا في تفسير الخازن ٢٦٨/٤ ، وأيضا في مجمع البيان للطبرسي ٣٢٤/٩ ، قال بعد أن أورد البيت : والبويرة تصغير بؤرة ، وهي إرَّةُ النار أي : حفرتها .

ولما قطع رسول الله صلى الله عليه وآله نخيلهم جاءت إليه جماعة اليهود فقالوا : يا محمد ألست تزعم أنك تريد الصلاح ؟ فمن الصلاح قطع النخيل وعقر الشجر ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ما قطعتم من لينة﴾ .

﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي : فقطعها بإذن الله ، أي : بأمره ، والمعنى : أنه أذن لكم إن شئتم قطعتم ، وإن شئتم تركتم ، وذلك أنهم لما تحققوا أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله بقطع نخيلهم جزعوا ، وقالوا : من أين لك يا محمد ذلك وقد كنت تنهى عن الفساد ؟ فوقع في أنفس المؤمنين شيء فنزلت .

﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي : يفضحهم ، وليذل اليهود ويغيظهم ، وتتضاعف حسرتهم بسبب نفاذ حكم أعدائهم في أعز أموالهم ، واحتج العلماء بهذه الآية على أن حصون الكفرة وديارهم لا بأس أن تهدم وتحرق وتغرق ، وترمى بالمجانيق ، وكذلك أشجارهم لا بأس بقلعها مثمرة كانت أو غير مثمرة .

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ يعني بني النضير ، أي : ما جعل الله من أموالهم فيئا خاصة ، والفيء : الرجوع ، سمي به الغنيمة ؛ لأنها ترجع من أموال الكفار إلى المسلمين

﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي : أسرعتم على تحصيله ، والإيجاف من الوجيف وهو السير السريع مع الاضطراب [1].

﴿مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ أي : مقاتلين ، والركاب : الإبل تحمل القوم واحدتها راحلة أي: ما قاتلتم عليه وأخذتموه بالقتال ، وإيجاف الخيل والركاب .

قال زيد بن علي عليه السلام : فالإيجاف : السير إلى الأعداء ، والركاب : الإبل [2].

---

(١) في التهذيب للحاكم (الإيجاف : الإزعاج في السير ، وهو سير مع سرعة ، وجف يجف وجيفا إذا تحرك باضطراب ومنه : قلب واجف أي : مضطرب ، والوجيف : سرعة السير ، وأوجفها راكبها أوجافا ، ومنه (قلوب يومئذ واجفة) التهذيب ٤٩٦

(٢) تفسير الإمام زيد عليه السلام أنظره في أول السورة ، والمطبوع ص ٣٢٨.

قال في إعراب القرآن للدرويش ٣٧/١٠، أوجفتم : أسرعتم ، وفي المصباح (وجف الفرس والبعير وجيفا عدا ، وأوجفته بالألف أعديته ، وهو العنق في السير . والركاب : الإبل واحدتها راحلة ، وتجمع على رُكُب وركائب

قال في التجريد فكان لرسول الله صلى الله عليه وآله خاصة ملكا عندنا في حياته ، ويورث عنه

قلت : والدليل على ذلك إجماع العترة الطاهرة وشيعتهم عليهم السلام جميعا ، وما أخـذ هكذا بعد النبي صلى الله عليه وآله فهو للإمام يملكه ، ويورث عنه ، وفيه الخمس لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم منه خمسه أو سدسه على قول الهادي عليه السلام فيكون لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم خمسة وعشرين سهما من ثلاثين ـــ والله أعلم ـــ اهـــ .

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

قال في البرهان : وذلك أن مال الفيء المأخوذ من المشركين بغير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب جعله الله لرسوله يضعه حيث يشاء ؛ لأنه واصل بتسليط الرسول عليهـــم لا بمحاربتهم ، وقهرهم وقتلهم ، فجعل الله تعالى ذلك طعمة للرسول ولمن قام مقامه من ولده عليهم السلام[1] . اهـــ

وقد سلط رسوله على بني النضير فأمره فيما أخذ منهم مفوض إليه لا يقســم قسـمة الغنائم ، التي قوتل عليها ، وأخذت عنوة ؛ لأنهم طلبوه القسمة فنزلت .

قال في البلغة : كانت أموال بني النضير له صلّى الله عليه وآله وسلم خالصة يعطي ما أعطى منها ويحبس ما حبس ، ونحل فاطمة عليها السلام فدكا منها ، وكان جنـب النخيـل زرع كثير ، وكان صلى الله عليه وآله يدخر قوت سنة الشعيرَ والتمرَ لأزواجه ، وبني المطلب وما فضل يجعله في الكراع والسلاح " .اهـــ

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ قال الحسين بن القاسم عليه السلام :" هو مارد الله إلى نبيئه من الأموال والغنائم ، وجاء به إليه ، وأوصله إلى رسوله صلّى الله عليه وآله وسلم "[2] اهـــ.

ومعنى ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي : من أموال أهل القرى الكافرة بالقتال والقهـــر ﴿فَلِلَّـهِ

وركابات ، وركاب السحاب الرياح ، والركاب أيضا : ما يعلق في السرج فيجعل الراكب رجله فيه ، وقال الفراء : العرب لا يطلقون لفظ الراكب إلا على راكب البعير ، يسمون راكب الفرس : فارسا .

(١) انظر البرهان : ٣٧٣ .

(٢) الفئ : أصله الرجوع ، فالفيء : ما يرجع من مال الكفار إلى المسلمين ، فاء يفئ فيئا إذا رجع ، ومنه الفئ الظـــل (تهذيب ٤٩٦) .

﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ أي : فخمس ذلك لله ولرسوله ، لنفسه ولمن يشاء ، وقد بين ذلك بآية الخمس وفي سيرة ابن هشام [١] ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى﴾ قال ابن إسحاق [٢] : " فما يوجف عليه المسلمون بالخيل والركاب ، وفتح بالحرب عنوة فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، يقول : هذا قسم آخر فيما أصيب بالحرب بين المسلمين على ما وضعه الله عليه ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ أولاد بني هاشم ، أي : يقسم بينهم الخمس كما في الأنفال ﴿وَالْيَتَامَى﴾ أي : من بني هاشم [٣] واليتيم : الذي لم يبلغ مبالغ الرجال ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ مساكينهم ، وهم الذين لاشيء لهم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ منهم ، وهو المنقطع ، وقيل : الضيف ، فإن لم يوجدوا جاز الصرف إلى هذه الأصناف من غيرهم [٤] ".

---

(١) ابن هشام : هو أبو محمد ، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ، نشأ بالبصرة ، ثم نزل مصر ، وهو مجهول المولد ، أما الوفاة فقد قيل : إنه توفي سنة ٢١٨ هـ وقيل : سنة ٢١٣هـ ، وكان بارعا في النحو ، واللغة العربية ، قيل : اجتمع به الشافعي حين جاء إلى مصر ، وتناشدا من أشعار العرب أشياء كثيرة ، تعقب على ابن إسحاق في السيرة ، ونقد ، واختصر وأضاف ، وقال : إنه ترك بعض ما رواه ابن إسحاق ، وذكر من ذلك :(وأشياء يشنع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره ..) الخ (انظر مقدمة السيرة النبوية لابن هشام) بتحقيق مصطفى السقاء وآخرين ، دار الوفاق بيروت (وقد ذكر كثير أن من بين ما حذفه ما كان يسوء القوم ؛ إما لأنه مخالف لما يعتقدونه ، أو ما رواه ابن إسحاق في أهل البيت وما جرى عليهم ، وذكر ظلم أصحاب السلطة للمسلمين) .

(٢) ابن إسحاق : هو محمد بن إسحاق بن يسار ، أبو بكر ، ويقال : أبو عبد الله المدني ، القرشي ، مولى قيس بن مخرمة ، مولده بالمدينة سنة ٨٥هـ ووفاته قيل : سنة ١٥٠ ، أو ١٥٣ هـ ، ونشأته بالمدينة ، وتنقل في البلدان ، فزار الإسكندرية سنة ١١٥هـ ، وحدث عن جماعة من أهل مصر ، ثم رحل إلى الكوفة ، والجزيرة ، والري ، والحيرة ، وبغداد ، وفيها ألقى عصا الترحال ، وصنف للمهدي العباسي كتاب (السيرة) وفي بغداد كانت وفاته ، ودفن بمقبرة الخيزران ، اختلف فيه بين مادح وقادح ، ورمي بالتدليس في كتابه السيرة [وذلك لما كان لا يعجب القوم] قد أكثر من الأشعار والأخبار ، وذكر أنه تجنب الكثير من فضائل أهل البيت عليهم السلام ؛ إرضاء للدولة ، ومع ذلك جاء من بعده ابن هشام ، فاختصر وحذف الكثير مما أبقى المترجم (انظر مقدمة سيرة ابن هشام المطبوعة).

(٣) قال الحاكم : وقيل : يدفع إليهم [أي : إلى بني هاشم] يستوي فيه الغني والفقير ، من كان منهم على نصرة الحق عن الهادي عليه السلام ، وإلى هذا أشار رسول الله صلى الله عليه وآله لما أعطى بني هاشم وبني المطلب ، ولم يعط بني أمية وبني نوفل ، فجاء جبير بن مطعم ، وعثمان بن عفان وقالا : لا ننكر نحن فضل بني هاشم لمكانك منهم ، ولكن نحن

ثم قال ابن الجوزي [١] :" اختلف العلماء في حكم هذه الآية ، فذهب قوم إلى أن المراد بالفيء هاهنا الغنيمة ، التي يأخذها المسلمون من أموال الكفار عنوة ، وكان في بدء الإسلام للذين سماهم الله في هذه الآية دون الغانمين [٢] ثم نسخ ذلك بقوله تعالى في الأنفال :﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ الآية [٣] وهذا قول قتادة ويزيد بن رومان .

وذهب قوم إلى أن هذا الفيء ما أخذ من أموال المشركين مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ، كالصلح والجزية والعشور ، ومال من مات منهم في دار الإسلام ولا وارث له وهذا كان يقسم في زمن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم على خمسة أقسام أربعة لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم يفعل بها ما يشاء ، والخمس الخامس للمذكورين في هذه الآية " ذكر هذا في التجريد قال : وعند أبي حنيفة أن مال الفيء كله يقسم على خمسة أقسام كما يقسم جملة الغنيمة ، ومعه ظاهر الآية .

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً﴾ أي : الفيء الذي حقه أن يعطى الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها ﴿دولة﴾ أي : ما يدول للإنسان ، أي : يدول له من البخت والحظ، يقال: دالت له الدولة ، وأديل له ، أي : لا يكون حظا .

وبنو المطلب كهاتين فلم أعطيتهم وحرمتنا ؟ فقال صلى الله عليه وآله لأنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام ، وقيل : إنه أعطى العباس وكان غنيا ، (وانظر كلام أحمد بن المنير الإسكندري في حاشيته على الكشاف فقد بين على عدم اشتراط الفقر في أهل البيت عليهم السلام . الكشاف ٥٠٣/٤) .

(٤) وفي مجمع البيان للطبرسي ٣٣٠/٩: التقدير ولذي قرباه ، ويتامى أهل بيته ، ومساكينهم ، وابن السبيل منهم ، وروى المنهال بن عمرو عن علي بن الحسين عليه السلام قال : قلت قوله :﴿ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ ؟ قال : هم قربانا ويتامانا ، ومساكيننا ، وأبناء سبيلنا .

(١) انظر تفسير ابن الجوزي زاد المسير في علم التفسير ٢١٠/٨ والنص منه .

وابن الجوزي : هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ٢١٠/٨.

(٢) في تفسير ابن الجوزي : الغالبين بدلا عن الغانمين هنا .

(٣) الأنفال : ٤١ .

قال في التجريد : الدولة : بالضم اسم للشيء يتداوله القوم ، يكون لهذا مرة ولهذا مرة وبالفتح : الفعل الانتقال من حال إلى حال حكاه ابن الجوزي "[1].

قال زيد بن علي عليهما السلام :" فالدولة في الملك والسنن التي تغير وتبدل ، والدولة بفتح الدال في الجيشين يهزم هذا هذا ، ثم يهزم الهازم فيقال : قد رجعت الدولة على هؤلاء "[2].

﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ يعني الرؤساء ، كان الرؤساء في الجاهلية يستأثرون بالغنيمة .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام :يريد أنه حكم بهذا الحكم لئلا يكون دولة بين الأغنياء ، فحكم به لمن هو أحق به منهم وأولى " .اهـ

ثم قال تعالى :﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ﴾ من قسمة غنيمة أو فيء ﴿فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ﴾ أي : عن أخذه منها ﴿فَانْتَهُوا﴾ أي : فخلوه واتركوه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أن تخالفوه وتهاونوا بأوامره ونواهيه ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف رسوله ، والأجود أن يكون عاما في كل ما أتى به صلى الله عليه وآله ونهى عنه ، والفيء داخل في عمومه ، والأئمة قُوَّامٌ بعده صلى الله عليه وآله وسلم مقامه "[3].

قوله ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ قيل : هو بدل من قوله ﴿لذي القربى﴾ وما بعده "[4].

---

(١) قال في البرهان : فالدَولة : الظفر في الحرب ، والدُولة بالضم : الغنى بعد الفقر ، قال الشاعر :

ولقد نلتم ونلنا منكم وكذاك الحرب أحيانا دول (برهان ٣٧٣) .

وقال الحاكم الجشمي : قال عيسى بن عمر : هما لغتان بمعنى واحد ، وقال غيره : بينهما فرق ، والدولة بالفتح : الظفر والغلبة في الحرب وهي مصدر ، والدولة بالضم : اسم الشيء يتداوله الناس بينهم ، مثل العارية ، وقيل بالفتح : المرة من الاستيلاء ، وبالضم : نقل النعمة من قوم إلى قوم (تهذيب ٤٩٦) .

(٢) انظر تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام في أول السورة ، والمطبوع ص ٣٤٨ ، وفيه السير بدلا من السنن ، والجيش بدلا من الجيشين . وفي النسخة المخطوطة منه على ما هو هنا ، فيحتمل أنه غلط في المطبوع .

(٣) ومثله في الكشاف ٥٠٣/٤ ، وقال السيد العلوي : قوله : والأجود أن يكون عاما في كل ما أتى رسول الله صلى الله عليه وآله ونهى عنه) : لأن الواو ليست بعاطفة فالجملة تذييل ، ولذلك عقبه بقوله :﴿واتقوا الله﴾ وأطلقه ليشمل كل ما يجب أن يتقى ، ويدخل فيه ما سيق له الكلام دخولا أوليا . حاشية العلوي ٣١٠.

(٤) قال السيد العلوي ما معناه ، أن من ذهب إلى هذا القول هو من يشترط الفقر في ذوي القربى ، والصحيح أنه ليس بشرط كما تقدم من إعطائه العباس ، وهو غني .

وقال الواحدي : بين الله من المساكين الذين لهم الحق بقوله :﴿للفقراء﴾ يريد أن الفقر لا يشترط في أهل الخمس غير المساكين ، وعند أبي حنيفة يشترط إلا في الرسول قال في التجريد : والصحيح أنه لاشترط في ذوي القربى .

وأما اليتامى وابن السبيل فإن كانوا من ذوي القربى لم يشترط ، وإن كانوا من غيرهم اشترط ، والمراد بالمهاجرين : من هاجر عن وطنه من المسلمين إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم في دار هجرته ، وهي المدينة خوفا من أذى قومه ، ورغبة في نصرة نبيئه فهم المقدمون في الإسلام على من لم يكن لهم هجرة من المسلمين ، ذكره في البرهان

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ [1] يعني من مكة أخرجهم منها المشركون لما خرجوا خوفا منهم فكأنهم أخرجوهم ﴿ يَبْتَغُونَ﴾ بخروجهم ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي : عطاء ، وهو الثواب ، ورضوانا منه عليهم ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم وجهادهم .

ثم مدح الأنصار حين طابت نفوسهم عن الفيء فقال :﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ أي : المدينة وهم الأنصار ، أي : اتخذوها مباءة ، أي : مرجعا يُرجَعُ إليه ، تبوؤها : نزلوها وتوطنوها ، وهو عطف على المهاجرين ﴿وَالْإِيمَانَ﴾ تقديره : وآثروا الإيمان ، أو وأخلصوا الإيمان كقوله : " علفتها تبنا وماء باردا " أو معناه : وجعلوا الإيمان مستقرا لهم ، لتمكنهم منه ، أو سمى المدينة إيمانا لأنها دار الهجرة ، ومكان ظهور الإيمان [2]

---

(١) ديارهم : أصله دوارهم إلا أن الواو صارت بين كسرة وألف فقلبت ياء كالحياض والسياط (تهذيب ٤٩١) .

(٢) قال السيد العلوي رحمه الله : حاصل الوجوه الأربعة يعود إلى أن عطف الإيمان على الدار إما من باب التقدير أو الانسحاب ، والإيمان إما يجرى على حقيقته ، أو هو استعارة ، ففي الوجوه الإيمان حقيقة ، والعطف من باب التقدير لكن بحسب ما يناسب الإيمان ، والوجه الثالث أيضا العطف فيه من باب التقدير لكن بحسب السابق أعني الدار ، والثاني والرابع العطف فيهما من باب الانسحاب ، والإيمان على الوجه الثاني استعارة مكنية ، وعلى الثالث والرابع مصرحة تحقيقية ، فإن قلت : بين لي تخريج الاستعارتين وتصحيحهما ؟ قلت : شبه في الوجه الثاني الإيمان من حيث أن المؤمنين من الأنصار تمكنوا فيه تمكن المالك المتسلط في مكانه ومستقره ، بمدينة من المدائن الحصينة بتوابعها ومرافقها ، ثم تخيل أن الإيمان مدينة بعينها ، على سبيل الاستعارة التخييلية ؛ لتكون مانعة من إرادة الحقيقة ، وعلى الثالث والرابع

وقوله : ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يرجع إلى ﴿تبوؤا الدار﴾ فقط وهم المهاجرون ؛ لأن إيمان المهاجرين قبل الأنصار .

﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ لأنهم أحسنوا إلى المهاجرين ، وأشركوهم في أموالهم ومساكنهم ﴿ وَلَا يَجِدُونَ﴾ أي : لا يعلمون ﴿فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ أي : لا يجدون في صدورهم حسدا ولا حزازة ولا غيظا مما أعطى النبي صلى الله عليه وآله المهاجرين من الفيء دونهم .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : "يريد بالحاجة : الضيق والحرج مما أوتوا من الحق"[1] .اهـ

وقيل : ﴿حاجة﴾ بمعنى محتاج إليه ، والمحتاج إليه يسمى حاجة ، أي : لا يجدون في أنفسهم طلب محتاج إليه ﴿مِمَّا أُوتُوا﴾ أي : مما أعطي المهاجرون من الفيء وغيره .

قال في الكشاف[2] : "السبب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قسم أموال بني النضير على المهاجرين

شبه طيبة لكونها دار الهجرة ، ومكان ظهور الإيمان ـ بالتصديق الصادر من المخلص ، المتحلي بالعمل الصالح ، ثم أطلق الإيمان عليها بوساطة نسبة التبوء فهي استعارة مصرحة تحقيقية ، لكون المشبه المتروك وهو طيبة حسي ، ففي الوجه المبالغة ، والمدح يعود إلى سكان المدينة أصله ، وفي الثاني بالعكس ، والأول هو المناسب للمقام ؛ لأن الكلام وارد في مدح الأنصار . فإن قلت : فما تصنع بقوله :﴿من قبلهم﴾ ؟ فإنه يؤدي إلى أن الأنصار سبقوا المهاجرين في الإيمان ؟ ولذلك قال المصنف رحمه الله [المراد به الزمخشري] سبقوهم في دار الهجرة والإيمان ، أي : دار الإيمان ؟ قلت قالوا : تقدير الآية والذين تبوؤا الدار من قبلهم والإيمان ، ويمكن أن يقال : قد ذكرنا أن التقدير : تمكنوا في الإيمان تمكن المالك في ملكه ، لا يزعجهم فيه مزعج ، ولا شك أن التمكن من الإيمان على هذا الوجه كان حاصلا للأنصار قبل المهاجرين ؛ لأنهم كانوا في مكة خائفين ، فلم يحصل لهم التمكن إلا بعد الهجرة . حاشية العلوي ٣١١.

قلت : ولهذا قال المصنف هنا : (من قبلهم) يرجع إلى ﴿تبوؤا الدار﴾ فقط ؛ لأن إيمان المهاجرين قبل الأنصار .

وزاد الزمخشري وجها فقال : أو أراد دار الهجرة ودار الإيمان ، فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه ، وحذف المضاف من دار الإيمان ، ووضع المضاف إليه مقامه (الكشاف ٤/٥٠٤)

(١) هذا لفظ الإمام الحسين بن القاسم العياني عليهما السلام ، وفي المصابيح زيادة [دونهم] بعد قوله : الحق .

(٢) ما بين أقواس الزيادة من الكشاف ، والنص في الكشاف ٤/٥٠٥ وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قسم أموال بني النضير على المهاجرين ، ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر محتاجين أبا دجانة سماك بن خرشة ، وسهل بن حنيف ، والحرث بن الصيمة ، وقال لهم : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم ، وشاركتموهم في الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لهم شئ من الغنيمة ، فقالت الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ، ولا نشاركهم فيها ، فنزلت .

دون الأنصار إلا ثلاثة [نفر]محتاجين ، وقال لهم : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه [وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم و لم يقسم لكم شئ من الغنيمة] فقالوا : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا [ونؤثرهم بالغنيمة] ولا نشاركهم في هذه ، فنزلت ثناء عليهم ".

وقد سبق ما ذكره في البلغة وغيرها أن أموال بني النضير كانت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم .

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي : يقدمون غيرهم ، ويبدون سواهم بنفقاتهم ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي :حاجة عظيمة[1] أي : ولو كان بالأنصار خصاصة والخصاصة: الفقر والفاقة ، قال الشاعر:

أم غاب ربك فاعترتك خصاصة فلعل ربك أن يؤوب مؤيدا

بين الله أن إيثارهم لم يكن عن غنى .

قال في البرهان : وفي إيثارهم وجهان ـ أحدهما : أنهم آثروا المهاجرين على أنفسهم بما حصل من فيء وغيره من غنائم ، حتى قسمت بين المهاجرين .والثاني : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لهم : (إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم ، فقالوا : إن أموالنا بين المهاجرين قطائع ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إنهم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر ؟ فقالوا : نعم يا رسول الله) [2].

ثم قال تعالى :﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ يوق من الوقاية ، والشح : اللؤم ، وأن تكون النفس كزّة ، أي : منقبضة حريصة على المنع [3] وأضيف الشح إلى النفس لأنه غريزة فيها ، قال تعالى :﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ [4] أما البخل : فهو المنع نفسه .

---

(١) الخصاصة : الإملاق وكل ثلمة خصاصة ، وأصله الاختصاص وهو الانفراد بالأمر كأنه انفرد عما يحتاج إليه ، ومنه الاختصاص والخاصة انفراد المعنى ، وقيل : الخصاصة والخلة سواء ، وأصله الفرجة ، يقال للقمر : بدا من خصاصة الغيم أي : فرجته ومنه سمي الخص وهو البيت من القصب لما فيه من الفرجة . والخصاص الفرج بين الأثافي (التهذيب ٤٩٦)

(٢) انظر البرهان ٣٧٤.

(٣) واستشهد في الكشاف بقوله : يمارس نفسا بين جنبيه كزّة إذا هم بالمعروف قالت له مهلا

وفي التجريد " الشح واللؤم والبخل بمعنى واحد ، وقيل : الشح : أخذ الحرام ، ومنع الواجب فهو أقبح من البخل " .

والمراد هو أنه يشح بإخراج حقوق الله عز وجل من ماله ولا ينفقه في المبار ، والمعنى : من غلب ما أمرته به نفسه من الشح بتوفيق الله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الظافرون بما أرادوا من الخير .

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ قيل : عطف على المهاجرين أيضا [وقيل : لا][1] أي : والذين هاجروا من مكة إلى المدينة من بعد مهاجرة أولئك الأولين ، وقيل : عام في الذين يجيئون من بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة .

قال في البرهان :" أي : والذين جاؤا من بعد المهاجرين أمروا أن يستغفروا لمن سبقهم من إخوانهم المهاجرين والمسلمين" [2]. اهـ

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ فذكر أنهم يدعون بالمغفرة لأنفسهم ، ولمن سبقهم من أصحاب رسول الله بالإيمان ، يعني المهاجرين والأنصار ؛ لأن من حق المؤمن أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فلذلك استغفروا لهم .

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الغل : الحقد ، وهو العداوة الخفية ، وقيل: هو استعاذة من الشيطان لكيلا يوسوس لهم بما يضعف قلوبهم على السلف ، كما فعل بالخوارج على علي عليه السلام ، وبالروافض [3].

قال السيد العلوي يصف إنسانا بالشح المتبالغ ، وبأنه إذا هم في بعض الأحايين بمعروف قالت له مهلا فيطيعها ، ويمتنع من المعروف ، والكزة : المنقبضة . (الكشاف ٤/٥٠٥، وحاشية العلوي ٣١١) .

(٤) النساء : ١٢٨. الشح : الحرص على المال ، والفرق بينه وبين البخل أن الشح غريزة ، والبخل : المنع نفسه فهو أعم ؛ لأنه قد يوجد البخل ولا شح له ، ولا ينعكس ، وفي الصحاح : والشح : البخل مع حرص . إعراب القرآن ١٠/٤٣ .

(١) ما بين القوسين غير موجود في الكشاف ، مع أن كتاب التجريد هو تجريد للكشاف ، ولما لم يكن التجريد لدينا فقد جعلناه بين قوسين حتى يتحصل لنا الكتاب إنشاء الله .

(٢) انظر البرهان ٣٧٤.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ عظيم الرأفة والرحمة ، فاستجب لنا .

ثم قال تعالى :﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم اليهود ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من دياركم بالقهر ، يعنون من المدينة ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ قاله ابن أبي وأصحابه لبني النضير لما نقض بنو النضير العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم وهموا بغدره ، وأعلمه الله ، بَعَثَ محمد بن مسلمة إليهم : أن اخرجوا من بلادي ولكم أجل عشرا ، فعزموا على ذلك فمنعهم ابن أُبيّ ووعدهم النصرة ، فقالوا للنبي صلى الله عليه وآله : إن شئت حاربناك .

ومعنى ﴿ألم تر﴾ التعجب من حال المنافقين [1] الذي جرى مجرى المثل في غرابته ، وإنما كانوا إخوانهم ؛ لأنهم إخوتهم في الكفر برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم ، وفي عداوته أو لأنهم كانوا حلفاءهم قبل الإسلام ، والمعنى : قالوا : لا تخرجوا من دياركم ، فإن خرجتم خرجنا معكم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ أي : في قتالكم ، أوفي خذلانكم ﴿أَحَدًا﴾ يعنون رسول الله والمسلمين ﴿أَبَدًا﴾ وإن طال الزمان ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في مواعيدهم .

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾ من ديارهم ، أي : اليهود ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ﴾ المنافقون ﴿ الْأَدْبَارَ﴾ أي : الظهور هاربين ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ معناه : ولئن قدر وجود نصرهم انهزموا ﴿ثم لا ينصرون﴾ يعني بني النضير لا يصيرون منصورين ، أي : لا تنفعهم نصرة المنافقين ، أو لا ينصرونهم مرة أخرى .

---

(٣) قال الحاكم الجشمي : قيل : غشا للبعض ، وقيل : خيانة ، سألوا الله أن يزيل ذلك بلطفه ، وقيل : بل هو استعاذة من الشيطان لكي لا يوسوس فتضعف قلوبهم على السلف كما فعل بالخوارج والروافض .

(١) النفاق : إظهار الإسلام وإبطان الكفر ، وهو مأخوذ في الأصل من نافقاء اليربوع ، وهو أن يكون له جحر له بابان إذا أخذ من واحد خرج من الآخر ، فشبه المنافق به ؛ لأنه يدخل في الإيمان ظاهرا ويخرج باطنا ، وهو اسم شرعي لم يكن يعرفه أهل اللغة ، والمنافق كافر لاجتماعهما على الكفر (التهذيب ٥٠٣) .

ويحتمل ثم لا ينصر المنافقون بعد ذلك ، أي : يهلكهم الله ؛ لأنه يظهر نفاقهم فيقتلهم رسول الله صلى الله عليه وآله أو يخرجهم لقوله : ﴿لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا﴾ [١] .

ثم ذكر تعالى أن خوف المنافقين من المؤمنين أشد من خوفهم من الله فقال : ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ﴾ يريد لأنتم أيها المؤمنون أخوف عند المنافقين ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أي: يخافونكم أكثر مما يخافون الله ، وقيل : المراد اليهود ﴿ذَلِكَ﴾ أي : شدة الرهبة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يعلمون الله وعظمته ، حتى يخشوه حق خشيته .

ثم بين تعالى شدة خوفهم للمؤمنين بما قذف الله في قلوبهم من الرعب فقال تعالى : ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ أي : لا يقدر اليهود والمنافقون على قتالكم في حال كونهم [٢] مجتمعين متساندين ﴿إِلَّا فِي قُرًى﴾ أي : إلا كائنين في قرى ﴿مُحَصَّنَةٍ﴾ بالخنادق والدروب ﴿أَوْ﴾ يكونوا ﴿مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ دون أن يظهروا لكم ، ويبارزوكم [٣] مواجهين لكم خوفا منكم

ثم قال تعالى :﴿بَأْسُهُمْ﴾ أي : شجاعتهم إنما هي فيما ﴿بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ يعني أن البأس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا ، فأما إذا قاتلوكم فهم أذلة للرعب الذي نصركم الله به ، وقيل : معناه متعادون متباغضون ، وقال مجاهد : المعنى : أنهم يقولون : لنفعلن كذا وكذا فهم يتهددون المؤمنين ببأس شديد من وراء الحيطان والحصون ، ثم يحترزون عن الخروج للقتال [٤] .

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي : ذو ألفة واتفاق ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ أي: مختلفة متفرقة قال الشاعر:

---

(١) الأحزاب : ٦٠ .

(٢) في الأصل (كونكم) والصواب ما أثبتناه ، لأن جميعا لليهود والمنافقين ، وكما هو في الكشاف ٥٠٧/٤.

(٣) في الأصل (يبارزونكم) بإثبات النون ، والظاهر أنه معطوف على يظهروا لكم ، ومعناه : دون أن يظهروا لكم ، ودون أن يبارزوكم ، فهو منصوب بحذف النون .

(٤) في البرهان (٣٧٤) : ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ وحرب بعضهم لبعض ، واختلاف قلوبهم حتى لم يتفقوا على أمر واحد ، وهذه الآية عامة في كل من عادى الحق وباينه أن يجعل الله حالهم كذلك .

إلى الله أشكو فرقة شقت العصا هي اليوم شتى وهي أمس جميع

أي : متفرقة ، أي : بينهم احن وعدوان ، فلا يتعاضدون حق التعاضد ، وهذا تشجيع للمؤمنين على قتالهم ﴿ذَلِكَ﴾ التشتت في قلوبهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ بأن تشتت القلوب مما يوهن قواهم .

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي : مثل هؤلاء المنافقين واليهود في ترك الإيمان والغفلة من عذاب الله كمثل المقتولين ببدر من قبلهم [1] ﴿قَرِيبًا﴾ منتصب بمَثَل [2] أي : وجود مثلهم في هذا الزمان ، كوجود مثل أهل بدر قريبا ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي : سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم من قولهم : كلأ وبيل أي : حشيش وخيم أي : سيئ العاقبة [3] أي : ذاقوا عذاب القتل في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلا فقال :﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي : مثل المنافقين في إغرائهم اليهود على القتال ووعدهم إياهم النصرة ، ثم إخلافهم لهم كمثل الشيطان ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ أي : حين استغوى الإنسان وزين له الكفر ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [4] تبرأ منه في العاقبة ، وقيل : المراد استغوى الشيطان قريشا يوم بدر بقوله﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم﴾ [5] إلى

---

(١) قال في البرهان : قوله عز وجل :﴿كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم﴾ وهم كفار قريش يوم بدر ، والثاني : أنهم بنو النضير الذين أجلوا عن الحجاز إلى الشام . (البرهان ٣٧٤) .

(٢) يعني أن ﴿قريبا﴾ منصوب على الظرفية متعلق بالاستقرار المحذوف ، الذي تعلق به ﴿من قبلهم﴾ ولك أن تعلقه بـ﴿ذاقوا﴾ وعلقه الزمخشري بمضاف مقدر في الخبر ، أي : كوجود مثل أهل بدر قريبا [فهو عنده منصوب على الظرفية بالمحذوف المضاف ، الذي أقيم المضاف إليه مقامه] .

(٣) الوبال : ثقل الشيء المكروه ، وماء وبيل ، وطعام وبيل إذا كانا غير مريين ، ومنه ﴿أخذا وبيلا﴾ أي : شديدا ثقيلا

(٤) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام المذكور أول السورة ، وقد أصلحنا بعض الألفاظ منه .

في تفاسير كثيرة أوردوا عن ابن عباس وغيره قصة العابد برصيصا الذي كان في بني إسرائيل ، وعبد الله زمانا ، ثم زين له الشيطان فوقع بامرأة وقتلها ، ثم سجد للشيطان .. الخ ، وقد تجنب المؤلف ذكرها ، وفسر الآية التفسير الصحيح ، البعيد عن الأساطير والإسرائيليات المدسوسة .

(٥) الأنفال : ٤٨ . وفي البرهان : ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ وحرب بعضهم لبعض ، واختلاف قلوبهم حتى لم يتفقوا على أمر واحد ، وهذه الآية عامة في كل من عادى الحق وباينه أن يجعل الله حالهم كذلك (٣٧٤) .

قوله : ﴿إني بريء منكم﴾ والأول هو الوجه"[1] .

قال الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام : " هذا مثل ضربه الله للمنافقين الذين كانوا يقولون لليهود : إنهم معهم ، وإنهم بزعمهم أنصارهم ، فلما حاربوا رسول الله صلى الله عليه وآله قال المنافقون : لا نحارب رسول الله ونحن مسلمون ، وهم على الحقيقة فاسقون ومنافقون في قولهم كاذبون ، فضرب الله لهم مثلا بالشيطان ، وهو شيطان منافق من الآدميين ، وليس فيما أظن من تلك الشياطين ؛ لأنه قال : ﴿إني أخاف الله [رب العالمين﴾ لما جبن وذل ، وخشي أن يعاقب أو يقتل ، فجعل الدين جنة يحتمي بها وينافق خوفا من العقوبة لما رهبها ، وشياطين الجن لا تقع أبصار المؤمنين عليهم ، ولا ينافقون خوفا لعقوبتهم"[2] .

ثم قال تعالى :﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا﴾ الشيطان والإنسان ، أي : كان عاقبة أمرهما ، وآخر شأنهما ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾ ومحل الظلمة الأشرار ﴿خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ﴾ أي : الوقوع فيها والخلود ﴿جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بالكفر ومعاداة الرسول .

ثم رجع تعالى إلى موعظة المؤمنين فقال :﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي : يوم القيامة من عمل صالح .

قال الإمام الناصر لدين الله عليه‌السلام في برهانه :" يجب على كل مسلم أن يرعي سمعه إذا قال الله تعالى :﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فإنه خير يؤمر به، أو شر ينهى عنه".اهـ

(﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ كرر الأمر بالتقوى تأكيدا ، وسمى يوم القيامة : الغد ، وهو الذي يلي يومك تقريبا [له] جعله بمنزلة الكائن غدا ، وقلل النفس استقلالا للأنفس النواظر فيما

---

(١) وفي البرهان : وهذا مثل ضربه الله تعالى للكافر في طاعته لرؤسائه في الكفر والضلالة ، وهو عام في كل من هذه صفته (٣٧٤) . وقال الحاكم : وقيل : كمثل الشيطان يوم بدر دعا إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وآله فلما رأى الملائكة رجع القهقرى .

(٢) قال الحاكم الجشمي في تفسيره : ومتى قيل : كيف يقول :﴿أخاف الله﴾ وهو يدعوهم إلى الكفر ؟ قلنا: قيل إنه يقولها تصنعا وغلقا لا تحقيقا ، وقيل : يقولها يوم القيامة ، وقيل : قاله يوم بدر حين رأى الملائكة .

قَدَّمَتْ إلى الآخرة [١] كأنه قال : فلتنظر نفس واحدة في ذلك ، ونكر الغد تعظيما له ، وإبهاما لأمره كأنه قال : لغَد لا يعرفُ كنهه لعظَمه) .

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فهو يحفظه عليكم ويجزيكم بحسنه وسيئه .

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ أي : تركوا حقه وطاعته قال ابن عباس :" هم بنو قريضة والنضير وبنو قينقاع ، وهم يهود المدينة ﴿فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ فجعلهم ناسين لأنفسهم ، أي : تاركين لحقها من الخير ، وذلك بأن خذلهم حتى لم يسعوا لها بما ينفعها عنده ، أو أنساهم إياها يوم القيامة بما يريهم من الأهوال .

وفي البرهان "يعني ﴿نسوا الله﴾ بترك شكره على ما أولاهم ، وتعظيمه على ماأسداهم ﴿فأنساهم أنفسهم﴾ بالعذاب أن يذكر بعضهم بعضا "[٢] .اهـ

المعنى : أنهم لما نسوا الله تركهم على نسيانهم لأنفسهم ؛ لأن من نسي الله فقد نسي نفسه من الخيرات ، وأوقعها إلى أعظم الهلكات ، فلما نسوا الله كان ذلك نسيانا لأنفسهم ، ولما تركهم على نسيانهم جاز أن يقول : ﴿أنساهم﴾[٣] .

---

(١) والتقليل مستفاد من التكير ، قال السيد العلوي في حاشيته (٣١٠): (الانتصاف) قال في قوله :﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ المراد بالتنكير التكثير ؛ لأن كل نفس حينئذ تعلم ما أحضرت ، كقوله :﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا﴾ حتى قيل : إنه من عكس الكلام الذي قصد به الإفراط ، كقوله تعالى :﴿ربما يود الذين كفروا﴾ وهي بمعنى كم ، فقدر المصنف هنا ما يطابق الواقع من قلة الناظر في المعاد ، فالفعل الذي أسند إلى نفس ، ليس في وقوع النظر بل في طلب النظر فهو عام التعلق بكل نفس ، قال صاحب الإنصاف : إن ما ذكره المصنف أمكن وأحسن ، وقال الطيبي : أصل الكلام يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وانظروا ما تقدمون لأنفسكم ليوم القيامة ، فوضع موضع الضمير نفس منكرة تقليلا لها ، وتقريعا على قلة النظر في العاقبة ، وأقيم مقام يوم القيامة غدا منكورا تهويلا ، كأنه قيل لتنظر نفس واحدة لذلك اليوم الهول ، ومنه قوله : ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ ثم رشح التقريع بقوله :﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله﴾ الآية . وما بين القوسين من قوله :﴿واتقوا الله﴾ إلى قوله : لعظمه مثله في الكشاف ٤/٨٦.

(٢) البرهان : ٣٧٤.

(٣) قال الحاكم في تفسيره : قيل : تركوا ذكر الله فأنساهم بأن خذلهم حتى صاروا كالمنسي في حال استحقاق الثواب وقيل : نسوا الله بترك ذكره فأنساهم أنفسهم بالعذاب ، الذي ينسى بعضهم بعضا لأجله عن أبي علي ، كقوله :﴿فسلموا على أنفسكم﴾ وقيل : لا تكونوا كالذين نسوا علوم الله حتى أنساه ذلك نفسه ، فلم يتفكر في مصائره وشر عواقبه ، وإنما يتفكر في ملاذه وشهواته ، وقيل : أنفسهم : حظ أنفسهم أن يقدموا لها ، يعني لم يذكرهم بألطاف بل خذلهم . (التهذيب ٥٠٨) .

ثم قال: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ والمقصود منه الذم.

واعلم أنه تعالى لما أرشد المؤمنين إلى ما هو مصلحتهم يوم القيامة بقوله: ﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ وتهدد الكافرين بقوله: ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ بيّن الفرق بين الفريقين فقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ وهذا تنبيه للناس بشدة غفلتهم، وقلة فكرتهم في العاقبة، وانهماكهم في الشهوات، كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار، ولا البون الذي بين أصحابهما، وأن الفوز مع العمل الصالح، وهو الظفر بالجنة [1].

ثم إنه تعالى لما شرح هذه البيانات عَظَّمَ أمر القرآن فقال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ يريد عز وجل أنا لو ركبنا في الجبل من العقل ما ركبنا فيكم، ثم سمع هذا القرآن وما فيه من التهدد والوعيد ﴿لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا﴾ متقطعا متحركا من الرهبة فزعا [2] ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وهذا مثل ضربه الله، وتمثيل وتخييل على جهة المبالغة، بالغ في عظم موعظة القرآن، والمبالغة جارية في الكلام، ولا تعد من الكذب، وليس بتحقيق بدليل قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ إشارة إلى هذا المثل وأمثاله في مواضع [من] التنزيل، والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وقلة تخشعه عند قراءة القرآن، وتدبر زواجره.

وقوله: ﴿نضربها للناس﴾ أي: نمثلها كما يضرب المثل ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: لإرادة أن يتفكروا، فيعملوا بها؛ لأن الأمثال طرق إلى المعاني المحتجبة تكشف عنها وتصورها للأفهام حتى تريك المتخيل في صورة المتحقق، والغائب في صورة

---

(١) انظر الكشاف ٥٠٩/٤ وزاد فيه: فمن حقهم أن يعلموا وينبهوا عليه، كما تقول لمن يعق أباه: هو أبوك. تجعله بمنزلة من لا يعرفه فتنبهه بذلك على حق الأبوة الذي يقتضي البر والتعطف.

(٢) الإنزال: إرسال الشيء من علو إلى سفل، أنزله إنزالا، ونزله تنزيلا. التصدع: التفرق بعد التلازم، ونظيره التفكك، صدع يصدع صدوعا، وهو مصدر، ومنه الصداع في الرأس، وتصدع تصدعا، وانصدع انصداعا. التهذيب ٥٠٨.

المشاهد[١].

واعلم أنه تعالى لما وصف القرآن بالعظم، ومعلوم أن عظم الصفة تابع لعظم الموصوف أتبع ذلك بشرح عظمة الله فقال سبحانه:﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق غيره ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ أي: المعدوم، وقيل: ما غاب عن العباد ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الموجود المدرك كأنه يشاهده، وقيل: ما يشاهده العباد، وقيل: السر والعلانية، وقيل: الدنيا والآخرة[٢].

وفي تفسير الحسين بن القاسم عليه‌السلام: الغيب: ما غاب عن محضرك قال الشاعر:

وليس أخي من كان لي عند محضري ولكن أخي من كنت بالغيب أطلبه

والشهادة: هي الأسباب الحاضرة قال الشاعر:

ولقد شهدت الخيل تضبح في حياض الموت ضبحا

يريد حضرت وشاهدت، ويحتمل أن يكون الغيب: هو الضمير [بالجنان] والشهادة: هي الكلام والإقرار باللسان" اهـ.

ومعنى ﴿هُوَ الرَّحْمَانُ﴾ أي: هو ذو الرحمة والإحسان.

وتأويل ﴿الرَّحِيمُ﴾ كتأويل الرحمن، وهو تأكيد لذكر الرحمة، وزيادة في البيان.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ الذي عم ملكه الدنيا والآخرة ﴿الْقُدُّوسُ﴾[٣] أي: البليغ النزاهة عما يستقبح، الطاهر عما لا يليق، ونظيره: السبوح، وفي تسبيح الملائكة (سبوح قدوس)[٤].

---

(١) قال الحاكم: قيل: معناه لو أحيينا الجبل، وركبنا فيه العقل لرأيته خاشعا، وقيل: لو كان الجبل يتصدع من شئ لعظمته لتصدع من هذا القرآن لعظم ذلك، وهذا هو الوجه، وقيل: لو أنزلنا هذا القرآن على جبل مع صلابته لكان ينبغي له أن يتصدع، فينبغي للإنسان مع ضعفه أن يكون عند تلاوته خاشعا متصدعا عن أبي علي (تهذيب ٥٠٩).

(٢) ـ انظر الكشاف ٨٧/٤ وقال في البرهان: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي: عالم السر والعلانية، وما كان وما يكون من الحياة والموت والآجال والأرزاق.

(٣) في مجموع الإمام الهادي عليه‌السلام (باب تفسير معنى القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر.

القدوس: فهو المستحق من خلقه للتقديس، والتقديس: فهو التنزيه والتعظيم، فكذلك ربنا الواحد الكريم.

﴿السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ﴾ واهب الأمن ، أو المصدق رسله بالمعجز .

والسلام : فهو السالم من الآفات التي تحل بغيره النازلات بالخلائق ، الحالة بهم ، الهاجمة عليهم .

والمؤمن : فهو المؤمن لأوليائه من أليم عذابه ، الصارف عنهم ما يوقع بأعدائه من عقابه .

والمهيمن : فهو المتقدس الحاكم الشاهد على خلقه بحكمه العادل .

والعزيز : فهو الغالب الجليل الممتنع المتعالي عن التشبيه والتمثيل ، المتعزز فلا يرام العظيم الجليل فلا يضيام ، المعز لأوليائه المذل لأعدائه .

والجبار : فهو المالك القاهر الذي ما جبر من الأشياء كلها انجبر فكان على ما جبره وصوره من الأجسام فتبارك الله ذو الجلال والإنعام ، الذي جبل الأشياء وجبرها على ما شاء من تصوير خلقها ، وتركيب أجسامها وأبعاضها ، وتقدير ألوانها وأماكنها ، وتغيير طعم ما كولها واختلافها ، فجبر السموات على ما أراد من الارتفاع ، وجبر وجبل الأرضين على ما أراد من الإندحاء والإتضاع ، وجبر ما بينهما على ما يشاء من تصويرهم ، وخلق ما خلق من تقديرهم ، فجعلهم من ضعف ، ثم جعل من بعد الضعف قوة ، ثم جعل من بعد القوة ضعفا وشيبة ، كما قال الله سبحانه :﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ وكذلك جبلهم على ما شاء من خلق أجسامهم ، فجعل منهم الطويل والقصير ، وجعل منهم النبيل في جسمه والحقير ، وكلهم مريد للأفضل من الأمور ، فكانوا كما شاء أن يجعلهم ، وجعل فعله فيهم وفي غيرهم آية لهم ، كما قال سبحانه :﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ فكان تركيب خلقهم كما أراد من تصويرهم لا اختلاف في ذلك ولا تفاوت ، كما قال سبحانه :﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير﴾ فالحمد لله الذي جبل العباد وجبرهم على ما يشاء من تركيب خلقهم محبوبهم من ذلك وغير محبوبهم ، ولم يجبرهم على شئ من أفعالهم صغيرها ولا كبيرها ، دقيقها ولا جليلها ، بل أمرهم ونهاهم ، وبصرهم غيهم وهداهم ، ثم بعث إليهم النبيئين فأمرهم بطاعة رب العالمين ، وحذروهم أن يكونوا له من العاصين ، وخلق للمطيعين ثوابا وللعاصين نكالا وعقابا ، ثم لم يحل بين أحد وبين طاعته ، ولم يجبر أحدا على معصيته ، بل أمر عباده تخييرا ، ونهاهم تحذيرا ، ثم قال ذو المن والعزة والجلال من بعد إكمال الحجة عليهم في كل حال :﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا﴾ وقال تعالى : ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ فتبارك المتقدس عن خلق أفعالهم ، المتعالي عن جبرهم على شئ من أعمالهم ، العدل في كل أفعاله ، الصادق في كل مقاله ، البرئ من شبه المجعولات ، المتعالي عن درك الغفلة والسنات والمتكبر : فهو العظيم الخبير الذي لا يشبهه في القدرة والعظمة كبير .

(٤) وهو بالضم والفتح ، قال الحاكم : القدس : الطهارة ، والتقديس : التطهير ، والقدوس والسبوح روي أنهما من تسبيح الملائكة ، وهي كلمتان في العربية لم يأت على بنائهما غيرهما ، ومعنى السبوح الذي يجب له التسبيح ، والقدوس : الذي يجب له التطهير .

وقال الحسين بن القاسم عليه‌السلام :" معنى السلام : هو السالم من الآفات ، الـذي لا تحل به النازلات "[1] قال الشاعر:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

والمؤمن : هو المؤمّن لأوليائه من أليم عذابه [وإنما سمى نفسه مؤمنا ، لأمانه للمؤمنين ، وأنهم لا يكونون عنده أبدا مفزعين ، بل يؤمن روعتهم بأمانه للمحسنين ، لأنه كريم يحب الكرم والإحسان ، مؤمن يحب الرحمة والإيمان ، وما عسى أن يبلغ من نعته الناعتون أو ينال من وصف كرمه الواصفون] "[2] . اهـ

﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ "[3] الرقيب على كل شيء الحافظ له ﴿الْعَزِيزُ﴾ القوي الذي لا يغلب"[4] ﴿الْجَبَّارُ﴾ القاهر الذي جبر خلقه على ما أراد ، يقال : جبره بمعنى أجبره ، يحتمل أنه من جبر أي : أغنى الفقير وأصلح الكسير"[5] ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ البليغ الكبرياء والعظمة،وقيل : المتكبر عن ظلم عباده وعما لا يليق .

---

(١) وفي البرهان : السلام : أي : أنه السالم من الآفات والعاهات ، والزوال والفناء بخلاف خلقه ، والثاني : سمي بذلك لسلامة عباده من ظلمه .

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام أول السورة ، وما بين القوسين ليس موجودا في نسخة تفسير الغريب للإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام ، وهي موجودة في أصل هذا التفسير المصابيح .

(٣) ـــ انظر تفسير الإمام زيد في أول السورة .

وفي البساط للإمام الناصر الأطروش عليه‌السلام ص ٥٠ ، في تفسير قوله تعالى :﴿المؤمن المهيمن﴾ قال عليه‌السلام : تقول العرب : آمن فلان نفسه ، وآمن غيره أن يظلمه ، فهو يؤمن نفسه ويؤمن غيره ، أمنا وأمانا ، وإيمانا ، وبهذا الإيمان سمى الله سبحانه نفسه فقال :﴿المؤمن المهيمن﴾ فعنى بالمؤمن المؤمن عباده أن يظلمهم ، والمهيمن : الشهيد عليهم بأعمالهم ولهم ، قال جل ذكره في تبيان أن المهيمن الشهيد :﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾ [المائدة ٤٨] أي : وشهيدا عليه .

وفي مسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه‌السلام خ ص ٢٩٨ وسألت عن المؤمن المهيمن ، فالله هو المؤمن لأوليائه من سخطه ، والمهيمن : الشهيد ، والله هو الشهيد مع أعدائه بمعصيته ، انظر مجموع تفسير الأئمة .

المهيمن : مفتعل من الأمانة ، وأصله مؤيمن ، قلبت الهمزة هاء ، وفخم اللفظ به لتفخيم المعنى .

(٤) وزاد في البرهان : العزيز في امتناعه وانتقامه (٣٧٥) ,

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عما يجعلونه شريكا له في الإلهية من الأصنام وغيرها .

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ﴾ الخالق : المقدر لما يوجده [1] والبارئ : المميز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ الممثل [2] ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ التي هي أحسن الأسماء لدلالتها على التقديس والتعظيم ، وجميع أسمائه حسنى لنفي القبائح من فعله ، وأنه لا يفعل إلا حسنى ، ولا يأمر إلا بحسن ، فلذلك صارت أسماؤه وصفاته حسنى .

﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قد مر تفسير التسبيح .

أبو هريرة : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن اسم الله الأعظم فقال :(عليك بآخر الحشر) فأعدت عليه فأعاد علي ، فأعدت عليه ، فأعاد علي [3] .

وفي الثمرات عنه صلى الله عليه وآله وسلم :(من قرأ آخر سورة الحشر ﴿لو أنزلنا﴾ إلى آخره فمات من ليلته مات شهيدا) [4] .

---

(٥) وفي البرهان : العظيم الشأن في القدرة والسلطان .

وقال الحاكم : الجبار : العالي الفائت الذي لا تناله الأيدي ، وهو من التعظيم ، وجبروت الله عظمته ، وقيل : هو من الجبر الذي هو الإصلاح ، جبرت العظم أجبره إذا أصلحته بعد الكسر ، وجبرته فجبر ، وهو لازم ومتعد .

(١) قال الحاكم : الخلق : الإبداع على تقدير لا ينقص عن مراده ولا يزيد ، وقيل : الخلق أن يفعل لا بآلة ، وقيل : هو الاختراع . والبرء والخلق من النظائر ، برأ الله الخلق أي خلقهم .

(٢) وفي البرهان : المصور : لتصويره الخلق على مشيئته ، قال :

الخالق البارئ المصور في الأرحام ماء حتى يعود دما

(٣) حديث أبي هريرة في القرطبي ٤٩/٨ بلفظ : عن أبي هريرة سألت خليلي أبا القاسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن اسم الله الأعظم .. الخ وهو في مجمع البيان عن أبي هريرة ، قال : سألت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

(٤) الثمرات : كتاب في تفسير آيات الأحكام ، وهو للفقيه العلامة يوسف بن أحمد بن عثمان الثلائي ، عالم مجتهد ، مفسر ، من أعيان العلماء في القرن التاسع ، أخذ عن العلامة الفقيه الحسن النحوي ، والعلامة عبد الله بن الإمام يحي بن حمزة ، والعلامة الفقيه أحمد بن سليمان الأوزري ، وغيرهم ، حتى أصبح من كبار العلماء ، وكان بين طلبته وبين طلبة الإمام أحمد بن يحي المرتضى منافسة ، وقد عكف على التدريس في جامع ثلا ، وأقبل الناس للأخذ عنه من سائر البلدان ، ومن أشهر تلامذته ، القاضي يحي بن أحمد مظفر ، صاحب البيان الشافي ، ومن أشهر كتب المترجم له (الثمرات اليانعة من آي القرآن المجتناة من كلام الرحمن في تفسير آيات الأحكام) كتاب شهير ، قال السيد المولى العلامة مجد الدين المؤيدي حفظه الله : وما يقع في الثمرات في أسباب نزول الآيات من المخالفة للحق الذي عليه العترة

وعنه صلّى الله عليه وآله وسلم (من قرأ آخر سورة الحشر غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر) رواه السيد العلوي رحمه الله في حاشية الكشاف .[1]

المطهرة عليهم السلام ، والروايات المعلومة المتواترة ، فمنشؤه الاعتماد على كتب المخالفين في النقولات ، مع عدم الالتفات إلى تصحيح الروايات ، على غير قصد لما تضمنه من الدلالات ، ولا تعمد لمخالفة المعلومات ، وموجب التأويل لمثل هذا العالم ما علم من الحال من الطريقة الصالحة ، والسيرة المرضية مع عدم التصريح بما يوجب التأثيم ، الخ توفي المترجم له بثلا في جمادى الآخرة سنة ٨٣٢هـ ، وعنه وعن مؤلفاته انظر (أعلام المؤلفين الزيدية ، وفهرست مؤلفاتهم) تحت الطبع ، ومن مصادر ترجمته أيضا أئمة اليمن لزبارة ٣٠٤/١ ، الجواهر المضيئة للقاسمي خ ، طبقات الزيدية للسيد إبراهيم بن القاسم خ ، البدر الطالع للشوكاني ٢/ ٣٥٠ ، المقصد الحسن للعلامة أحمد بن يحي حابس في رجال الأزهار للجنداري ، في أول شرح الأزهار ، ص ٤٢ ، لوامع الأنوار للمولى العلامة مجد الدين المؤيدي ٣١٧/١ مطلع البدور ، لابن أبي الرجال . والحديث أخرجه الثعالبي عن يزيد الرقاشي عن أنس ، وفي القرطبي ١/١٨ ، وأعاده عن .. ٤٩/١٨ بلفظه ، وفي مجمع البيان ٣٣٦/٩.

(١) السيد العلوي : هو السيد يحي بن القاسم بن عمر بن علي العلوي ، اليماني ، الصنعاني [٦٨٠ هـ ـ ٧٥٣] عالم حافظ ، مفسر ، رحالة ، مولده ونشأته باليمن ، وأخذ عن علمائها حتى برع في فنون العلم ، ثم رحل إلى عدة بلدان إسلامية ، فدخل دمشق سنة ٩٤٧هـ وزار بغداد ، والري (وهي المسماة الان بطهران عاصمة الجمهورية الإسلامية الإيرانية) والديلم ، وأصفهان ، وكان شاعرا مجيدا ، ومؤلفا بارعا ، لاقت مؤلفاته استحسانا كبيرا من العلماء ، ومن أشهر كتبه حاشيته على الكشاف ، تعرف بحاشية العلوي ، وتسمى تحفة ذوي الإشراف في كشف غوامض الكشاف ، وتسمى أيضا (درر الأصداف في حل عقد الكشاف) مخطوطة في عدة مكتبات عامة وخاصة ، وهي حاشية نفيسة ، وابن شهاب في حاشيته على البيضاوي يعتمدها ، وكثير من المعلقين على الكشاف ويطلقون عليه المحقق العلوي والنصف الأخير موجود لدينا مخطوط ، وإلى الآن لم نحصل على الجزء الأول نسأل الله تيسيره لنا ، توفي المترجم له ببلاد الشرف ، وقبر بجهة اللحب ، ومن مصادر ترجمته (أعلام المؤلفين الزيدية) (مصادر التراث الإسلامي في المكتبات الخاصة) (أئمة اليمن ٢٥٠/١) (البدر الطالع ٣٤٠/٢) (طبقات الزيدية خ) (المستطاب خ) (مطلع البدور) .

ولفظ الحديث في حاشية العلوي : (عن رسول الله صلى الله عليه وآله : من قال حين اصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعون ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي ، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيدا ، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة) .وهو في تهذيب الحاكم عن أنس .

والحديث في تفسير القرطبي عن أنس ٤٩/١٨ ، وهو في مجمع البيان ٣٣٦/٩ ، والحديث أيضا في كنز العمال ٥٩٣/٢ بلفظه ، وعزاه إلى أبي الشيخ عن أبي أمامة ، وهو في موسوعة أطراف الحديث النبوي ٤٨٢/٨ ، وعزاه إلى كنز العمال وهو بلفظ من قرأ خواتيم الحشر من ليل أو نهار فقبض في ذلك اليوم أو الليلة فقد أوجب الجنة ، في كنز العمال رقم ٢٦٤٣ ـ وعزاه إلى (عد هب) عن أبي أمامة ، وهو في موسوعة أطراف الحديث النبوي ٤٧٢/٨ ، وعزاه إلى الكنز ، وإلى إتحاف السادة المتقين ٤٦٨/٤.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :(من قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي وإن مات في ذلك اليوم مات شهيدا ، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة) [١]. وعنه صلى الله عليه وآله (من قرأ آخر سورة الحشر فمات وجبت له الجنة) [٢] .وجاء في الحديث الرباني (أن من قرأ آخر سورة الحشر من قوله :﴿لو أنزلنا هذا القرآن﴾ وهو واضع ليده على رأسه كان في ذلك شفاء من كل شيء إلا السام) [٣] وروى المقرئ الفاضل أحمد بن مسعود العنسي بإسناد طويل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال :(قرأت القرآن على جبريل عليه السلام فقال لي : ضع يدك على رأسك وقال : قرأت القرآن على إسرافيل عليه السلام فقال لي كذلك ، وقال : إن الملائكة قرؤوا القرآن كله حتى انتهوا إلى آخر سورة الحشر فقال تعالى : ضعوا أيديكم على رؤوسكم فقالوا : يا ربنا و لم هذا ؟ فقال لهم رب العزة : هذه الآية شفاء من كل شيء إلا السام) يعني الموت . والله أعلم

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٩٢٢ وقال : حديث حسن غريب ، وأحمد بن حنبل في مسنده ٢٦/٥ ، والبغوي ٧٣/٧ وهو في مجمع الزوائد ١١٤/١٠ ، والترغيب والترهيب ..٤٤٧/ ، وإتحاف السادة المتقين ١٣٢/٥ ، ومشكاة المصابيح برقم ٢١٥٧، وعزاه في موسوعة أطراف الحديث النبوي ٤٣٢/٨ إلى من سبق وإلى ابن السني ٧٨، ٦٢٥ ، وهو في كنز العمال برقم ٣٥٩٧، وعزاه إلى أحمد والترمذي والطبراني وابن السني والبيهقي ، وهو في تفسير القرطبي ١/١٨.

(٢) ذكره القرطبي ٤٩/١٨ عن أبي أمامة بلفظ مقارب ، وهو في مجمع البيان ٣٣٦/٩. وفي تهذيب الحاكم :عن أبي أمامة : من قرأ خواتيم الحشر من ليل أو نهار فقبض في ذلك اليوم أو الليلة فقد أوجب الجنة .

(٣) في مجمع البيان)/٣٣٨ ، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اسم الله الأعظم في ست آيات في آخر سورة الحشر .

سورة المجادلة

مدنية احدى وعشرون آية في المدني والمكي ، واثنتان في عدد الباقين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ *قال الإمام الناصر لدين الله* عليه السلام *في برهانه* : هي خولة ابنة ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت رآها وهي تصلي ، وكانت حسنة الجسم ، وكان بالرجل لمم فلما سلمت راودها فأبت ، فغضب وكان به خفة ، فظاهر منها ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تستفتيه في ذلك ، فقالت : إن أوسا تزوجني وأنا شابة مرغوب فيّ فلما خلا سني ونثر بطني ــ أي : كثر ولدي ــ جعلني عليه كأمه [١].

وروي [٢] أنها قالت له : إن لي صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلي

---

(١) هذه الرواية موجودة في الكشاف بلفظها وقال في تخريجها : أخرجه الدار قطني والبيهقي . وأما لفظ البرهان فهو : ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾ هي خولة ابنة ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت وكان قد ظاهر من امرأته ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وآله تستفتيه في ذلك وتشتكي إلى الله فأنزل الله تعالى قوله :﴿قد سمع الله﴾ .اهـ وكذلك الرواية الثانية وهي قوله : وروي أنها قالت ... الخ موجودة في الكشاف وليست موجودة في البرهان . وإنما الموجود في البرهان هو ما ذكره في تفسير قوله تعالى :﴿وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما﴾ وهو قوله : وروينا أن أم سلمة . ومعنى (خلا سني) : مضى سني . (علوي) .

(٢) هذه هي الرواية الثانية في الكشاف . وقد جمع إليها المصنف الرواية الثالثة في الكشاف وأتمها بها ، ولفظ الكشاف بعد قوله : (ما عندي في أمرك شئ) : وروي أنه قال لها : حرمت عليه ، فقالت : يا رسول الله ما ذكر

جاءوا فقال : ما عندي في أمرك شيء ، فقالت : أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي[١] كلما قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله حرمت عليه هتفت وبكت إلى الله فأنزل الله تعالى ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾[٢]. ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾

طلاقا وإنما هو أبو ولدي وأحب الناس إلى فقال : حرمت عليه ، فقالت : أشكو إلى الله فاقتي ووجدي .. الخ ما ذكره المصنف هنا (الكشاف ٤/٤٨٤، ٤٨٥).

قال ابن حجر في تخريجها : هذه الرواية الثانية أخرجها الطبري من طريق أبي معشر ، عن محمد بن كعب القرظي قال: كانت خولة بنت ثعلبة تحت أوس بن الصامت ، وكان رجلا به لمم فقال في بعض هجراته : أنت علي كظهر أمي ، قال : ما أظنك إلا قد حرمت علي ، فجاءت إلى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فقالت : يا نبي الله إن أوس بن الصامت أبو ولدي وأحب الناس إلي ، والذي أنزل الكتاب ما ذكر طلاقا ، قال : ما أراك إلا حرمت عليه ، فقالت : يا رسول الله لا تقل كذلك ، والله ما ذكر طلاقا ، فراودت النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مرارا ثم قالت : اللهم إني أشكو إليك فاقتي ووحدتي ، وما يشق علي من فراقه ... الحديث ، ومن طريق أبي العالية قال : فجعلت كلما قال لها : حرمت عليه هتفت وقالت : أشكو إلى الله ، فلم ترم مكانها حتى نزلت .

(١) في الكشاف : أشكو إلى الله فاقتي ووجدي ، وفي المصابيح أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ، وكذلك هو في تخريج ابن حجر لهذا الحديث في الكشاف (الكشاف ٤/٤٨٥) . ومعنى (هتفت) : صاحت ودعت (علوي) .

(٢) في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليهما السلام من تفسيره هذه السورة ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام في قوله تعالى :﴿والذين يظهرون منكم من نسائهم﴾ وهو أن يقول لامرأته : أنت علي كظهر أمي ، فإذا قال ذلك ، فليس له أن يقربها حتى يعتق رقبة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فإن لم يقدر على ذلك أطعم ستين مسكينا ، فإذا فعل ذلك فله أن يقربها .وقوله تعالى :﴿كبتوا كما كبت الذين من قبلهم﴾ معناه : أهلكوا كما أهلك الذين من قبلهم .

وقوله تعالى :﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾ فالنجوى : السر ، والله عز وجل بكل الأمكنة محيط بها ، ومدبر لها ، وشاهد لها غير غائب عنها ، وكل ذلك منه بخلاف ما يعقل من خلقه .

وقوله تعالى :﴿وإذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله﴾ وهو قول اليهود : سام عليكم .

وقوله تعالى :﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم﴾ معناه : أوسعوا.

وقوله تعالى :﴿وإذا قيل انشزوا فانشزوا﴾ معناه : إذا قيل لكم : قوموا . فقوموا .

وقوله تعالى :﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ معناه : غلب عليهم وحازهم .

وقوله تعالى :﴿من حاد الله ورسوله﴾ معناه : من شاق الله وعاداه .

وقوله تعالى :﴿وأيدهم بروح منه﴾ معناه : قواهم . وقوله تعالى :﴿يحادون﴾ معناه : يعادون .

وروينا (أن أم سلمة [1] زوج النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قالت : تبارك الله الذي أوعى سمعه كل شيء سمع الله كلام خولة بنت ثعلبة وأنا في ناحية البيت ما أسمع بعض ما تقول ، وهي تقول : كَلّ شبابي وانقطع ولدي ، ونثرت له بطني ، حتى إذا كبر سني ظاهر مني اللهم إني أشكو إليك فما برحت حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية .

وفي *التجريد* فقال لها ــ يعني أوسا ــ ما أراك إلا قد حرمت علي ، فقالت : والله ما ذكرت طلاقا ، وأمرها أن تأتي رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فتسأله ثم أتت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فقالت : يا رسول الله أوس أبو ولدي ، وابن عمي ، وأحب الناس إلي ، ظاهر مني ، والله ما ذكر طلاقا ، فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : (ما أراك إلا قد حرمت عليه) فقالت : أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ، وجعلت تراجع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فكلما قال : (حرمت عليه) هتفت وشكت إلى الله فنزلت ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾ أي : في قول زوجها كلما قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله :(قد حرمت) قالت : والله ما ذكر طلاقا ، فهذا جدالها ، فبينا هي كذلك إذ تربد وجه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ونزلت هذه الآية.

ثم إنه صلى‌الله‌عليه‌وآله أرسل إلى زوجها فقال :(ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : الشيطان فهل من رخصة ؟ قال : نعم ، وقرأ عليه الأربع الآيات ، وقال له هل تستطيع العتق ؟ فقال : لا والله ، فقال : هل تستطيع الصوم ؟ فقال : لا والله لولا أني آكل في اليوم مرة أو مرتين لَكَلَّ بَصَرِي ، ولظننت أني أموت ، فقال له : فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكينا ؟ فقال : لا والله يا رسول الله إلا أن تعينني منك بصدقة ، فأعانه بخمسة عشر صاعا ، وأخرج من عنده مثله ، فتصدق به على ستين مسكينا.

واعلم أن في هذا الخبر مباحث :

قال أبو سليمان الخطابي [2] : ليس المراد من قوله في هذا الخبر : وكان به لمم : الخبل

---

(١) وهو في الكشاف عن عائشة ٤/٤٨٤.

(٢) أبو سليمان الخطابي : هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب الخطابي البستي (٣١٩- ٣٨٨هـ) من ولد زيد بن الخطاب أخي عمر بن الخطاب ، أبو سليمان . محدث ، لغوي ، فقيه ، أديب ، ولد وتوفي ببست في رباط علي

الجنون ، إذ لو كان كذلك ثم ظاهر في تلك الحال لم يكن يلزمه شيء ، بل معنى (اللمـــم) هاهنا : هو الإلمام بالنساء وشدة الحرص والتوقان إليهن .

البحث الثاني : أن الظهار كان من أشد طلاق الجاهلية ؛ لأنه في التحريم أوكد ما يمكن فإن كان ذلك الحكم صار مقررا بالشرع كانت الآية ناسخة له ، وإلا لم يُعَدّ نســخا ؛ لأن النسخ إنما يدخل في الشرائع لا في عادة الجاهلية ، لكن الذي روي أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال لها : (حرمت) أو قال :(ما أراك إلا قد حرمت) كالدلالة على أنه كان شرعا ، وأما ما روي أنه توقف في الحكم فلا يدل على ذلك .

البحث الثالث : أن هذه الواقعة تدل على أن من انقطع رجاؤه عن الخلق ، و لم يبق له في مهمه أحد سوى الخالق كفاه الله ذلك المهم[(١)] .

قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام :معنى ﴿سمع﴾ يحتمل وجهين *أحدهمـــا :* علـــم. *والثاني :* أجاب دعاءها ورحم تضرعها ونداءها ، وهي امرأة من الأنصـــار [ظاهرهـــا زوجها ثم ندمت عليه وندم عليها].

ومعنى ﴿تجادلك﴾ تخاطبك في زوجها وتسألك ، ومعنى قوله :﴿وتشتكي إلى الله أي : تدعو الله وتشكو إليه فراق زوجها ومعنى ﴿والله يسمع تحاوركما﴾ يريد : والله يعلـــم مخاطبتكما وكلامكما[(٢)] .اهـــ

شاطئ هِنْدَمَنْد ، من تصانيفه : معالم السنن في شرح كتاب السنن لأبي داود ، غريب الحديث ، شـــرح البخـــاري ، أعلام الحديث ، إصلاح الغلط ، وله شعر ، وانظر مصادر ترجمته في أعلام المؤلفين ٢٣٨/١.

وفي هذا الكلام رد على من قال بأن معنى اللمم : الجنون ، كما قال عليان في حاشيته على الكشاف : اللمم أي : طرف من الجنون ، أو مس من الجن ، أفاده الصحاح (الكشاف ٤٨٤/٤) وقد بين فساد هذا المعنى المصنف والرازي في قولهما : قال أبو سليمان الخطابي.

(١) من قوله :(واعلم أن في الخبر مباحث) إلى هنا مثله في الرازي ٣٤٩/٢٩، ٢٤٩، ٢٥٠.

(٢) ما بين أقواس الزيادة من تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

ثم قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام في تفسيره غريب القرآن بعد قوله : مخاطبتكما وكلامكما :

قال الشاعر : غراء أكمل من يمشي على قدم حسنا وأحسن من حاورته الكلما

ومعنى قوله :﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم﴾ معنى الظهار : هو طلاق الجاهلية ، وقيل : هو قول القائل : هي عليه كظهر أمه ، قال الله ﴿إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا﴾والمنكر: هو ما لا يرضاه الله عز وجل ، وأما الزور : فهو الكذب والمحال .

﴿إن الذين يحادون الله ورسوله﴾ أي : يحاربون أولياء الله ، ويتعدون حدوده ، ويعصون أمره ﴿كبتوا كما كبت الذين من قبلهم﴾ قيل : أي معنى ﴿كبتوا﴾ أي : عموا عمى ، وردوا وخابوا ونكبوا ، و لم يظفروا بما أحبوا وبما طلبوا .

ومعنى ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾ وأصل النجوى هو الكلام والخطاب ، قال الشاعر :

هل أنت سامعتي أم قد صممت فلا نجوى تردين من غيٍّ ومن رَشَد

ومعنى ﴿إلا هو معهم﴾ يريد : أنه غير غائب عنهم ، بل شاهد لا يغيب منهم ، وهو مدبر في كل الأماكن ، لا يخلو من تدبيره وشهادته أحد ، بل هو مدرك بشهادته ، وليس كما يتوهمه الجاهلون أنه معهم بذاته ، وبيان ذلك في الرد على المشبهة في كلامنا ، وقطعنا لكفرهم بجدلنا .

ومعنى ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول﴾ يريد عز وجل أنه نهاهم عن الغيبة والانتقاص للمسلمين ، ثم عادوا و لم يقلعوا ، و لم يتوبوا إلى الله ، وشنع الله إقدامهم على ذلك ، وقال عز وجل :﴿وإذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ يريد عز جل أنهم إن جاؤا رسول الله حيوه وسلموا عليه في ظاهر قولهم ، ويعتقدون في ذلك الشتم في قلوبهم ، والأذية له والانتقاص للمسلمين في ضميرهم ، ويقولون في أنفسهم هلا يعذبنا الله بما نقول ، واليه اعتقادنا في محمد يؤول لو [كان] محمد كما يقول لعاقبنا الله في شتمنا له ويعذبنا في عيبتنا وطعننا عليه ، ولنصر منا رسوله ، فرد الله عليهم فيما اعتقدوا وأظهر قبيح ما كتموا فقال :﴿حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾ يقول عز وجل : كفى لهم بجهنم ، وهي كفايتهم ، وهي عذابهم عند الله ونقمتهم .

ومعنى قوله ﴿إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ يريد عز وجل أن الغيبة منهم لأولياء الله طاعة للشيطان ، وسخط ومعصية للرحمن ، ثم قال عز وجل : إن هذه النجوى التي أمر بها الشيطان لا يضر بها أحد من المسلمين ومعنى ﴿ إلا بإذن الله ﴾ يريد أنه لم يقدر هو وأعوانه على عيبة المؤمنين إلا بتخلية الله لهم ، ليثبت أولياءه على غمهم أكثر مما نالهم من كلام أعدائهم .

ومعنى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم﴾ يريد : أنه يفتح الله لكم ، ويوسع لكم في معيشتكم ، وفي دنياكم وآخرتكم ، ثوابا على توسيعكم في المجلس لإخوانكم ؛ لأنه عز وجل يثيب على القليل اليسير بالثواب الجزيل العظيم الكثير ، فانظروا رحمكم الله كيف جعل الرحمة والثواب في كل عمل من الأعمال ولو قل وصغر عند العلماء والجهال ، فذلكم يدلكم على رحمة الله الواحد المفضال ، فاطلبوا ثوابه في جميع الأحوال ، وتقربوا إليه بحسن الفعل والمقال ، والرحمة للعباد واللطف وحسن الجدال .

ومعنى قوله : ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾ [أي : ارتفعوا وقوموا ، قيل : حتى يجلس العلماء مكانكم ؛ لأنهم أحفظ

وأروى للحكمة منكم . ﴿وانشزوا﴾ وقوموا لما شاء نبيكم وولي أمركم وإمامكم ، والنشوز في لغة العرب هو النهوض والقيام والانتصاب قال الشاعر

انشزوا عنا فأنتم معشر أهل رجس وفجور وأشر

ومعنى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلكم خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم﴾ روى بعض هذه الأمة ونقلوا في رواياتهم ما الله به أعلم وهو حسن لا بأس به إن أكثر التجلي عند رسول الله صلى الله عليه وآله والتزين في عينه بكثرة السؤال في المخاطبة والعلم والجدال ، فأراد الله عز وجل أن يكشف أمرهم ، ويبين لنبيه عوارهم وزهدهم في الحق ونفاقهم وكفرهم ، فأنزل الله هذه الآية ليمتحنهم ويختبرهم ليفتقروا بالصدقة ويبلوهم ، فوقفوا عن السؤال خوفا من الإنفاق ، وتبين عند ذلك ما كانوا يخفون من النفاق ، ثم صير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه صلوات رب العالمين وكان يتصدق ويسأل نبيه صلى الله عليه وآله ، ويبحث من العلم والحكمة ما لديه ، وتاب قوم بعد ما وقفوا عن السؤال ورجعوا عن البخل ولزوم الأموال ، واستغفروا الله مما أتوا به من أقبح المقال ، فعطف عليهم بالتوبة سيدنا ذو الجلال ، وعاتبهم سبحانه بأحسن المقال فقال لهم عز وجل : ﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ فروى هؤلاء الفقهاء في رواياتهم أن الله نسخ آية النجوى بقوله :﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ يعني زكاة الأموال ، ولنا في هذا ومثله نظر بتوفيق الله ذي الجلال ، ومعنى ﴿ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم﴾ يعني بذلك المنافقين الذين تولوا أعداء الله الفاسقين ، فأخبر الله عز وجل أن هؤلاء المنافقين ما هم من المسلمين ، ولا من المحاربين ، ولكنهم كما قال الله عز وجل مذبذبين ، وكما قال في هذه السورة :﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فهم لا يحاربون لضعفهم وجبنهم ، ولا يؤمنون لما هم عليه من كفرهم وفسقهم وإنما همتهم الكذب والفسق والمحال والنفاق والخسة والجهل والضلال "

ثم قال عز وجل :﴿أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ إلى قوله :﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ أي : تولاهم وانقطع في ضلالهم وحازهم وحواهم في الضلالة واقتطعهم ، ومعنى ﴿أولئك حزب الشيطان﴾ يريد أنهم أصحابه وجماعته ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ يريد عز وجل : وعْدٌ وحُكْمٌ لأغلبن أنا ورسلي بالدين والحق الواضح النير المستبين ، والحكمة الباهرة ، والصدق واليقين ، ثم الغلبة الثانية من الرحمن بما يحل بأعدائه من الموت والأحزان ، وتمزق أعضائهم في القبور والأكفان ، والثالثة عند البعث والهوان والحساب والعذاب في النيران ، فهو عز وجل قاهر غالب هو وأولياؤه وحزبه وأنصاره وأحباؤه .

ومعنى ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾ وصدق الله عز وجل أنك لا تجد مؤمنا يواد كافرا ، ولو كان أقرب الناس إليه ، ولا تجده له محبا ولو كان أعز الناس عليه ، بل تجد المؤمنين لأعداء الله ماقتين ، ولهم مجانبين ، وغير وامقين ، لأن الله عز وجل جعلهم للمقت

والمحاورة : مراجعة الكلام ، قال عنترة :

لو كان يعلم بالمحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي[١]

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي : عليم بكل مسموع ﴿بَصِيرٌ﴾ عليم بكل مبصر .ثم قال : ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ أي : أزواجهم[٢]. قال في *التجريد* : قرئ ﴿يَظَّهَّرُونَ﴾ بتشديد الظاء ، وأصله يتظهرون ، وقري ﴿يَظَّاهَرُونَ﴾ بتشديدها وفتح الياء وألف بعد الظاء ، وأصله يتظاهرون ، وقرأ *عاصم*[٣] ﴿يُظَاهِرُونَ﴾ بضم الياء وتخفيف الظاء قال في *البرهان* : والظهار : قول الرجل لامرأته : أنت علي كظهر أمي . وكان ذلك في الجاهلية طلاقا باتا لا رجعة فيه ، ولا زوجية بعده ، فنسخه الله بما استقر عليه من وجوب الكفارة فيه بالعود[٤].ثم قال سبحانه :﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ تكذيبا من الله تعالى

مستحقين ، وما أحسب أنه يصر على معاصي الله أحد فيه رفق ولا صلاح ؛ لأنه لا يصر على الكفر إلا وهو نذل دنيء ليس فيه خير ولا صلاح ، فازهدوا رحمكم الله فيهم غاية الزهد ، وأبعدوهم منكم ولو قربت أرحامهم كل البعد. ومعنى قوله عز وجل في المؤمنين المهاجرين الظلمة الكافرين :﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان﴾ يريد : ألهمهم الإيمان وأعانهم ووفقهم لحقيقة الإيقان ، ومعنى ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أي : قواهم بروح القرآن ، كما قال :﴿أوحينا إليك روحا من أمرنا﴾ فسمى القرآن روحا ، ويمكن أيضا في التفسير أن يكون أيدهم بروح من التوفيق والتسديد ، والحكمة والبصيرة والعون والتأييد . ومعنى ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ يريد : أنهم جماعة أوليائه وأنصاره ، وأهل محبته وتقديمه وإيثاره . ومعنى ﴿هم المفلحون﴾ يريد : أنهم الباقون الرابحون ، نسأل الله الفلاح برحمته والتوفيق لجهاد أهل معصيته وعداوته ، فالجهاد أفضل ما دعا به الداعون ، وأنبل ما طلبه من الله الطالبون ، فرحم الله عبدا جاهد بلسانه وقلبه ويده ، واجتهد في نكاية أعداء الله بطاقته ، ومبلغ ما ركب الله فيه من قوته ، حتى يموت على ذلك أو في الجهاد فيبلغ أفضل درجات العباد ، فنسأل الله العون على ما قصدنا من الرشاد ، وهلاك المنكر والمحال والفساد .

(١) مثله في البرهان ٣٧١.

(٢) وفي قوله تعالى :﴿منكم﴾ توبيخ للعرب وتهجين لعادتهم ، يعني أن الظاهر أن يقال : الذين يظاهرون من نسائهم فأقحم منكم ليدمج فيه تهجين عادة العرب . وقد فند السيد العلوي قول صاحب الانتصاف : واستدل بعضهم على أنه لا يصح ظهار الذمي بقوله :﴿منكم﴾ فقال : ليس بالقوي لأنه غير المقصود .

(٣) عاصم هو : عاصم بن أبي النجود أحد القراء المشهورين (تقدمت ترجمته).

(٤) انظر البرهان ٣٧١. وكذلك ما بعده مثله في البرهان ، إلى قوله : فتشبيههم باطل .. الخ

لقوله في امرأته : أنت علي كظهر أمي . فتشبيههم باطل لتباين حالتي الأم والزوجـــة[١] ﴿إنْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ حقيقة ﴿إلَّا اللائي وَلَدْنَهُمْ﴾ فأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة وهو ذم لهم[٢] وتوبيخ ﴿وَإنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ .

قال في *البرهان*[٣] : يعني بـــمنكر القول الظهار، وبالزور: كذبهم في جعل الزوجات أمهات.

وفي *التجريـــد* :﴿منكرا﴾ من القول تنكره الحقيقة؛ لأن زوجة الرجل ليست أما له ، وتنكره الأحكام الشرعية[٤] . ﴿وَإنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ لما سلف من الظهار لمن تاب وفعل الكفارة .

وأما قوله تعالى :﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ فقد اختلـــف في تفسير العود هنا ، فقال *أبو العالية* : "العود لا يكون إلا بتكرير الظهار ، فإذا كـــرر الظهار كان عودا يلزم فيه الكفارة المذكورة ، وإن لم يكرره لم يكن عودا ، ولا يلزمـــه شيء " وهذا قول أهل الظاهر[٥] والعلماء على خلاف ذلك ، وهو أنه يلزمه الكفـــارة من غير اعتبار تكرير اللفظ ، ثم اختلف الأكثرون في معنى العود .

فقال *ابن قتيبة*[٦] وغيره : معناه والذين كانت عادتهم أن يقولوا هذا القول في الجاهلية ،

---

(١) قال السيد العلوي : قوله :(تشبيه باطل) :[هذا هو]معنى كلامه ﴿ما هن أمهاتهم﴾ وفيه إشعار بأن خبر ﴿الذين يظاهرون﴾ محذوف وهو : مخطئون ، و﴿ما هن أمهاتهم﴾ الخ بيان لخطئهم .

(٢) الضمير في لهم للمظاهرين .

(٣) انظر البرهان مخطوط ٣٧١.

(٤) ومثله في الكشاف ٤٨٦/٤ وزاد ﴿وزورا﴾ وكذبا باطلا منحرفا عن الحق) .

(٥) أهل الظاهر : تقدم تعريفهم في الجزء الأول ٧٥ ، قال السيد العلوي : وقال أبو علي : وأما من ذهب من المتأخرين إلى أن الظهار لا يقع في أول مرة حتى يعيد الظهار مرة أخرى فليس بشيء ، وذلك لأن العود على ضربين أحدهما : أن يصـــير إلى شئ وقد كان عليه فتركه ثم صار إليه ، والآخر : أن يصير إلى شئ وإن لم يكن عليه ، قيل : ومنه قول الشاعر :

إذا السبعون اقصدني سراها وسارت في المفاصل والعظام وصرت كأنني أقتاد عنزا وعاد الرأس مني كالثغام

فإن معنى عاد الرأس : صار . انظر العلوي ٣٠٧.

(٦) ابن قتيبة : هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (أبو محمد) عالم مشارك في أنواع من العلوم كاللغة والنحو ، وغريب القـــرآن ، ومعانيه ، وغريب الحديث ، والشعر ، والفقه ، والأخبار وأيام الناس ، وغير ذلك ، سكن بغداد وحدّث بها ، وولي قضاء دينور ، ولـــه مصنفات جمة في كل فن ولد : سنة ٢١٣هـــ توفي سنة ٢٧٦هـــ انظر مصادر ترجمته في أعلام المؤلفين ٢٩٧/٢.

ثم عادوا لقول مثله في الإسلام ، أو عادوا إلى قول الجاهلية فعليهم الكفارة .

وقال *الفراء* [١] : يعودون لما قالوا ، وفيما قالوا معناه : يرجعون عما قالوا ، يقال :عاد لما فعل ، أي : نقض ما فعل

وقال *الأخفش* [٢] : في الكلام تقديم وتأخير ، والأصل والذين يظهرون من نسائهم فتحرير رقبة لما قالوا ، ثم يعودون إلى نسائهم ، و التقديم والتأخير كثير في القرآن .

ورَدَّ *الفارسي* [٣] وغيره ما قاله أبو العالية وأهل الظاهر بأن العود قد يكون إلى شيء لم يكن العائد عليه ، ومنه سميت الآخرة معاداً ، و لم يكن فيها ثم عاد إليها .

واختلف الفقهاء أيضا فقيل : تجب الكفارة بمجرد لفظ الظهار، وقال *الشافعي* [٤]: بأن يسكت عن الطلاق وقتا يمكنه أن يطلق فيه ، لأنه إذا ظاهر فقد قصد التحريم ، وإن وصل ذلك

---

(١) الفراء : هو محمد بن الحسين بن محمد بن خلف الفراء ، البغدادي ، الحنبلي ، أبو يعلى ، محدث ، فقيه ، أصولي مفسر ، ولد في المحرم سنة ٣٨٠هـ وحدث وأفتى ودرس ، وتوفي ببغداد في ٢٠ رمضان ٤٥٨هـ من تصانيفه الكثيرة المعتمد في الأصول ، أحكام القرآن . انظر مصادر ترجمته في أعلام المؤلفين ٣/٢٥٩.

(٢) الأخفش : يحتمل أن المراد به الأخفش الأوسط وهو : سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء ، البلخي ، المعروف بالأخفش الأوسط (أبو الحسن) نحوي ، لغوي ، عروضي ، أخذ عن سيبويه ، والخليل بن أحمد ، من تصانيفه : كتاب الأوسط في النحو ، معاني القرآن ، الاشتقاق ، العروض ، والمقاييس في النحو توفي سنة ٢١٥هـ (وانظر مصادر ترجمته في أعلام المؤلفين ١/٧٦٩.

أو الأخفش الصغير : وهو علي بن سليمان بن الفضل الأخفش الصغير البغدادي (أبو الحسن) لغوي ، نحوي ، إخباري سمع المبرد وثعلب بن يحي وغيرهما توفي ببغداد وقد قارب الثمانين سنة ٣١٥هـ له من التصانيف الأنواء ، التثنية والجمع ، شرح كتاب سيبويه في النحو ، الجراد ، وتفسير معاني القرآن . أعلام المؤلفين رضا كحالة ٢/٤٤٨.

(٣) الفارسي : هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان بن أبان الفارسي الفسوي (أبو علي) نحوي ، صرفي ، عالم بالعربية ، والقراءات ولد ببلدة فسا سنة ٢٨٨هـ ، وقدم بغداد ، وسمع الحديث ، وبرع في علم النحو وانفرد به ، وقصده الناس من الأقطار ، وعلت منزلته في العربية ، أقام بحلب عند سيف الدولة بن حمدان مدة ، ثم رجع إلى بغداد فأقام بها إلى أن توفي في ربيع الأول سنة ٣٧٧هـ من تصانيفه الكثيرة : الإيضاح في النحو ، التكملة في التصريف ، الحجة في علل القراءات السبع ، المقصور والممدود ، والعوامل المائة ، المسائل الشيرازية جمعها تلميذه أحمد بن سابور (انظر مصادر ترجمته في أعلام المؤلفين ١/٥٣٥.

(٤) تقدمت ترجمته ١/٢٨

بالطلاق فقد جرى على ما ابتدأه ، ولا كفارة عليه ، وإذا سكت عن الطلاق فذلك ندم منه على ما ابتدأه من الظهار فهو عود إلى ما كان عليه فتلزمه الكفارة [١] .

ويدل عليه أن *ابن عباس* فسر العود في الآية بالندم ، فقال : يندمون فيرجعون إلى الألفة وهذا معنى قول الفراء : يعودون إلى نقض ما قالوا.

وقال أهل العراق [٢] لا يكون عائدا إلا بالعزم على الوطء ، فإذا عزم لزمته الكفـــارة ، وهو قول *أصحابنا* إلا أنهم قالوا : يكون عائدا بالعزم على ما منع الظهار ، ومرادهـــم بقولهم : لا يكون عائدا إلا بالعزم أنه لا يكون عائدا قبل العزم كما قـــال الشـــافعي لا الحصر فإنه يكون عائدا بالوطء بالاتفاق .

وقال *مالك* [٣] لا يكون عائدا إلا بالوطء ، وهو قول *الحسن وطاووس والزهري* [٤] أي : لا يكون عائدا حتى يطأ ، وإن وقع منه عزم فقط فلا كفارة عليه .

قال في *الكشاف* [٥]:ويحتمل أن يراد ـــ بما قالوا ـــ ما حرموه على أنفسهم بلفظ الظهار ـــ تنـــزيلا للقول منزلة المقول فيه [٦] نحو ما ذكرنا في قوله تعالى :﴿**ونرثه ما يقول**﴾ [٧] ويكون المعنى ثم يريدون العود [للتماس]» [٨] . اهـــ

---

(١) وقد احتج أبو بكر الرازي في أحكام القرآن على فساد هذا القول من وجهين ، وأجاب عليه الفخر الرازي (انظر تفسير الرازي ٢٩/٢٥٦) .

(٢) أهل العراق : المراد بهم الحنفية .

(٣) مالك : هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي المدني ، أبو عبد الله ، أحد أئمة مذاهب أهل السنة الأربعة ، وإليه تنسب المالكية ، ولد بالمدينة سنة ٩٣هـــ وتوفي بالمدينة في ١٤ ربيـــع الأول سـنة ١٧٩هـــ ودفن بالبقيع ، ومن تصانيفه الموطأ ، رسالته إلى الرشيد .

(٤) طاووس : تقدمت ترجمته ١/١٥٣، والزهري : تقدمت ترجمته ١/١٥٤.

(٥) هذا هو الوجه الثالث من الأوجه التي ذكرها في الكشاف . ٤/٤٨٦.

(٦) قال السيد العلوي : قوله :(منزلة المقول فيه) وهو الجماع واللمس بشهوة والتقبيل .

(٧) مريم : ٨٠ .

(٨) ما بين أقواس الزيادة من الكشاف . ٤/٤٨٦ ، وهذا يقوي كلام مالك ، وفي حاشية الكشاف ما يبـــين هـــذه الأقوال ويوجهها ٤/٤٨٧. قال ابن المنير في حاشيته على الكشاف : وهذا التفسير يقوي القول بأن العود الوطء نفسه ؛

ثم قال تعالى :﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ أي : فعليه تحرير رقبة ، أي : إعتاق رقبة ، قبل أن يماس زوجته ، واختلفوا في التماس ، فقيل : هو الجماع ؛ لأنه قد وقع كناية عن الجماع ، وهو قول *الحسن وسفيان* [1] وأحد قولي *الشافعي* ، وقيل : التماس هنا : الاستمتاع بها من جماع أو تقبيل أو لمس لشهوة ، أو نظر إليها لشهوة ، فذلك كله لا يجوز قبل العتق ، وهو أحد قولي *الشافعي وقول أصحابنا* .

قوله تعالى :﴿ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾ ذلك التحرير إنما شرعناه لتتعظوا به ، أي : لتزدجروا فلا يقع منكم ظهار ، فإنه لا يجوز ؛ لأن الحكم بالكفارة دليل على الجناية ، وقيل : ﴿ذلكم توعظون به﴾ أي : تؤمرون به من الكفارة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من التكفير وتركه ثم ذكر تعالى حكم العاجز عن الرقبة فقال :﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ﴿فَصِيَامُ﴾ أي : فعليه صيام ﴿شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ أي : الواجب عليه [صيام] شهرين لا يفرق بينهما لغير عذر ، فإن أفطر بطل التتابع ، ووجب عليه الاستئناف ، فدلت الآية على أن التتابع شرط ، وذكر في موضع تحرير الرقبة والصوم أنه لابد من أن يوجدا من قبل أن يتماسا .

ثم ذكر تعالى إن لم يستطع ذلك فقال :﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصيام لمرض أو خوف مشقة عظيمة ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ غداء وعشاء ، أو غداءين أو عشاءين ، يجوز

لأن حاصله : ثم يعودون للوطء . وظاهر قولك : عاد للوطء فعله ، وحمل العود على الوطء من جملة أقوال مالك ، فقد تلخص أن كلام المختلفين في العود له مآخذ من هذه الآية ، فأما من لم يقف وجوب الكفارة عنده إلا على مجرد الظهار فحمل العود على الظهار ، وتسميته عودا والحالة هذه باعتبار أنه كان في الجاهلية وانقطع في الإسلام ، فإيقاعه بعد الإسلام عود إليه ، وأما من أوقفها على العود وجعل العود أن يعيد لفظ الظهار ، وهو قول داود فاعتبر ظاهر اللفظ ، وأما من حمل العود على العزم على الوطء فرأى أن العود إلى القول الأول هو عود بالتدارك لا بالتكرار ، وتدارك بعضه ببعض ، وهل نقيضه العزم على الوطء ؛ لأن الأول امتناع منه ، أو العزم على الإمساك ؛ لأن العصمة تقتضي الحل وعدم الامتناع فيكفي محل خلاف ، وأما من حمله على الوطء نفسه فرأى أن المراد بالقول المقول فيه ، ويحمل قوله : ﴿من قبل أن يتماسا﴾ أي : مرة ثانية ..) ومن أراد مزيد إيضاح فلينظر الكشاف ٤٨٦/٤، ٤٨٧.

(١) سفيان : تقدمت ترجمته ١٦٢/١.

عدم التوالي ، وإن شاء أخرج لكل مسكين نصف صاع من بر أو صاع من غيره من الحبوب ، وهو *قول أبي حنيفة* [1] وعند *الشافعي* ربع صاع من طعام بلده الذي يقتات .

واختلفوا هل يجب تقديم الإطعام على التماس كالكفارتين الأولتين ، فقال *أبو حنيفة* : يجب ، وقال *مالك* : لا يجب لأنه لم يذكر في الإطعام قبل أن يتماسا ، قلنا : إنه لم يذكر في الإطعام قبل أن يتماسا اكتفاء بالأول ، وإلا فالتقديم واجب على تخريج المؤيد بالله لمذهب *الهادي* ، وخرج *أبو العباس* [2] على أصل *الهادي* أنه إذا مسها قبل كمال الإطعام لم يستأنف ، قيل : وكذا قبله على ما ذكره *أبو العباس* لأن *أبا حنيفة* يقول بوجوب تقديم الإطعام على المساس ، ويقول : ترك ذكره دلالة على أنه إذا وقع منه مساس خلال الإطعام لم يستأنف فيجوز أن يقول *أبو العباس* بمقالته .

قال *الرازي* في هذه الآية : " ولم يذكر أنه لابد من وقوعه قبل المماسة إلا أنه كالأولين بدلالة الإجماع [3] والمسائل الفقهية المفرعة على هذه كثيرة مذكورة في كتب الفقه .اهـ

ثم قال تعالى ﴿ذَلِكَ﴾ أي : ذلك البيان والتعليم للأحكام ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ أي : لتصدقوا ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ في العمل بشرائعه التي شرعها من الظهار وغيره ، ورفض ما كنتم عليه في الجاهلية ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ فلا يجوز تعديها ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ الذين لا يتبعونها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ شديد الألم .

---

(١) تقدمت ترجمته ١/٢٨ .

(٢) أبو العباس : هو أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن إبراهيم بن محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، المعروف بأبي العباس الحسني ، المتوفى سنة ٣٥٣هـ أحد أعلام آل البيت الكرام ، إمام حافظ ، مسند حجة ، قيل فيه : (رباني آل الرسول ، شيخ المعقول والمنقول) لم يبق شئ من العلوم إلا طار في أرجائه ، تتلمذ على يد الإمام الناصر الأطروش ، وتتلمذ عليه الإمامان الجليلان الأخوان المؤيد بالله ، وأبو طالب (أحمد ويحي ابنا الحسين الهارونيان) وله العلوم الواسعة ، والمؤلفات الجامعة ، ومن آثاره كتاب المصابيح في السيرة تحت التحقيق ، والنصوص ، وشرح أحكام الإمام الهادي عليه‌السلام ، وشرح المنتخب ، وغيرها (أنظر مصادر ترجمته في أعلام المؤلفين الزيدية ، وفهرست مؤلفاتهم) .

(٣) الرازي ٢٩/٢٦١ ، ولفظه : ثم ذكر تعالى أن من لم يستطع ذلك فإطعام ستين مسكينا ، ولم يذكر .. الخ ما هنا

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي : يخالفون أمره ، ويعادون ويحاربون أولياءه ، ويتعدون حدوده ، وذلك تارة بالمحاربة لأولياء الله ، وتارة بالتكذيب والصد عن دين الله ، والضمير في قوله :﴿يحادون﴾ يمكن أن يكون راجعا إلى المنافقين ، فإنهم كانوا يوادون الكافرين ، ويظاهرون على الرسول ، فأذلهم الله تعالى ، ويحتمل سائر الكفار .

ثم أعلم الله رسوله أنهم ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من أعداء الرسل ، أي : أخزوا وأهلكوا ، قيل : أريد كبتهم يوم الخندق . والكبت : الإخزاء ، قال *المبرد* [1]: يقال : كبت الله فلانا ، إذا أذله ، والمردود بالذل يقال له : مكبوت .

وقال *الحسين بن القاسم* عليه‌السلام معناه : غُمُّوا غمًّا ، وَرُدُّوا [2] ، وخابوا ، ونكبوا ، و لم يظفروا بما أحبوا وبما طلبوا .

وقال *زيد بن علي* عليه‌السلام : "معناه أهلكوا كما أهلك الذين من قبلهم [3]" . اهـ

ثم قال سبحانه :﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي : معجزات واضحات ، تدل على صدق الرسول ، وصحة ما جاء به ، وقيل : ﴿آيات﴾ شرائع ﴿بينات﴾ قيمة معروفة ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ أي : لمن لم يصدق بالآيات البينات ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يذهب بعزهم وكبرهم ، فبين سبحانه أن عذاب هؤلاء في الدنيا بالذل والهوان ، وفي الآخرة العذاب الشديد .

ثم ذكر سبحانه ما يتكامل به هذا الوعيد فقال :﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ يوم منصوب

---

(١) المبرد : هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن حسان الأزدي ، المعروف بالمبرد (أبو العباس) أديب نحوي ، لغوي ، إخباري ، نسابة ، إمام اللغة ، ورأس النحاة البصريين في زمانه ، وأحد أئمة الأدب والأخبار ، ولد بالبصرة سنة ٢١٠هـ تتلمذ على أكابر العلماء في عصره ، وتخرج على يديه خلق كثير من العلماء المشهورين مثل الزجاج ، والأخفش الصغير ، وابن درستويه ، وابن السراج ، والصولي ، وابن نفطويه ، توفي يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ٢٨٥هـ وله تصانيف كثيرة (انظر تعدادها ومصادر ترجمته في أعلام المؤلفين ٧٧٣/٣.

وقد ذكر الرازي قول المبرد في تفسيره ٢٦٢/٢٩.

(٢) لفظ الأصل هنا : عموا عماً أرادوا . وما ذكرناه هو لفظ تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام ، ويحتمل أنه نسختان

(٣) انظر تفسير الإمام زيد أول السورة ، والبرهان مخطوط ٣٧١.

بـ(لهم) أو بمهين أو بإضمار اذكر تعظيما لليوم[1] وفي قوله :﴿جميعا﴾ قولان : *أحدهما* : كلهم لا يُتْرَكُ منهم أحَدٌ غير مبعوث *والثاني* : مجتمعين في حال واحدة[2].

ثم قال سبحانه :﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ تخجيلا لهم وتوبيخا وتشهيرا لحالهم ، [الذي] يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار لما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ أي : أحاط بجميع أحوال تلك الأعمال من الكمية والكيفية والزمان المكاني[3].

ثم قال سبحانه :﴿وَنَسُوهُ﴾ لأنهم استحقروها وتهاونوا بها فلا جرم نسوها ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه شيء من الأعمال .

ثم قال سبحانه :﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قال *ابن عباس* : (﴿ألم تر﴾ ألم تعلم) . والهمزة لتحقيق علمه صلى الله عليه وآله وسلم ؛ لأن كونه تعالى عالما بالأشياء لا يُرَى ، ولكنه معلوم بواسطة الدلائل ، وإنما أطلق لفظ الرؤية على هذا العلم لأن الدليل الدال على كونه تعالى عالما هو أن أفعاله متقنة محكمة متسقة منتظمة ، وكل من كانت أفعاله كذلك فهو عالم .

ولما كان الدليل الدال على كونه تعالى كذلك [ظاهرا][4] لا جرم بلغ هذا العلم الاستدلالي[5] إلى أعلى درجات الظهور والجلاء ، وصار جاريا مجرى المحسوس المشاهد

---

(١) قال السيد العلوي في حاشيته : قوله :﴿يوم يبعثهم﴾ منصوب بلهم ... أي : الجار والمجرور وهو قوله : ﴿وللكافرين﴾ وإنما قال : بلهم للإشارة إلى أن الظاهر في للكافرين وضع موضع الضمير ؛ لأن الأصل لهم ليعود إلى الذين يحادون . هذا واعلم أن قوله :﴿وللكافرين عذاب مهين﴾ إما تتميم أو تذييل ، فإن كان تتميما فاللام للعهد والكافرون وضع موضع المضمر كما قررناه وينتصب ، وإن كان تذييلا فاللام للجنس فيدخل فيه المحادون دخولا أوليا وينتصب يوم بإضمار اذكر لتمام الكلام هناك ، فتستقل دلالة الجملة المبتدأة وتعظيم شأن القوم ، ويجتمع لهم ذل الدارين

(٢) فعلى الوجه الأول هو حال مؤكدة كطُرّاً وكافة وقاطبة ، وعلى الثاني وهو قوله : مجتمعين حال غير مؤكدة

(٣) وانظر الكشاف ٤/٤٨٩، والرازي ٢٩/٢٦٣ ، وذكر الرازي أن يوم منصوب بـ﴿ينبئهم﴾ وينظر هل يصح هذا الإعراب فإن الفاء تمنع أن يعمل ما بعدها في ما قبلها . وفي البيضاوي : ولا وجه لنصبه بالكافرين ؛ إذ لا وجه لتخصيص كفرهم بذلك اليوم ، وقال الحاكم الجشمي في تفسيره : ﴿يوم﴾ نصب على الظرف ، وهو يتصل بما قبله أي: لهم عذاب مهين .

(٤) ومثل هذا في الرازي ، وما بين القوسين زيادة من الرازي ٢٩/٢٦٣.

(٥) في تفسير الرازي : لا جرم بلغ هذا العلم والاستدلال .

فلذلك أطلق عليه لفظ الرؤية ، فقال : (ألم تر) .

واعلم أنه سبحانه قال :﴿يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾ و لم يقل : يعلم ما في الأرض وما في السموات ، وفي رعاية هذا الترتيب سر عجيب .

ثم إنه تعالى أكد ذلك وخص ما يكون من العباد من النجوى فقال سبحانه :﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ أي : الله تعالى ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ كان تامة ، والنجوى بمعنى التناجي ، وهو التشاور بالحديث ، ولا يخلو إما أن تكون مضافة إلى ثلاثة ، أي : من نجوى ثلاثة نفر ، أو موصوفة أي : [من] أهل نجوى ثلاثة [فحذف الأهل][1] وأصل النجوى هو الخطاب والكلام قال الشاعر[2]:

هل أنت سامعتي أم قد صممت فلا نجوى تردين من غـيٍّ ولا رشد

﴿ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ قرئ ﴿أكبر﴾ بالباء المنقوطة من تحت ، والمراد من كونه تعالى معهم كونه تعالى عالما بكلامهم وضميرهم وسرهم وعلنهم كأنه حاضر معهم ، وشاهد لهم ، أي : يعلم ما يتناجون به كما لو كان معهم رجل رابع ، فإنه يعلم تناجيهم ، وإنما عين هذين العددين ؛ لأنها نزلت في

---

(١) ومثله في الرازي ٢٦٤/٢٩، وفي الكشاف ٤٨٩/٤، وزاد الزمخشري وجها آخر فقال : أو جعلوا نجوى في أنفسهم مبالغة كقوله تعالى :﴿خلصوا نجيا﴾ قال السيد العلوي : وفي بعض الحواشي (وبالياء على أن النجوى تأنيثها غير حقيقي ، يعني : يجوز أن تكون النجوى فاعل يكون ، ومن زائدة ، وترك التأنيث لما ذكر ، ويجوز أن يكون ﴿من نجوى﴾ صفة موصوف محذوف وهو شئ ، فترك التأنيث على هذا ظاهر .. ثم قال : يجوز أن يكون نجوى بمعنى متناجين ، ويكون نصب ثلاثة على الحال من الضمير المستكن في نجوى [وهذا على قراءة ابن أبي عبلة ﴿ثلاثة .. وخمسة﴾ بالنصب وهذا كما قال الزمخشري بعد ذكر قراءة ابن أبي عبلة : بالنصب على الحال بإضمار يتناجون ؛ لأن نجوى يدل عليه ، أو على تأويل نجوى بمتناجين ونصبها من المستكن فيه (كشاف ٤٩٠/٤) .

وقال محيي الدين الدرويش في إعراب القرآن : ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير سعة علمه تعالى وتبيان كيفيته ، وما نافية ، ويكون فعل مضارع تام ، ومن حرف جر زائد ، ونجوى مجرور بمن لفظا فاعل يكون محلا ، وثلاثة مضاف لنجوى ، وإلا أداة حصر وهو مبتدأ ورابعهم خبر ، والجملة في محل نصب على الحال ، فالاستثناء مفرغ من أعم الأحوال .

(٢) سبق الاستشهاد به في تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني ، أول هذه السورة ، فلينظر .

قوم على هذين العددين ثلاثة وخمسة [1].

قال *ابن عباس* : نزلت في ربيعة ، وحبيب ابني عمرو ، وصفوان بن أمية كانوا يوما يتحدثون ، فقال أحدهم : أترون الله يعلم ما نقول ؟ فقال الآخر : يعلم بعضا ولا يعلم بعضا ، أي : يعلم ما جهروا به ، ولا يعلم ما أسروه ، وقال الثالث : إن كان يعلم بعضه فهو يعلم كله .

وقيل : إن قوما تحلّقوا [2] للتناجي على هذين العددين مغايظة للمؤمنين ، فقيل : ما تناجى منهم ثلاثة ولا خمسة كما ترونهم [يتناجون] كذلك ، ولا أدنى من عددهم ، ولا أكثر إلا والله معهم .

﴿أينما كانوا﴾ أي : في أي مكان كانوا فيه ، فهو معهم غيرغائب عنهم ، بل شاهد لا يغيب منهم ، وهو مدبر في كل الأماكن لا يخلو من تدبيره وشهادته أحد، بل هو مدرك بشهادته ، وهذا مجاز ؛ لأنه متعال عن المكان والمشاهدة ، وليس كما يتوهم الجاهلون أنه معهم بذاته .

وقال سبحانه :﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ توبيخا لهم ، أي : يحاسبهم على ذلك ، ويجازي على قدر الاستحقاق ، ثم قال :﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فيستوي في علمه السر والجهر والباطن والظاهر ، وهو تحذير من المعاصي وترغيب في الطاعات .

---

(١) قال الكرخي : وخص الثلاثة والخمسة بالذكر لأن قوما من المنافقين تخلفوا للتناجي ، وكانوا بعدة العدد المذكور ؛ مغايظة للمؤمنين ، فنزلت الآية بصفة حالهم ، وتعريفا بهم ، أو لأن العدد المفرد أشرف من الزوج ؛ لأن الله تعالى وتر يحب الوتر ، فخُص العددان المذكوران بالذكر تنبيها على أنه لابد من رعاية الأمور الإلهية في جميع الأمور ، ثم بعد ذكرهما زيد عليهما ما يعم غيرهما من المتناجين .

وللخازن عبارة لطيفة نوردها فيما يلي استيفاء للبحث قال : فإن قلت : لم خص الثلاثة والخمسة ؟ قلت : لأن أقل ما يكفي في المشاورة ثلاثة حتى يتم الغرض فيكون الاثنان كالمتنازعين في النفي والإثبات ، والثالث كالمتوسط الحاكم بينهما ، فحينئذ تحمد المشورة ، ويتم الغرض ، وكذا كل جمع يجتمع للمشاورة لابد من واحد يكون حكَما بينهم مقبول القول ، وقيل : إن العدد الفرد أشرف من الزوج فلهذا خص الله تعالى الثلاثة والخمسة . إعراب القرآن ١٠/١٦.

(٢) في الأصل (تخلفوا) وفي الكشاف (تحلقوا) ومثل هذا الكلام موجود في الكشاف بلفظ قريب جدا .

ثم إنه تعالى بين حال أولئك الذين نهوا عن النجوى فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ معناه: الإنكار عن[1] الذين عادوا بعد النهي عن النجوى.

قال *الحسين بن القاسم* عليه السلام: يريد عز وجل أنه نهاهم عن الغيبة، والانتقاص للمسلمين، ثم عادوا و لم يقلعوا و لم يتوبوا إلى الله، وشنعوا فذمهم الله على ذلك.

قال في *التجريد*: كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم، ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين يوهمونهم أنهم يتناجون بما يسوءهم وكثر ذلك، فشكا المؤمنون إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنهاهم عن ذلك التناجي فلم ينتهوا عن ذلك، وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله هذه الآية.

وقيل: كان تناجيهم بما هو إثم وعداوة للمؤمنين، وتواص بمعصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ وهو كالتفسير للنجوى التي نهو عنها، وفي معنى ذلك وجهان. *أحدهما*: ـ أن الإثم والعدوان هو مخالفتهم للرسول في النهي عن النجوى؛ لأن الإقدام على المنهي يوجب الإثم والعدوان ولاسيما إذا كان ذلك الإقدام لأجل المناصبة، وإظهار التمرد.

الثاني: أن الإثم والعدوان هو ذلك السر الذي كان يجري بينهم لأنه إما مكر وكيد بالمسلمين، أو بشيء يسوءهم. قال في *البرهان*: "والنجوى السرار[2] ومن ذلك قول جرير:

من النفر البيض الذين إذا انتجوا أقرت لنجواهم لؤي بن غالب

والمنهي عن النجوى هم المنافقون؛ لأنهم كانوا يتناجون بما يسوء المسلمين لوقيعتهم في رسول الله صلى الله عليه وآله".

﴿وَإِذَا جَاءُوكَ﴾ يا محمد ﴿حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ كانت اليهود إذا دخلت على رسول

(١) يحتمل أن يكون هنا حذف، تقديره فعل، أو نحوه ليستقيم الكلام.

(٢) في البرهان: النجوى السرار، وفي الأصل المطبوع عليه هذا التفسير: النجوى: الإسرار، فأثبتنا ما في البرهان

الله صلى‌الله‌عليه‌وآله قالوا له : السام عليك ، فكان النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله يرد عليهم فيقول : (وعليكم) .

وقيل : إن بعض الناس في مجلس رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله رد عليهم : وعليكم السام والزام فقال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله :(إن الله لا يحب الفحش والتفحش) وأرادوا لعنهم الله بالسام : الموت .

وقيل : إن اليهود كانوا إذا رد رسول الله صلى‌الله‌عليه جواب سلامهم هذا ، قالوا : لو كان هذا نبيئا استجيب له فينا قوله :(وعليكم) يعني : السام وهو الموت فليس بنا سامة ولا في أجسادنا فترة ، فنـزل فيهم [1][لولا يعذبنا الله بما نقول] .اهـ

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ كانوا يقولون فيما بينهم ولا يظهرون القول : ماله إن كان نبيا لا يدعو علينا حتى يعذبنا الله بسبب ما نقول فيه ، فقال تعالى ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يقول عز وجل : كفى لهم بجهنم ، وهي كفايتهم ، وهي عذابهم عند الله ونقمتهم ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يغمرون بنارها كما يفعل بالشاة المصلية بين الجمر ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي : بئس المرجع جهنم التي يصيرون إليها .

﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ يريد بالذين آمنوا المنافقين لأنهم آمنوا بألسنتهم ، ويجوز أن يريد المؤمنين المخلصين ، نهاهم أن يتشبهوا بأولئك الذين يتناجون بالشر ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ مثل التشاور في الغزو في سبيل الله وسائر الطاعات .

قال *الرازي* : اعلم أن في المخاطبين بقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ قولين ؛ لأنا إن حملنا قوله فيما تقدم :﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى﴾ على اليهود [2]حملنا في هذه الآية قوله :﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ على المنافقين ، أي : يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم ، وإن حملناه على جميع الكفار من اليهود والمنافقين حملنا هذا على المؤمنين ، وذلك لأنه تعالى لما ذم اليهود والمنافقين على التناجي بالإثم والعدوان ، ومعصية الرسول أتبعه بأن نهى

(١) إلى هنا من البرهان ، وما بين أقواس الزيادة من البرهان . انظر البرهان مخطوط ٣٧١.

(٢) في الرازي (على اليهود) وفي الأصل لهذا التفسير (على المنافقين) فأثبتنا ما في الرازي ، وكذلك ما بين أقواس الزيادة من الرازي انظر (الرازي ٢٩/٢٦٧)

أصحابه المؤمنين أن يسلكوا مثل طريقتهم فقال : ﴿لا تتناجوا بالإثم﴾ وهو ما يقبح مما يخصهم ﴿والعدوان﴾ وهو ما يؤدي إلى ظلم الغير ﴿ومعصية الرسول﴾ وهو ما يكون خلافا عليه ، وأمرهم أن يتناجوا بالبر الذي يضاد العدوان ، وبالتقوى وهو ما يتقى [به] من النار من فعل الطاعات ، وترك المعاصي .

واعلم أن القوم متى تناجوا بما هذه صفته قلّت مناجاتهم ؛ لأن ما يدعو إلى مثل هذا الكلام يدعو إلى إظهاره ، وذلك يقرب من قوله :﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾ [1] وأيضا فمتى عُرِفَت طريقة الرجل في هذه المناجاة لم يتأذ من مناجاته أحد .اهـ

ثم قال تعالى :﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ عام في كل ما يتقى من أسباب الإثم ، وعنه صلى الله عليه وآله (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه) [2]

ومعنى ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي : تجمعون إلى موضع جزائه حيث يحاسب ويجازي .

ثم قال :﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أراد النجوى المنهي عنها ، وهو النجوى بالإثم والعدوان ، ومعصية الرسول ، واللام في النجوى للعهد [3] وقوله : إنها من الشيطان : أي : حملهم عليها الشيطان بأن زينها لهم فكأنها منه .

﴿لِيَحْزُنَ﴾ الشيطان ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وذلك أن المؤمنين كانوا يظنون أنهم يتناجون بما يبلغهم عن إخوانهم الذين خرجوا في السرايا من قتل أو موت أو هزيمة .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا﴾ أي : وليس الشيطان والتناجي المنهي عنه بضار للمؤمنين قليلا من الضر ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي : بمشيئته ، وهي أن يقضي الموت على أقاربهم ، أو بترك نصرة المؤمنين لعصيانهم ، فيكون للعدو الغلبة على الغزاة .

---

(١) النساء : ١١٤ .

(٢) متفق عليه ، وهذا اللفظ لمسلم من حديث ابن مسعود ، وفي رواية البخاري زيادة (دون الثالث) . فائدة : أخرج البزار من حديث ابن عمر نحوه ، وزاد (إلا بإذنه ، قلت : فإن كانوا أربعة ؟ قال : لا بأس به) .

(٣) كونها للعهد هو سبب لما ذكر من أنها النجوى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول .

ثم قال سبحانه :﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي : ليفوضوا أمورهم إليه في كل ما أرادوا في دفع الشيطان خصوصا ، فإنه من توكل على الله لا يخيب أمله ، ولا يبطل سعيه ، والفاء جواب شرط محذوف كأنه قيل : إن أرادوا التوكل على كافٍ لهم في جميع الأمور فليتوكلوا على الله وحده .

وقال *الحسين بن القاسم* عليه السلام :" معنى ﴿إنما النجوى من الشيطان﴾ يريد عز وجل أن الغيبة منهم لأولياء الله طاعة للشيطان ، وسخط ومعصية الرحمن ، ثم قال عز وجل : إن هذه النجوى التي أمر بها الشيطان لا يضر بها أحد من المسلمين [ومعنى]﴿إلا بإذن الله﴾ يريد أنه لم يقدر هو وإخوانه على غيبة المؤمنين إلا بتخلية الله لهم ، ليثبت أولياءه على غمهم أكثر مما نالهم من كلام أعدائهم" [1] . اهـ

واعلم أنه تعالى لما نهى عباده المؤمنين عما يكون سببا للتباغض والتنافر أمرهم بما يصير سببا لزيادة المحبة والمودة فقال سبحانه :﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحْ اللَّهُ لَكُمْ﴾ .

قال في *البرهان* :" والمجلس المراد مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومجالس الأئمة من ولده عليهم السلام ، فيجب على من حضرها وسبق إليها أن يفسحوا على من دخل عليهم ، ويؤثروه به ؛ لأن الناس كانوا إذا جلسوا في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله شحوا بأمكنتهم على من يدخل عليهم" [2] .اهـ

و﴿تفسحوا﴾ معناه : توسعوا [3]﴿يفسح الله لكم﴾ يوسع عليكم ، قيل : أراد يوسع عليكم في الجنة في مجالسكم فيها ، وقيل : هو مطلق يصح أن يدخل فيه ذلك وغيره من كل ما تحبُّ الفسحة فيه من رزق وجاه ومكان في الدنيا وفي القبر .

---

(١) انظر تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول السورة ، وما بين القوسين منه .

(٢) انظر البرهان مخطوط ٣٧١.

(٣) وزاد الزمخشري (وليفسح بعضكم عن بعض من قولهم : افسح عني أي : تنح ، ولا تتضاموا . وزاد الرازي يقال : بلدة فسيحة ، ومنارة فسيحة ، ولك فيه فسحة ، أي : سعة ، وقال الحاكم في التهذيب : التفسح : الاتساع في المكان تفسح تفسحا ، وبيت فسيح عليه ، فسيح ما بين المنكبين ، أي : بعيد ما بينهما لسعته عليه .

كان الصحابة يتضامون إذا جلسوا إلى رسول الله حرصا على القـرب منـه واستماع كلامه[١] .

وقيل : وهو اختيار الحسن أن المراد تفسحوا في مجالس القتال[٢] وهو كقوله : ﴿مقاعد للقتال﴾[٣] .

وقيل : المراد جميع المجالس والمجامع[٤] والأقرب هو الأول أن المراد به مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي يعظم التنافس فيه ، ومعلوم أن للقرب منه مزية عظيمة لما فيه من المنزلة[٥] ولذلك قال صلوات الله عليه وآله وسلم :(ليليني منكم أولوا الأحلام والنهى)[٦] ولذلـك كـان يقدم الأفاضل من أصحابه وكانوا لكثرتهم يتضايقون وكان يأتي من يأتي فلا يجد مكانا فأمروا أن يوسعوا لمن جاء من المؤمنين يريد مثل ما أرادوا ؛ لأن ذلك أدخل في التحبب ، وفي الاشتراك في سماع ما لابد منه في الدين ، فإذا صح ذلك في مجلسه ، فحال الجهـاد ينبغي أن يكون مثله بل ربما كانت أولى ؛ لأن الشديد البأس قد يكون متأخرا عن الصف الأول ، والحاجة إلى تقدمه ماسة فلا بد من التفسح . ثم يقاس على هذا سائر مجـالس العلم والذكر .

وأما قوله تعالى :﴿يفسح الله لكم﴾ فهو مطلق في كل ما يطلب [الناس] الفسحة فيه من المكان والرزق ، والصدر والقبر والجنة .

واعلم أن هذه الآية قد دلت على أن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير[والراحة] وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة ، ولا ينبغي للعاقل أن يقيد الآية بالتفسح في المجلس بل المـراد منه إيصال الخير إلى المسلم ، وإدخال السرور في قلبه ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم :(لا يـزال

---

(١) عن ابن عباس وقتادة ومقاتل وجماعة (تهذيب الحاكم)

(٢) عن محمد بن كعب ، وأبي العالية والحسن (تهذيب الحاكم) .

(٣) آل عمران : ١٢١ .

(٤) وهو اختيار القاضي البيضاوي .

(٥) زاد القاضي : لما فيه من سماع حديثه ، ولما فيه من المنزلة . انظر الرازي ٢٦٩/٢٩.

(٦) رواه الحاكم في تفسيره .

الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه المسلم) ذكر معنى هذا *الرازي*[(١)].

قال *الحسين بن القاسم* عليه‌السلام : " معنى ﴿يفسح الله لكم﴾ هو يفتح الله لكم ، ويوسع لكم في معيشتكم وفي دنياكم وآخرتكم ، ثوابا على توسيعكم في المجلس لإخوانكم ؛ لأنه عز وجل يثيب على القليل اليسير بالثواب الجزيل العظيم الكثير ، فانظروا رحمكم الله كيف جعل الرحمة والثواب في كل عمل من الأعمال ولو قل وصغر عند العلماء والجهال فذلكم يدلكم على رحمة الله الواحد المفضال ، فاطلبوا ثوابه في جميع الأحوال ، وتقربوا إليه بحسن الفعل والمقال ، والرحمة للعباد واللطف وحسن الجدال.

﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾ [أي : ارتفعوا وقوموا ، قيل : حتى يجلس العلماء مكانكم ؛ لأنهم أحفظ وأروى للحكمة منكم . وانشزوا :] وقوموا بما يشاء نبيكم وولي أمركم وإمامكم ، والنشوز في لغة العرب هو النهوض والقيام والانتصاب قال الشاعر:

انشزوا عنا فأنتم معشر أهل رجس وفجور وأشر[(٢)]

قال في *البرهان* :" كانوا إذا جلسوا في بيت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله أطالوا ليكون كل واحد منهم هو الآخر عهدا به ، فأمرهم الله أن [ينشزوا إذا قيل لهم : انشزوا ، ومعنى تفسحوا : توسعوا ومعنى انشزوا] : ارتفعوا وقوموا[(٣)] عن مجلس رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله إذا أمرتم بالنهوض ، ولا تملوه بطول الوقوف "[(٤)].

وقيل : حتى يجلس العلماء مكانكم ؛ لأنهم أحفظ وأروى للحكمة منكم .

واعلم أنه تعالى لما نهاهم أولا عن بعض الأشياء وعدهم على الطاعة فقال :﴿يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ يعني بإيمانه على من ليس بمنزلته في الإيمان ، أو بامتثال أوامره وأوامر

---

(١) انظر الرازي ٢٦٩/٢٩. وهو بلفظه من قوله : واعلم أن هذه الآية . وزيادة ما بين القوسين من الرازي .

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام أول السورة . وما بين أقواس الزيادة منه .

(٣) إلى هنا انتهى ما في البرهان ، وقوله عن مجلس رسول الله .. الخ ليس من البرهان وما بين أقواس الزيادة من البرهان

(٤) ونسبه الحاكم إلى ابن زيد ، وقال الحاكم في تفسيره : النشوز : الارتفاع ، والنشز : ما ارتفع من الأرض ، ويقال : نشز الرجل ينشز ، وتنشز إذا كان قاعدا فنهض ، ونشوز المرأة عصيانها للزوج . قال الحاكم : ومتى قيل : كيف أمروا بالتفسح والنشوز ؟ قلنا : في حالين إن كان في الموضع سعة تفسحوا ، وإن كان ضيق فانشزوا كي يتسع المكان

رسوله ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ والمراد بهم الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله رفعهم الله في الدنيا والآخرة على كل شريف ومشروف والحمد لله على ذلك كثيرا ، وإنما أعلم الله تعالى خلقه بذلك ليعرفوا منازلهم ومراتبهم وألا يتقدموا عليهم في حال من الأحوال[1].

وقيل : معناه ويرفع العالمين من المؤمنين خاصة ﴿درجات﴾ أي : ترفيعا بليغا في زيادته على رفع المؤمنين غير العلماء عنه صلى الله عليه وآله (بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة)[2] والمضمر : الذي علفه أربعين يوما علفا مخصوصا ليجري أعظم الجري .

قال *القاضي*[3] : ولا شبهة أن [علم] العالم يقتضي لطاعته من المنزلة مالا يحصل للمؤمن ولذلك فإنه يقتدى بالعالم في كل أفعاله ، ولا يقتدى بغير العالم ، والعالم يعلم من كيفية

---

(١) من قوله :﴿والذين أوتوا العلم درجات﴾ والمراد بهم ..) إلى قوله : (في حال من الأحوال) . مثله بلفظه في البرهان مخطوط ٣٧٢.

(٢) في الصحاح : أحضر الفرس إحضارا ، واحتضر أي : عدا ، واستحضرته : أعديته ، وفرس محضير : كثير العدو وقال السيد العلوي في حاشيته : الحضر : العدو ، وتضمير الفرس : أن يعلفه حتى يسمن ثم يرده إلى القوت ، وذلك في أربعين يوما ، وهذه المدة تسمى المضمار ، فكذلك الموضع أيضا .

وقال ابن حجر في تخريجه على الكشاف : أخرجه أبو يعلى وابن عدي من رواية عبد الله بن محرز عن الزهري ، عن أبي سلمة عن أبي هريرة ، وعبد الله بن محرز بمهملات ــ ساقط الحديث ، وذكر ابن عبد البر في العلم أن ابن عون ، رواه عن ابن سيرين عن أبي هريرة ، فينظر من خرجه ، وفي الباب عن ابن عمرو بن العاص في الترغيب للاصبهاني . (كشاف ٤/٤٩٢)

(٣) المراد بالقاضي : القاضي البيضاوي وهو : عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي الشيرازي ، الشافعي ناصر الدين أبو سعيد ، قاض ، عالم بالفقه والتفسير والأصلين والعربية ، والمنطق والحديث ، ترك القضاء وتخلص للعلم ، وانزوى في تبريز وتوفي فيها سنة ٦٨٥هـ له مصنفات كثيرة من أشهرها أنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير ، وشرح مصابيح السنة للبغوي سماه تحفة الأبرار ، منهاج الوصول إلى علم الأصول . (أعلام المؤلفين ٢/٢٦٦) .

ومثل هذا في الرازي ٢٩/٢٧٠، وفي تفسير البيضاوي (فإن العلم مع علو درجته يقتضي للعمل المقرون به مزيد رفعة) (حاشية الشهاب على البيضاوي ٨/١٧١، ١٧٢)

الاحتراز عن الحرام والشبهات ، ومحاسبة النفس مالا يعرفه الغير ، ويعلم من كيفية الخشوع والتذلل في العبادة مالا يعرفه غيره ، ويعلم من كيفية التوبة وأوقاتها وصفاتها مالا يعرفه غيره ، ويتحفظ فيما يلزمه من الحقوق مالا يتحفظ [منه]غيره ، وفي الوجود كثرة ، لكنه كما تعظم منزلة أفعاله من الطاعات في درجات الثواب ، فكذلك يعظم عقابه فيما يأتيه من الذنوب لمكان علمه حتى لا يمتنع في كثير من صغائر غيره أن يكون كبيرا منه .اهـ

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فهو يجازيكم عليه .

ثم قال تعالى :﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ﴾ التقديم ﴿خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ خير في دينكم ، وزيادة في التطهير من الذنوب ؛ لأن الصدقة طهرة ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا﴾ صدقة تقدمونها .

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال في *البرهان* : وسبب ذلك أن المسلمين اكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وآله حتى شقوا بها عليه ، فأراد الله تعالى أن يخفف عن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فلما قال[(١)] ضن الناس ، وكفوا عن المسألة فلم يناجه إلا أمير المؤمنين صلوات الله عليه قدم دينارا فتصدق به ثم ناجى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله عن عشر خصال "[(٢)] [ثم نزلت الرخصة].

وروى الأئمة من آل رسول الله عليه وعليهم السلام ومجاهد وكثير من علماء العامة عن أمير المؤمنين أنه قال :(إن في كتاب الله آية وفرضا ما عمل بهما أحد غيري ولا يعمل بهما أحد بعدي لما أنزل الله تعالى :﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة﴾ وكان معي دينار فصرفته ، وكنت كلما أردت أن أناجي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تصدقت بدرهم ، فلم يفرغ الدينار حتى نسخت الآية) .

---

(١) أي الله عز وجل ، والمراد منه الأمر منه سبحانه بتقديم الصدقة .

(٢) انظر البرهان ٣٧٢، وهو في الحاكم عن ابن عباس . ورواه الطبري في تفسيره عن موسى بن عبد الرحمن المسروقي قال : حدثنا أبو أسامة ، عن شبل بن عباد ، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ..(شواهد التنزيل ٢٣٩) .

ومثل هذا في *البرهان* قال : وهي إحدى فضائله [(١)] ورواه أيضا في *الكشاف* [(٢)] قال *الكلبي* : تصدق [به] في عشر كلمات سألهن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [(٣)].

وعن ابن عمر قال :" لعلي ثلاث خصال لو كان لي واحدة منهن كانت أحب إلي من حمر النعم تزويجه فاطمة ، وإعطاؤه الراية يوم خيبر ، وآية النجوى [(٤)].

وفي سبب ذلك أيضا يقول *الحسين بن القاسم* عليه السلام : قد روي أن قوما أكثروا التحلي عند رسول الله صلى الله عليه وآله والتزين في عينه بكثرة السؤال في المخاطبة والعلم والجدال ، فأراد الله عز وجل أن يكشف أمرهم ، ويبين لنبيئه عوارهم وزهدهم في الحق ، ونفاقهم وكفرهم فأنزل الله هذه الآية ليمتحنهم ، ويختبرهم بالنفقة والصدقة ويبلوهم ، فوقفوا عن السؤال خوفا من الإنفاق ، وتبين عند ذلك ما كانوا يخفون من النفاق ، ثم صبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إمام المتقين [عليه صلوات رب العالمين] وكان يتصدق ويسأل نبيئه صلى الله عليه وآله ، ويبحث من العلم والحكمة ما لديه ، وتاب قوم بعدما وقفوا عن السؤال ، ورجعوا عن البخل ولزوم الأموال ، واستغفروا الله مما أتوا به من أقبح المقال ، فعطف عليهم بالتوبة ذو الجلال ، وعاتبهم بأحسن المقال فقال عز وجل: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ أي: خفتم لما

---

(١) البرهان ٣٧٢ .

(٢) قال قتادة : لما نهوا عن مناجاته حتى يتصدقوا لم يناجه إلا علي بن أبي طالب قدم دينارا فتصدق به ثم نزلت الرخصة ، وفي الكشاف ٤/٤٩٤ قال ابن حجر في تخريجه عليه : أخرجه الحاكم من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن علي به وأتم منه ، وأخرجه ابن أبي شيبة من رواية ليث بن سليم عن علي .

(٣) رواه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ولفظه : قال : حدثنا محمد بن فضيل عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، قال في قوله :﴿إذا ناجيتم الرسول﴾ إلى آخر الآية : بلغنا أن رجلا من أصحاب رسول الله كان أول من فعل ذلك وهو علي بن أبي طالب قدم دينارا في عشر كلمات كلمهن رسول الله ، فأما سائر الناس فلم يفعلوا وشق عليهم أن يعتزلوا رسول الله وكلامه ، وبخلوا أن يقدموا صدقاتهم . (شواهد التنزيل تحقيق المحمودي ٢٣٩) .

وعلى الجملة فقد روى هذه الأحاديث الجم الغفير من الصحابة والتابعين ، والمفسرين والمحدثين وغيرهم ، ومن أراد المزيد فلينظر شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني تحقيق محمد باقر المحمودي ٢٣٠/٢٤٣.

(٤) في الأصل (عن عمر) وفي الكشاف عن ابن عمر ٤/٤٩٤.

يعدكم الشيطان من الفقر [١] ﴿أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ لما فيه من الأنفاق الذي تكرهونه .

واختلفوا كم لبثت غير منسوخة ، فقيل : عشر ليال ، وقيل : ما كان ذلك إلا ساعة من نهار . واختلفوا بم نسخت ؟ فقال *ابن عباس* : بالآية التي بعدها ﴿أأشفقتم﴾ الآية ، وقيل : هي منسوخة بآية الزكاة [٢] .

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ أي : تقدموا ما أمرتم به ، وشق عليكم ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي : عذركم ورخص لكم في أن لا تفعلوا ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي : لا تفرطوا في الصلاة والزكاة ، وطاعة الله ورسوله [٣] ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلا تنسوا شيئا أحاط به وحفظه عليكم .

قوله تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ هم المنافقون ، وقوله :﴿قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ هم اليهود ، كان المنافقون يتولونهم ، وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ﴿تولوا﴾ قيل : الموالاة ، وهي الموادة والمناصرة ، وقيل : إن الموالاة هي المداناة والمخالطة ، وإظهار الموادة ، ولو أضمر خلافها .

قال سبحانه :﴿مَا هُمْ﴾ أي : المنافقون ﴿مِنْكُمْ﴾ يا مسلمين ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي : من اليهود.

قال *الحسين بن القاسم* عليه السلام : يعني بذلك المنافقين الذين تولوا أعداء الله الفاسقين ، فأخبر الله عز وجل أن هؤلاء المنافقين ما هم من المسلمين ، ولا من المحاربين ، ولكنهم [كما قال الله عز وجل] مذبذبين ، وكما قال [في هذه السورة]:﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى

---

(١) قال الحاكم : الإشفاق : الخوف ورقة القلب ، والشفقة : أصلها الرقة ، ومنها : الشفق الحمرة والبياض .

(٢) قال الحاكم : ومتى قيل : هلا كان ذلك واجبا ؟ قلنا : نعم ، ثم نسخ بالآية التي بعدها عن الحسن وقتادة ، وتلك الآية وإن اتصلت بهذه في التلاوة فيجوز أن تكون متأخرة بزمان في النزول ، وروي أنه بقي زمانا ثم نسخ عن مقاتل ، وقيل : بل كانت ساعة ثم نسخ عن الكلبي ، وقيل :عمل بها علي بن أبي طالب فقط .

(٣) قال السيد العلوي : قيل : أشعر هذا بأنه جعل فأقيموا الصلاة جوابا لقوله :﴿فإذ لم تفعلوا﴾ قال أبو البقاء : إذ بمعنى إذا ، وقيل : هي بمعنى إن الشرطية ، وقيل : هي على بابها ماضية ، والمعنى : أنكم تركتم ذلك فيما مضى فتداركوه بإقامة الصلاة ، وإنما قال : لا تفرطوا في الصلاة ؛ لأن معنى الإقامة توفية حدودها وإقامتها . (٣٠٨)

﴿الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فهم لا يحاربون لضعفهم وجبنهم ، ولا يؤمنون لما هم عليه من كفرهم وفسقهم وإنما همتهم الكذب والفسق والمحال والنفاق والخسة والجهل والضلال"

قال في *البرهان* :"هذه الآية نزلت في طلحة والزبير حين هَمَّا بمحالفة اليهود والنصارى يوم أحد رهبة من إدالتها على المسلمين ، فأنزل الله تعالى فيهم ذلك"[1].

قال في *التجريد* :﴿يحلفون﴾ أي : يقولون : إنا لمسلمون ، وهم يعلمون أن المحلوف عليه كذب بَحْتٌ جرأة منهم على الله،وفيها إشارة إلى أن الكذب في اللغة ما خالف الواقع"

ثم أخبر عز وجل بما أعد لهم من العذاب بقوله :﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي : نوعا من العذاب عظيم الشدة ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي : عظم في القبح ما كانوا عليه من سوء العمل مصرين .

قال في *التجريد* :"نزلت في عبد الله بن نبتل وكان منافقا يجالس رسول الله ، ثم يرفع حديثه إلى اليهود ، وأنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله :(علام تشتمني أنت وأصحابك) ؟ فحلف بالله ما فعل ، وجاء بأصحابه فحلفوا ، فقال عليه السلام :(فعلت) ونزلت[2] ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي : حلفهم ما سبوا رسول الله ، وأنهم مؤمنون . اهـ

ومعنى ﴿جنة﴾ أي : سترة يتسترون بها من المؤمنين ، ومن قتلهم وأخذ أموالهم[3] .

---

(١) البرهان ٣٧٢.

(٢) في الكشاف نبتل ، وفي الحاكم عبد الله بن أبي ، وذكر القصة ، ثم قال عن السدي ومقاتل . قال ابن حجر في تخريجه : لم أجده هكذا ، وروى أحمد والبزار والطبراني والطبري ، وابن أبي حاتم ، والحاكم من رواية سماك عن ابن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ظل حجرة ، وقد كاد الظل أن يتقلص ، فقال : إنه سيأتيكم إنسان ، فينظر إليكم بعين شيطان ، فإذا جاءكم فلا تكلموه ، فلم يلبث أن طلع عليهم رجل ازرق أعور ، فقال حين رآه : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فقال : ذرني آتيك بهم فانطلق فدعاهم فحلفوا ما قالوا وما فعلوا ، فأنزل الله تعالى الآية . لفظ الحاكم . (الكشاف ٤/٤٩٥) .

(٣) قال الحاكم : الجنة : السترة التي تقي البلية ، واصله : الستر ، ومنه : المجن الترس ، ومنه : الجن لاستتارهم عن أعين الناس ، والجنان والجنون والجنة من ذلك .

وقرئ ﴿إيمانهم﴾ بكسر الهمزة ، أي : إيمانهم الذي يظهرونه ، أو أيمانهم التي حلفوا[1] ﴿فَصَدُّوا﴾ الناس في خلال أمنهم وسلامتهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ و[كانوا] يثبطون من لقوا عن الدخول في الإسلام ، ويضعفون أمر المسلمين عندهم[2] ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ فوعدهم الله عز وجل بالعذاب المهين ـــ والمهين : المخزي لهم ـــ لكفرهم وصدهم .

﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ أي : تنفعهم ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ بأن تدفع عنهم العذاب ﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي : قليلا من الإغناء ، الذي هو النفع بدفع العذاب ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ روي أن رجلا منهم قال : لننصرن يوم القيامة بأنفسنا [وأموالنا] وأولادنا فنزلت ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ في الآخرة أنهم مسلمون ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ في الآخرة ﴿أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ من نفع أنفسهم باليمين فلا تعجبون من حلفهم لكم في الدنيا ، فحلفهم لله عالم الغيب والشهادة في الآخرة أعجب ، يعني لا عجب من حلفهم لكم ، وأنتم بشر ، تخفى عليكم سرائرهم ، ويصلون بذلك إلى منافع ، إنما العجب من حلفهم مع علام الغيوب ، وعدم النفع ، والمراد : وصفهم بالتوغل في النفاق حتى في الآخرة ، فكان هذا الخلق الذميم يبقى معهم أبدا ، وإليه الإشارة بقوله :﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾[3] .

ثم قال تعالى :﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ يريد في الآخرة ، أي : هم الغاية التي لا مطمح وراءها في قول الكذب ، وقد اختلف العلماء في جواز وقوع الكذب في الآخرة ، فمنع *منه أبو علي*[4]

---

(١) هذا على قراءة فتح الهمزة .

(٢) قال الحاكم : صدوا عن سبيل الله . قيل : أعرضوا عن الدين ، وقيل : صدوا غيرهم بإلقاء الشبه .

(٣) قال الحاكم : قيل يحلفون انهم لم يكونوا كفارا عند أنفسهم ؛ لأن دار الآخرة لا يمكنون فيها من الكذب عن أبي علي وجماعة من مشائخنا ، وقيل : يجوز أن يحلفوا في الآخرة ككذب الصبي للدهش الذي يلحقهم عن أبي بكر أحمد بن علي ، وقيل : يحلفون في الآخرة انهم كانوا في الدنيا من المؤمنين ، وظنوا أن ذلك يجوز ثَمّ كما في الدنيا عن الحسن والأصم .

(٤) أبو علي : هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي ، المتكلم ، أخذ العلم عن أبي يوسف يعقوب بن عبد الله الشحام ، البصري ، وله مقالات مشهورة في الأولين ، قال الحاكم الجشمي : هو الذي سهل علم الكلام وذلله ، وله شرح على مسند ابن أبي شيبة ، وتفسير القرآن مائة جزء (مفقود) قيل : جملة مصنفاته مائة ألف ورقة ، وخمسين ألف

وأبوها شم وأكثر المعتزلة ، وتأولوا هذه الآية : أن يكونوا قد نسوا كفرهم ونفاقهم ، واستبعدوا أن يقع منهم خلاف الإخلاص لما شاهدوا أمور الآخرة ، وحلفوا على ذلك .

وقوله :﴿ألا أنهم هم الكاذبون﴾ يريد في الدنيا ، وجوز بعض العلماء وقوع الكذب منهم في الآخرة ، وهو ظاهر هذه الآية ، وظاهر قوله :﴿والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾ [١] والقرآن ناطق بثباته نطقا مكشوفا .

ثم أخبر تعالى أنه ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي : غلب واستولى عليهم في الدنيا من حاذ الحمار أتن الوحش ، إذا جمعهن وساقهن غالباً عليهن [٢] ﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ وهو أوامره بالعمل بطاعته ، وزواجره عن النهي عن معصيته ، ومعنى ﴿أنساهم﴾ أي : أغفلهم فهم لا يذكرون [الله] بقلوبهم ولا بألسنتهم [٣] .

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ يريد أنهم أصحابه وخاصته وجماعته وجنده ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ

ورقة ، الورقة نصف كراس ، وقرأ عليه أبو الحسن الأشعري ، وخالفه ، وجرت بينهما مناظرات طويلة ، ولأبي علي عناية في الرد على الفلاسفة والملحدة ، وتقرير العدل والتوحيد ، ولد سنة ٢٣٥هـ ، وتوفي في شعبان سنة ٣٠٢هـ ، وذكر محقق الأساس أنه توفي سنة ٣٠٣هـ (وتحقق ولادته أو ولادة ابنه أبو هاشم ؛ لأن الفرق بين ولادتهما إحدى عشرة سنة فقط) . انظر (متن الأساس المطبوع بتحقيقنا) .

وأبو هاشم هو : عبد السلام بن محمد [بن عبد الوهاب] بن سلام (مخفف) بن خالد بن أبان ، بن حمران ، مولى عثمان بن عفان ـ الجبائي ، المعتزلي ، أبو هاشم ، قال ابن خلكان : هو الإمام في مذهب الاعتزال ، المتكلم ابن المتكلم ، العالم ابن العالم ، كان هو وأبوه من كبار العلماء ، وولادته سنة ٢٤٦هـ ببغداد ، وإليه تنسب الفرقة البهشمية ، ذكره في المنية والأمل في الطبعة التاسعة ص ٩٤ ، والقاضي عبد الجبار من أنصاره ، وإن خالفه في بعض الأمور (انظر متن الأساس المطبوع ص ٢٣) .

(١) الأنعام : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) وهذا هو أحد ما جاء على الأصل على معنى أن السين والتاء ليستا للطلب ، بل حاذ واستحوذ بمعنى واحد ، قال الحاكم : والقياس أن يقال : استحاذ لأنه استفعل ، نحو استغاث واستقال ، قلبت الواو ألفا إلا أن هذا الحرف مفارق لأخواتها فأخرجوا الواو كما قالوا : حيوة .

(٣) قال الحاكم : ﴿فأنساهم ذكر الله﴾ قيل : عرضهم لترك ذكر الله فتركوا ، ولذلك ذمهم عليه ، وقيل : شغلهم بوسوسته حتى نسوا ذكر الله ، نسب النسيان إليه من حيث سبب إلى ذلك .

﴿الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الكاملون في الخسران يوم القيامة .

ثم قال سبحانه :﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي : يعادونه ويتجاوزون حدوده ويعادون رسوله ﴿أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾ أي : في جملة [من] هو أذل خلق الله في الآخرة حتما ، وفي الدنيا إذا أراد أن يذلهم فهو قادر .

ومعنى قوله :﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ أي : وعد وحكم وقضى قضاء مبتوتا ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ قال *الحسين بن القاسم* عليهما السلام :الغلبة بالدين والحق الواضح النير المستبين ، والحكمة الباهرة ، والصدق واليقين ، ثم الغلبة الثانية من الرحمن بما يحل بأعدائه من الموت والأحزان ، وتمزق أعضائهم في القبور والأكفان ، والثالثة عند البعث والهوان والحساب والعذاب في النيران ، فهو عز وجل قاهر غالب هو وأولياؤه وحزبه وأنصاره وأحباؤه [(١)] . اهـ

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ قادر قاهر ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب لا يغلب ، ثم قال تعالى :﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ﴿يوادون﴾ من الود ، وكذلك ما ظاهره المودة من الأفعال والأقوال والمخالطة .

قال *المرتضى* عليه السلام في جواب من سأله عن معنى هذه الآية ما لفظه :" هذا إخبار من الله سبحانه لنبيئه صلى الله عليه وآله وسلم أنه لا يجد قوما صحت بصائرهم ، وجاد إيمانهم يوادون أبدا من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم ، لأن ما في قلوبهم من مستحكم الإيمان ، ونور الحق والبرهان مانع لهم من ذلك ، والموادة فقد تكون بالمحبة والمواصلة ، والمكاتبة ، وحسن اللقاء ، فنهى الله تبارك وتعالى المؤمنين من ذلك ، وأخبر أنه لا يصح إيمان عبد أخلد إلى المنافقين ، وركن إلى الفاسقين" .اهـ

ومعنى قوله :﴿من حاد الله ورسوله﴾ أي : تعدى حدوده التي جعلها حدودا يحرم مجاوزتها ، هذا من باب التخييل [(٢)] [خيل] أن من الممتنع المحال أن تجد مؤمنين يوالون المشركين ، والغرض أنه لا

---

(١) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول السورة ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

(٢) أي : من باب تنزيل الموجود الكائن منزلة المعدوم الذي لا يمكن تصوره إلا في خزانة الخيال ، وإليه الإشارة بقوله: حقه أن يمتنع ولا يوجد بحال .

ينبغي أن يكون ذلك [وحقه أن يمتنع] [١] وأن لا يوجد بحال مبالغة في النهي عنه والتصلب في مجانبة أعداء الله ومخالطتهم [٢] وزاد على ذلك تأكيدا بقوله :﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي : أقاربهم غير من ذكر ، فنفى الإيمان ممن يوالي أعداء الله ، وإن كانوا من هؤلاء الأقارب . قال زيد بن علي عليه‌السلام : " حاد الله معناه : شاق الله وعاداه ".

قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : المعنى لا تجد مؤمنا يواد كافرا [ولا فاسقا] ولو كان أقرب الناس إليه ، ولا تجده له محبا ولو كان أعز الناس عليه [٣].

قال في *التجريد* : في ذلك قولان *. أحدهما* :أن المراد أن إيمانهم لا يجتمع مع موالاة أعداء الله ومحبتهم ؛ لأن حب الله لا يجتمع مع حب أعدائه ، كما يقال : أعداؤك ثلاثة : عدوك ، وصديق عدوك ، وعدو صديقك ، وعلى هذا موادة أعداء الله كفر *.وثانيهما* : أن المراد أن إيمانهم يقع محبطا ؛ لأن محبة أعداء الله كبيرة ، وعلى هذا يحتمل أنهم غير كافرين " . اهـ ثم قال تعالى في المهاجرين للظلمة الكافرين ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين لا يوادون من حاد الله ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أي : ألهمهم الإيمان وأعانهم ، ووفقهم لحقيقة الإيقان ، ومعنى ﴿كتب في قلوبهم الإيمان﴾ أي : أثبته فيها بتوفيقهم ، كما يثبت الشيء المكتوب أي : حكم لهم بحقيقة الإيمان ، وشدة ثباته في قلوبهم بالإخلاص والإيقان والله أعلم وقيل : معناه جعل في قلوبهم سمة تدل على أنهم من أهل الإيمان [٤] . ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أي : قواهم بروح القرآن ، كما قال :﴿أوحينا إليك روحا من أمرنا﴾ [٥] فسمى

---

(١) ما بين القوسين هو لفظ الكشاف ، ولفظ الأصل (والغرض أنه لا ينبغي أن يكون ذلك حقه) .

(٢) ومثل هذا في الكشاف ، ولفظ الكشاف : وأن لا يوجد بحال مبالغة في النهي عنه ، والزجر عن ملابسته ، والتوصية بالتصلب في مجانبة أعداء الله ومباعدتهم والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم . الكشاف ٤/٤٩٧.

(٣) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام ، وكذلك بقية كلامه هنا في أول السورة هذه . وما بين قوسي الزيادة موجود في أصل هذا التفسير ، وليست موجودة في تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام المخطوط النسخة التي لدينا ، والآية تنص على عدم موالاة الكافر ، بقوله :﴿من حاد الله ورسوله﴾ أما الفاسق ففيه دخوله إشكال .

(٤) قال الحاكم : قيل : جعل بحكمه كأنه مكتوب فيه ، وتقديره : حكم لهم بالإيمان ، وقيل : كتب بأن جعل لهم سمة تدل من عاينها أنهم من أهل الإيمان ، وقيل : ثبته في قلوبهم بلطفه عن الحسن ، وقيل : كتب للملائكة في اللوح المحفوظ أن قلوبهم بصفة الإخلاص .

(٥) الشورى : ٥٢ .

القرآن روحا ، ويحتمل أن يكون أيدهم بروح من التوفيق والتسديد ، والحكمة والبصيرة والعون والتأييد ، فحييت بذلك قلوبهم ، كما يحي البدن بالروح[١] .

قال في *التجريد* :"ويجوز أن يريد بروح من الإيمان أي : بحياة من حياة الإيمان[٢] لم يرخص الله لأحد في محبة أعداء الله ، ولو كانوا أبا ، أو ابنا ، أو أخا ، أومن العشيرة ، وهم الأقربون . وعن *الثوري* : أنها نزلت فيمن يصحب السلطان .

وعن عبد العزيز بن أبي رواد[٣] أنه لقيه المنصور في الطواف ، فهرب منه وتلاها .

وقيل : نزلت في الذين عادوا عشائرهم الكفار ، وقاتلوهم غضبا لله ولدينه" . انتهى

ثم قال سبحانه ﴿**وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ**﴾ قال *الهادي* عليه‌السلام : والجنات : فهي دار الكرامات التي جعلها للمتقين ، وكرم بها عباده المؤمنين ، دار السرور في المآكل والمشارب والمناكح والملابس ، التي لا يفتقر من نال ملكها ، ولا يسقم من حلها ، ولا يشقى من نالها ﴿**تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**﴾ يقول : تجري من تحت أشجارها وبين دورها وقصورها الأنهار ، والأنهار : فهي التي ذكر الله تبارك وتعالى حين يقول :﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾[٤] . ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ فرضاء الله عنهم ثوابه لهم ، ورضاهم عنه بما أعطاهم وجزاهم . ثم ذكر سبحانه أمرا من الأمور التي توجب ترك الموادة مع أعداء الله فقال :﴿**أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ**﴾ أي : جماعة أوليائه وأنصاره ، وأهل محبته وتقديمه وإيثاره .﴿**أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ الباقون في الخير ، الرابحون الظافرون بالمراد ، وهو في مقابلة قوله فيهم :﴿**أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون**﴾ . والله أعلم .

---

(١) قال الحاكم : قيل : بنصر منه عن الحسن ، وقيل : بالإيمان عن السدي ، وقيل : بالقرآن عن الربيع ، وقيل : بنور وهدى وبرهان عن ابن جرير ، وقيل : برحمة ، وقيل : بجبريل في كثير من المواطن .

(٢) بناء على أن الضمير عائد للإيمان ، على أنه في نفسه روح لحياة القلوب .

(٣) وانظر الكشاف ٤/٤٩٧ ، وكذلك ما قبله عن الثوري أنظر أيضا الكشاف .

(٤) محمد : ٤٧ .

سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال زيد بن علي عليهما السلام: معناه خضع وذل

قال في التجريد: هذا وأمثاله يحتمل أن يراد بالعموم فيه الخصوص، وهم الملائكة والمؤمنون من الجن والإنس.

والتسبيح: التنزيه، أو قول: سبحان الله، أو الصلاة، ويحتمل أن يراد كلما في السموات والأرض من جماد وحيوان فيه آية بينة تدل على تنزيه الله تعالى فهي تسبحه أي: دالة على التسبيح بلسان الدليل.

قلت: وهذا الاحتمال الآخر هو معنى ما ذكر الهادي عليه السلام في أول سورة التغابن وأطال الاحتجاج عليه هناك، وإنما صح أن كل مصنوعاته تسبحه وتبعده عن شبه خلقه؛ لأن فيها من عجائب قدرته ما يدعو العقلاء الناظرين إليها إلى تسبيحه.

قال في الكشاف: وقد جاء التسبيح بغير لام كسبحوه، وتارة معدى باللام كسبح لله، وأصله التعدي بغير لام؛ لأن معنى سبحته: بعَّدْتُه عن السوء، منقول من سبح في الأرض: ذهب فيها وأبعد، فاللام لا تخلو إما أن تكون مثل اللام في نصحته ونصحت له [١] وإما أن يراد سبح لله: أحدث التسبيح لأجل الله ولوجهه خالصا [٢].

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الغالب الذي لا يفعل فعلا إلا بعدل وحكمة وغرض صحيح؛ فلذلك سبحه كل شئ ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا شريك له فيه.

---

(١) أي: أنها هنا للتعدية، وفي قوله: أحدث التسبيح لأجل الله اللام للتعليل.

(٢) لفظ الكشاف: وقد عدي هذا الفعل باللام تارة، وبنفسه أخرى في قوله: ﴿وتسبحوه﴾ وأصله التعدي بنفسه؛ لأن معنى سبحته: بعدته عن السوء، منقول من سبّح إذا ذهب وأبعد ... الخ ما ذكره هنا (الكشاف ٤/٤٧٢) وانظر الرازي ٢٩/٢٠٦.

ثم إنه لما ذكر سبحانه من دلائل الآفاق ملك السموات والأرض لأنه شئ مشاهد محسوس، وأكثر الخلق عقولهم ضعيفة، قلما يمكنهم الترقي من المحسوس إلى المعقول ـــ ذكـــر بعـــده دلائل الأنفس فقال :﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يحي النطف والبيض والموتى، ويحي ويميت الأحياء [1]

قال الرازي : ذكر المفسرون [فيه] وجهين أحدهما : يحي الأموات للبعث ،ويميت الأحيـــاء في الدنيا. والثاني : قال الزجاج: يحي النطف فيجعلها أشخاصا عقلاء فاهمين ناطقين، ويميت الأحياء

وعندي فيه وجه ثالث [2]:وهو أنه ليس المراد منه تخصيص الإحياء والإماتة بزمان معين، وبأشـــخاص معينين، بل معناه : أنه القادر على خلق الحياة والموت، كما قال في سورة الملك :﴿الذي خلق الموت والحياة﴾ والمقصود منه كونه [سبحانه] المتفرد بإيجاد هاتين الماهيتين على الإطلاق، لا يمنعه عنهما ولا يرده عنهما راد، وحيئذ يدخل فيه الوجهان اللذان ذكرهما المفسرون .

واعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل الآفاق أولا، ودلائل الأنفس ثانيا ـــ ذكر لفظا يتنـــاول الكل فقال : ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [3] لا يعجزه شئ بل هو عليه يسير .

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ قال [الإمام] زيد بن علي عليهما السلام : فالأول: الـــذي كان ولا شئ غيره [4]. والآخر : الذي يكون ولا شئ معه . والظاهر : الذي ليس ما ظهر مـــن الأشياء بأقرب إليه مما بطن . والباطن : الذي ليس ما بطن من الأشياء بأبعد عنه مما ظهر [5].اهــ

---

(١) وفي الرازي مثله بمعناه ٢٩/٢٠٨.

(٢) هذا هو لفظ الرازي، ولفظ الأصل لهذا التفسير : وزاد بعضهم وجها ثالثا . فأثبتنا ما في الرازي لأنه ناقل عنه .

(٣) إلى هنا انتهى النقل من الرازي، وما بعده ليس من الرازي، وقد حذف المصنف بعض كلام الرازي الواقع بـــين قوله : ذكرهما المفسرون .. إلى قوله : واعلم أنه لما ذكر (الرازي ٢٩/٢٠٨، ٢٠٩) .

(٤) قال السيد العلوي رحمه الله : قوله (أي الزمخشري) : هو الأول قيل : قال المحققون : لا يقـــال لله : أول الأشـــياء ؛ لأن الأشياء لا تماثله، وأفعل يضاف إلى ما هو منه . قلت (الضمير للعلوي) : ولقائل أن يقول : إنها مماثلة له في الشيئية لأن الشيء هو ما يصح العلم به والخبر عنه، وهذا المعنى مستوٍ في القديم والمحدث، وهذا القدر كاف في إضافة أفعل التفضيل، قـــالوا :

وأول يأتي على ثلاثة أوجه : اسم منصرف، تقول : ما تركت له أولا ولا آخرا، أي قديما ولا حديثا . وصفة ويلزمها من، أو الألف واللام، أو الإضافة . وظرف نحو ما رأيته منذ عام أول، ويبنى على الضم كالغايات، والذي جاء في حق الله هـــو الاسم لا الوصف، وفاؤه وعينه واوان، وليس في كلام العرب له نظير . حاشية العلوي ٣٠٥.

قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : ويحتمل هذا الكلام وجها آخر :وهو أنه ظاهر لا يخفى عن أوليائه بما أظهر من آياته ونعمه وآلائه . والباطن : الذي لا يدرك بالحواس ، ولا تلحقه مشاعر أحد من الناس ، ولا باطنيته كباطنية أحد من المخلوقين ، ولا يتوهم عاقل أنه محتجب كاحتجاب المصنوعين ، تعالى عن ذلك رب العالمين .اهـ

وقيل : الظاهر : العالي على كل شئ ، الغالب له ، منْ ظهر عليه إذا علاه وغلبه .

وقيل : الباطن : الذي بطن كل شئ ، أي : علم باطنه [1].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه مضمر ولا مظهر .

---

(٥) في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليهما السلام :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام في قوله تعالى :﴿سبح لله ما في السموات وما في الأرض﴾ معناه : خضع وذل .

وقوله تعالى :﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ فالأول : الذي كان ولا شئ غيره ، والآخر : الذي يكون ولا شئ معه ، والظاهر : الذي ليس ما ظهر من الأشياء بأقرب إليه مما بطن . والباطن : الذي ليس ما بطن من الأشياء بأبعد عنه مما ظهر . وقوله تعالى :﴿ولكنكم فتنتم أنفسكم﴾ معناه : أهلكتموها .

وقوله تعالى : ﴿وارتبتم﴾ أي : شككتم ، وقوله تعالى :﴿وغركم بالله الغرور﴾ أي : الشيطان . وقوله تعالى :﴿هي مولاكم﴾ معناه : أولى بكم . وقوله تعالى :﴿ألم يأن للذين آمنوا﴾ معناه : ألم يدرك . وقوله تعالى :﴿فطال عليهم الأمد﴾ معناه : الغاية . وقوله تعالى :﴿ثم يهيج﴾ معناه : ييبس . وقوله تعالى :﴿من قبل أن نبرأها﴾ معناه : نخلقها . وقوله تعالى :﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم﴾ أي : لا تحزنوا ولا تفرحوا بما أعطاكم .

قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام: ليس من أحد إلا ويحزن ويفرح ، ولكن إن أصابه خيرا فليجعله شكرا ، ومن أصابته مصيبة فليجعلها صبرا .

وقوله تعالى :﴿لا يحب كل مختال فخور﴾ معناه : متكبر . وقوله تعالى :﴿وأنزلنا معهم الكتاب والميزان﴾ معناه : العدل ليقوموا به . وقوله تعالى :﴿ليعلم الله من ينصره﴾ معناه : ليميز الله ويبين . وقوله تعالى :﴿وقفينا على آثارهم برسلنا﴾ معناه : أتبعنا . وقوله تعالى :﴿ما كتبناها عليهم﴾ معناه : ما أمرناهم بها . وقوله تعالى :﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾ معناه : ضعفين بلسان الحبشة ، وقوله تعالى :﴿لئلا يعلم﴾ معناه : ليعلم .

(١) وذكر مثله عن الزجاج والليث . ومثله في الكشاف (٤/٤٧٢) .

وأما قوله تعالى :﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فالمقصود منه دلائل القدرة والعلم ومعنى﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي : في مدة مقدرة فيها ؛ إذ لم يكن حينئذ شمس يُعْرَفُ اليوم بها .

ابن جبير [1] هو قادر على خلقها في لحظة لكن خلقها في ستة أيام تعليما لخلقه الرفق والتثبت في الأمور .﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام معناه : استولى وغلب على الملك ، قال الشاعر :

رأينا الملك أرسى في بلاد   بها ملك العراق مع الوزير

قد استويا بملكهما جميعا   على ملك العراق بغير زور

وقال آخر [2] : قد استوى بشر على العراق   بغير سيف ودم مهراق

يريد أنه ملك العراق ، ولا يتوهم أحد يعقل أن العراق سرير يقعد عليه .اهـ

لأن العرش في الأصل سرير الملك ، والاستواء عليه : كناية عن الملك الكامل ؛ لأن استواء الملك على السرير من توابع ملكه ، فهو أبلغ من قولك : ملك .

ثم بين تعالى كمال علمه بقوله :﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني من مطر وغيره ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وغيره ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني : من مطر وغيره ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة وغيرهم ، ذكره في البرهان [3]

---

(١) ابن جبير : هو سعيد بن جبير بن هشام الأسدي بالولاء الكوفي ، أبو عبد الله [٤٥ ـ ٩٥هـ] أحد عظماء الإسلام ، ومن سادات التابعين علما وفضلا وصدقا وعبادة ، خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث على عبد الملك بن مروان ، وقبض عليه وأرسل إلى الحجاج ، فجرى بينهما حوارا يكشف عن بطولة سعيد وجهاده ، ووقوفه ضد حكام الجور فقتله الحجاج صبرا ، ولم يلبث الحجاج بعد مقتله إلا خمسة عشر يوما حتى هلك ، وله تفسير مفقود لم يصل إليها إلا في الروايات التي تناقلتها الكتب المتأخرة ، ذكره غير واحد في رجال الشيعة ، وعده أبو العباس الحسني فيمن بايع الإمام الحسن بن الحسن الرضا ، وعن السيد صارم الدين الوزير ، وابن حابس ، وابن حميد في ثقاة محدثي الشيعة ، وخرج له أئمتنا الخمسة والشريف السيلقي ، والجماعة . (انظر معجم رجال الاعتبار وسلوة العارفين ــ تحت الطبع ــ وفيه بقية مصادر الترجمة) .

(٢) الشاعر : هو البعيث ، وبشر : هو بشر بن مروان لما ولاه أخوه عبد الملك بن مروان . (التبيان ٥١٩/٩) .

(٣) انظر البرهان مخطوط ٣٦٨، ٣٦٩ .

والولوج : هو الدخول ، أي : يعلم ما يدخل في الأرض من الغيث والكنوز والأموال وغير ذلك ، وما يخرج منها من الشجر والنبات وماء العيون ، وما ينزل من السماء من الأرزاق والملائكة والصواعق وغير ذلك .

ومعنى ﴿يعرج﴾ : يطلع ويصعد من الملائكة وأعمال العباد وأرواحهم .

قال الرازي : وإنما قدم ما يلج في الأرض على ما ينزل من السماء ؛ لأن الحبة تبذر أولا ثم تسقى ثانيا . وقال : ﴿وما يعرج فيها﴾ و لم يقل : يعرج إليها إشارة إلى قبول الأعمال الصالحة ، ومرتبة النفوس الزكية ، وهذا لأن كلمة إلى للغاية ، فلو قال : وما يعرج إليه لفهم الوقوف عند السموات فقال :﴿وما يعرج فيها﴾ ليفهم نفوذها فيها وصعودها منها ، ولهذا قال في الكلم الطيب :﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ [1] وأما السماء فهي : دنيا وفوقها المنتهى.

ثم قال تعالى :﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ بالعلم والقدرة ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ حتى لا يخفى عليه شئ من أعمالكم ، ولا يعجزه شئ من أموركم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجزيكم بحسبه من حسن وسيئ .

قال المتكلمون : هذه المعية إما بالعلم ، وإما بالحفظ والحراسة ، وعلى التقديرين فقد انعقد الإجماع على أنه سبحانه ليس معَنَا بالمكان والجهة والحيز ، فإذاً قوله :﴿وهو معكم﴾ لابد فيه من التأويل ، وإذا جوزنا التأويل في موضع وجب تجويزه في سائر المواضع .

واعلم أن في هذه الآيات ترتيبا عجيبا ، وذلك لأنه سبحانه بيّن بقوله :﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ كونه إلها لجميع الممكنات والكائنات ، ثم بيّن كونه إلها للعرش والسموات والأرضين ، ثم بين بقوله :﴿وهو معكم﴾ مَعِيّته معَنَا [2] بسبب القدرة والإيجاد والتكوين،وبسبب العلم وهو كونه عالما بظواهرنا وبواطننا، فتأمل في كيفية هذا الترتيب ، ثم تأمل في ألفاظ الآيات فإن فيها أسرارا عجيبة،وتنبيهات على أمور عالية. ذكر هذا الرازي [3]

---

(١) فاطر : ١٠ .

(٢) في الرازي (معيته لنا) .

(٣) من قوله : قال المتكلمون ... إلى هنا موجود في تفسير الرازي (٢٩/ ٢١٥) .

ثم قال تعالى :﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يملك أحد إلا بتمليكه ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أمور العباد يوم القيامة ، فيجزيهم بأعمالهم ، فهو المالك للدارين ، ودل بهذا القول على إثبات المعاد .

ثم قال :﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ أي : يحصل ظلمة الليل مكان ضياء النهار بغيبوبة الشمس ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ وهو العكس من الأول ، وقيل : الإيلاج زيادته في أحدهما ما ينقصه من الآخر من الساعات .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام :[1] معناه : أنه يدخل الليل على النهار ، ويدخل النهار على الليل

---

(١) وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني عليهما السلام ما لفظه :

تأويل قول سيدنا ومولانا عزوجل :﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ يريد عز وجل أنه الأول قبل إيجاده للمخلوقين ، وهو القديم الذي لم يكن قبله أحد من المحدثين ، وهو الآخر الذي لايزول ولايتغير مثل خلقه ، ولا يحول وأوليته أخريته ، وظاهريته باطنيته ، لافرق بينه تعالى عن الإفتراق والإختلاف ، ولايتضاد عز وجل في شيء من الأوصاف ، ومعنى الظاهر : هو القوي العلي الذي لايضعف ولا يفتر ويني ، يدل على ذلك قوله عز وجل :﴿وأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ يريد فصاروا غالبين قاهرين ، ويحتمل هذا الكلام وجها آخر :وهو أنه ظاهر لايخفى عن أوليائه بما أظهر من آياته ونعمه وآلائه . والباطن : الذي لايدرك بالحواس ، ولا تلحقه مشاعر أحد من الناس ، وليس باطنة كباطنية أحد من المخلوقين ، ولا يتوهم عاقل أنه محتجب كاحتجاب المصنوعين ، تعالى عن ذلك [مولانا وسيدنا] رب العالمين . ومعنى قوله عز وجل :﴿ثم استوى على العرش﴾ يريد عز وجل : أنه استولى وغلب على الملك ، قال الشاعر :

رأينا الملك أرسى في بلاد ... بها ملك العراق مع الوزير
قد استويا بملكهما جميعا ... على ملك العراق بغير زور

وقال آخر :

قد استوى بشر على العراق ... بغير سيف ودم مهراق

يريد أنه ملك العراق ، ولا يتوهم أحد يعقل أن العراق سرير يقعد عليه . ومعنى :﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾ يريد أنه يعلم ما يلج في الأرض والولوج : هو الدخول . ومعنى ﴿وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾ فمعنى يعرج : هو يطلع ويصعد ، وهو عز وجل عالم بذلك غير جاهل به ، لايخفى عليه العالم جميعا في كل أسبابه ، ومعنى ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ يريد عز وجل أنه يدخل الليل على النهار ، ويدخل النهار على الليل ، ومعنى ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ يريد : أنفقوا مما جعلكم مالكين له بعد غيركم ممن سلف ، وملك الأموال قبلكم ، ثم هلك وخلفها لكم فستفارقونها كما فارقها الأولون منكم ، ومعنى قوله :﴿وقد أخذ ميثاقكم﴾ يريد : أنه أخذ عهدكم بما أوجب الله من الأسباب عليكم ، والعهد : هو الميثاق والعقد ،

وهو اللازم الواجب على العبد . ومعنى ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ هو : ليخرجكم من الجهل والغـــي إلى الحق والبيان والدين والهدى ، ولكنه ضرب النور والظلمات مثلا . ومعنى ﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾ يريد عز وجل أنه يرثهما بعد فناء أهلها ليزهدهم بذلك في ملكهم ، ويعلمهم بقصر أعمارهم وهلاكهم ، ومعنى ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له﴾ يريد عز وجل : من يقدم إلى الله عملا صالحا يكون بمنزلة القرض الذي يقتضـــى وهويسمى في اللغة سلفا ودينا وقرضا . معنى ﴿فيضاعفه له﴾ يريد : فيضاعف له الثواب عليه ، والمضاعفـــة : هـــي الزيادة على مثله وأمثاله ،قال الشاعر : حملت على ضعفي وقلة حيلتي من الحب أضعاف الذي حملوا وحدي، يريد أنه حمل أمثل ذلك الذي حمل أصحابه وأشكاله ، ومعنى قوله عز وجل :﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بـــين أيديهم بأيمانهم﴾ قيل : إن الأنوار إذا كورت ، آنس الله أولياءه بنور يسطع بين أيديهم وبأيمانهم ، ويسرع ويســـيرهم عند سيرهم ، وعند ذلك يقول المنافقون والمنافقات ماحكى الله عنهم :﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾ يريدون انتظرونا لعلنا نأخذ من نوركم ، ونستضيء بذلك معكم ، والإقتباس في اللغة : أخذ الشـــيء مـــن النـــار قـــال الشـــاعر : يرى القابس العجلان ميّاً مليحة ومي إذا ردت لها العين أملح وقال آخر : فهي تلظى كشهاب القبسي .

فيقال عند ذلك : ﴿ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا﴾ قيل : إن المؤمنين يعدونهم ويقولون لهم عند ذلك : التمسوا نورا غير هذا النور وراءكم ، واطلبوا نورا غير نورنا لكم يعنون بذلك فيما روي نور الشمس والقمر والنجوم ، فيرجعون وراءهم فيضرب بينهم وبين المؤمنين بسور له باب كما قال الله عز وجل ﴿باطنه فيه الرحمة﴾ يعني باطن باب النـــور، والسور في اللغة : هو سور المدينة والقرية ، وهي الدرب المحيط المحدق بها ﴿وظاهره من قبله العـــذاب﴾ يريـــد : أن العذاب وراء ظاهر السور من قبله ، والقبل : هو الجهة التي تلي وتقابل ، فدل على أن النار لاتقابل الجنة ولا تقاربها ، وإنما تكون وراء ظاهر سورها . ومعنى ﴿فتنتم أنفسكم﴾ يريد أضللتم أنفسكم ، ومعنى ﴿تربصتم وارتبتم﴾ هو تأنيتم ووقفتم عن الحق ، وشككتم ، ومعنى ﴿وغرتكم الأماني﴾ يريد : خدعكم من الله ابليس الخدوع ، والغـــرور : قـــد يكون الخدع والزور ، واللذات الملهية والسرور ، ومعنى ﴿ألم يأن للذين آمنوا﴾ ألم يحن ؟ قال الشاعر :

ألم يأن لي يا قلب أن أترك الجهلا وأن يحدث الشيب المنير لنا عقلا

و﴿أن تخشع قلوبهم﴾ تلين قلوبهم لذكر الله خالقهم ، وما نزل من الحق على لسان نبيهم ، ومعنى ﴿فطال عليهـــم الأمد﴾ يريد : أنه طال عليهم الوقت والحد ، فلما طال عليهم التكليف وبَعُدَ أمدهم الذي هو موتهم وأجلهم وحَدُّهم لم يشكروا على ذلك سيدَهم ﴿فَقَسَتْ﴾ حينئذ ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ و لم تلن لذكر الله ، وقد كان يجب عليهم شكر مولاهـــم على طول مدتهم ، ويكثروا من العمل الصالح في أوان حياتهم ، وقبل حضور موتهم ووفاتهم ، ومعنى ﴿إن المصدقين والمصدقات﴾ يعني المتصدقين والمتصدقات ، والمنفقين أموالهم في سبيل الله من المؤمنين والمؤمنات ، ولكن التشديد للصاد يقوم مقام التاء عند أهل المعرفة باللغات . ومعنى ﴿هم الصديقون والشهداء﴾ أما الصديقون فهم الصـــادقون ، وأمـــا

الشهداء : فهم المجاهدون ، وأكثر ما يستعمل هذا الإسم للمقتولين الذين قتلوا في الجهاد من المسلمين ، والأصل في الشهادة هي الحضور عند القتال ، ثم استعمل للعقلاء خاصة لعظم خطرهم وشأنهم عند الله وقدرهم ، فصار القتيل هو الشهيد لمشاهدته الجهاد ، وجليل خطره عند ذي العزة والأياد ، وإنا لحراص في ذلك غير فاترين ، فنسأل الله وهو أرحم الراحمين ، ولا قوة لنا إلا بالله رب العالمين ، ومعنى ﴿عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾ يريد عز وجل أن عنده لهم الثواب ، وأما النور فهو الهدى ، وهو العلم واليقين الذي يحويه من الردا ويمكن أن يخصهم في ذلك بنور يسطع في وجوههم لصبرهم على الجهاد في طاعة ربهم ، ومعنى ﴿كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما﴾ يريد عز وجل أن مثل الحياة الدنيا كذلك تحسن في أعيان أهلها ، ويعظم سرور الكفرة لذلك بجهلها ، ويفرطون في الإعجاب بخطرها وبهجتها ، ثم تهيج وتيبس ، ثم تتحطم وتتكسر ، وقيل : إن الكفار هاهنا هم الزراع الذين يكفرون الحب ويسترونه ، ويذرونه في الحرث ويغطونه ، والكفر في اللغة : هو الستر ، والعرب تقول : كفرنا على المغافر بعمائمنا ، يريدون أنهم ستروا عليه المغافر بعمائمهم ، ومعنى يهيج : هو ييبس ، والهياج في هذا الموضع : اليبس ، قال الكميت رحمة الله عليه :

وإن هاج نبت العلم في الناس لم تزل   لهم روضة خضراء منه ومذنب

ومعنى ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾ هو بادروا وأسرعوا وادخلوا وعجلوا ولا توانوا ولا تقفوا . ومعنى ﴿جنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾ يريد أن الجنة في السعة والإنبساط كعرض السموات والأرض في هذه الدنيا ، والعرض هاهنا : هو السعة ، قال الشاعر :كأن بلاد الله وهي عريضة على الخائف المطلوب كفة حائل ، وذلك أن الأرض تمد يوم القيامة حتى تكون كعرض سماوات الدنيا وأرضها . معنى ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾ يريد في علم حافظ من قبل أن نبرأ أنفسكم ونخلقها ، ومعنى قوله :﴿إن ذلك على الله يسير﴾ أي : هين سهل لايمتنع عليه ولا يعجز منه ، بل هو عالم به وبغيره ولا يغيب عنه . معنى ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ يريد عز وجل أنه نزل هذه المصائب التي ذكرها لئلا يفرط العباد في السرور والفرح بنعيم الدنيا ليزهدوا في ذلك عند ذكرهم للمصائب والفناء لئلا يأسوا ولا يحزنوا على مافاتهم من حطام هذه الدنيا ، و لم يرد الله النهي عن فرح المسلمين برزقه ، وإنما ذكر الله زهدهم بالمصائب لعلمه بأنهم يحتاجون إلى الزهد عند الموت ، ويحتمل وجها آخر أن يكون أراد النهي عن المرح والخيلاء والصلف عند الفرح ، يدل على ذلك قوله في آخر الآية :﴿والله لايحب كل مختال فخور﴾ ومعنى قوله :﴿وأنزلنا معهم الكتاب والميزان﴾ يريد الكتاب والعدل ، ولكنه ضرب الميزان مثلا لما أن كان الميزان مستقيما معتدلا ﴿ليقوم الناس بالقسط﴾ يريد : ليعملوا بالعدل والإحسان ، وليقومن بما افترض عليهم من الأديان ، ويهربوا إليه بطاعته من النيران . ومعنى ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾ يريد : خلقنا ، ولا فرق بين أنزلنا وفعلنا ﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾ ونصرهم الله فيما غاب عنهم من الوعد والوعيد ، فيعلم عز وجل من ينصره وينصر أنبياءه ، ويقاتل وينابذ في الدين أعداءه ، ويعز بجهده وصبره

﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي : مضمراتها ، وهذه الآيات جامعة بين الدلائل على قدرته ، وبين إظهار نعمته .

واعلم أنه لما ذكر أنواعا من الدلائل على التوحيد والعلم والقدرة أتبعها بالتكاليف ، وبدأ [بالأمر] بالإيمان بالله وبرسوله فقال :﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ .

أولياءه مع ما شاهد في ذلك من حر الجلاد ، ومفارقة الوطن والأهل والأولاد ، والمحن والسير في أقطار البلاد ، فألهموا أنفسهم فراق ذلك مختارين ، قبل يفارقونه كارهين مأزورين ، وكونوا لذلك مستعدين منتظرين محتسبين لله عز وجل صابرين ، فالدنيا غير مقيمة لأهلها ، ولكن هذه الأمة أبت إلا التمادي في جهلها ، فمن لم يختر فراق الدنيا فارقه صاغرا، وارتحل بالموت وكان عند الله بائرا ، وأنا أعطي الله عهدا وعهيدا ، وميثاقا وثيقا أكيدا لئن بلغني ما أؤمل من الجهاد والمنابذة لذوي الغي والفساد لأوثرن طاعته في جميع الأحوال ولأنصرن دينه بالفعل والمقال ، ولو ذهب في ذلك رأسي ، أو رخصت في الغضب لله نفسي ، فنسأل الله العون على ذلك برحمته ، والتوفيق والتسديد لطاعته بالجهاد أقرب ما يتقرب به إلى الرحمن ، ويطلب به الفرار من النيران ، ومعنى قوله عز وجل :﴿ثم قفينا على آثارهم برسلنا﴾ هو أتبعنا على آثارهم برسلنا ، وأتبعناهم بعيسى بن مريم إلى قوله :﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾ يريد أنا جعلنا في قلوبهم ذلك بأمرنا ، وهذا جعل أمر ، وليس بجعل خلق ولا حتم ولا جبر . ثم قال عز وجل ﴿ورهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله﴾ معنى الرهبانية : مأخوذ من الرهبة لمولانا الجليل بالنوافل والتقرب إليه بالفعل النبيل ، والتكرم الذي ابتدعوه من الجميل ، ولم يكلفهم الله كل ذلك في التنزيل . ومعنى ﴿ماكتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله﴾ يريد : ما فرضنا عليهم ، ولكن ذلك ابتغاء رضوان الله ربهم ، والتقرب إليه بنوافلهم . ثم رجع إلى تعنيف هؤلاء الذي بعدهم من خلفهم وذريتهم ونسلهم فقال عز وجل :﴿فما رعوها حق رعايتها﴾ يريد فما حفظوا تلك الأفعال حقيقة حفظها ، ولا عملوا بعد آبائهم بها ، ومعنى ﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾ هو يعطيكم نصيبين من نعمته ، نصيب في الدنيا للمعونة على طاعته ، ونصيب في الآخرة من مغفرته ، ويمكن أن يكون الكفل الأول : هو التوفيق والتسديد ، والخيرة منه والعون والتأييد ، ومعنى ﴿ويجعل لكم نورا تمشون به﴾ يريد يجعل لكم هدى تمشون به إلى الجنان ، وتسيرون به في طلب النجاة والرضوان ،والرحمة من الله الواحد الرحمن ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب أن لايقدرون على شئ من فضل الله﴾ يريد : لأن يعلم أهل الكتاب أنهم لايقدرون على شئ من فضل الله الذي يعطيه المؤمنين ، وليعلموا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ ولكنه أقام لئلا مقام لأن ، ولا صلة ، وليس لها معنى غير أنها زينة لكلام متلو ، وهي موجودة في لغة العرب وأشعارها ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلم تسليما .

قال الرازي : فإن قيل : قوله :﴿آمنوا بالله﴾ خطاب مع من عرف ؟ أو مع من لم يعرف الله ؟ فإن كان الأول كان ذلك أمرا بأن يعرف من عرفه ، فيكون ذلك أمرا بتحصيل الحاصل ، وهو محال . وإن كان الثاني كان الخطاب متوجها على من لم يكن عارفا به ، ومن لم يكن عارفا استحال أن يكون عارفا بأمره ، فيكون الأمر متوجها على من يستحيل أن يعرف أن يكون مأمورا بذلك الأمر ، وهذا تكليف مالا يطاق !؟ .

قيل له : معنى قول الله سبحانه :﴿آمنوا بالله ورسوله﴾ أي : صدقوا بتوحيد الله ،وما أتاكم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ لأن معرفة وجود الصانع حاصلة للكل ، وإنما المقصود من هذا الأمر معرفة الصفات .

ثم قال سبحانه :﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ اعلم أنه تعالى أمر الناس أولا بأن يشتغلوا بطاعة الله ، ثم أمرهم ثانيا بترك الدنيا والإعراض عنها ، وإنفاقها في سبيل الله .

واختلف في هذا الإنفاق ، فقال بعضهم : هو الزكاة الواجبة ، وقال آخرون : بل يدخل فيه التطوع ، ولا يمتنع أن يكون [عاما] في جميع وجوه البر [١]. ومعناه : أنفقوا مما جعلكم مالكين له بعد غيركم ممن سلف وملك الأموال قبلكم ثم هلك وخلفها لكم ، فستفارقونها كما فارقها الأولون منكم فاعتبروا حيث انتقل إليكم ، وسينتقل عنكم فلا تبخلوا به ، وانفعوا بالإنفاق أنفسكم .

وقيل : معناه أنفقوا في الجهاد من الأموال التي في أيديكم ؛ لأنها أموال الله أنشأها ومولكم إياها ، وجعلكم خلفاء له في التصرف فيها ، فليست لكم حقيقة ، إنما أنتم بمنزلة النواب عنه ، فأنفقوا منها في الجهاد وسائر حقوق الله تعالى ، والخطاب لكفار مكة وغيرهم .

ثم إنه تعالى ضمن لمن فعل ذلك أجرا كبيرا فقال :﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ دلت هذه الآية على أن هذا الأجر لا يحصل بالإيمان المنفرد حتى ينضاف

---

(١) من قوله :(واعلم أنه لما ذكر أنواعا من الدلائل ... إلى هنا مثله في الرازي ٢٩/ ٢١٥، ٢١٦) .

هذا الإنفاق إليه ، ومن هذا الوجه تدل على أن من أخل بالواجب من زكاة أو غيرها فلا أجر له [١] .

ثم إنه تعالى وبّخ على ترك الإيمان فقال سبحانه :﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ أي : فأيُّ عذر لكم في ترك الإيمان بالله مع هذه الحال ، وهي أن الرسول يدعوكم ﴿لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ أي : لتوحدوه ، ويتلو عليكم الكتاب الناطق بصحة ما يدعوكم إليه ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ معناه : أخذ عهدكم بما أوجب الله من الأسباب عليكم ، أي : أخذ ميثاقكم على الإيمان بما ركب فيكم من العقول ، ونصب لكم من الأدلة ، فلم تبق لكم علة بعد أدلة العقل وبيِّنة الرسول . والعهد : هو الميثاق والعقد اللازم على العبد .

ثم قال تعالى :﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي : إن كنتم مؤمنين لأمر يدلكم على الإيمان ، ويهديكم إليه ، فإن دعوة الرسول لكم ، وتركيب عقولكم السوية أبلغ أمر يهدي [إلى] الإيمان ، فما لكم لا تؤمنون الآن إن كنتم ممن يهتدي بالأدلة ؛ فإنه قد تطابقت الدلائل العقلية والنقلية وبلغت مبلغا لا يمكن الزيادة عليها .

واعلم أن تلك الدلائل لما اقتضت وجوب القبول فهي أوكد من الحلف واليمين ، ولذلك سماه ميثاقا ، وحاصل الأمر أنه تطابقت دلائل النقل والعقل . أما النقل : فبقوله ﴿والرسول يدعوكم﴾ وأما العقل فبقوله :﴿وقد أخذ ميثاقكم﴾ ومتى اجتمع هذان النوعان فقد بلغ الأمر إلى حيث تمتنع الزيادة [عليه] .ذكر هذا الرازي [٢]

---

(١) من قوله :(جلت هذه الآية .. إلى هنا نسبه الرازي إلى القاضي البيضاوي . انظر الرازي ٢٩/٢١٦.

(٢) من قوله : واعلم أن تلك الدلائل .. إلى هنا مثله في الرازي ، وقد أصلحنا بعض الألفاظ من الرازي ، وكان الأصل (من الحلف باليمين) (هذان الأمران) (تمتنع الزيادة) انظر الرازي ٢٩/٢١٦/٢١٧.

قوله :﴿وما لكم﴾ يدل على قدرتهم على الإيمان ؛ إذ لا يجوز أن يقال ذلك لمن لا يتمكن من الفعل كما لا يقال : مالك لا تطول ولا تبيض . ويدل على أن الاستطاعة قبل الفعل ، وعلى أن القدرة صالحة للضدين ، وعلى أن الإيمان حصل من العبد لا بخلق الله [١].

ثم قال سبحانه :﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد صلى الله عليه وآله ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الإعجاز والهداية ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي : ليخرجكم من الجهل والعمى إلى الحق والدين والهدى ، فأخبر سبحانه وبين بذلك أن مراده بإنزال الآيات البينات التي هي القرآن وغيره من المعجزات أن يخرجهم من الظلمات إلى النور ، أي : من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ولكنه ضرب النور والظلمات مثلا ، وأكد ذلك بقوله :﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ معنى الرأفة والرحمة واحد ، أي : هو عظيمهما ، ومن رأفته ورحمته أن دعاكم إلى سعادتكم من غير حاجة به إليكم ، وهو غني عن إيمانكم ولا تضره معصيتكم .

واعلم أنه لما أمر أولا بالإيمان وبالإنفاق ، ثم أكد في الآية المتقدمة إيجاب الإيمان أتبعه في هذه الآية بتأكيد أيجاب الإنفاق فقال سبحانه :﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عام في كل خير ، والمراد هنا الجهاد .

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي : لله ملك السموات والأرض ، وأنهما إليه يرجعان كرجوع الميراث إلى المستحق ، وأنه يرثهما بعد فناء أهلهما ليزهدهم بذلك في ملكهم ، ويعلمهم بقصر أعمارهم ، وأن ليس لهم إلا ما قدموه فهو يجازيهم ؛ لأنهم ميتون فمحاسبون ومجازون .

ثم بين تعالى طبقات المنفقين في سبيل الله فقال :﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ قبل الفتح حين كثرت الحاجة إلى القتال ، وفيه حذف ، أي : ومن أنفق من بعد الفتح ، حُذِفَ لوضوحه .

---

(١) من قوله : قوله تعالى :﴿ومالكم﴾ إلى هنا ـ نسبه الرازي إلى القاضي البيضاوي . الرازي ٢٩/٢١٧.

قال في البرهان : وهذه الآية نزلت في أمير المؤمنين علي عليه‌السلام ؛ لأنه الذي قاتل قبل الفتح ، يعني به فتح مكة ، وواسى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله بنفسه وماله ، ومواقفه قبل الفتح مشهورة ، ومقاماته بعده مذكورة صلوات الله عليه ، وإنما كان القتال والنفقة قبل الفتح أفضل منهما بعد ؛ لأن الأشياء كانت قبل الفتح متضايقة ، والدار لم تكن واسعة ، والأنصار كانوا يومئذ أقلهم ، فصارت المواساة عند الضيق أفضل وأجزل ثوابا منها عند الفسحة [١] .

﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ أي : منزلة وثوابا ﴿مِنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ﴾ [أي: من بعد] الفتح ﴿وَقَاتَلُوا﴾ قال عطاء : هي درجات الجنة وهي تتفاضل .

ومعنى ﴿أولئك﴾ أي : الذين أنفقوا قبل الفتح وقاتلوا ، الذين قال فيهم صلى‌الله‌عليه‌وآله وسلم :(لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) [٢] .

قال في البلغة : وأول من فاز بهذه الصفة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ؛ لأن الله تعالى شرط في هذه الآية شرطين الإنفاق والقتال ، وكل من أنفق وقاتل قبل الفتح كان أفضل ممن أنفق وقاتل بعد فتح مكة ، ولا خلاف أنه لم يكن أحد أبذل لنفسه في الجهاد ، وما ملكت يمينه قبل الفتح وبعده من أمير المؤمنين علي عليه‌السلام ، وقد كان من الصحابة رحمة الله عليهم من أنفق قبل الفتح و لم يقاتل ، ومنهم من لم ينفق وقاتل ، وكذلك حالهم بعد الفتح ، وأول من جمع بينهما قبل الفتح أمير المؤمنين علي عليه‌السلام [٣] .اهـ

قال الرازي : وقد جعل علماء التوحيد هذه الآية دالة على فضل من سبق إلى الإسلام وأنفق وجاهد مع الرسول عليه وآله الصلاة والسلام قبل الفتح ، وبينوا الوجه في ذلك ،

---

(١) انظر البرهان مخطوط ٣٦٩.

(٢) من قوله :(ومعنى ﴿أولئك﴾ إلى هنا مثله في الكشاف ، قال ابن حجر في تخريجه لهذا الحديث : متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (الكشاف ٤/٤٧٤) .

(٣) في كلام البلغة رد على الكلبي والرازي في أن الآية نزلت في فضل أبي بكر وتقديمه على علي عليه‌السلام .

وهو عظم موقع نصرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالنفس ، وإنفاق المال في تلك الحـال ، وفي عدد المسلمين قلة ، وفي الكافرين شوكة وكثرة عدد ، فكانت الحاجة إلى النصـرة والمعاونة أشد ، بخلاف ما بعد الفتح فإن الإسلام صار في ذلك الوقت قويا ، والكفـر ضعيفا ، ويدل عليه قوله :﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾ [(١)]

ثم قال سبحانه :﴿وَكُلًّا﴾ من المنفقين قبل الفتح وبعده ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ أي : المثوبة الحسنى وهي الجنة ، مع التفاوت في الدرجات ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيفاضل بين أجوركم على حسب أعمالكم .

ثم اعلم أنه تعالى أكد ترغيب الناس في أن ينفقوا أموالهم في نصرة المسلمين ، وقتـال الكافرين ، ومواساة فقراء المسلمين ، وسمى ذلك الإنفاق قرضا من حيث وعد به الجنة ، تشبيها بالقرض فقال سبحانه :﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ .

قال في البرهان : وروينا أن اليهود أتت رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا : يا محمد أفقـير ربك يسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله تعالى :﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا أن الله فقـير ونحن أغنياء﴾ [(٢)] .

قال الهادي إلى الحق عليه السلام : إن قال قائل : إن الاستقراض لا يكون إلا عن حاجـة من المستقرض إلى ما استقرض ، فما معنى هذا القول ؟ قيل له : إن الاستقراض خـارج على معنيين ، فأحدهما : يكون للإنسان ولا يكون للرحمن ، والآخر يجـوز للإنسـان وللرحمن ، ويجوز بذلك القول في الإنسان ، فأما الوجه الذي يكون للإنسان ولا يجـوز للرحمن فهو استقراض المحتاج إلى ما يحتاج إليه مما يقيمه أو يحييه من قوته المضطر إليـه ، وهذا فلا يجوز القول فيه في الرحمن . وأما الوجه الذي يجوز أن يقال به في الرحمـن وفي الإنسان :فهو ما يكون من طاعة المطيع لمن أطاعه ، وذلك موجود في اللغة والكلام عند

---

(١) التوبة : ١٠٠ . وانظر الرازي ٢٩/٢١٩.

(٢) آل عمران : ١٨١ . انظر البرهان ٣٦٩ .

أهل الفصاحة والعلم والتمام ، وذلك قول العرب لمن اصطنع خيرا أو أسدى إلى صاحبه يدا : إن لك عند فلان لقرضا حسنا يجزيك به ، وكذلك إن كان سوءا قيل له : إن لك عنده لقرضَ سوء قدمته إليه وأقرضته إياه فاحذره . وكذلك وعلى ذلك يخرج معنى القرض لله ، فمن أقرض لله قرضا حسنا ، وقدم إليه عملا حسنا أعطاه على ذلك ثوابا حسنا؛ لأنه يجزي بالحسنة حسنات ، ويعطي من أقرضه بطاعته ثوابا وخلودا في جنته .اهـ

والمعنى : من يقدم إلى الله عملا صالحا يكون بمنزلة القرض الذي يُقْتَضَى ، وهو يسمى في اللغة سلفا ودينا وقرضا ، والعرب تقول : له عند فلان قرض خير ، أو قرض شر ، إذا فعل به خيرا أو شرا ، ومنه قول الشاعر [1]:

ويجزي سلامان بن مفرح قرضها بما قَدّمَت أيدِيْهُمُ وأزَلّتِ

قال في التجريد : هو الإنفاق في سبيل الله ، شبه بالقرض لأنه يرد عوضه [2] ، وأراد بكونه حسنا أن يكون لوجه الله لا يشوبه رياء ، ولا مَنٌّ ، ولا غرض دنيوي ، ويجوز أن يسميه حسنا لَمّا كان جزاؤه الأضعاف الكثيرة ، فحسن لعظم منفعته ، وأن يكون من حلال ، ومن جيد ماله يخرج ، ويخرجه طيبة به نفسه .

﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : يريد فيضاعف له الثواب عليه ، والمضاعفة : هي الزيادة ، قال الشاعر :

حملت على ضعفي وقلة حيلتي من الحب أضعاف الذي حملوا وحدي

يريد : أنه حمل أمثال ذلك الذي حمل أصحابه وأشكاله .اهـ

---

(١) قائله هو الشنفري ، وفي التبيان : ونجزي ـ بالنون ـ سلامان بن مفرح ـ بالحاء ـ . وفي مجمع البيان : ويقضي سلامان بن مفرج ـ بالجيم ـ وذكر أن في ثلاث نسخ : ويجزي . انظر التبيان ٥٢٥/٩، ومجمع البيان ٣٨٩/٩ .
وفي البرهان : والعرب تقول : له عند فلان قرض خير ، أو قرض شر إذا فعل به خيرا أو شرا ، ومنه قول الشاعر : ويجزي سلامات بن مفرح قرضها بما قدمت أيديهم وأزيد ، والمراد في هذه الآية النفقة في الجهاد .

(٢) أي : على سبيل المجاز ، والجامع بينهما رد العوض ، وذكر الزمخشري أن الجامع أنه إذا أعطاه لوجهه فكأنه أقرضه إياه .

والمراد : أنه يعطيه أجره أضعافا من فضله .

﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ مرضي في نفسه ، أي : ذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف[١] .

قال في التجريد : يحتمل أنه يريد بالأجر الكريم الأصل والمضاعف[٢] كأنه قيل : وذلك أجر كريم ، ويحتمل أنه أراد : وله أجر غير المضاعفة ، فتكون المضاعفة تفضلا[٣] والأجر : هو المستحق غير مضاعف .

واختلف في المراد من هذا الإنفاق ، فمنهم من قال : الإنفاقات الواجبة ، ومنهم من قال : بل هو في التطوعات ، والأقرب دخول الكل فيه .

قوله تعالى :﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي : له أجر كريم يوم ترى المؤمنين ، فيكون ﴿يوم ترى﴾ ظرفا لقوله :﴿وله أجر كريم﴾[٤] أو منصوبا بأذكر تعظيما لذلك اليوم ، ووعظا بذكره ﴿يَسْعَى نُورُهُم﴾ بسعيهم ، قيل : وذلك حين يسيرون إلى الجنة ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قدامهم ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ قيل : إنما خص هاتين الجهتين ؛ لأن السعداء يؤتون كتبهم منهما ، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ، ووراء ظهورهم ، فيجعل النور في هاتين الجهتين علامة لهم ؛ لأن الكافر إذا مشى يستدل بسواده وظلمته على كفره ، قيل : إن الأنوار إذا كورت آنس الله أولياءه بنور يسطع بين أيديهم وبأيمانهم ، ويسرع ويسير عند مسيرهم .

---

(١) وإنما وصف الأجر بكونه كريما ؛ لأنه هو الذي جلب ذلك الضعف ، وبسببه حصلت تلك الزيادة ، أو أن كريم هنا بمعنى مكرم صاحبه مثل قتيل بمعنى مقتول ، فعيل بمعنى مفعول .

(٢) وهذا بناء على قول من يقول : إن الثواب جميعه تفضل .

(٣) هذا بناء على قول المعتزلة : إن الثواب مستحق ، والمضاعفة تفضل ، قال أبو علي الجبائي : إن الأعواض تضم إلى الثواب ، فذلك هو المضاعفة .

(٤) فالعامل فيه (له) أي : المستقر في الظرف .

قال في البرهان : وهذا النور ضياء يعطيهم الله تعالى ثوابا لهم وتكرمة يتميز بها المؤمن من الكافر ، والمطيع من العاصي [(١)] .

قال في التجريد : وهو دليلهم إلى الجنة ، قال قتادة : المؤمن يضيء له نوره كما بين عدن إلى صنعاء ، ودون ذلك ، حتى إن من المؤمنين من لا يضيء له نوره إلا موضع قدميه ، وذلك على قدر أعمالهم [(٢)] .

ثم قال سبحانه:﴿بُشْرَاكُمْ﴾ أي : تقول لهم الملائكة الذين يتلقونهم :﴿بشراكم الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ تقدير الآية : وتقول لهم الملائكة : بشراكم اليوم كما قال :﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾ ودلت هذه الآية على أن المؤمنين لا تنالهم أهوال يوم القيامة ؛ لأنه بين تعالى أن هذه صفتهم يوم القيامة من غير تخصيص .

وقوله سبحانه :﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ عائد إلى جميع ما تقدم ، وهو النور والبشرى بالجنان المخلدة ، والفوز : هو الظفر الذي لا أعظم منه ، وقرئ : (ذلك الفوز) بإسقاط كلمة هو .

واعلم أنه تعالى لما شرح حال المؤمنين في موقف القيامة أتبع ذلك بشرح حال المنافقين فقال :﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ما حكى الله عنهم ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ ﴿يوم يقول﴾ بدل من ﴿يوم ترى﴾ [(٣)] أو هو أيضا منصور بأذكر تقديرا [(٤)] .

---

(١) انظر البرهان ٣٦٩ .

(٢) وذكر في الرازي مثله ، وأسنده إلى ابن مسعود وقتادة وغيرهما .

(٣) أي : على أنه ظرف لقوله ﴿وله أجر كريم﴾ .

(٤) من قوله : أي : تقول لهم الملائكة ... إلى هنا مثله في الرازي ٢٢٣/٢٩.

ومعنى ﴿انظرونا﴾ انتظرونا لعلنا نأخذ من نوركم فنهتدي ونستضيء بذلك معكم ؛ لأنه يسرع بهم إلى الجنة ، والمنافقون مشاة . قال الكلبي : يستضيء المنافقون بنور المؤمنين ، ولا يعطون النور ، فإذا سبقهم المؤمنون قالوا : انظرونا .

وقراءة حمزة (أنظرونا) بفتح الهمزة وقطعها ، وكسر الظاء ، ومعناه : أمهلونا .

وفي تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام : الاقتباس في اللغة : أخذ الشيء من النار قال الشاعر :

يرى القابس العجلان ميّاً مليحة وميٌّ إذا ردت لها العين أملح

فالمنافقون طمعوا في شيء من أنوار المؤمنين أن يقتبسوه ، كقبس نيران الدنيا ، وهذا منهم جهل ؛ لأن تلك الأنوار نتائج الأعمال الصالحة في الدنيا فلما لم توجد تلك الأعمال في الدنيا امتنع حصول تلك الأنوار في الآخرة [1] .

وقوله تعالى :﴿قِيلَ ارْجِعُوا﴾ أي : فيقال عند ذلك :﴿ارجعوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ أي : قيل لهم على وجه الطرد والتهكم بهم ، والقائل إما الذين آمنوا ، وإما الملائكة عليهم السلام .

وفي معنى الكلام أقوال ، أحدها : أن معناه الرد والتخييب ، كما قيل في المثل : وراءك أوسع لك .

والثاني : ارجعوا إلى الموقف الذي أعطينا منه هذا النور فمنه اقتبسنا .

والثالث : ارجعوا خائبين وتنحوا عنا فلا سبيل لكم إلى هذا النور ، وقد علموا أن لا نور لهم [2] وإنما هو إقناط لهم .

---

(١) ومثل هذا في الرازي ٢٩/٢٢٥.

(٢) الوجه الثاني والثالث في الكشاف ، ولفظ الكشاف : وقد علموا أن لا نور وراءهم .. إلخ ٤/٤٧٦.

قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : قيل : إن المؤمنين يتعدونهم ، ويقولون عند ذلك لهم: التمسوا نورا غير هذا النور وراءكم ، واطلبوا نورا غير نورنا لكم ، يعنون بذلك فيما روي نور الشمس والقمر والنجوم ، فيرجعون وراءهم .اهـ

وقيل : إن المراد ارجعوا إلى الدنيا حيث كانت الأعمال الصالحة ، فإن الأنوار إنما حصلت من نتائجها [1].

قال في البرهان : أي : ارجعوا فاعملوا عملا يجعله الله تعالى بين أيديكم نورا [2].

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾ أي : لذلك السور باب لأهل الجنة يدخلون منه ، وهو أن بين الجنة والنار سورا وحجابا بينهما ، والباء في قوله :﴿بسور﴾ صلة وهو للتأكيد ، والتقدير : ضرب بينهم سور ، كذا قاله الأخفش .

ثم قال سبحانه :﴿بَاطِنُهُ﴾ أي : باطن السور أو الباب ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ يعني الجنة ﴿وَظَاهِرُهُ﴾ جهنم .

ومعنى قوله :﴿وباطنه فيه الرحمة﴾ أي : النعمة الكاملة ﴿وظاهره﴾ أي : ما ظهر لأهل النار ﴿مِنْ قِبَلِهِ﴾ أي : من عنده ومن جهته ﴿الْعَذَابُ﴾ وهو الظلمة والنار .

قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : يريد أن العذاب وراء ظهر السور ، والسور من قبله، والقبل : هو الجهة التي تلي وتقابل ، فدل على أن النار لا تقابل الجنة ولا تقاربها ، وإنما تكون وراء ظاهر سورها .اهـ

قال الواحدي : والمعنى أن المؤمنين يسبقونهم فيدخلون الجنة ، والمنافقين يحصلون في العذاب والنار ، وبينهم السور .

قال في البرهان : قد ضرب الله ذلك بين أهل النار والجنة ، وذلك إنعام من الله على أهل الجنة ليعلموا أن الذي قد أعطوا كان بحسن فعالهم ، وانتقام من الكفار ؛ لأنهم إذا

---

(١) انظر الكشاف ٤/٤٧٦ .

(٢) انظر البرهان ٣٦٩ .

أبصروا أهل الجنة وما هم فيه من النعمة ، كان ذلك أشد عليهم منهم إذا لم يروا ويبصروا ، ففي اقتراب أهل الجنة من أهل النار من الحكمة ما ذكرنا [١] .

﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي : يقولون ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ في الدنيا نصلي مثل ما تصلون ؟ ونغزو مثل ما تغزون ؟ ونفعل مثل ما تفعلون من الصلاة والصيام وإظهار الإيمان ؟ والاستفهام للتقرير .

ثم حكى أن المؤمنين ﴿قَالُوا بَلَى﴾ أي : كنتم معنا في الظاهر في تلك الطاعات ، إلا أنكم فعلتم أشياء بسببها وقعتم في العذاب ، أولها : قوله تعالى :﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ بالكفر والمعاصي ، وإتباع هوى نفوسكم في شهواتها ، وقيل : أهلكتموها بالنفاق . وثانيها : قوله ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي : انتظرتم بالنذر إليكم من لدينا ، الأنبياء والأئمة عليهم السلام دائرة السوء ، وقيل : بالمؤمنين ، وقال ابن عباس : تربصتم بالتوبة ، وقيل : كنتم تربصون دائرة السوء لتلتحقوا بالكفار ، وتتخلصوا من النفاق .

وثالثها : قوله :﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أي : شككتم في أمر الله عز وجل ، وقيل : في الدين .

ورابعها : قوله :﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ قال ابن عباس : يريد الباطل ، وهو ما كانوا يتمنون من نزول الدوائر بالمؤمنين ، أو طول الآمال والطمع في امتداد الأعمار .

قال في البرهان : يعني في الدنيا حيث أصررتم على الذنوب و لم تتوبوا ، وزعمتم أنه سيغفر لكم مع عدم الإنابة والتوبة ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي : الموت [٢].

والمعنى : ما زالوا في خدع الشيطان وغروره حتى أماتهم الله ثم ألقاهم في النار .

﴿وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي : والنفس المتبوعة في هواها [٣] .

وقال زيد بن علي عليهما السلام : (هو الشيطان) [٤] . بأن قال لكم : إن الله غفور رحيم لا يعذبكم ، وقد يكون الخدع والزور واللذات الملهية والسرور .

---

(١) انظر البرهان ٣٦٩.

(٢) انظر البرهان ٣٦٩.

(٣) ولفظ البرهان في قوله : وغركم بالله الغرور (ورأي النفس المتبوعة في هواها) .

(٤) انظر تفسير غريب القرآن ٣٢٤ ، والكلام بعد قوله : (هو الشيطان) للمؤلف وليس للإمام زيد .

قال الرازي :[قرأ سماك بن حرب] : الغُرور ـــ بضم الغين ـــ والمعنى : وغركم بالله الاغترار ، وتقديره : على حذف المضاف ، أي : غركم بالله سلامتكم منه مع الاغترار ، وأما الغرور ـــ بفتح الغين ، فهو الشيطان ، لإلقائه إليكم أن لا خوف عليكم من محاسبة ومجازاة [1].

ثم قال تعالى :﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ﴾ أيها المنافقون ﴿فِدْيَةٌ﴾ هي ما يفتدى به الشيء، أي : يتخلص ، أي : لا يقبل منكم ما تفدون به أنفسكم من العذاب ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ظاهرا و لم ينافقوا مثلكم [2].

واعلم أن الفدية : ما يفتدى به ، فهو يتناول الإيمان والتوبة والمال ، وهذا يدل على أن قبول التوبة غير واجب عقلا [3] ؛ لأنه تعالى بين أنه لا يقبل الفدية أصلا [والتوبة فدية] فتكون الآية دالة على أن التوبة غير مقبولة أصلا ، وإذا كان كذلك لم تكن التوبة واجبة القبول عقلا كذا ذكره الرازي [4] .

قال [5] وأما قوله :﴿ولا من الذين كفروا﴾ ففيه بحث ، وهو أن عطف الكافر على المنافق يقتضي أن لا يكون المنافق كافرا لوجوب المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه . والجواب : المراد الذين أظهروا الكفر ، وإلا فالمنافق كافر .

ثم قال تعالى :﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي : هي مقركم الذي تأوون إليه ، وتصيرون فيه ، وأصل المأوى : موضع البيتوتة بالليل .

---

(١) انظر تفسير الرازي ٢٩/٢٢٧، وما بين قوسي الزيادة من الرازي .

(٢) قوله : ظاهرا و لم ينافقوا مثلكم . هذا بناء على ما استوجبه العطف من المغايرة بين الكافر والمنافق ، وإلا فإن المنافق كافر ، وهو أيضا ما سيأتي مما ذكره المصنف عن الرازي .

(٣) هذا بناء على ما تقوله المعتزلة .

(٤) انظر الرازي ٢٩/٢٢٧.

(٥) أي : الرازي .

﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ قال زيد بن علي عليهما السلام : معناه : أولى بكم .
وحقيقته : هي مكانكم الذي يقال فيه : هي أولى بكم لما أسلفتم من المعاصي .
﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي : بئس المرجع .
ثم قال تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى ﴿ألم يأن﴾ ألم يحن ؟ قال الشاعر :

ألم يأن لي يا قلب أن أترك الجهلا وأن يحدث الشيب المنير لنا عقلا

و﴿تخشع﴾ تلين قلوبهم لذكر الله ، وتذل من خشيته .اهـ
وعن أبي بكر : أن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة [١] فبكوا بكاء شديدا فنظر إليهم فقال : هكذا كنا حتى قست القلوب .وأما قوله :﴿لذكر الله﴾ ففيه قولان ، الأول : تقديره أما حان للمؤمنين أن ترق قلوبهم لذكر الله ؟ أي : لمواعظ الله التي ذكرها في القرآن ، وعلى هذا (الذكر) مصدر أضيف إلى الفاعل .
والقول الثاني : الذكر مضاف إلى المفعول ، والمعنى : لذكرهم الله ، أي : يجب أن يورثهم الذكر خشوعا ولا يكونوا [٢] كمن نُذَكِّرُه [٣] بالغفلة فلا يخشع قلبه للذكر .
﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ على لسان نبيهم ، والحق : القرآن ، ويصح أنه المراد بالذكر لجمعه الأمرين الذكر والنزول ، وأن يراد بذكر الله ذكر عقابه ، والاستفهام للتقرير .
أي : ألم يقرب لقلوبهم أن تلين لأجل ذكر الله [٤] .

---

(١) في المصابيح النسخة (أ) : من أهل المدينة ، وفي النسخة (ب) وفي الكشاف وتفسير الرازي : من أهل اليمامة ، فأثبتنا ما في ب .

(٢) في الأصل (يكونون) والصواب ما أثبتناه بحذف النون ، وهو إما عطف على المنصوب ، أو جزم على أن لا ناهية

(٣) وفي ب (كمن يذكره بالغفلة) .

(٤)موضع هذه الجملة في الأصل لهذا الكتاب جاء متأخرا بعد قوله :(فنزلت عتابا لهم) وحقها أن تكون هنا .

قال السيد العلوي رحمه الله : فإن قيل : كل واحد من ذكر الله ، وتلاوة القرآن سبب لخشوع القلب ، كأنه قيل : ألم يقرب للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لهذين الموجبين .

و﴿يأن﴾ من أنى الأمر يأنى إذا حان وقته ، ومثله : آن يئين ، معناهما : قرب ، والمعنى : ألم يقرب .

[سبب النزول]

واختلف فقيل : نزلت في المؤمنين المخلصين كانوا بمكة فقراء مقبلين على ذكر الله ، فلما هاجروا وأصابوا الرزق والنعمة فتروا عما كانوا عليه من العبادة فنزلت عتابا لهم.

وقيل : هم طائفة من المؤمنين لا كلهم فإن الله وصفهم بالرقة والخشوع .

وعن ابن مسعود : ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين[1] .

وعن ابن عباس : عاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن .

وقال في البرهان : هذه الآية نزلت في المنافقين الذين آمنوا بأفواههم و لم تؤمن قلوبهم .اهـ

وما في قوله :﴿وما نزل من الحق﴾ في موضع جر بالعطف على الذكر ، وهو موصول والعائد محذوف على تقدير : وما نزله من الحق .

وإنما قدم الخشوع بالذكر على الخشوع بما أنزل من القرآن ؛ لأن الخشوع والخوف والخشية لا تحصل إلا عند ذكر الله ، فأما حصولها عند سماع القرآن فذلك لأجل اشتمال القرآن على ذكر الله .

ثم قال تعالى :﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي : اليهود والنصارى ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ أي : الزمان بينهم وبين الأنبياء .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام : معناه : أنه طال عليهم الوقت والحد ، فلما طال عليهم التكليف وبعد أمدهم الذي هو موتهم وأجلهم وحَدُّهم لم يشكروا على ذلك سيدَهم ﴿فَقَسَتْ﴾ حينئذ ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ و لم تلن لذكر الله ، وقد كان يجب عليهم شكر مولاهم على طول مدتهم ، ويكثروا من العمل الصالح في أوان حياتهم ، وقبل حضور موتهم .اهـ

---

(١) قال في تخريج الكشاف ٤٧٧/٤ : أخرجه مسلم بلفظ :﴿وبين أن عاتبنا الله﴾ ووهم الحاكم فاستدركه .

وذلك أن بني إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم ، فإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم ، فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره .

وقال مقاتل ابن حيان[1] : الأمد هاهنا هو : الأمل البعيد .

والمعنى: طال عليهم الأمد بطول الأمل ، أي : لما طالت آمالهم لا جرم قست قلوبهم

وقيل : طال عليهم أمد خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وقيل : طال عهدهم بسماع التوراة والإنجيل فزال وقعها عن قلوبهم فلا جرم قست قلوبهم ، فكأنه تعالى نهى المؤمنين عن أن يكونوا كذلك[2] .

وقوله :﴿ولا يكونوا﴾ قال الفراء : هو في موضع نصب معناه : ألم يأن أن تخشع قلوبهم وأن لا يكونوا !؟ ولو كان جزما على النهي كان صوابا ، ويدل على هذا قراءة من قرأ بالتاء على سبيل الالتفات .

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم رافضون لما في الكتابين .

ثم قال تعالى :﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي : يحييها بالمطر والنبات بعد موتها بالجدب واليبس ، وهذا مثل ضربه الله تعالى لإحياء الموتى ، ودليل عليه .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله سئل : كيف يحيي الله الأرض بعد موتها ؟ فقال عليه السلام : أما مررتم بواد محلا[3] ثم مررتم به خضرا يهتز ؟ قالوا : نعم . قال : كذلك يحيي الله الموتى .

---

(١) في المصابيح : وقال مقاتل بن حيان ، والرازي نسب هذا القول إلى ابن حبان . وقول المصنف بعده : وقيل : طال عليهم أمد خروج النبي .. نسبه الرازي إلى مقاتل بن سليمان .

وابن حبان : هو محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي البستي الشافعي أبو حاتم محدث حافظ مؤرخ فقيه ، لغوي ، واعظ ولد بسجستان في بضع وسبعين ومائتين ، وسمع خلائق بخراسان والعراق والحجاز والشام ومصر والجزيرة وغيرها ، توفي في شوال سنة ٣٥٤هـ وله مصنفات عديدة . (سير أعلام المؤلفين ٢٠٧/٣)

(٢) نسب الرازي هذا القول إلى القرظي (تفسير الرازي ٢٩/ ٢٣٠).

وقيل : هو تمثيل لإحياء القلوب بذكر الله بعد موتها بالغفلة[١] ومعناه : أن القلوب التي ماتت بسبب القساوة ، فالمواظبة على الذكر سبب لعود حياة الخشوع إليها ، كما يحي الله الأرض بالغيث ، فذكر ذلك ترغيبا في الخضوع والخضوع ، وزجرا عن القساوة . والله أعلم .

ثم قال سبحانه :﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي : فصلناها وأوضحنا ما فيها من المواعظ والعبر ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لإرادة أن تعقلوها فتعملوا بها .

ثم قال سبحانه ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ ﴾ أصله المتصدقين والمتصدقات الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ ﴾[٢] النفقة في سبيله ﴿قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ أجرهم أضعافا كثيرة ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ قد مر شرحه قريبا .

---

(٣) المحل : الشدة ، والمحل : الجوع الشديد وإن لم يكن جدب ، والمحل : نقيض الخصب ، وجمعه محول وأمحال ، قال في لسان العرب : وفي الحديث : أما مررت بواد أهلك محلا . أي : جدبا . والمحل في الأصل انقطاع المطر . لسان العرب بترتيب يوسف خياط ٤٤٦/٣ . وانتصاب (محلا) هنا صفة منصوبة على المحل ، أو على الحالية ، ولكن صاحب الحال لابد أن يكون معرفة ، فيحتمل أنه واد من أوديتهم معروف ، كما في حديث لسان العرب المتقدم ، أو لتوغله في النكرة عومل معاملة المعرفة.

(١) قوله : (هو تمثيل..) يعني أنه شبه تليين القلوب بالذكر والتلاوة بعد قساوتها ونبوها عن استماع الحق ، والعمل بأوامره بإحياء الأرض الميتة بالغيث حيث اشتمال كل واحد منهما على بلوغ الشيء إلى كماله المتوقع بعد خلوه عنه ، أو يكون استعارة تمثيلية لإحياء الأموات بأنه شبه إحياءها بإحياء الأرض الميتة ، وان من قدر على الثاني قادر على الأول فحقه أن تخشع القلوب لذكره .

(٢) قال الزمخشري : فإن قلت : علام عطف قوله :﴿وأقرضوا﴾ ؟ قلت : على معنى الفعل في المصدقين ؛ لأن السلام بمعنى الذين ، واسم الفاعل بمعنى اصدقوا كأنه قيل : إن الذين أصّدّقوا وأقرضوا .

قال السيد العلوي : فائدة العدول إلى الفعل في ﴿وأقرضوا﴾ تصوير معنى التصدق ، ومزيد تقرير التمثيل بالإقراض ، قال صاحب التقريب : وفي عطف أقرضوا على صلة اللام نظر ؛ للزوم الفصل بين أجزاء الصلة بأجنبي ، وهي المصدقات ، فإما أن يحمل على المعنى إذ التقدير : إن الناس المصدقين والمصدقات وأقرضوا ، ولا يجعل عطفا بل اعتراضا فيجوز الفصل به كما بين الموصول والصلة في مثل ذلك الذي وأبيك يعرف مالك ، وقيل : هو من باب كل رجل

واعلم أنه تعالى قبل هذه الآية الكريمة ذكر حال المؤمنين والمنافقين ، وذكر الآن حال المؤمنين وحال الكافرين فقال سبحانه :﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ المؤمنون بتصديق الله ورسله ، وقوله :﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ كلام مستأنف ، وهم الأنبياء ، والأئمة عليهم السلام يشهدون على أممهم بالتصديق والتكذيب ، وقيل : أراد سبحانه بذلك المتصدقين والمتصدقات ، والمنفقين أموالهم في سبيل الله من المؤمنين والمؤمنات ، وأما الصديقون فهم الصادقون ، وأما الشهداء فهم المجاهدون ، وأكثر ما يستعمل هذا الاسم للمقتولين الذين قتلوا في الجهاد من المسلمين ذكره في البرهان [1] .

قال في التجريد : اختلفوا في نظم الآية على قولين : أحدهما أن تمام الكلام عند قوله : ﴿أولئك هم الصديقون﴾ ثم ابتدأ فقال :﴿والشهداء عند ربهم﴾ هذا قول ابن عباس ومسروق ،والفراء وغيرهم .

وضيعته ، أي : إن المصدقين والمصدقات في الثواب والمنزلة ، أو يقدر خبر ، أي : إن المصدقين والمصدقات يفلحون ، فيقع بعد تمام الجملة ، وأقرضوا في الوجهين ليس عطفا على الصلة بل هو مستأنف ، ويضاعف في الوجهين صفة قرضا أو استئناف ، وكأن استقامة المعنى والإعراب على حذف الموصول بتقدير : والذين أقرضوا إن جوز ، كما هو مذهب الكوفيين . الطيبي [أي : قال الطيبي] : الوجه القوي هو الاعتراض بأن المصدقات لو لم يذكرن لأي :درجن بحكم التغليب تحت المصدقين ، كما أن قوله :﴿وأقرضوا الله﴾ عام في الرجال والنساء ، فذكر المصدقات لمزيد التقدير ، كما في قوله تعالى :﴿إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ وقلت : إن قوله :﴿وأقرضوا﴾ في الحقيقة عطف على صلة المصدقين والمصدقات معا فهما بمنزلة شئ واحد ، قصد العطف عليه فلا يلزم ما ذكر من الفصل بأجنبي من الصلة ، وهذا كما جاز الفصل بين الموصول والصلة بمعمول الصلة نحو الذي أباه ضربت زيد ؛ لأن الفصل ليس بأجنبي منهما ، ولا يجوز مثل ذلك إن كان الموصول حرفا ، فلا يقال : أعجبني أن زيدا ضربت منطلق ؛ لأن الحروف الموصولة حروف مصدرية هي والجملة التي بعدها بتأويل المصدر ، فيطلب قربها من متضمن المصدر ، وكذا في الألف واللام الموصولة ؛ إذ لا يدخل إلا على فعل في صورة اسم الفاعل أو المفعول . حاشية العلوي ٣٠٥، ٣٠٦.

(١) لفظ البرهان كلام مستأنف ، وهم الأنبياء ، والأئمة عليهم السلام يشهدون على أممهم بالتصديق والتكذيب .

والثاني : أن الشهداء متصل ، والواو واو النسق [1] ثم في تصحيح المعنى على هذا القول قولان **أحدهما** : أن كل مؤمن صديق شهيد قاله ابن مسعود ومجاهد ، ومعنى التصديق على هذا كثير الصدق والتصديق لأنبيائه ، والشهداء عند ربهم : هم الذين يشهدون لأنبيائهم يوم القيامة وهم المؤمنون ، أو الذين يشهدون أن لا إله إلا الله .

وثانيهما : أن المراد : ان الذين آمنوا بالله ورسوله مثل الصديقين ، ومثل الشهداء في الأجر يزيد الله لهم تفضلا حتى يلحقوا بأجر الصديقين والشهداء الأصلي دون التفضل ، فإن الله يتفضل على الصديقين والشهداء فيكون أجرهم أكثر مع التفضل ، والصديقون على هذا هم أول من صدق الأنبياء ، وقد جاء في الحديث (الصديقون ثلاثة مؤمن آل فرعون ، ومؤمن آل يس ، وعلي بن أبي طالب) [2].

---

(١) يعني أنه يجوز أن يكون والشهداء عطفا على ما قبله ، فالوقف عنده تام ، أخبر عن الذين آمنوا أنهم صديقون شهداء ، وعلى الوجه الأول فالواو استئنافية والشهداء مبتدأ ، ولك في خبره وجهان أحدهما : أنه الظرف بعده ، والثاني : أنه قوله :﴿لهم أجرهم﴾ ولهم خبر مقدم ، وأجرهم مبتدأ مؤخر .

(٢) أخرجه ابن عساكر في ترجمة أمير المؤمنين عليه‌السلام من تاريخ الجزء الأول بتحقيق محمد باقر المحمودي ص ٩١ بسنده إلى ابن أبي ليلى ، وبلفظ (الصديقون ثلاثة : حبيب النجار مؤمن آل ياسين الذي قال :﴿يا قوم اتبعوا المرسلين..﴾ وحزقيل مؤمن آل فرعون ، الذي قال :﴿أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله﴾ وعلي بن أبي طالب ، وهو أفضلهم﴾ قال المحقق ما ملخصه : رواه أبو نعيم في كتاب معرفة الصحابة ، ورقة ٢٢ ، نسخة قديمة في تركيا ، ورواه عنه السيوطي في الجامع الصغير ٨٣/٢ ، ورواه أيضا عنه في الفتح الكبير ص ٢٠٢، والسيف اليماني المسلول ص ٤٩، ورواه عنهم ، وعن مصادر كثيرة أخر ، في إحقاق الحق ٥٩٩/٥، ٦٠١ ، ورواه أيضا تحت الرقم ٨٠٩ج ٢ ص ٢٨٢ ط١ بمغايرة جزئية ، وروي بعده أيضا ما في معناه .

ورواه أيضا في الباب ٤٢ من كفاية الطالب ص ١٢٤ ، وقال : أخرجه محدث الشام في تاريخه عن أبي نعيم ، وألحقه محققه في الحاشية في آخر الجزء التاسع والأربعين بعد الثلاثمائة .

ورواه .. عن كنز العمال ١٥٢/٦ نقلا عن الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس ، وعن فيض القدير ١٣٥/٤ ، والصواعق ص ٧٢ ، وذخائر العقبى ص ٥٨ ، والرياض النضرة ١٥٨/٢ ، وتاريخ بغداد ٥٥/١٤ ، قال السيد المحمودي : وأقول : ورواه في الحديث ٩٣٩ من كتاب شواهد التنزيل ٢٢٥/٢ بخمسة أسانيد ، ورواه بأسانيد كثيرة

وأما الشهداء : فهم الذين قتلوا في سبيل الله ، وقيل : الأنبياء ، وهذا كقوله :﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ .

وعلى القول الثاني قوله :﴿والشهداء عند ربهم لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ عطف على الآية الأولى ، والتقدير إن الذين آمنوا بالله ورسوله هم الصديقون ، وهم الشهداء ، أي : لهم مثل أجر الصديقين والشهداء [1] ومثل نورهم ، والمراد بنورهم هو المذكور في قوله : ﴿يسعى نورهم بين أيديهم﴾ .

فإن قلت : كيف سوى بينهم في الآخرة ولا بد من التفاوت ؟ **قلت** : المعنى أن الله يعطي المؤمنين أجرهم ويضاعفه بفضله حتى يساوي أجرهم مع إضعافه أجر أولئك ، أي: أجرهم المستحق من دون أضعافه ، وفي الآية كلام أكثر من هذا .

وأما على القول الأول المذكور عن ابن عباس ومسروق والفراء فهو يحتاج إلى تأويل [2]. اهـ

في الباب ١٦٥ من غاية المرام ص ٤١٧، وكذلك في الحديث ٨ من الفصل الرابع من مناقب الخوارزمي ص ٢٠ ، ورواه الثعلبي مرسلا في الباب ٤ من كتاب قصص موسى عليه‌السلام من كتاب قصص الأنبياء ص ١٥٣ ، ورواه أحمد في الفضائل الحديث ١٨٤ من باب مبغض علي في الحديث ٢٣٩ منه عن ابن أبي ليلى ، ورواه عنه في الحديث الثالث من الباب ١٠١ من غاية المرام ص ٦٤٧ ، وفيه ستة عشر حديثا بهذا المعنى من طريق القوم ، ورواه أيضا الخوارزمي في الفصل ١٩ من مناقبه ص ٢١٩ ، والسلفي في مشيخة البغدادية ، وابن المغازلي في الحديث ٢٩٣ من مناقبه ص ٢٤٥ ط ١ . اهـ ملخصا ، انظر ترجمة أمير المؤمنين من تاريخ ابن عساكر تحقيق المحمودي ../٩١، ٩٢ .

(١) قال السيد العلوي : قوله :(لهم مثل أجر الصديقين) مؤذن بأنه لا يجوز حمل الصديقين على المؤمنين فيجب الحمل على التشبيه ، نحو زيد أسد ، وذلك أن اسم الإشارة دال أن ما بعده جدير بمن سبق ذكره لاكتسابه الخصال التي استحق بها ذلك ، ولا ارتياب أن المؤمن لا ينال درجة الصديقين الذين درجتهم دون درجة الأنبياء ، وكذا من مات حتف أنفه لا ينال درجة من استشهد في سبيل الله في صف جهاد الكفار إلا بالتشبيه ، وأن يقال : هم مثلهم وأجرهم مثل أجرهم ، لاسيما وقد وسط بين المبتدأ والخبر ضمير الفصل المفيد للحصر ، ويجوز قطع الشهداء عن هذا الحكم ، وإليه أشار بقوله ، ويجوز أن يكون الشهداء مبتدأ . قيل : وأما سؤاله كيف سوى بينهم في الأجر ولا بد من التفاوت ؟ فليس بذلك لأنا إذا قلنا : إن الكلام مبني على التشبيه والإلحاق للمبالغة ترغيبا علم عدم المساواة ، وقلت : بل السؤال وارد مع التشبيه ؛ لأنهم إنما شبهوا بهم لمساواتهم لهم ، أو قربهم منهم . حاشية العلوي ٣٠٦.

(٢) تجريد الكشاف مخطوط

قلت : وهو الذي في البرهان فلا يحتاج إلى تأويل ، [ومثل هذا في البرهان][1] .

واعلم أنه تعالى لما ذكر حال المؤمنين أتبعه بذكر حال الكافرين فقال :﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبوا بآياتنا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ولما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين ذكر بعده ما يدل على حقارة الدنيا وكمال الآخرة فقال :﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ لأن كلما عدا الأعمال الصالحة فهو لهو ولعب ، والمقصود الأصلي من الآية تحقير حال الدنيا ، وتعظيم حال الآخرة فقال : الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر ، ولا شك أن هذه الأشياء أمور محقرة ، وأما الآخرة فهي عذاب شديد دائم [أ]و رضوان الله على سبيل الدوام ، ولا شك أن ذلك عظيم .

واعلم أن الحياة الدنيا حكمة وصواب ، ولذلك لما قال سبحانه :﴿إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها﴾ [2]الآية قال :﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ ولولا أنها حكمة وصواب لما قال ذلك ، ولأن الحياة خلقه كما قال :﴿الذي خلق الموت والحياة﴾ [3]وأنه لا يفعل العبث على ما قال تعالى :﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا﴾[4]وقال :﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا﴾[5] ولأن الحياة نعمة بل [هي] أصل لجميع النعم ، وحقائق الأشياء لا تختلف بأن كانت في الدنيا أو في الآخرة ، ولأنه تعالى عَظَّمَ المنة بخلق الحياة فقال سبحانه :﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم﴾[6] فأول ما ذكر من

---

(١) ما بين أقواس الزيادة غير موجود في النسخة (ب) ولفظ البرهان :﴿والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون﴾ أي : المؤمنون بتصديق الله ورسله ﴿والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾ والشهداء عند ربهم : كلام مستأنف وهم الأنبياء والأئمة عليهم السلام يشهدون على أممهم بالتصديق والتكذيب . البرهان ٣٧٠.

(٢) البقرة : ٣٠

(٣) الملك : ٢

(٤) المؤمنون : ١١٥

(٥) ص : ٢٧

(٦) البقرة : ٢٨

أصناف نعمه هو الحياة ، فدل مجموع ما ذكرنا [على] أن الحياة الدنيا غير مذمومة بل المراد أن من صرف هذه الحياة لا إلى طاعة الله بل إلى طاعة الشيطان ومتابعة الهوى فذاك هو المذموم .

ثم إنه تعالى وصفها بأمور أولها : أنها لعب ، وهو فعل الصبيان الذين يتعبون أنفسهم ، ثم إن تلك المتاعب تنقضي من غير فائدة ، وثانيها : أنها لهو وهو فعل الشبان ، والغالب أن بعد انقضائه لا تبقى إلا الحسرة ، وذلك لأن العاقل بعد انقضائه يرى المال ذاهبا ، والعمر ذاهبا ، واللذة منقضية ، والنفس ازدادت شوقا وتعطشا إليها مع فقدانها ، فتكون المضار مجتمعة متوالية ، وثالثها : أنها زينة ، وهذه من دأب النساء ، وكأن المطلوب [من الزينة] تحسين القبيح . ورابعها : قوله ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ بالصفات الفانية الزائلة ، وهو إما التفاخر بالنسب ، أو التفاخر بالقوة والقدرة والعساكر ، وكلها ذاهبة .

وخامسها قوله :﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ قال ابن عباس : يجمع المال في سخط الله ، ويتباهي به على أولياء الله ، ويصرفه في مساخط الله ، فهي ظلمات بعضها فوق بعض .

وأعْلَمَ أنه لا وجه يبتغيه أهل الدنيا يخرج عن هذه الأقسام ، وبيَّنَ أن حال الدنيا إذا لم يخل من هذه الوجوه فيجب أن يعدل عنها إلى ما يؤدي إلى عمارة الآخرة [(١)].

ثم ضرب الله لهم مثل الحياة الدنيا فقال عز وجل :﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ﴾ قال زيد بن علي عليه‌السلام : معنى ﴿يهيج﴾ ييبس [(٢)].

﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ تنقلب خضرته صفرة عند يبسه ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ فتاتا أسود لشدة يبسه ، كذلك الإنسان يهرم ثم يموت [ثم يبلى] [(٣)].

---

(١) من قوله :(واعلم أن الحياة الدنيا حكمة وصواب ... إلى هنا مثله في تفسير الرازي ٤٦٤/١٠، وما بين الأقواس منه ولفظه في بعضها : وهذا دأب النساء ؛ لأن المطلوب من الزينة تحسين القبيح ، وقد استصوبنا الموجود وهي (وكأن) .

(٢) إلى هنا انتهى كلام الإمام زيد بن علي عليهما‌السلام ، وما بعده ليس موجودا في تفسيره .

(٣) ما بين أقواس الزيادة موجود في ب ، وساقط من أ .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : فأراد سبحانه أن مثل الحياة الدنيا كذلك تحسن في أعين أهلها ، ويعظم سرور الكفرة لذلك بجهلها ، ويفرطون في الإعجاب بخضرتها وبهجتها ، ثم تهيج وتيبس ، ثم تتحطم وتتكسر ، قيل : هذه حياة الكافر في دنياه ، فأما المؤمن فحياته على العكس من ذلك ، وهذا مروي عن ابن عباس ؛ لأن حياة الكافر تنقضي في اللهو واللعب ، ويشتغل في جميع حياته بالزينة الدنيوية والمفاخرة والمكاثرة بالأموال التي يجمعها من غير حلها ، ومن حلها كما حكي عن قارون ﴿فخرج على قومه في زينته﴾[1] .

وقيل: المراد الدنيا ليست إلا محقرات من الأمور ، وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام ، وهي العذاب الشديد لمن عصى الله ، والمغفرة والرضوان لمن أطاعه .

ثم شبه حالها في سرعة تقضيها مع عدم نفعها بنبات أنبته الغيث وهو المطر ، أعجب الكفار نباته ، فبعث الله عليه عاهة أهلكته فهاج أي : يبس واصفر بعد خضرته وريه ﴿ثم يكون حطاما﴾ فتاتا متكسرا بعد يبسه .

وقيل : إن الكفار هاهنا هم الزراع الذين يكفرون الحب ويسترونه ، ويذرونه في الحرث وينقلونه ، والكفر في اللغة هو الستر ، والعرب تقول : كفرنا على المغافر بعمائمنا ، تريد أنهم ستروا المغافر بعمائمهم . والهياج في هذا الموضع : اليبس قال الكميت :

وإن هاج نبت العلم في الناس لم تزل بهم روضة خضراء منه ومذنب

والكاف في قوله :﴿كمثل غيث﴾ موضع رفع من وجهين أحدهما : أن يكون صفة لقوله :﴿لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر﴾ والآخر : أن يكون خبرا بعد خبر قاله الزجاج[2] .

---

(١) القصص ٧٩ .

(٢) الوجه الأول الجار والمجرور في محل رفع صفة لخبر أن المتقدم . وعلى الوجه الثاني يحتمل أن تكون الكاف خبر لمبتدأ محذوف ، أو الجار والمجرور خبر لمبتدأ محذوف ، ويحتمل وجها آخر ، وهو أن تكون منصوبة على الحالية من معنى ما تقدم ، أي : ثبتت لها هذه الصفات حال كونها مشبهة بغيث .

ثم إنه تعالى ذكر بعده حال الآخرة فقال :﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ أراد : أن العذاب الشديد في الآخرة لأعدائه ، والمغفرة والرضوان لأوليائه ، فشبه[1] حال الدنيا بلعب ولهو اجتمع عليه صبيان ساعة ثم تفرقوا عنه ، ثم شبه ثانيا سرعة تقضيها بنبات أنبته الغيث كما تقدم ، وذلك أنه لما وصف الدنيا بالحقارة وسرعة الانقضاء بين أن الآخرة إما عذاب شديد دائم ، وإما رضوان وهو أعظم درجات الثواب، ثم قال :﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ أي : إلا انتفاع مغتر ، وهو انتفاع يسير كعجالة الراكب ، وهي ما يتعجل من تميرات أو سويق ، أي : ما هي في جنب الآخرة إلا كذلك لمن أقبل عليها ، وأعرض عن طلب الآخرة .

قال سعيد بن جبير :(الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة ، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة .

ثم قال تعالى :﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي : بادروا وأسرعوا وحثوا وعجلوا ولا توانوا ولا تقفوا ، المراد كأنه تعالى قال : لتكن مفاخرتكم ومكاثرتكم في غير ما أنتم عليه ، بل احرصوا أن تكون مسابقتكم في طلب الآخرة .

واعلم أنه تعالى لما أمر بالمسارعة في قوله :﴿سارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾ شرح هاهنا كيفية المسارعة فقال :﴿سارعوا﴾ مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار ، ولا شك أن المراد منه المسارعة إلى ما يوجب المغفرة ، فقال قوم : المراد سابقوا إلى التوبة ، وقال آخرون : المراد سابقوا إلى سائر ما كلفتم به فدخل فيه التوبة ، وهذا أصح لأن المغفرة والجنة لا ينالان إلا بالانتهاء عن جميع المعاصي ، والاشتغال بكل الطاعات ، وقد نبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الأفضل من المسابقة إلى المغفرة بما رواه عاصم بن ضمرة عن علي عليه السلام قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (إذا تقرب الناس إلى

---

(١) المراد به هنا تشبيه التمثيل ، أي : الاستعارة التمثيلية ، فهو تمثيل للحياة الدنيا في سرعة انقضائها وقلة جدواها بحال نبات أنبته الغيث فاستوى ، وأعجب به الحراث ، فبعث عليه العاهة فهاج واصفر وصار حطاماً .

خالقهم بأنواع البر ، فتقرب إليه بأنواع العقل[1] ، تسبقهم بالدرجات والزلف عند الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة) .

وقد فسر معنى هذا علي عليه‌السلام بما رواه عنه عاصم بن ضمرة أيضا قال : قال علي بن أبي طالب (والله لقد سبق إلى جنات عدن أقوام فما كانوا بأكثر الناس صلاة ولا صياما ولا حجا ولا اعتمارا ولكنهم عقلوا عن الله مواعظه فوجلت منهم القلوب وخشعت منهم الجوارح واطمأنت منهم النفوس ففاتوا الخليقة برفيع الدرجات وعظيم المنزلة عند الله في الآخرة) . اهـ

ودلت هذه الآية على أن الأمر يفيد الفور ، ودلت على وجوب المسارعة فوجب أن يكون التراخي محظورا .

وأما قوله تعالى :﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ وقال في آل عمران : ﴿وجنة عرضها السموات والأرض﴾[2] ففيه أقوال :

قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : يريد سبحانه : أن الجنة في السعة والإنبساط كعرض السموات والأرض في هذه الحياة الدنيا ، والعرض هاهنا : هو السعة قال الشاعر :

كأن بلاد الله وهي عريضة على الخائف المطلوب كفة حائل

وذلك أن الأرض تمد يوم القيامة حتى تكون كعرض سموات الدنيا وأرضها . اهـ

وقيل : أي : كعرض سبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضهم ببعض ، وذكر العرض دون الطول ليدل على أنه أبسط ، لأن ماله عرض وطول فعرضه أقل .

وقال الزجاج : إن هذا تمثيل للعباد بما يعقلونه ويقع في نفوسهم وأفكارهم ، وأكثر ما يقع في نفوسهم مقدار السموات والأرض[3] .

---

(١) سيأتي تفسير التقرب بالعقل في الرواية الثانية الآتية قريبا عن عاصم بن ضمرة أيضا .

(٢) آل عمران : ١٣٣ .

(٣) يعني أنه كناية عن اتساع الجنة ، فكما أننا نحس اتساع الأرض والسماء ، فكذلك الجنة ، فشبهت الجنة في اتساعها بالشيء المشاهد المحسوس في سعته ، وهو السماء والأرض ، وقد سألني بعض إخواننا الأساتذة المصريين في جامع بـرط

قلت : ومما يؤيد القول الأول قول المرتضى عليه‌السلام وقد سأله سائل عن معنى هذه الآية: أمَثَلٌ هو أم حق ؟ قال عليه‌السلام : بل هو حق كما أنكم تنطقون .

فأخبر سبحانه وجل عن كل شأن شأنه أن الجنة عرضها كعرض السماء والأرض .

قال عليه‌السلام : فإن قال قائل : فإذا كانت كذلك فهي أوسع من هذه الدنيا ؟ قيل له : ألا تسمع كيف يقول سبحانه :﴿وإذا الأرض مدت﴾ ومعناه أي : بسطت وزيد فيها مثلها ؛ لأن السماء والأرض في الطول والعرض سواء وذلك قول الله سبحانه في كتابه :

﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا﴾[1] فلما أن كانت على قدر الأرض صارت سقفا لها ، ولو كانت السماء أمَدَّ من الأرض لكانت على غير الأرض سقفا ، وليس شيء بعد الأرض توقع عليه ، ولا يقال به ، فسماء الآخرة كما ذكر الله سبحانه كعرض السماء والأرض ، والأرض فتمد حتى تكون كمثلها كما ذكر الله سبحانه من فعله فيها ، وما تصير إليه من حالها[2]. اهـ

ومعنى قوله :﴿ أُعِدَّتْ ﴾ أي : هُيِّأت ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ ﴾ أي : الموعود من المغفرة والجنة ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وهم المؤمنون .

عند رحلتنا إلى هناك عن معنى هذه الآية ، وقال : إذا كانت مثل السموات والأرض فأين هي السموات والأرض ؟ فأجبته بما ذكرنا .

(١) الأنبياء : ٣٢ .

(٢) يريد الإمام المرتضى عليه‌السلام أن هذه الآية تدل على اتساع الجنة أولا ، وثانيا : تدل على أن السماء سيزداد اتساعها في الآخرة ، لأن الله قد أخبر عن الجنة بأنها كعرض سماء الدنيا وأرضها ، فلا بد أن تتسع السماء في الآخرة لتكون شاملة للجنة ، وكذلك الأرض ستمد أيضا ، ولكن من المعلوم أيضا أن النار أيضا لابد من مكان لها ، وأن السماء ستكون شاملة لها ، فالظاهر أن المراد به ما ذكرناه من أنه كناية عن اتساع الجنة بما يعقله المخاطبون ويشاهدونه وأما الاستدلال بقوله تعالى :﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا) بأن السماء على قدر الأرض ، ولهذا صارت سقفا لها ، وأن السقف لابد أن يكون على مقدار ما هو مسقف له فقط ، ففيه نظر ، وليس ثم ما يمنع أن تكون السماء سقفا للأرض ولغيرها كما هو معلوم مشاهد . والله أعلم .

ثم قال تعالى :﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ وفضل الله الجنة التي وصفها في هذه الآية ، والمراد منه التنبيه على عظم جلال الجنة ، وذلك لأن ذا الفضل العظيم إذا أعطى عطاء مدح به نفسه ، وأثنى بسببه على نفسه ــ فإنه لا بد وأن يكون ذلك العطاء عظيما .

ثم أخبر سبحانه عن علمه بالغيوب مما هو كائن فقال تعالى :﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ فمصيبة الأرض : القحط والجدب والغلاء ، وما في الأنفس : الأمراض والأوصاب والقتل والموت ﴿إلا في كتاب﴾ أي : في علم محفوظ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ من قبل أن نخلق الأنفس والأرض .

ويحتمل وجها آخر : يعني من قبل أن نخلق المصائب ذكره في البرهان [1].

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم عليهما السلام : سألت أبي رحمة الله عليه عن تفسير هذه الآية ؟ فقال عليه السلام : فالمصيبة في الأرض : فهو ما تكون في الأرض عامة ، والمصيبة في الأنفس فهو : ما يكون في الأنفس خاصة ، والكتاب فهو علم الله بذلك كله وما أحاط بالأرض والأرض يقينا من علمه ، فكل ذلك كما قال الله لا شريك له : لايؤوده منه علم ما علم ، وقوله :﴿من قبل أن نبرأها﴾ فهو : من قبل أن نخلق الأنفس وإنشائها. اهـ

ثم أخبر سبحانه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي : هين سهل لا يمتنع عليه ، ولا يعجز منه ، بل هو عالم به وبغيره لأي :غيب عنه وإن كان على العباد عسير .

ثم علل ذلك وبين وجه الحكمة فيه فقال :﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا ﴾ أي : تحزنوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ من الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ من خيرها ؛ لأن من علم أنما عنده مفقود لا محالة لم يشتد حزنه عند فقده ؛ لأنه وطن نفسه على ذلك ، وكذا من علم أن بعض الخير واصل إليه لا يفوته بحال لم يعظم فرحه عند نيله ، ولا ينبغي الفرح إلا عند توفيق الله لطاعته وعصمته من معصيته ، والمراد النهي عن الحزن المخرج صاحبه عن الصبر

(١) من قوله : فمصيبة الأرض : القحط .. إلى قوله : من قبل أن نخلق المصائب . موجود في البرهان بلفظه (٣٧٠)

والتسليم لأمر الله ، والنهي عن الفرح المطغي الملهي عن الشكر ، فأما ما لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله تعالى ، والاعتداد بها فلا بأس بذلك وقلَّ من يملك نفسه عن ذلك .

وفي معنى هذه الآية يقول أمير المؤمنين وإمام المتقين ، وسيد الوصيين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه :(الزهد كله بين كلمتين من القرآن قال الله سبحانه :﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه).

قال الحسين بن القاسم عليه السلام :(يريد عز وجل أنه نزل هذه المصائب التي ذكرها ؛ لئلا يفرط العباد في السرور والفرح بنعيم الدنيا ، وليزهدوا في ذلك عند ذكرهم المصائب والفناء ، ولئلا يأسوا ولا يحزنوا على ما فاتهم من حطام هذه الدنيا ، ولم يرد الله النهي عن فرح المسلمين برزقه ، وإنما ذكر الله زهدهم بالمصائب لعلمه أنهم يحتاجون إلى الزهد عند الموت وذكره).

قال زيد بن علي عليه السلام في تفسيره لهذه الآية :(ليس من أحد إلا ويحزن ويفرح ، ولكن من أصابه خير فليجعله شكرا ، ومن أصابته مصيبة فليجعلها صبرا)[1] .

وفي البرهان ﴿على ما فاتكم﴾ يعني : من العافية والدنيا التي لم تقدر لكم لاقتضاء مصلحتكم ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ من العوافي والنعم التي لا توجب الفرح بها لفنائها وقلة بقائها[2] .

﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ ﴾ أي : يبغض ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ ﴾ معجب متكبر﴿فَخُورٍ﴾ على الناس ؛ لأن من فرح بحظ من الدنيا ، وعظم في نفسه افتخر على الناس .

---

(١) تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام ٣٢٥.

(٢) انظر البرهان ٣٧٠ ، وقال بعد قوله : وقلة بقائها : وليس أحد إلا يفرح ويحزن ، ولكن الثواب لمن جعل المصيبة صبرا ، والخير شكرا .

وقوله :﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ بدل من ﴿كل مختال فخور﴾ كأنه قال : لا يحب المختال ، ولا يحب الذين يبخلون ، يريد : الذين يفرحون الفرح المطغي إذا رزقوا مالا وحظا من الدنيا فلحبه وعزته عندهم يبخلون به ، ولا يكفيهم أنهم يبخلون به بل يأمرون الناس بالبخل به ، وكل ذلك نتيجة فرحهم به وبطرهم عند إصابته

قال في البرهان : وهذه الآية نزلت في اليهود بخلوا بما في التوراة بما في صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وأمروا الناس بكتمانه ، وهي عامة في كل من كان عنده حق لله عز وجل فبخل به[1] . اهـ

قيل : وعلى هذا القول ﴿الذين يبخلون﴾ كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله ، وهو مبتدأ وخبره محذوف دل عليه قوله :﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أي : يعرض عن أوامر الله ونواهيه ، ولم ينته عن الأسى على الفائت ، والفرح بالآتي ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ عنه وعن أمثاله ﴿الْحَمِيدُ﴾ أي : المستوجب للحمد ، وإن لم يحمد .

قرأ نافع وابن عامر (فإن الله الغني الحميد) وحذفوا لفظة هو ، وكذلك هو في مصاحف أهل المدينة والشام ، وقرأ الباقون (هو الغني الحميد) معناه : أن الله غني فلا يعود عليه ضرر ببخل ذلك البخيل .

ثم أخبر سبحانه عن إرسال رسله إلى خلقه فقال :﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا ﴾ أي : الملائكة إلى الأنبياء ﴿بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الحجج المعجزات ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ الوحي ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ يريد : الكتاب والعدل ، فالميزان : هو العدل ليقوموا به ، ذكره زيد بن علي عليه السلام في تفسيره[2] .

---

(١) البرهان ٣٧٠.

(٢) انظر تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام ٣٢٥.

قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : ولكنه ضرب الميزان مثلا لما أن كان الميزان مستقيما معتدلا ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ يريد ليعملوا بالعدل والإحسان ، وليقوموا بما افترض عليهم من الأديان ، ويهربوا إليه بطاعته من النيران . اهـ

وقيل : الميزان الذي يوزن به ، وقيل : المراد إنزال الوحي الذي هو أمر باستعماله ، والقسط والإقساط : هو الإنصاف ، والعادل : مقسط ، قال تعالى :﴿إن الله يحب المقسطين﴾[1] والقاسط : الجائر قال تعالى :﴿وأما القاسطون﴾[2] .

ثم قال تعالى :﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ يريد : خلقناه وأظهرناه ، ولا فرق بين أنزلنا وفعلنا ذكره الحسين بن القاسم عليه‌السلام ، ومثله عن الحسن[3] ، وقيل : نزل به آدم من الجنة ، قيل : نزل ومعه خمسة أشياء من حديد ـ السندان[4] أي: السفلة ، والكلبتان، والميقعة، والمطرقة ، والإبرة .

وعنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم (إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض الحديد ، والنار ، والماء ، والملح) .

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ قال في البرهان : يعني أن بسلاحه وآلته تكون الحرب التي هي بأس شديد[5] . اهـ

والبأس : العذاب ، جعل القتال به كالعذاب الشديد للمقاتل به ؛ لأن أكثر ما يقع القتل بالحديد .

---

(١) الحجرات : ٩٠

(٢) الجن : ١٥

(٣) الحسن : المراد به الحسن البصري ، وكلما أطلق فالمراد به هو .

(٤) في (أ) السنبان ، وفي (ب) السندان .

(٥) لفظ البرهان : قوله عز وجل :﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ يعني : أظهرناه وأنزلناه ، والثاني : أن يكون محمولا على أن الماء منزل من السماء فينعقد في الأرض جوهر فيصير بالسبك حديدا ﴿فيه بأس شديد﴾ يعني : أن بسلاحه وآلته تكون الحرب التي هي بأس شديد . انظر البرهان خ ٣٧٠.

﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ في مصالحهم ومعاشهم ، وما يدفع عنهم دروع الحديد من الأذى ، فما من صناعة إلا والحديد آلة فيها كآلة الحائك .

قال الرازي : وأكثر مصالح العالم لا تتم إلا بالحديد ، ويظهر أن الذهب لا يقوم مقام الحديد في شئ من هذه المصالح ، فلو لم يوجد الذهب في الدنيا ما كان يختل شئ من مصالح الدنيا ، ولو لم يوجد الحديد لاختل جميع مصالح الدنيا ، ثم إن الحديد لما كانت الحاجة إليه شديدة جعله سهل الوجدان كثير الوجود ، والذهب لما قلت الحاجة إليه جعله عزيز الوجود ، وعند هذا يظهر أثر جود الله ورحمته على عبيده ، فإنما كانت حاجتهم إليه أكثر جعل وجدانه أسهل ، ولهذا قال بعض الحكماء : إن أعظم الأمور حاجة إليه هو الهواء ، فإنه لو انقطع وصوله إلى القلب لحظة لمات الإنسان في الحال ، فلا جرم جعله الله أسهل الأشياء وجدانا ، وهيأ أسباب التنفس وآلاته ، حتى إن الإنسان يتنفس دائما بمقتضى طبعه من غير حاجة فيه إلى تكلف عمل ، وبعد الهواء الماء إلا أنه لما كانت الحاجة إلى الماء أقل من الحاجة إلى الهواء جعل تحصيل الماء أشق قليلا من تحصيل الهواء ، وبعد الماء الطعام ، ولما كانت الحاجة إلى الطعام أقل من الحاجة إلى الماء جعل تحصيل الطعام أشق من تحصيل الماء ، ثم تتفاوت الأطعمة في درجات الحاجة والعزة ، فكلما كانت الحاجة إليه أشد كان وجدانه أسهل ، وكلما كان وجدانه أعسر كانت الحاجة إليه أقل .

والجواهر لما كانت الحاجة إليها قليلة جدا [لا جرم] كانت عزيزة جدا ، فعلمنا أن كل شئ كانت الحاجة إليه أكثر كان وجدانه أسهل [1] قال الشاعر :

سبحان من خص الفلز بعزه ... والناس مستغنون عن أجناسه
أذل أنفاس الهوا وكل ذي ... نفس فمحتاج إلى أنفاسه اهـ [2]

---

(١) في الرازي زيادة بعد قوله : (أسهل) ما لفظه ([ولما كانت الحاجة إلى رحمة الله تعالى أشد من الحاجة إلى كل شئ فنرجو من فضله أن يجعلها أسهل الأشياء وجدانا] ، وكذلك ما بين أقواس الزيادة ، وقد أصلحنا اللفظ منه . أنظر تفسير الرازي ٢٩/٢٤٢.

ثم قال تعالى :﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ باستعمال السيوف والرماح ، وسائر السلاح المصنوع منه في مجاهدة أعداء الله ، والمراد بنصر الله : نصر دينه﴿ بِالْغَيْبِ﴾ أي: نصر الله فيما غاب عنهم من الوعد والوعيد ، فيعلم تعالى من ينصره ، وينصر أنبياءه ، ويقاتل وينابذ في الدين أعداءه ، ويعز بجهده وصبره أولياءه ، مع ما يشاهد في ذلك من حر الجلاد ومفارقة الوطن والأهل والأولاد ، والمحن والسير في أقطار البلاد ، ذكره الحسين بن القاسم عليه السلام[1] .

وقيل : المراد بالغيب حال كون الله غائبا عن الناظرين ، ينصرونه ولا يبصرونه ، قاله ابن عباس ، وأراد بالعلم : المعلوم ، فكأنه تعالى قال : وليقع نصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ممن ينصره ، ولما كانت النصرة قد تكون ظاهرة كما تقع من منافق ، أو ممن مراده المنافع في الدنيا ، بين تعالى أن إرادة النصرة بالغيب ، ومعناه : أن يقع عن إخلاص القلب ثم بين تعالى أنه قوي على الأمور فقال :﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي : غالب ، يريد : أنه غني عنهم بقدرته على من يريد إهلاكه ، لكن عرضهم للثواب بالتكليف بالجهاد .

وأعلم أنه تعالى لما ذكر أنه نصر الرسل بالبينات والمعجزات ، وأنه أنزل الميزان والحديد ، وأمر الخلق بأن يقوموا بنصرتهم — أتبع ذلك ببيان سائر الأشياء التي أنعم بها عليهم فقال سبحانه :﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فبين تعالى أنه شرف نوحا وإبراهيم عليهما السلام بالرسالة ، ثم جعل في ذريتهما النبوة والكتاب ، فما جاء بعدهما أحد بالنبوة إلا وكان من أولادهما ، وإنما قدم النبوة على الكتاب لأن كمال حال النبي أن يصير صاحب الكتاب والشرع .

ثم قال :﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أي : الذرية ، أو المرسل إليهم ﴿مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا ﴾ أي : أتبعنا ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ أي : الرسل الأولين

(٢) تفسير الرازي ٢٩/٢٤٢، ٢٤٣ وفي الرازي سبحان من خص العزيز بعزه . وما بين الأقواس من الرازي .

(١) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليهما السلام في أوائل هذه السورة .

﴿بِرُسُلِنَا﴾ أي : برسل آخرين ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ معناه : أتبعنا في آثارهم ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ خصه بالذكر لإرادته ذكر قصته ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ الإنجيل اسم عجمي ، والمراد : أنه تعالى أرسل بعضهم بعد بعض إلى أن انتهى إلى أيام عيسى بن مريم عليه السلام فأرسله بعدهم ، وآتاه الإنجيل .

ثم قال تعالى :﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي : وفقيناهم لأن يتراحموا ، ويرأف بعضهم على بعض ، والرأفة : شدة الرحمة ، والمراد : أنهم متوادون فيما بينهم كما في صفة المؤمنين ، رحماء بينهم ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ أي : تَرَهبهم فارين من الفتنة في الدين ، مخلصين أنفسهم للعبادة ، متحملين كلفا زائدة على العبادات التي كانت واجبة عليهم ، من الخلوة واللباس الخشن ، والاعتزال عن النساء ، والتعبد في الغيران والكُهُف ، والرهبانية : الفعلة المنسوبة إلى الرهبان ، وهو الخائف ، من رَهِب ، نحو خشيان من خشي ، وقرئ (رُهبانية) بضم الراء منسوبة إلى رهبان جمع راهب[1] نحو ركبان جمع راكب .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى﴿جعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾ هو: أنا جعلنا في قلوبهم ذلك بأمرنا ، وهذا جعل أمر وليس بجعل خلق ولا حتم ولا جبر ، بل جعلها في قلوبهم بالحكم والأمر بها ، والترغيب فيها[2].

---

(١) فيه إشكال فالنسب إلى الجمع على صيغته غير مقبول حتى يرد إلى المفرد ؛ إلا أن يقال : لما صار الرهبان طائفة مخصوصة صار هذا الاسم وإن كان جمعا يكون مفردا . ذكره الراغب . (حاشية العلوي) قال الراغب : (٣٦٧) والرهبانية : غلو في تحمل التعبد من فرط الرهبة ، قال :﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ والرهبان يكون واحدا وجمعا ، فمن جعله واحدا جمعه على رهابين ، ورهابنة بالجمع أليق . وقال في القاموس : أو الرهبان بالضم قد يكون واحد وجمعه رهابين ورهابنة ، ورهبانون .

(٢) ليس في هذه الآية ما يمنع من كون الجعل بمعنى الخلق ، ولاسيما أن الأمر بالرأفة والرحمة ليس مخصوصا بالمؤمنين ، بل الكل مأمور به ، ويمكن أن الذي ألجأ الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام إلى هذا الكلام هو عطف ورهبانية على ما قبله ، فكيف يعطف ما نسبه الله إلى العبد بقوله :﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ على ما هو من جعل الله وخلقه ، ولهذا نحا

ثم قال عز وجل :﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ فيه قولان :ـــ

أحدهما : أنه استثناء منقطع ، أي : ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله .

الثاني : أنه استثناء متصل ، والمعنى : أنا ما تعبدناهم بها إلا على وجه ابتغاء مرضاة الله تعالى [١]، والمراد أنها ليست واجبة ، ولم يعن تعالى بـ ﴿ابتدعوها﴾ طريقة الذم ، بل المراد أنهم أحدثوها من عند أنفسهم ، ونذروها .

قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : الرهبانية مأخوذ من الرهبة لمولانا الجليل بالنوافل ، والتقرب إليه بالفعل النبيل والفكر ، ثم الذي ابتدعوه من الجميل ، ولم يكلفهم الله كل ذلك في التنزيل ، ومعنى ﴿ما كتبناها عليهم﴾ يريد : ما فرضناها عليهم ، ولكن ذلك ابتغاء رضوان الله ربهم ، والتقرب إليه بنوافلهم .

ثم رجع إلى تعنيف هؤلاء الذين من بعدهم من خلفهم وذريتهم فقال عز وجل :﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ يريد : فما حفظوا تلك الأفعال حقيقة حفظها ، ولا عملوا بعد إيمانهم بها [٢]. اهـ

قال في التجريد : وذلك أن الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد موت عيسى ، فقاتلوهم ثلاث مرات ، فقتل المؤمنون وبقي منهم القليل ، فخافوا أن يفتنوا في دينهم فقالوا : تعالوا نتفرق في الأرض إلى أن يبعث النبي الذي وعدنا به عيسى ، فتفرقوا في غيران

الزمخشري وأبو علي الفارسي والمعتزلة إلى أنها منصوبة بفعل مقدر يفسره الظاهر ، فتكون المسألة من باب الاشتغال ، وقال أبو البقاء : ورهبانية هو منصوب بفعل دل عليه ابتدعوها لا بالعطف على الرحمة ؛ لأن ما جعله الله لا يبتدعونه ، وقيل : هو معطوف عليها ، وابتدعوها : نعت له ، والمعنى :فرض عليهم لزوم رهبانية ابتدعوها . (إعراب القرآن ٤٧٧/٩، ٤٧٨.

(١) فإعراب ابتغاء على الوجه الأول استثناء منقطعا ، وإلا أداة استثناء . وتكون بمعنى لكن . وعلى الوجه الثاني : تعرب ابتغاء مفعولا لأجله ، وإلا أداة حصر ، والمعنى : ما كتبناها عليهم لشئ من الأشياء إلا لابتغاء مرضاة الله ، وقد اكتفى الزمخشري بالوجه الأول .

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليهما‌السلام أول هذه السورة .

الجبال ، وأحدثوا رهبانية ، فمنهم من صبر على دينه ، ومنهم من لم يصبر وكفر ، رواه ابن مسعود .[ثم قال فيه : يحتمل عطف رهبانية على مفعول جعلنا ، أي : وفقناهم لها ولابتدائها ، ما كتبناها عليهم إلا ليبتغوا بها رضوان الله ، وذلك لأنها هجرة يتخلصون بها من الفتنة ﴿فما رعوها﴾ أي : فما حفظها من ضيعها منهم ، وهم الذين لم يصبروا عليها وتركوها][1] .

﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ وهم الذين رعوها حق رعايتها ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وهم الذين لم يرعوها .

وقيل :﴿فآتينا الذين آمنوا﴾ بمحمد منهم ﴿أجرهم﴾ وهم الذين آمنوا في وقت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهم الذين آمنوا في الحبشة ، وجماعة من الروم ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ وهم الذين لم يؤمنوا بمحمد ، وجاء هذا في خبر مرفوع .

وقال الوازي : (أما قوله : ﴿فما رعوها حق رعايتها﴾ ففيه أقوال ــ أحدها : أن هؤلاء الذين ابتدعوا هذه الرهبانية ما رعوها حق رعايتها ، بل ضموا إليها التثليث والاتحاد ، وأقام أناس منهم على دين عيسى ، حتى أدركوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فآمنوا به فهو قوله :﴿فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾ .

وثانيها : أن ما كتبنا عليهم تلك الرهبانية إلا ليتوسلوا بها إلى مرضاة الله ، ثم إنهم أتوا بتلك الأفعال ، لكن لا لهذا الوجه ، بل لوجه آخر ، وهو طلب الدنيا والرياء والسمعة .

وثالثها : أنه لما كتبناها عليهم تركوها فيكون ذلك ذما لهم من حيث أنهم تركوا الواجب .

ورابعها : أن الذين لم يرعوها حق رعايتها هم الذين أدركوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم و لم يؤمنوا به ، وقوله :﴿فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم﴾ أي : [الذين] آمنوا بمحمد

---

(١) ما بين قوسي الزيادة ، ساقط من النسخة (ا) وثابت في النسخة (ب) .

﴿وكثير منهم فاسقون﴾ يعني : الذين لم يؤمنوا به ، ويدل على هذا ما روي أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال :(من آمن بي وصدقني واتبعني فقد رعاها حق رعايتها ، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون) .

وخامسها : أن الصالحين من قوم عيسى عليه السلام ابتدعوا الرهبانية وانقرضوا عليها ، ثم جاء بعدهم قوم اقتدوا بهم في اللسان ، وما كانوا مقتدين بهم في العمل ، فهم الذين ما رعوها حق رعايتها ، قال عطاء : لم يرعوها كما رعاها الحواريون ، ثم قال :﴿وكثير منهم فاسقون﴾ والمعنى : أن بعضهم [قام] [١] برعايتها ، وكثير منهم أظهر الفسق ، وترك [تلك] الطريقة ظاهرا وباطنا) [٢] . اهـ

ثم قال تعالى :﴿يَاأيها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي : خافوا عقابه ﴿وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ يعني : يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم .

اعلم أنه لما قال في الآية الأولى ﴿فآتينا الذين آمنوا﴾ أي : من قوم عيسى ﴿أجرهم﴾ قال في [هذه] الآية :﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ والمراد به أولئك ، فأمرهم أن يتقوا الله ويؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ثم قال تعالى :﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ لإيمانكم أولا بعيسى ، وثانيا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ونظيره قوله تعالى :﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾ عن ابن عباس أنه نزل في قوم جاؤا من اليمن من أهل الكتاب إلى الرسول وأسلموا ، فجعل لهم أجرين.

والكفل في اللغة : النصيب .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : أي : يعطيكم أجرين ونصيبين من نعمته ، نصيب في الدنيا للمعونة على طاعته ، ونصيب في الآخرة من مغفرته .

---

(١) في الأصل (أخلّ برعايتها) وفي الرازي (قام برعايتها) . فأثبتنا ما في الرازي .

(٢) انظر الرازي التفسير الكبير ٢٩/٢٤٦/٢٤٧. وما بعده أيضا مثله في الرازي بلفظه إلى قوله .. فجعل الله لهم أجرين . وقد أصلحنا بعض الألفاظ من الرازي ، فليعلم .

ويحتمل أن يكون الكفل الأول هو التوفيق والتسديد والخيرة منه والعون والتأييد ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً﴾ يوم القيامة ﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾ إلى الجنان قيل : والنور: هو المذكور في قوله :﴿يسعى نورهم بين أيديهم﴾ .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام : يريد يجعل لكم هدى تمشون به إلى الجنان ، وتسيرون به في طلب النجاة والرضوان ، والرحمة من الله الواحد الرحمن . اهـ

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما أسلفتم من الكفر والمعاصي ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لا يتعاظم عليه ما وعدكم به من المغفرة إذا امتثلتم أمره ، ويجوز أن يكون خطابا لمن آمن بمحمد صلى الله عليه وآله من غير أهل الكتاب ، والمعنى : اتقوا الله واثبتوا على الإيمان يؤتكم الله ما وعد من آمن بمحمد من أهل الكتاب من الكفار الكفلين في قوله :﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾[1].

﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ (لا) زائدة . والمعنى : ليعلم أهل الكتاب ، الذين لم يسلموا ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أصله : أنه لا يقدرون ، أي : الشأن لا يقدرون ﴿على شئ﴾ أي : لا ينالون شيئا مما ذكر من الكفلين والنور والمغفرة ، لأنهم لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله ، ولم ينفعهم إيمانهم بمن قبله ، وإنما الكفلان لمن آمن من أهل الكتاب بمحمد ، لأنه لم يحبط إيمانه الأول ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴾ أي : في ملكه وتصرفه ، واليد : مثل في الملك لأن أبلغ الملك وأخصه بالمالك ما قبض باليد ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ولا يشاء أن يؤتيه إلا من يستحقه ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ والعظيم لابد وأن يكون إحسانه عظيما ، والمراد تعظيم حال محمد صلى الله عليه وآله وسلم في نبوته وشرعه وكتابه .قال الرازي :-قال الواحدي : هذه آية مشكلة ، وليس للمفسرين فيها كلام واضح في كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها .

---

(١) القصص : ٥٤ .

واعلم أن أكثر المفسرين على أن (لا) هاهنا صلة زائدة ، والتقدير : ليعلم أهل الكتاب .
وقال أبو مسلم الأصفهاني وجَمْعٌ آخرون : هذه الكلمة ليست زائدة .
ونحن نفسر الآية على القولين بعون الله وتوفيقه ، أما القول المشهور : وهو أن هذه اللفظة زائدة ، فاعلم أنه لابد هاهنا من تقديم مقدمة ، وهي أن أهل الكتاب وهم بنوا إسرائيل كانوا يقولون : الوحي والرسالة فينا ، والكتاب والشرع ليس إلا لنا ، والله تعالى خصنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جميع العالمين . إذا عرفت [هذا] فنقول : إنه تعالى لما أمر أهل الكتاب بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ووعدهم بالأجر العظيم على ذلك الإيمان ــ أتبعه بهذه الآية ، والغرض منها [أن يزيل] عن قلبهم اعتقادهم بأن النبوة مختصة بهم وغير حاصلة إلا في قومهم فقال : إنما بالغنا في هذا البيان ، وأطنبنا في الوعد والوعيد ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على تخصيص فضل [الله] بقوم معينين ، ولا يمكنهم حصر الرسالة والنبوة في قوم مخصوصين ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، ولا اعتراض عليه في ذلك أصلا . أما القول الثاني : وهو أن لفظة (لا) غير زائدة ، فاعلم أن الضمير في قوله :﴿ألا يقدرون﴾ عائد إلى الرسول وأصحابه ، والتقدير : لئلا يعلم أهل الكتاب أن النبي والمؤمنين لا يقدرون على شئ من فضل الله ، فإنهم إذا لم يعلموا أنهم لا يقدرون عليه ، فقد علموا أنهم يقدرون عليه .
ثم قال :﴿وأن الفضل بيد الله﴾ أي : وليعلموا أن الفضل بيد الله ، فيصير التقدير أنا فعلنا كذا وكذا لئلا يعتقد أهل الكتاب أنهم يقدرون على حصر فضل الله وإحسانه في أقوام معينين ، وليعتقدوا أن الفضل بيد الله [1] . اهـ

والله أعلم

---

(١) انظر تفسير الرازي ٢٩/٢٤٧،٢٤٨ . وما بين الأقواس تصحيح من الرازي . وقال بعده : واعلم أن هذا القول ليس فيه إلا أنا أضمرنا فيه زيادة ، فقلنا في قوله :﴿وأن الفضل بيد الله﴾ تقدير : وليعتقدوا أن الفضل بيد الله . وأما القول الأول ، فقد افتقرنا فيه إلى حذف شئ موجود ، ومن المعلوم أن الإضمار أولى من الحذف ؛ لأن الكلام إذا افتقر إلى الإضمار لم يوهم ظاهره باطلا أصلا ، أما إذا افتقرنا إلى الحذف كان ظاهره موهما للباطل ، فعلمنا أن هذا القول أولى ، والله أعلم .

سورة الواقعة

تسع وتسعون آية (مكية)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ﴾ قال *الهادي إلى الحق* عليه السلام: الواقعة : فهي الساعة [1] النازلة ، والقيامة الواقعة بأهلها [2] ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ يقول : ليس لنزولها ووقوعها بهم كاذبة.

---

(١) في نسخة : فهي السابقة النازلة .

(٢) في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليهما السلام من تفسيره لهذه السورة (٣١٩/٣٢٣) ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام في قوله تعالى :﴿إذا وقعت الواقعة﴾ فالواقعة : هي القيامة ، وكذلك الآزفة .

وقوله تعالى :﴿إذا رجت الأرض رجا﴾ اضطربت وتحركت.

وقوله تعالى :﴿وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا﴾ أي : خلطت ، والمبسوس : المبلول ، والهباء : الغبار الذي تراه من الشمس في الكوة ، ويقال : التراب الذي يكون على إثر الدواب ، والمنبث : المتفرق .

وقوله تعالى :﴿وأصحاب المشأمة﴾ أي : أصحاب الميسرة .

وقوله تعالى :﴿ثلة من الأولين﴾ أي : جماعة . وقوله تعالى :﴿على سرر موضونة﴾ معناه : مزمولة بالذهب .

وقوله تعالى :﴿متكئين عليها متقابلين﴾ معناه : لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض أينما شاؤا تقابلوا .

وقوله تعالى :﴿ولدان مخلدون﴾ معناه : شباب لا يموتون .

وقوله تعالى :﴿بأكواب وأباريق﴾ فالأكواب : الأباريق التي لا عري لها ، واحدها كوب .

وقوله تعالى :﴿وكأس من معين﴾ فالكأس : الإناء بشرابه ، ولا يسمى إلا به ، والمعين : الخمر .

وقوله تعالى :﴿لا يصدعون عنها ولا ينزفون﴾ أي : لا تصدع رؤوسهم ، ولا ينزفون : أي :لا يسكرون .

وقوله تعالى :﴿وحور عين﴾ فالحور : السواد الحدق . ويقال : الحور : الذي يحار فيه الطرف .

والكاذبة : فهي الباطلة الدافعة لما يهجم منها زائلة عمن يقصد بِهَوْلِهَا ، تقول العرب للشيء المصمم الواقع : أتى غير مكذب حتى وقع به ، وتقول : ما كذب حتى أصابه ، أو حتى ضربه ، تريد ما انصرف ولا التوى ولا عوج ولا عرج حتى وقع بما أراد أن يقع به . اهـ

قال في التجريد : ﴿إذا وقعت الواقعة﴾ هو كقولك : إذا حدثت الحادثة . والمراد القيامة، وصفت بالوقوع ، لأنها تقع لا محالة ، كأنه قيل : إذا وقعت لا بد من وقوعها ، ووقوع الأمر : نزوله ، وجواب إذا إما قوله :﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ أو محذوف تقديره : وقـــع

وقوله تعالى :﴿في سدر مخضود﴾ أي : لا شوك لها ، ويقال : الموقر .

وقوله تعالى :﴿وطلح منضود﴾ فالطلح : الموز ، والطلح : العظام الكثير الشوك .

وقوله تعالى :﴿وظل ممدود﴾ معناه : دائم . وقوله تعالى :﴿وماء مسكوب﴾ أي : سائل .

وقوله تعالى :﴿فجعلناهن أبكارا عربا أترابا﴾ فالعرب : الحسنات التبعل لأزواجهن ، والأتراب : الأسنان والأمثال .

وقوله تعالى :﴿في سموم وحميم وظل من يحموم﴾ فاليحموم : الدخان .وقوله تعالى :﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾ معناه : متكبرون .

وقوله تعالى :﴿يصرون على الحنث العظيم﴾ معناه : يقيمون ويديمون على الإثم العظيم ، ويقال : هي اليمين الغموس ، ويقال : على الشرك . وقوله تعالى :﴿فشاربون شرب الهيم﴾ معناه الإبل العطاش التي لا تروى ، وكذلك الرمل .

وقوله تعالى :﴿أفرأيتم ما تمنون﴾ معناه من المني ، وقوله تعالى :﴿أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه﴾ معناه تنبتونه .

وقوله تعالى :﴿وننشئكم﴾ أي : نبدلكم . وقوله تعالى :﴿لو نشاء جعلناه حطاما﴾ معناه رفات .

وقوله تعالى :﴿فظلتم تفكهون﴾ معناه تتعجبون ، ويقال : تتلاومون ، ويقال : تندمون ، وهي لغة لعكل وتميم .

وقوله تعالى :﴿إنا لمغرمون﴾ معناه معذبون . وقوله تعالى :﴿أأنتم أنزلتموه من المزن﴾ معناه السحاب .

وقوله تعالى :﴿لو نشاء جعلناه أجاجا﴾ معناه : مالح أشد ما يكون الملوحة .

وقوله تعالى :﴿أفرأيتم النار التي تورون﴾ أي : تستخرجون ، يقال : أوريت ، ووريت .

وقوله تعالى :﴿ومتاعا للمقوين﴾ معناه الذين لا زاد معهم ، ويقال : للمسافرين والحاضرين .

وقوله تعالى :﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ معناه : أقسم بالقرآن نزل نجوما متفرقا ثلاث آيات أو أربع أو خمس آيات.

وقوله تعالى :﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ معناه الملائكة الموكلون باللوح المحفوظ الذين طهروا من الشرك ، وقال : لا يجد طعم القرآن ونفعه إلا من آمن به . وقوله تعالى :﴿أنتم مدهنون﴾ أي : مداهنون بما لزمهم .

وقوله تعالى :﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ معناه يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، والرزق : الشكر .

وقوله تعالى :﴿غير مدينين﴾ معناه : غير مجزيين .

وقوله تعالى :﴿فروح وريحان﴾ معناه : برد وهو الاستراحة ، والريحان : معناه حياة وبقاء ورزق .

الجزاء ، أو خفضت ناسا ورفعت آخرين [1]. اهـ

وانتصب إذا بمحذوف تقديره كان من الأهوال مالا يوصف ، أو بليس كقولك : يوم الجمعة ليس لي شغل[2] و﴿كاذبة﴾ صفة لمحذوف أقيمت مقامه ، تقديره : ليس لها نفس تكذب،أي: لا يكون حين تقع القيامة نفس تكذب على الله في تكذيب البعث ، لأن كل نفس ذلك اليوم صادقة مصدقة ، وأكثر النفوس كواذب مكذبات ، قال في البلغة : كاذبة مصدر مثل العافية ، أي :ليس لوقعة القيامة مرد ولا تكذيب ولا مثنوية ؛ لأنها كائنة لا محالة .

قال في التجريد : وفي المعنى على هذا قولان : *أحدهما* ــ ليس لها رجعة ولا ارتداد ، من قولهم : حمل على قرنه فما كذب ، أي :فما جبن وما تثبط ، وهو معنى قول قتادة .

والثاني : ليس الإخبار عن وقوعها كذبا ، قاله الواحدي ، واللام في لوقعتها للتعليل ، أوليس لها نفس تكذبها ، وتقول لها : لم تكوني،كما لها اليوم نفوس كثيرة تكذبها اهـ

---

(١) ذكر في إعراب القرآن أن في إذا أوجه ١ــ ظرف محض ليس فيها معنى الشرط ، والعامل فيها ما في ليس من معنى النفي ٢ ــ أن العامل فيها اذكر مقدرا . ٣ ــ أنها شرطية وجوابها مقدر ، أي : إذا وقعت الواقعة كان كيت وكيت، وهو العامل فيها ٤ ــ أنها شرطية والعامل فيها الفعل الذي بعدها ويليها ، وهو اختيار أبي حيان ، وتبع في ذلك مكيا، قال مكي : والعامل فيها وقعت لأنها قد يجازى بها ٥ ــ أنها مبتدأ وإذا رجت خبرها ، وهذا على القول إنها تتصرف . ٦ ــ أنها ظرف لخافضة رافعة ، قاله أبو البقاء ، أي : إذا وقعت خفضت ورفعت ٧ ــ أنها ظرف لرجت، وإذا الثانية إما بدل من الأولى أو تكرير لها ٨ ــ أن العامل فيها ما دل عليه قوله : ﴿فأصحاب الميمنة﴾ أي : إذا وقعت بانت أحوال الناس فيها ٩ ــ أن جواب الشرط قوله :﴿فأصحاب الميمنة﴾ ١٠ ــ قال الجرجاني: إذا صلة، أي : وقعت الواقعة ، مثل ﴿اقتربت الساعة﴾ و﴿أتى أمر الله﴾ (إعراب القرآن ٩/٤٢٤، ٤٢٥) .

(٢) قال السيد العلوي : اعلم أن الأفعال الناقصة لا تمنع تعلق الظرف بها لدلالتها على معنى الحصول ، فإذا قلت : كان يوم الجمعة زيد قائم فلا منع من تعلق الظرف بكان لدلالته على معنى الحدوث،بل هو أولى من تعليقه بخبر كان المؤخر ، فكذا ليس ؛ لأنه بمعنى ما كان ، وكذا سائر الأفعال الناقصة ، ولهذا قال من منع من تقدم خبر ليس عليها لعدم تصرفها، وهو المبرد والمالكي: إن يوم في قوله تعالى :﴿ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم﴾ منصوب بليس لا بمصروفا ، فكذا إذا في الآية . ويوم في التمثيل منصوبان بليس . والله أعلم (حاشية العلوي ٣٠١) . وقد رد أبو حيان هذا الإعراب على الزمخشري ، وعلل بأن ليس في النفي كما وما لا تعمل ، فكذلك ليس ، وذلك أن ليس مسلوبة الدلالة على الحدث والزمان ، والقول بأنها فعل هو على سبيل المجاز . وذكر بأن العامل في الظرف إنما هو ما يقع فيه من الحدث (إعراب القرآن ٩/٤٢٣، ٤٢٤) .

﴿خَافِضَةٌ﴾ فهي الخافضة لمن تخفض من الخلق عن محل الثواب فتصيرهم بخفضها لهم إلى أليم العقاب ، والخفض هاهنا من باب الإطراح والقلة والذلة .

﴿رَافِعَةٌ﴾ فهي : رافعة للمؤمنين إلى مراتب الصالحين، مصيرة لهم إلى رضى رب العالمين، ذكره *الهادي* عليه السلام .

وفي *الكشاف* (هي خافضة رافعة ترفع أقواما وتضع آخرين ؛ إما وصفاً لها بالشدة لأن الواقعات العظام [كذلك] يرتفع فيها [ناس إلى مراتب] ، ويتضع [ناس] ، وإما لأن الأشقياء يحطون إلى الدركات ، والسعداء يرفعون إلى الدرجات ، وإما لأنها تزلزل الأشياء وتزيلها عن مقارها فتخفض بعضا ، وترفع بعضا) [1]. اهـ

أي : إذا وقعت الواقعة يُزَلْزَلُ الناس فيُخْفَضُ المرتفع ، ويُرْفَعُ المنخفض ، وعلى هذا فهي كقوله تعالى :﴿فجعلنا عاليها سافلها﴾[2] في الإشارة إلى شدة الواقعة ، إذ العذاب الذي جعل الأعالي سافلا والسافل عاليا ، حتى تصير الأرض المنخفضة كالجبال الراسية ، والجبال الراسية كالأرض المنخفضة ، فإنه أشد وأبلغ ، ويدل عليه قوله تعالى :﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ .

قال الهادي عليه السلام: (رجت : هو زعزعت للبواد [للبوار] والفناء وارتجت ، وقلقلت للتبديل وزعزعت ، ومعنى رجا : فهو تحريكا وقلعا) [3]. اهـ

وفي *التجريد* أي :حركت تحريكا شديدا ، حتى ينهدم كل شئ فوقها من جبل وبناء[4].

---

(١) انظر الكشاف ٤/٤٥٦ ، وما بين الأقواس من الكشاف ، وكذلك إصلاح بعض الألفاظ .

ولفظ الأصل : وفي الكشاف : أي : خافضة رافعة ترفع أقواما وتضع آخرين ، إما وصفا لها بالشدة ، لأن الواقعات العظام يرتفع بها قوم ، ويتضع ، وإما أن الأشقياء يحطون بالدركات ويرفع السعداء إلى الدرجات ، وإما أنها تزلزل الأشياء وتزيلها عن مقارها فتخفض بعضا ويرفع بعضا .

(٢) في نسخة المصابيح (وجعلنا عاليها سافلها) ولا توجد آية في القرآن بلفظ وجعلنا ، والذي في القرآن آيتان أحدهما في الحجر : ٧٤ ، بلفظ ﴿فجعلنا﴾ ، والثانية : في هود : ٨٢ ، بلفظ ﴿جعلنا عاليها سافلها﴾ .

(٣) ما بين القوسين إشكال في اللفظ هل البواد ، أو البوار .

(٤) ومثله في الكشاف ، وقد أصلحنا اللفظ على ما في الكشاف ٤/٤٥٦.

قال في *الكشاف* : [فإن قلت بم] انتصب ﴿إذا رجت﴾ ؟ [قلت : هو] بدل من﴿إذا وقعت﴾ ويجوز أن ينتصب بـ ﴿خافضة رافعة﴾ [أي]: تخفض وترفع وقت رج الأرض، وبس الجبال [لأنه عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ويرتفع ما هو منخفض] [١].

قال تعالى :﴿ وَبُسَّتْ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ قال *الهادي* عليه السلام: معنى ﴿بست﴾ فهو: أبيدت وأفنيت حتى انبسنت بغيرها من الأشياء واختلطت فصارت بعد العظم كالبسيس ، والبسيس : فهو الشيء المائع كالطعام المسكوب فيه الماء .

وفي *البرهان* : أصله من البسيسة وهو السويق أو الدقيق يلت ويتخذ زادا [٢].

ثم قال عليه السلام[٣]: وإنما أراد الله بذلك أن يخبر أنها تعود بعدما هي عليه من العظم إلى الذهاب والبواد والاختلاط بغيرها من الأشياء التي بس لها بسا ، أي :خلط خلطا .

وفي *التجريد* أي :فتت حتى تعود كالسويق ، يقال : بس الشيء إذا فتّه حتى يصير فتاتا أو سيقت ، من بس الغنم إذا ساقها ، كقوله :﴿وسيرت الجبال﴾[٤] . اهـ

﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنبَثًّا﴾ قال *الهادي* عليه السلام: والهباء : فهو الغبار الخفي الذي يدخل مع الشمس من الكوى [٥]، والمنبث : فهو الكثير المنتشر ، فأخبر سبحانه أنها تعود بعد ما هي عليه من الهباء إلى الذهاب والفناء .

قال في *البرهان* : وروينا عن أمير المؤمنين *علي* عليه السلام(أن الهباء المنبث هو : رهج الغبار

---

(١) لقد نقلنا نص الكشاف ، وكان في رواية اختلاف يسير في ألفاظها عما في الكشاف والمعنى واحد ، فرأينا نقل نص الكشاف . وما بين الأقواس من الكشاف . انظر الكشاف ٤٥٦/٤. ولفظ الأصل ، قال في الكشاف : انتصب إذا رجت بما انتصب بها إذا وقعت ، لأنه بدل منه ، ويجوز أن ينتصب بخافضة رافعة ، والعامل تقديره : تخفض الواقعة وقت رج الأرض ، وبس الجبال .

(٢) انظر البرهان مخطوط ص ٣٦٦. وفيه زيادة [والمعنى : أنها سالت سيلا فكانت هباء منبثا] .

(٣) ليس المراد به الإمام الناصر صاحب البرهان ؛ لأنه لا يوجد هذا اللفظ في البرهان ، ويحتمل أنه للهادي عليه السلام فلينظر في التفسير المجموع .

(٤) النبأ : ٢٠ .

(٥) الكوى ، والكوة : الخرق في الحائط والثقب في البيت ، وجمعها : كواء بالمد . لسان العرب ٣١٦/٣.

يسطع ثم يذهب) وكذلك أعمال العصاة التي عملوها للخير لا ثواب لهم عليها تشبيها بالهباء الذي لا يحصل منه شئ.

ثم قال تعالى :﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أي :في ذلك اليوم أنتم (أزواجا)[1] ثلاثة أصناف يقال للأصناف التي يكون بعضها مع بعض ، أو يذكر بعضها عقيب بعض : أزواج .

ثم فسر الأصناف الثلاثة بقوله :﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ وما بعده ، قيل : وأصحاب الميمنة الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم .

﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ هم الذين يؤتونها بشمائلهم .

وقال *الهادي* عليه‌السلام: معنى ﴿أزواجا ثلاثة﴾ فهو : أصنافا ثلاثة ﴿فأصحاب الميمنة﴾ فهم أصحاب اليمن والبركة [والإيمان][2] والطاعة ﴿وأصحاب المشأمة﴾ فهم أصحاب الشؤم واللعنة .

قال في البرهان : وإنما سموا بذلك لأن العرب تنسب إلى اليمين ما كان من فعل الخير ، فتقول : تيمنت بفلان في الخير ، وتشاءمت به في الشر [3]. اهـ

ومثل هذا ذكر *الحسين بن القاسم* عليه‌السلام في تفسيره ثم قال فيه أيضا ، وأما تكريره لأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ، فهو تأكيد منه ليمن المؤمنين ، وشؤم أصحاب المشأمة الفاسقين ، و(ما) فهي تحتمل وجهين :إما أن تكون صلة وتزيينا للكلام مثل قوله: ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾[4] وإما أن تكون تنبيها منه على جليل[أمرهم وعظيم خطرهم ، والعرب تقول : وما فلان لو خبرته ! توقيفا على خطره ، وتنبيها على جليل] أمره [5] . اهـ

---

(١) (أزواجا) هكذا في الأصل ، وهو حكاية لما في الآية ، وإلا فهو مرفوع خبر عن أنتم .

(٢) ما بين القوسين زيادة من (ب) .

(٣) انظر البرهان خ ٣٦٦ ، ولفظ البرهان : فأما أصحاب الميمنة فهم أهل الجنة ، وإنما سموا بذلك لأن العرب تنسب إلى اليمين ما كان من فعل الخير فتقول : تيمنت بفلان في الخير وتشاءمت به في الشر ، وأصحاب المشأمة هم أهل النار.

(٤) ص : ١١

(٥) ما في الوجه الأول تكون زائدة (صلة) وفي الوجه الثاني استفهامية ، مقصود بها التعظيم . وما بين قوسي الزيادة ليس موجودا في نسخة تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني عليه‌السلام الموجودة لدينا ، وأظنه سقط منها.

قال الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه‌السلام في تفسيره لهذه السورة :

﴿الواقعة﴾ هي القيامة ، ومعنى ﴿خافضة رافعة﴾ هو : أنها خافضة لأعداء الله إلى الذل والهوان ، رافعة لأوليائه إلى العز والجنان . ومعنى ﴿رجت الأرض رجا﴾ يريد : أنها زلزلت زلزلة . ومعنى ﴿بست الجبال بسا﴾ أي : عركت عركا . ومعنى ﴿فكانت هباء منبثا﴾ أي : غبارا مثيرا ﴿وكنتم أزواجا ثلاثة﴾ يريد : أصنافا ، والأزواج في اللغة هي الأصناف وأصحاب الميمنة : هم أصحاب اليمن والبركة ، وأصحاب المشأمة : هم أصحاب الشؤم واللعنة . وأما تكريره لأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ، فهو تأكيد منه ليمن المؤمنين ، وشؤم أصحاب المشأمة الفاسقين ، و[أما](ما) فهي تحتمل وجهين :إما أن تكون صلة وتزيينا للكلام مثل قوله :﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ وإما أن تكون تنبيها منه على جليل أمرهم وعظيم خطرهم ، والعرب تقول : وما فلان لو خبرته ! توقيفا على خطره ، وتنبيها على جليل أمره . ثم قال :﴿والسابقون السابقون﴾ يعني الأنبياء والأئمة الطاهرين ، الذين سبقوا إلى الخيرات ، واستكثروا من الحسنات ﴿أولئك المقربون﴾ الذين لا يلحق بدرجتهم أحد من المسلمين ، ولا يدانيهم في سبقهم جميع المؤمنين . ومعنى قوله :﴿ثلة من الأولين﴾ أي : جماعة كثيرة من قبل خاتم النبيين ﴿وقليل من الآخرين﴾ يعني الذين بعده من السابقين . ومعنى ﴿على سرر موضونة﴾ أي : مشبكة ، قال الشاعر :

وبيضاء كاليهن موضه لها قونس مثل جيب البدن

ومعنى قوله :﴿ولدان مخلدون﴾ أي : غلمان باقون ، والأكواب : هي الكيزان التي لا علائق لها ، قال الشاعر :

يسعى عليه العبد بالكوكب .

وقال آخر : يصب أكوابا على أكواب .

والأباريق : هي كيزان ذات علائق . ومعنى ﴿وكأس من معين﴾ أي : قدحان مملوة من المعين ، والمعين : هو خمرة الجنة ، الذي يجري في وجه الأرض كجري الماء ﴿لا يصدعون عنها﴾ أي : يسكرون منها ﴿ولا ينزفون﴾ والنزف هي القي والسكر والأذى ، فنفى ذلك عنهم تبارك وتعالى ، والفاكهة : هي أنواع الثمار ، ومعنى ﴿ولحم طير مما يشتهون﴾ يريد أنه يوجد لهم يوم القيامة لحم طير من المواتي ، وليس يريد ذبح شئ من الحيوانات ﴿وحور عين﴾ الحور : هن الدعج . والعين : حسان الأعيان ، والدعج : هو سود الحدق مع حسن تقدير الأعيان ، قال الشاعر :

بأعين محورات حور

ومعنى ﴿كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ يريد : في صفاء الألوان والبياض ، والمكنون : هو المصون . ﴿لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما﴾ معنى اللغو : هو الكلام القبيح من اللهو ، ومعنى قوله :﴿إلا قيلا سلاما سلاما﴾ يريد : إلا قولا سالما سالما لا عيب فيه ، وهذا كله في السابقين ، ثم ابتدأ ما للمؤمنين فقال :﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وفرش مرفوعة﴾ أما السدر المخضود : فهو اللين الذي لا شوك فيه ، واصل الخضد هو التكسير للشيء حتى يلين قال الشاعر :

كأن الترين والدماليج علقت على عشّر أو خروع لم ينضد

أي : لم يكسر ، والطلح المنضود : هو الموز الذي بعضه فوق بعض منضود . والظل الممدود : هو الواسع ، والماء المسكوب : هو الذي يسيل ويتحرك ويجري على وجه الأرض ويغيل . والفاكهة : هي ألوان الثمار . والفرش المرفوعة : هي الفرش الرفيعة المقدار التي رفعها الله عز وجل على الأسرة للأبرار .

ثم وصف ما أعطاهم من الحور العين ، فقال :﴿إنا أنشأناهن إنشاء﴾ أي : خلقناهن خلقا ﴿فجعلناهن أبكارا عربا أترابا لأصحاب اليمين﴾ الأبكار : هن ذوات الشباب وحداثة الأسنان ، قال الشاعر :

سوى أن للبكر الغريرة بهجة بها فضلت عندي وطيب مزاج

والعُرُب : هن العاشقات لأزواجهن المتبسطات للحديث إليهم قال الشاعر :

يعربن عند بعولهن إذا خلوا وإذا هُمُ خرجوا فهن خفار

وقيل : إن العرب هاهنا : هن المعربات في كلامهن ، اللاتي لا لحن ولا عيب في قولهن ؛ لأن الله زين كلامهن ، وحسن لفظهن كما حسن وجوههن وخلقهن . ثم قال في أصحاب اليمين المؤمنين غير قوله في السابقين ؛ لأنه قال في السابقين: ﴿ثلة من الأولين وقليل من الآخرين﴾ فدل على أن السابقين في أول الزمان أكثر من السابقين في الذين بعد خاتم النبيين وقال في أصحاب اليمين :﴿ثلة من الأولين وثلة من الآخرين﴾ فدل بذلك على كثرة المؤمنين في آخر الزمان وأوله ، وبين أنهم أكثر من الأئمة السابقين ، وسنرجع إلى التفسير ولا قوة إلا بالله . ومعنى ﴿أترابا﴾ يريد : أشباها متواخيات متحابات غير متعاديات . ثم رجع إلى ما أعد لأصحاب الشمال من السموم والنكد والعذاب والنكال فقال :

﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم﴾ فأما الشمال : فيخرج في اللغة على وجوه منها : أن يكون ضرب لهم مثلا بتفسير الشمال ، كما ضرب المثل باليمين ؛ لأن اليمين يمن وبركة ، والشمال ضعف وعسر وتعسير ، ومن ذلك ما يمكن أن يكون من حشر المتقين إلى اليمين ، وحشر الكافرين إلى الشمال، والوجه الثالث : أن يكون سماهم أصحاب الشمال لأخذهم كتبهم في الشمال ، وقد قيل : إن الكتاب مثل من الأمثال ، وكل ذلك يمكن في اللفظ والمقال ، ومعنى ﴿في سموم وحميم﴾ فالسموم : هو الحر ، والعرب تسمي الرياح إذا هبت بالحر سموما ، قال الشاعر : اليوم يوم بكرت سمومه .

والحميم : هو الماء الحار . والظل من اليحموم : هو الدخان الأسود الشديد السواد فيما ذكر بعض المتكلمين ، ومعنى ﴿لا بارد ولا كريم﴾ يريد أنه ليس ببارد ولا كريم : هو اللين والطيب ، ودل بذلك على غلظه وشدة حره ويبسه .

ومعنى ﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾ أي : منعمين .

قال الإمام المرتضى لدين الله صلوات الله عليه وعلى آبائه وسلم :

تلك ضرب صبرت للكريهة نفـــسي لا كفعل المترف الطياش

﴿وكانوا يصرون على الحنث العظيم﴾ يريد : أنهم كانوا يقيمون على المأثم العظيم . ومعنى ﴿إلى ميقات يوم معلوم﴾ يريد : إلى وقت معروف مفهوم . الشاربون شرب الهيم أي : شرب الإبل الهيم ، والهيام : داء حار يأخذ الإبل ، قال الشاعر : إذا ما سقى الله البلاد بلادا تسمى برح من أرض خثعما

سقيت بها نضوى ورويّت قربتي فأصبحت محموما وأصبح أهيما

وقال آخر : شربن من دعيج شرب الهيم .

وقال آخر : وأهيم صاد قد تصلصل جوفه طوى الصيف خمسا فهو للماء قارف

ومعنى قوله عز وجل :﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾ أي : طعامهم وشرابهم الذي ينزلون عليه ، ويصيرون بما قدموا إليه ، ومعنى قوله :﴿فلولا تصدقون﴾ قال الشاعر :

فلولا قتلتم مالكا بسميه ولم تتركوه والرماح دوامي

يريد : فهلا قتلتم مالكا . ومعنى ﴿أفرأيتم ما تمنون﴾ المني : هو النطفة التي تنزل من الأصلاب ﴿نحن قدرنا بينكم الموت﴾ أي : قدرناه تقديرا ، ودبرنا للحكمة تدبيرا ، ومعنى ﴿لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون إنا لمغرمون﴾ الحطام : هو اليابس المتكسر ، ومعنى ﴿فظلتم تفكهون﴾فهو فظللتم ، فحذف أحد اللامين .ومعنى ﴿تفكهون﴾ أي : تحدثون وتعجبون ، وتقولون ﴿إنا لمغرمون﴾ أي :معذبون قال الشاعر:

وما أكلة إن نلتها بغنيمة ولا جوعة إن جعتها بغرام

أي : بعذاب . ومعنى ﴿لو نشاء لجعلناه أجاجا﴾ أي : مالحا ﴿أفرأيتم النار التي تورون﴾ أي: تخرجون ، قال الشاعر : واري الزناد وبعوث النار . ومعنى قوله عز وجل :﴿وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ أي : منفعة ومتعة وبلاغا للذين هم حالون في القواء والقفار قال الشاعر : أقوى وأقفر من نعم وغيره هوج الرياح تهابي الترب موار

يريد : خلا وأقفر . وأصدق من هذا قول *الهادي* [صلوات الله عليه وعلى آبائه]:(فساحته قفر قواء بلاقع).

ومعنى قوله :﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ أي : فأقسم بمواقع النجوم ، وأدخل لا صلة للكلام قال الشاعر :

بيوم حدود لا فضحتم أباكم وسالمتم والخيل يدمى شكيمها

أراد : بيوم حدود فضحتم أباكم ، وأدخل لا صلة للكلام ؛ لأنه عابهم بالمسالمة ، ومعنى ﴿وإنه لقرآن كريم﴾ أي : مرتفع عظيم ﴿في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون﴾ وهم الأئمة الطاهرون ، وسنضع ـ إن شاء الله تعالى ـ من عجائب مكنونه ما فيه دلالة على رب العالمين ، وحكمة بالغة من صنع أحكم الحاكمين ﴿تنزيل من رب العالمين﴾ أي : من كلامه وقوله بنفسه ، قبل أن ينزل به روح قدسه ﴿أفبهذا الحديث أنتم مدهنون﴾ يريد : أفبهذا الحديث أنتم مدارون ؛ لأن أعداء الله لا تجوز مداراتهم في القرآن بكفرهم بما أنزل الرحمن ، بل ينابذون في كفره ، وقلة معرفتهم بقدر ربهم ، فأقام الباء مقام في ؛ لأنهما جميعا من حروف الصفات ، قال الشاعر :

ودار وداهن من تدانيك داره كما قد يداري جاره السبع المجري

﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ المعنى في ذلك : وتجعلون شكركم على رزقكم أنكم تكذبون ، فاختصر واكتفى بعلم المخاطب ، وقد مضى ذكرنا لجواز الاختصار ، قال الشاعر :

وكيف نواصل من أضحت أمانته كأبي مرحب

وهذا مما تستعمله العرب في الإضمار ، وإنما أراد كأمانة أبي مرحب .

وفي *الكشاف* : هو تعجيب من حال الفريقين في السعادة والشقاوة [والمعنى]: أي :شئ [هم] [١]. على التعظيم بشأنهم .

فإن قيل : فما إعرابه ومنه يعرف معناه ؟ أجاب الرازي فقال : ﴿فأصحاب الميمنة﴾ مبتدأ أراد المتكلم أن يذكر خبره فرجع عن ذكره وتركه ، وقوله :﴿ما أصحاب الميمنة﴾ جملة استفهامية على معنى التعجب[٢] ... إذا عرفت هذا فكأن المتكلم في أول الأمر مخبر ، ثم لم يخبر بشيء ؛ لأن في الإخبار تطويلا ثم لم يسكت وقال : وما ذلك ؟ ممتحنا زاعما

﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾ يعني النفس عند خروجها من الحلق ، ولكنه اختصر لعلم المخاطب ، ولم يذكر النفس كما قال الشاعر :

أيا مَيَّ ما تغني الرقاء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

يعني النفس عند خروجها من البدن ، ولكنه اختصر ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين﴾ يريد : فهلا إن كنتم غير مجازين بأعمالكم ، ولا محاسبين على أفعالكم قال الشاعر :

وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن يدينا

يريد :أن يحتكم للجزاء . وقال آخر :

دانت لنا الأرض طرا من مناكبها طوعا وكرها ورزق الله مقسوم

ومعنى ﴿ترجعونها إن كنتم صادقين﴾ أي : تردونها ، يعني النفس ﴿فأما إن كان من المقربين﴾ يريد : من الأئمة السابقين ﴿فروح وريحان وجنة نعيم﴾ والروح : هو الريحان ، وهو يريد النسيم والراحة من الهوان الأليم ، إلا أنه وكد الروح بذكر الريحان ، كما وكد ذكر الرحمة بالرحيم والرحمن ، وذلك تأكيد وزيادة في البيان .

ثم رجع إلى ذكر المؤمنين فقال :﴿وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين﴾ أي : سلامة لك أيها الميت إن كنت من المؤمنين ﴿وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم إن هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي : سبح بأسماء ربك العظام .

(١) لفظ الكشاف ﴿ما أصحاب الميمنة﴾ ﴿ما أصحاب المشأمة﴾ تعجيب من حال الفريقين في السعادة والشقاوة ، والمعنى : أي :شي هم . انتهى ما في الكشاف ، وما ذكره بعده هو المصنف رحمه الله . ولفظ (هم) ساقط في (أ) وثابت في (ب) . قال السيد العلوي رحمه الله تعالى : قال القاضي : الجملتان الاستفهاميتان خبران لما قبلهما بإقامة المظهر مقام الضمير ، ومعناه التعجب من حال الفريقين (حاشية العلوي خ ٣٠١) .

(٢) هنا حذف عما في تفسير الرازي ، والمحذوف هو : [كما تقول لمدعي العلم : ما معنى كذا ؟ مستفهما ممتحنا زاعما أنه لا يعرف الجواب ، حتى إنك تحب وتشتهي ألا يجيب عن سؤالك ، ولو أجاب لكرهته ؛ لأن كلامك مفهوم كأنك تقول : إنك لا تعرف الجواب] .

أنك لا تعرف كنهه ،[وذلك]لأن من يشرع في كلام ويذكر المبتدأ ثم يسكت عن الخبر، قد يكون ذلك السكوت لحصول علمه بأن المخاطب قد علم الخبر من غير ذكر الخبر ، ألا ترى أن المبتدأ وحده يكفي لمن قال : من جاءني ؟ فقال المجيب : زيد ، فالله تعالى لما قال :﴿فأصحاب الميمنة﴾ كان كأنه يريد أن يأتي بالخبر ، ثم سكت عنه ، ثم قـــال في نفسه : إن السكوت قد يتوهم أنه لظهور حال الخبر كما سكت عن زيد في جواب من جاء ؟ فقال : ﴿ما أصحاب الميمنة﴾ ممتحنا زاعما أنه لا يفهمه ليكون ذلك دليلا على أن سكوته على المبتدأ لم يكن لظهور الأمر بل لخفائه ، وفيه وجه ظاهر ، وهو أن يقـــال : معناه أنه جملة واحدة استفهامية كأنه قال : ما أصحاب الميمنة على سبيل الاســـتفهام ، غير أنه أقام المظهر مقام المضمر فقال :﴿فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة﴾ والإتيـــان بالمظهر إشارة إلى تعظيم أمرهم حيث ذكرهم ظاهرا مرتين ، وكذلك القـــول في قولـــه تعالى :﴿وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة﴾ وكذلك ﴿الحاقـــة مـــا الحاقـــة﴾ و ﴿القارعة ما القارعة﴾ [1]. اهـــ

ثم قال تعالى :﴿ وَالسَّابِقُونَ﴾ أي : المخلصون الذين سبقوا إلى رضى الله ، وسارعوا إلى ما دعاهم إليه هم السابقون الذين عرفت حالهم ووصفهم البليغ ، كقوله :

أنا أبو النجم وشعري شعري[2]

---

(١) انظر تفسير الرازي ٣٨٨/١٠. وما بين الأقواس منه ، وكذلك إصلاح بعض الألفاظ ، ويكون إعراب الآية على أن الفاء عاطفة تفريعية ، للشروع في تفصيل وشرح أحوال الأزواج الثلاثة ، وأصحاب الميمنة مبتدأ ومضاف إليه ، ومـــا استفهامية في محل رفع مبتدأ ثان ، والمقصود بالاستفهام التعظيم ، وأصحاب الميمنة الثاني خبر ما ، والجملة خبر المبتـــدأ الأول ، وتكرير المبتدأ هنا بلفظه أغنى عن الرابط ، كما مثل بقول تعالى :﴿الحاقة ما الحاقة﴾ .

(٢) أنا أبو النجم وشعري شعري لله دري ما أجن صدري

تنام عيني وفؤادي يســـــري مع العفاريت بأرض قفر

لأبي النجم العجلي يريد :أنا المعروف بالبلاغة بين الناس كالعلم المشهور ، وشعري هو البليغ المعروف بأنه شعر أبـــي النجم ؛ لأنه إذا اتحد المبتدأ والخبر ، أو الشرط والجزاء دل الكلام على المبالغة في التعظيم أو في التحقير ، وما هنـــا مـــن الأول ، وفيه ادعاء أن نهاية العظمة في الرجل المسمى بأبي النجم ، ونهاية البلاغة في الشعر المنسوب إليـــه ، والـــدر :

ومنهم من جعل ﴿السَّابِقُونَ﴾ الثاني تأكيدا ، والخبر عنه وعن الأول ﴿أولئك المقربون﴾ وليس بالوجه [1] [ووقف بعضهم على ﴿والسابقون﴾ وابتدأ ﴿السابقون أولئك المقربون﴾] والأحسن أن يوقف على الثاني ؛ لأنه تمام الجملة [وهو في مقابلة ﴿ما أصحاب الميمنة﴾ و ﴿ما أصحاب المشأمة﴾]ذكره في الكشاف[2] .

وقال في *البلغة* :﴿السابقون﴾ هم الذين سبقوا سائر الناس من كل أمة إلى تصديق الأنبياء عليهم السلام وهم من أصحاب اليمين أيضا ، إلا أنهم خصوا بالذكر تشريفا وتعظيما.

قال *الهادي* عليه السلام: والسابقون : هم الذين سبقوا إلى الله بالطاعة ، وقدموها إليه في الحياة الدنيا .

وفي *البرهان* : هم الأنبياء والأئمة عليهم السلام ، وإنما كرر لفظهم لأن المعنى والسابقون إلى الإيمان والإسلام السابقون إلى الجنة . اهـ

ومثله في تفسير *الحسين بن القاسم* عليه السلام.

وروى *المنصور بالله عبد الله بن حمزة* عليه السلام بإسناده إلى الفقيه ابن المغازلي[3] الواسطي يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى :﴿والسابقون السابقون﴾ قال: سبق

اللبن، وجن الليل : أظلم ، والنبت : طال والتف ، وأجن : فعل تعجب ، أي : شئ عظيم جعل صدري محيطا بالمعاني الغريبة . ويحتمل أن (ما) بدل من (دري) وأجن : فعل ماض صلة أو صفة له .

(١) في النسخة (أ) وليس بالآخر ، وفي (ب) وليس بالوجه ، وهو الصواب ، وفي الكشاف (وليس بذاك) .

قال السيد العلوي قوله : وليس بذاك . أي : ليس بمعمول عليه ؛ لأنه يفوت تلك المبالغة التي سبقت في جعل الخبر نفس المبتدأ ، وتلك المقابلة التي بينه وبين أصحاب الميمنة ، ثم استئناف جملة أخرى على تقدير سؤال سائل عند أولئك . حاشية العلوي خ ٣٠١.

(٢) ولفظ الكشاف : وقد جعل (السابقون) تأكيدا و﴿أولئك المقربون﴾ خبرا وليس بذاك ، ووقف بعضهم على ﴿السابقون﴾ وابتدأ ﴿السابقون أولئك المقربون﴾ والصواب أن يوقف على الثاني ؛ لأنه تمام الجملة ، وهو في مقابلة ﴿ما أصحاب الميمنة﴾ و﴿ما أصحاب المشأمة﴾ . فما بين الأقواس هو من الكشاف ٤٥٨/٤.

(٣) ورواه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل بسند ليس فيه الواسطي عن ابن عباس قال : السباق ثلاثة : سبق يوشع بن نون إلى موسى ، وسبق صاحب ياسين إلى عيسى ، وسبق علي إلى النبي صلى الله عليه وآله ٢١٣/٢ بتحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي .

يوشع بن نون إلى موسى ، وصاحب ياسين إلى عيسى ، وسبق علي إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم اهـ (من الشافي) .

ثم قال عز وجل فيهم :﴿أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ قال الهادي عليه السلام : يخبر أنهم عند الله في القيامة مدنون من كراماته ومن جزيل ثوابه ، مدخلون في جنات نعمته ، وهو تمثيل بمن يقربه الملك في جنات النعيم .

ثم قال تعالى :﴿ ثُلَّةٌ مِنْ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنْ الْآخِرِينَ﴾ قال الهادي عليه السلام : الثلة : فهي الجماعة الصالحة ، فأخبر أن المتقين يكونون ثلة من الأولين ، ويكونون قليلا من الآخرين، ومثل هذا ذكر الحسين بن القاسم عليه السلام قال : ومنه قول الشاعر:

ولست ذليلا في العشيرة كلها يحاول منها ثلة لا يسودها[١]

أي :جماعة ، وقال آخر :

وجاءت إليهم ثلة خندفية بجيش كتيار من السيل مزبد[٢]

وهي من الثل ، وهو الكسر ، كأنها جماعة كسرت من الناس وقطعت منهم لكثرتها ، أي : السابقون ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين .

[قال في التجريد : وهذا خبر ، والمبتدأ محذوف تقديره : السابقون ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين] [٣].

واختلف من المراد بالأولين والآخرين ؟ فقيل : الأولون من تقدم النبي صلى الله عليه وآله من الأنبياء وأممهم ، والآخرون : أمة محمد صلى الله عليه وآله ، والمعنى : أن السابقين من الأمم أكثر من سابقي أمة محمد صلى الله عليه وآله .

---

(١) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام ، في أول هذه السورة .

(٢) يقول : وجاءت إليهم جماعة من الناس منسوبة إلى خندف امرأة إلياس بن مضر ، وقوله : بجيش من باب التجريد ، كأنه انتزع من الثلة جيشا غيرها مبالغة في الكثرة ، ويحتمل أن الباء بمعنى مع ، أو في ؛ لأن الجيش اوسع من الثلة ، وهو من جاش إذا تحرك واضطرب ، كأنه يغلي ، والتيار : الماء الشديد الجري ، ومن : بيانية أو تبعيضية ، والمزبد : المرتفع على وجهه لكثرته وفورانه .

(٣) ما بين قوسي الزيادة ساقط من (أ) وثابت في (ب) .

قال في *البرهان* : يعني بالأولين جماعة كثيرة من قبل خاتم النبيئين ﴿وقليل من الآخرين﴾ أي : جماعة من اللاحقين [المسلمين] القليل عددهم ، لأن من حقق الإسلام مع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله كان قليلا وإن كثروا في المنظر والمرأى [1]. اهـ

ومثل هذا في تفسير *الحسين بن القاسم* عليه‌السلام[2].

وقيل : المراد أولوا أمة محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله ، وبالآخرين آخرهم ، وعنه صلى‌الله‌عليه‌وآله (الثلثان جميعا من أمتي)[3] واختلف هؤلاء فقيل : الأولون أصحاب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ، والآخرون : التابعون ، وقيل : الأولون والآخرون كلهم من أصحاب النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله ، فالأولون : الذين صلوا في القبلتين ، وقيل : الذين أسلموا قبل فتح مكة ، والآخرون : خلافهم على القولين ، ذكره في *التجريد* .

ثم قال تعالى :﴿ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ قال الهادي عليه‌السلام: السرر فهي : السرر المعروفة باسمها ﴿موضونة﴾ فهي : منسوجة معمولة ، وهي سرر تنضد للمؤمنين بالذهب والجوهر

قال في *البرهان* : [والسرر : جمع سرير] وسميت بذلك لأنها مجلس السرور ، والموضونة : المنسوجة بالذهب [القويم اللحمة والسدا][4] لأن التوضين : التشبيك والنسج ،ومنه قول لبيد:

إن يفزعوا فسوابغ موضونة والبيض تبرق كالكواكب لامها[5]

---

(١) ولفظ البرهان : ﴿ثلة من الأولين﴾ أي : جماعة من السابقين الأولين ﴿وقليل من الآخرين﴾ أي : جماعة من الآخرين ، أي : وجماعة من اللاحقين المسلمين القليل عددهم لئن من حقق الإسلام مع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كان قليلا وإن كثروا في المرأى والمنظر . البرهان خ ٣٦٧.

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه‌السلام أول السورة هذه .

(٣) قال صاحب تخريج أحاديث الكشاف هو أحمد بن حجر العسقلاني المتوفى ٨٥٢ هـ في تخريج الحديث : أخرجه الطبري ، وابن عدي من رواية أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال في هذه الآية ﴿ثلة من الأولين وثلة من الآخرين﴾ قال قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم :(هما جميعا من أمتي) وأبان هو ابن أبي عياش متروك ، ورواه إسحاق، وسنده إلى الطيالسي ، وإبراهيم الحربي ، والطبراني من رواية زيد بن صهبان عن أبي بكرة مرفوعا وموقوفا ، والموقوف أولى بالصواب ، وعلي ضعيف . (حاشية الكشاف ٤/٤٥٨، ٤٥٩) .

(٤) ما بين القوسين الأولين موجود في البرهان ، وما بين القوسين الآخرين ليس موجودا في البرهان . (البرهان ٣٦٧)

(٥) في (أ) إن تفرغوا . وفي (ب) إن يفزعوا .

ويحتمل أن يكون بمعنى مظفورة ، ومنه ، وضين الناقة ، وهو البطان العريض المظفور من السيور . اهـ

والوضين : هو الحبل العريض ، والمعنى إنها منسوجة مشبكة بالدر والياقوت متداخلة كحلق الدرع ، ومنه يقال للدرع المنسوجة : موضونة .

ثم قال سبحانه :﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا﴾ أي : مستندين على السرر ، وقوله :﴿عليها﴾ بيان لحالهم في الاستقرار عليها .

ثم وصفهم عز وجل بحسن العشرة ، وحسن الآداب ، وتهذيب الأخلاق فقال : ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ قال *الهادي* عليه‌السلام : معناه فهو بعضهم حذاء بعض .

وقال *زيد بن علي* عليه‌السلام : معناه لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض ، أينما شآؤا تقابلوا . اهـ

ثم قال تعالى :﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ لخدمتهم ﴿وِلْدَانٌ﴾ صبيان أي : غلمان لهم صغار ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ قال *الهادي* عليه‌السلام: المخلدون فهم : الباقون الذين لا يفنون ولا يزولون في الآخرة . اهـ

وقيل : مبقون على شكل الولدان ، وحد الوصافة لا يتحولون إلى كبر ، ومنه قول امرؤ القيس :

وهل ينعمن إلا خلي مخلد قليل الهموم ما يبيت بأوجال[1]

وقيل : مقرطون ، والخلد : القرط من الخلدة ، وهي القرط ، قيل : وهؤلاء الولدان أولاد الكفار الذين ماتوا صغارا ، وفي الحديث (أولاد الكفار خدم أهل الجنة)[2] ذكره في *التجريد* .

---

(١) ذكره أيضا في البرهان ، كما سيأتي قريبا .

(٢) قال في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر : أخرجه البزار والطبراني في الأوسط من رواية عباد بن منصور عن أبي رجاء العطاردي ، عن سمرة بن جندب [قلنا : وسمرة بن جندب غير ثقة عندنا لكثير من الأسباب منها : ما روي أن معاوية بذل له مبلغا من المال جعل يزيده حتى وافق على رواية أن قوله تعالى :﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾ نزلت في عبد الرحمن بن ملجم قاتل أمير المؤمنين عليه‌السلام .وقوله تعالى :﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾ أنها نزلت في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه‌السلام ، فرواهن بعدما أجزل له معاوية العطاء (انظر نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد)] . عودة إلى التخريج :

قوله تعالى :﴿ بِأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب: إناء بلا عروة ولاخرطوم ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع إبريق : إناء له عروة وخرطوم ، ومثل هذا في البرهان[1] .

قال *الهادي* عليه السلام: الأكواب :هي ضرب من آنية الشرب تكون من الجوهر، ومن الدر والياقوت ، يشرب فيها المؤمنون في الآخرة ﴿وأباريق﴾ فهو : الأباريق المعروفة في الدنيا من الصفر ومن الفضة والذهب، يستعملها المتجبرون ، وتكون في الآخرة من الدر والياقوت وأنواع الجواهر .

ثم قال سبحانه :﴿ وَكَأْسٍ﴾ اسم الزجاجة بشرط أن يكون فيها خمر ، وتسمى الخمر نفسها كأسا أيضا .

قال *زيد بن علي* عليه السلام: الكأس الإناء بشرابه ، ولا يسمى [كأسا] إلا به .

وقوله :﴿ مِنْ مَعِينٍ﴾ بيان ما في الكأس ، وصفت بما يوصف به الماء ، لأن خمر الجنة تجري في أنهار كالماء المعين الجاري على وجه الأرض الظاهر للعيون .

ثم قال تعالى :﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي : لا يصيبهم صداع الرأس بسببها ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ نزف الشارب إذا ذهب عقله .

وقال *الهادي* عليه السلام: والنزف : فهو أتقيئ وغير ذلك مما يكون من شراب الخمر فيما ذكر لنا عنها ـــ والله أعلم بأمرها ـــ فقد ذكر لنا أنهم ينزفون من طرفيهم من فوق ومن أسفل إذا شربوها ، ومعنى ﴿ينزفون﴾ فهو : يخرج وينزف ما في بطونهم ، فأخبر الله

قال : سألنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أولاد المشركين فقال : هم خدم أهل الجنة) ورواه البزار من رواية علي بن يزيد بن جدعان والطيالسي والطبراني وأبو يعلى من رواية يزيد الرقاشي كلاهما عن أنس بهذا وأتم منه . انظر تمام كلام ابن حجر في حاشية الكشاف ٤/٤٥٩.

(١) ولفظ البرهان : والمخلدون : المسورون المقرطون ، قال الشاعر :

ومخلدات باللجين كأنما أعجازهن أقاوز الكثبان

ويحتمل وجها ثانيا : أن يكوم المعني الباقون على صغرهم ، ولا يموتون ولا يتغيرون ، قال امرؤ القيس :

وهل ينعمن إلا خلي مخلد قليل الهموم ما يبيت بأوجال

قوله : ﴿بأكواب وأباريق﴾ والأكواب : ما ليس لها عرى ، والأباريق : ما كان لها عرى . البرهان خ ٣٦٧.

تعالى أن خمر الآخرة لا ينزل بشاربها ما ينزل بشارب خمر الدنيا منها من الآفات ، بل خمر الآخرة فيها اللذات والطيبات والصحة والسلامة والنعمة الكاملة. اهـ

ثم قال تعالى :﴿ وَفَاكِهَةٍ﴾ والفاكهة : هي أنواع الثمار ما يتلذذ به ﴿مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ تخيرت الشيء إذا أخذت خياره ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ فيأتي على حسب شهواتهم ومرادهم .

(*الثعلبي*) : في الجنة طير كأعناق البخت تخر بين يدي أحدهم على ألوان مختلفة يأكل مما أراد وبغى ، ويعاد الطائر يرعى في الجنة[1] .

وعن ابن عباس (يخطر على قلبه الطير فيقع ممثلا بين يديه على ما اشتهى ، فيأكل منه حتى تنتهي نفسه ثم يطير) .

قال *الرازي* : ما الحكمة في تقديم الفاكهة على اللحم ؟ أجاب : من وجوه *أحدها* العادة في الدنيا التقديم [للفواكه][2] في الأكل ، وعلى الخصوص عادة أهل الشرب ، وكأن المقصود بيان[حال شرب][3] أهل الجنة .

وثانيها : الحكمة في الدنيا تقتضي أكل الفاكهة أولا ، لأنها ألطف وأسرع انحدارا [وأقل حاجة إلى المكث الطويل في المعدة للهضم][4] ولأن الفاكهة تحرك الشهوة للأكل ، واللحم يدفعها.

وثالثها : أنه تعالى لما بين أن الفاكهة دائمة الحضور [والوجود] واللحم يحضر عند الإشتهاء

---

(١) قال القرطبي في تفسيره : وخرجه الثعلبي من حديث أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم قال :(إن في الجنة طيرا مثل أعناق البخت تصطف على يد ولي الله ، فيقول أحدها : يا ولي الله ، رعيت في مروج تحت العرش ، وشربت من عيون التسنيم ، فكل مني ، فلا يزلن يفتخرن بين يديه حتى يخطر على قلبه أكل أحدها فتخر بين يديه على ألوان مختلفة فيأكل منها ما أراد ، فإذا شبع تجمع عظام الطائر فطار يرعى في الجنة حيث شاء) فقال عمر : يا نبي الله إنها لناعمة ؟ فقال :(آكلها أنعم منها) .

(٢) ما بين القوسين زيادة من الرازي .

(٣) في الأصل (بيان شراب أهل الجنة) وفي الرازي ما أثبتناه .

(٤) ما بين القوسين زيادة من الرازي .

دل هذا على عدم الجوع ، لأن من الفواكه ما لا يؤكل إلا بعد الطعام[١] .

ثم قال تعالى :﴿ وَحُورٌ عِينٌ﴾ قال *الهادي* عليه السلام: الحور هن : الدعج ، والعِين : حسان الأعيان ، فالدعج : هو سواد الحدق مع حسن تقدير الأعيان ، قال الشاعر :

بأعين محورات حور

قال *زيد بن علي* عليه السلام: ويقال : الحور الذي يحار فيه الطرف[٢] . اهـ

وحور : جمع حوراء ، وهي شديدة سواد العين وبياضها مع سعتها ، وعِين : جمع عيناء ، وهي واسعة العين .

قال في *التجريد* : من قرأ بالرفع فالتقدير : ولهم حور . وقيل : هو عطف على ولدان ، ومن قرأ بالجر فالتقدير : ويكرمون بحور لأنه لا يليق عطفه على بأكواب ، لأن الولدان لا يطوفون عليهم بالحور ، ومن قرأ بالنصب فالتقدير : يؤتون حورا [٣].

﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ يريد في صفاء الألوان والبياض ، والمكنون : هو المصون . اهـ

واللؤلؤ : هو الدر المستور في كِنّه ، أي :في الصدفة ، وهي أوعيته ، لأنه رطبا أصفى

إن قال قائل : الكاف للتشبيه ، والمثل حقيقة فيه فلو قال : أمثال اللؤلؤ لكفى فلا حاجة إلى الكاف ؟ قيل له : المشهور أن كلمتي التشبيه تفيدان التأكيد ، أو زيادة في الشبهية ؛

---

(١) ما بين الأقواس من الرازي . والنص منقول منه باختصار وتصرف ٤٩٦/١٠

(٢) لفظ الإمام زيد في تفسيره (وقوله تعالى :﴿وحور عين﴾ فالحور السواد الحدق ، ويقال : الحور الذي يحار فيه الطرف . وقد تقدم .

(٣) قال الزجاج : الرفع أحسن ؛ لأن المعنى : يطوف عليهم ولدان مخلدون بهذه الأشياء ولهم حور . ومن قرأ بالرفع كره الخفض لأنه عطف على قوله يطوف عليهم بأكواب فقالوا : الحور ليس مما يطاف ، ولكنه مخفوض على معنى يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب ينعمون بها ، وكذلك يعطون هذه الأشياء ، ويؤتون حورا عينا (حاشية العلوي)

وقال في إعراب القرآن : ﴿وحور عين﴾ يقرأ بالرفع وفيه أوجه : أحدها ـ هو معطوف على ولدان ، أي : يطفن عليهم للتنعيم لا للخدمة ، والثاني : هو مبتدأ خبره محذوف، أي : لهم حور ، أو وثَم حور ، والثالث : هو خبر لمبتدأ محذوف ، أي : ونساؤهم حور ، ويقرأ بالنصب على تقدير يعطون أو يجازون حورا ، ويقرأ بالجر عطفا على أكواب في اللفظ دون المعنى ؛ لأن الحور لا يطاف بهن ، وقيل : هو معطوف على جنات أي في جنات ، وفي حور ، وعين صفة لحور . إعراب القرآن للدرويش ٤٢٨/٩، ٤٢٩.

لأن المشابهة في الكيفية ، والمماثلة في النوعية ، فيتحقق بهما كل واحد من هذين الأمرين، ولو قال تعالى : أمثال اللؤلؤ المكنون ، لتوهم أن كلا من الحور واللؤلؤ من نوع واحد ، وليس كذلك ، فلا بد من لفظ لا يوهم هذا .

ثم قال تعالى :﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وفي نصبه وجهان ـ *أحدهما* : أنه مفعول له، وهذا ظاهر ، وعلى هذا فيه فائدة ، وهي أن المعنى أن يقول : هذا كله جزاء عملكم ، وأما الزيادة فلا يدركها أحد منكم .

وثانيها : أنه مصدر (لأن الدليل دل على أن كلما يفعل العبد فهو مَجْزِيٌّ) فكأنه قال : تجزون جزاء ، ذكر هذا *الرازي*[1] .

ثم قال تعالى :﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ وهو الكلام القبيح من اللهو والباطل ، والكذب ، وقيل : اللغو سقط الحديث الذي تقضي المرؤة باطراحه ، وتأثيما : ما نسب صاحبه إلى الإثم في الدنيا ، أي : لا يقع منهم كلام ساقط من حقه أن يلغى ، ولا يؤثم بعضهم بعضا﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ يعني يتداعون بالسلام على أحسن الآداب وأبلغها، وأكرم الأخلاق وأطيبها ، وهو استثناء منقطع ، والمعنى : أنهم يفشون السلام بينهم ؛ لأن السلام ليس من جنس اللغو ، تقديره : لكن يسمعون فيها قيلا سلاما سلاما

وقيل : إنه متصل أي :يسمعون كلاما فائقا عظيم الفائدة ، كامل اللذة ، أدناها وأقربها إلى اللغو قول بعضهم لبعض : سلام عليكم ، فلا يسمعون كلاما يقرب إلى اللغو إلا سلاما ، فما ظنك بالذي يبعد عنه ، وفيه من المبالغة ما فيه ، وحينئذ يكون اللغو مجازا ، والاستثناء متصلا.

ولما بين حال السابقين شرع في أصحاب الميمنة من الأزواج الثلاثة ، فقال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ قد مر شرحه ﴿فِي سِدْرٍ﴾ هو شجرة النبق ﴿مَخْضُودٍ﴾ هو اللين الذي لا شوك فيه ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ وهو الموز الذي بعضه فوق بعض ، أي : نضد بالحمل من أعلاه إلى أسفله ، فليست له ساق بارزة ، وعن السدي :

---

(١) التفسير الكبير ٣٩٨/١٠ ، وفي الرازي بدلا عما في القوسين (لأن الدليل دل على أن كلما يفعله الله فهو جزاء) الخ ما ذكره هنا ، وقد تصرف المصنف حتى لا يتوهم نسبة أفعال العباد إلى الله .

هو شجر يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل[١] .

قال في *البرهان* : وروينا عن آبائنا أن أمير المؤمنين *عليا* عليه‌السلام كان يقرأ (وطلع منضود) وهو طلع النخلة قال الشاعر :

بشرها دليلها وقالا غدا ترين الطلح والجبالا[٢]

قال *الرازي* : ما الحكمة في قوله تعالى :﴿في سدر﴾ [وأية نعمة تكون في كونهم في سدر] والسدر من أشجار البوادي لا يمر [ولا يحلو] ولا يطيب[٣] ؟ ! قال : فيه حكمة بالغة وهي أنا قد بينا [مرارا] أن البليغ[٤] يذكر طرفي أمرين يتضمن ذكرهما الإشارة إلى جميع ما بينهما ، كما يقال : فلان ملك الشرق والغرب ، ويفهم منه أنه يملكهما وما بينهما ، فنقول : لا يخفى أن بين المواضع التي يتفرج فيها بالأشجار ، وتلك الأشجار تارة يطلب منها نفس الورق والنظر إليه والاستظلال [به] ، وتارة يقصد إلى ثمرها ، وتارة يجمع بينهما لكن الأشجار أوراقها على أقسام كثيرة ، ويجمعها نوعان أوراق صغار ، وأوراق كبار ، والسدر في غاية الصغر [والطلح : وهو شجر الموز في غاية الكبر ، فقوله تعالى :﴿في سدر مخضود وطلح منضود﴾ إشارة إلى ما يكون ورقه في غاية الصغر][٥] من الأشجار ، وإلى ما يكون ورقه في غاية الكبر منها فيكون إشارة إلى الطرفين ، جامعة لجميع الأشجار ولأوراقها ، ونظيره في الذكر ذكر النخل والرمان عند القصد إلى ذكر الثمار[٦].

---

(١) رفع ثمر لأن لكن مخففة ، فهي مهملة .

(٢) نسبه في إعراب القرآن إلى بعض الحداة ٤٣١/٩ وفي التبيان إلى الحارثي ، وذكر في حاشية التبيان أنه ورد في القرطبي ٢٠٨/١٧، ومجاز القرآن ٢٥٠/٢. انظر التبيان ٤٩٦/٩،

(٣) في الأصل (لا ثمر ، ولا رطب) وفي الرازي ما أثبتناه .

(٤) في الرازي (البليغ) وفي الأصل المنقول عليه هذا التفسير (الضليع) وهو المتضلع في الأمور المتعمق في معرفتها .

(٥) ما بين قوسي الزيادة ساقط من أصل المصابيح ، وثابت في تفسير الرازي . وكأن المحذوف من باب ما يقال غلطة نبيه ، حيث الحذف من قوله :(في غاية الصغر إلى قوله : في غاية الصغر) .

(٦) النص منقول من الرازي بتصرف ، وما بين الأقواس من الرازي ٤٠٤/١٠، وقد ذكرناها ليتم في بعضها المعنى .

ثم قال تعالى :﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ زمانا ، أي : لا زوال له فهو كما قال تعالى :﴿أكلها دائم وظلها﴾ .

وقوله تعالى :﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ فيه وجهان *أحدهما* : مسكوب من فوق ، *وثانيهما* : جار في غير أخدود ؛ لأن الماء المسكوب يكون جاريا في الهواء [1].

ثم لما ذكر الأشجار التي يطلب ورقها ذكر بعدها الأشجار التي يقصد ثمرها فقال تعالى : ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَا مَقْطُوعَةٍ﴾ أي : لا مقطوعة اللذة بالقيام والعدم كفواكه الدنيا دائمة لا تنقطع ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ من اليد بشوك أو بعد ، أولا تمتنع عن متناولها بوجه ، ولا يحضر عليها ما يحضر على فواكه الدنيا ، ولا يجعل عليها حوائط كبساتين الدنيا .

قال *الرازي* : وفيه مباحث *الأول* : في تقديم الأشجار المورقة على غير المورقة، يقول : هذا بطريقة الارتقاء من نعمة إلى ذكر نعمة فوقها ، والفواكه أتم نعمة [2].

الثاني : ما الحكمة في ذكر الأشجار المورقة بأنفسها ،وذكر الأشجار المثمرة بثمارها [3] ؟

يقول : أما الأوراق فحسنها عند كونها على الشجر (وأما الثمار فحسنها بحسب نفسها على الشجر ، أو على غير الشجر بعد القطع) [4] .

الثالث : ما الحكمة في وصف الفاكهة بالكثرة لا بالطيب واللذة ؟ يقول : لفظ الفاكهة يدل على الطيب واللذة ، ولهذا تسمى الحكاية الطيبة اللذيذة : فاكهة القوم ، وأما الكثرة فقد مر ، قلت : يعني في سورة ص فإنه قال [5]هناك في معنى قوله تعالى :﴿يدعون فيها بفاكهة كثيرة﴾: السبب في ذكر هذا المعنى أن ديار العرب حارة قليلة الفواكه والأشربة فرغبهم الله فيه .

---

(١) زيادة في الرازي بعد قوله : يكون جاريا في الهواء [والأنهار هناك]

(٢) اللفظ في الرازي : المسألة الأولى : ما لحكمة في تقديم الأشجار المورقة على غير المورقة يقول : هي ظاهرة ، وهو أنه قدم الورق على الشجر على طريقة الارتقاء ، وقد ذكرها المصنف بالمعنى .

(٣) اللفظ في الرازي (وذكر أشجار الفواكه بثمارها) .

(٤) ما بين القوسين منقول بتصرف ، والمعنى واحد ، وعبارة الرازي : وأما الثمار فهي في أنفسها مطلوبة سواء كانت عليها أو مقطوعة .

(٥) الضمير في (قلت) للمؤلف الشرفي ، وفي (قال) للرازي .

ثم قال سبحانه :﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ جمع فراش وهي البسط والحشايا ، وقرئ بسكون الراء شاذة تخفيفا ، وهي الفرش الرفيعة المقدار التي رفعها الله على الأسرة للأبرار ، وقيل : مرفوعة نضدت أي : جعل بعضها فوق بعض حتى ارتفعت ، وقيل : هن النساء ؛ لأن المرأة يكنى عنها بالفراش ، مرفوعة على الأرائك ، قال الله تعالى :﴿هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾[1] ويدل عليه ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ أي :الزوجات ، وإن لم يتقدم لهن ذكر ؛ لأن ذكر الفراش دل عليهن .

قال في *التجريد* : فعاد الضمير إلى الفراش [2] والمراد بالمنشآت الزوجات ، وفي رفعهن وجوه *أحدها* : أنهن مرفوعات فوق الأرائك ، *وثانيها* : مرفوعات بالجمال على نساء الدنيا ، *وثالثها* : مرفوعات عن الأدناس . اهـ

ومعنى ﴿أنشأناهن﴾ أي :ابتدأنا خلقهن ابتداء من غير ولادة ، فإما أن يريد اللاتي ابتدئ خلقهن وإنشاؤهن ، أو اللاتي أعيد إنشاؤهن ، وعنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن أم سلمة سألته عن هذه الآية فقال : (يا أم سلمة هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شمطا رمصا جعلهن الله بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد في الاستواء كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارا)[3] .

---

(١) يس : ٥٦

(٢) قال السيد العلوي : قال أبو البقاء : ﴿أنا أنشأناهن﴾ الضمير للفرش ؛ لأن المراد بها النساء ، ويكون قوله : ﴿لأصحاب اليمين﴾ مظهرا أقيم مقام الضمير للإشعار بالغلبة ، أو أعيد للطول . حاشية العلوي ٣٠٢.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤٦٢/٤، وفيه زيادة ولفظه في الكشاف (يا أم سلمة هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شمطا رمصا جعلهن الله بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد في الاستواء ، كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارا، فلما سمعت عائشة ذلك من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله قالت : وا وجعاه ، فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : ليس هناك وجع) . قال في التخريج : أخرجه الثعلبي بتمامه من طريق الحسن بن علوية القطان عن إسماعيل بن عيسى ، عن المسيب بن شريك فذكره ، ولم يرفع إلا قصة عائشة ، ومن طريق غنجار : حدثنا إسماعيل بن أبي الباد عن يونس ، عن الحسن ، عن أم سلمة مرفوعا دون قصة عائشة ، وروي الطبري وابن مردويه من طريق عمر بن هاشم البيروتي ، عن سليمان بن أبي كريمة ، عن هشام عن الحسن عن أم سلمة قالت : قلت يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى :﴿عربا أترابا﴾ فذكره ، وفيه (فجعلهن عذارى عربا متعشقات متحببات إلى أزواجهن ، أترابا على ميلاد واحد) وروى الترمذي من طريق موسى بن عبيدة ، عن يزيد الرقاش طرفا منه ، واستضعفه .

وعنه صلى الله عليه وآله (يدخل أهل الجنةِ الجنةَ جرداً مرداً بيضاً جعاداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين سنة)[١] .

ثم وصف تعالى ما أعطاهم من الحور العين فقال :﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارا ؛ لأن البكارة في الآخرة على خلاف الأبكار في الدنيا ، إذ البكارة لازمة للأبكار في الآخرة ، فالبكر بكر كل مرة .

قوله :﴿عُرُبًا﴾ جمع عروب ، وهي المتحببة إلى زوجها بالتبعل ﴿أَتْرَابًا﴾ مستويات في السن ، بنات ثلاث وثلاثين سنة ، وكذلك أزواجهن .

واللام في ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ من صلة أنشأنا وجعلنا ، أي : أنشأناهن لأصحاب اليمين

وقال *الحسين بن القاسم* عليه السلام: الأبكار هن ذوات الشباب وحداثة الأسنان ، قال الشاعر :

سوى أن للبكر الغريرة بهجة ... بها فضلت عندي وطيب مزاج

والعروب : هن العاشقات لأزواجهن المستقلات للحديث إليهم قال الشاعر :

يعرين عند بعولهن إذا خلوا ... وإذا هُمُ خرجوا فهن خفار

وفي *البرهان* (العرب : المتحننات على أزواجهن ، المتحببات إليهم ، واحدها عروب قال الشاعر :

وفي الخباء عروب غير فاحشة ... ريا الروادف يعشي دونها البصر[٢]

﴿أترابا﴾ أي : أمثالا في الخلق والأخلاق لا تباغض بينهن ولا تحاسد . اهـ

ثم قال تعالى :﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ من الأمم الماضية ﴿ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ من هذه الأمة، يعني أصحاب اليمين نصفان نصف من الأمم الماضية ، ونصف من هذه الأمة، وقد

---

(١) ذكره في الكشاف ٤/٤٦٢ ، وقال ابن حجر في تخريجه : أخرجه أحمد وابن أبي شيبة ، وأبو يعلى ، والطبراني في الأوسط من رواية حماد بن سلمة عن علي بن زيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة بهذا . وزاد (على خلق آدم ستون ذراعا عرض سبعة أذرع) وذكر ابن أبي حاتم في العلل أن أباه قال : رواه أبو سلمة عن حماد مرسلا ، و لم يذكر فيه أبا هريرة ، وكذا أخرجه ابن سعد عن يحي بن السكن ، عن حماد ، وعلي بن زيد ضعيف ، وفي الباب عن معاذ بن جبل ، أخرجه الترمذي ، وقال : غريب ، وبعض أصحاب قتادة أرسلوه ، وأخرجه البيهقي موصولا ، ثم أخرجه موقوفا على قتادة .

(٢) ذكره الطوسي في التبيان ونسبه إلى لبيد ، فقال : وقال لبيد : وفي الحدوج عروب غير فاحشة .. الخ البيت وذكر أنه استشهد به في إعجاز القرآن ٢/٢٥١، والقرطبي ١٧، ٣١١ . انظر التبيان ٩/٤٩٧.

وقد مر تفسير الثلة ، والخلاف في المراد من الأولين والآخرين .

ثم رجع إلى ما أعد لأصحاب الشمال من السموم والنكد والعذاب والنكال فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ فأما الشمال فيخرج في اللغة على وجوه منها [الوجه الأول]: أن يكون ضرب لهم مثلا بتعسير الشمال كما ضرب المثل باليمين ؛ لأن اليمين يمن وبركة وتيسير ، والشمال ضعف وعسر وتعسير ، قلت : وهذا هو الذي ذكره *الهادي* عليه‌السلام .

[الوجه الثاني] ومن ذلك ما يمكن أن يكون من حشر المتقين إلى اليمين ، وحشر الكافرين إلى الشمال .

والوجه الثالث : أن يكون سماهم لأخذهم كتبهم في الشمال ، وقد قيل : إن الكتاب مثل من الأمثال ، وكل ذلك يمكن في اللفظ والمقال . قاله الحسين بن القاسم عليه‌السلام .

ثم أخبر سبحانه أنهم ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ والسموم : حر نار ينفذ في المسام ، وهي خروق الأعضاء كسم الأذنين ، والمنخرين ، والعرب تسمي الرياح إذا هبت بالحر سموما قال الشاعر : اليوم يوم بكرت سمومه

والحميم : هو الماء الحار المتناهي حره .

إن قيل : ما الحكمة في ذكر السموم والحميم ، وترك ذكر النار وأهوالها ؟ قيل له : فيه إشارة بالأدنى إلى الأعلى ، فقال : هواؤهم الذي يهب عليهم سموم ، وماؤهم الذي يستغيثون به حميم [مع أن الهواء والماء أبرد الأشياء وهما أي :] السموم والحميم من أحر الأشياء بخلاف الهواء والماء في الدنيا فإنهما من أنفع الأشياء [فما ظنك بنارهم التي هي عندنا أيضا أحر] ولو قال : هم في نار ، كنا نظن أن نارهم كنارنا ، لأن ما رأينا شيئا أحر من التي رأيناها[1] .

﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾ هو الدخان الأسود الشديد السواد ، ذكر معناه زيد بن علي عليه السلام وغيره . وقيل : جبل في جهنم يستغيثون بظله ، وهو نار ؛ لأنه في جهنم .

---

(١) ما بين الأقواس من تفسير الرازي ٤٠٩/١٠، وقد صححنا اللفظ أيضا منه .

ومن في قوله :﴿من يحموم﴾ إن قلنا : إنه حميم جهنم فهي لابتداء الغاية ، وإن قلنا : إنه دخان فهي للبيان ، وإن قلنا : إنه الظل فكذلك .

ثم قال تعالى :﴿ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي : لا بارد المدخل ، ولا كريم المنظر ، نفى عنه صفتي الظل وهما برده ونفعه وراحته ، أي : هو ظل حار مؤذ ، ليس ببارد ولا طيب ، والكرم : هو اللين والطيب ، فدل بذلك على غلظه وشدة حره ويبسه[١].

وقال *ابن الجوزي* : العرب تجعل الكريم تابعا لكل شئ نفت عنه صفة ذم فتقول : ما هذه الدار بواسعة ولا كريمة ، وما هذا بسمين ولا كريم [٢].

ثم قال تعالى :﴿ إِنَّهُمْ﴾ أي : أصحاب الشمال ﴿كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ العذاب في الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ﴾ متكبرين ، وقيل : متنعمين أترفتهم النعمة فأبطرتهم ـ إشارة إلى إنكار الحشر ـ لا يظن أن الإتراف من حيث هو إتراف يكون قبيحا ، لكن ذلك من قبيح ما ذكر عنه بعده وهو قوله :﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ .

قال *زيد بن علي* عليه‌السلام: معناه يقيمون ويديمون على الإثم العظيم ، ويقال : هي اليمين الغموس ، ويقال : على الشرك . اهـ

---

(١) قوله : فدل بذلك على غلظه وشدة حره . قال السيد العلوي (تعقيبا على ورود النفي وأنه أبلغ من الإثبات) : أراد أن يكون أبلغ في إثبات الحر والضر له من حيث أن يدل عليهما حينئذ بطريق الكناية ، وقيل : كان من حق الظاهر أن يقال : وظل حار ضار ، فعدل إلى قوله :﴿وظل﴾ ليتبادر منه إلى الذهن أولا الظل المتعارف فيطمع السامع ، فإذا نفى عنه ما هو المطلوب من الظل وهو البرد والاسترواح جاءت السخرية والتهكم ، والتعريض بأن الذي يستأهل الظل الذي فيه برد وإكرام غير هؤلاء ، فيكون أشجى لحلوقهم ، وأشد لتحسرهم . حاشية العلوي ٣٠٢. وذكر في إعراب القرآن ٤٣٦/٩ بأن في قوله :﴿لا بارد ولا كريم﴾ فن الاحتراس ، وهنا فإنه لما قال :﴿وظل من يحموم﴾ أوهم أن الظل ربما جلب لهم شيئا من الراحة بعد التعب .... ثم قال : كما أن فيه فن التعريض ، وهو أن الذين يستأهلون الظل الذي فيه برد وإكرام غير هؤلاء . وهذا هو ما ذكره السيد العلوي رحمه الله .

(٢) زاد المسير في علم التفسير ط المكتب الإسلامي لابن الجوزي ، والنص فيه : والعرب تجعل الكريم تابعا لكل شيئ نفت عنه فعلا ينوي [به] الذم فتقول .. الخ ما ذكره المصنف ، واللفظ الذي نقله المصنف هو الصواب ، ولذا لم نثبت نص زاد المسير . لأن العرب تصف به من لا يمكن منه النية .

وقوله :﴿وكانوا يصرون على الحنث العظيم﴾ فيه مبالغة [من وجوه] لأن (كانوا يصرون) آكد من قوله : كانوا أصروا لأن الإجماع من لفظي الماضي والمستقبل يدل على الاستمرار ، وثانيها : لفظ الإصرار ، إذ الإصرار مداومة المعصية ، وثالثها : الحنث فإنه فوق الذنب ؛ لأنه لا يكاد في اللغة يقع على الصغير[1]، ورابعها : العظيم .

قوله تعالى :﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ من البلى وعظاما بالية ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ إشارة إلى إنكار الحشر والنشر بعد الموت ، فأتوا بالكلام على طريقة الاستفهام بمعنى الإنكار ، وأشاروا في الإنكار إلى أمور اعتقدوها لصحة إنكارهم فقالوا أولاً:﴿أئذا متنا﴾ و لم يقتصروا عليه بل قالوا :﴿وكنا ترابا وعظاما﴾ أي: فطال عهدنا بعد كوننا أمواتا حتى صارت اللحوم ترابا وعظامنا رفاتا ، ثم زادوا وقالوا : ﴿أئنا لمبعوثون﴾ بطريقة التأكيد من ثلاثة أوجه أحدها : استعمال كلمة إن ، وثانيها : إثبات اللام [في الخبر] وثالثها : الإتيان بالمفعول كأنه كائن ، فقالوا :﴿أئنا لمبعوثون﴾ ثم زادوا وقالوا :﴿أو آباؤنا الأولون﴾ معناه : أو نقول أو آباؤنا الأولون إشارة إلى أنه الإشكال الأعظم .

ثم إنه تعالى أجابهم ، ورد عليهم بالمبالغة في كل مرتبة أتوا بالمبالغة [فيها] كما مر فقال : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ أي : إلى وقت معروف مفهوم ، أي :إلى ما وقتت به الدنيا من يوم القيامة ، والميقات : ما وقت به الشيء إلى حد ، ومنه : مواقيت الإحرام ، وهي الحدود وقوله :﴿قل﴾ إشارة إلى أن الأمر في غاية الظهور ؛ لأن معناه أن هذا من جملة الأمور التي بلغت في الظهور إلى حد يشترك فيه العوام والخواص ، وعلى هذا في كل موضع قال [فيه] :﴿قل﴾ .

وثانيها : قوله تعالى :﴿إن الأولين والآخرين﴾ بتقديم الأولين على الآخرين في جواب قولهم :﴿أو آباؤنا الأولون﴾ فإنهم أخروا ذكر الآباء لكون الاستبعاد فيهم أكثر ، فقال :

---

(١) والذنب يقع عليها ، فلهذا كان فوقه . وقوله : ورابعها : العظيم ، أي : وصفه بالعظيم يدل على عظم هذا الذنب ومثل هذا الكلام في الرازي ، و لم يجعل الرابع من أوجه المبالغة ، بل جعله مسألة مستقلة يدل على الشرك . وانظر الرازي ١٧١/٢٩.

﴿إن الأولين﴾ الذين تستبعدون بعثهم وتؤخرونهم يبعثهم الله في أمر مقدم على الآخرين، يتبين منه إثبات حال من أخرتموه مستبعدين ، إشارة إلى كون الأمر هينا] [١]

وثالثها : قوله تعالى :﴿لمجموعون﴾ فإنهم أنكروا قوله :﴿لمبعوثون﴾ فقال : هو واقع مع أمر زائد وهو أنهم يحشرون ويجمعون في عرصة الحساب ، وهذا فوق البعث .

ثم قال تعالى :﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ﴾ عن الهدى ﴿الْمُكَذِّبُونَ﴾ بالبعث ، يعني أهل مكة ومَنْ حالُهُ مثلُ حالهم ﴿لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ﴾ في جهنم ، و(من) لابتداء الغاية ، وقوله :﴿ مِنْ زَقُّومٍ﴾ (من) لبيان الشجرة وتفسير له ، وهو طعام أهل النار ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ من الشجر لأنها جمع شجرة [٢] في المعنى .

﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي : على الشجر ، ذكَّره لأن لفظه مذكر [٣]﴿مِنَ الْحَمِيمِ﴾ الماء المتناهي حره ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ أي :شرب الإبل الهيم : جمع أهيم وهيماء ، وهي الإبل التي بها الهيام ، والهيام : داء حار يأخذ الإبل قال الشاعر:

إذا ما سقى الله البلاد بلادا   تسمى برح من أرض.ختعما
سقيت بها نضوي ورويت قربتي   فأصبحت محموما وأصبح أهيما

وهو يحدث عطشا فلا تزال الإبل تشرب الماء حتى تموت ، قال قيس بن الملوح :

يقال به داء الهيام أصابه   وقد علمت نفسي مكان دوائيا

---

(١) ما بين القوسين سقط من الأصل بين الأول ، وهو : قوله ﴿قل﴾ .. الخ والثالث ، وليس موجودا في النسخ التي بين يدينا ، ولما كان الكلام مثله في الرازي بألفاظ متقاربة ، نقلنا ما بين القوسين من الرازي ليتم ما أراده المصنف رحمه الله انظر الرازي ٢٩/١٧٢، ١٧٣.

وزاد الرازي وجهين آخرين فقال : رابعها : قوله تعالى :﴿إلى ميقات يوم معلوم﴾ فإنه يدل على أن الله تعالى يجمعهم في يوم واحد معلوم ، واجتماع عدد من الأموات لا يعلم عددهم إلا الله في وقت واحد أعجب من نفس البعث ... خامسها : حرف (إلى) أدل على البعث من اللام ...إلى آخر كلامه .

(٢) في الأصل : جماعة شجر ، وفي العلوي : جمع شجرة ، فأثبتنا ما في العلوي .

(٣) أي أنه أنث ضمير الشجر على المعنى ، وذكره على اللفظ ، لأنه في المعنى جمع شجرة ، وإن كان مفرد اللفظ ، وقال في الانتصاف: لو أعاده على الشجر باعتباره مأكولا ، لكونه قال :﴿لآكلون فشاربون عليه﴾ أي : على أكلهم لكان أحسن (علوي)

قال *الرازي* : ومآل الأقوال في الزقوم[1] إلى كون ذلك في الطعم مرّارا ، وفي اللمس حارا وفي الرائحة منتنا ، وفي المنظر أسود .. ثم قرن بالأكل ليدل على أنه طعام ذو عقاب وقوله :﴿فمالئون منها البطون﴾ زيادة في بيان العذاب ، والهاء عائدة إلى الشجر ، و﴿فشاربون شرب الهيم﴾ بيان لزيادة العذاب أيضا .

ثم أخبر تعالى عن رزقهم وطعامهم فقال عز وجل:﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء، أي : طعامهم وشرابهم الذي ينزلون عليه ، ويصيرون بما قدموا إليه ، والنزل : الرزق الذي يعد للضيف النازل تكرمة له ، وفيه تهكم بهم نحو﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ وليس هذا كل العذاب ، بل هذا أول ما يلقونه ، وما بعده أفظع منه .

ثم قال تعالى :﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي :هلا تصدقون بالخلق الثاني ، وهو البعث ، حثهم على التصديق به ؛ لأن من خلق أولا لم يمتنع أن يخلق ثانيا قال الشاعر :

فلولا قتلتم مالكا بسميه ولم تتركوه والرماح دوامي

يريد : فهلا قتلتم مالكا . فمعنى لولا : التحضيض والحث ، ولولا مركبة من كلمتين ، والأصل فيه لم ، ولا ، وهي كلمة شرط في الأصل ، فلولا تصدق معناه ، لم لا ؟ وهلا ؛ لأنه دل على نفي ما دخل عليه ، وهو عدم التصديق[2] ويجوز أن يراد : فلولا تصدقون أنا خلقناكم ، وهم وإن كانوا مقرين أن الله خلقهم فهم في الحكم غير مقرين بذلك

---

(١) ما بين القوسين من أصل هذا التفسير ، واللفظ الثابت في الأصل لهذا التفسير : وأقوى الأقوال في الزقوم كون ذلك في الطعم مرا . فأثبتنا ما في الرازي ، وذلك ليناسب قوله : إلى كون ذلك ، فإنه يناسب ومآل ، ولا يناسب أقوى ، وهذا الكلام منقول من الرازي بتصرف إلى قوله :بيان لزيادة العذاب أيضا . انظر الرازي ٢٩/١٧٤، ١٧٥.

(٢) مثل هذا الكلام في الرازي ، ٢٩/١٧٦، قال الرازي : والأصل فيه : لم لا ، فإذا قلت : لم لا أكلت ؟ ولم ما أكلت ؟ جاز الاستفهامان فإن معناه : لا علة لعدم الأكل ، ولا يمكنك أن تذكر علة له . كما تقول : لم فعلت ؟ موبخا ... ثم قال : ثم إنهم تركوا حرف الاستفهام عن العلة ، وأتوا بحرف الاستفهام عن الحكم ، فقالوا : هلا فعلت ... ثم قال : وفيه زيادة حث لأن قول القائل لم فعلت ؟ حقيقته سؤال عن العلة ، ومعناه : أنه في جنسه غير ممكن ... ثم قال: وأما لولا فنقول : هي كلمة شرط في الأصل والجملة الشرطية غير مجزومة ، كما أن جملة الاستفهام غير مجزوم به ، لكن لولا تدل على الاعتساف ، وتزيد نفي النظر والتواني ، فيقول : لولا تصدقون ، بدل قوله لم لا ، وهلا لأنه أدل على نفي ما دخلت عليه وهو عدم التصديق .

لإنكارهم البعث ، ومن حق من أقر بأن الله خلق ابتداء أن يقر بأنه قادر على الإعادة .
ثم قال سبحانه :﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ أي :فأخبروني عما تمنون ، أي : تصبونه في الأرحام من المني ، والمني: النطفة التي تنزل من الأصلاب فتقذف في أرحام النساء ، يقال: أمنى النطفة ومناها ﴿أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ أي : أنتم تخلقونه بشرا تقدرونه وتصورونه ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ المقدرون له خلقا بعد خلق في الأرحام ، لأنه تعالى لما قال :﴿نحن خلقناكم﴾ قال المشركون : خلقنا من النطف كما قال به الطبيعيون فقال الله تعالى ردا عليهم : هل رأيتم النطفة جسما صغيرا ، ولا يكون له خالق ، وذلك الخالق غير مخلوق ، وإلا لدار أو تسلسل ، والكل باطل .
ثم قال تعالى : ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ قال في البرهان : يعني سوينا في الموت بين المطيع والكافر ، وقدرناه تقديرا ، ودبرناه للحكمة تدبيرا [1]. اهـ
وقيل : قسمناه عليكم قسمة على اختلاف وتفاوت كما تقتضيه مشيئتنا وحكمتنا ، فاختلفت أعماركم من قصير وطويل ومتوسط ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي :بعاجزين في أن يسبقنا في فعلنا أحد ، سبقه على الشيء : أعجزه عليه فلم يمكنه منه ، أراد أنا قادرون ﴿عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ أي : نهلككم فنستأنف خلقا غيركم ، أي : نحن قادرون على أن نبدل مكانكم أشباهكم من الخلق ولا تغلبوننا على ذلك ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾ أي : نبتدئكم ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي : في وقت لا تعلمون به ، قاله في البرهان[2] .
قال في *التجريد* : معناه أنا قادرون على تبديل أمثالكم ، وأمثال : جمع مِثْل بمعنى نظير وشبه ، أي : نخلق خلقا أمثالكم بدلا منكم ، وعلى أن ننشئكم في خلق وصور لا تعلمونها ، وما عهدتم بمثلها ، يريد أنا قادرون على الأمرين جميعا ، فكيف نعجز عن

---

(١) انظر البرهان ٣٦٧ ، وهنا زيادة على ما في نسخة البرهان التي بين أيدينا من قوله : وقدرناه .. إلى قوله : تدبيرا ، وقد أضفناها في النسخة المخطوطة للبرهان ، وذكرنا نسبة التصحيح إلى المصابيح .

(٢) ولفظ البرهان : ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ أي : بعاجزين في أن يسبقنا في فعلنا أحد ﴿على أن نبدل أمثالكم﴾ أي : نهلككم ونستأنف خلقا غيركم ﴿وننشئكم في مالا تعلمون﴾ أي : في وقت لا تعلمون به . انظر البرهان ٣٦٧

إعادتكم ، ويجوز أن يكون ﴿أمثالكم﴾ جمع مِـثْل[1] بمعنى : صفة . [أي] نغير صفاتكم التي أنتم عليها ، وننشئكم في صفات لا تعلمونها ، قال الحسن : نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بما كان قبلكم .اهـ

ثم قال تعالى :﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ تقريرا لإمكان النشأة الثانية ، وقال :﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ذلك ، ثم قال تعالى :﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ من الأرض وتلقون فيه من البذر والحرث : إثارة الأرض وإلقاء البذر فيها ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ أي :تنبتونه ، وتردونه نباتا ، وينمى إلى أن يبلغ الغاية ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ ذكر بعد دليل الخلق دليل الرزق فقوله تعالى :﴿أفرأيتم ما تمنون﴾ إشارة إلى دليل الخلق ، وبه الابتداء و ﴿أفرأيتم ما تحرثون﴾ إشارة إلى دليل الرزق ، وبه البقاء ، وذكر أمورا ثلاثة : المأكول ، والمشروب ، وما به صلاح المأكول ، ورتبه ترتيبا فذكر المأكول أولا ؛ لأنه هو الغذاء ، ثم المشروب ؛ لأن به الاستمرار ، ثم النار التي بها الإصلاح ، وذكر من كل نوع ما هو الأصل ، فذكر من المأكول الحب ، وهو الأصل ، ومن المشروب الماء كذلك ، ومن المصلحات النار ؛ لأن بها إصلاح أكثر الأغذية وأعمها ، ودخل في كل واحد منها ما هو دونه .

والفرق بين الحرث والزرع هو أن الحرث أول الزرع ومقدماته على ما عرف ، والزرع : هو أواخر الحرث من خروج النبات واستغلاظه ، واستوائه على الساق[2] قال المبرد : زرعه الله : أنماه وعنه صلى الله عليه وآله :(لا يقل أحدكم : زرعت ، وليقل : حرثت)[3].

---

(١) قال السيد العلوي : قوله : ويجوز أن يكون ﴿أمثالكم﴾ جمع مثل : هو عطف على قوله : جمع مثل بمعنى نظير وشبه : اعلم أنه قد سبق غير مرة أن التبديل : التغيير ، فيجوز تبديل الذات وتبديل الصفات ، وأن المثل بمعنى النظير ، وبمعنى الصفة ، والتفسير الأول مبني على تبديل الذات وعلى أن المثل بمعنى النظير ، والثاني على تبديل الصفات ، وعلى أن المثل بمعنى الوصف .

(٢) من قوله : ثم قال تعالى :﴿ولقد علمتم النشأة الأولى﴾ إلى هنا مثله في الرازي ، وهو هنا باختصار عما في الرازي ١٨٠/٩ ، ١٨١.

(٣) في تفسير ابن كثير : قال ابن جرير : وقد حدثني أحمد بن الوليد القرشي ، حدثنا مسلم بن أبي مسلم الجرمي ، حدثنا مخلد بن الحسين ، عن هشام بن محمد ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (لا تقولن

ثم قال تعالى :﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ الحطام : الهشيم الهالك ، الذي لا ينتفع به ، قد تحطم وييبس ولا حب فيه .

قال الرازي : وهو تدريج في الإنبات ، وبيانه : هو أنه لما قال :﴿أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ لم يبعد [1] عن معاند أن يقول : هو بنفسه يصير زرعا لا بفعلنا ، ولا بفعل غيرنا ، فقال تعالى : هب أنا سلمنا هذا الباطل [2] ولكن كيف تقولون في سلامته عن الآفات [فيفسد] قبل اشتداد الحب ، وقبل انعقاده ، وقبل ذلك [3] ومن تأمل حق التأمل وترك العناد علم أن دفع الآفات بإذن الله تعالى وحفظه عنها بإذن الله ، وعلى هذا ذكر في القرآن أمورا مرتبة [4] فالأول للمهتدين ، والثاني : للظالمين ، والثالث : للمعاندين الضالين ، فيذكر الأمر الذي لاشك فيه في آخر الأمر إقامة للحجة على الضال المعاند [5].

ثم قال تعالى :﴿ فَظَلَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي :فظللتم ، فحذف أحد اللامين ، ومعنى تفكهون : تحدثون وتعجبون ، وقيل : تندمون على بغيكم فيه ، أو على معاصيكم التي من أجلها أصبتم به .

﴿إنا﴾ أي : يقولون ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي : لملزمون غرامة ما اتفقنا ، أو لمهلكون بالجوع لهلاك رزقنا [6] من الغرام وهو الهلاك .

زرعت ، ولكن قل : حرثت) قال أبو هريرة : ألم تسمع إلى قوله تعالى :﴿أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ ورواه البزار عن محمد بن عبد الرحيم ، عن مسلم الجرمي به . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد عن عطاء ، عن أبي عبد الرحمن : لا تقولوا زرعنا ، ولكن قولوا : حرثنا .

(١) في الأصل : ولا يبعد ، وفي الرازي لم يبعد .

(٢) في الرازي : ولو سلم لكم هذا الباطل فما تقولون .. الخ .

(٣) في الرازي : أو قبل اشتداد الحب ، وقبل ظهور الحب فيه ، فهل تحفظونه منها ، أو تدفعونها عنه ، أو هذا الزرع بنفسه يدفع عن نفسه تلك الآفات ، كما تقولون : إنه بنفسه ينبت ، ولا يشك أحد أن دفع الآفات بإذن الله تعالى ، وحفظه عنها بفضل الله ، وعلى هذا أعاده فليذكر أمورا مرتبة بعضها على بعض فيكون الأمر الأول للمهتدين .. الخ ما هنا

(٤) لفظ الرازي (وعلى هذا ذكر في القرآن أمورا مرتبة بعضها على بعض ، فيكون الأمر الأول للمهتدين .. الخ ما هنا

(٥) انظر الرازي ١٨١/٢٩ ، وقد نقله المصنف بتصرف يسير ، وحَذَفَ بعضا من ألفاظ الرازي .

(٦) في الكشاف (لهلاك زرعنا) . قال السيد العلوي رحمه الله تعالى : وقيل : لو قال : أو مهلكون لما ارتكبنا من المعاصي ؛ لأن المعاصي من المهلكات كان أليق . حاشية العلوي ٣٠٣.

وفي البرهان : ﴿إنا لمغرمون﴾ أي : لمعجبون قال الشاعر :

وثقت بأن الحفظ مني سجية ... وأن فؤادي مبتلى بك مغرم

وقد يكون المغرم بمعنى : المولع قال الشاعر

سلا عن تذكّره تكتُّما ... وكان رهيناً بها مغرماً[1]

وقال *الحسين بن القاسم* عليه السلام: معنى ﴿إنا لمغرمون﴾ أي :معذبون قال الشاعر:

وما أكلة إن نلتها بغنيمة ... ولا جوعة إن جعتها بغرام

[أي : بعذاب][2]. وأصل الغرم والغرام : لزوم المكروه .

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ ممنوعون من الرزق ، ولا حظ لنا .

ثم قال تعالى :﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ جمع مزنة ، وهي السحابة[3] وقيل : هو السحاب الأبيض خاصة ، وهو أعذب ماء ، خصه بالشرب لأنه ألطف وأنظف ، أو تذكيرا بالإنعام عليهم .

ثم قال سبحانه :﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ والأجاج : الملح الزعاق ، أشد ما يكون من الملوحة لا يقدر على شربه ، وهو من أقبح الماء ، وذكر في الماء الطيب صفتين إحداهما : عائدة إلى طعمه ، والأخرى إلى كيفية طبعه ، وهي الحارة .

ثم قال تعالى :﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي : فهلا تشكرون على هذه النعم التامة الكاملة وتؤمنون

ثم قال تعالى :﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ أي : تستخرجون من الزناد وتقدحون ، والعرب تقدح بعودين تحط أحدهما على الآخر ، يسمون الأعلى الزند، والأسفل الزندة، وشبهوه بالفحل والطروقة ، يقال : أوريت ووريت ، ومنه قول الشاعر :

فإن النار بالزندين تورى ... وإن الحرب يقدمها الكلام[4]

---

(١) انظر البرهان ٣٦٧، ٣٦٨.

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام في أول هذه السورة ، وما بين القوسين منه . وما بعد القوسين ليس من تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام .

(٣) قال الرازي : والمزن : هو السحاب الثقيل بالماء .

(٤) وقبل هذا البيت : أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون له ضرام

والزند كالمرخ [1].

﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ﴾ أي : خلقتم ﴿شَجَرَتَهَا﴾ أي :التي منها الزناد ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ لها دونكم .

ثم قال تعالى :﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ أي :تذكر بنار جهنم ، التي هي النار الكبرى ، حيث عممنا بالحاجة إليها البلوى ؛ لتكون حاضرة للناس ينظرون إليها ، وينظرون ما أوعدوا به .

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ناركم هذه جزء من سبعين جزء من حر جهنم) [2] .

قال *الحسين بن القاسم* عليه السلام: ومعنى قوله تعالى :﴿ وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي : منفعة ومتعة وبلاغا للذين هم حالون في القواء والقفار قال الشاعر :

أقوى وأقفر من نَعْمٍ وغَيَّرَهُ هوجُ الرِّياحِ تهابي الترب موار

يريد : خلا وأقفر .

وأصدق من هذا قول *الهادي* [صلوات الله عليه وعلى آبائه]:(فساحته قفر قواء بلاقع) [3]. اهـ

---

(١) أي أن وزنه على فعل .

(٢) في لفظ الحديث في المصابيح (من حر جهنم) وفي الأحاديث التي وردت (من نار جهنم) .

قال ابن كثير في تفسيره : قال قتادة : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال :(يا قوم إن ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزأ من نار جهنم) قالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ؟ قال : (إنها قد ضربت بالبحر ضربتين أو مرتين حتى يستنفع بها بنو آدم ، ويدنوا منها) وهذا الذي أرسله قتادة ، قد رواه الإمام أحمد في مسنده ، فقال: حدثنا سفيان ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال :(إن ناركم هذه جزء من سبعين جزأ من نار جهنم وضربت بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد) وقال الإمام مالك : عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ــ مثل ما ذكر قتادة ــ رواه البخاري من حديث مالك ، ومسلم من حديث أبي الزناد ، ورواه مسلم من حديث عبد الرزاق عن معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة به ، وفي لفظ (والذي نفسي بيده لقد فضلت عليها بتسعة وستين جزأ كلهن مثل حرها) وقد قال أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن عمرو الخلال، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي ، حدثنا معن بن عيسى القزاز ، عن مالك ، عن عمه أبي سهل ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه ــ وآله ــ وسلم :(أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم ؟ لهي أشد سوادا من ناركم هذه بسبعين ضعفا) قال الضياء المقدسي : وقد رواه أبو مصعب عن مالك ، ولم يرفعه ، وهو عندي على شرط الصحيح .

والمراد منفعة للذين ينزلون القواء ، وهو القفر ، والذين خلت بطونهم ومزاودهم من الطعام ، يقال : أقويت من أيام ، أي : لم آكل شيئا ، والمعنى ينتفع بها أهل البوادي ، يوقدونها ليلا لتهرب منهم السباع ، ويهتدي بهم الضال ، وانتفاعهم بها أكثر من المقيمين ، ولأن ابن السبيل إذا رآها ليلا اهتدى بها ، وكانت سببا في تمتعه بالقوت أيضا ثم قال تعالى :﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي : فأحدث التسبيح بذكر اسم ربك ، وأراد بالاسم الذكر ، أو سبح بذكر ربك ، أي : فقل سبحان الله ؛ تنزيها له عما يقولون ، أي :شكرا له على ما أعد من النعم ، دل جل وعلا عباده بذلك على توحيده وحكمته وعدله ، لأنه لا ينبغي أن يكفروا به[1] .

قال *الرازي* : الوجه في التعلق لما ذكر الله تعالى حال المكذبين بالحشر والوحدانية كما تقدم قال لنبيه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : إن وظيفتك أن تكمل في نفسك ، وهو علمك بربك [وعملك لربك] فسبح باسم ربك. والفائدة في ذكر الاسم من وجهين : [أحدهما وهو] المشهور أن الاسم مقحم ، وعلى هذا يكون فيه زيادة التعظيم ، فإن من عظم ملكا وبالغ في تعظيمه لم يذكر اسمه إلا وعظمه ، وهذا من جملة ما مر ذكره ، يقال : سبحته سبحت [له] وشكرته وشكرت له . [وثانيهما : أن يكون المراد بذكر ربك] أي : إذا قلتَ وَتَوَلَّوْا [2] فسبح بذكر .

---

(٣) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه‌السلام أول السورة وما بين قوسي الزيادة منه .

(١) قال السيد العلوي رحمه الله : قوله : فأحدث التسبيح ، قيل : إنما قال : أحدث ؛ لأنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كان مشتغلا بالتسبيح غير معرض عنه ، والمراد بالإحداث الاستمرار ، وقيل : هذا عكس ما يقتضيه لفظ الإحداث ، ولكن المراد : إذا أحطت بما ذكر لك فجدد التسبيح لذلك ، وقلت : تجديد التسبيح هو الاستمرار عليه ، لأنه مهما جدده بعد فعله فقد استمر عليه .

قوله : أو أراد بالاسم الذكر ، عن بعضهم : الباء سببية لا صلة ولا زائدة ، والمعنى سبح بأن تذكر اسمي ، ولا بد في إفادة هذا المعنى من أحد أمرين إما تقدير المضاف ، وهو الذكر ، أو أن يكون الاسم بمعنى الذكر ، قيل : وحاصله إما إضمار أو مجاز ، وتقديره : نزه الله إما بواسطة ذكر اسمه تعالى ، أو بواسطة ذكره ، ويجوز أن يجري على ظاهره من غير إضمار ولا مجاز ، قالوا في سبح اسم ربك الأعلى كما يجب تنزيه ذاته وصفاته تعالى عن النقائص ، كذلك يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لها عن سوء الأدب ، وهذا أبلغ لما به يلزم منه ، وذلك بالطريق الأولى على سبيل الكناية الرمزية حاشية العلوي ٣٠٣.

(٢) أي : إذا حصل منك القول ، وحصل منهم التولي ، فسبح الله تعالى بذكر اسمه .

اسمه بين قومك ، واشتغل بالتبليغ ، والمعنى : اذكره باللسان وبالقلب [وبين وصفه لهم] [1]. ويحتمل أن يقال : [فسبح] مبتدئا باسم ربك [العظيم] فلا تكون الباء زائدة [2].

واعلم أنه تعالى لما ذكر خلق الآدمي من المني ، بين بإرشاده إلى إيجاد الضدين في الأنفس قدرته واختياره ، [ثم لما ذكر دليلا من دلائل الأنفس]ذكر [من دلائل] الآفاق أيضا قدرته واختياره فقال :﴿أفرأيتم ما تحرثون﴾ ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون﴾ إلى غير ذلك ، وذكر قدرته على زرعه وجعله حطاما ، وخلق الماء الفرات ، وجعله أجاجا إشارة إلى أن القادر على الضدين مختار و لم يـ[كن] ذكر من الدلائل السماوية شيئا ذكر منها[3] في معرض القسم فقال سبحانه ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ لما بين أنه خالق الخلق ورازقهم ، وله العظمة بالدلائل القاطعة ، و لم يؤمنوا قال : لم يبق إلا القسم فأقسم إني لصادق .

ثم ذكر المفسرون في (لا) وجوها أحدها : لا زائدة للتأكيد ، والمعنى : أقسم ، مثلها في قوله :﴿لئلا يعلم﴾ وثانيها : أصلها لأقسم بلام التأكيد ، أشبعت فتحتها [فصارت لا] كما في الوقف ، وثالثها : لا نافية ، وأصله[4] على مقالتهم والقسم بعدها كأنه قال : لا والله لا صحة لقول الكافرين ، وأقسم عليه .

وأما مواقع النجوم فقال : زيد بن علي عليه‌السلام: معناه أقسم بالقرآن نزل نجوما متفرقة ثلاث آيات وأربع وخمس آيات .

---

(١) وقد زاد الرازي : ولو قال : فسبح ربك ، ما أفاد الذكر لهم ، وكان ينبئ عن التسبيح بالقلب . ولما قال : فسبح باسم ربك ، والاسم هو الذي يذكر لفظا دل على أنه مأمور بالذكر اللساني ، وليس له أن يقتصر على الذكر القلبي . الرازي ٢٩/١٨٥.

(٢) نقله المصنف من الرازي بتصرف ، وما بين الأقواس من الرازي ، وبعضها أثبتناه ليتم المعنى .

(٣) في الرازي فذكر الدليل السماوي في معرض القسم . ومثل هذا الكلام في الرازي من قوله : واعلم أنه تعالى .. إلى هنا ٢٩/١٨٨. وما بين الأقواس من الرازي ليتضح المعنى .

(٤) في الرازي : وأصله ، أي : وأصل النفي . وفي الأصل : وأصلها ، وما بين القوسين من الرازي ليتضح المعنى ٢٩/١٨٧.

قلت : ومثله في البرهان[1] وغيره ، وأما غيرهم فذكروا في مواقع النجوم وجوها أيضا منها : هي مواضعها في السماء في بروجها ومنازلها ، ومنها : مواقعها في إتباع الشياطين عند الرجم ، ومنها : مواقعها يوم القيامة حين تسير .

وقال في *التجريد* : مواقع النجوم هي نجوم السماء ومواقعها : مساقطها عند الغروب ، ولعل لله تعالى في آخر الليل إذا انحطت النجوم إلى المغرب أفعالا عظيمة ، أو للملائكة عبادات جليلة ، أو لأنه وقت قيام للمتهجدين من الصالحين فلذلك أقسم تعالى بها ، وعظم القسم . اهـ

وقيل : التقدير برب مواقع النجوم .

ثم قال سبحانه :﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ يعني أن القرآن لقسم عظيم ، وهو اعتراض في اعتراض ، ومعنى الاعتراض هو الفاصل للتأكيد ، أي :اعترض به بين القسم وجوابه ، واعتراض بـ﴿لو تعلمون﴾ بين الموصوف وهو (قسم) وبين صفته وهو (عظيم) وكل ذلك لتأكيد تعظيم المقسم به ، في ضمن ذلك تعظيم المقسم عليه ، وتحقيق ما ذكر من أوصافه[2] .

ثم قال تعالى :﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ حسن مرضي في جنسه من الكتب .

وقال في *البرهان* : يعني أن القرآن كريم عند الله [أي :مرتفع] [3] عظيم النفع للناس .

والضمير في ﴿إنه﴾ عائد على معلوم ، وهو الكلام الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان معروفا عند الكل ، وقال الكفار : إنه شعر وإنه سحر ، فرد عليهم : إنه لقرآن .

---

(١) ولفظ البرهان : قوله عز وجل :﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ وذلك أن الله أقسم في القرآن بمخلوقاته ، فكأنه أقسم بقدرته وعظمته لما بان في خلقه من ذلك مالا يقدر عليه غيره ، ولا صلة زائدة ، وتقديره : فأقسم بمواقع النجوم ، ومواقع النجوم : أراد به نجوم القرآن من الله تعالى ؛ لأنه كان ينزل على الأوقات المختلفة . البرهان ٣٦٨.

(٢) قال السيد العلوي : قوله : اعتراض في اعتراض . : فإن قوله :﴿وإنه لو قسم ... عظيم﴾ اعتراض بين القسم وجوابه مقرر للتوكيد ، وتعظيم للمحلوف به ، وقوله :﴿لو تعلمون﴾ اعتراض بين الصفة والموصوف توكيد لذلك التعظيم ، أي : لو علم ذلك لوفي حقه من التعظيم . حاشية العلوي ٣٠٣.

(٣) ما بين القوسين ثابت في الأصل ، وليس موجودا في نسخة البرهان التي بين أيدينا .

والقرآن : مصدر أريد به المفعول ، وهو المقروء ، وقيل : اسم لما يقرأ ، كالقربان لما يتقرب به .

قال بعضهم : في معنى (كريم) فائدة ، وهو : أن الكلام إذا كرر كثيرا يهون في الأعين والآذان ، والله تعالى لما قال :﴿كريم﴾ أي :لا يهون بكثرة القراءة ، ويبقى أبد الدهر غضا طريا ، والكريم : اسم جامع لصفات المدح ، وقيل : الكريم : الظاهر الفضل ، والقرآن كذلك ، لفظه صحيح ومعناه صحيح ، وكما أن الكريم عند العوام هو الذي لا يطلب منه شئ إلا وقد أعطاه ، وكذلك القرآن ، فالفقيه يستدل به ويأخذ منه ، والحكيم يستمد منه ويحتج ، والأديب يستفيد منه ويتقوى به ، مع أنه تعالى وصف القرآن بكونه كريما وبكونه عزيزا ، وبكونه حكيما ، فلكونه كريما كل من أقبل عليه ناله ، ولكونه عزيزا كل من أعرض عنه لا يبقى معه منه شئ بخلاف سائر الكتب ، ولكونه حكيما كل من أشتغل به وأقبل عليه بالكلية أغناه عن سائر العلوم .[1] اهـ

ثم وصفه تعالى بكونه ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ أي :في حفظ ، علم محفوظ لا يتغير ولا يتبدل ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ أي :القرآن ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ يعني : المطهرون من الأحداث .

وفي التجريد : إن كان الضمير في ﴿يمسه﴾ للقرآن فقد اختلف في المطهرين ، فقيل : المتوضئون قالوا : ولا يجوز للمحدث مس المصحف وهو مروي عن *محمد بن علي بن الحسين* عليهم السلام *وعطاء وطاووس* ، *وسالم* ، *والقاسم بن محمد* ، *ومالك* ، *والشافعي* ، وهو مذهب الإمامين *القاسم* ، *والهادي* عليهما السلام .

وقيل : المراد المطهرون من الشرك عن ابن عباس . وقيل : مطهرون من الحيض والجنابة ، وهو مذهب الإمام *المؤيد بالله* عليه السلام.

وقال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى (المكنون) هو : المستور المخزون ، ومعنى ﴿لا يمسه﴾ أي : لا يستنبط عجائب معقوله وحكمه ﴿إلا المطهرون﴾ وهم الأئمة الطاهرون . اهـ

وقيل : الكتاب المصحف عن مجاهد وقتادة ، وقوله :﴿تَنْزِيلٌ﴾ صفة للقرآن ، أي :

---

(١) قوله قال بعضهم : المراد به الرازي ، وقد نقل المصنف كلامه بتصرف (انظر الرازي ٢٩/١٩١، ١٩٢.

منـــزل[1] ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي : من كلامه وقوله بنفسه ، قبل أن يـــنزل بـــه روح قدسه ؛ لأن عظمة الشيء بعظمة الله ، فإذا جعلت الشيء قائما بالعظم كـــان أعظـــم ، فلهذا قال تعالى :﴿تنزيل من رب العالمين﴾ وقوله تعالى :﴿من رب العالمين﴾ أيضا لتعظيم القرآن ؛ لأن الكلام يعْظُمُ لعِظِم المتكلم ، يقال : كلام الملـــوك ، فـــإذا قـــال :﴿رب العالمين﴾ بين منه عظمة لا عظمة مثلها ، وعند هذا يتبين الحق .

ثم عاد إلى توبيخ الكفار فقال سبحانه :﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ العظيم ، وهو القرآن ﴿أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ أو مداهنون بما لزمهم ، ومنافقون في التصديق به ، ذكر معنى هذا زيـد بـن علي عليه السلام وغيره من أئمتنا عليهم السلام[2] .

وقال الزجاج : المدهن ـــ المداهن الكذاب ، والمنافق[3] وهو الجاري في البـــاطن علـــى خلاف الظاهر ، هذا أصله ، وقيل للمكذب : مداهن ، وإن صرح بالتكذيب ، والمعنى : أفبالقرآن أنتم تكذبون ، وقيل : مداهنون أي :متهاونون فيه ، كما يدهن في الأمر أي : يلين جانبه فيه ، ولا يتصلب فيه تهاونا به .

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي : شكر رزقكم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال *الهادي* عليه السلام : يقول: تجعلون شكرنا على ما رزقناكم تكذيبا منكم بقولنا ، وجحدانا لحقنا ، فقـــال سـبحانه بذلك إذ كان شكرهم له على نِعَمِه التكذيب بآياته ، وهذا لا يكون شكرا للمنعم على نعمه ، إلا لمتعرض منه لحلول نقمه . اهـــ

والمعنى : تجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به ، وضعتم التكذيب به موضع الشكر. وقيل: الرزق المطر ، كانوا يقولون إذا مطروا : مطرنا بنوء كذا ، فكذبوا بكونه من الله تعالى. ثم قال تعالى :﴿ فَلَوْلَا﴾ أي : فهلا ﴿إِذَا بَلَغَتْ﴾ أي : الروح ﴿الْحُلْقُومَ﴾ قصبة الرقبة

---

(١) في الأصل : أي : تنزيل ، وهذا لم تظهر فائدة زائدة على ما في الآية ، وقد استصوبنا منزل ، لأن تنزيل هنا مصدر بمعنى اسم المفعول ، وكثيرا ما يذكر المصدر ويراد المفعول .

(٢) انظر تفسير الإمام زيد بن علي ، والبرهان للإمام الناصر أبي الفتح الديلمي عليهم السلام جميعا .

(٣) هذا وجه ثان ، وهو غير ما قاله الزجاج ، وقوله : والمعنى : أفبالقرآن أنتم تكذبون . هذا على قـــول الزجـــاج . وقوله : وقيل : مداهنون أي : متهاونون .. هذا على الوجه الثاني ، وأن المراد بالمداهن المنافق .

قال *الحسين بن القاسم* عليه‌السلام: يعني النفس عند خروجها من الحلق ، ولكنه اختصر لعلم المخاطب ، و لم يذكر النفس كما قال الشاعر [١]:

أَيَا مَيَّ ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

يعني النفس عند خروجها من البدن ، ولكنه اختصر . اهـ

﴿وَأَنْتُمْ﴾ يا أصحاب الميت ﴿حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ إليه وهو في النزع ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ أي : المحتضر ﴿منكم﴾ بقدرتنا وعلمنا ، أو بملائكة الموت ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي :لا تشاهدون قربنا إليه ، والاستفهام قد يستعمل للإنكار ، ومنه قوله تعالى :﴿أفبهذا الحديث﴾[٢] وقوله :﴿أتدعون بعلا﴾[٣] .

وقوله تعالى :﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾ أي : لم لا تقولون ما تقولونه عند الموت ، وفيه إشارة إلى أن كل واحد يؤمن عند الموت ، لكن لا يقبل منهم عند النزع ، وقوله : ﴿وأنتم حينئذ تنظرون﴾ تأكيد لبيان الحق ، أي :في ذلك الوقت تصير الأمور مرئية مشاهدة ، ينظر إليها كل من يلقى في تلك الحالة .

ثم قال تعالى :﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال *الحسين بن القاسم* عليه‌السلام: يريد فهلا إن كنتم غير مجازين بأعمالكم ، ولا محاسبين على أفعالكم قال الشاعر :

وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن يدينا

يريد : [أن] يحتكم للجزاء .

وقوله :﴿ترجعونها﴾ أي : ترجعون النفس بعد موتها ، أي : تردون الروح إلى الميت ﴿إن كنتم صادقين﴾ أنكم غير مجزيين ولا مملوكين .

---

(١) في الأصل (أيا مَيَّ ما يغني الرقاء) ولفظ الرقاء غير ظاهر ، وفي القرطبي (الثراء) فأثبتنا ما في القرطبي . وقد نسبه القرطبي في تفسيره الى حاتم ، ولفظه في القرطبي :

أماويَّ ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

(٢) الواقعة : ٨١ .

(٣) الصافات : ١٢٥ .

وقوله :﴿ترجعونها﴾ جواب لسببين الأول : ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾ والثاني ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين﴾[1] وفلولا الثانية مكررة للتأكيد ، والمعنى : أنكم في جحودكم آيات الله وأفعاله إن أنزل عليكم كتابا قلتم : سحر ، وإن أرسل رسولا قلتم : ساحر ، وإن رزقكم مطرا قلتم : صدق نوء كذا ، على مذهب يؤدي إلى الإهمال والتعطيل ، فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغها الحلقوم إن لم يكن ثم قابض ، وكنتم صادقين في كفركم بالمحيي المميت ، أو إن كنتم صادقين أنكم غير مدينين ، أي : غير مجزيين ولا مبعوثين .

ولما بين أن الحشر بعد الموت لازم ـ بيّنَ ما يكون بعد الحشر ليكون ذلك حاملا للمكلف على العمل الصالح ، وزاجرا للمتمرد عن العصيان والكذب ، فقال سبحانه : ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ يعني من الأزواج الثلاثة ، أي : السابقين إلى أفعال الخير ، وطاعة الله عز وجل كما تقدم في أول السورة ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ هذا وجه تعلقه معنى ، وأما تعلقه لفظا فكأنه قال : أنتم بعد الموت دائمون في دار الإقامة ومجزون ، فالمجزي إن كان من المقربين فله الروح والريحان ، وفيهما وجوه أحدها : هو الرحمة قال الله تعالى :﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾[2] أي : من رحمة الله ، وثانيها : الراحة، وثالثها : الفرح ، وأصل الروح : السعة .

قال الإمام *الحسين بن القاسم* عليه‌السلام: الروح : هو الريحان ، وهو يريد النسيم والراحة من الهوان الأليم ، إلا أنه وكد الروح بذكر الريحان ، كما وكد ذكر الرحمة بالرحيم والرحمن ، وذلك تأكيد وزيادة في البيان [3].

---

(١) قال الرازي : أجمع المفسرون على أن لولا في المرة الثانية مكررة ، وهي بعينها هي التي قال تعالى :﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾ ولهما جواب واحد ، وتقديره على ما قاله الزمخشري : فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم ، أي : إن كنتم غير مدينين .٢٩/٢٠٠.

قال السيد العلوي : قوله : فلولا الثانية مكررة للتوكيد ، وقال أبو البقاء : ترجعونها جواب الأولى ، وأغنى ذلك عن جواب الثانية ، وقيل : عكس ذلك ، وقيل : لولا الثانية تكرير ، وقيل : إن كنتم شرط دخل على شرط ، فيكون الثاني مقدما في التقدير أي : إن كنتم صادقين إن كنتم غير مملوكين فأرجعوا أرواحكم إلى أبدانكم ممتعين عن الموت قبل . حاشية العلوي ٣٠٤.

(٢) يوسف : ٨٧ .

(٣) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه‌السلام أول السورة ، واللفظ فيه كما ورد هنا ، ووكد بمعنى أكد

وفي *البرهان* : يعني عز وجل روحا من الغم ، وراحة من العمل ؛ لأنه ليس في الجنة غم ولا عمل ، وكذلك الريحان فيه راحة للروح . اهـ

وفي *التجريد* : الروح : الاستراحة ، والريحان : الرزق في الجنة .

ثم قال عز وجل :﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ لا يقدر على وصفه .

ثم رجع إلى ذكر المؤمنين فقال :﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أهل الميمنة الزوج الثاني من السعداء ﴿فَسَلَامٌ لَكَ﴾ يا صاحب اليمين [1]﴿مِنْ﴾ إخوانك ﴿أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي : يسلمون عليك ، كقوله :﴿إلا قيلا سلاما سلاما﴾ وقيل : سلامة لك من الغم يا من يشتغل بهم ، والمراد : لا تهتم بأمرهم ، فإنهم في نعيم ، وقيل: المراد سلامة من عذاب الله ، وتسلم عليه الملائكة ، وقيل : تقديره فسلام إنك من أصحاب اليمين ذكره في البلغة ، وهو يفيد عظم حالهم ، كما يقال : فلان ناهيك به وحسبك .

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ بالحق والجزاء ﴿الضَّالِّينَ﴾ عن الهدى ، وهم أصحاب المشأمة ﴿فَنُزُلٌ﴾ أي : فلهم نزل أعد لهم ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي :من شراب ماء حار ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي : دسٌ في النار يغمرون بها ، كالشاة المصلية ، وهي المدسوسة وسط الجمر .

قال *الرازي* : وفيه مباحث الأول : قال :﴿المكذبين الضالين﴾ وقال من قبل :﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون﴾ الثاني : ذكر الأزواج الثلاثة في أول السورة بعبارة ، وأعادهم بعبارة أخرى ، فقال :﴿أصحاب الميمنة﴾ ثم قال :﴿أصحاب اليمين﴾ و ﴿أصحاب المشأمة﴾ ثم قال :﴿وأصحاب الشمال﴾ وأعادهم ، وفي المواضع الثلاثة ذكر أصحاب اليمين بلفظ واحد ، أو بلفظتين مرتين ، وذكر السابقين في أول السورة بلفظ السابقين ، وفي آخر السورة بلفظ المقربين ، وذكر أصحاب النار في الأول بذكر أصحاب المشأمة ، ثم بلفظ أصحاب الشمال ، ثم بلفظ المكذبين ، فما الحكمة فيه ؟ .

قال : نقول أما السابق فله حالتان إحداهما : في الأولى ، والأخرى في الآخرة ، فذكره في

---

(١) قوله : فسلام لك يا صاحب اليمين . المراد بالخطاب هو صاحب اليمين ، و(من إخوانك أصحاب اليمين) تفسير قوله : أصحاب ، و(من) في إخوانك للابتداء ، وقيل : فيه إشارة إلى الاختصاص المستفاد من الالتفات في الآية . العلوي

المرة الأولى بما له في الحالة الأولى ، وفي الثانية بما له في الحالة الآخرة ، وليس له حالة متوسطة من الوقوف للعرض والحساب [1] بل هو ينتقل من الدنيا إلى أعلى عليين ، ثم ذكر أصحاب اليمين بلفظتين متقاربتين لأن حالتهم قريبة من حال السابقين ، وذكر الكفار بألفاظ ثلاثة ، كأنهم في الدنيا ضحكوا عليهم [بأنهم أصحاب موضع شؤم] فوصفوهم بموضع الشؤم [فإن المشأمة مفعلة وهي الموضع ، ثم] قال :﴿أصحاب الشمال﴾ لأنهم في القيامة على الشمال لأنهم من أهل النار ، ثم لما ذكر الله حالهم في أول الحشر لكونهم من أصحاب الشمال ذكر ما يكون لهم من السموم والحميم . ثم لم يقتصر عليه ، ثم ذكر السبب فيه فقال :﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين وكانوا يصرون﴾ فذكر سبب العقاب لما بينا أن العادل يذكر للعقاب سببا ، والمتفضل لا يذكر للإنعام والتفضل سببا فذكرهم في الآخرة بما عملوه في الدنيا فقال : ﴿وأما إن كان من المكذبين الضالين﴾ [2].

ثم قال تعالى :﴿ إِنَّ هَذَا﴾ القرآن الذي نزل عليكم ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي :الحق الثابت اليقين ، أو الإشارة إلى ما ذكر ــ إلى هذه السورة ــ من قصة المحتضر ، أو إلى ما ذكره في حق الأزواج الثلاثة ، وفي إضافة الحق إلى اليقين نوع تأكيد ، أي : هذا حق الحق ، وصواب الصواب ، كأنه قال : هذا هو اليقين حقا ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم .

وأما قوله تعالى :﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فقد مر شرحه أنه تعالى لما بين الحق قال لنبيه : هذا حق ، فإن امتنعوا هم فلا تعرض عنهم وسبح ربك ، فما عليك من قومك صدقوك أو كذبوك ، ويحتمل أن يريد فسبح واذكر ربك باسمه الأعظم . والله أعلم .

---

(١) في الرازي : وليس له حالة وأسطة بين الوقوف للعرض ، وبين الحساب .. الخ . وما هو مذكور هنا هو المناسب لما بعده من الكلام

(٢) انظر الرازي ٢٠٣/٢٩ . وفيه زيادة بعد قوله : ﴿من المكذبين الضالين﴾ ليكون ترتيب العقاب على تكذيب الكتاب ، فيظهر العدل ، وغير ذلك ظاهر .اهـ وما بين الأقواس من الرازي .

سورة الرحمن

سبعون وسبع آيات في الحجازي والمكي، وثمان في الكوفي والشامي ، وست في البصري (مكية)

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله :﴿ الرَّحْمَانُ﴾ مبتدأ وما بعده إخبار مترادفة ، و لم يدخل الواو بينها لمجيئها على نمط التعديد ، كما تقول : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فما تنكر من إحسانه .

قال في البرهان :(أما ﴿الرحمن﴾ فهو: اسم من أسماء الله تعالى ، لا يجوز لأحد من الناس أن يستعملوه [في أسمائهم] أو ينتحلوه في صفاتهم)[١].

وفي معنى ﴿الرحمن﴾ يقول الهادي إلى الحق عليه‌السلام:﴿الرحمن﴾ هو الواحد ذو المن والإحسان والرحمة والامتنان ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ أنزله وأمر بقراءته وتعلمه [٢]. اهـ

---

(١) انظر البرهان مخطوط ، وما بين الأقواس منه ، وزاد فيه أيضا ﴿علم القرآن﴾ أي: علم رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله حتى بلغ جميع الناس وعلمهم .

(٢) في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليهما‌السلام من تفسيره لهذه السورة ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام في قوله تعالى:﴿خلق الإنسان﴾ آدم عليه‌السلام .

وقوله تعالى :﴿علمه البيان﴾ معناه : بين له سبيل الهدى والضلالة .

وقوله تعالى :﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ معناه : بقدر يجريان .

وقوله تعالى :﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ النجم : ما نجم من الأرض و لم يقم على ساق ، والشجر : ما قام على ساق.

وقوله تعالى :﴿ولا تخسروا الميزان﴾ معناه : لا تنقصوه .

وقوله تعالى :﴿والنخل ذات الأكمام﴾ معناه : ذات الليف ﴿والحب ذو العصف﴾ فالعصف : الذي يؤكل أذنته ، معناه : أعلاه ﴿والريحان﴾ الحب الذي يوكل ، وقال : الريحان الرزق .

وقوله تعالى :﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار﴾ قال الإمام زيد بن علي عليهما السلام : الصلصال : الطين اليابس الذي لم يطبخ ، وإذا طبخ فهو الفخار ، والمارج : الخالط .

وقوله تعالى :﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فالآلاء : النعمة ، واحدها إلى ، وأراد به الجن والإنس .

وقوله تعالى :﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ معناه : مشرق الشتاء ، ومشرق الصيف . و:﴿برب المشارق والمغارب﴾ معناه : مشرق كل يوم ، ومغرب كل يوم .

وقوله تعالى :﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان﴾ ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ معناه : المخلي من الماء ، يلتقيان من العذب والمالح ، واللؤلؤ : العظام ، والمرجان : الصغار من اللؤلؤ .

وقوله تعالى :﴿وله الجوار المنشآت﴾ فالجواري : السفن ، والمنشآت : المجريات ، والأعلام : الجبال واحدها علم

وقوله تعالى :﴿كل يوم هو في شأن﴾ قال الإمام زيد بن علي عليهما السلام : يجيب داعيا ، أو يفك عانيا ، أو يشفي سقيما ، أو يغني فقيرا ، أو يرفع ضعيفا .

وقوله تعالى :﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ معناه : سنحاسبكم ، والثقلان : الجن والإنس .

وقوله تعالى :﴿إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض﴾ فأقطارها : جوانبها ، وتنفذوا : معناه : تفوتوا .

وقوله تعالى :﴿يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس﴾ معناه : نار تأجج ولا دخان لها ، والنحاس : الدخان .

وقوله تعالى :﴿فكانت وردة كالدهان﴾ معناه : كلون الورد ، والدهان : جمع دهن ، وقال : وردة حمراء ، والدهان : الجلد المبشور . وقوله تعالى :﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ معناه : لا يسأل أحد عن ذنب أحد .

وقوله تعالى :﴿يعرف المجرمون بسيماهم﴾ معناه : بعلاماتهم .

وقوله تعالى :﴿وبين حميم آن﴾ فالحميم : الحار ، والآن : الذي قد انتهى حره .

وقوله تعالى :﴿ذواتا أفنان﴾ أي : أغصان ، وقال : الأفنان : هي الأغصان على الحيطان .

وقوله تعالى :﴿متكئين على فرش بطائنها من استبرق﴾ فالبطائن : الظواهر ، والإستبرق : ليس في صفاقة الديباج ، ولا خفة الفريد .

وقوله تعالى :﴿وجنى الجنتين دان﴾ فالجنى : الثمار التي تجنى ، والداني : القريب الذي لا يعي الجاني .

وقوله تعالى :﴿قاصرات الطرف﴾ معناه : لا تطمح أبصارهن إلى غير أزواجهن .

وقوله تعالى :﴿لم يطمثهن﴾ معناه : لم يمسهن . وقوله تعالى :﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ قال الإمام زيد بن علي عليهما السلام : فالإحسان الأول : هو الإيمان والتوحيد ، والإحسان الثاني : هو الجنة .

وقوله تعالى :﴿مدهامتان﴾ أي : خضراوان كالسواد من شدة ريهما .

وفي الذي علمه القرآن قولان أحدهما : أنه محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وعلمه الله القرآن ، وعلمه محمد أمته ، حتى بلغ جميع الناس ، وهذا في البرهان .
والثاني : أنه عام لمحمد ولغيره من الملائكة ، فإن الله علمهم القرآن قبل خلق آدم وذريته، ومن ثم قدم علم القرآن على خلق الإنسان [1] .

وقوله تعالى :﴿فيهما عينان نضاختان﴾ معناه : فوارتان .
وقوله تعالى :﴿فيهن خيرات حسان﴾ معناه : خيار ، واحدها : خيرة .
وقوله تعالى :﴿حور مقصورات في الخيام﴾ واحدها : حوراء، وهي الشديدة بياض العين ، والشديدة سواد العين ، ومقصورات : أي : مخدورات ، في الخيام : المنازل .
وقوله تعالى :﴿متكئين على رفرف﴾ معناه : فرش وبسط ، ويقال : الوسائد ، ويقال : أرض الجنة .

(١) ومن تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني عليه‌السلام ما لفظه :
﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾ أي : الكلام البين المفهوم ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ أي : بحساب معروف ، ومعنى ﴿ألا تطغوا في الميزان﴾ أي : لا تجورون ﴿ولا تخسروا﴾ أي : لا تنقصوا ، ومعنى ﴿والأرض وضعها للأنام﴾ أي : للخلق ، والأنام : الخلق ، قال الشاعر :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصافير من هذا الأنام المسخر

﴿ذات الأكمام﴾ أي : ذات الغلف التي تكون فوق الطلع ، واحدها : الطلعة ، قال الشاعر :

كأن على أسنانها عذق نخلة تدلى من الكافور غير مكمم

﴿والحب ذو العصف﴾ أي : ذو العشب والتبن ، قال الشاعر : كعصف قد تواكله الجواني

﴿والريحان﴾ هو شجرة طيبة الرائحة . ومعنى ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ أي : فبأي نعم ربكما وفضائله تكذبان ، وهذان المكذبان فهما القبيلان الإنسي لنعم الله ، والجان ، ومعنى ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار﴾ الصلصال : هو الحمأ اليابس الذي يتصلصل إذا وطي وحرك ، ومعنى ﴿كالفخار﴾ في خلوص ترابه ، والفخار : هو طين الكيزان المعروف ، قال الشاعر :

كيف الجحود وإنما خلق الفتى من طين فخار له صلصال

والمارج : هو لهب النار الذي يتقطع في الهواء عند اضطرامها ، ومعنى ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ يعني : مشرق الشمس ومشرق القمر ومغربيهما . ﴿مرج البحرين يلتقيان﴾ أي : خلط أطرافهما ﴿بينهما برزخ لا يبغيان﴾ البرزخ: هو الحاجز بينهما ﴿لا يبغيان﴾ أي : لا يتعديان ولا يختلطان . ومعنى ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ هو ضرب من ضروب الجواهر ، قال الشاعر :

وأصبح الظل في أفنانه علقا كأنه لؤلؤ أو فضل مرجان

ومعنى ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام﴾ يعني السفن ، والأعلام : هي الجبال ، قالت الخنساء في أخيها :

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

أي : كأنه جبل ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ أي : من هذه المدة التي هي دون يوم القيامة ، والثقلان : هما الجن والإنس ، والمعشر : هم الجميع ، ومعنى قوله :﴿إن استطعتم﴾ يريد إن قدرتم ﴿فانفذوا﴾ أي : فاخرجوا على وجه التحدي لهم والبيان لعجزهم عن ذلك ، ثم قال مخبرا عن ضعف الجميع ﴿لا تنفذون إلا بسلطان﴾ أي : بقوة من الله الواحد الرحمن ﴿يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران﴾ الشواظ : هو النار قال الشاعر :

تضيء كضوء ذبال السليط لم يجعل الله فيه نحاسا

ومعنى ﴿فكانت وردة كالدهان﴾ الوردة : هي الحمراء ، هي الدهان لرقتها وضعفها ، وقيل أيضا : إن الدهان في اللغة هو الأديم الأحمر ، ومعنى قوله ﴿يعرف المجرمون بسيماهم﴾ السيماء : هي العلامات والصور والهيآت ﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ النواصي : هي مقاديم الرؤوس ، والأقدام : مواطئ الأرجل ، قال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه : يؤخذ بالأقدام والنواصي من كل جبار ، وكل عاص ﴿وبين حميم آن﴾ الآني : هو الحار فيما روي والله أعلم . ومعنى ﴿ذواتا أفنان﴾ أي : أغصان وألوان ، والواحد من الأفنان ، قال الشاعر :

سوى ناعبات في الديار تَرُعّنَنا يصحن على أفنان بان نوايس

ومعنى قوله :﴿من كل فاكهة زوجان﴾ أي : صنفان ﴿وجنى الجنتين دان﴾ أي : ثمرها قريب غير بعيد . ومعنى قوله: ﴿قاصرات الطرف﴾ أي : غاضات الأبصار عن غير أزواجهن ، ورعات عن النظر إلى ما حظر الله عليهن . ومعنى ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ الطمث هاهنا : هو الجماع والإدماء ، قال الشاعر :

مشين إلي لم يطمثن قبلي وهن أصح من بيض النعام

﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ يريد : في حسن الصور ، وصفاء الألوان ﴿مدهامتان﴾ أي : قد علا سوادهما لشدة خضرتهما ، ومعنى ﴿عينان نضاختان﴾ أي : ينضح ماؤهما حواليهما لغزره ، قال امرؤ القيس :

فعادى عداء بين ثور ونعجة دراكا و لم ينضح بماء فيغسل

ومعنى قوله :﴿خيرات حسان﴾ أي : مسلمات حسان الصور ﴿حور﴾ أي : كحل دعج ﴿مقصورات﴾ أي : محجوبات في خيام الديباج ، ومعنى ﴿متكئين على رفرف خضر وعبقري﴾ المتكأ : هو المضطجع على أحد شقيه ، قال المرتضى لدين الله :

لا ولا متكأ الأرائك في البيت على الفرش أو لذيذ الطعام

والرفرف : هو الفراش اللين ، والعبقري : قيل : إنه الفراش الغليظ من فرش الديباج ، قال الشاعر :

أكلف أن يحل بنو سليم جنوب الإثم ظلم عبقري

أي : ظلم شديد ﴿تبارك اسم ربك﴾ أي : تعالى ذكره ، ومعنى ﴿ذي الجلال والإكرام﴾ هو القدر والعظمة والسلطان . والإكرام : هو الرحمة والكرامة للمؤمنين والإحسان .

ثم قال الهادي عليه السلام: معنى ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ فهو فطره وجعله وصوره، وقدره، ومعنى ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ فهو: هداه إلى البيان، وفهمه اللغة واللسان، وفهمه ما يحتاج إليه من الحجج والبرهان[1].

---

(١) في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام تحت عنوان مسائل الهادي عليه السلام (مخطوط)

قال الإمام الهادي عليه السلام: وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿الرحمن علم القرآن ..﴾ إلى قوله: ﴿والحب ذو العصف والريحان﴾ ومن قوله: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فقلت: لم يذكر في أول هذه السورة اثنين؟ فمن هذان؟ فنقول: ﴿الرحمن﴾ فهو ذو الرحمة والإحسان ﴿علم القرآن﴾ فقد يكون تعليمه له هو تنزيله، والحض على قراءته وتعليمه بما جعل في ذلك من الثواب لمن كان له من القارئين، وبه في الليل من المتهجدين، وقد يكون معنى ذلك: هو الدلالة منه سبحانه على تأويله، والتسديد والتوفيق لعلم غامض سننه، والمن بذلك على عباده المؤمنين، والإحسان به إلى أوليائه الشاكرين. فأما قوله: ﴿خلق الإنسان علمه البيان﴾ فخلقه له إيجاده له وتعليمه إياه ﴿البيان﴾ فهو تركيبه فيه ما به يميز ما بين السواية والإحسان، ويفرق به بين الخير والشر، وينقلب به فيما يحتاج إليه من الأمر، وينال به الطاعات، وينحرف به عن المهلكات من المعقول المفطور عليه، المركب بفضل الله فيه، ومن البيان ما جعله فيه من استطاعة القول، والكلام باللسان، وما ينال به من المحاجة لمن حاجه من الإنسان ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ فالحسبان: هو الحساب بالأيام والشهور والسنين والأزمان ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ فسجودهما هو سجود من سجد لعظمة خالقهما ممن تفكر في عجيب أمرهما، وتصويرهما وما في خلقهما من العبر والآيات، من ارتفاع النجوم ونورها ومجاريها وسيرها، واعتدالها في فلكها وتقويمها، وغير ذلك من عجيب حالاتها، وكذلك الشجر في اختلافه وثمره، وما نرى فيه من تدبير خالقه، واختلاف ألوانه وطعمه، وعجيب فعل الله في تغذيته وتنقيله من حالة الصغر والفساد إلى حال الانتهاء ومنافع العباد، فلما أن كان سجود من يسجد لله من المؤمنين العارفين بالله المعتبرين المستدلين عليه بما خلق من المخلوقين من أجل ما يرون من آيات الله في خلق البشر، وعجيب ما فعل في النجوم والشجر جاز أن يقول: ﴿يسجدان﴾ وإن كان الساجد غيرهما من الإنسان، كما جاز أن يقال: إن الله زين للكافرين أعمالهم، وأغفل عن ذكره قلوبهم، وذلك قوله سبحانه: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ وقوله: ﴿زينا لهم أعمالهم﴾ التزيين من الله: فهو الإملاء والتأخير والنظرة والتعمير، وكذلك الإغفال: فهو ترك التوفيق لهم والتسديد، والعون من الله والتأييد، فلما أن كان من الله السبب الذي كان به غفلة قلوبهم واكتسابهم، لذلك جاز أن يقول: أغفل الله قلوبهم. وكذلك التزيين لأعمالهم، لما أن كان من الله السبب الذي كان به التزيين جاز أن يقال: زين الله لهم أعمالهم، لا أن الله فعل التزيين للكفرة، ولا شاءه، ولا أراده منهم، ولا ارتضاه، ولا أغفل سبحانه عن ذكره قلوبهم، بل نهاهم عن ذلك، وعاقب من كان من الخلق كذلك، فعلى هذا المثال والمجاز من قوله الله جاز أن يقال: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ وإن كانا في أنفسهما لعدم استطاعة التخيير لم يسجدا، ولكن لعجيب تدبير الله وصنعه فيهما إذاً أسجد عباده المعتبرين

وأخشعا من كان ذا خشية لرب العالمين . وأما قوله :﴿والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾ فإخبار منه جل جلاله بما رفع السماء بلا عمد ، ودلالة منه على قدرته لكل أحد ،

وقوله :﴿ووضع الميزان﴾ فهو جعل الميزان ودل عليه ، وجعله حكما عدلا بين عباده لا حيف ولا ظلم فيه ، ثم نهاهم عن الظلم فيه ، وأمرهم بإتباع القسط فيه ، والوزن بالحق والإحسان ، ونهاهم عن البخس والعدوان . ثم قال :﴿والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة﴾ يقول : دحاها ، وللأنام مهدها ، وأخرج لهم ما ذكر من فاكهتها تفضلا عليهم بها ، وإحسانا منه إليهم فيها ﴿والنخل ذات الأكمام﴾ فالأكمام قشر الطلعة ، والغلاف الذي يكون فيه الشماريخ قبل انفتاق أكمامها ﴿والحب ذو العصف والريحان﴾ والحب : فهو الحنطة والشعر ، وغير ذلك مما جعله اللطيف الخبير ، والعصف : فهو قصب الحب الأجوف، الذي لا حشو فيه ولا صلابة لديه ، وذكر الواحد الجليل فيها خبرا من فعله في أصحاب الفيل حين يقول :﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾ ثم قال :﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فعنى بذلك من خلق الإنسان والجان ؟ والمناجيان في سورة الرحمن فهما الثقلان ، ألا تسمع كيف يقول سبحانه :﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ . اهـ من مجموع تفسير الأئمة ، وقد أورد المؤلف بعض ما نقلناه مفرقا ، وتصرف في بعضه

وفي ص ٣٩٢ من مخطوط المجموع من مسائل الهادي ، فقال : معنى الحسبان : فهو بحساب وعدد ، ومعنى بحساب وعدد فهو للحساب والعدد يقول سبحانه : خلقنا الشمس والقمر ، وجعلناهما يعرف بهما وبسيرهما عدد الشهور والأيام والسنين والدهور ، وبحسب سيرهما عدد الأيام والليالي ، فيكون ذلك دليلا على حساب الدهور والأزمان .

وفي مجموع تفسير الأئمة مسائل الإمام الهادي عليه‌السلام ص ٤٨٧ من المخطوط قال عليه‌السلام :

﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ فمعنى سجودهما : هو إسجادهما للمعتبرين المستدلين على الله ممن رآهما ، فلما أن كان السجود من معنى الساجدين جاز أن يطرح الساجدين ، ويثبت السجود كما قال :﴿واسأل القرية﴾ لما كانت القرية من سبب الأهل طرح الأهل وأثبت القرية ، وقد فسرنا يسجدان في موضع آخر ، واستقصاء التفسير فيه مع تفسير قوله :﴿وإن من شئ إلا يسبح بحمده﴾ .

﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾ معنى ﴿رفعها﴾ هو علقها سماء وأقلها فوق الأرض ﴿ووضع الميزان﴾ فهو جعل الميزان وهدى إليه ﴿ألا تطغوا في الميزان﴾ يقول : لا تظلموا فيه ولا تحتالوا بحيلة باطل عليه ، واستوفوا به وأوفوا ، فقد جعلته عدلا بيننا وبينكم ، وخلقته مبينا لكم ﴿وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا﴾ واعدلوا الوزن ، وأوفوا بالحق ، ولا تبخسوا الميزان ﴿والأرض وضعها للأنام﴾ ومعنى وضعها : هو خلقها وبسطها ومهدها ﴿للأنام﴾ فهم الخلق ﴿فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام﴾ فالفاكهة : هي الفاكهة المعروفة من ألوان الفواكه والأشجار ، والنخل : فهي النخل المفهومة ذات الأكمام ، وتبقى الأكمام معلقة لا شئ فيها ، وهي القشور التي تكون عليه أول ما تخرج ﴿والحب ذو العصف والريحان﴾ فالحب ذو العصف : فهو الحب من البر والشعر ، والعصف فهو القصب الذي يدق فيكون تبنا وهو الذي ذكر الله عز وجل أنه جعل أهل الفيل كالعصف المأكول . والريحان هاهنا : فهو الرزق الواسع من الرحمن ، وهو في لغة العرب موجود ، اطلب من ريحان الله ، **أي:** اطلب من رزق الله ، ولربما صنف العرب الرزق ريحانا لما لها فيه من الطيب والمعيشة والإحسان .

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ يقول : بأي نعم الله وإحسانه تكذبان ، ومعنى تكذبان أيها الثقلان ، والثقلان : فهمـــا الجـــن والإنس ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾ والإنسان : فهو آدم عليه السلام ، وهو بدء الناس ، والذي تفرعوا منه كلهم ، والصلصال: فهو الطين اليابس الذي يتصلصل إذا حرك عند يبسه، وصدم بعضه بعضا ﴿كالفخار﴾ يقول : هـــذا الطـــين في التيبس والصلصلة كالفخار الذي [يظهر] صوته إذا دقر بعضه ببعض ، وإنما كان آدم صلصالا من بعد تصوير الله له جسما من صلصال قبل أن ينقله إلى الشحم والعظم والدم ، ومن قبل الصلصال كان طينا لازبا رطبا منفلكا .﴿وخلق الجان من مارج من نار﴾ والجان : هي الجن كلها ، والمارج : الذي خلقت الجن منه : فهو اللسان الذي ينقطع ويذهب في الهواء مـــن النـــار إذا أججت وأوقدت ، وهو خالص النار وحقيقتها ، وإنما سمي مارجا لمرجه في الهواء ، ومرجه : فهو ذهابه وسرعته ، تقول العرب : فلان قد مرج ، أي : قد ذهب في معناه وأسرع ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان رب المشرقين ورب المغربين﴾ فقد تقدم تفسير ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ والمشرقان والمغربان : فهما مشرقا الشمس والقمر ومغرباهما من حيـــث يطلعـــان في الصيـــف ويغيبان ، وذلك أن لهما في الشتاء مطلع ومغرب ، وفي الصيف مطلع ومغرب غير مطلع الصيف ومشرقه ﴿مـــرج البحريـــن يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان﴾ ﴿مرج البحرين﴾ معناها: خلقهما وجعلهما وبعثهما وأجراهما ، وإساحتهما على وجه الأرض ، وهذا كاحتجاجنا في قوله :﴿مرج﴾ وفي قول العرب : مرج الإنسان ، وقد تقدم شرح ذلك في أول السورة ، والبحـــران : فهما البحر المالح ، والبحر العذب ، وهو الذي يسمى دجلة ، والبحر المالح الذي بمصر إلى فارس ، وهما يلتقيان ويصطدمان ، وقدرهما على ذلك ـــ سبحانه ـــ من الشأن فيلتقي البحران حتى ينظر إليهما الناظر بالعينين ، ويقف السفر علـــى ملتقاهمـــا فينظر شق السفينة هذا أخضر ، وشقها هذا أبيض ، يشرب من يمينها مالحا ومن يسارها عذبا ، ليس بينهما سبب يحجزهمـــا ، ولا معنى ﴿بينهما برزخ﴾ والبرزخ : فهو فعل الله تبارك وتعالى فيهما ، وتقديره لالتقائهما واصطدامهما وما حجزهما به من قدرته سبحانه عن اختلافهما كما قال ذو الجلال والسلطان :﴿بينهما برزخ لا يبغيان﴾ ومعنى ﴿يبغيان﴾ فهو : لا يجوزان ما جعلا له ، ولا يقدران على أن يخرجا مما ركبا عليه ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ فـــاللؤلؤ : هـــو اللؤلؤ المعروف المستغني بفهم من سمع ذكره له من تفسير معناه ، والمرجان : فهو شئ أحمر يخرج منه فيجعل خرزا يلبسه مـــن شاءه وأراده ﴿وله الجواري المنشآت في البحر كالأعلام﴾ فهي قلوعها التي ترفع بالحبال في رؤوس الأدقال لتدخل الريح فيهـــا فتجري بها فتحملها على ظهر الماء بتقدير ربها ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام فبأي آلاء ربكمـــا تكذبان﴾ يخبر سبحانه أن كل شئ فان مما عليها ، وهذه التي ذكر الله سبحانه أنما عليها يفنى فهي الدنيا ، أراد بعليها كل مـــن فيها ، فقامت على مقام في ، والدنيا : فهو كل ما خلق من سماوات وأرضين ، وما فيهن وبينهن إنسيين أو جنيين ، ﴿ويبقـــى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ فمعنى ﴿وجه ربك﴾ هو ربك ، أراد الذات ، لا أن ثم وجها موجها ، وأعضاء غير مؤلفـــة ـــ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، فأخبر سبحانه أن كل ما في الدنيا فان ، وأنه تبارك وتعالى الوارث كل شئ البـــاقي .يقـــرأ بالخفض ﴿ذي الجلال﴾ ولا يجوز أن يقرأ : ذو الجلال ، كما يقرأها الجهال ، ردا على ربك ، لا ردا على الوجه . الجـــلال : فهو الكبرياء والعظمة والمحال . والإكرام : فهو التقديس والإجلال والإنعام ﴿يسأله من في السموات والأرض كل يوم هـــو في شأن فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ معنى ﴿يسأله من في السموات والأرض﴾ فهو : تطلب منه الحوائج وتسأله الفضل والـــرزق

قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام: الإنسان معروف ، وهذا اسم عام للذكر والأنثى ، يقال : هذه الإنسان ، وهذا الإنسان ، وقول من يقول : إنسانة لا أصل له إلا القياس .

قيل : يريد آدم ، وقيل : محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل : جنس الإنسان ، أي : خلق الناس جميعا .

وقال في البرهان : ﴿علمه البيان﴾ يعني : ما فيه من الحلال والحرام ، والنسخ والأحكام، والهداية إلى أوامر الله عز وجل .

وفي الكشاف : ﴿علمه البيان﴾ أي : المنطق . عدد الله آلاءه فبدأ بأهمها ، وهي نعمة الدين ، وقدم ما هو أعلى مراتبها ، وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه ؛ لأنه أعظم وحي الله رتبة ، وأحسنه في أبواب الدين أثرا ، ثم عقبه بخلق الإنسان ليعلم أنما خلقه للدين والعلم بوحيه وكتبه .

ثم ذكر ما يميز به باللسان من البيان ، وهو المنطق الفصيح المعرب عما في ضميره . اهـ لأن المقصود تعديد النعم على الإنسان ومطالبته بالشكر ، ومنعه عن التكذيب .

ثم قال تعالى :﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ أي : يجريان بحسبان ، قال الأخفش : أضمر الخبران إن الخبر يجريان مقدران قبل قوله :﴿بحسبان﴾ أي: بحسبان معلوم له ، وتقدير سوي، يجريان في بروجهما ومنازلهما ، وفي ذلك منافع منها علم السنين والحساب .

قال في البلغة : قيل : حسبان مصدر كالشكران والكفران ، وقيل: حسبان جمع حساب، كشهاب وشهبان .

قال الهادي عليه السلام: ومعنى بحسبان يقول : خلقهما للحساب ، يعرف بهما السنون والشهور والأزمان ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [1] فمعنى سجودهما : هو إسجادهما

والمغفرة والرحمة ﴿كل يوم هو في شأن﴾ يقول : كل يوم هو في تقدير ما يحتاج إليه ملكه ، وتقدير أمر خلقه من موت من يموت ، أو خلق من يخلق . (وقد جاء ما نقلناه آخرا في ثنايا تفسير هذه السورة ولكن أردنا جمعه هنا تبركا وتيمنا بتفسير الإمام الهادي عليه السلام فنقلناه مجموعا) .

(١) قال الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليه السلام في كتابه المجموع (مخطوط من خزانة والدي العلامة إسماعيل بن عبد الله الهاشمي رحمه الله) :

للمعتبرين المستدلين على الله ممن رآهما ، فلما أن كان معنى السجود من معنى الساجدين جاز أن يطرح الساجدين ، ويثبت السجود ، كما قال :﴿واسألوا القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها﴾[1] وإنما أراد أهل القرية وأهل العير ، فلما أن كانت القرية من سبب الأهل طرح الأهل وأثبت القرية [2]. اهـ

قال في التجريد : في النجم قولان : أحدهما ـ أنه مالا ساق له من النبات الذي نجم من الأرض كالبقول ، وهو قول ابن عباس والسدي .

والثاني : أنه نجم من السماء ، والشجر ماله ساق كالتين والرمان ، وسائر الأشجار القائمة ، وسجودهما يريد سجودهما لأن يدلان على وجوب السجود لله تعالى ، وإنما أخبر عنهما بالسجود وإن كان حاصلا في الشمس والقمر ؛ لأن السجود يناسبهما من حيث هما في الأرض ، ولأن ظلالهما يسجد ، ولا ضلال للشمس والقمر .

قال الرازي : وفي الترتيب وجوه أحدها : أن الله تعالى لما بين كيفية رحمن ، وأشار إلى ما هو شفاء ورحمة وهو القرآن ـ ذكر نعمه وبدأ بخلق الإنسان ، فإنه نعمة جميع النعم به تتم ، ولولا وجوده لما انتفع بها ، ثم بين نعمة الإدراك بقوله :﴿علمه البيان﴾ وهو كالوجود إذ لولاه لما حصل النفع والانتفاع .

وأما قوله :﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ فقد قال بعض العلماء : إن معنى السجود سجود ظلال الأشياء ، ووقوعها على الأرض ، وقال بعضهم : إن هذا على المثل ، يقول : إنه لو كان في شئ من الأشياء من الفهم والتميز مثل ما جعل الله في الآدميين ، والشياطين والملائكة المقربين ، إذا لعبد الله كل شئ ، وسبحه بأكثر من عبادة الآدميين وتسبيحهم ، فجعل هذا مثلا، كما قال سبحانه :﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾ أراد تبارك وتعالى : أنه لو كان في السموات والأرض والجبال من الفهم والتميز ما في الآدميين ، ثم عرض عليها ما عرض على الآدميين ، من حمل الأمانات التي قبلها الآدميون لأشفقت السموات والأرض والجبال من حملها ، ولما قامت بما يقوم به الآدمي من نقضها ، مع ما في الأمانة من الخطر، وعظيم الأمر على من لم يؤدها على حقها ، ويقم بها على صدقها .

(١) يوسف : ٨٢ .

(٢) وفي مسائل الإمام القاسم عليه‌السلام (مجموع تفسير الأئمة عليهم‌السلام) : وأما ما سألت عنه من ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ فتأويله : يخضعان لله ، ويذلان بكل ما فيهما من أصل وفرع ، أو مفترق عن أفنائهما أو مجتمع .

ثم ذكر من المعلومات نعمتين ظاهرتين هما أظهر أنواع النعم السماوية ، وهي الشمس والقمر ، ثم بين كمال نفعهما في حركتهما بحسبان لا يتغير ، ولو كانت الشمس ثابتة في موضع لما أنتفع بها أحد ، ولو كان سترها غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها ، وبناء الأمر على الفصول .

ثم بين في مقابلتهما نعمتين ظاهرتين من الأرض وهو النبات الذي لا ساق له ، والذي له ساق ، فإن الرزق أصله منه ، ولولا النبات لما كان للآدمي رزق إلا ما شاء الله ، وأما أن النبات هو أصل الرزق فلأنه إما نباتي وإما حيواني ، ولولا النبات لما عاش الحيوان ، والنبات هو الأصل قائم على الساق كالحنطة والشعير والأشجار الكبار ، وغير قائم كالبقول المنبسطة على الأرض .

ثانيها : أنه تعالى لما ذكر القرآن وكان هو كافيا لا يحتاج معه إلى دليل آخر قال بعده : ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ ، ﴿والشمس﴾ ﴿والنجم والشجر﴾ وغيرهما من الآيات إشارة إلى أن بعض الناس إن لم تكن النفس الذكية في الدلائل فله في الآفاق آيات منها : الشمس والقمر ، وإنما اختارهما للذكر ؛ لأن حركتهما بحسبان تدل على فاعل مختار سخرها على وجه مخصوص ، وذكر الأرض والسماء وغيرهما إشارة إلى ما ذكرنا من الدلائل العقلية المؤكدة لما في القرآن من الدلائل السمعية .

ثم ذكر وجها ثالثا تركناه استغناء بهذين الوجهين .

ثم قال الهادي عليه السلام: معنى ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ فهو علقها سماء ، وأقلها فوق الأرض . اهـ

وإنما فعل ذلك لحكم ومصالح منها : أن تجري الرياح بينها وبين الأرض ، ويتسع الهواء للسحاب ، ولأنه يجعل ما بين ذلك طريقا للطير ومسكنا للجو ؛ ولأنه جعل السماء مسكن ملائكته ومنشأ أحكامه ، ففي بعدها عن الأرض التي هي مقر الثقلين تبعيد عن معرفة بعض الغيب ، الذي أراد أنه تعالى أن لا يطلع عليه الثقلين ، ولغير ذلك .

ثم قال تعالى :﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ في الكشاف ﴿الميزان﴾ : كلما يعرف به مقادير الأشياء من مكيال وميزان ومقياس ، أي : خلقه موضوعا محفوظا

على الأرض للتسوية والتعديل بين عباده في أخذهم وإعطائهم . اهـ

والعطف على الجملة الابتدائية التي هي قوله :﴿والشمس والقمر﴾ ﴿ووضع الميزان﴾ إشارة إلى العدل ، وفيه فائدة ، وهي أنه تعالى بدأ أولا بالعلم ثم ذكر ما فيه أشرف العلوم ، وهو القرآن ، ثم ذكر العدل ، وذكر أخص الأمور له وهو الميزان وهو كقوله : ﴿وأنزل الكتاب والميزان﴾ فالمراد بالميزان : العدل ، ووضعه : شرعه ، كأنه قال : شرع الله العدل لئلا تطغوا في الميزان الذي هو العدل ، وإطلاق الوضع للشرع والميزان للعدل جائز ، ومثل هذا في البرهان ، واستشهد بقول حسان :

ويثرب تعلم أني بها إذا التبس الحق ميزانها

وقال الهادي عليه السلام: معنى ﴿ووضع الميزان﴾ فهو : جعل الميزان وهدى إليه ﴿ألا تطغوا في الميزان﴾ يقول : لا تظلموا فيه ، ولا تحتالوا بحيلة باطلة عليه ، واستوفوا به وأوفوا ، فقد جعلته عدلا بيننا وبينكم ، وخلقته مبينا . اهـ

ثم قال سبحانه :﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ ﴾ في المعاملات ﴿بِالْقِسْطِ ﴾ أي : قوموا وزنكم بالعدل ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ أي : لا تنقصوه واعدلوا الوزن ، وأوفوا بالحق ، ولا تبخسوا وهو أمر بالتسوية ، ونهي عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة ، وعن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان ، وكرر لفظ الميزان تشديدا للتوصية ، وتقوية باستعماله والحث عليه .

ثم قال سبحانه :﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ أي : خلقها وسطحها ومهدها للأنام وهم الخلق ، أي : كلما على الأرض من دابة ، وقيل : الأنام الناس ، وإنما خص الإنسان بالذكر لأن انتفاعه بها أكثر ، فإنه ينتفع بها ، وبما فيها وبما عليها ، وقيل : الجن والإنس عن الحسن فهي كالمهاد يتصرفون فيها خفضها مدحوة على الماء .

﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ قال الهادي عليه السلام: فالفاكهة هي الفاكهة المعروفة من أنواع الفواكه والأشجار ، أي : ضروب مما يتلذذ به ﴿وَالنَّخْلُ ﴾ فهي : النخل المفهومة ﴿ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ هي قشر الطلع الذي ينشق عما فيه من الشماريخ ، حتى يخرج التمر من جوف الأكمام ، وتبقى الأكمام معلقة لا شئ فيها ، وهي القشور التي تكون عليه أول ما يخرج . اهـ

والأكمام : جمع كم بكسر الكاف ، وهو غلاف التمر ، الذي يغطيه ، والفاكهة : ما تطيب النفس ثم صار اسما لبعض الثمار ، والتنكير فيها للتكثير ، أي : كثيرة ، وكأن القائل يشير إلى أنه عظيم لا يحيط به كل أحد .

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ قال الهادي عليه السلام: فالحب فهو الحب من البر والشعير ، والعصف : فهو القصب الذي يدق فيكون تبنا ، وهو الذي ذكر الله عز وجل أنه جعل أهل الفيل كالعصف المأكول . اهـ

وقيل : ورق الزرع ، والريحان : هو الرزق ، وهو اللب أراد فيه ما يتلذذ به من الفواكه، والجامع بين التلذذ والتغذي وهو تمر النخل ، وما يتغذى به وهو الحب .

قري (والريحان﴾ بالكسر، أي : الحب ذو العصف ، الذي هو علف أنعامهم ، والريحان: الذي هو مطعم الناس ، وبالرفع أي : وذو الريحان ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وقيل : معناه أي : وفيها الريحان الذي يشم ، والمعنى : فيها الحب الذي يجمع قوت الناس وقوت البهائم ، وفيها أيضا ما يشم ، لأن المشمومات غذاء الأرواح ، قال النمر بن تولب :

سلام الإله وريحانه ... وجنته وسماء درر

ذكر هذا في البرهان[1] .

قال بعض علمائنا عليهم السلام : وأما تفسير الريحان بالرزق فبعيد ، وأما ما حكاه الفراء عن العرب أنهم يقولون : خرجنا نطلب ريحان الله أي : رزقه ، فيحتمل التشبيه والمجاز . اهـ

قلت : لا وجه للبعد في ذلك ، كيف والدليل عليه قائم ، وهو أيضا صريح قول الهادي عليه السلام فإنه قال ما لفظه : والريحان هاهنا فهو الرزق الواسع من الرحمن ، وهو في لغة العرب موجود ، تقول : اطلب من ريحان الله ، أي : اطلب من رزق الله . اهـ

ثم قال تعالى :﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ حيث تكفران ولا تشكران .

---

(١) ولفظ البرهان (والريحان : هو الذي يشم ، لأن المشمومات غذاء الأرواح ، قال النمر بن تولب :

سلام الإله وريحانه ... وجنته وسماء درر

والآلاء : النعم ، والخطاب للجن والإنس بدلالة قوله :﴿الأنام﴾ فيما سبق ؛ لأن الأنام اسم للجن والإنس ، فعاد الضمير إلى ما في الأنام ، وبدلالة قوله :﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ فيما سيأتي ، ومثل هذا قاله الهادي عليه السلام.

ثم قال تعالى :﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ﴾ قال عليه السلام: والإنسان : فهو آدم عليه السلام وهو بدء الناس ، والذين تفرعوا منه كلهم ، والصلصال : فهو الطين اليابس الذي يتصلصل إذا حرك عند يبسه وصدم بعضه بعضا[1] ﴿ كَالْفَخَّارِ﴾ يقول : هذا الطين في اليبس والصلصلة كالفخار الذي صوته إذا دقر بعضه ببعض ، وإنما كان آدم عليه السلام صلصالا من بعد تصوير الله له جسما من صلصال قبل أن ينقله إلى اللحم والعظم والدم، ومن قبل الصلصال كان طينا لازبا رطبا متعلكا . اهـ

والفخار : الطين المطبوخ بالنار ، وهو الخزف .

ثم قال تعالى :﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ ﴾ قيل : أبو الجن ، وقيل : هو إبليس ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ المارج : اللهب الصافي لا دخان فيه ، وقيل : المختلط بسواد النار ، من مرج الشيء إذا اضطرب واختلط ، وقوله :﴿من نار﴾ بيان لمارج كأنه قيل : من صاف من نار ، أو مختلط من النار ، أو أراد من نار مخصوصة .

وقال الهادي عليه السلام: والجان هي الجن كلها ، والمارج الذي خلقت الجن منه : فهو اللسان الذي ينقطع ويذهب في الهواء ، ومرجه : فهو ذهابه وسرعته ، تقول العرب : فلان قد مرج أي : ذهب في معناه وأسرع . اهـ

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قال في التجريد : وإنما كررت هذه الآية للتأكيد ، قال ابن قتيبة : لما عدد الله في هذه السورة نعماءه ، وأذكر عباده آلاءه ، ونبههم على قدرته جعل بين كل نعمتين ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ليفهمهم النعم ، ويقررهم بها ، كما تقول لرجل : ألم أسكنك منزلا ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم أعطك مالا أفتنكر هذا ؟ ألم أنصرك

---

(١) وفي مسائل الإمام الهادي عليه السلام (تفسير الأئمة ص ٤٢٢) : والصلصال : فهو الطين اليابس .. فهو يتصلصل ويتقعقع إذا أصاب بعضه بعضا .

على عدوك أفتنكر هذا ؟.

فإن قيل : المقصود تعديد النعم على الإنسان فما وجه بيان خلق الجان ؟ الجواب من وجوه أحدها : ما بينا أن قوله ﴿ربكما﴾ خطاب مع الإنس والجن ، ثانيها : بيان فضل الله تعالى مع الإنسان حيث بين أنه خلق من أصل كثيف كدر ، وخلق الجان من أصل لطيف ، فإنه إذا نظر إلى أصله علم أنه ما نال الشرف إلا بفضل الله تعالى .

ثالثها : أن الآية مذكورة لبيان القدرة لا لبيان النعمة .

ثم قال تعالى :﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ مشرقي الصيف والشتاء ﴿وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مغربيهما ، قال الهادي عليه السلام : والمشرقان والمغربان فهما مشرقا الشمس والقمر ومغرباهما حيث يطلعان في الصيف ويغيبان ، وذلك أن لهما في الشتاء مطلع ومغرب ، وفي الصيف مطلع ومغرب غير مطلع الصيف ومشرقه ؛ لأنه تعالى لما قال : ﴿والشمس والقمر بحسبان﴾ دل على أن لهما مشرقين ومغربين .

ثم قال تعالى ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ مرج البحرين معناه : خلقهما وجعلهما وبعثهما وأجراهما وأساحهما على وجه الأرض ، وهذا كاحتجاجنا في قوله :﴿مرج﴾ وفي قول العرب : مرج الإنسان ، وقد تقدم شرحه في أول السورة .

والبحران : فهما البحر المالح والبحر العذب ، وهو الذي يسمى دجلة ، والبحر المالح الذي بمصر إلى فارس ، وهما يلتقيان بموضع يقال له رأس نهر السد عند مقصاه من البصرة ، ومعنى ﴿يلتقيان﴾ فهو : جعلهما يلتقيان ويصطدمان ، وقدرهما على ذلك سبحانه من الشأن فيلتقي البحران حتى ينظر إليهما الناظر بالعينين ، وتقف السفن على ملتقاهما فينظر شق السفينة هذا أخضر ، وشقها هذا أبيض يشرب من يمينها مالحا ، ومن يسارها عذبا ليس بينهما سبب يحجرهما ، ولا معنى .

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ والبرزخ : فهو فعل الله تبارك وتعالى فيهما وتقديره لالتقائهما واصطدامهما ، وما حجرهما به من قدرته سبحانه عن اختلاطهما كما قال ذو الجلال والسلطان:﴿بينهما برزخ لَا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ومعنى﴿لا يبغيان﴾ فهو:

لا يجوزان ما جعلا له ، ولا على أن يخرجا مما ركبا عليه . اهـ

أي : لا يتجاوز أحدهما ولا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة .

واعلم أن الماءين في طبعهما السيلان والالتقاء ، والبرزخ قدرة الله تعالى التي تمنعهما .

ثم قال تعالى :﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ ﴾ قال عليه السلام: فاللؤلؤ هو اللؤلؤ المعروف المستغنى بفهم من يسمع ذكره له عن تفسيره ومعناه ﴿وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فهو شئ أحمر يخرج منه فيجعل خرز يلبسه من شاءه وأراده . اهـ

اللؤلؤ : الدر الأبيض ، والمرجان : الخرز الأحمر ، وقيل : اللؤلؤ كبار الدر ، والمرجان : صغاره ، وقال :﴿منهما﴾ قيل ــ والله أعلم ــ : من أحدهما وهو الملح ؛ لأنهما لما التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز ذلك كما يقال : يخرجان من البحر ، ومعلوم أنهما لا يخرجان من جميعه لكن من بعضه ، وكما يقال : خرجت من البلد وإنما خرج من دار واحدة ، وقيل : إنما يخرجان من ملتقاهما .

﴿وَلَهُ الْجَوَارِي ﴾ أي : السفن الجارية ﴿الْمُنشَآتُ﴾ أي : المرفوعات الشرع جمع شراع ، وهو القلع الذي يسير السفينة .

وقال عليه السلام: قلوعها التي ترفع بالحبال في رؤوس الأدقال لتدخل الريح فيها فتجري بها فتحملها على ظهر الماء بتقدير ربها .

﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ جمع علم ، وهو الجبل الطويل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ هالك يخبر سبحانه أن كل شئ فان مما عليها ، وهذه التي ذكر الله سبحانه إنما عليها يفنى فهي الدنيا ، أراد بعليها كل من فيها ، فقامت على مقام في ، والدنيا : فهي كل ما خلق من سموات وأرضين وما فيهن وبينهن من ملائكة ، أو جنيين أو إنسيين . اهـ

ثم قال تعالى :﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ أي : ذاته ، والوجه يعبر به عن الجملة والذات ؛ لأن الوجه يستعمل في العرب لحقيقة الإنسان ، ألا ترى أن الإنسان إذا رأى وجه غيره يقول : رأيته ، وإذا رأى غير وجهه من اليد والرجل مثلا لا يقول : رأيته ــ ثم نقل إلى غيره من الأجسام ، ثم نقل إلى ما ليس بجسم ، يقال في الكلام : هذا وجه حسن ، هذا

وجه ضعيف ، وقول من قال : إن الوجه من المواجهة كما هو المسطور في البعض من الكتب الفقهية ، فذلك فاسد ، والأمر على العكس ، قاله الرازي .

وقوله ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ صفة للوجه ، أي : ذو الجلال قالوا : بالواو إجماعا .

وقال الهادي عليه السلام: معنى ﴿ويبقى وجه ربك﴾ هو : ربك ، أراد الذات ، لا أن ثم وجها موجها ، وأعضاء كغيره مؤلفة ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا ، فأخبر سبحانه أن كل ما في الدنيا فان ، وأنه تبارك وتعالى الوارث كل شئ الباقي[1].

---

(١)في مجموع الإمام الهادي إلى الحق يحي بن الحسين عليه السلام (مخطوط من خزانة والدي العلامة إسماعيل بن عبد الله الهاشمي رحمه الله تعالى ص ٢٧) ما لفظه :

باب تفسير قول الله سبحانه :﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ والرد على من قال : إن لله وجها وإنه صورة

يقال لأهل الجهالة والضلال فيما يقولون به في الله ذي الجلال ، ويصفونه به من الكذب والمحال ، وينسبون إليه من فاسد المقال : ماذا تقولون في قول الله ربكم ؟ وما تعتقدون إذ أنتم في قولكم تزعمون أن لربكم وجها كالوجوه التي تعقلون ، وأنه ذو أبعاض فيما تصفون ﴿كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون﴾ أفتقولون : إنما سوى وجهه في سائر أعضائه التي تذكرون ، يبقى معه أم يفنى دونه ؟ فإن قالوا : يبقى معه . قيل : وكيف يكون ذلك كذلك ، و لم يذكر البقاء لشئ من ذلك ، فلقد قلتم بخلاف قول العلي الأعلى ، إذ لم يحكم لغير الوجه بالبقاء ، وأنتم تقولون : إنه يبقى مع الوجه غيره من الأعضاء ، فلقد بقي مع الوجه إذا شئ وأشياء ، وإن قالوا : لا يبقى مع الوجه غيره من الأعضاء . قيل لهم : فقد دخل على الله سبحانه في قولكم الزوال ، والفناء ، والإمحاق ، والذهاب ، والهلاك ، والبلى ، إذ بعضهم في قولكم يموت ويزول ، ويتغير ويفوت ، فلقد أدخلتم على خالقكم الصفات الناقصات الزائلات وأزحتم عنه ما وصف به نفسه من البقاء في كل الحالات ، فلا تجدون بدا من أحد هذين المعنيين المحالين الباطلين في الله المخالفين الذين تكونون بانتحال أحدهما بالله كافرين ، وفي دينه فاجرين ، ولجميع أهل الإسلام مخالفين ، ومن الإيمان

والحق خارجين ، أو ترجعوا إلى قول المحقين ، وتتابعوا في مقالتكم الموحدين ، فتقولوا كما يقولون : إن معنى الوجه في الله سبحانه وتعالى عن كل شأن شأنه : هو الله ، وأنه ليس بذي أعضاء ، ولا أبعاض ، ولا أجزاء ، وذلك فمعروف في العربية ، يعرفه كل من فارق لسان الأعجمية ، من ذلك ما تقول العرب : هذا وجه بني فلان ، تريد أنه المنظور إليه منهم في كل شأن ، وأنه رجلهم وسيدهم ، والقائم في كل أمر دونهم ، وتقول العرب : هذا وجه المتاع . تريد بذلك أنه أفضل ما يتاع ، وتقول : هذا وجه الرأي ، أي : محضه وصدقه ، وصوابه في كل أمر وحقه ، لا أن له وجها كما يعرف من الوجوه المخلوقة في البشر المجعولة المقدرة المركبة المصورة ، وفي ذلك وما كان كذلك ما يقول الشاعر :

وقد يهلك الإنسان من وجه أمنه ... وينجو بإذن الله من حيث يحذر

فقال : من وجه أمنه ، وليس للأمن وجه ، ولا صورة ، وإنما أراد أنه يعطب من الوجوه المأمونة عنده المحمودة ، وقال آخر :

فأسلمت وجهي لمن أسلمت له ... الأرض تحمـل صخرا ثقالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له ... المزن تحمـل عـذبان لالا

وقال آخر : أضحت وجوههم شتى وكلهم ... يرى لوجهته فضلا على الملل

فقال : أسلمت وجهي ، وإنما أراد أسلمت ديني فاستسلمت ، وقصدت خالقي بكل عملي ، لا أنه أسلم وجهه دون قلبـه ، ولا قلبه دون عمله ، ولا عمله دون نفسه وقوله .

ومن الحجة فيما قلنا به من البيان ، من أن وجهه هو لا بعضه في قيم اللغة واللسان ما يقول الشاعر :

إني بوجه الله من شر البشر ... أعوذ من لم يعذ الله دمـر

وقال آخر : أعوذ بوجه الله من شر معقل ... إذا معقل راح البقيع وهجرا

ومما يحتج به أهل اللغة ، وبما قالت في ذلك ما يقول العلي الأعلى مما بين فيه أن وجهه (هو) لا بعضه ما يقول :﴿وما أتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾ فقال : تريدون وجه الله ، وإنما أراد سبحانه : تريدون الله ، ومن ذلك ما حكى رب العالمين عن خير خلقه أجمعين ، محمد وأهل بيته الطيبين فيما كان من إطعامهم لمن ذكر الله من الأسير ، واليتيم ، والمسكين ، حين يقول :﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾ فقال سبحانه: ﴿نطعمكم لوجـه الله﴾ ذي العـزة والسلطان ، وإنما أراد بذلك الله الواحد العزيز الرحمن ، وقال سبحانه فيما نزل من الفرقان :﴿ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شئ قدير﴾فقال سبحانه :﴿ولكل وجهة﴾أي : لكل مؤتم وقبلة ، و لم يرد بذلك من القول والخبر أنه وجه مصور في صورة من الصور

وقال :﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن﴾ الآية ، فقال :﴿من أسلم وجهه﴾ أراد بذلك سبحانه من سلم نفسـه لربـه، واستسلم له في جميع أموره ، وأخلص له سبحانه دينه ، وقال جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله :﴿فأقم وجهـك للديـن القيم﴾ فأمره بإقامة وجهه للدين ، والإخلاص في ذلك لرب العالمين ، و لم يرد الوجه دون القلب وسائر الأبعاض والأعضـاء ، وإنما أراد بذلك العلي الأعلى : أقم نفسك لخالقك وربك، وتأويل (أقم وجهك) فهو : قم بالدين بكليتك لمصورك وجاعلك ، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه :﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ فلم يرد سبحانه فيما ذكر عنهم أن للنهار وجها ، كما يعقل من الوجـوه ذوات التصاوير ، التي أمر بغسلها عند الوضوء ، فتقدس عن ذلك العلي الكبير .وقال عز وجل :﴿ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة علـى وجهها﴾ يريد على حقيقتها وصدقها ، لا أن لها وجها عند جميع الخلق غير ما قلنا به من الحقيقة والصدق ، ومن الحجـة في ذلك ، والبيان ما يقول الله ذو الجلال والسلطان :﴿فأين ما تولوا فثم وجه الله﴾ ولو كان كما يصف المشبهون ، ويقول به في الله الجاهلون : إنه وجه كما يعرف من وجوه المخلوقين ـــ تعالى وتقدس عن ذلك ـــ إذا لما كان في كل النواحي والأقطـار . فتعالى عن ذلك العلي الواحد الجبار ، إذ المتوجه يتوجه شرقا وغربا ، ويمنا وشاما ، فلا يكون أبدا وجه واحد وجوها ، كما لا

(ذي الجلال) يقرأ بالخفض والياء ، ولا يجوز [أن] يقرأ بالضم والواو (ذو الجلال) كما يقرأها الجهال ردا على ربك ، لا ردا على الوجه . الجلال : فهو الكبرياء والعظمة والمحال والإكرام ، وهو التقديس والإجلال والإنعام . اهـ

قال في الكشاف : وقرئ (ذي الجلال) صفة لربك ، ومعناه ذو العظمة والإكرام ، أو الذي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه ، أو الذي يقال له : ما أجلك وأكرمك ! ، أو من عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده .

قال فيه : فإن قلت ـــ ما النعمة في ذلك ؟ قلت : أجل النعمة وأعظمها ، وهي مجيء وقت الجزاء عقيب ذلك . اهـ

ثم قال عليه السلام: ومعنى ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو : يطلب منه الحوائج ، ويسأله الفضل والرزق والمغفرة والرحمة .

وفي البرهان : أما من في السماء فهم الملائكة يسألونه الرحمة ، والمنازل الرفيعة ، ولا يسألون الرزق ، وأهل الأرض يسألون الرزق والمغفرة . اهـ

ثم قال سبحانه :﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال عليه السلام: يقول: كل يوم هو في تدبير ما يحتاج إليه ملكه ، وتقدير أمر خلقه من موت من يموت وخلق من يخلق . اهـ

وقيل : معنى ﴿كل يوم﴾ أي : كل وقت يحدث أمورا ، ويجدد أحوالا ، قال صلى الله عليه وآله وسلم لمن سأله عن ذلك الشأن : (يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ، ويضع آخرين) .

قال في التجريد : نزلت حين قالت اليهود : إن الله لا يقضي يوم السبت شيئا .

وروي أن بعض الملوك سأل وزيره عنها فعيي عليه الجواب واستمهل ، فقال له غلام أسود: شأن الله أن يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل،ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ويشفي سقيما ، ويسقم صحيحا ، ويبتلي معافى ، ويعافي مبتلى

تكون الوجوه الكثيرة وجها ، وإنما أراد بقوله :﴿فثم وجه الله﴾ أي : الموجود بكل جهة الله الذي هو سبحانه بالمرصاد لا يغيب عنه شيئ من ضمائر أسرار العباد ، وهو المحيط بالغيوب ، ذو المن والأياد .

فرفعه إلى الملك ، فقال سيده : اخلع ثياب الوزارة .

قوله تعالى :﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وعيد ، مستعار من قول الرجل لمن يتهدده : سأفرغ لك ، يريد سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلني حتى لا يكون لي شغل سواه ، والمراد التوفر إلى النكاية والانتقام .

واعلم بأن الله تعالى يوصف بكونه لا يشغله شأن عن شان ، ومعناه : أن الشأن الواحد لا يصير مانعا له تعالى عن شأن آخر ، كما أنه يكون مانعا لنا ، بل يوجد منه تعالى من الأفعال مالا يحصر ولا يحصى في آن واحد ، إذا عرفت هذا فقد أفادك التحقيق في قوله : ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ .

وما أحسن قول الهادي عليه السلام في معنى ذلك فإنه قال : معنى ﴿سنفرغ لكم﴾ هو سنفرغ من إفناء الأجل الذي جعلناه أجلا لإمهالكم وتأخيركم ، فإذا أفنينا هذه المدة وفرغنا منها أتى كُلاً ما أوعدناه عند فناء مدته ، وانقضاء مهلته وإمهاله من موت أو حلول نقم ، فهذا معنى :﴿سنفرغ لكم﴾ و﴿الثقلان﴾ فهما الجن والإنس ، وقد يكون المعنى الذي ذكره الله أنه يفرغ منه هو مدة الدنيا التي جعلها الله ووقتها ، وقد يكون عند فراغه منها وإفنائه لها ما يكون من الجزاء في يوم الدين جزاء للمثابين ، وجزاء للمعاقبين[1]. اهـ

ثم قال تعالى :﴿ يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ أي : جماعة الثقلين ، مشتق من المعاشرة ﴿إِنْ اسْتَطَعْتُمْ ﴾ أي : إن قدرتم على﴿أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: إن قدرتم أن تهربوا من قضائي وتخرجوا من ملكوتي ، ومن جوانب سمائي وأرضي .

وفي البرهان : إن استطعتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هربا من الموت ونحوه ، وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ﴿فَانفُذُوا﴾ ثم قال :﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ أي : لا تقدرون على النفوذ ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إلا بقوة وغلبة ، وأنى لكم ذلك ، وهذا وعيد على مخالفتهم لأمر الله .

---

(١) انظر مجموع تفسير الأئمة (مسائل الهادي عليه السلام) ص ٣٩٣ (مخطوط).

وروي أن الملائكة يوم القيامة تحيط بجميع الخلائق ، فإذا رآهم الجن والإنس هربوا فلا يأتون وجها إلا وجدوا الملائكة قد أحاطت به .

قال أكثر المفسرين : يقال لهم هذا يوم القيامة .

وقال الهادي عليه السلام: هذا إخبار من الله سبحانه ، وتوقيف للثقلين على عجزهما ، وأنهما غير خارجين من قدرته ، ولا إرادته ، ولا ما جعله لهما مسكنا من الأرض والهواء ﴿إلا بسلطان﴾ والسلطان : فهو السبب من الواحد الرحمن ، يقول : لا تنفذوه، أي : لا تقطعونه، ولا تجوزونه ، ولا تخرجون منه إلا أن يشاء الله ذلك فيقدركم على ما يشاء ، وينقلكم إلى ما يحب من الأشياء ، فهذا معنى السلطان ، الذي ذكره العلي الأعلى .

ثم قال تعالى :﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾ أي : على مجرميكما ﴿شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ ﴾ والشواظ : فهو اليسير من النار واللهب ﴿وَنُحَاسٌ ﴾ فهي : الدخان . اهـ

والشواظ : اللهب الخالص ، قال : (ونار حرب تسعر الشواظا) .

وعن ابن عباس : إذا خرجوا من قبورهم ساقهم شواظ إلى المحشر ، والنحاس هنا : دخان قال النابغة الجعدي :

يضيء كضوء سراج السليط لم يجعل الله فيه نحاسا

ذكره في البرهان وغيره ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال عليه السلام: يقول إن نزل بكم ما ذكرنا وأرسلناه عليكم كما قلنا فلم يكن عندكم لأنفسكم انتصار ولا امتناع أي : من عذابنا.

ثم قال تعالى ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ صارت أبوابا لنزول الملائكة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ أي : حمراء كلون الفرس الورد ، وقيل : المراد بالوردة هي الوردة المعروفة .

قال الهادي عليه السلام: هذا في يوم الدين عند تبديل السماء فحينئذ تنشق للبواد والفناء ، ثم تعود وردة كالدهان ، والوردة : إنما هي مثل مثله الله تبارك وتعالى به يخبر أنها تكون عند تمحقها وتقطعها كاصفرار الوردة ﴿كَالدِّهَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يقول : يكون لونها كلون الوردة ، وتكون بعد هذا التجسم كالدهان ، والدهان : فهو المهل الذي شبه الله به في غير هذا الموضع وهو ماء القطران وصفوه ، فأخبر الله سبحانه أنها

تكون كهذا الدهن عند رجوعها إلى الدخان ، الذي منه خلقت من بعد ما هي عليه اليوم من العظم والجسم الذي عليه جعلت[١] . اهـ

قال في البلغة : قال بعض العلماء : السماء أول ما تنشق تحمر ثم تصفر ، ثم تخضر ، ثم تكون ألوانا ، وقيل : السماء تذوب من حر نار جهنم يوم القيامة ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي : يوم تنشق السماء ﴿لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ﴾ بعض الإنس ﴿وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي : جن .

قال زيد بن علي عليه السلام: معناه لا يسأل أحد عن ذنب أحد . اهـ

يعني : لا يقال له : أنت المذنب ، ولا يقال : من المذنب منكم ؟ بل يعرفون بسواد وجوههم وغيره .

وقال في البرهان : هذا موقف من مواقف الآخرة يختم على أفواه القوم ، وتكلم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، وفي مواقف أخر يسألون فينطقون لقوله :﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾[٢] .

وقال الهادي عليه السلام: معنى ﴿لا يسأل﴾ هو : لا يسأل لاستفادة أمر مجهول ، وإنما يسأل للتقريع والإخزاء ، لا على أن يعلم منه شئ من الأشياء [٣].

قال في البلغة : لأنه عالم الغيب والشهادة ، ولكن سؤال توبيخ وتقريع وتبكيت ، ولهذا عقبه بقوله :﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ بعلامتهم المذكورة ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

قال الهادي عليه السلام: السيماء الذي يعرف به المجرمون : فهو خلقهم وشناعتهم واسوداد وجوههم في ذلك اليوم مع آيات كثيرة يبديها الله فيهم ، ويجعلها علامات عليهم بما يعرفهم بها خزنة جهنم فحينئذ يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم ، والنواصي : فهي شعور

---

(١) انظر مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام (مسائل الإمام الهادي عليه السلام) مخطوط ص ٤٩٠.

(٢) الأنبياء : ٢٣ انظر البرهان خ ص ٣٦٥ .

(٣) انظر مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٩١ .

رؤوسهم وأرجلهم حتى تلقيهم في جهنم وبئس المصير [١]. اهـ

والناصية : مقدم الرأس ، قيل : يجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره ، وقيل : تسحبهم الملائكة تارة تأخذ بالنواصي ، وتارة بالأقدام ﴿هَٰذِهِ﴾ أي : يقال لهم: هذه ﴿جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ أي : ماء حار قد انتهى حره .

قال [الهادي]عليه السلام: معنى ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ هو: يعذبون بها وبالحميم والآن فهو: الشديد الحُمُوِّ الحارة جدا، الذي قد انتهى وبلغ في الحرارة كل مبلغ[٢].اهـ

أي يعاقب عليهم بين التصلية بالنار وشرب الحميم ، وقيل : يغمسون في الحميم حتى تنخلع أوصالهم قال :﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ولا نعمة في العذاب إلا أنه أراد الإخبار بذلك لمن هو في دار التكليف ، وهو إنذار وتخويف ففيه نعمة ، وأي نعمة .

ثم قال تعالى :﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ أي : موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب ﴿جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قال في البرهان : يعني لمن خاف بأداء فرائض الله والاجتناب لما حرمه ، والمقام يوم القيامة إذا أزلفت الجنة ، وبرزت النار ، والجنتان : جنة عدن ، وجنة النعيم . اهـ

وقيل : معناه كأنه قيل : لكل خائفين منكما يا ثقلان جنتان ، جنة للخائف الإنسي ، وجنة للخائف الجني ، أو لكل خائف جنة لفعل الطاعة ، وجنة لترك المعصية .

وفي البلغة : جنة داخل قصره ، وجنة خارج قصره .

وأحسن من هذا كله قول المرتضى عليه السلام جوابا عن من سأله عن قوله تعالى : ﴿جنة﴾ و﴿جنتان﴾ و﴿جنات﴾[٣] فقال عليه السلام: إنما خاطبهم الله سبحانه وأوقفهم على ما يعرفون،فالعرب تعرف الجنة ما كان حائطا فنا واحدا سمي جنة ، وما كان من الأشياء فنا وفنان ، سمي جنة وجنتان ،وما كان كثيرا من الفنون سمي جنانا ، إذ كل فن من هذه

---

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٩١ .

(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٩١ .

(٣) في الأصل (وجنان) وليس في القرآن هذا اللفظ وهذا الجمع ، وإنما الموجود من ألفاظ جمع جنة ﴿جنات﴾.

الفنون إذا انفرد وحده انتظمه اسم الجنة ، فإذا اجتمع هو وغيره سمي جنانا ، من ذلك العنب يسمى جنة إذا كان حسنا جميلا ناضرا كثيرا ، ومن ذلك حائط النخل إذا كان ملتفا حسنا كثيرا سمي جنة ، ومن ذلك جميع أنواع الفواكه كلها إذا اجتمعت والتفت كما ذكر الله سبحانه جنة كتابه ، فأخبر عز وجل أن في الجنة من هذه صنوفا مختلفة ، وكل فن منها فهو عظيم جليل مُغْنٍ كثير فلذلك قال سبحانه جنة وجنتان وجنان ، إذ كل صنف من هذه يقوم بنفسه ويدعا باسمه ، فإذا اجتمعت لأولياء الله وأعطوها صارت جنانا لتفننها ، ويجمعها اسم الجنة بتمليكها وعزلها لأصحابها ، المحبين لها ، المخلدين فيها ، والاسم جامع للجنة كلها متفنن عند تحديدها ، فهذا معنى ما سألتم وعليه جواب ما أردتم ، مثل ذلك في افتراقه واجتماعه مثل رجل كان هو وغيره في دار عظيمة فيها حجر له منها حجرتان ، فكان يقال : حجرتا فلان ، وحجرة فلان ، ثم صارت تلك الحجر جميعا له وحواها ملكه فصار القائل يقول : دار فلان ، وهي دور كثيرة إذ حواها ملكه ، ودار بها حَدُّه ، فكذلك جنان ذكرها الله مفترقة ، ثم جمعها بقوله : جنة إذ حواها كله حده الذي جعله الله له وقسمه عليه ، وأعطاه إياه ، فلما أن دخلت كلها في ملكه جاز أن يقال : جنة إذا صارت له مجتمعه ، كما كانت تلك الدار تنسب له فيها حجرة وحجرتان ، فلما أن ملكها بجميع حجرها جمعها اسم الدار وهي مفترقة إذ صارت في يده ، وإنما قال الله تبارك وتعالى ذكره ترغيبا لخلقه فيها،فسماها جنانا عندالافتراق،فلما اجتمعت انتظمها اسم الجنة.اهـ

ثم قال تعالى :﴿ ذَوَاتَى أَفْنَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي : صاحبتا أغصان وألوان، الواحد من الأفنان : فنن ، قال الشاعر [1]:

ما هاج قلبك من هدير حمامة تدعو على فنن الغصون حماما

وقال آخر:

سوى ناعيات في الديار يرعتنا يضحن على أفنان بان مؤانس

والمعنى : أن فيها أفنانا من الأشجار ، وأنواعا من الثمار ، والتنكير للأفنان للكثرة ، أو للعجب .

---

(١) ذكره أيضا في البرهان ص ٣٦٦.

ثم قال تعالى :﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ﴾ أي : في الجنة نهران ﴿ تَجْرِيَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ حيث شاؤوا في الأعالي والأسافل ، وقيل : تجريان من جبل من مسك .

وعن الحسن بن علي رضوان الله عليه : تجريان بالماء الزلال إحداهما التسنيم ، والأخرى السلسبيل ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي : صنفان ، صنف معروف ، وصنف غريب ، وقيل : أراد صنفا رطبا ، وصنفا يابسا ، لا يقصر يابسه عن رطبه في الفضل والطيب ، ولا رطبه على يابسه .

ثم قال تعالى :﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ﴾ يعني الخائفين ، والنصب على الحال ، تقديره يتفكه الكائنون على فرش متكئين ، من غير بيان ما يتكئون عليه ، ويحتمل أن يكون الفرش ﴿ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ أي : من ديباج ثخين ، وهي أدون من الظهارة ، دل على أن الظهارة فوق الإستبرق ، قيل : وظهائرها من سندس ، وهو مارق من الحرير ، وقيل : من نور ، وإذا كانت البطائن من الإستبرق ، فما ظنك بالظهائر .

قيل لسعيد بن جبير : فما الظهائر ؟ قال : هذا مما قال تعالى :﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾[1] ذكره في التجريد .

ثم قال عز وجل :﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال في البرهان : أما الجني فهو الثمر ، وروينا أن أمير المؤمنين علياعليه السلام كان يتمثل بهذا البيت كل عشية إذا دخل في بيت مال المسلمين وفرق ما فيه :

هذا جناي وخياره فيه ... إذ كل جان يده إلى فيه

دان : أي : دانية يعني ثمرها من المجتني ، قريب لا يبعد على قائم ولا قاعد ، ولا يرد أيديهم عنها بُعْدٌ ولا شوكٌ .

﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ أي : في هذه النعم المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش ، أو الجنتين لاشتمالهما على أماكن وقصور .

وقيل : قاصرات الطرف صفة لموصوف محذوف ، وهو النساء والأزواج ، كأنه قال :

(١) السجدة : ١٧

فيهن نساء قاصرات الطرف .

قال الهادي عليه السلام أي: هن غواض الطرف عن غير أزواجهن عفة وطهارة وكرماً اهـ[1]

أي : نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن ، لا ينظرن إلى غيرهم .

وقوله :﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ قرئ بكسر الميم وضمها ، ومعناهما واحد ، أي : يجامعهن ، وقيل : لم يفتضهن ، لأن الطمث : النكاح بالتدمية .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: الطمث هنا للجماع والإدماء قال الفرزدق :

دفعن إلي لم يطمثن قبلي وهن أصح من بيض النعام

وقوله تعالى :﴿ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قال الفراء : أي : لم يطمث الإنسيات أحد من الإنس ، ولا الجنيات أحد من الجن، ومثله في الكشاف قال: وفيه دليل على أن الجن ينكحون .

وقال في البلغة : والجن لم تمس النساء ، وإنما ذكر ذلك للمبالغة في الوصف .

قلت : ويؤيد هذا قول جماعة من كبار أئمتنا عليهم السلام .

من ذلك قول الهادي إلى الحق عليه السلام في تفسيره لهذه الآية حيث قال ما لفظه : يقول لم يدن منهن إنس ولا جان ، والجان فلا تدنوا ، وإنما هذا على مجاز الكلام كما تقول العرب : ما قال هذا القول جني ولا إنسي ، والجن لا تقول ذلك المقال ، وإنما هذا على مجاز الكلام[2].

وقال القاسم بن إبراهيم عليه السلام : الجن لا يتناكحون ولا يتوالدون ، وأما قوله تعالى : ﴿أفتتخذونه وذريته﴾[3] فإنما أراد بالذرية قبيلته ، كقوله :﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾[4] .

قال الإمام القاسم بن علي العياني عليه السلام : إن الله سبحانه لم يجعل الأكل والشرب إلا

---

(١) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٩١

(٢) انظر مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٩٢ .

(٣) الكهف : ٥٠ .

(٤) الأعراف : ٢٧ .

لبني آدم ، وما خلق الله معهم في الأرض من البهائم ، فأما الملائكة والجن فلم يجعل الله لهم الأكل ، وجعل لهم من الملاذ ما يتنعمون به ويسرون ، فإذا كان في دار الآخرة أعطى الله كل عبد من النعيم ما أعطاه في دار الدنيا ، ولما في الآخرة الفضل لأنه خلق للبقاء . اهـ .

ومثل هذه ذكر المرتضى عليه‌السلام في الإيضاح .

ثم قال تعالى :﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يريد في حسن الصور وصفاء الألوان ، أي : هن في صفاء الياقوت ، وبياض المرجان ، والمرجان : صغار الدر ؛ لأنهن أشد بياضا من كباره ، فهن كالياقوت الذي يكون في معدنه ، والمرجان الذي يكون في صدفه لا يكون قد مسه يد لامس .

ثم قال تعالى : ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ ﴾ في العمل ﴿إِلَّا الْإِحْسَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي : ما جزاء من أحسن عمله في الدنيا إلا أن يحسن الله إليه في الآخرة بالثواب .

وقال زيد بن علي عليه‌السلام :الإحسان الأول هو الإيمان والتوحيد ، والإحسان الثاني هو الجنة . اهـ

ثم قال عز وجل :﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا ﴾ أي : الجنتين الموعودتين للمقربين ﴿جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ لأصحاب اليمين[1] .

قال في البرهان : والجنتان الأولتان للسابقين إلى الطاعات والفضل ، والآخرتان للتابعين، لأن المنازل ترتفع في الجنة على قدر الأعمال والطاعات[2].

روي في التجريد عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم (جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما للسابقين، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما للتابعين) .

وقال في البلغة : جنتان أقرب إلى قصره ومجالسه في قصره ، وهي أربع جنان ثنتان أقرب، وثنتان أبعد .

---

(١) قوله : لأصحاب اليمين . متعلق بقوله : الموعودتين .

وفي مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام مسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه‌السلام ص ٣١٣ : وسألته عن قول الله سبحانه : ﴿ومن دونهما جنتان﴾ ؟ [فقال] : هاتان أخروان بعد الجنتين المذكورتين ، وهذه الجنان كلها في الجنة ، غير أنها مواضع تنعيم مرتبة ، والجنة تجمع هذه الجنان كلها .

(٢) انظر البرهان ص ٣٦٦

قوله تعالى :﴿ مُدْهَامَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قال الهادي عليه السلام: هما الجنتان ، وهما ذواتا الأشجار والأنهار ، والمدهامتان : فهما الريانتان اللتان قد رويت أشجارهما حتى ادهامت ، ومعنى ادهامت : فهو علاها السواد لريها وشدة خضرتها .
قال في التجريد : والمراد أن خضرة شجرهما تضرب إلى السواد لكثرة الري ، لا أن الجنة سوداء ، فإنها مضيئة بأنوار من الله[1] .
﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي : فوارتان ، والنضخ ـ بالخاء المعجمة ـ أكثر من النضح بالحاء المهملة ، لأنه بها كالرش ، وفيما ينضخان به قولان : أحدهما ـ أنه الماء عن ابن عباس ، والثاني : أنه المسك والعنبر والكافور عن ابن مسعود وابن عباس أيضا .
وقال الهادي عليه السلام : فهاتان العينان [فهما الماء المنبثق الذي يثج من الأرض ثجاجة ، حتى يتطاير ويخرج من ينبوعه خروجا ﴿نضاختان﴾ فهما] اللتان ينضخ ماؤهما لكثرة خروجه منهما حتى يتطاير عند انسكابه تطايرا يقع منه النضخ [على ما حواليهما ، وإنما أخذ ذلك من نضخ الشيء ، تقول العرب : انضخ وانضح] [2] بالخاء والحاء جميعا ، وبالخاء أفصح اللغتين . اهـ
﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إنما عطف النخل والرمان على الفاكهة ، وهما منها اختصاصا لهما وبيانا لفضلهما ، كأنهما لما لهما من المزية جنسان آخران كقوله :﴿جبريل وميكال﴾ في عطفهما على الملائكة ؛ أو لأن التمر فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء ، فلم يخلصا للتفكه .
وفي التجريد : قال ابن الجوزي : قال ابن عباس : نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر ، وكرانيفها ذهب أحمر ، وسعفها كسوة أهل الجنة ، منها مقطعاتهم وحللهم .
وقال سعيد بن جبير : نخل الجنة جذوعها من ذهب وعروقها من ذهب ، وكرانيفها من

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٩٢ .
(٢) ما بين القوسين من تفسير الأئمة المخطوط ص ٤٩٢ .

زمرد ، ورطبها كالدلاء ، أشد بياضا من اللبن ، وألين من الزبد ، وأحلى من العسل ، ليس له عجم .

قال أبو عبيدة : الكرانيف أصول السعف . اهـ

ثم قال تعالى في صفة نسائهم : ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: في هذه الجنان ، ومعنى ﴿خيرات﴾ خيرات : جمع خيرة ، والمعنى : فاضلات الأخلاق ، حسان الخلق .

وقال الهادي عليه السلام : فهي كل خير مجتمع من حوريات ، أو طعام أو شراب ، أو فواكه ، أو شئ من النعم ، فجمع الله ذلك كله فيما سمي من الخيرات ، وحسان : فهن فاضلات في معاينهن ، كاملات في شبابهن[1] . اهـ

قال في التجريد : وروت أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تفسيرها أنه قال : (خيرات الأخلاق حسان الوجوه) .

﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال[الهادي]عليه السلام : والحور هنا النساء الحور العين ، والحور: فهو نعت من صفات الأعين ، وهو حور يكون في العين دعج حسن تحسن به الأعين إذا كان فيهن ، وتفخر به من كان فيها منهن ﴿مقصورات﴾ فهن : محبوسات مصونات محجوبات ، لسن بدوارات ولا خارجات ، بل هن متأفنات لمساكنهن ، خفرات ، والخيام : فهي خيام الدر والياقوت المنضود والمنسوج ، وهي القباب المعمولات المرفوعات في قصور الحوريات.اهـ

ثم قال عز وجل :﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ والمعنى : أن أهل الجنة ليس عليهم تعب وحركة فهم منعمون دائما ، وأما الرفرف فقال الهادي عليه السلام: فهو اللين من الفرش ، والعبقري : فهو اسم صنف من فرش الجنة ، وقد تقول العرب لما كان حمرته الغالبة على غيرها من الألوان : عبقري[2] .اهـ

---

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٩٢ .

(٢) المصدر السابق .

قيل : وأصله أن عبقر بلد يوشي فيها البسط وغيرها فنسب إليه كل شئ جيد ، حتى يقال للرجل الذي يعمل عملا عجيبا : عبقري ، أي : هو من ذلك البلد .

ثم قال تبارك وتعالى ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ أي : تعاظم عن صفات المخلوقين ، بمعنى علا وارتفع شأنا لا مكانا ، وقيل : إن المراد أن البركة تكتسب وتنال بذكر اسمه عزوجل وقيل : معنى ﴿تبارك﴾ كثر خيره لعباده .وقوله :﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ تقدم تفسيره في هذه السورة ، وقرئ (ذو) صفة للاسم وهذه الصفة من عظيم صفات الله تعالى، وفي الحديث (ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام) [1]

أي : الزموه وألحوا به في الدعاء .

وسمع صلى‌الله‌عليه‌وآله‌من يقول : يا ذا الجلال والإكرام ، فقال :(قد استجيب لك) .

---

(١) في تفسير ابن كثير : وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو يوسف الحربي ، حدثنا مؤمل بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، حدثنا حميد الطويل ، عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم قال :(ألظوا بياذا الجلال والإكرام) وكذا رواه الترمذي ، عن محمود بن غيلان ، عن مؤمل بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة به . ثم قال : غلط المؤمل فيه ، وهو غريب ، وليس بمحفوظ ، وإنما يروى هذا عن حماد بن سلمة ، عن حميد ، عن الحسن ، عن النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم ، وقد قال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن إسحاق ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن يحي بن حسان المقدسي ، عن ربيعة بن عامر ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يقول :(ألظوا بذي الجلال والإكرام) ورواه النسائي من حديث عبد الله بن المبارك به ، وقال الجوهري : ألظ فلان بفلان : إذا لزمه ، وقول ابن مسعود : ألظوا بياذا الجلال والإكرام ، أي : الزموا ، يقال : الإلظاظ هو الإلحاح . قلت : وكلاهما قريب من الآخر ، والله أعلم وهو المداومة واللزوم والإلحاح .

سورة اقتربت

خمسون وخمس آيات بإجماع القراء (مكية)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي : القيامة ﴿وانشق القمر﴾ قال *زيد بن علي* عليه السلام : فانشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى صار فرقتين ، والناس ينظرون ، فقالت اليهود : سحر القمر ، فأنزل الله تعالى ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ والمستمر : الشديد ، ويقال : يشبه بعضه بعضا ، ويقال : الذاهب [1]. اهـ

---

(١) في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليهما السلام ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد الواسطي ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليهما السلام في قوله تعالى :﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ قال : فانشق القمر على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى صار فرقتين والناس ينظرون ، فقالت اليهود : سحر القمر ، فأنزل الله تعالى : ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ والمستمر : الشديد ، ويقال : يشبه بعضه بعضا ، ويقال : الذاهب .

وقوله تعالى :﴿مهطعين إلى الداع﴾ معناه : مسرعون ، ويقال : بارعون .

وقوله تعالى :﴿وقالوا مجنون وازدجر﴾ معناه : أسفر جنونه ، ويقال : استطر ، والمزدجر : المنتهي المتعظ .

وقوله تعالى :﴿فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾ معناه ماء السماء والأرض .

وقوله تعالى :﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾ فذات الألواح يريد السفينة ، وألواحها : عوارضها . والدسر : المسامير واحدها دسار ، ويقال : دسر : معناه تدسر السفينة الماء بصدرها ، معناه تدفعه .

وقوله تعالى :﴿تجري بأعيننا﴾ معناه بحفظنا وبكلاءتنا .

وقوله تعالى :﴿ولقد تركناها آية﴾ معناه ألقى سفينة نوح عليه السلام على الجودي حتى أدركها أوائل هذه الأمة . وقوله تعالى: ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر﴾ والصرصر : الشديدة ذات الصوت ، والنحس : الشؤم .

قال في الكشاف :[1] انشقاق القمر من معجزاته صلى الله عليه وآله .

(عن انس سأل الكفار رسول الله صلى الله عليه وآله آية فانشق القمر مرتين) وكذا عن ابن عباس وابن مسعود [2].

قال ابن عباس : انفلق فلقتين ، فلقة بقيت ، وفلقة ذهبت ، وقال ابن مسعود : رأيت حراء بين فلقتي القمر [3] . اهـ

قال الرازي والمفسرون بأسرهم : على أن المراد أن القمر انشق وحصل فيه الانشقاق ، ودلت الأخبار على حديث الانشقاق ، وفي الصحاح [4]خبر مشهور رواه جمع من الصحابة قالوا : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وآية الانشقاق [بعينها]معجزة ، فسأل ربه فشقه وقبض [5].

وقوله تعالى :﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ معناه المنقطع . وقوله تعالى :﴿أءلقي الذكر عليه من بيننا﴾ فالذكر : القرآن

وقوله تعالى :﴿فارتقبهم واصطبر﴾ معناه انتظرهم واصبر ، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال .

وقوله تعالى :﴿ونبئهم﴾ معناه أخبرهم وقوله تعالى :﴿كل شرب محتضر﴾ والشرب : النصيب .

وقوله تعالى :﴿كهشيم المحتظر﴾ فالهشيم : ما تكسر من الشجر . والمحتظر : الحظيرة .

وقوله تعالى :﴿إنا أرسلنا عليهم حاصبا﴾ معناه حجارة .

وقوله تعالى :﴿أم لكم براءة في الزبر﴾ وهي الكتب ، واحدها : زبور .

وقوله تعالى :﴿والساعة أدهى وأمر﴾ معناه أعظم .

(١) نص الكشاف : انشقاق القمر من آيات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعجزاته النيرة .. الخ ما ذكره هنا

(٢) قال ابن حجر في تخريج الكشاف : حديث أنس متفق عليه من رواية قتادة عن أنس .

(٣) قال ابن حجر في التخريج : رواه أبو نعيم في الدلائل من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه ، وفي الصحيحين عنه (انشق القمر على زمان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) وفيه أيضا قال : وعن ابن مسعود : رأيت حراء بين فلقتي القمر ابن مردويه من رواية منصور عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال : ولقد رأيت والله حراء بين الشقتين ، وفي الصحيحين عن أبي معمر عنه (بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمنى إذ انفلق القمر فلقتين ، وكان فلقة وراء الجبل ، وفلقة دونه ، فقال : اشهدوا ، وفي الباب عن ابن عمر في مسلم ، وعن جبير بن مطعم عن الحاكم في المستدرك ، وعن أحمد أيضا .

(٤) في الرازي : الصحيح ، بدلا عن الصحاح . وما بين القوسين من الرازي .

(٥) وفي بعض النسخ (ومضى) .

قال في البلغة : روي ذلك عن عبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن عمر، وحذيفة بن اليمان ، وجبير بن مطعم ، ورواه مجاهد ، وإبراهيم ، وروي ذلك من طريق أهل البيت ، ووافقهم في الرواية عبد الله بن عباس ، وأشهر قولهم في الصحابة رواية ابن مسعود أنه كان ، ولا يقع له إنكار ، وذهب قوم إلى أنه في القيامة ، وهذا خروج عن الظاهر .

ولا يقدح في الرواية قولهم : لو انشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لم يخف على أهل الأقطار لأنه يجوز أن يحجبه الله عن أهل الأقطار بغيم وقتام ، وكان كثير من معجزاته صلى الله عليه وآله يختص بمعرفتها قوم دون قوم ، قالوا : الانشقاق أمر هائل فلو وقع لعم وجه الأرض فكان ينبغي أن يبلغ حد التواتر ؟ قيل لهم : النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما كان يتحدى بالقرآن ، وكانوا يقولون : إنا نأتي بأفصح ما يكون من الكلام وعجزوا عنه ، وكان القرآن معجزة باقية إلى قيام القيامة لا يتمسك بمعجزة أخرى ، فلم ينقله العلماء بحيث يبلغ حد التواتر .

وقال *الهادي* عليه السلام : هو إخبار من الله سبحانه [لنبيه] [1] بقرب الساعة ودنوها ، وأنه لم يبق من الدنيا إلا يسير ، وقوله :﴿انشق القمر﴾ يقول : اقتربت الساعة ، واقترب انشقاق القمر ، وانشقاقه فهو في يوم الدين ، وفي وقت تبديل السموات والأرضين .

قال في *البرهان* : روينا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال :(اقتربت الساعة ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حرصا ، ولا تزداد منهم إلا بعدا) .

﴿وانشق القمر﴾ أي : ينشق عند مجيء الساعة ، وذلك من علامات الآخرة [2]. اهـ

﴿**وَإِنْ يَرَوْا آيَةً**﴾ قال *الهادي* عليه السلام : يقول تبارك وتعالى : إن يرَ المشركون آية من آياتنا ﴿**يُعْرِضُوا**﴾ عنها بالتكذيب لحقائقها ﴿**وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ**﴾ أي : [مستو] متتابع كل يوم يأتينا منه شئ [3]. اهـ

---

(١) ما بين القوسين من المجموع خ .

(٢) البرهان مخطوط ص ٣٦٢.

وقيل : مستمر : أي دائم مطرد ، أي : قد استمر ، قالوا ذلك لما رأوا تتابع الآيات ، وقيل : ﴿مستمر﴾ قوي محكم[1] وقيل : هو من استمر الشيء إذا اشتدت مرارته ، أي مستبشع عندنا مر على لهواتنا ، لا نقدر أن نسيغه كما لا يساغ المر ، وقيل : ﴿مستمر﴾ مار ، ذاهب ما فيه ، فإن السحر لا بقاء له ، والتنكير في الآية للتعظيم ، أي: إن يروا آية قوية أو عظيمة يعرضوا .

ثم قال تعالى :﴿وَكَذَّبُوا﴾ بالحق الواضح ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي : ما زين لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره .

قال *الهادي* عليه السلام : يقول : كذبوا بالآيات واتبعوا في ذلك ما يهوون من الباطل ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ يقول : كل أمر منهم فهو عندنا مستقر ، حتى نجازيهم غدا عليه ، ونوفيهم ما كان من وعيدنا فيه ، ومعنى ﴿مستقر﴾ فهو : محفوظ ثابت لا ينسى ولا يضل[2].

وفي البلغة : ﴿وكل أمر﴾ من خير وشر ﴿مستقر﴾ حتى يجازى به في الجنة والنار .

وفي *البرهان* : يعني لكل شئ غاية ونهاية في وقوعه وحلوله[3] ومثله في الكشاف .

أي : لابد له من غاية يستقر عليها ، وأمر محمد صلى الله عليه وآله سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه الحق والتكذيب يحتمل الأمرين أحدهما : وكذبوا محمدا ، والمخبر عن اقتراب الساعة ، وثانيهما : كذبوا بالآية ، وهي انشقاق القمر .

فإن قلنا : كذبوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فقوله :﴿واتبعوا أهواءهم﴾ أي : تركوا الحجة ، وأولوا الآيات ، وقالوا : هو مجنون تعينه الجن ، وكاهن يقول عن النجوم ، ويختار الأوقات للأفعال ، وساحر ، فهذه أهواؤهم ، وإن قلنا : كذبوا بانشقاق القمر فقوله : ﴿واتبعوا أهواءهم﴾ في أنه سحر القمر ، وأنه خسوف ، والقمر لم يصبه شئ فهذه أهواؤهم ، وكذلك قولهم في كل آية.

---

(٣) ما بين القوسين من المجموع المخطوط ، وفيه : بالتكذيب بحقائقها ، بدلا من : لحقائقها . هنا

(١) وهو أيضا قول السيد العلوي رحمه الله قال : قلت : من قولهم استمر مريرة . المرير : الحبل المحكم .

(٢) مجموع تفسير الأئمة مسائل الهادي عليه السلام مخطوط ص ٤٨٣.

(٣) البرهان مخطوط ٣٦٢، والكشاف ٤/٤٣١ .

ثم قال تعالى :﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ الإنباء : هو الإخبار العظيم ، أي : لقد جاءهم من القرآن المودع من أنباء القرون الخالية ، وأنباء الآخرة ، وما فيها من عذاب الكفار ما فيه ازدجار وإيقاظ .

قال الهادي عليه‌السلام : يقول : لقد جاءهم من الأخبار والآيات الصادقات ، والدلائل الباهرات ما فيه زَجْرُهُم عما هم عليه ، ومعنى زَجْرَهُمْ فهو : نهاهم ومنعهم عما هم فيه من أباطيلهم [1]. اهـ

ثم قال سبحانه :﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ أي : هو حكمة بالغة ، أي علم بالغ باهر لا ينتهي إلى مثله في الوعظ وغيره ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ أي : فما تنفع النذر لإعراضهم عن النظر في المعجزات ، والتفكر في الآيات ، ومعنى الاستفهام الإنكار ، أي : فأي غناء تغني النذر أي : تنفع ، والغناء : النفع ، نحو ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾[2] ويجوز أن تكون (ما) نافية .

وقال الهادي عليه‌السلام : ﴿حكمة بالغة﴾ يقول : آيات محكمة ودلائل كافية بالغة ﴿فما تغني النذر﴾ فيهم ، يقول : ما تردعهم الرسل عن ذلك ، والنذر هاهنا : فهي إنذار الرسل لهم ، [وتبليغها] [3] بذلك عن الله سبحانه . اهـ

ثم قال تعالى :﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي : اعرض عن هذا الإنذار والدعاء ، لعلمك بعدم نفعه قيل : والتولي منسوخ كنظيره من الآيات، وليس كذلك ، بل المراد منه لا يناظرهم بالكلام وكثرة الجدال لهم والخصام .

قال الهادي عليه‌السلام : يقول : دعهم إذا لم يقبلوا وأعرض عنهم إذا لم يطيعوا .

ثم ابتدأ سبحانه الخبر فقال :﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ معنى ذلك : سيعلمون يوم يدع الداع لشئ نكر ، والنكر : فهو الأمر المنكر الذي ينكرونه حين يعاينونه

---

(١) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٨٣.

(٢) يونس : ١٠١

(٣) في المجموع : وبعثها . انظر مجموع تفسير الأئمة ص ٤٨٣ .

ويفزعهم حين يرونه ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ أي : يوم يدع الداع تراهم خشعا [1] معنى ﴿خشعا﴾ فهي : مغضوضة لا يرفعون رؤوسهم ، ولا يمدون أبصارهم أمامهم من الفزع والخوف ، والإيقان بالبلاء العظيم . اهـ

﴿يوم يدع الداع﴾ متعلق بـ﴿يخرجون﴾ أو اذكر يوم يدع الداع [2] وهو إسرافيل أو جبريل ، يدعو الناس إلى المحشر ، أو عبارة عن سوقهم إلى النار .

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ قال [الهادي] عليه السلام : فالأجداث : هي القبور ، فشبههم في كثرتهم بالجراد المنتشر ، وهو الكثير المعروف [3]. اهـ

فمنتشر الجراد مثل في الكثرة والتموج ، ومنتشر في كل مكان يحتمل أن يقال : المنتشر مطاوع نشره إذا أحياه فكأنه جراد يتحرك من الأرض ويدب إشارة إلى كيفية خروجهم من الأجداث وضعفهم .

ثم قال تعالى :﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ قال [الهادي]عليه السلام : يعني ﴿مهطعين﴾ فهو : تابعون مسرعون إلى نحو الداعي ، والداعي : فهو الذي يدعوهم إلى موضع المحشر ، ويأمرهم بالمصير إليه . اهـ

وقيل : الإهطاع : أن يديم النظر إلى المرئي بلا تحريك الأجفان ، والمهطع على هذا الأصل هو المبهوت المتحير .

﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ الكافرون : هم المغطون نعم الله ، ومعنى ﴿هذا يوم عسر﴾ قال [الهادي]عليه السلام : أي يقول عسر لدينا شديد علينا ، إذ حق وعد الله فينا ، [لما شاهدوا فيه من الأهوال ، وذاقوا من العذاب والنكال] [4] . اهـ

---

(١) قال السيد العلوي رحمه الله : قال أبو البقاء : ﴿خشعا﴾ حال وفي العامل وجهان ، أحدهما : ﴿يدعو﴾ أي يدعوهم الداعي ، وصاحب الحال الضمير المحذوف ، و﴿أبصارهم﴾ مرفوع بـ﴿خشعا﴾ وجاز أن يعمل الجمع ؛ لأنه مكسر ، والثاني: العامل ﴿يخرجون﴾ وقرئ (خاشعا) والتقدير : فريقا خاشعا ، ولم يؤنث ؛ لأن تأنيث الفاعل تأنيث الجمع ، وليس بحقيقي ، ويجوز أن ينتصب (خاشعا) على أنه مفعول به لـ﴿يدعو﴾ ويخرجون على هذا حال من أصحاب الأبصار .

(٢) قال في الكشاف ٤/٤٢ : نصب ﴿يوم يدع الداع﴾ بيخرجون ، أو بإضمار اذكر .

(٣) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٨٤ .

والفائدة فيه تنبيه المؤمن أن ذلك على الكافر عسير فحسب كما قال تعالى :﴿فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير﴾[1] يعني : له عسر لا يسر معه .

ثم أنه تعالى أعاد بعض الأنباء فقال :﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل قريش ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أي : نوحا عليه السلام ، وفيه تخويف وتسلية لقلب محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإن حاله كحال من تقدمه ، وقال :﴿فكذبوا﴾ بعد قوله :﴿كذبت﴾ لأن معناه كذبوا فكذبوا عبدنا ، أي كذبوه تكذيبا على عقب تكذيب كلما مضى قرن مكذب تبعه قرن مكذب ، أو كذبت قوم نوح الرسل ﴿فكذبوا عبدنا﴾[2] أي : لما كانوا مكذبين للرسل جاحدين للنبؤة رأسا كذبوا نوحا ؛ لأنه من جملة الرسل ذكره في الكشاف [3].

إن قيل : ما فائدة الإضافة في قوله تعالى :﴿عبدنا﴾ وكل واحد عبده ؟ قيل له : في الجواب وجهان أحدهما : أن الإضافة إليه تشريف منه في من خصصه بكونه عبده ، وهذا كقوله تعالى :﴿أن طهرا بيتي﴾[4] وقوله تعالى :﴿ناقة الله﴾[5] .

والثاني : أن الإضافة تفيد الحصر ، فمعنى ﴿عبدنا﴾ هو الذي لم يقل بمعبود سوانا ، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلها فالعبد المضاف هو الذي بكليته في كل وقت إلى الله فأكله وشربه وجميع أموره لوجه الله تعالى [6].

---

(٤) انظر المجموع ص ٤٨٤ ، وما بين القوسين ساقط من نسخة المجموع التي لدينا .

(١) المدثر ٩، ١٠، ومثل هذه العبارة في الرازي ٢٩٣/١٠.

(٢) قال السيد العلوي رحمه الله : قال في الانتصاف : الأول مطلق ، والثاني : مقيد ، فليس بتكرير ، وهو كقوله : ﴿فتعالى فعقر﴾ فإن تعاطيه هو نفس عقره ، لكنه ذكره من جهة عمومه ، ثم من جهة خصوصه ، قيل : ومثله أيضا قوله تعالى :﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم﴾ (حاشية العلوي على الكشاف ٢٩٧) . وزاد في الانتصاف جوابا آخر وهو : أن المكذب أولا محذوف دل عليه ذكر نوح ، فكأنه قال : كذبت قوم نوح نوحا ، ثم جاء بتكذيبهم ثانيا مضافا إلى قوله :﴿عبدنا﴾ فوصف نوحا بخصوص العبودية ، وأضافه إليه إضافة تشريف ، فالتكذيب المخبر عنه ثانيا أبشع عليهم من المذكور أولا لتلك اللمحة . والله أعلم (الكشاف ٤٣٣/٤) .

(٣) أنظر الكشاف ٤٣٣/٤

(٤) البقرة : ١٢٥ .

(٥) الشمس : ١٣ ، والأعراف : ٧٣ ، وسورة هود : ٦٤ .

﴿وقليل ما هم﴾ ولما أتاهم بالآيات الدالة على صدقه حيث رأوا ما عجزوا عنه ، و لم يقنعوا بقولهم : إنه كاذب ـ بَيَّنَ تعالى مبالغتهم في التكذيب فقال سبحانه :﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ أي : هو مجنون ﴿وَازْدُجِرَ﴾ .

قال *الحسين بن القاسم* عليه السلام : معنى ﴿وازدجر﴾ أي : زجر وانتهر ، هو افتُعِلَ ، والمعنى فُعِلَ ، ولا فرق بينهما في المعنى [1]. اهـ

أي : زجروه ونهروه عن مقالته بالشتم والضرب ، وقيل : ازدجر من قولهم ، أي ازدجرته الجن وتخبطته وذهبت بلبه .

قال *زيد بن علي* عليه السلام : معناه : أسفر عن جنونه ، ويقال : استطر ، والمزدجر : المنتهي [المتعظ].

﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ بالفتح أن يأتي ، وقوله :﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ قرئ بالكسر ، أي يقال : إني مغلوب غلبني قومي فلم يسمعوا مني، واستحكم اليأس من إجابتهم لي ﴿فَانْتَصِرْ﴾ أي : انتقم منهم بعذاب تبعثه عليهم .

وروي أن الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتى يغشى عليه فيفيق ويقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ، فانتصر الله عز وجل منهم بالغرق الذي ذكره في كتابه حين يقول :﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ أي : عقيب دعائه .

قال المرتضى عليه السلام معنى (فتحنا أبواب السماء) فهو السحاب ، والعرب تسمي السحاب سماء ، يقول القائل : أصابنا سماء في موضع كذا وكذا ، وتسمى كلما ارتفع سماء ، فذكر الله أنه فتح أبواب السماء بالماء المنهمر ، ومعنى فتحه : فهو حكمه بذلك ، فكان ما أراده فيه . اهـ

والمنهمر : المنصب المندفق ، أي غزير مبتدر قال الشاعر : (يغشاهم مسبل منهمر)

وقال آخر: (في بيت منهمر الكفين مفضال)

---

(٦) قريب منه موجود في الرازي ٢٩٤/١٠ .

(١) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام الآتي قريبا في الحاشية .

والانهمار : هو السيلان الحثيث المنصب انصبابا في كثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يوما .
﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ يعني : ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قدر فيه هلاك من كفر ، وسلامة من آمن. قاله *الحسين بن القاسم* عليه السلام[1]

(١) قال الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام في تفسيره غريب القرآن :

تأويل قوله عز وجل :﴿وانشق القمر﴾ روي أن المشركين تعجزوا النبي صلى الله عليه وآله بذلك ، فدعا الله تعالى فانشق له القمر حتى رأى عبد الله بن مسعود جبل حراء من فلقيه معجزة للنبي صلى الله عليه وآله ﴿وإن يروا آية يعرضوا﴾ أي : انشقاق القمر وغيره من آيات الله الكثيرة ﴿ويقولوا سحر مستمر﴾ أي : مبرم محكم ﴿وكل أمر مستقر﴾ أي : راجع إلى قراره وحقيقة أمره . ومعنى ﴿ولقد جاءهم من الأنباء﴾ من الأخبار ﴿مزدجر﴾ أي : عظة ومعتبر وانتهاء وحذر . ومعنى ﴿حكمة بالغة﴾ أي : بينة نيرة ﴿فما تغن النذر﴾ أي : ما تنفع فيهم النذر . ومعنى ﴿إلى شيء نكر﴾ أي : منكر لم ير مثله ، ولم تجر العادة به ﴿مهطعين إلى الداعي﴾ أي : مقبلين إليه خاضعين ، قال الشاعر : نمير بن سعد لي مطيع ومهطع . أي : متذلل خاضع . ومعنى ﴿وازدجر﴾ أي : زجر وانتهر ، وهو افتعل ، والمعنى فعل ، ولا فرق بينهما في المعنى . ومعنى قوله :﴿بماء منهمر﴾ أي : غزير ، قال الشاعر : يغشاهم مسبل منهمر وقال آخر : في بيت منهمر الكفين مفضال . والانهمار : هو السيلان الحثيث ، ومعنى ﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾ والدسر : هي المسامير والحبال ، ومعنى ﴿تجري بأعيننا﴾ أي : على أعيننا ، التي فجرنا من الأرض والهواء ، ومعنى ﴿جزاء لمن كان كفر﴾ أي : مكافأة لهم على ما جحد من حقه وكفر به ﴿فهل من مدكر﴾ يريد : فهل من معتبر مفكر . ومعنى ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ أي : سهلناه . ومعنى ﴿ريحا صرصرا﴾ أي : شديدة ﴿في يوم نحس مستمر﴾ أي : في يوم شؤم محكم ممر ﴿تنزع الناس﴾ أي : تنزع أرواحهم ﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ أي : كأنهم أسافل نخل منقلع ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ هذا تقرير كما قال الشاعر : كيف رأيت في الحروب محضري . أي : قد رأيت فعالي . ومعنى ﴿في ظلال وسعر﴾ أي : في جهل وعذاب من النار قال الشاعر :

وسالفة كسحوق الليان أضرم فيها الغوي السعر

أي : أوقد فيها النار . ومعنى ﴿أألقي الذكر عليه من بيننا﴾ أي : كيف نزل القرآن والوحي عليه خاصة من دوننا ﴿بل هو كذاب أشر﴾ أي : بطر ﴿سيعلمون غدا من الكذاب الأشر﴾ يريد : يوم العذاب . ومعنى ﴿فتنة لهم﴾ أي : محنة واختبارا وحجة ﴿فارتقبهم﴾ أي : فانتظرهم . ومعنى ﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر﴾ أي : خبرهم أن الماء بينهم وبين الناقة لهم شرب يوم ولها شرب يوم آخر . ومعنى ﴿محتضر﴾ أي : محضور ، يحضرون لشربهم ، وتحضر الناقة لشربها ، ومعنى ﴿فتعاطى فعقر﴾ أي : فتناول بيده وعقر ، قال الشاعر :

كأن أيديهن بالقاع الخرق لذي عذارى يتعاطين الورق

ومعنى ﴿فكانوا كهشيم المحتضر﴾ الهشيم : هو الشجر الذي يتهشم ويتكسر ، قال الشاعر :

أضحت تخربها الرياح ذيولها مصفرة أغصانها تتهشم

والمحتظر : هي الحظيرة التي تكون من الشجر ، ومعنى ﴿حاصبا﴾ فالحاصب هو الحصى الذي رجموا به من السماء . ومعنى قوله :﴿بطشتنا﴾ أي : وقعتنا ومصيبتنا ﴿فتماروا بالنذر] أي : شكوا في النذر . ومعنى ﴿ولقد راودوه عن ضيفه﴾ أي : طالبوه عن الملائكة وحسبوهم ضيفا ، قال الهادي إلى الحق عليه السلام :

والضيف إن حَلّ بليلٍ بلدةً فلست باغ حاجة المسترقد

ومعنى قوله :﴿فطمسنا أعينهم﴾ أي : محونها ، وقيل : إن جبريل عليه السلام لطمهم لطمة أعما بها أبصارهم ، والله أعلم وأحكم . ويمكن أن يكون الله طمس أعيانهم بالرجم وأهلكهم . ومعنى ﴿عذاب مستقر﴾ أي : مقيم عليهم غير زائل عنهم . ومعنى ﴿أخذ عزيز مقتدر﴾ أي : عذاب عزيز قادر ، قال الشاعر :

لها جبهة كسراة المجن ثقفه الصانع المقتدر

﴿أكفاركم﴾ يعني أمة محمد صلى الله عليه وآله ﴿خير من أولئكم﴾ أي : من أولئك ، خطابك للواحد وخطابكم للجماعة، أولئكم مثل ذلك وذلكم . ومعنى ﴿أم لكم براءة في الزبر﴾ أي : براءة من العذاب في الكتب ، فلا تأمنوا نقم الله على معصيتكم ﴿أم يقولون نحن جميع منتصر﴾ أي : جماعة كثيرة تنتصر من محمد ونقتهر ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ يعني ـ والله أعلم ـ : يوم بدر عند هزيمتهم وخذلان الله لهم ، بل الساعة موعدهم ، أي : لكن الساعة وعدهم ﴿والساعة أدهى وأمر﴾ ومعنى ﴿أدهى﴾ أي : أفجع وأطم وآلم وأعظم ، والداهية : هي الفجيعة ، قال الشاعر :

أصاب الدهر نسوة آل حرب بداهية همدن لها همودا

فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

﴿وأمر﴾ أي : أفظع وأشر ، والمرارة : هي ضد الحلو قال الشاعر : ولم مثل الحب أحلى ولا أمر . وإنما ضرب الله المرارة مثلا لقبح مذاقها ، وثقل مؤنتها وفظاعتها . ومعنى ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر﴾ فالمجرم : هو الكاسب للذنوب المجترم لها . ومعنى ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾ أي : يجرون جرا وسحبا ، والسحب : هو الجر في اللغة ، والعامة تقول : إن السحاب يسمى سحابا لانسحابه عن الجبال ﴿ذوقوا مس سقر﴾ أي : حر النار ﴿إنا كل شئ خلقناه بقدر﴾ أي : بمقدار وحكمة . ومعنى ﴿كلمح بالبصر﴾ أي : كلمحة يظن المبصر في سرعة أمره إذا مر . ومعنى ﴿ولقد أهلكنا أشياعكم﴾ يريد : إخوانكم وأمثالكم ، قال الكميت بن زيد رحمة الله عليه :

وما لي إلا آل أحمد شيعة ومالي إلا مشعب الحق مشعب

ومعنى ﴿وكل شئ فعلوه في الزبر﴾ أي : في الكتب ، محسوب عليهم . ومعنى ﴿وكل صغير وكبير مستطر﴾ أي : مسطور . ومعنى ﴿في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ فهذا بين والحمد لله ، وأما النهر : فهو الماء الجاري ، قال الشاعر : خليجا عبابان من نهر يجري

وقيل أيضا في النهر : إنه السعة . والله أعلم وأحكم .

وقيل [1]: ﴿قد قدر﴾ على حال قدرها الله كيف شاء ، أو مقدرة مستوية [وهي أن]قدر ما أنزل من السماء كقدر ما أخرج من الأرض سواء سواء .

ثم قال سبحانه :﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ جمع لوح لأنها مؤلفة من الألواح قال *الهادي* عليه‌السلام : هي السفن ، التي تعمل من الألواح ، وتشد بالدسر، والدسر فهي: الحبال والمسامير التي تربط بها وتدسر [2] . اهـ

ودسر : جمع دسار وهو المسمار ، وهي هنا خيوط تشد بها الألواح ، وكل شئ أدخل في شئ يشده ، فهو الدسر .

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي : محفوظة كأنا ننظر إليها .

وقوله :﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ تعليل لما مر من فتح أبواب السماء وما بعده ، أي : فعلنا ذلك جزاء .

قال في *البرهان* : معناه جزاء لكفرهم بالله تعالى ، وتكذيبهم بنوح عليه‌السلام [3] . اهـ

أصل الكلام : لمن كان كفر به ، فأوصل الفعل بنفسه .

قال *الهادي* عليه‌السلام : معنى ﴿تجري﴾ فهو تسير[في البحر] بعلمنا ﴿جزاء لمن كان كفر﴾ هو نوح صلى الله عليه يقول : جزيناه على من كان كفر نعمته ، وعصى أمره بالنجاة [4] في هذه السفن مما وقع بالكافرين لنعمه ، المشركين بما جاء من الله به [5]. اهـ

ثم قال تعالى :﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا﴾ أي : السفينة أو الفعلة ﴿آيَةً﴾ والمراد : تركنا ذكرها عبرة .

قال *زيد بن علي* عليه‌السلام : معناه : أبقى سفينة نوح على الجودي حتى أدركها أوائل هذه الأمة [6].

---

(١) القائل : هو الزمخشري . انظر الكشاف ٤/٤٣٤ .

(٢) المجموع ص ٤٨٤ .

(٣) البرهان ص ٣٦٢.

(٤) في الأصل : النجاة ، وفي المجموع : بالنجاة .

(٥) المجموع ص ٤٨٤.

(٦) انظر تفسير الإمام زيد بن علي عليه‌السلام أوائل هذه السورة ، والمطبوع ص (٣١٣) .

وعن قتادة : أبقاها بأرض الجزيرة ، وقال في البرهان : أي تركنا الأرض آية [١].

﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ يريد : فهل من معتبر متفكر ومتذكر مزدجر عن معاصي الله عزجل.

ثم قال عز وجل :﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ قال الحسين بن القاسم عليه السلام : هـذا تهدد كما قال الشاعر : (كيف رأيت في القلوب محضري)

أي : قد رأيت فعالي [٢]. اهـ

﴿ونذر﴾ جمع نذير بمعنى الإنذار .

قال في البلغة : ويقال في اللغة : أنذره نذرا [بمعنى إنذارا] [٣] كأنزله نزلا بمعنى إنـزالا ، ومثله عذر وإعذار ، وكذلك قوله :﴿إلى شئ نكر﴾ وقيل : نذر جمع نذير . اهـ

ومعنى الاستفهام : تهويل العذاب الواقع ، والإعذار البليغ الذي لم يقبل ، والمعنى بهذه القصة الوعظ والتحذير من التعرض لمثلها ، أي : تأملوا كيف كـان إهلاكـي إيـاهم وتخويف بهم ، ولهذا قال :﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي : سهلناه للتذكر والاتعاظ بأن شحناه بالمواعظ الشافية ، ويجوز أن [يكون] المعنى : ولقد هيأناه للذكر من يسـر ناقته للسفر إذا أراد رحلها ، ويسر فرسه للغزو إذا أسرجه وألجمه قال الشاعر :

وقمت إليه باللجام ميسرا هنالك يجزيني الذي كنت أصنع [٤]

---

(١) قول قتادة : ذكره في الكشاف ٤/٤٦ ، وانظر البرهان ص ٣٦٢

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني ، أول هذه السورة .

(٣) ما بين القوسين من تفسير التبيان للطوسي .

(٤) ما بين القوسين زيادة من الكشاف ، وفيه أيضا : يسر ناقته للسفر إذا أراد رحلها ، وفي مشاهد الإنصاف علـى شواهد الكشاف أن البيت للأعرج ٤/٥٧. وقبله :

أرى أم سـهل لا تـزال تفجـع تلـوم ومـا أدري عـلام توجـع

تلـوم علـى أن أمنـح الـورد لقحـة ومـا تسـتوي والـورد سـاعة تفـزع

إذا هـي قـامت حاسـرا مشـمعلة نخيـب الفـؤاد رأسـها مـا يقنـع

وقمـت إليـه باللجـام ميسـرا هنـالك يجزيـني الـذي كنـت أصنـع

قال السيد العلوي رحمه الله : يقول : قمت إلى فرسي مهيئا له بالسرج واللجام ، ثم قال : في ذلك الزمان

وقيل : سهلناه للحفظ ، وأعنا عليه من أراد حفظه ، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه ، لا كسائر الكتب كالتوراة فإنها لا تقرأ إلا نظرا ، ولا تحفظ غيبا .

﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ أي : متذكر لأن الافتعال والتفعل كثير ما يجيء بمعنى ، وقيل : ﴿فهل من مدكر﴾ أي : حافظ ومتعظ .

ثم قال تعالى :﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ عاد قوم هود ، وإنما قال تعالى: ﴿فكيف كان عذابي﴾ حثا على التفكر والتدبر ، ومعنى الاستفهام التهويل ، أي : كيف كان إنذاري لمن بعدهم في تعذيبهم .

ثم أخبر تعالى بصفة عذابهم فقال :﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ شديدة الصوت بها قعقعة ، قال الهادي عليه‌السلام : هذا إخبار من الله سبحانه بما أرسل على عاد من ريح الصرصر ، وريح الصرصر : فهي الريح الباردة الشديدة العظيمة القوية [(١)]. اهـ

مأخوذة من الصر ، وهو البرد ، كأنها الذي كرر فيها البرد ، فهي تحرق لشدة بردها .

وقيل : من الصرير ، والصرة : شدة الصياح ، وقيل : دائمة الهبوب ، من أصر على الشيء إذا دام وثبت [(٢)].

ثم قال الهادي عليه‌السلام ومعنى ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ يقول : في يوم شؤم كان عليهم ، وعذاب نازل بهم ﴿مستمر﴾ فهو: مستقر دائم [(٣)]. اهـ

يعني : استمر عليهم ودام حتى أهلكهم ، فاستمر على كبيرهم وصغيرهم حتى لم يبق منهم نسمة ، وكان في أربعاء من الشهر لا يدور ، وقيل : المستمر الشديد المرارة ، والبشاعة .

وقيل [(٤)]: استمر بهم العذاب إلى نار جهنم ، وإنما قال تعالى :﴿في يوم نحس مستمر﴾ وقال في السجدة :﴿في أيام نحسات﴾[(٥)] وقال في الحاقة :﴿سبع ليال وثمانية أيام

يجزيني : أي يكفيني ما أعانيه ، وما أعامله به من إشارة ، يا للبن ، والتضمير ، والتعليف ، وأربع غير منصرفة ، ومعنى لا تدور : لا ترجع في ذلك الشهر ، فتشاءموا به .

(١) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٨٤.

(٢) ومثله في الرازي ١٠/٣٠٢ .

(٣) هذه الفقرة لم أجدها في مجموع تفسير الأئمة .

حسوما﴾[1] لأن المراد من اليوم هنا الوقت والزمان ، كما في قوله تعالى :﴿يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا﴾[2] وقوله :﴿مستمر﴾ يفيد ما تفيده الأيام ، لأن الاستمرار ينبي عن امتداد الزمان كما تنبي عنه الأيام ؛ لأن الحكاية هنا مذكورة على سبيل الاختصار ، فذكر الزمان و لم يذكر مقداره .

وقوله تعالى :﴿تَنزِعُ النَّاسَ﴾ وصف أوحال ؛ إذ يصح أن يقال : أرسل ريحا صرصرا نازعة للناس ، ويصح أن يقال : أرسل الريح نازعة .

ومعنى ﴿تنزع الناس﴾ تقلعهم عن أماكنهم ، وكانوا يصطفون آخذا بعضهم بأيدي بعض ، ويتدخلون في الشعاب ، ويحفرون الحفر فيندسون فيها فتنزعهم وتكبهم وتدق رقابهم [3].

قال *الهادي* عليه‌السلام : يريد تنزع نفوس الناس من أبدانهم ، وتخرجها من جثثهم حتى تبقى أبدانا مطروحة [4] لا أرواح فيها .

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ شبه جثثهم وعظمها بأسافل النخل الساقط المنقلع ، والمنقعر : فهو المنقلع من أصله . اهـ

قال ابن قتيبة : يقال قعرته فانقعر أي : قلعته من أصله فسقط ، أي : كانوا يتساقطون على الأرض أمواتا وهم جثث طوال كأنهم أعجاز نخل ، وهو أصولها بلا فروع ﴿منقعر﴾ أي منقلع عن مغارسه ، وقيل : كانت تقلع رؤوسهم فتبقى الأجساد بلا رؤوس ومنقعر : وصف للنخل على اللفظ ، لأن لفظ النخل مذكر ، ولو حمل على المعنى لأنث ، كما قال :﴿أعجاز نخل خاوية﴾[5]

---

(٤) القائل : هو الرازي ، انظر تفسيره ٣٠٣/١٠ ، وهو من قوله : استمر بهم العذاب .. إلى قوله : و لم يذكر مقداره وهي منقولة بتصرف .

(٥) فصلت (السجدة) : ١٦.

(١) الحاقة : ٧.

(٢) مريم : ٣٣.

(٣) هذه الفقرة مثلها في الكشاف ٤٦/٤.

(٤) في مجموع تفسير الأئمة : تبقى أبدانا مطرحة لا أرواح فيها . ص ٤٨٤.

(٥) الحاقة : ٧ .

ثم قال تعالى :﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ قد مر تفسيره ، والتكرير للتقريب ، أكثر المفسرين على أن النذر في هذا الموضع جمع نذير ، الذي هو مصدر معناه : إنذاري .

ثم قال سبحانه :﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ يعني : سهلنا تلاوته وحفظه على أهل كل لسان حتى إنه لا يحفظ غيره من كتب الله عز وجل ، ولا يضبط سواه ، ذكره في *البرهان* [1].

﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ قد مر تفسيره .

ثم بين تعالى حال قوم آخرين فقال :﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ وهم قوم صالح ﴿بِالنُّذُرِ﴾ أي : بالإنذار ، وبالمنذرين ، فهو جمع نذير ؛ لأن من كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل لاتفاقهم على تصديق كل منهم ؛ لأن ثمود لما أنذروا وأخرج لهم ناقة من صخرة ، وكانت تدور بينهم كذبوا ، فكان تكذيبهم بإنذارات وآيات ظاهرة .

﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ﴾ فقالوا :﴿أبشرا﴾ إنكار لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر ، وهم الملائكة عليهم السلام ، وقالوا : ﴿منا﴾ لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى ، وقالوا :﴿واحدا﴾ إنكار لأن تتبع الأمة رجلا واحدا من أفنائهم ، ووجه الحكمة في تأخير الفعل أنهم كانوا يريدون تبيين كونهم محقين في ترك الإتباع ، فلو قال : نتبع بشرا ؟ يمكن أن يقال : نعم اتبعوه . وماذا يمنعكم من إتباعه ؟ فإذا قدموا حاله وقالوا : هو من نوعنا بشر ! ومن صنفنا رجل ! ليس غريبا يعتقد فيه أنه يعلم مالا نعلم ، أو يقدر على ما لا نقدر ، وهو واحد وحيد ، وليس له جند وحشم وخيل وخدم ! فكيف نتبعه ؟ فيكونون قد قدموا الموجب لجواز الامتناع في الإتباع .

وفي الآية إشارات إلى ذلك . منها : تنكيره حيث قالوا : أبشرا ؟ و لم يقولوا أنتبع صالحا ؟ أو الرجل المدعي أو غير ذلك من المعرفات ، والتنكير يجوز .

ومنها : قالوا : أبشرا و لم يقولوا : رجلا .

ومنها : قالوا :﴿منا﴾ أي : من صنفنا ليس غريبا [2].

(١) البرهان ٣٦٢ .

(٢) ومثله هذا في الرازي ٣٠٦/١٠.

وقال سبحانه مخبرا عنهم :﴿إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ الضلال في هذا الموضع : الهلاك والسعر : جمع سعير ، وهي النار ، وقيل : في جهل وعذاب .

وفي التجريد كان صالح يقول لهم : إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق ، وفي سعر ونيران ، فعكسوا عليه وقالوا : إن اتبعناك كنا كما تقول فينا .

وقيل : أرادوا إنا لفي ضلال عن الصواب ، وسعر : شقاء وعناء وتعب مما يلزمنا من طاعته .

وقال عطاء عن ابن عباس : وسعر جنون ، من قولهم : ناقة مسعورة إذا كان بها جنون . اهـ

قال الرازي : السعير في الآخرة واحد فكيف جمع ؟ قال : نقول الجواب [عنه] من وجوه أحدها : أن في جهنم دركات ، يحتمل أن تكون كل واحدة سعيرا ، ثانيها : لدوام العذاب عليهم فإنه كلما أنضج جلودهم يبدلهم جلودا فكأنهم في كل زمان في سعير آخر ، وعذاب آخر .

ثالثها : لسعة السعير الواحد كأنها سعر ، يقال للرجل الواحد : فلان ليس برجل واحد بل هو رجال[1] .

ثم حكى قولهم :﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي كيف نزل الوحي عليه من دوننا وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوة ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي : بطر متكبر ، حمله تكبره على ادعاء ذلك ، وفيه إشارة إلى كل ما ينكرونه من طريق المبالغة ، وذلك أن الإلقاء : إنزال بسرعة ، والنبي كما يقول : جاءني الوحي مع الملك في لحظة يسيرة فكأنهم قالوا : الملك جسم ، والسماء بعيدة فكيف ينزل في لحظة ؟! فقالوا : ألقي ، وما قالوا : أنزل ، وذلك أن النفي بطريق الاستفهام أبلغ ؛ لأن من قال : ما أنزل عليه الذكر ربما يعلم أو يظن أو يتوهم أن السامع يكذب فيه ، فإذ ذكر بطريق الاستفهام يكون معناه أن السامع يخشى بقوله : ما أنزل ، فيجعل الأمر حينئذ منفيا ظاهرا لا يخفى على

(١) انظر الرازي ٣٠٧/١٠.

أحد ، بل يقول كل أحد : ما أنزل ، وقولهم :﴿عليه﴾ إنكار آخر ، كأنهم قالوا : ما ألقي ذكر أصلا ، ثم قالوا : وإن قالوا : لا يكون عليه من بيننا وفينا من هو فوقه في الشرف والذكاء ، ثم المبالغة في كذاب إما في الكثرة ، وإما في الشدة ، فالكذاب إما شديد الكذب ، يقول ما لا يقبله العقل ، أو كثير الكذب[1] .

وقولهم :﴿أشر﴾ إشارة أنه كذب لا لضرورة وحاجة إلى خلاص كما يكذب الضعيف ، وإنما هو استغناء وبطر وطلب الرياسة عليكم .

ثم قال :﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ وهو عبارة عن الوقت المستقبل ، أي : عند نزول العذاب عليهم ، أو يوم القيامة ﴿مَنْ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ أصالح أم من كذب به ، وهذا وعيد لهم ، والمعنى : سيعلمون غدا أنهم الكاذبون ، الذين كذبوا لا لحاجة وضرورة ، بل بطروا وأشروا لما استغنوا ، وأن هذا التهديد بالتعذيب لا بحصول العلم .

ثم قال تعالى :﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ﴾ قال *الهادي* عليه‌السلام : أي : جاعلوا الناقة فتنة ، أي : محنة واختبارا لهم [﴿فارتقبهم﴾ أي : انتظر معصيتهم فيها ﴿واصطبر﴾أي: اصبر حتى يعصوا في فعلهم ، فترى ما تحب فيهم] [2]. اهـ

وقوله :﴿فتنة﴾ مفعول له ، فتكون الفتنة هي المقصودة من الإرسال ، لأن بها يتميز حال من يثاب ممن يعذب ، ويتميز المصدق عن المكذب ، فإخراج الناقة من الصخرة كان معجزة ، وإرسالها ودورانها فيما بينهم وقسمة الماء كان فتنة ، ولهذا قال : ﴿إنا مرسلوا الناقة فتنة﴾ و لم يقل : إنا مخرجوا الناقة فتنة .

وفي الكشاف[3] : ﴿إنا مرسلوا الناقة﴾ أي : مخرجوها من الحجر كما سألوا ، روي أنه قال سيدهم ، وهو جندع بن عمرو ، وأشار إلى صخرة منفردة يقال لها : الكاثبة : أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء ــ والمخترجة : التي شاكلت

---

(١) وانظر أيضا تفسير الرازي ٣٠٧/١٠ ، والكشاف ٤٦/٤،٤٧

(٢) ما بين القوسين ليست في الأصل لهذا التفسير ، وهي موجودة في مجموع تفسير الأئمة ص ٤٨٤.

(٣) انظر الكشاف ٤٧/٤.

البخت ــ فإن فعلت صدقناك وأجبناك ، فأخذ صالح عليه السلام المواثيق عليهم لأن فعلت ذلك لتؤمنن ولتصدقن . قالوا : نعم ، فصلى ودعا ربه ، فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها ، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا ، لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله وعظماؤهم ينظرون ، ثم نتجت ولدا مثلها في العظم ، فآمن به جندع ورهط من قومه ، ومنع أعقابهم ناس من رؤسائهم أن يؤمنوا ، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر ، وتشرب الماء وكانت ترد غبا ، فإذا كان يومها وضعت رأسها في البير ، فما ترفعه حتى تشرب كل ما فيها ، ثم تتفحج فيحتلبون ما شاؤا ، حتى تمتلئ أوانيهم ، فيشربون ويدخرون .

قال أبو موسى الأشعري : أتيت أرض ثمود وذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعا ، وكانت الناقة إذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادي ، فتهرب منها أنعامهم ، فتهبط إلى بطنه ، وإذا وقع البرد تشتت ببطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشق ذلك عليهم ، وزينت عقرها لهم امرأتان ، فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه ، فانطلق سقبها حتى رقا جبلا اسمه فاره ، فرغا ثلاثا ، وكان صالح قال لهم : أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا ، وانفتحت الصخرة بعد رغائه فدخلها ، فقال لهم صالح : تصبحون غدا وجوهكم مصفرة ، وبعد غد وجوهكم محمرة ، واليوم الثالث وجوهكم مسودة ، ثم يصبحكم العذاب ، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله إلى أرض فلسطين ، فلما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع ، فأتتهم الصيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا . اهـ

واعلم أن الله سبحانه إنما قص على نبينا صلوات الله عليه وعلى آله وسلم في هذه السورة خمس قصص ليتأسى بمن تقدمه من أنبياء الله عليهم السلام في الصبر والدعاء إلى الحق ، وجعل القصة المتوسطة مذكورة على أتم وجه حيث وصف عز وجل قصة ثمود مستقصاة في هذا الموضع ليقتد بصالح في الصبر ، لأن حال صالح عليه السلام كان أكثر مشابهة بحال محمد صلى الله عليه وآله وسلم ؛ لأنه لما أتى بأمر عجيب أرضي كان أعجب ما جاء به الأنبياء ،

لأن عيسى عليه السلام أحيا الميت ، لكن الميت كان محلا للحياة ، فأثبت بإذن الله الحياة في محل كان قابلا لها ، وموسى عليه السلام انقلبت عصاه ثعبانا فأثبت له في الخشب الحياة ، لكن الخشبة نبات له قوة في النماء يشبه الحيوان في النمو فهو أعجب ، وصالح عليه السلام كان الظاهر في يده خروج الناقة من الحجر ، والحجر جماد لا محل للحياة ولا محل للنمو ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم أتى بأعجب من الكل وهو التصرف في جرم السماء الذي يقول المشرك لا وصول لأحد إلى السماء ، ولا إمكان انشقاقه وخرقه ، وأما الأرضيات فقالوا: إنها أجسام مشتركة المراد ، يقبل كل واحد منها صورة الأخرى ، والسموات لا تقبل ذلك ، فلما أتى بما عرفوا فيه أنه لا يقدر على مثله آدمي كان أتم وأبلغ من معجزة صالح عليه السلام التي هي أتم معجزة من معجزات من كان من الأنبياء غير محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ذكر هذا الرازي[1] .

ثم قال تعالى :﴿ فَارْتَقِبْهُمْ﴾ أي : انتظر معصيتهم فيها ، وتبصر ما هم صانعوه ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ أي : اصبر على أذاهم حتى يعصوا في فعلهم فترى ما تحب فيهم [2] وإنما قال :﴿فارتقبهم﴾ و لم يقل : فارتقب بالعذاب إشارة إلى حسن الأدب ، والاجتناب عن طلب الشر .

وقوله :﴿فاصطبر﴾ يريد ذلك بمعنى إن كانوا يؤذونك فلا تستعجل بهم العذاب ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى أقرب الوقت إلى أمر فيما الأمر فيه بحيث يعجز عن الصبر .

ثم قال تعالى :﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ أي : أخبرهم ﴿أَنَّ الْمَاءَ﴾ الذي يردونه ﴿قِسْمَةٌ﴾ مقسوم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ تغليبا للعقلاء ، ولو غلب غيرهم لقال : بينهن ، أي : لها شرب يوم ،ولهم شرب يوم .

قال *الهادي* عليه السلام يقول : أعلمهم وقل لهم : إنا قد قسمنا الماء بين الناقة وبينهم ، فيوم لها شربه كله لا يشربون معها ، ولا يردون الماء يوم ورودها ، ويوما لهم لا ترد فيه الناقة

---

(١) التفسير الكبير ٣٠٩/١٠ .

(٢) انظر كلام الإمام الهادي عليه السلام الذي سبق .

عليهم ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ يقول : كل يوم فهو شرب لأهله ، يشربون فيه الماء ويحتضرونه ، معنى يحتضرونه : يحضرونه ويشهدونه ، فكانوا كذلك حتى عقروا الناقة ، فنزل بهم عذاب الله [١]. اهـ

وقيل : يحضرون الماء في نوبتهم ، واللبن في نوبتها .

قال في *البرهان* : روينا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما نزل الحجر في مغزى تبوك قال لأصحابه : أيها الناس لا تسألوا عن الآيات ، هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث الله لهم آية فبعث الله لهم الناقة فكانت ترد من ذلك الفج فتشرب ماءهم يوم وردها ، ويحلبون منها مثل الذي كانوا يشربون منها يوم غبها ، وتصدر من ذلك [٢]. اهـ

قال ابن عباس : تعنتوا على صالح فسألوه أن يخرج لهم من صخرة كانت عندهم ناقة حمراء عشراء تضع ثم ترد ماءهم فتشربه ، ثم تغدو عليهم بمثله لبنا ففعل الله ذلك لصالح

ثم قال تعالى :﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ نداء المستغيث ، كما تقول : يا لله للمسلمين .

قال في *البرهان* : وصاحبهم الذي نادوه لعقرها قُدَار بن سالف ، قال الأفوه :

فإنه كقدار حين تابعه على الغواية أقوام فقد بادوا

﴿فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ أي : تناولها بيده بعد ما كمن لها في أصل صخرة على طريقها فرماها بسهم ، فانقضم به عضلة ساقها ، ثم شد عليها بالسيف فضرب عرقوبها فخرت ورغت ، ثم نحرها ، فأتاهم صالح فلما رأى الناقة قد عقرت بكى ، ثم قال : انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله ، وكان قدار أحمر أزرق [٣]. اهـ

وقيل :﴿فتعاطى﴾ أي : اجتراء على الأمر العظيم غير مكترث ﴿فعقر﴾ أي : فأحدث العقر بالناقة ، رماها مسطح بسهم في رجلها فسقطت فعقرها قدار بن سالف .

ثم قال عز وجل :﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ قد مر تفسيره .

---

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٨٥.

(٢) انظر البرهان ٣٦٣، وفي زيادة : وهو معنى قوله :﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر﴾ .

(٣) البرهان ٣٦٣

ثم قال عز وجل :﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ قيل : هي صيحة جبريل التي فلقت قلوبهم ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ الهشيم : الشجر اليابس المتهشم المتكسر .

والمحتظر : الذي يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك ، فما سقط من ذلك فداسته الغنم فهو الهشيم .

قال *الهادي* عليه‌السلام : والعذاب الذي نزل بهم فهو ما ذكر الله من الصيحة الواحدة ، والصيحة : فهي الأمر الذي نزل بهم فأهلكهم ، وهشيم المحتظر : فهو دقاق ما قد بلي من الشوك والعيدان الذي احتظر به المحتظر على نفسه وغنمه ، ثم طال عنده فبلي وتفتت ، وهو شئ كانت العرب تفعله يجمع الرجل منها الشوك والعيدان فيحظره حظيرة على غنمه ، حتى لا يخرج منها شئ ، فشبه الله هؤلاء الذين أهلكهم بهشيم ذلك الشوك ، الذي جعل حظيرة بعد فنائه وبلائه [1]. اهـ

قال الشاعر : أثرت عجاجة بدخان نار تشب بغدفد بال هشيم

وقال آخر : ترى جيف المطي بجانبيه كأن عظامها خشب الهشيم

ذكره في *البرهان* [2] .

وقوله تعالى :﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ تكرار للتذكار .

ثم بين سبحانه حال قوم آخرين ، وهم قوم لوط ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ أي : بالرسل ، أو بالإنذار ، ثم بين عذابهم وهلاكهم فقال :﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ .

قال *الهادي* عليه‌السلام : الحاصب فهو الرمي الذي وقع بهم ، والرجم الذي نزل من السماء عليهم [3].

---

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٨٥ . وفي الأصل : فيحظر به على غنمه ، وما أثبتناه هو ما في المجموع .

(٢) البرهان ص ٣٦٣ ، ولفظ البرهان : قوله عز وجل :﴿فكانوا كهشيم المحتظر﴾ أراد الحظائر البالية إذا صارت هشيما ، ومنه قول الشاعر : أثرت عجاجة بدخان نار تشب بغدفد بال هشيم

والمحتضر : هو الذي تحتضر به العرب حول مواشيها من السباع .

قال الشاعر : ترى جيف المطي بجانبيه كأن عظامها خشب الهشيم .

(٣) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٨٥ .

وفي الكشاف (حاصبا) : ريحا تحصبهم بالحجارة ، أي : ترميهم بها [١].

وفي التجريد قال أبو عبيدة : الحاصب الحجارة في الريح ، ويكون الحاصب الرامي بالحصباء .

المعنى : أنا أرسلنا عليهم عذابا يحصبهم يرميهم بالحجارة ، التي هي الحصباء ، وكثير استعمال الحاصب في الريح الشديد ، فأقام الصفة مقام الموصوف ، والمراد عذاب حاصب ؛ لأن المقصود بيان جنس العذاب لا بيان من على يده العذاب .

ثم في الاستثناء في قوله تعالى :﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ وجهان : أحدهما أن الاستثناء عاد إلى الضمير في ﴿عليهم﴾ وهم القوم بأسرهم ، غير أن قوله :﴿كذبت قوم لوط﴾ لا يوجب كون آله مكذبين ؛ لأن قول القائل : عصى أهل بلدة كذا يصح وإن كان فيها شرذمة قليلة يطيعونه ، فهذا إذا كان منهم واحدا أو اثنان من المطيعين لا غير .

والثاني : أن الاستثناء من كلام مدلول عليه ، فإنه قال :﴿إنا أرسلنا عليهم حاصبا﴾ فما أنجينا من الحاصب إلا لوط ، فكان الحاصب من كان الإرسال عليه مقصودا ، ومن لم يكن كذلك كأطفالهم ودوابهم ومساكنهم ، فما نجا منهم ﴿إلا آل لوط﴾ يعني : من آمن من ولده [٢].

في الكشاف : أقاربه الذين على دينه ، ومن آمن معه ﴿نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ أي أمرناهم بالخروج من القرية في آخر الليل ، والسحر : هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر ، وهو في كلام العرب اختلاط سواد الليل ببياض النهار ؛ لأن في هذا الوقت تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار ، وقيل : بقطع من الليل ، وهو السدس الأخير منه ، وقيل : هما سحران الأول : قبل انصداع الفجر ، والآخر : عند انصداعه .

ثم قال تعالى :﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي ذلك الإنجاء كان فضلا منا لأجل إنعامنا عليهم ، كما أن ذلك الإهلاك كان عدلا .

---

(١) الكشاف ٤٧/٤ .

(٢) انظر التفسير الكبير ٣١٣/١٠، ٣١٤ .

وفي نصبها وجهان : أحدهما ـــ مفعول له كأنه قال : نجيناهم نجاتهم نعمة منا .
ثانيهما : على أنه مصدر ؛ لأن الإنجاء منه إنعام ، فكأنه تعالى قال : أنعمنا عليهم بالإنجاء إنعاما .
ثم قال تعالى :﴿كَذَلِكَ﴾ أي : مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ نعمة الله بإيمانه وطاعته .
ثم أخبر سبحانه بإنذار نبيه ، وإتيانه بما هو عليه فقال :﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾ لوط عليه‌السلام ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أي : وقعتنا ومصيبتنا ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ أي : شكوا في النذر ، وهذا يدل على أن النذر هي الإنذارات ، وفي قوله :﴿ولقد أنذرهم بطشتنا﴾ تنزيه لوط عليه‌السلام ، وبيان أنه أتى بما عليه ، فإنه تعالى لما رتب التعذيب على التكذيب ـــ وكان من الرحمة أن يؤخره ويقدم عليه الإنذارات البالغة ـــ بيَّنَ ذلك فقال : أهلكناهم وكان قد أنذرهم من قبل بطشتنا ، أي : البطشة التي وقعت ، وقيل : المراد بها في الآخرة كما في قوله تعالى :﴿يوم نبطش البطشة الكبرى﴾[1] .
ثم قال تعالى :﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ هم الملائكة عليه‌السلام ، أي : خادعوه وطلبوه ترك المدافعة لما أرادوا بهم من فعل الفاحشة ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ قيل : مسخناها وجعلناها كسائر الوجه لا يرى لها شق .
روي أنهم عالجوا باب لوط عليه‌السلام وهو يدافعهم ، فقالت الملائكة عليهم‌السلام : خلهم يدخلوا ﴿إنا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾[2] فدخلوا ، فصفقهم جبريل عليه‌السلام بجناحه [صفقة]فتركهم يترددون ولا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم[3] .
وعن الضحاك : طمس الله أبصارهم عن الضيف ، ولم يعمهم فجعلوا يقولون : قد رأيناهم دخلوا فأين ذهبوا .

---

(١) الدخان : ١٦.

(٢) هود : ٨١ .

(٣) وذكر هذه الرواية أيضا الزمخشري في كشافه (٤/٤٣٩) وما بين قوسي الزيادة منه .

قلت : ويؤيد هذا قول *الهادي* عليه‌السلام حيث قال :﴿ولقد راودوه﴾ هو لوط صلى الله عليه راوده هؤلاء المرجومون ليسلم إليهم ضيفه ، وهم الملائكة المقربون ، وكانوا يظنون أنهم فتية آدميون فطمس الله أعينهم ، ومعنى طمس أعينهم : فهو حجبناها عن رؤيتهم ومنعناها من الوقوع على ملائكة ربهم [1]. اهـ

وكذلك روي عن ابن عباس أنه قال : المراد من الطمس الحجب عن الإدراك ، فما جعل على بصرهم شئ غير أنهم دخلوا و لم يروا هناك شيئا ، فكانوا كالمطموس .

قوله تعالى :﴿ فَذُوقُوا﴾ أي : قيل لهم على ألسنة الملائكة : ذوقوا ﴿عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: وعقاب تكذيب إنذاري ، أي لما نزل العذاب بهم قالت الملائكة عليهم‌السلام لهم : ذوقوا عذاب الله ونذره : أي إنذاره إليكم .

وقيل : هذا خطاب مع كل مكذب ، تقديره : كنتم تكذبون فذوقوا عذابي ؛ فإنهم لما كذبوه ذاقوه .

إن قيل : النذر كيف تذاق ؟ قيل له : ذق فعلك ، أي : مجازاة فعلك وموجبه، ويقال : ذق الألم على فعلك ، وقوله :﴿فذوقوا عذابي﴾ كقولهم : ذق الألم ، وقوله : ﴿ونذر﴾ كقولهم : ذق فعلك ، أي ذق ما لزم من إنذاري [2].

ثم قال تعالى :﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً﴾ أي أول النهار وباكره ، كقولهم : مشرقين ومصبحين ﴿عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ أي : مقيم عليهم غير زائل عنهم ، قد استقر عليهم إلى أن يفضي بهم إلى عذاب الآخرة ، ويحتمل : عذاب مستقر أنه لا مدفع له ، أي : يستقر عليهم ويثبت ، ولا يقدر أحد على إزالته ورفعه أو إحالته ودفعه .ثم قال تعالى : ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي : وإنذاراتي ومصداق ما أنذرته ، وهو تقريع بما لهم في الحال من العذاب .

[فائدة في التكرير]

قال في البلغة : وإنما كرر ﴿فذوقوا عذابي ونذر﴾ لأن الأول قيل عند الطمس ، والثاني قيل لهم عند الخسف ولا شاك .

---

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٨٥ .

(٢) انظر التفسير الكبير للرازي ٣١٧/١٠.

وفي الكشاف : فإن قلت : ما فائدة تكرير قوله سبحانه وتعالى :﴿فذوقوا عذابي ونـــذر﴾ ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ ؟ قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكارا واتعاظا ، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا إذا سمعوا الحث على ذلـــك والبعث عليه ، وأن تقرع لهم العصا مرات ، ويقعقع لهم الشن تارات ؛ لئلا يغلبهم السهو ولا تستولي عليهم الغفلة ، وهكذا حكم التكرير كقوله :﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ عند كل نعمة عدها في سورة الرحمن ، وقوله :﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ عند كل آية أوردها في سورة المرسلات ، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون [تلك] العبر حاضرة للقلوب مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية في كل أوان[1]. اهـــ

ثم قال تعالى :﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ وَلَقَدْ جَـــاءَ آلَ فِرْعَـــوْنَ النُّذُرُ﴾ آل فرعون : أهله وخاصته ، والنذر : موسى وهارون وغيرهما ؛ لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون ، أو جمع نذير وهو الإنذار :﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَـــا﴾ أي : التسع ، وسيأتي إنشاء الله تعالى عددها في سورة النمل ، وقيل : قوله تعالى :﴿كَذَّبُـــوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ كلام مستأنف ، والضمير عائد إلى كل من تقدم ذكرهم من قوم نوح إلى آل فرعون ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ أي غالب : أي لا يغالب ﴿مُقْتَدِرٍ﴾ أي : عـــذاب عزيز قادر لا يعجزه شئ .

ولما أخبر سبحانه عن قصص من ذكر في هذه السورة ممن أهلكهم من القرون الأولـــين بكفرهم قال :﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يعني قريشا والعرب ﴿خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ يقول : من أولئك الذي قصصنا عليكم هلكتهم ، وهم قوم نوح وهود وصالح وآل فرعون ، أي : هم خير قوة وآلة ومكانة في الدنيا ، أو أقل كفرا وعنادا ، يعني أن كفاركم مثل أولئك ، بل هم شر منهم وأضعف .

﴿أَمْ لَكُمْ﴾ أم أنزلت عليكم يا أهل مكة ﴿بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي : في الكتب المنزلة بأن من كـــفر منكم وكذب الرسل كان آمنا من عـــذاب الله تعالى ، فأمنتم بتلك البراءة ،

---

(١) الكشاف ٤/ ٤٣٩ . وما بين قوسي الزيادة منه .

يقول : أهم خير فنصرف عنهم ما أوقعناه بغيرهم ممن كفر ككفرهم ﴿أم لكم براءة في الزبر﴾ يقول : مما وقع بغيركم ، فأنتم تجترون بذلك على ربكم ، ذكر معنى هذا كله الهادي عليه السلام [1].

ثم قال تعالى :﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ ﴿أم﴾ بمعنى : بل ، يريد يقولون : يا محمد نحن لكثرة جماعتنا وعددنا منتصرون من جنود الله إن قاتلتنا ، فهذا قليل من جهلهم ، وضعف رأيهم ، وقوله :﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ الذي به يدلون ، وعليه من دون الله يتكلون حتى ينهزموا من جند الله ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ أي : أدبارهم هاربين من أولياء الله .

قال في *البرهان* : يعني : يهزم جمع كفار قريش ، وذلك يوم بدر ، فهذه معجزة وعدهم الله تعالى بها فحققها ، وفي ذلك شعر حسان :

ولقد وليتم الدبر لنا حين سال الموت من رأس الجبل [2]

وعن عكرمة : لما نزلت [هذه الآية] قال عمر : أي جمع يهزم ؟ فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله يثب في الدرع ببدر ويقول :﴿سيهزم الجمع﴾ عرف تأويلها [3] .

فقوله ﴿ويولون الدبر﴾ أراد بالمفرد الجمع ، أي : كل واحد دبره ، كما قال :

كلوا في بعض بطنكم تعفوا فإن زمانكم زمن خميص [4]

---

(١) في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، قال الهادي عليه السلام في قول الله سبحانه : ﴿أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ فقال : شبه سبحانه قصص من ذكر في هذه السورة بمن أهلكهم من القرون لكفرهم ، ثم قال :﴿أكفاركم﴾ يعني قريشا والعرب ﴿خير من أولئكم﴾ يقول : من أولئك الذين قصصنا عليكم هلكتهم ﴿أم لكم براءة في الزبر﴾ يقول : أهم خير فنصرف عنهم ما أوقعناه بغيرهم ممن كفر ككفرهم ، أم لهم براءة في الزبر ، والزبر : فهي كتب الله من التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، يقول : هل لكم من الله حكم بالبراءة مما وقع بغيركم ، فأنتم تجترون لذلك على ربكم ﴿أم يقولون نحن جميع منتصر﴾ يريد : أم يقولون : يا محمد نحن لكثرة جماعتنا وعددنا منتصرون من جنود الله إن قاتلتنا ، فهذا قليل من جهلهم ، وضعف رأيهم وقولهم ﴿سيهزم الجمع﴾ الذي به يدلون ، وعليه من دون الله يتكلون ، حتى ينهزموا من جند الله ، ويولون أدبارهم هاربين من أولياء الله .

(٢) انظر البرهان ٣٦٣ ، وقد صححنا اللفظ منه .

(٣) في الأصل (ثبت) وفي الكشاف (يثب) . في الأصل (عرفت) وفي الكشاف (عرف) (الكشاف ٤/٤٤٠

قال الرازي : وإفراد الدبر إشارة إلى أنهم في التولية كنفس واحد ، فلا يتخلف أحد عن الجمع ، ولا يثبت أحد للزحف ، فهم كانوا في التولية دبر واحد [١].

ثم قال تعالى :﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي : لكن الساعة ﴿موعدهم﴾ أي : موعد عذابهم إشارة إلى أن الأمر غير مقتصر على انهزامهم وإدبارهم ، بل الأمر أعظم منه ، فإن الساعة موعدهم ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ أي : أشد وأفظع وأطم وآلم وأعظم من يوم بدر ، ومنه : الداهية ، وهي الأمر المنكر الذي لا يهتدى لدوائه .

قال *الحسين بن القاسم* عليه السلام : والداهية هي الفجيعة ، قال الشاعر :

أصاب الدهر نسوة آل حرب بداهية همدن لها همودا

فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

ومعنى ﴿وأمرّ﴾ أي : أفظع وأشر ، وأمر مذاقا من الهزيمة يوم بدر ، والمرارة : هي ضد الحلاوة قال الشاعر :

ولم أر مثل الحب أحلى ولا أمر

وإنما ضرب الله المرارة مثلا لقبح مذاقها ، وثقل مؤنتها وفظاعتها .

ثم قال تعالى :﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي : هم ﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ والمجرم : فهو الكاسب للذنوب المجترم لها . اهـ

ومعنى ﴿في ضلال﴾ أي : في هلاك ونيران ، أو في ضلال عن الحق في الدنيا ، ونيران في الآخرة ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ أي : يجرون جرا وسحبا ، والسحب: هو الجر ، والعامة تقول : السحاب سمي سحابه لانسحابه على الجبال ، والسحب : هو الجر في اللغة ذكره *الحسين بن القاسم* عليه السلام [٢] وهذا متعلق بمحذوف ، أي يوم

---

(٤) انظر الكشاف ٤/٤٤٠، قال ابن حجر في تخريج هذا الحديث : عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ، وعن أيوب عن عكرمة ، أن عمر فذكره وأتم منه ، ورواه من هذا الوجه إسحاق ، والطبري ، وابن أبي حاتم ، ورواه الطبراني في الأوسط من رواية عبد المجيد بن أبي رؤاد عن معمر عن قتادة عن أنس عن عمر موصولا .

(١) التفسير الكبير ١٠/٣٢٢.

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليهما السلام في أوائل هذه السورة .

يسحبون يقال لهم :﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي : حر النار ، وسقر : اسم مؤنث علم لجهنم ، من سقرته الشمس إذا أذابته ، ذكره في التجريد .

وقيل : من سقرته النار وصقرته إذا لوحت قال ذو الرمة :

إذا ذابت الشمس أتقى صقراتها   بأفنان مربوع الصريمة معبل[1]

والمس هنا : من قولك : وجدت مس الحما ، وذاق طعم الضرب ؛ لأن النار إذا أصابتهم بحرها ولحقتهم بإيلامها فكأنها تمسهم مسا كما يمس الحيوان ، فقوله تعالى : ﴿ذوقوا﴾ استعارة ، وفيه حكمة ، وهو أن الذوق من جملة الإدراكات ، فإن المذوق إذا لاقى اللسان يدرك أيضا حرارته وبرودته وخشونته وملاسته كما يدرك سائر أعضائه ، ويدرك أيضا طعمه ، ولا يدركه غير اللسان ، فإدراك اللسان أتم ، فإذاً المذوق إدراك لمسي أتم من غيره من الملموسات فقال :﴿ذوقوا﴾ إشارة إلى أن إدراكهم بالعذاب أتم الإدراكات فيجتمع في العذاب إذاً شدته وإيلامه بطول مدته ودوامه .

ثم قال تعالى :﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ قال في *البرهان* : أي بمقدار وحكمة وتقدير قال الراجز :   وقدر المقدر الأقدارا[2] . اهـ

والقَدَر والقَدْر التقدير أي : خلقنا كل شيء مقدرا ، أي : محكما على حسب ما اقتضته الحكمة ، وقرئ (كلّ) بالنصب والرفع ، فإذا رفعت على أن كل شيء مبتدأ احتمل أن يكون صفة لشيء المضاف إليه ﴿كل﴾ إذ هو نكرة ، ويكون الخبر قوله ﴿بقدر﴾ متعلقا بمحذوف وهو خلقناه ، وذلك يبطل ما ذهب إليه ابن الحاجب من التنصيص على القدر، ويحتمل أن يصير المعنى إنا كل شيء مخلوق لنا لا لغيرنا خلقناه بقدر ، وإذا نصبت

---

(١) البيت من شواهد الكشاف ٤/٤٤١ ، قال السيد العلوي رحمه الله في حاشيته على الكشاف : يصف ثور وحش ومعنى ذابت الشمس : اشتد حرها ، ويقال : ذاب لعاب الشمس، فيكون إسناد الذوبان إلى الشمس مجازا ، والمربوع: الذي أتى عليه مطر الربيع ، والصريمة : الرملة المنقطعة من الرمال ، والمعبل : جماعة الشجر ذي العبل ، وهو ورق الأرطى ، والأفنان : الغصون ، الواحد فنن . والصقرات : شدة وقع الشمس ، وقيل : يصف الظبي , وأنه إذا اشتد الحر عليه اتقى منه بأفنان الشجر ، واستظل به . (حاشية العلوي على الكشاف ٢٩٨) .

(٢) البرهان ٣٦٣ ، ولا يوجد في نسخة البرهان التي بين أيدينا لفظ : بمقدار .

﴿كل﴾ فهذا الاحتمال أيضا مع قراءة النصب باق ؛ لأن ﴿خلقناه﴾ مع النصب يكون صفة لشيء كما كان مع الرفع ، والفعل الناصب لـ﴿كل شيء﴾ محذوف جوازا ، وليس هو من باب ما أضمر عامله على شريطة التفسير ، بل من باب زيدا لمن قال : من أضرب ؟ وسوغ حذفه القرينة ، فلا وجه لما ذكره ابن الحاجب هاهنا من التنصيص على الجبر بزعمه من غير احتمال ، ذكر معنى هذا إمامنا المنصور بالله[1] عليه‌السلام .

---

(١) هو الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد عليه‌السلام .

هذا هو خلاصة ما ذكره أيضا السيد العلوي في حاشيته ، بعد أن ذكر أن قراءة الرفع شاذة (أعني ليست عن القراء السبعة) وبعد أن حاول دعاة الجبر أن يستدلوا بهذه الآية ، على أن كل شيء مخلوق لله ، وأن ليس للإنسان أي تعلق بأفعاله ، وإنما هو كالشجرة التي تحركها الرياح . قال السيد رضي الله عنه : قال أبو البقاء : ﴿كل شيء﴾ بالنصب العامل فيه محذوف ، و﴿بقدر﴾ حال من الهاء ، ومن ﴿كل﴾ مقدرا ، ويقرأ بالرفع على الابتداء ، و﴿خلقناه﴾ نعت لكل ، أو لشيء ، و﴿بقدر﴾ خبره ، وإنما كان النصب أقوى لدلالته على عموم الخلق ، والرفع لا يدل على عمومه ، بل يفيد أن كل شيء مخلوق فهو بقدر .

وذهب ابن الحاجب إلى أن ﴿كل شيء﴾ مبتدأ ، و﴿خلقناه﴾ خبره ، و﴿بقدر﴾ حال ، والمجموع خبر ﴿إنا﴾ فيفيد المعنى المقصود من الآية ، لكن لا نأمن أن يغلط بعض فيجعل ﴿خلقناه﴾ صفة لكل شيء ، ويقدر خبرا له ، فيكون التقدير : كل شيء مخلوق له ، فكان النصب أولى لما فيه من النصوصية على المقصود .

الانتصاف : ما مهده النحاة اختيار رفع كل ، ولم يقرأ بها أحد من السبعة ؛ لأن الكلام مع الرفع جملة واحدة ، ومع النصب جملتان ، فالرفع أخصر ، وإنما وقع إجماع السبعة على النصب لأنه لو رفع لكان ﴿خلقناه﴾ صفة لشيء ، و﴿بقدر﴾ خبرا عن كل شيء المقيد بالصفة ، ومعناه : أن كل شيء مخلوق لنا بقدر ، فيفهم من ذلك أن مخلوقا ما يضاف إلى غير الله ليس بقدر ، وعلى النصب يصير الكلام : إنا خلقنا كل شيء بقدر ، فيفيد عموم نسبة كل مخلوق إلى الله تعالى ، وهذه الفائدة لا توازيها الفائدة اللفظية ، مع ما فيه من نقض المعنى ، لا جرم أجمعت السبعة عليها ، ولما كان الزمخشري يريد أن أفعال العباد مخلوقة لهم استروح إلى قراءة الرفع ، وإن كانت شاذة ، وإجماع المتواتر حجة عليه وقلت : لا تفاوت بين الرفع والنصب من حيث المعنى ، وذلك لأن مراده تعالى ﴿بكل شيء﴾ مخلوق نصبت كل أو رفعته ، وسواء جعلت ﴿خلقناه﴾ صفته مع الرفع ، أو خبرا عنه ، وذلك أن قوله ﴿خلقنا كل شيء بقدر﴾ لا يريد به خلقنا كل ما يقع عليه اسم الشيء ؛ لأنه تعالى لم يخلق جميع الممكنات التي لا تتناهى ، وكل واحد منها يقع عليه اسم الشيء ، فإذا تقرر هذا قلنا : إن معنى ﴿كل شيء خلقناه بقدر﴾ برفع كل ، على أن خلقناه خبر كل مخلوق مخلوق بقدر ، وعلى أن خلقناه صفة كل شيء مخلوق كائن بقدر ، فلا تفاوت بين المعنيين ، وكما أن الشيء مخصوص على قراءة الرفع بما ذكرناه ، كذلك هو مخصوص على تقدير النصب ؛ لامتناع العموم . والله أعلم

ثم أخبر سبحانه عن سرعة فعله فقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ يعني: أن ما أردناه من صنع شئ أمرناه، أي: صنعناه مرة واحدة، ولا يحتاج إلى ثانية، فيكون ذلك الشيء مع أمرنا له وصنعنا إياه ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ في سرعته، أي كلمحة بصر المبصر في سرعة أمره إذا أمر، ومعنى ﴿وما أمرنا﴾ أي: شأننا إذا أردنا تكوين شئ إلا فعلة واحدة سريعة، كسرعة اللمح بالبصر، واللمح: خطف البصر، وهو تحريك الجفن، وقيل: معناه إلا كلمة واحدة سريعة التكوين، والأول أولى؛ لأن الكلمة التي هي كن إنما هي عبارة عن سرعة تكوين المراد كما سبق ذكره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ تدل على أن قوله: ﴿وما أمرنا إلا واحدة﴾ تهديد بالهلاك والأشياع الأشكال.

قال *الهادي* عليه السلام: هي أمثالهم ونظراؤهم وإخوانهم في كفرهم ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ يقول: هل من متذكر ومعتبر[1].

وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ إشارة إلى الأمر غير مقتصر على هلاكهم، بل الإهلاك هو العاجل والعذاب الآجل هو الذي معد لهم على ما فعلوه (والزبر هاهنا: فهو العلم، يقول: كل شئ فعلوه وأحدثوه أو قالوه فهو في علمنا ثابت مستقر ولا يزول منه ما كبر ولا ما صغر)[2].

وقيل: الزبر الكتب، أي مكتوب محفوظ في ديوان الحفظة، وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الأعمال ومن كل ما هو كائن ﴿مُسْتَطَرٌ﴾ تعميم بالحكم، أي ليست الكتابة مقتصرة على ما فعلوه بل ما فعله غيرهم أيضا مسطور فلا يخرج عن الكتب صغيرة ولا كبيرة وقال في *البرهان*: ﴿مستطر﴾ أي: معلوم محفوظ كالشيء المكتوب الذي إذا احتيج إليه نظر فيه[3]. اهـ

قلت: ومثل هذا ذكر *الهادي* والقاسم[4] عليهما السلام وغيرهما.

---

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٧٨.

(٢) ما بين القوسين من كلام الإمام الهادي عليه السلام. مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٧٨.

(٣) البرهان ٣٦٣.

ثم قال تعالى :﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ قال الهادي عليه السلام : فالنهر : نهر الأنهار التي تجري في الجنان [1]. اهـ

فمعنى ﴿نهر﴾ أي : أنهار لكن اكتفى بذكر الجنس ، ولوفاق الفواصل ؛ لأن اسم الجنس يقوم مقام الأنهار ، وقيل : النهر السعة والضياء مأخوذ من النهار .ومعنى قوله تعالى ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ فهو : في محل صدق ، أي : في مكان مرضي ومجلس حق لا لغو فيه .

﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ معنى ﴿عند﴾ لدى ، و﴿مليك﴾ فهو المالك لكل شئ ﴿مقتدر﴾ فهو القادر على ما يريد ، الذي لا يمتنع منه قريب ولا بعيد ، ذكره الهادي [2] عليه السلام وذلك لما كانوا في الجنة وهي دار النعيم التي أعدها الله تعالى لهم مثلت حالهم بحال خواص الملك المقربين عنده في المنزلة على جهة التخييل، والله سبحانه يتعالى عن الأمكنة؛ لأن المراد قرب المنزلة والشأن لا قرب المعنى والمكان .

وقوله :﴿مليك مقتدر﴾ لأن القرب من الملوك لذيذة كلما كان الملك أشد اقتدارا كان المتقرب إليه أعظم التذاذا ، وفيه إشارة إلى مخالفة معنى القرب منه من معنى القرب من الملوك ، فإن الملوك إنما يقربون ناسا يحبونه وناسا يرهبونه مخافة أن يعصوا عليه وينحازون إلى عدوه فيغلبونه ، والله تعالى قال :﴿مقتدر﴾ لا يُقَرِّبُ أحدا إلا بفضله .

وصلى الله على خير خلقه محمد وآله وسلم تسليما كثيرا

---

(٤) قال الإمام الهادي عليه السلام : معنى ﴿مستطر﴾ فهو مكتوب ، ومعنى مكتوب : فهو محفوظ . مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٨٦.

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٨٦

(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٨٦.

سورة النجم

ستون وآيتان في الكوفي ، وإحدى وستون في عدد الأكثر (مكية)

قال في البرهان : وهي أول سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [بمكة]

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله عز وجل :﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ قال الهادي عليه السلام : هذا قسم من الله سبحانه بالنجوم عند هويها ، ومعنى ﴿والنجم﴾ فهو النجوم جميعا كما قال الله :﴿يا أيها الإنسان﴾[1] وهو يريد الناس طُرّاً ، ومعنى ﴿هوى﴾ فهو غاب وتدلى ، فأقسم بهويه عند هويه لما في ذلك من عظيم الآيات وكبير الدلالات على منشئ الأرضين والسموات[2] . اهـ

---

(١) الإنفطار : ٦ . والإنشقاق : ٦ .

(٢) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٧٧ .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليهما السلام ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن احمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليهما السلام في قوله تعالى : ﴿والنجم إذا هوى﴾ معناه نجوم القرآن ، كان ينزل به جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وآله وسلم خمس آيات أو أكثر أو أقل .

وقوله تعالى :﴿وما ينطق عن الهوى﴾ معناه أي : بالهوى . وقوله تعالى :﴿ذو مرة فاستوى﴾ معناه : قوة .

وقوله تعالى :﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ معناه : بالجانب ، وقال : هو مطلع الشمس الأعلى .

وقوله تعالى :﴿ثم دنا فتدلى﴾ أي : جبريل عليه السلام .

وقوله تعالى :﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ معناه : ما بين الوتر إلى كبد القوس ، وقال : كل ما قست به فهو قوس .

وقوله تعالى :﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ معناه : ما علم ، وصدق ما رأى .

وقوله تعالى :﴿ما زاغ البصر﴾ معناه : ما عدل . وقوله تعالى :﴿وما طغى﴾ معناه : ما جار .

وقيل : أقسم بالنجم وهو اسم غالب على الثريا وهو جنس النجوم ، وقيل : النجم الذي يرجم به ، وهوى : غرب أو انتثر يوم القيامة .

وقال في البرهان : معناه نجوم القرآن ؛ لأنه كان ينزل نجوما ، أي : آية بعد آية ، وسورة بعد سورة [(١)].

وفي الكشاف وغيره عن عروة بن الزبير : أن عتيبة بن أبي لهب وكانت تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وآله أراد الخروج إلى الشام فقال : لآتين محمدا فلأوذينه ، فأتاه فقال: يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى ، وبالذي دنا فتدلى ، ثم تفل في وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورد عليه بنته وطلقها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله :(اللهم سلط عليه كلبا من

وقوله تعالى :﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ معناه : من علاماته وعجائبه . وقوله تعالى :﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ قال : هي أصنام كانوا يعبدونها . وقوله تعالى :﴿تلك إذا قسمة ضيزى﴾ معناه : جائرة . وقوله تعالى :﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ معناه : من حجة . وقوله تعالى :﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ معناه : البيان . وقوله تعالى :﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾ معناه : أن يلم بالذنب ثم يتوب منه . وقوله تعالى :﴿وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم﴾ معناه : أولاد في بطونهن ، واحدها : جنين . وقوله تعالى :﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ معناه : لا تبرئوها . وقوله تعالى :﴿وأعطى قليلا وأكدى﴾ معناه : أقل . وقوله تعالى :﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ معناه : بلغ ما أمر به وقوله تعالى :﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾ معناه : لا يؤاخذ بذنب غيره . وقوله تعالى :﴿وأن سعيه سوف يرى﴾ معناه : عمله . وقوله تعالى :﴿من نطفة إذا تمنى﴾ معناه : تخلق . وقوله تعالى :﴿وأن عليه النشأة الأخرى﴾ معناه : إحياء الأموات . وقوله تعالى :﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾ معناه : مول وكثر . وأقنى أي : جعل له قنية ، معناه أصل مال ، ويقال : قنى : رضي ، ويقال : أخدم . وقوله تعالى :﴿وأنه هو رب الشعرى﴾ معناه : الكوكب المضي الذي وراء الجوزاء . وقوله تعالى :﴿وأنه أهلك عادا الأولى﴾ وهم الذين أرسل الله تعالى عليهم الريح فدامت عليهم سبع ليال وثمانية أيام حتى هلكوا . وقوله تعالى :﴿والمؤتفكة أهوى﴾ قال : رفعها جبريل عليه السلام إلى السماء ، ثم أهوى بها ، والمؤتفكة : هي المخسوف بها . وقوله تعالى :﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾ فالآلاء : النعماء واحدها إلى ، وتتمارى : أي : تشك .وقوله تعالى :﴿أزفت الآزفة﴾ معناه : قربت القيامة . وقوله تعالى :﴿وأنتم سامدون﴾ معناه : غافلون ، ويقال : لاهون

(انظر تفسير غريب القرآن للإمام زيد ٢٠٩، ٣١١)

(١) قال في البرهان : ﴿والنجم إذا هوى﴾ معناه : نجوم القرآن .. الخ وكل ما ورد في هذه السورة ، هو موجود في نسخة البرهان (مخطوط) التي لدينا ص ٣٥٩ـ ٣٦٢. وانظر أيضا تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام ففيه مثله .

كلابك) وكان أبو طالب حاضرا فوجم لها [1] وقال : ما كان أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة ، فرجع عتيبة إلى أبيه فأخبره ، ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلا فأشرف عليهم راهب [من الدير] فقال لهم : إن هذه أرض مسبعة ، فقال أبو لهب لأصحابه : أعينوني يا معشر قريش هذه الليلة ، فإني أخاف على ابني دعوة محمد ، فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم ، وأحدقوا بعتيبة فجاء الأسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عتيبة فقتله [2] فقال حسان في ذلك :

من يرجع العام إلى أهله فما أكيل السبع بالراجع [3]

وجه قوله تعالى ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ أي : ما ضل صاحبكم يا قريش ، أي: محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(١) فوجم لها : أي : اشتد حزنه . أفاده في الصحاح . وقال السيد العلوي : ومعنى وجم لها : أي : للكلمة أو للدعوة ، أنه أسكته الهم ، وعلته الكآبة ،

(٢) قال ابن حجر في تخريج الكشاف : أخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق ابن إسحاق عن عثمان بن عروة عن أبيه فذكر مثله ، إلا أنه قال : فضربه الأسد بذنبه ضربة واحدة فمات مكانه . ورواه البيهقي في الدلائل ، والطبراني من طريق سعيد عن قتادة مطولا نحوه ، لكن قال عنبسة : ورواه الحاكم والبيهقي في الدلائل أيضا من رواية أبي نوفل بن أبي عقرب عن أبيه ، قال : (كان لهب بن أبي لهب) فذكره مختصرا ، وقال البيهقي : هكذا قال ابن عباس بن الفضل الأزرق . وليس بالقوي ، وأهل المغازي يقولونه : عتبة ، أو عتيبة .

قال السيد العلوي رحمه الله : قيل : إن هذا الحديث موضوع ؛ لأن صاحب الاستيعاب وجامع الأصول ذكرا أن عتبة بن أبي لهب أسلم هو وأخوه معتب يوم فتح مكة ، وكانا قد هربا ، فبعث العباس وأتى بهما فأسلما ، وسر رسول الله صلى الله عليه وآله بإسلامهما ، ودعا لهما وشهدا معه حنينا والطائف (حاشية العلوي ٢٩٥) .

(٣) لا يرفع الرحمن مصروعكم ولا يوهن قوة الصارع
وكان فيه لكم عبرة للسيد المتبوع والتابع
من يرجع العام إلى أهله فما أكيل السبع بالراجع
من عاد فالليث له عائد أعظم به من خبر شائع

قال السيد العلوي : من جملة أبيات منحولة إلى حسان وليست له ، والله أعلم.

ويوهن بالتشديد مجزوما بلا الدعائية ، والمصروع : المطروح ، وسكون السبع لغة ، ثم قال : من عاد لمثل فعل عتبة فالأسد له عائد . وقد صححنا الألفاظ من الكشاف ، وهي ألفاظ يسيرة (انظر الكشاف ٤/٤١٨) .

قال الهادي عليه السلام : فأقسم بالنجم أن محمدا صلى الله عليه وآله ما ضل عن الهدى ، ولا عما أمر به العلي الأعلى ، وأنه ما أفك ولا غوى ، ومعنى ﴿غوى﴾ فهو : ضل فهلك إذا أساء [١]. اهـ

والضلال : نقيض الهدى ، والغي : نقيض الرشد ، أي : ليس كما تزعمون أنه ضال غاو .

وقوله :﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ دليل على أنه ما ضل وما غوى ، تقديره : كيف يضل أو يغوى ، وهو لا ينطق عن الهوى ! وإنما يضل من يتبع الهوى ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾[٢] قال [الهادي]عليه السلام : يقول ما يتكلم محمد بهوى نفسه ، ولا يأتيكم بشيء من عنده ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ يقول : ما يأتيكم صاحبكم إلا بوحي يوحى إليه ، وما يأمركم إلا بما ينزل من الله عليه .

وذلك أنه تعالى لما قال :﴿وما ينطق عن الهوى﴾ كأن قائلا قال : فبماذا ينطق عن الدليل والاجتهاد ؟ فقال : لا وإنما ينطق عن الله بالوحي[٣] .

ثم قال عليه السلام : معنى ﴿عَلَّمَهُ﴾ فهمه وأمره به ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ : فهو جبريل صلى الله عليه يقول : شديد الأسر والخلق ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ والمِرَّةُ : فهي العزيمة والقوة والنفاذ فيما يؤمر به ﴿فاستوى﴾ معناه : فتمَّ وكَمُلَ[٤] .

وظاهر هذا أن الضمير في ﴿عَلَّمَهُ﴾ عائد إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم تقديره : علم محمدا شديدُ القوى جبريلُ ، وحينئذ يكون عائدا إلى صاحبكم ، وقيل : إن الأشهر عند المفسرين أنه عائد إلى الوحي ، أي الوحي ﴿علمه شديد القوى﴾ ولهم في قوله ﴿ذو مرة﴾ وجوه [٥]أحدها : ذو كمال في العقل والدين جميعا ، ثانيها : ذو منظرة وهيبة عظيمة ، ثالثها : ذو خلق حسن ، رابعها : ذو قوة .

---

(١) جميع ما نقله المصنف رحمه الله عن الإمام الهادي عليه السلام في هذه السورة هو من مجموع تفسير الأئمة مخطوط .

(٢) ص : ٢٦ .

(٣) هذه الفقرة من كلام المصنف ، وليست من كلام الإمام الهادي عليه السلام .

(٤) إلى هنا تمام كلام الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام .

(٥) ومثله في الرازي ٢٣٨/١٠، وقال فيه : أحدها ذو قوة .

قيل : ومن قوته اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود وحملها إلى السماء ثم قلبها ، وصاح بثمود صيحة فأصبحوا جاثمين ، كان هبوطه على الأنبياء وصعوده أوحى : أي أسرع من رجعة الطرف ، وقيل : معنى ﴿فاستوى﴾ أي : استقام على صورته الحقيقية لا التي كان يتمثل بها كلما هبط ، وكان ينزل في صورة دحية الكلبي بجماله ، وذلك لأنه صلى الله عليه وآله أحب أن يراه في صورته التي خلق عليها فاستقام له [1].

﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ قال [الهادي] عليه السلام : فالأفق الأعلى : أفق سماء الدنيا .

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ يقول : تقرب ودنى ونزل [2] ﴿فَكَانَ﴾ أي : حتى كان من محمد صلى الله عليه وآله في الهواء ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ فهو : قدر الغلوتين في الهواء ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ يقول : أقرب من القوسين ، وفوق القوس [3] . اهـ

أي أقرب من مقدارهما على تقديركم ؛ لأن الله تعالى عالم لا يجوز عليه الشك ، وقيل : الأفق الأعلى : أفق الشمس فملأه ، قيل : ما رآه على هذه الصورة أحد من الأنبياء غير محمد صلى الله عليه وآله هذه المرة في الأرض ، ومرة في السماء ليلة الإسراء ، ولما رآه في هذه غشي عليه ، ﴿ثم دنا﴾ جبريل منه صلى الله عليه وآله ﴿فتدلى﴾ تعلق عليه في الهواء ، ومنه دنا رجليه من السرير ، وهذا من المقلوب ، أي ثم تدلى من السماء فدنى من رسول الله صلى الله عليه وآله فكان منه صلى الله عليه وآله في القرب على قاب قوسين ، أي على قدرهما ، والقاب والقيب والقاد والقيد والقيس : المقدار ، أي : فكان مسافة قربه منه صلى الله عليه وآله مثل قاب قوسين ، وقد جاء التقدير بالقوس والرمح والسوط والذراع والخطوة والشبر والقبر والإصبع قال :

و[قد] جعلتني من خزيمة إصبعا[4]

(١) وقريب من هذا الكلام في الكشاف ٤/٤١٩.

(٢) لفظ الأصل (قرب يقرب ومنازل نزل) وقد صححنا اللفظ من مجموع تفسير الأئمة مخطوط .

(٣) في الأصل (وفوق القوسين) وقد أصلحنا اللفظ من مجموع تفسير الأئمة مخطوط .

(٤) والبيت هو : فأدرك إبقاء العراوة ظلمها وقد جعلتني من خزيمة إصبعا

ثم قال تعالى :﴿فَأَوْحَى﴾ جبريل المتدلي الذي على قاب قوسين أو أدنى ﴿إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ أي عبد الله محمد صلى الله عليه وآله وإن لم يجر لاسمه عز وجل ذكر ؛ لأنه لا يلبس كقوله تعالى ﴿على ظهرها﴾[1] .

ثم قال [الهادي]عليه السلام : وقوله :﴿ما أوحى﴾ من الوحي الذي بعثه الواحد [العلي]الأعلى[2] . اهـ

وأبهم الوحي تفخيما له[3] قيل : أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك .

ثم قال تعالى :﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ أي : ما رآه ببصره من صورة جبريل ، والمعنى : ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وآله ، واللام لتعريف ما علم حاله لسبق ذكر محمد صلى الله عليه وآله وسلم في قوله :﴿إلى عبده﴾ وفي قوله :﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ وقوله :﴿ما ضل

للكلحية ، و هو لقب ، لعبد الله بن هبيرة ، وقيل : جرير بن هبيرة ، وقيل : هبيرة بن عبد مناف ، وقيل : هو للأسود بن يعفر ، وقيل : لرؤبة . وليس بشيء ، قال السيد العلوي رحمه الله : البيت لأبي الأسود ، والعرادة : اسم فرسه ، أي : أدركها الظلع وهو وجع الرجل ، وقد أدنتني من هذه القبيلة ، وبقي بيني وبينها مسافة إصبع [كناية عن القرب] والمراد بالإبقاء : ما أبقته الفرس من عدوها ؛ لأن من عادة عتاق الخيل أن لا يعطي ما عنده من العدو بل يبقي شيئا منه بعد شئ وقت الحاجة إليه ، وقيل : ومفعول إبقاء محذوف وهو ذخيرتها .اهـ

وقال عليان : والعرادة : كجرادة ، وقيل : بالكسر اسم لفرسه ، والظلع ـ بالفتح ـ غمز في المشية من وجع الرجل، أي : أدرك الظلع ما أبقته الفرس فلم تقدر على بذله ، والحال أنها جعلتني قريبا من عدوي حزيمة بمهملة مفتوحة فمعجمة مكسورة ، رجل كان قد أغار على إبل الشاعر فتبعه ، وقيل : قبيلته وليس بذاك ، ويروى : فأدرك إرقال العراوة ، والإرقال : الإسراع في السير ، أي : أبطل إسراعها العرج ، ومعناه ، انه جعلته من ذا مسافة قريبة بقدر إصبع.

(١) فاطر : ٤٥ .

(٢) لفظ الإمام الهادي عليه السلام ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ يقول : أوحى جبريل المتدلي الذي على قاب قوسين أو أدنى إلى عبد الله محمد ﴿ما أوحى﴾ من الوحي الذي بعثه به الواحد الأعلى . وقد ذكر المصنف بعض هذا الكلام ولم ينسبه إلى الإمام الهادي عليه السلام قبل هذا ، وما بين قوسي الزيادة ليست موجودة في مجموع تفسير الأئمة .

(٣) التفخيم لما فيه من الإبهام ، كأنه أعظم من أن يحيط به بيان ، وهو كقوله :﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ .

صاحبكم﴾ ويحتمل أن يقال :﴿ما كذب الفؤاد﴾ لأن الكذب هو الوهم والخيال ، والمراد أن قلبه لم يكذب [١] .

قال الهادي عليه السلام يقول : ما كذب فؤاد محمد وقلبه فيما قد أيقن [به] من آيات ربه ، من تدلي جبريل إليه بوحي خالقه ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ يقول : تكابرونه وتجادلونه فيما قد عاينه عيانا ورآه [٢]. اهـ

[رؤية النبي لجبريل (ع) وثبوت المعراج إلى السماء وخلق الجنة عند الإمام الهادي ع]

ثم قال تعالى :﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ رأى محمد جبريل عليهما السلام ﴿نَزْلَةً﴾ أي : مرة ﴿أُخْرَى﴾ من النزول ، أي : نزل عليه جبريل نزلة أخرى في صورة نفسه فرآه عليها في ليلة المعراج، وهذا دليل على أنه عرج بجسده إلى السماء .

قال الهادي عليه السلام : فشهد سبحانه لمحمد صلى الله عليه وآله أنه قد رأى جبريل في الصورة التي خلقه الله فيها مرتين حين دنا فتدلى ، و﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ وسدرة المنتهى : فهي أعلى عليين . اهـ

والمنتهى في اللغة : هو الغاية في الفضل ، أو في المنقطع والنهاية والحد والأمد ذكره الحسين بن القاسم عليه السلام [٣] .

---

(١) وانظر أيضا الكشاف ٤/٤٢٠ ، والرازي ١٠/٢٤١.

(٢) انظر مجموع تفسير الأئمة ، ٤٧٨، وقد صحح اللفظ منه ، وكذا ما بين القوسين منه .

(٣) قال الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام في تفسيره غريب سورة النجم ما لفظه :

معنى قوله عز وجل :﴿والنجم إذا هوى﴾ هو قسم بالقرآن ، روي أنه كان ينزل نجوما ، وكان بين أوله وآخره عشرون سنة ، وقيل : هو بالكوكب إذا خوى للغروب والله أعلم ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾ أي : ما ضل عن الحق ، ولا غوى عن الصدق ، والغوى في هذا الموضع : هو الضلال قال الشاعر :

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره ... ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

وقال آخر : ما السيل منحدر من رأس رابية ... يوما بأسرع من غاو إلى غاوي

ومعنى ﴿علمه شديد القوى﴾ يعني بذلك سيدنا جبريل عليه السلام . ومعنى قوله :﴿ذو مرة فاستوى﴾ أي : ذو حكمة وقوة ورجلة ، قال الشاعر :

قد كنت أحسب أنني ذو مرة حلداً إذا غرم الخليط زيالا

وقال آخر : يقول لها ذو مرة القوم منهم لصاحبه أو خاف منه المهالكا

ومعنى ﴿فاستوى﴾ أي : أكمل الدين والهدى ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ يعني السماء ﴿ثم دنا فتدلى﴾ يعني : انحدر . قال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه : إذا رأيت النجوم آفلاً تدلى . ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ أي : إلى عبد الله ما أوحى ، والهاء في هذا الموضع اسم الله مختصر مضمر ، ومعنى ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ أي : ما كذبه عقله في مشاهدته لجبريل صلى الله عليه ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ أي : مرة أخرى ﴿عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى﴾ والمنتهى في اللغة : هو الغاية في الفضل ، أو في المنقطع والنهاية والحد والأبد . وقيل : إنها منتهى لمعارج الملائكة عليهم السلام ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ يمكن أن يغشاها نور من الأنوار ، أو صنع عجيب من الأقدار كتمه الله وأخفاه عن مسامع الفجار ، وسوء ظنون الفاسقين أهل النار . ومعنى ﴿ما زاغ البصر﴾ أي : ما أخطأ ولا مال ﴿وما طغى﴾ أي : لم يتعد إلى غير الحق ، بل أصاب . ومعنى ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ لأن جبريل عليه السلام آية عظيمة باهرة منيرة . ومعنى ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ فهذه ثلاثة أصنام للجهال أهل الحيرة والغفلة والضلال ، وقيل : إن اللات كانت لثقيف بالطائف ، قال الشاعر : واللات والأنصاب ما أدري ثم اختصر فلم يأت بخبرها لعلمهم أنها لا تنفع من يعبدها . وقيل : إن اللات كانت لرجل يلت السويق عندها ، والعزى كانت سمرة بغطفان يعبدونها من دون الله ، ومناة : صخرة لهذيل وخزاعة . وروي أن للهند كعبة سميت بها . ولما بعث رسول الله خالد بن الوليد لقطع العزى فقطعها وهو يقول :

يا عز كفرا بك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

ثم ابتدأ فقال :﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾ توقيف لهم على ركاكتهم ، وفاحش كذبهم وجهلهم ؛ لأنهم كانوا يقولون: الملائكة بنات الله ، فأكذبهم الله ، ورد قولهم ؛ لأنه لو كان يتخذ الأولاد لاتخذ أفضلها ، ولكنه غني عن ذلك عز وجل . ثم قال :﴿تلك إذا قسمة ضيزى﴾ أي : جائرة عن الحق ، قال الشاعر :

جارت بنو أسد بحكمهم إذ يعدلون الرأس بالذنب

أي : جارت بنو أسد . ومعنى ﴿أم للإنسان ما تمنى﴾ أي : لا ينال أمنيته ، بل هو مقهور على ما يكره من الأمور ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا و لم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم﴾ يريد أنهم لم يبلغوا من العلم إلا كمبلغ البهائم العجم من المآكل والشرب والمزاح واللعب . ومعنى قوله :﴿إلا اللمم﴾ يعني الخطأ وما يلم بالقلب من الخواطر التي لا يقبلها مسلم ولا يعمل بها ، وذلك فلا يعذب الله عليه من اتقاه ، قال الشاعر :

وإن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما

لا ما يقول الجاهلون من مداناة المعاصي فيما دون أعظمها إثما ، أي : لم يحط ﴿إذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم﴾ الجنين: هو الولد ، قال الشاعر : ألا من لقلب يعرف الناس ما به ولا يرتجى منه السلو لحين

كأنه ميلاه قد أوثق قيدها ومر لها في الراحلين جنين

وعيد عليها بالعقال توثقا إذا ذكّرته رجعت بحنين

﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ أي : لا تمدحوا أنفسكم ، فالمدح يؤول إلى الكبر ، والإنسان أقل من ذلك لضعفه وكثرة خطئه وإنما أراد الله بهذا النهي عن العجز وسوء الأدب والكبر .

وأما قول النبي صلى الله عليه وآله (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) وقول العالم صلوات الله عليه :

وإنـي لمعـروف بأسـوة صـاحبي ودافـع مـا يؤذيـه بالمـال والنفـس
أحـامي عليـه إن تغـير حالـه وإلا فلسـت القاسـم العـالم الرسـي
بذلـك وصـاني سـلالة أحمـد بحفظي لأصحابي علـى اليسـر والتعـس
ومـن لم يكـن يوسـي أخـاه بنفسـه فذاك من الإمـلاق أهـل الخنـا النكـس

وقول الهادي إلى الحق صلوات الله عليه :

أنـا الهـادي إلى الحـق أمـين الله في الخلـق

وقول المرتضى لدين الله صلوات الله عليه :

لـو تـأملت طـاعتي واتكاسـي تحـت ظـل الرمـاح بـين الكبـاش
لتيقنـت أنـني طـالبي لسـت كـالمطمئن نحـو الفـراش
وإلى قولـه : أحمـدي مطهـر هـاشمي قـاسمي نـاي عـن الإفحـاش

فلم يريدوا بذلك تزكية لأنفسهم ولكن تكذيبا لمن جحد فضلهم فأرادوا بيان ذلك لأضدادهم ،وذلك فرض واجب عليهم ؛ لأن الله بشر بهم ، وأخبر النبي صلى الله عليه وآله بهم قبل كونهم ، وأيضا فلو كتموا فضلهم لأعانوا بذلك أعداء الله على ظلمهم . ومعنى قوله عز وجل :﴿وأعطى قليلا وأكدى﴾ هو : بخل وأقل عطيته ، قال الشاعر :

عف المكاسب لا يكدي حشاشته كالبحر يلحق بالتيار أنهارا

ومعنى قوله عز وجل :﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ أي : استوفى خصال الخير فأكملها فلم يترك منها شيئا ﴿وان إلى ربك المنتهى﴾ يريد : إليه الغاية والإنتهاء وانقطعا جميع الفضائل ، وكل فضل ينتهي عند فضله ، وفضائل الله لا تحصى .

ومعنى ﴿أغنى وأقنى﴾ هو أعطي وملك ، والعرب تقول : أقناه الأمير ما لا جما ، أي : ملكه مالا كثيرا . ومعنى ﴿إنه هو رب الشعرى﴾ والشعرى :نجم مضي يتبع الجوزاء ، وكان بعض الجاهلية تعبده ، قال الشاعر :

وأبكيكم للجود ما ذر شارق وأبكيكم للحمد ما بدت الشعرى

معنى ﴿المؤتفكة﴾ يريد : الأمم الكاذبة ، ومعنى ﴿أهوى﴾ أي : أسقط في الهلاك . وأراد ﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾ أيها الإنسان ، ولكنه اختصر . ومعنى ﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ أي : من ذريتهم ونسلهم ، لا أنه عليه السلام منهم ، ومعنى قوله :﴿أزفت الآزفة﴾ أي : قربت الساعة ، والعرب تقول : أزف رحيلنا ، أي : قرب ودنا ، ومعنى ﴿وأنتم سامدون﴾ أي : لاهون ، قال الشاعر : قيل قم وانظر إليهم ثم ذر عنك السمودا

أي : ذر اللهو .

وفي البرهان : المنتهى هو موضع ينتهي إليه علم الأنبياء والملائكة ولا يجاوزه ؛ لأن عندها جنة الخلد ، فالمجاوزة [إليها] تكون في الآخرة [1]. اهـ

ثم قال الهادي عليه السلام في قوله تعالى :﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ في أعلى عليين أيضا من فوق السماء السابعة العليا ، وهذه الآية حجة بأنه أسري بعبده ليلة أسري به[2] إلى المسجد الأقصى إلى السماء السابعة العليا التي فوقها سدة المنتهى حتى رأى جبريل عندها نزلة أخرى ، وهذه [الآية]حجة في أن الله قد خلق الجنة

قال المرتضى عليه السلام : وقد روينا في ذلك عن بعض السلف عليهم السلام أن الجنة والنار قد خلقتا وأنهما فوق السماء السابعة ، ورووا لنا في ذلك أن جبريل عليه السلام هبط ذات يوم على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو متغير اللون ، فقال له : ما لي أراك يا حبيبي على هذه الحالة قال: إني أتيتك عند ما أمر الله سبحانه بالنار فأوقدت حتى صارت أشد حمرة من الدم ، ثم أمر بها [فأوقدت] حتى صارت أشد بياضا من الثوب الأبيض ، ثم أمر بها فأوقدت حتى صارت أشد سوادا من الليل المظلم ، فوالذي بعثك بالحق ما يضيء نورها ولا ينطر لهبها ، ولو علق الله شبرا من سلاسلها بين السماء والأرض لذابت السماء ومن فيها ، والأرض ومن عليها قال : فخر رسول الله صلى الله عليه وآله مغشيا عليه ، فأقام وقتا

---

(١) انظر تفسير البرهان مخطوط ص ٣٦٠. وما بين القوسين منه .

(٢) في المجموع : ليلة إسرائه . ينظر في ما نقله المصنف عن مجموع تفسير الأئمة من كلام الإمام الهادي في خلق الجنة ، فإن المشهور عنه الذي تناولته كتب الأصول بأن الجنة لم تخلق بعد ، حتى قال الإمام القاسم بن محمد في متن الأساس الهادي عليه السلام ، وأبو هاشم ، وغيرهما : الجنة والنار لم يخلقا قطعا ، لقوله تعالى :﴿أكلها دائم﴾ (الرعد :٣٥) ولا بد من فناء كل شيء كما مر . (متن الأساس ص ٢٠٦) . وكذلك يبحث عن المصدر المنقول عنه كلام المرتضى عليه السلام .

وأيضا على قراءة الإمام علي والزبير ليس في الآية دليل على شيء من أمور الجنة . قال في الكشاف : وقرأ علي وابن الزبير وجماعة :﴿جنّه المأوى﴾ أي : ستره بظلاله ، ودخل فيه . وذكر أن عائشة أنكرت هذه القراءة . وقال الرازي : في تفسيره : وقرئ : جنه بالهاء من جن بمعنى أجن ، يقال : جن الليل وأجن ، وعلى هذه القراءة يحتمل أن يكون الضمير في قوله :﴿عندها﴾ عائدا إلى النزلة ، أي : عند النزلة جن محمدا المأوى ، والظاهر أنه عائد إلى السدرة ، وهي الأصح (كشاف

على تلك الحال ، فأنزل الله عند إفاقته ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ السورة فكان هذا النهر هبة من الله سبحانه لنبيئه وتطمينا لقلبه ، وإذهابا لغمه . اهـ

ثم قال الهادي عليه‌السلام : قوله تعالى :﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ فالسدرة : هي سدرة المنتهى ، والذي غشيها : فهو جبريل حين رآه محمد عندها وفوقها غاشيا [لها] ولغيرها في خلقه الأعظم الذي خلق فيه .

قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : ويمكن أن يغشاها نور من الأنوار ، وصنع عجيب من الأقدار كتمه الله وأخفاه عن مسامع الفجار ، وسوء ظنون الفاسقين أهل النار . اهـ

وقيل : ﴿يغشى﴾ عبارة تفيد التعظيم والتكثير[1] لما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله ، وأنها لا يحيط بها الوصف ، وقيل : يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله تعالى .

وعنه صلى‌الله‌عليه‌وآله (رأيت على كل ورقة منها ملكا [قائما]يسبح الله تعالى) [2].

قال في البرهان : فإن قيل : لم اختيرت السدرة لهذا الأمر دون غيرها من الشجر ؟ فالجواب : أن السدرة تختص بثلاثة أوصاف : ظل مديد ، وطعم لذيذ ، ورائحة ذكية ، فشابهت الإيمان الذي يجمع قولا وعملا ونية ، وظلها من الإيمان بمنزلة العمل لتجاوزه ، وطعمها بمنزلة النية لكمونه ، ورائحتها بمنزلة القول لظهوره [اهـ]

ثم قال سبحانه :﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ أي : بصره صلى‌الله‌عليه‌وآله .

قال الهادي عليه‌السلام : يقول ما عدل عنه [ولا شبّهه] ولا تخايله ، ولا ظنه بل قد رآه بحقائق الرؤية وأبصره ﴿وَمَا طَغَى﴾ رجع الخبر إلى محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول : ما طغى فيما خبركم به، ولا دخله في ذلك أشَر ولا بَغْيٌ ، بل قد صدقكم عما أبصر ورأى .اهـ

وقيل : معنى ﴿ما طغى﴾ ما تجاوز ما رآه ، ومعناه : ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ، ومكن منها [3].

---

(١) وذلك مستفاد من الإبهام ، الذي جعلها كأنها شئ عظيم لا يحيط به بيان . وقد تقدم

(٢) قال في تخريج الكشاف : أخرجه الطبري من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال قيل له : يا رسول الله أي : شئ رأيت يغشى تلك الشجرة ؟ فذكره وأتم منه ، وعبد الرحمن ضعيف ، وهذا معضل .

ثم قال سبحانه :﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ قال [الهادي]عليه السلام : يقول رأى [من]جبريل عليه السلام في هذه الصورة مرة بعد مرة آية من آيات الله العظمى لا يشبهها شئ من الأشياء .

قال في البرهان : لأنه رأى جبريل عليه السلام قد سد الأفق بأجنحته [١].

لأن جبريل عليه السلام آية عظيمة باهرة منيرة .

وقيل : رأى كبرى آيات ربه وعُظْمَاهَا حين عرج به إلى السماء ، فأري عجائب الملكوت في تلك الليلة [٢].

واعلم أنه تعالى لما قرر الرسالة ذكر ما ينبغي أن يبتدئ به الرسول ، وهو التوحيد ومنع الخلق عن الإشراك فقال سبحانه :﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ إشارة إلى إبطال قولهم بنفس القول ، كما أن ضعيفا إذا ادعى الملك ثم رآه العقلاء في غاية البعد عما يدعيه ، يقولون : انظروا إلى هذا الذي يدعي الملك منكرين عليه ،[غير]مستدلين لظهور دليل أمره، فلذلك قال :﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ أي : كما هما فكيف يشركونهما بالله! [٣].

قال الهادي عليه السلام : واللات فهي قبة كانت في الطائف ، والعزى : قبة أخرى كانت لهم ببطن نخلة على مرحلتين من مكة كانوا يزينونهما بالجوهر والذهب والفضة والثياب الحسنة ، وكانوا يعبدونهما كما يعبدون الأصنام ، ويرونهما أعظم قدرا من الأصنام . اهـ

وقيل : اللات صنم لثقيف بالطائف ، وقيل : كانت بنخلة تعبدها قريش [٤].

قال في البرهان : قرئ بتشديد اللات وتخفيفها [٥]، فمن خففها فإنه أراد به صنما بالطائف ، ذكر أن صاحبه كان يلت السويق لأصحابه ، ومن شدد فإنه أراد به رجلا

---

(٣) هذا القول موجود في الكشاف من دون نسبة إلى أحد ، فيحتمل أنه له ؛ لأنه جعله معنى آخر . ٤٢١/٤.

(١) إلى هنا انتهى ما في البرهان ، وما بعده ليس من البرهان (بناء على المخطوطة التي بأيدينا) .

(٢) صاحب القيل هو الزمخشري (انظر الكشاف ٤٢١/٤) .

(٣) من قوله : واعلم أنه تعالى لما قرر الرسالة .. إلى هنا مثله في الرازي ، وقد أصلحنا اللفظ منه ، وكذلك ما بين أقواس الزيادة منه ٢٤٧/١٠.

(٤) القول للزمخشري (الكشاف ٤٢٢/٤)

كان يلت السويق على الحجر ، ثم مات فعكف أصحابه على قبره ، وصاروا يعبدون الحجر الذي كان يلت عليه . شعر

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها فكيف ينصرهم من ليس ينتصر

والعزى : قيل إنها شجرة تعلق عليها أنواع العهن يعبدها سليم وغطفان ، وهي سمرة وكانت ببطن نخلة أرسل إليها رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة من قطعها [١]. اهـ

قوله :﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ تقديره : أفرأيتم اللات والعزى ، المعبودين بالباطل ، ومناة الثالثة المعبودة الأخرى . وقيل : فيه تقديم وتأخير تقديره : ومناة الأخرى الثالثة [٢].

قال الهادي عليه السلام : ومناة فهو صنم كان لهم على الكعبة فعنفهم الله في عبادتهم[٣] مثل ذلك ، يقول : أرأيتم ما تعبدون من هذه لأي معنى تعبدونه ، ولأي سبب تتخذونه إلها من دون الله وهي لا تنفعكم ولا تضركم . اهـ

وقيل : مناة صخرة كانت لهذيل وخزاعة ، وقيل : سميت مناة ؛ لأن المناسك كانت تمنى عندها ، أي : تراق .

وقوله :﴿الثالثة الأخرى﴾ صفة لمناة ، ذم من الله ، أي المتأخرة الوضيعة القدر كقوله : ﴿وقالت أخراهم لأولاهم﴾ [٤]أي : وضعاؤهم لرؤسائهم ، ويجوز أن يكون التقدم عندهم والفضل للات . والعزى : تأنيث الأعز ومناة من النوء كأنهم كانوا يستمطرون عند هذه الأنواء تبركا ، وهذه أصنام مؤنثات ، وكانوا يقولون : هن [٥] والملائكة بنات الله ، ويعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله مع وأد هم البنات ، فقيل لهم :

---

(٥) المراد بتشديد اللات ، أي : تشديد تاء اللات وتخفيفها ، فالتشديد على أنه مأخوذ من لت السويق يلته ، والتخفيف على أنه إسم صنم نطق مخففا وإن كان الأصل فيه اللت .

(١) انظر البرهان مخطوط ٣٦٠ . وفي نسخة أخرى للبرهان (ألوان العهن) بدلا عن أنواع العهن .

(٢) صاحب القيل : هو الرازي ٢٤٧/١٠ .

(٣) في المجموع : فعنفهم الله في عبادة مثل ذلك . وفي المجموع أيضا : ولأي سبب تتخذونه آلهة من دون الله

(٤) الأعراف : ٣٩ .

(٥) أي : هذه الأصنام .

﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ قال عليه‌السلام : هذا فيما كانوا يزعمون من أن الملائكة بنات الله إناث ، وأن لهم هم البنين الذكور ، فقال الله : أي حكم هذا ؟! أو عدل عندكم أن تجعلوا لربكم البنات ، وتجعلون لأنفسكم البنين !.

﴿تِلْكَ﴾ أي القسمة ﴿إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ والضيزى : فهي الجائرة الفاسدة التي لم تقع على عدل ولا حق قال الشاعر :

ضازت بنو أسد بحكمهم إذ يعدلون الرأس بالذنب

أي : جارت بنو أسد .

ويجوز أن يراد أن هذه الأصنام إناث ، [وقد جعلتموهن لله شركاء] وأنتم تستنكفون من أن يولدن لكم [وينسبن إليكم]فكيف تجعلون [هؤلاء] الإناث أندادا لله ، أي : أمثالا ، وتسمونهن آلهة[1] !؟

وضيزى : من ضازه يضيزه إذا ضامه ، ويقال : ضازه حقه يضيزه إذا نقصه ، ووزنها فعلى بضم الفاء ، فكسرت لأجل الياء[2].

ثم قال تعالى :﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ﴾ أي : ما هذه الأصنام إلا مجرد أسماء ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ لا مسميات تحتها لخروجها عن الإلهية بالكلية ؛ لأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع ﴿سميتموها﴾ أي : سميتم بها[3]﴿أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي : بصحتها

---

(١) هذا الوجه عائد إلى قوله :﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾ والفرق بين هذا الوجه وبين السابق عليه أن الإنكار على الأول وارد على قولهم : هذه الملائكة وهذه الأصنام بنات الله مع استنكافهم عن البنات فأنكر عليهم قولهم المقيد ، ألا ترى كيف أوقع قوله مع وأدهم البنات حالا من فاعل يقولون ، وعلى الثاني الإنكار وارد على فعلهم ، فإنهم لما عبدوها وهي إناث جعلوها شركاء لله في العبادة ، فأنكر عليهم ذلك الفعل ، ولذلك قال : وقد جعلتموهن شركاء [وهي ما بين القوسين وقد أضفناها من الكشاف ليتم المعنى] هذا ما ذكره السيد العلوي في حاشيته على الكشاف

(٢) أي : أن أصله : ضوزى ، ففعل به ما فعل ببيض فنقلت إلى فعلى بالكسر لتسلم الياء كما فعلوا مثل ذلك ببيض ، والأصل بوض بالضم كحمر ، وإنما قالوا بأن أصلها الضم ؛ لأنه ليس في الكلام فعلى بالكسر صفة ، وكذلك قالوا في حبلى : إن أصلها فعلى بالضم .

﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾ من دليل لكم .

قال الهادي عليه السلام يقول سبحانه : هذا الذي تقولون وتنسبون إلى الله ، وتسمون باطلا ، وهي أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، وكذب كذبتموه على الله ، لم يُنزِل به سلطانا. والسلطان : فهو الحجة والدليل والبرهان .

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ أي : ما تتبعون ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ أنها آلهة تشفع ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ يقول: إن تتبعون فيما تسمون وتذكرون إلا هوى أنفسكم ، وظنا منكم بلا حقيقة ولا بيان .

قال الرازي : كيف قال :﴿وما تهوى الأنفس﴾ بلفظ الجمع مع أنهم لا يتبعون ما تهواه كل نفس ، فإن من النفوس ما لا تهوى ما يهواه غيره ، قال : يقول هو من باب مقابلة الجمع بالجمع ، معناه اتبع كل واحد منهم ما تهواه نفسه ، يقال : خرج الناس بأهليهم أي : كل واحد بأهله ، لا أن كل واحد بأهل الجميع .

ثم قال سبحانه :﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ أي : الدليل على صحة النبوة والقرآن ، وأنما أدعوه باطل لكن تركوه .

وقال [الهادي] عليه السلام : يقول قد جاءهم من الله نفي ذلك على لسان نبيئه صلى الله عليه وآله وسلم ، وبان لهم طريق الهدى والحق والتقوى [1].

ثم قال تعالى :﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ هي أم المنقطعة ، والمعنى : إنكار أن يكون لهم ما تمنوا ، نحو قولهم : إن الأصنام تشفع لهم ، وقيل : هو قول بعضهم :﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾[2] ﴿لأوتين مالا وولدا﴾[3] وقيل : هو تمني بعضهم أن يكون هو النبي .

---

(٣) قال أبو البقاء : ﴿أسماء﴾ يجب أن يكون المعنى ذوات أسماء ، كقوله :﴿سميتموها﴾ لأن لفظ الاسم لا يسمى ، وقد ذهب المصنف إلى أن هذه التسمية تسمية ليس لها مسميات تستحقها يسمى بها ؛ لأن الإله ينبغي أن يكون خالقا رازقا مثيبا ومعاقبا ، وبين بقوله : سميتم بها على أن الضمير مفعول ثان لا أول على تقدير المفعول الثاني .

(١) انظر مجموع تفسير الأئمة مخطوط ص ٤٤٩.

(٢) فصلت : ٥٠ .

(٣) مريم : ٧٧ .

ولفظ الهادي عليه السلام في ذلك يقول : هل يكون للإنسان ما تمنى ، أي : هل يأتيه ويستوي له تمنيه إذ تمنى ، أم ليس له غير الحق ، وإن لم يكن يشاؤه .

قال الرازي : فإن قلت : هل يمكن أن تكون أم هاهنا متصلة ؟ قال : نقول نعم ، الجملة الأولى حينئذ تحتمل الوجهين أحدهما : أنها مذكورة في قوله تعالى :﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾ على الحقيقة ، أو [1]: تجعلون لأنفسكم ما تشتهون وتتمنون ، وعلى هذا فقوله: ﴿تلك إذا قسمة ضيزى﴾ وغيرها جملة اعترضت بين كلامين متصلين .

وثانيهما : أنها محذوفة ، وتقدير ذلك هو: أنا بينا ، [وهو] [2] أن قوله :﴿أفرأيتم﴾ لبيان فساد قولهم : والإشارة إلى ظهور ذلك من غير دليل كما إذا قال [قائل] :فلان يصلح للملك فيقول آخر لثالث : أما رأيت هذا الذي يقوله فلان ؟ ولا يذكر أنه [لا] يصلح للملك ، ويكون مراده ذلك فيذكره وحده منبها على عدم صلاحه له،فهاهنا قال تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ [أي :]يستحقان العبادة أم للإنسان أن يعبد ما يشتهيه طبعه ، وإن لم يكن يستحق العبادة ، وعلى هذا فقوله :﴿أم للإنسان﴾ أي : هل [له أن] يعبد بالتمني والاشتهاء ، ويؤيد هذا قوله تعالى :﴿وما تهوى الأنفس﴾ أي : عبدتم بهوى أنفسكم مالا يستحق العبادة ، فهل لكم ذلك [3] .

ثم قال تعالى :﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ أي : هو ما لكهما فهو يعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ، وليس لأحد أن يتحكم عليه .

ولفظ الهادي عليه السلام في ذلك يقول الله : الأمور كلها أمور الآخرة والأولى ، والأولى : فهي الدنيا ، فأخبر سبحانه أنه لا ينفع أحدا ما تمنى ، ولا يصح في يده شئ من ذلك أصلا ، وأن الأمر كله لله الواحد الأعلى . اهـ

ثم قال تعالى :﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ للتكثير من في السموات من الملائكة ،

---

(١) في الأصل : أي . وفي الرازي : أو . فأثبتنا ما في الرازي .

(٢) ما بين القوسين ثابت في الأصل ، وهو غير موجود في الرازي .

(٣) انظر التفسير الكبير ٢٥٢/١٠ .

أي : هم مع كثرتهم وقربهم إلى الله تعالى ، وكرامتهم لو شفعوا ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ من النفع ، قيل : إن قوله تعالى:﴿وكم من ملك﴾ جواب كلام كأنهم قالوا : لا نشرك بالله شيئا ، وإنما هذه الأصنام شفعاؤنا ، فإنها صور ملائكة مقربين ، فقال : ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا﴾ والمعنى : كيف تشفع هذه ، ومن في السموات لا يملك الشفاعة ، إشارة إلى علو منزلتهم ، ودنو مرتبتهم في مقر السعادة ، فإن لفظ الملك أشرف أجناس المخلوقات ، وكل ذلك لبيان فساد قولهم : إن الأصنام تشفع ، أي : كيف تشفع مع حقارتها وضعفها ودناءة منزلها ، فإن الجماد أخس الأجناس فكيف تقبل شفاعة الجمادات ! .

[الشفاعة ولمن تكون]

قال الهادي عليه‌السلام : هذا نفي من الله لما ترويه الحشوية والإمامية من الشفاعات لأهل المعاصي ، فأخبر سبحانه بما أخبر من كثرة الملائكة في السموات [1] وأنهم لا تغني شفاعتهم لأحد من خلق الله ولو شفعوا ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ لهم في الشفاعة ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الشفاعة له ﴿وَيَرْضَى﴾ [أي : يرضاه ويراه أهلا لأن يشفع له ، فكيف تشفع الأصنام إليه لعبدتها ، والله تعالى لم يأذن لها ، ولا رضي بعبادتها] [2] .

ثم قال عليه‌السلام يقول : لو أنهم شفعوا بأسرهم في مذنب واحد ممن قد حق عليه الوعيد لم ينفعه ذلك ، ولم تجز شفاعتهم عند الله فيه ﴿إلا من بعد أن يأذن الله﴾ للمستشفعين ، فيشفعوا للمؤمنين الذين قد رضي الله سعيهم فتشفع لهم الأنبياء في زيادة المراتب ، وكثرة العطاء ، وبلوغ مالا يبلغونه بأعمالهم من الأشياء [3]. اهـ

ثم قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي : لا يصدقون بها ﴿لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى﴾ وذلك حين زعموا أنهم بنات الله تعالى ، وقال :﴿تسمية الأنثى﴾ ولم

---

(١) لفظ الأصل : من كثرة ملائكة السموات . وما أثبتناه هو لفظ المجموع . المنقول هذا النص منه .

(٢) ما بين القوسين ليس من لفظ المجموع ،بل هو من المصنف .

(٣) انظر مجموع تفسير الأئمة ، وقد أصلحنا اللفظ منه . ص ٤٨٠.

يقل : تسمية الإناث ؛ لأنهم إذا قالوا : هم بنات الله فقد سموا كل واحدة بنتا ، وهي تسمية الأنثى .

إن قيل : كيف يصح أن يقال : إنهم لا يؤمنون بالآخرة ، مع أنهم كانوا يقولون : هؤلاء شفعاؤنا ، وكان عادتهم أن يربطوا مركوبا على قبر من يموت ، ويعتقدون أنه يحشر عليه ؟ قيل : الجواب عنه من وجهين أحدهما : أنهم لما كانوا لا يجزمون به ، كانوا يقولون : لا حشر ، فإن كان فلنا شفعاؤنا ، يدل عليه قوله تعالى :﴿وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾[1] .

ثانيهما : أنهم ما كانوا يعترفون بالآخرة على الوجه ، وهو ما ورد به الرسل .

ثم قال تعالى :﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ﴾ أي : بما يقولون ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ أي : بكون الملائكة إناثا ، قيل : ويحتمل أن الضمير عائد إلى ما تقدم في الآية المتقدمة ﴿من علم﴾ أي : ما لهم بالله من علم فيشركون .

وقرئ (مالهم بها) وفيه وجوه : أحدها مالهم في الآخرة ، وثانيها : مالهم بالتسمية ، ثالثها : مالهم بالملائكة .

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ الفاسد في تسميتهم إناثا ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ من الإغناء . أي : إنما يدرك الحق الذي هو حقيقة الشيء بالعلم اليقين لا الظن المتوهم ، وقيل : أراد بالحق العلم ، أي : أن الظن لا يغني من العلم شيئا ، لا يقوم مقام العلم .

ثم قال تعالى :﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى﴾ أي : أعرض عن دعوة من رأيته معرضا ﴿عَنْ ذِكْرِنَا﴾ الذي هو القرآن والآخرة أو الوعظ والتذكير ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا﴾ إيثار ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ومعنى ﴿فأعرض﴾ أي : اترك مجادلتهم فقد بلغت وأتيت بما كان عليك .

وأكثر المفسرين يقولون : بأن كل ما في القرآن من قوله :﴿فأعرض﴾ منسوخ بآية القتال وهو غير صحيح ، فإن الأمر بالإعراض موافق لآية القتال فكيف ينسخ به ، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وآله كان مأمورا بالدعاء بالحكمة والموعظة الحسنة فلما عارضوه

---

(١) فصلت : ٥٠ .

بأباطيلهم قيل له ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[1] ثم لما لم ينفع قال له ربه :﴿فأعرض عنهم﴾ ولم يقل لهم بالدليل والبرهان فإنهم لا يتبعون إلا الظن ، ولا يتبعون الحق ، وقابلهم بالإعراض عن المناظرة ، فكيف يكون منسوخا .

واعلم أن النبي صلى الله عليه وآله طبيب القلوب ، فأتى على ترتيب الأطباء ، وترتيبهم أن الحال إذا أمكن إصلاحه بالغذاء لا يستعملون الدواء ، وما أمكن إصلاحه بالدواء الضعيف لا يستعمل الدواء القوي ، ثم إذا عجزوا عن المداواة بالمشروبات وغيرها عدلوا إلى الحديد والكي ، وقيل : آخر الدواء الكي ، فالنبي صلى الله عليه وآله أولا أمر القلوب بذكر الله فحسب، فإن بذكر الله تطمئن القلوب ، كما أن بالغذاء تطمئن النفوس ، فالذكر غذاء القلب ، ولهذا قال أولا قولوا :﴿لا إله إلا الله﴾ أمر بالذكر ، ثم انتفع به من انتفع ، ومن لم ينتفع ذكر لهم الدليل ، وقال :﴿أولم يتفكروا﴾ ﴿قل انظروا﴾ ﴿أفلا ينظرون﴾ إلى غير ذلك ، فلما لم تنفعهم قال : أعرض عن المعاجلة واقطع لا يفسد الصالح .

ثم قال تعالى :﴿ذَلِكَ﴾ أي : الإيثار الذي أرادوه من الحياة الدنيا ﴿مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي : غاية علمهم ، أي : لا يستعملون العلم إلا في أمور دنياهم ومصالحهم فيها لا الآخرة .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : معناه أنهم لم يبلغوا من العلم إلا كمبلغ البهائم العجم من المأكل والمشرب والمرح واللعب .

ثم قال تعالى :﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي : ذهب عن دينه فلا يجيب إليه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ أي : بمن يجيب الدعوة فهون عليك فإنك لا تهدي من أحببت ، وما عليك إلا البلاغ .قال الزمخشري : ﴿ذلك مبلغهم﴾ كلام معترض بين كلامين [2].

---

(١) النمل : ١٢٥ .

(٢) لفظ الزمخشري : ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾ اعتراض ، أو فأعرض عنهم ولا تقابله . وقد نقل النص من الرازي ، والنص فيه كما ذكره المصنف ، ولفظ المصنف والرازي ليس كلفظ الكشاف ، وإنما بمعناه . وفي الكلام بعده رد لكلام الزمخشري بأنه اعتراض ، وذكر المصنف انه من تمام الكلام الأول ، وأن قوله ﴿إن ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله﴾ ابتداء كلام .

والمتصل قوله تعالى :﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا و لم يرد إلا الحياة الدنيا إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾ وعلى ما ذكرنا المقصود لا يتم إلا به ، ويكون كأنه تعالى قال: أعرض عنهم ، فإن ذلك غايتهم ، ولا يوجد وراء ما ظهر منهم شيء ، وكأن قوله ﴿عمن تولى﴾ إشارة إلى قطع عذرهم بسبب الجهل ، فإن الجهل [كان] بالتولي ، وإيثار العاجل ، ثم ابتدأ وقال :﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ والوجه في المناسبة : أنه تعالى لما قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : اعرض ، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم شديد الميل إلى إيمان قومه كان ربما هجس في خاطره أن في الذكرى بعد منفعة ، وربما يؤمن من الكافرين قوم آخرون من غير قتال ، فقال له :﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾ علم أنه لا يؤمن بمجرد الدعاء أحد من المكلفين ، وإنما ينفع فيهم إن وقع السيف والقتال ﴿فأعرض﴾ عن الجدال ، وأقبل على القتال .[1]

وقوله تعالى ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ إشارة إلى كمال غنائه وقدرته ليذكر بعد ذلك يقول :﴿إن ربك هو أعلم﴾ من الغني القادر ، لأن من علم ولا يقدر لا يتحقق منه الجزاء ، فقال :﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أي : بعقاب ما عملوا ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ أي : بالمثوبة الحسنى ، أو بالعاقبة الحسنى ، أي : جزاؤهم حسن العاقبة ، وهي الجنة ، أو بسبب ما عملوا من السوء ، وبسبب أعمال الحسنى ، واللام متعلق بمحذوف دل عليه المعنى ، أي : أن الله عز وجل إنما خلق وسوى هذه الملكوت لهذا الغرض ، وهو أن يجازي المحسن من المكلفين والمسيء منهم ، ويجوز أن يتعلق بقوله :﴿هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ ليتحقق منه الجزاء ؛ لأن فائدة العلم بالضال والمهتدي جزاؤهما .

ثم قال تعالى :﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ قال الهادي عليه السلام : هذا

---

(١) إلى هنا انتهي الوجه الأول من أوجه المناسبة التي ذكرها الرازي ، وقد اقتصر المصنف على هذا الوجه و لم يذكر بقية الأوجه . انظر التفسير الكبير ٢/٢٩ .

مدح من الله سبحانه لمن اجتنب كبائر الإثم والفواحش ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ فاللمم : هو ما ألم به الإنسان من غير تعمد ولا قصد ولا إرادة ، كالنظر عن غير تعمد ونحو ذلك ، ذكره في معاني السنة [١].

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : هو الخطأ ، وما يلم به القلب من الخواطر التي لا يقبلها مسلم ، ولا يعمل بها ، وذلك فلا يعذب الله من اتقاه [٢].

قال المرتضى عليه السلام : هو ما ألم بالقلب وخطر عليه ، مما لو أنفذه صاحبه لكان معصية لله ، ألم بقلبه ثم أعرض عنه ولم يعتقده في نفسه ، ولم يفعله بيده ولا شئ من جوارحه ، فهذا هو اللمم ، ومن اللمم ما ألم به الإنسان مما لا يعتمل [٣] ولا يقصد له فذلك اللمم ومعناه ، فافهم ذلك إن شاء الله . اهـ

ومثله في البلغة والتجريد قال الشاعر :

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأي عبد لك لا ألما [٤]

---

(١) ولفظ الإمام الهادي عليه السلام في كتاب معاني السنة من مجموعه ، المسمى بمجموع الإمام الهادي قال : والرابع فهو اللمم الذي ذكر الله ، وهو فعل لا يجب فيه الحد لله ولا لرسوله ، ولا للأئمة أدب ، واللمم : فهو ما ألم به صاحبه من غير تعمد ولا اعتقاد ، ولا هم ولا عزم ، كمثل النظر عن غير تعمد ، والمزاحمة للمرأة عن غير قصد ، وما أشبه ذلك مما لم يتقدم له ذكر في ذلك على فاعله ، ولم يقصد به اجتراء على خالقه ، ولا تعمدا لإتيان معصية ولا استحلال محرمة ، فهذا معنى اللمم الذي ذكر الله سبحانه . المجموع خ ٦٣.

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام في أوائل هذه السورة .

(٣) وفي نسخة : لا يتعمد . وكلام الإمام المرتضى عليه السلام في مجموع تفسير الأئمة ، وفي الآية بحث شيق للإمام المرتضى ، ورد على بعض تفسيرات الجهلة . من ص ٦٦٢، إلى ص ٦٦.

(٤) قال في البرهان : قوله عز وجل :﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾ فكبائر الإثم هي الموجبات المحبطات لعمله كالشرك بالله والظلم وقتل النفس بغير حلها ، والصغائر : ما دون ذلك مما يستهلكها الطاعات ، فإن أصر على الصغائر جرت الصغائر مجرى الكبائر لقوله صلى الله عليه وآله :(لا كبيرة مع التوبة والاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار﴾ والفواحش : جميع المعاصي إلا اللمم يعني : ما ألموا به من المعاصي في الجاهلية والفواحش التي فعلوها فأحبط أحكامها الإيمان والإسلام عفا عنهم به ، ودليل ذلك ما روي عن آبائنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه كان يقول :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما

يعني : ما ألم بفعل قبيح قبل مبعثه ولا بعد مبعثه . البرهان خ ٣٦١.

أي : لم يحط .

البلغة ـــ والكبائر : هي التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة ، وقيل : التي يكثر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها ، والفواحش ما تزايد قبحه منها خاصة ، وإن كانت قد دخلت في الكبائر ، واللمم : ما قل منها وصغر ، قيل : والمراد الصغائر ، أي : لكن اللمم ، فالاستثناء منقطع ، أو تكون إلا صفة ، أي : غير اللمم فهو مكفر باجتناب الكبائر قاله في التجريد [١].

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي : كثير المغفرة لمن تاب ، ولذي اللمم .

وقوله تعالى :﴿الذين يجتنبون﴾ يحتمل أن يكون بدلا من ﴿الذين أحسنوا﴾ وهو الظاهر [٢] ، وكأنه تعالى قال : ليجزي الذين أساؤا ويجزي الذين أحسنوا [بالحسنى] [٣] .

---

(١) قال السيد العلوي رحمه الله في حاشيته على الكشاف ردا على صاحب التقريب عندما ذكر بأن شرط أن يكون صفة أن يكون تابعا لجمع غير منكور غير محصور . قال : اعلم أن مذهب سيبويه جواز وقوع إلا صفة ، وعليه أكثر المتأخرين تمسكا بقوله : وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان

وقوله عليه وآله الصلاة والسلام :(الناس كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم) فهذا النظر لا يرد على المصنف بل يرد على ابن الحاجب لو كان هو القائل بذلك لاشتراكه ما ذكره وإنما جاز وصف كبائر الإثم مع تعرفها بغير اللمم مع تنكيره ، إما لأن تعريف الإثم كتعريف اللئيم أعني تعريف الجنس القريب من النكرة ، لعدم التوقيت ، إما لأن غير هاهنا معرفة بالإضافة إلى اللمم ؛ لأن غير إذا أضيف إلى معرفة ولها ضد واحد تعرف غير لانحصار الغيرية ، نحو عليك بالكريم غير البخيل ، فكذلك غير اللمم معرفة لتخصصه بالكبائر ؛ لأن المراد باللمم الصغائر ، ولا ضد لها إلا الكبائر . حاشية العلوي ٢٩٦.

(٢) إذا كان بدلا عن الذين أحسنوا فلم خالف ما بعده بالمضي والاستقبال ، حيث قال تعالى :﴿الذين أحسنوا﴾ وقال ﴿الذين يجتنبون﴾ ولم يقل : اجتنبوا ؟ نقول : إنه أتى به مضارعا فقال :﴿يجتنبون﴾ ليدل على الاستمرار في المستقبل ، ولئلا يتوهم أنه أراد اجتنبوا مرة واحدة ، فعدل إلى المضارع لرفع التوهم . ويكون معناه الذين عادتهم ودأبهم الاجتناب .

(٣) ما بين القوسين موجود في الأصل وليس موجودا في ما ورد في الرازي بمثل لفظه . والمراد هنا إثبات جزاء الذين أساؤا والذين أحسنوا . وبهذا يتبين المسيء والمحسن ؛ لأن من لا يجتنب كبائر الإثم يكون مسيئا ، والذي يجتنبها يكون محسنا .

ويحتمل أن يكون ابتداء كلام تقديره : الذين يجتنبون كبائر الإثم يغفر الله لهم ، والـذي يدل عليه قوله تعالى ﴿إن ربك واسع المغفرة﴾ وعلى هذا تكون هذه الآية مع ما قبلها مبينة لحال المسيء والمحسن ، وحال من لم يحسن و لم يسئ وهم الذين لم يرتكبوا سيئة ، وإن لم يصدر منهم الإحسان وهم الصبيان الذين لم يوجد فيهم شرائط التكليف ، ولهم الغفران وهو دون الحسنى ، ويظهر هذا بقوله تعالى بعد ﴿إن ربك واسع المغفـرة هـو أعلم بكم إذا أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة﴾ أي : يعلم الحالة التي لا إحسان فيها ولا إساءة كما علم من أساء وضل ، ومن أحسن واهتدى [1].

وقال الهادي عليه السلام : معنى ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ يقـول : عالم بكم وبأخباركم وبما يكون منكم إلى يوم القيامة ، فقد علم ذلك كله منذ وقت إنشائه لكم من الأرض ومعنى إنشائكم من الأرض فهو : خلقه لآدم عليه السلام في بدء الخلق من التراب والأرض [2].

﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ أي : وحين كنتم أجنة : جمع جنين .

﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ يقول : إذ أنتم مستجنون في بطون أمهاتكم قبل خروجكم إلى الأرض فهو يعلم ما ستفعلون عند كبركم وبلوغ أشدكم [3] ففتح لكم باب التوبة ، و لم يؤاخذكم باللمم .

وفائدة قوله عز وجل :﴿في بطون أمهاتكم﴾ [التنبيه على]كمال العلم والقدرة ، فإن بطون الأمهات في غاية الظلمة ، ومن علم بحال الجنين فيها لا تخفى عليه أعمال العباد ، ﴿هو [أعلم بكم﴾] تقرير لما مر ، قيل : هو أعلم بمن ضل ، كأن القائل من الكفار : نحن نعمل أمورا في جوف الليل المظلم ، وفي البيت الخالي ، فكيف يعلمه الله تعالى فقال : ليس عملكم أخفى من أحوالكم ، وأنتم أجنة في بطون أمهاتكم ، والله عالم بتلك الأحوال [4].

---

(١) ومثل هذا الكلام في التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٩/٦، ٧.

(٢) مجموع تفسير الأئمة مخطوط ص ٤٨٠.

(٣) المصدر السابق .

(٤) ومثل هذا الكلام في الرازي ٢٩/٩ ، وما بين الأقواس منه ليتضح المعنى .

ثم قال سبحانه :﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ قال الهادي عليه‌السلام يقول : لا تقولوا إنكم أزكياء ولستم بأزكياء ، ولا تسموا أنفسكم أتقياء وأنتم تعملون عمل غير أهل التقوى. اهـ

وقيل : معنى ﴿تزكوا أنفسكم﴾ تنسبونها إلى زكاء العمل ، وزيادة الخير ، وعمل الطاعات ، أو إلى الزكاء والطهارة من المعاصي ، ولا تثنوا عليها واهضموها[١] .

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ قال عليه‌السلام : (أي بمن آمن واهتدى) [٢] واستوى وفاز بالتقوى أي : فقد علم الله الزكي منكم والتقي أولا وآخرا ، وقبل [أن] يخرجكم من صلب أبيكم ، وقبل أن يخرجكم من بطون أمهاتكم ، فإياكم والعجب ، وأما من اعتقد أنما عمله من الصالحات بتوفيق الله وتأييده ، ولم يرد به التمدح فليس من المزكين لأنفسهم ، لأن المسرة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكر .

ثم قال تعالى :﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ أي : أعطى قليلا وأكدى أي : قطع عطيته وأمسك ، من أكدى الحافر وهو أن تلقاه كدية أي : صلابة كالصخرة، فيكف عن الحفر[٣] .

وقال الهادي عليه‌السلام : يقول فمن أعطى من حق الله قليلا وأكدى على كثير منه ، ومعنى ﴿أكدى﴾ هو : منع وأبى أن يدفع ما عليه من حق الله فقال تبارك وتعالى : ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ﴾ فيما فعل أنه لا يعاقب عليه ﴿فَهُوَ يَرَى﴾ أي : فهو يعلم ما له وعليه في ذلك [٤]. اهـ

وقيل : معنى ﴿تولى﴾ ترك المركز يوم أحد ، سببها ما روي أن عثمان كان يعطي ماله في الخير ، فقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهو أخوه من الرضاعة : يوشك أن لا

---

(١) القائل هو الزمخشري في الكشاف ٤/٤٢٦ .

(٢) ما بين القوسين من كلام الإمام الهادي عليه‌السلام ، وما هو خارج القوسين غير موجود في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ، بل الكلام قريب مما في الكشاف ٤/٤٦٢.

(٣) هذا وما قبله قريب منه في الكشاف ٤/٤٦٢.

(٤) قال السيد العلوي رحمه الله ، قال أبو البقاء : ﴿فهو يرى﴾ جملة اسمية واقعة موقع الفعلية ، والأصل : أعنده علم الغيب فيرى ، ولو جاء على ذلك لكان نصبا على جواب الاستفهام . حاشية العلوي ٢٩٦.

يبقى لك شيء ، فقال عثمان : إن لي ذنوبا وإني أطلب بما أصنع عفو الله ، فقال عبدالله: اعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل لك ذنوبك فأعطاه وأشهد عليه ، وأمسك عن العطاء فنزلت ، فعاد عثمان إلى أحسن ما كان [1].

قال في التجريد : وهذا ليس بصحيح ؛ لأن سياق الآية في كافر ؛ لأن السورة مكية نزلت قبل وقعة أحد .

وقال في البرهان : نزلت الآية في العاص بن وائل السهمي ، كان يأتي النبي صلى الله عليه وآله فيستمع ما يقوله ، ويتولى عنه ، ولا يعمل به .

﴿وأعطى قليلا وأكدى﴾ [يعني]: أعطى من نفسه بالاستماع ثم أكدى بالانقطاع عن الإيمان والإسلام[2] .

وقال في البلغة : هو الوليد بن المغيرة .

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ أي : يخبر ﴿ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قرئ بالتشديد والتخفيف ، فالمشدد معناه : تَمَّمَ وأَكْمَلَ ما أمر به ، والمخفف معناه : أتى بما أمر به أيضا ، والمشدد أبلغ ، وقيل : وفَى ــ مخففا ــ : أتى بما وعد به ، وهذا لفظ صالح لكل وفاء وتوفية من غير عموم ، وقد قيل في ذلك : إنه وفى بتبليغ الرسالة ، وقيل : وفى بالصبر على ذبح ولده ، وعلى نار النمرود وغير ذلك .

وعن الحسن : ما أمره الله بشيء إلا وفى به[3] .

---

(١) الرواية منقولة من الكشاف ، ولا شك في بطلانها ، وأنها من الموضوعات في فضائل عثمان ، ولهذا لم يذكر ابن حجر لها تخريجا ، لأنه لم يجد مصدرا موثوقا يسعفه بأي كلام ، وقد فندها أيضا صاحب التجريد كما ورد أعلاه من وجه آخر فقال : وهذا ليس بصحيح ... الخ ما ستطلع عليه. ولا يبعد عن الزمخشري إيراد مثل هذه الرواية فإنه كان عثمانيا ، قال الرازي بعد ذكره هذه الرواية : وهذا قول باطل لا يجوز ذكره ؛ لأنه لم يتواتر ذلك ولا اشتهر ، وظاهر حال عثمان يأبى ذلك (انظر الرازي ١١/٢٩. وأقول : هذا غيض من فيض ، فكم من موبقات ارتكبت ، وأكذوبات انتحلت لإثبات بعض من الفضائل معارضة لفضائل أهل البيت عليهم السلام ، وقد أمرهم معاوية بذلك كما أورده ابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة .

(٢) انظر البرهان خ ٣٦٠.

ثم أخبر سبحانه عما هو في صحفهما فقال جل وعلا :﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ .

قال الهادي عليه‌السلام : الذي في كتبهما صلوات الله عليهما فهو ما ذكر ﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾ ومعنى ﴿وفى﴾ فهو : بلغ وأدى ، ومعنى ﴿وازرة﴾ فهي : حاملة ، يقول: لا تحمل حاملة حمل أخرى ، وهذا مثل ، والذي لا يحمل هاهنا فهو العمل لا يحمله غير صاحبه ، أي : لا يلزم عمل واحد غيره ، بل كل إنسان مأخوذ بعمله دون غيره . اهـ

وهذا جواب قائل قال : ما في صحف موسى وإبراهيم ؟ فقال هو﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾[1] أي : كل نفس تحمل ذنبا يوم القيامة ، فإنما تحمل ذنبها لا غير ، ولا تحمل وزر نفس أخرى ، ولا تؤخذ به ، والوزر : الحمل .

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ قال عليه‌السلام : ليس يجب للإنسان ولا عليه إلا عمله ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ يقول : عمله محفوظ لا يضيع سوف يظهر ، ويوجد غداً عند الله جزاؤه ، ألا ترى كيف يقول :﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ﴾ أي: يجزى العبد ﴿الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ يقول : يعطى عليه العطاء الأوفى ، من خير أو شر ، والأوفى : فهو الذي لا يزيد ولا ينقص . اهـ

وقوله تعالى :﴿وأن سعيه سوف يرى﴾ أي : يعرض عليه ، ويكشف له ، من أريته الشيء ، وفيه بشارة المؤمن ، وذلك أن الله يريه أعماله الصالحة ليفرح بها ، وحُزْنُ الكافر[2]، فمعنى ﴿إلا ما سعى﴾ إلا سعيه ، أي : عمله لا نفع له في عمل غيره ، إلا أن يوصي .

وعن المنصور بالله : ان الولد من سعي أبيه فيلحقه ما فعله له ، وقيل : بل جاء عنه صلى‌الله عليه‌وآله صحة الصدقة والحج عن الميت[3].

---

(٣) وقريب منه في الكشاف ٤/٤٢٧.

(١) فعلى هذا محل الجملة الرفع على الاستئناف ، والاستئناف هنا بياني .

(٢) معطوف على قوله : بشارة المؤمن . أي : وفيه حزن الكافر .

(٣) لا يوجد عندنا مصدر كلام الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه‌السلام ، وإن شاء الله سنحاول في الحصول عليه وندعو الله أن ييسره لنا .

قال في الكشاف : ووجهه أنه لما كان مبنيا على إيمانه كان كأنه من سعيه ، وإذا نواه الساعي له كان كالنائب عنه [١].

قال في الثمرات : أما الاستغفار للميت فإنه يلحق ، وادعى الحاكم الإجماع ، وكذا النواوي ، والإمام يحي وعلل بأنه كالشفاعة ، وقد حكى الله سبحانه استغفار الملائكة للمؤمنين . اهـ

ثم قال تعالى :﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ يقول : إليه المصير غدا ، والمنتهى : مصدر بمعنى الانتهاء ، أي : إليه ينتهي الخلق ويرجعون ، وفي المخاطب وجهان أحدهما : أنه عام تقديره : إلى ربك أيها السامع ، أو العاقل ، وعلى هذا فهو تهديد بليغ للمسيء وحث شديد للمحسن ؛ لأن قوله : أيها السامع كائنا من كان ﴿إلى ربك المنتهى﴾ يفيد الأمرين إفادة بالغة حد الكمال .

ثانيهما : أن الخطاب مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى هذا فهو تسلية لقلبه ، كأنه يقول : لا تحزن فإن المنتهى إلى الله فيكون كقوله تعالى :﴿فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون﴾[٢] إلى أن قال تعالى في آخر السورة ﴿وإليه ترجعون﴾ وأمثاله كثير في القرآن [٣].

والقراءة المشهورة بفتح أن على معنى أن هذا كله في صحف موسى ، وبالكسر على الابتداء ، وكذا ما بعده .

ثم قال تعالى :﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ قال الهادي عليه السلام : يخبر سبحانه أنه الذي جعل في الإنسان استطاعة الضحك والبكاء ، وركب فيه [آلة] [٤] السخط والرضاء .

ثم قال تعالى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ يخبر أن الموت منه والحياة في مبتدأ الخلق والإعادة بعد الموت والإنشاء . اهـ

---

(١) هذا اللفظ منقول من الكشاف بتصرف (أنظر الكشاف ٤٢٨/٤) .

(٢) يس : ٧٦ .

(٣) من قوله : وفي المخاطب وجهان .. إلى هنا مثله في الرازي بتقديم وتأخير (١٨/٢٩) .

(٤) ما بين القوسين غير موجود في مجموع تفسير الأئمة ، وهو موجود في أصل هذا التفسير .

أي : اختص بالقدرة على الإماتة والإحياء .

ثم قال تعالى :﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ بدل من الزوجين ، يقال للواحد : فرد ، فإذا كان معه غيره من جنسه قيل له : زوج .

﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ أي : تدفق في الرحم ، يقال : منى وأمنى ، وقيل : تَخَلَّقَ ، من : منى الماني ، أي : قَدَّر المقدر . قاله في الكشاف [1].

قال الهادي عليه‌السلام : فأخبر أنه دبر النطفة في الرحم حينا ذكرا ، وتكون حينا أنثى ، حتى خلق من هذا الماء الزوجين ، الذين منهما يكون نسل الآدميين .

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ يقول سبحانه : إن عليه أن يبعث الخلق ويردهم بعد فنائهم وبوادهم أحياء ، حتى يحاسبهم ويعاقبهم ، ويثيبهم بأفعالهم المتقدمة ، والبعث من القبور : هي النشأة الأخرى ، والنشأة الأولى فابتداء خلق النطفة في الرحم بشرا كاملا .

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ فهو رزق وأعطى ، ومعنى ﴿أقنى﴾ فهو : رزق وكفى ، وتولى كفاية عبيده ، وأرزاق خليقته [2]. اهـ

قيل : ﴿وأقنى﴾ أي : وأعطى القنية وهي المال الذي تأثلته وعزمت على أن لا تخرجه من يدك .

وقوله تعالى :﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ إشارة إلى فساد قوم آخرين ، وذلك لأن بعض الناس يذهب إلى أن الفقر والغنى بكسب الإنسان واجتهاده ، فمن كسب استغنى ، ومن كسل افتقر ، وبعضهم يذهب إلى أن ذلك بالبخت ، وذلك بالنجوم فقال سبحانه: ﴿[وأنه]هو أغنى وأقنى﴾ وقوله : ﴿[وأنه]هو رب الشعرى﴾ لإنكارهم ذلك أكد بالفصل [3] والشعرى : نجم معروف في السماء ، قال الحطيئة :

نظرتكم العشاء إلى سهيل ... أو الشعرى فطال بي الإناء

---

(١) انظر الكشاف ٤٢٨/٤، وقد نسب في الكشاف هذا القول إلى الأخفش .

(٢) انظر مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام مخطوط ص ٤٨١.

(٣) أي : بضمير الفصل (هو) .

يقول : انتظرت قراكم أن يأتيني إلى طلوع الشعرى ، فطال بي الانتظار ، و لم يأت .

قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : وهي نجم منير يتبع الجوزاء ، وكان بعض الجاهلية يعبده ، قال الشاعر :

وأبكيكم للجود ما ذر شارق وأبكيكم للحمد ما بدت الشعرى

وهما شعراتان الغميصا والعبور ، وأراد العُبور وكانت خزاعة تعبدها .

قال في البرهان : الشعرى نجم يضيئ وراء الجوزاء يسمى مرزم الجوزاء ، ويقال له : الوقاد ، كان يعبده حمير وخزاعة . اهـ

ثم قال تعالى :﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ قال الهادي عليه‌السلام : يخبر سبحانه أنه الذي أهلك عادا الأولى ، ثم معنى الأولى : الأولة ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾ أي : لم يبق منهم أحد لما عقروا الناقة وعصوا صالحا [1]. اهـ

لما ذكر أنه أغنى وأقنى ، وكان ذلك بفضل الله ، لا بعطاء الشعرى ، وجب الشكر لمن هو أملك وكفى لهم دليلا حال عاد وثمود وغيرهم .

قال في البرهان : في عاد الأولى قولان أحدهما : أن عادا الأولى عاد إرم الذين أهلكوا بريح صرصر عاتية [وعاد الآخرة قوم هود] [2] ، والثاني : أن عادا الأولى هم قوم هود ، والآخرة قوم حضرموت . اهـ

قيل : وفيه نظر ؛ لأن قوم حضرموت هم قوم هود .

وفي البلغة : عادا الأولى إرم ، وهم الذين أهلكوا بريح صرصر عاتية ، وعاد الأخرى أهلكوا ببغي بعضهم على بعض فتفانوا بالقتل .

وفي الكشاف : الأولى قوم هود [أهلكوا بالريح] وعاد الأخرى : ارم [أهلكوا بصيحة جبريل] [3] وقيل : معنى الأولى القدماء ، لأنهم أول الأمم هلاكا بعد قوم نوح ، وفيه

---

(١) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٨٢.

(٢) انظر تفسير البرهان لأبي الفتح الديلمي خ ص ٣٦١. وما بين القوسين سقط من أصل هذا التفسير وهو موجود في البرهان

(٣) ما بين القوسين موجود في أصل هذا التفسير وغير موجود في الكشاف .

وفي سورة الفجر له ما ينقضه [١]، وأن عادا الأولى إرم .

قال زيد بن علي عليه‌السلام : ﴿عادا الأولى﴾ الذين أرسل الله عليهم الريح فدامت عليهم سبع ليال وثمانية [أيام] حتى هلكوا ، وعاد الآخرة : قوم هود [٢].

وقال في التجريد في تفسير سورة الفجر ، وعاد قبيلة وهم أولاد عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح ، ثم قيل للأولين منهم : ﴿عادا الأولى﴾ وإرم تسمية بإرم جد أبيهم عاد ، ولمن بعدهم عاد الأخرى ، فإرم في قوله :﴿بعاد إرم﴾ عطف بيان لعاد ، وإيذان بأنهم عاد الأولى القديمة ، وقيل : إرم بلدتهم التي كانوا فيها .

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ أي : من قبل هؤلاء المذكورين أهلكهم ، وعلل ذلك بقوله : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ أشد ظلما من غيرهم ، وأزيد طغيانا لأنهم كانوا يؤذونه ، ويضربونه حتى لا يكون به حراك ، ولم يؤثر دعاؤه فيهم قريبا من ألف سنة .

قال الرازي : أما الظلم فلأنهم هم البادئون به المتقدمون فيه ، (ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها) والبادئ أظلم .

وأما ﴿أطغى﴾ فلأنهم سمعوا المواعظ وطال عليهم الأمد ، ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم نبيئهم ، ولا يدعو نبي على قومه إلا بعد الإصرار العظيم ، والظالم : واضع الشيء في غير موضعه ، والطاغي : المجاوز الحد ، فالطاغي أدخل في الظلم ، فهو كالمغاير والمخالف [فإن المخالف]مغاير مع وصف آخر زائد ، وكذا المغاير والمضاد ، وكل ضد غير ، وليس كل غير ضدا .

والمقصود من ذلك بيان شدتهم وقوة أجسامهم ، فإنهم لم يقدموا على الظلم والطغيان الشديد إلا بتماديهم وطول أعمارهم ، ومع ذلك ما نجا أحد منهم ، فما حال من هو دونهم في العمر والقوة فهو كقوله تعالى :﴿أشد منهم بطشا﴾ .

---

(١) الذي في الكشاف هو ما نقله صاحب التجريد الآتي قريبا ، وستلاحظ المناقضة . وهو في الكشاف ٤/٧٤٧. ولفظه : فإرم في قوله :﴿بعاد إرم﴾ عطف بيان لعاد ، وإيذان بأنهم عاد الأولى القديمة .. الخ ما نقله في التجريد .

(٢) انظر تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام في أوائل هذه السورة ، وفي تفسيره المطبوع ص ٣١١.

وقوله : ﴿من قبل﴾ المسألة المشهورة في قبل وبعد ، تقطع عن الإضافة فتصير كالغاية ، فتبنى على الضمة ، أما البناء فلتضمنه الإضافة ، وأما على الضمة فلأنها لو بنيت على الفتحة لكان قد أثبت فيه ما يستحقه بالإعراب من حيث أنها ظروف زمان ، فتستحق النصب والفتح مثله ، ولو بنيت على الكسر لكان الأمر على ما يقتضيه الإعراب وهو الجر بالجار ، فيبنى على ما يخالف حالتي إعرابها[1] .

وفي معنى الآية يقول الهادي عليه السلام يقول [2]: ﴿أظلم﴾ من ثمود وأطغى ، ومعنى ﴿أطغى﴾ فهو : أبغى وأشر وأردى .

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ المؤتفكة : المنقلبة ، ومعنى ﴿أهوى﴾ فهو أهلك وأردى ﴿فَغَشَّاهَا﴾ ألبسها من عذابه ﴿مَا غَشَّى﴾ ومعنى ﴿غشى﴾ : نزل عليهم وابتلى .

وفي البرهان : ﴿والمؤتفكة أهوى﴾ وهي مدائن قوم لوط احتملها جبريل عليه السلام بجناحه ثم صعد بها حتى إن أهل سماء الدنيا لا يسمعون نباح كلابهم وأصوات دجاجهم ، ثم كفا بها على وجهها ، ثم أتبعها بالحجارة كما قال تعالى :﴿فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾ .

ثم قال تعالى :﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ قال عليه السلام : يقول : بأي آلاء ربك تشك، والآلاء : فهي الآيات هاهنا والابتلاء . اهـ

والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله[3] أو للإنسان على الإطلاق وهو الأولى ؛ لأنه سبحانه لما عد من قبلُ النِّعَمَ ، وهو الخلق في النطفة ، ونفخ الروح الشريفة فيه ، والإغناء والإقناء، وذكر أن الكافر بنعمه أهلك قال :﴿فبأي آلاء ربك﴾ أيها الإنسان ﴿تتمارى﴾ فيصيبك مثل ما أصاب الذين تماروا من قبل .

---

(١) إلى هنا انتهى المنقول من الرازي بتقديم وتأخير . انظر الرازي ٢٩/٢٣، ٢٤.

(٢) فاعل يقول هنا هو الله عز وجل

(٣) وهنا يتوجه سؤال وهو : هل يتمارى رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ فالجواب عليه بأنه من باب قوله تعالى :﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ .

ثم قال تعالى :﴿هَٰذَا﴾ أي : القرآن ، أو الرسول ﴿نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ أي : من جنس الإنذارات ، أو المنذرين وإنما أنثَ على تأويل الجماعة .

قال الهادي عليه‌السلام : معنى ﴿نذير﴾ فهو مبلغ [1] معذر منذر ﴿من النذر الأولى﴾ يريد كالنذر الأولى ، يخبر أنهم قد أنذروا كما أنذر الأولون ، فإن عصوا كما عصوا هلكوا .

ثم أخبر تعالى بقرب الساعة ودنوها فقال سبحانه :﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ قربت القريبة ، والقريبة الآزفة : فهي القيامة الآخرة [2] اهـ

أي : قربت الموصوفة بالقرب في قوله :﴿اقتربت الساعة﴾ أي : القيامة التي كل يوم يزداد قربها ، فهي كائنة قريبة ، وزادت في القرب ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي : نفس كاشفة ، أي : ليس لها نفس تقدر أن تردها .

قال الهادي عليه‌السلام في تفسيرها : يقول ليس لها من دون الله دافع ، ولا مؤخر . اهـ

وقيل : معنى الكشف : العلم بمجيئها ، وقال الفراء : الكاشفة مصدر بمعنى الكشف ، كقوله تعالى :﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ أي : من بقاء ذكره في التجريد .

المعنى : لا يقدر على إقامتها إلا الله سبحانه .

قال الرازي : من زائدة تقديره : ليس لها غير الله كاشفة ، وهي تدخل على النفي فتؤكد معناه ، تقول : ما جاءني أحد ، وما جاءني من أحد ، وعلى هذا يحتمل أن يكون فيه تقديم وتأخير ، تقديره : ليس لها من كاشفة دون الله ، فيكون نفيا عاما بالنسبة إلى الكواشف .

ويحتمل أن يقال : ليست بزائدة ، بل معنى الكلام أنه ليس في الوجود نفس تكشفها ، أي : تخبر عنها كما هي ، ومتى وقتها من غير الله تعالى [3] .

---

(١) في النسخة (ب) من هذا التفسير (وهو مبلغ مفند معذر منذر) ولفظ (مفند) غير موجود في مجموع تفسير الأئمة ، ولا في النسخة (أ) من المصابيح .

(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم‌السلام ص ٤٨٢.

(٣) ينظر في لفظ من في قوله : من غير الله تعالى ، فإن المعنى : لا توجد نفس تكشفها أحوال القيامة ووقتها غير الله تعالى .

ثم قال سبحانه :﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ أي : القرآن ﴿تَعْجَبُونَ﴾ ويحتمل أن يقال : هذا [إشارة] إلى حديث ﴿الآزفة﴾ فإنهم كانوا يعجبون من حشر الأجساد وجمع العظام بعد الفساد .

قال الهادي عليه السلام :يريد سبحانه أفمن إخبارنا إياكم بأزوف الآزفة ، وقرب الآخرة ، ووقوع الواقعة ﴿تعجبون﴾ أي : تشكون ولا تصدقون ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء إذا قرئ عليكم ما تسمعون ضحك ممتر في قولنا ، شاكّ في وعدنا ووعيدنا ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ خشوعا ، والبكاء والخشوع حق عليكم ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ والسامد : فهو المنصت المغموم الوجل الراهب ، الذي قد انقطع كلامه من خوف ما أمامه وقدامه . اهـ

وكانوا [هم] أيضا [يضحكون] من حديث النبي والقرآن ، ويحتمل أن يكون إنكارا على مطلق الضحك مع سماع حديث القيامة ، أي : تضحكون وقد سمعتم أن القيامة قربت ، فكان حقا عليكم ألا تضحكوا حينئذ [1].

وقيل : معنى ﴿سامدون﴾ أي : غافلون وذكر باسم الفاعل ؛ لأن الغفلة دائمة [2] وأما الضحك والعجب فهما أمران يتجددان ويعدمان[3] .

قلت : ومثل هذا في تفسير زيد بن علي والحسين عليهما السلام قال الشاعر:

قيل قم فانظر إليهم ثم ذر عنك السمودا

أي : ذر اللهو والغفلة .

وقال في البرهان : روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال : ﴿سامدون﴾ غير مصلين ، ولا منتظرين الصلاة . اهـ

ثم قال سبحانه :﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ قال عليه السلام : هو أمر منه سبحانه لهم بالإيمان والتصديق لما جاء به رسولهم من الوعد والوعيد ، والسجود : فهو وضع الجبهة على الأرض . والعبادة : فهي التصديق بالقول والطاعة . اهـ

---

(١) وما بين الأقواس مثله في الرازي ، وما بين الأقواس تصحيح منه .

(٢) علة للمجيء به اسما دال على الثبوت والدوام .

(٣) علة للمجيء به فعلا يدل على التجدد والحدوث .

والأمر بالسجود [والعبادة] يحتمل أن يكون عاما ، ويحتمل أن يكون التفاتا فيكون كأنه قال : أيها المؤمنون اشكروا على الهداية ، واشتغلوا بالعبادة ، و لم يقل اعبدوا الله إما لكونه معلوما ، وإما لأن العبادة في الحقيقة لا تكون إلا لله [1] فقال :﴿واعبدوا﴾ .

والله أعلم

(١) هذه علة حذف المفعول به .

سورة الطور

أربعون وتسع آيات في الكوفي والشامي ، وثمان في البصري وسبع في الحجازي
(مكية)

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله عز وجل :﴿ وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾[1] قال الهادي إلى الحق عليه السلام : هـذا قسم من الله سبحانه بهذه الأشياء لما فيها من عظيم الآيات ، والنبأ والبركة والخير لمن اهتدى، والطور : فهو جبل في الشام يسمى الطور ، كثير البركة [والخير] ﴿وكتاب مسطور﴾ فهو : كتاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم [2]. اهـ

(١) في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٣٠٢ ، قال الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:(الطور) هو طور سيناء، وقد ذكره في غير مكان والبلد الأمين ، فأقسم بهما لما هو أعلم به سبحانه من أمرهما ﴿وكتاب مسطور في رق منشور﴾ هو ما نزله الله من كتبه ، وكتب في رق وغيره ﴿والبيت المعمور﴾ هو بيت الله الذي يعمر أبدا بذكر الله وبالوافدين في كل حين إلى الله ، كما قال سبحانه لإبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما ﴿أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ . ﴿والسقف المرفوع﴾ هو السماء ﴿والبحر المسجور﴾ هو البحر الأعظم ، والمسجور : فهو المحبوس على حدوده ومنتهاه ، فليس يجوز حدا من حدوده ولا يتعداه .اهـ

(٢) ـ مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٧٢ ، وما بين القوسين زيادة منه .

وانظر أيضا (تفسير غريب القرآن) للإمام زيد بن علي عليهما السلام (٣٠٦، ٣٠٨) قال فيه ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليهما السلام في قوله :﴿والطور وكتاب مسطور﴾ معنى الطور : الجبل ، والمسطور : المكتوب وقوله تعالى :﴿والبيت المعمور﴾ فالمعمور : الكبير ، وقال : المعمور : بيت في السماء يقال له : الضراح حيال الكعبة ، يزوره كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون فيه إلى يوم القيامة .

وفي التجريد : الطور هو الجبل الذي كلم الله موسى ، وموسى عليه ، والطور بمدين
﴿وكتاب مسطور﴾ قيل : مكتوب وهو الذي سطر فيه الأعمال ، أي : كتبت ، ونكر لخصوصيته من بين سائر الكتب المسطورة [١].

ثم وصفه بقوله تعالى :﴿في رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ إشارة إلى الوضوح ، وذلك لأن الكتاب المطوي لا يعلم ما فيه ، فقال : هو ﴿في رق منشور﴾ ليس كالكتب المطوية ، فمعناه : هو منشور لكم لا يمنعكم أحد من مطالعته .

قال [الإمام الهادي]عليه السلام : فالرق فهو المعروف الذي تكتب فيه المصاحف[٢] .

وقوله تعالى :﴿والسقف المرفوع﴾ معناه : السماء .

وقوله تعالى :﴿والبحر المسجور﴾ معناه : الممتلئ بعضه من بعض ، وقال : المسجور : الموقد ، وقال الإمام زيد بن علي عليهما السلام : البحر المسجور : بحر تحت العرش يسمى بحر الحياة .

وقوله تعالى :﴿يوم تمور السماء مورا﴾ معناه : تدور بما فيها .وقوله تعالى :﴿في خوض يلعبون﴾ معناه : في اختلاطهم وفتنتهم
وقوله تعالى :﴿وتسير الجبال سيرا﴾ معناه : فتسير هي والأرض .

وقوله تعالى :﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾ معناه : يدفعون فيها .وقوله تعالى :﴿فكهين﴾ يعني : معجبين بما آتاهم ربهم .

وقوله تعالى :﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم﴾ معناه : أعطينا الأبناء ما أعطينا الآباء في المماثلة من الكرامة . وقوله تعالى :﴿وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾ معناه : ما نقصناهم .

وقوله تعالى :﴿يتنازعون فيها﴾ معناه : يتعاطون فيها ﴿كأسا﴾ معناه : خمر .

وقوله تعالى :﴿كأنهم لؤلؤ مكنون﴾ معناه : مصون .وقوله تعالى :﴿أم هم المصيطرون﴾ معناه : الأرباب والرقباء المسلطون .

وقوله تعالى :﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ معناه : يخبرون .

وقوله تعالى :﴿وإن يروا كسفا من السماء ساقطا﴾ معناه : قطع واحدها كسفة .

وقوله تعالى :﴿سحاب مركوم﴾ معناه : قد جعل بعضه على بعض .

وقوله تعالى :﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا﴾ معناه : يكذبوا . وقوله تعالى :﴿يصعقون﴾ معناه : يموتون .

وقوله تعالى :﴿بأعيننا﴾ معناه : بحفظنا وكلاءتنا .

(١) قوله :(ونكر لخصوصيته من بين سائر الكتب) قال السيد العلوي : أراد أنه إنما نكره مع أنه من أعرف المعارف وأشهرها ليدل على اختصاصه من جنس الكتب بأمر تميز به عن سائرها (وقد مثل الزمخشري بأنه مثل ﴿ونفس وما سواها﴾ وقد جعلها نفسا خاصة من بين النفوس وهي نفس آدم عليه السلام ، قيل : وواحدة من النفوس . والتحقيق : أن التنكير فيه للتعظيم بسبب تميزه عن سائر الكتب بما اختص به . (حاشية العلوي ٢٩٣) .

قال أبو عبيدة : الرق الورق ، وقيل : الأديم الذي يكتب فيه .

ثم قال [الإمام الهادي]عليه‌السلام : معنى ﴿منشور﴾ فهو مفتوح معلوم .﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ فهو: كعبة الله التي جعلها للمؤمنين ، وهي بكة ، وهي بقعة البيت التي في وسط مكة . اهـ

ومعنى ﴿المعمور﴾ أي : المعمور بالحجاج والمعتمرين الطائفين به ، العاكفين .

وقال في البرهان: روينا عن آبائنا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه‌السلام أنه قال: (البيت المعمور في السماء السابعة حيال الكعبة) [1]. اهـ

وقيل : الضراح [2] في السماء السابعة ؛ لأنه ضرح عَنّ عن الأرض ، أي : أبعد عنها ، وعمرانه : كثرة غاشيته من الملائكة ، وحرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض ، ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك يطوفون به ويصلون ثم لا يعودون إلى يوم القيامة ، هذا رواه في البلغة عن علي عليه‌السلام [3] . والله أعلم

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ قال الهادي عليه‌السلام : وهي السماء المرفوعة التي جعلها الله سقفا للأرض الموضوعة ، وروي عن علي عليه‌السلام مثله [4] .

---

(٢) كلما ذكر المصنف في تفسير هذه السورة عن الإمام الهادي عليه‌السلام فهو منقول من مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام مخطوط ص ٤٧٢ إلى ص ٤٧٧. وهذا تنبيه ليرجع إليه ، ويعفينا عن تكرار الحواشي لهذا المصدر .

(١) انظر البرهان مخطوط ص ٣٥٨، وكلما نقل المصنف عن البرهان فهو فيه ص ٣٥٨، ٣٥٩، فليعلم .

وتمام الحديث في البرهان (لو خرّ خرّ عليها ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا﴾ .

(٢) قال السيد العلوي : الضراح ــ بالضاد المعجمة ــ : لأنه ضرح إلى السماء ، أي : أبعد وأرفع ، وقيل : هو من المضارحة وهي المقابلة ، لأنه مقابل للكعبة ، ولأبي العلاء : لقد بلغ الضراح وساكنيه ثناك وزار من سكن الضريحا [تنبيه) كلما نقلناه عن السيد العلوي في هذه السورة فهو من حاشيته على الكشاف المخطوطة الجزء الثاني ص ٢٩٣، ٢٩٤] . وفي لسان العرب ٥٢٤/٢ ط وترتيب يوسف خياط : الضرح : التنحية ، والضرح : أن يؤخذ شيء فيرمى به في ناحية ، والضراح : بالضم بيت في السماء مقابل الكعبة في الأرض ، قيل : هو البيت المعمور عن ابن عباس، وفي الحديث (الضراح بيت في السماء حيال الكعبة) ويروى الضريح ، وهو البيت المعمور ، من المضارحة وهي المقابلة والمضارعة ، وقد جاء ذكره في حديث علي عليه‌السلام ومجاهد ، قال ابن الأثير : ومن رواه بالصاد فقد صحف.

(٣) كتاب البلغة في التفسير للطوسي ، إلى الآن لم تتيسر لنا مخطوطته نسأل الله أن يسهلها ليتم لنا المطابقة على الأصل.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [قال الإمام الهادي عليه‌السلام] : فهو البحر الأخضر المالح الأكبر.

(٤) قال الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه‌السلام في تفسيره غريب القرآن ما لفظه :

﴿والطور وكتاب مسطور في رق منشور﴾ هذه أقسام أقسم الله بها ، والطور : بلد بالشام ﴿والبيت المعمور والسقف المرفوع﴾ روي أنه رفع من الأرض إلى السماء السادسة سنة ، أيام الطوفان فجعل خيال الكعبة ﴿والبحر المسجور﴾ المملوء قال الشاعر : إذا شاء طالع مسجور يرى تحتها النبع والماء يسحما

وقال آخر : مسجورة متجاور أقلامها .

ومعنى قوله :﴿تمور السماء مورا﴾ أي : تحترك وتسير ، قال الشاعر :

تمور على ثلاث مخذمات ورابعة تمور بلا خذام

﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾ أي : يدفعون دفعا ، ومعنى ﴿فاكهين﴾ يريد : عاجبين مسرورين . ومعنى ﴿ما ألتناهم من عملهم من شيء﴾ أي : ما نقصناهم ، قال الشاعر : جهد الرسالة ما ألتا وما كذبا .

ومعنى ﴿يتنازعون﴾ أي : يناول بعضهم بعضا . ومعنى ﴿مشفقين﴾ أي : خائفين ﴿فمن الله علينا﴾ أي : تفضل علينا والكاهن : هو المخترص للظن . ومعنى ﴿نتربص به ريب المنون﴾ هو ننتظر به مصائب الدهر ، والتربص هو الإنتظار قال الشاعر : تربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوما أو يموت حليلها

والمنون : هو الدهر ، قال الشاعر :

أمن ريب المنون وريبه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

ومعنى ﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون﴾ هذا تقرير لهم على أن أحلامهم لم تأمرهم بذلك ، والأحلام : هي العقول قال الشاعر :

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم من الناس والأحلام غير عوازب

أي : العقول حاضرة ﴿أم يقولون تقوله﴾ أي : عمله وقاله . ومعنى ﴿كسفا من السماء﴾ أي : قطعا ، ومعنى ﴿يقولوا سحاب مركوم﴾ هو الذي بعضه على بعض مرزوم قال الشاعر : والقينة الطفة الحوري زينها جيد ونحر عليه الدر مركوم .

ومعنى ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون﴾ أي : يصيحون ويقولون إذا قرئت بنصب الياء والعين ، وإذا قرئ بغير ذلك فهم يغشون . والصعق : هو المغشي عليه ، والصاعق بالألف هو الذي يصيح ، قال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه : فهم ما بين كلب هارب ذاهل العقل ، ومرعوب صعق ، ومعنى قوله :﴿فإنك بأعيننا﴾ الأعين تحتمل وجهين: إما أن يكون أراد بعلمنا ، وإما أن يكون أراد فإنك بأعين رسلنا الذين وكلهم الله بحفظ الأعمال ، والعرب تقول : جعلنا عليهم عيونا يحفظون أعمالهم ، قال الشاعر :

فإن الذي كنتمُ تحذرون جاءت عيون به تعرب

ومعنى ﴿وإدبار النجوم﴾ يريد إذا ولت وأدبرت ، وذلك في آخر الليل وعند الصبح .

والمسجور : فهو ذو الصوت والهيجان والأمواج ، والمسجور : فهو الموقد الذي قد تأججت ناره ، واستوقدت فيه فهاج لها صوت لديه ، والعرب تقول : اسجر التنور أي: أوقده ، فشبه الله تبارك وتعالى البحر بالتسجير بتسجير النار في التنور [1] . اهـ

وفي البرهان : المسجور الموقد [نارا] لأن البحار تصير يوم القيامة نارا [2]. اهـ

وجواب القسم قوله تعالى :﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ أي : نازل على المستحقين ، قال [الإمام الهادي]عليه السلام : فوقع القسم على وقوع العذاب .

قال في البرهان : روينا أن جبير بن مطعم قدم المدينة ليفدي حليفا له أسر يوم بدر ، فوجد رسول الله صلى الله عليه وآله في الصلاة يقرأ في سورة الطور ، فجلس مستمعا حتى بلغ ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ فأسلم جبير خوفا من العذاب ، وجعل يقول : ما كنت أظن أني[3] أقوم من مكاني حتى يقع بي العذاب [4].

﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ قال [الإمام الهادي] عليه السلام : يقول ما فيه من حيلة ، ولا له من مانع ثم أخبر عز وجل متى يقع العذاب الذي عليه أقسم فقال :﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ وذلك فهو يوم القيامة الذي تمور في السماء ، وموروها : فهو امحاقها وذهابها وتقطعها ورجوعها إلى ما منه خلقها ربها .

﴿وَ﴾في ذلك اليوم ﴿تَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ ومعنى تسير سيرا فهو : نسفها عن وجه الأرض وذهابها من الأرض كما ذكر الله سبحانه حين يقول :﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾[5] أي : تقطع وتذهب وتمحق كتقطع السحاب وذهابه من بعد تجسيمه واجتماعه ، فهذا معنى ﴿تسير الجبال﴾ . اهـ

---

(١) انظر مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٧٢ . وقد جعلنا نسبته إلى الإمام الهادي بين قوسي زيادة ، لأنه موجود فيه ، وإن سكت المصنف عن نسبته إلى الإمام الهادي .

(٢) ما بين القوسين من البرهان ، وهو ساقط في الأصل من هذا التفسير . انظر البرهان ص ٣٥٨.

(٣) في البرهان (ما كنت ظننت أن أقوم) .

(٤) انظر البرهان وذكره الزمخشري أيضا ، وخرجه ابن حجر في حاشيته على الكشاف ٤٠٩/٤.

(٥) النمل : ٨٨ .

وقيل : معناه تضطرب وتجيء وتذهب [١]، وقيل : تدور عن ابن عباس ومجاهد والفراء والزجاج وابن قتيبة .

و﴿تسير الجبال﴾ أي : تسير عن مقارها كما يسير السحاب حتى يستوي ، والحكمة في ذلك الإيذان والإعلام بأن لا عود إلى الدنيا ، وذلك لأن الأرض والجبال والسماء والنجوم كلها لعمارة الدنيا والانتفاع لبني آدم بها وإن لم يبق لهم عود لم يبق فيها نفع فأعدمها الله تعالى [٢].

ثم قال سبحانه :﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث والجزاء ، ومعنى الويل : فهو الهلاك لهم ﴿يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال﴾ أي : إذا علم أن عذاب الله واقع ، وأنه ليس له دافع فويل يومئذ للمكذبين ، فالفاء لاتصال المعنى [٣] .

قال الهادي عليه‌السلام : هذا إخبار من الله بأن الويل ينزل بالمكذبين في ﴿يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا﴾ والويل : فهو العذاب ، والمكذبين : هم الذين كذبوا بما جاء به محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ فالخوض : هو التكذيب والمروج والشك والمرج و﴿يلعبون﴾ فهو يعبثون ويهزؤون . اهـ

أي : يخوضون في أمر محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله بالتكذيب ، وأصل الخوض : الدخول في الكلام , وغلب الخوض في الأخذ بالباطل والكذب واللعب وما لا يفيد .

قوله سبحانه : ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ بدل من ﴿يوم تمور﴾[٤] والدع : الدفع العنيف ؛ لأن خزنة النار يغلون أيديهم إلى أعناقهم ، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ، ويدفعونهم إلى النار على وجوههم .

---

(١) صاحب القيل هو الزمخشري (انظر الكشاف ٤٠٩/٤.

(٢) ومثله في الرازي ٢٤٣/٢٨، ولكن قال فيه : فإن لم يتفق لهم عود لم يبق فيها نفع .. إلخ ما ذكره هنا .

(٣) قال الرازي (٢٤٥/٢٨) بعد قوله : فالفاء لاتصال المعنى . : وهو الإيذان بأمان أهل الإيمان ، وذلك لأنه لما قال ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ لم يبين موقعه بمن ، فلما قال :﴿فويل يومئذ للمكذبين﴾ علم المخصوص به ، وهو المكذب . وقال في مجمع البيان : دخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة والتقدير : إذا كان هذا فويل يومئذ للمكذبين ٢٧/٦

قال عليه‌السلام: معناه يدفعون ويدقون ويحرون ويضربون ، تقول العرب : دُعَّه، أي: ادفعه بيدك والكزه بجمعك . اهـ

ثم أخبر سبحانه أنه يقال لهم توبيخا :﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا وتجحدون ، ومواقعتها في هذه اليوم تنكرون ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾ الذي ترون من العذاب .

قال عليه‌السلام يقول : هذا العذاب سحر ؟ كما كنتم تفعلون في الدنيا إذ أنذرتم بذلك.

﴿ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ بأعينكم ما قد وقعتم فيه من العذاب [كما كنتم عميا عن الخبر عنه في الدنيا][1] يريد : بلى إنكم لتبصرونه وترونه عيانا بعد أن كنتم تكذبون وتنكرونه إنكارا [2].

وإنما هذا تقريع وتهكم بهم ، وذلك أنهم كانوا يقولون : القرآن سحر ، وأخباره كاذبة ومحمد ساحر ، يغطي على الأبصار بالسحر ، فوبخوا عند رؤية العذاب .

ثم أخبر عز وجل أنه يقال لهم :﴿ اصْلَوْهَا﴾ أي : ادخلوا بين طبقاتها كما تُصْلَى الشاة ، أي : تُغْمَرُ بالجمر ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ اجزعوا ، والمعنى : إذا لم يمكنكم إنكارها ويتحقق أنه ليس بسحر ، ولا خلل في أبصاركم فاصلوها .

وقوله :﴿فاصبروا أولا تصبروا﴾ فائدته بيان عدم الخلاص وانتفاء المناص[3].

وقوله تعالى :﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ سواء خبر ومبتدأه مدلول عليه [بقوله] ﴿فاصبروا أولا تصبروا﴾ كأنه يقول : الصبر وعدمه سواء [4].

---

(٤) ويحتمل أن يكون منصوبا بما بعده ، وهو العامل في قوله :﴿هذه النار التي كنتم﴾ أي : يقال لهم هذه النار يوم تمور ، وقيل : إنه بدل من يوم في قوله :﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ .

(١) ما بين القوسين ساقط من نسخة المجموع التي لدينا .

(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم‌السلام ٤٧٣.

(٣) وذلك لأن من لا يصبر يدفع العذاب عن نفسه إما بأن يدفع المعَذِّب ــ بالكسر ــ فيمنعه ، وإما بأن يغضبه فيقتله فيستريح بالموت . ولا شئ من ذلك يفيد في عذاب الآخرة ، فإنه لا يغلب المعذب فيدفعه ، ولا يتخلص بالإعدام فإنه لا يقضى عليه فيموت ، فإذا الصبر كعدمه ، لأن من يصبر يدوم فيه ، ومن لا يصبر يدوم فيه .

(٤) وقد عاب السيد العلوي على الزمخشري عندما جعل سواء مبتدأ خبره محذوف ، وقال : كان الأولى أن يقول : خبر مبتدأ محذوف ؛ لأنه لا يحسن أن يكون المبتدأ نكرة ، والخبر معرفة .

ثم علل استواؤهما بقوله :﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (فإن قلت : لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله :﴿إنما تجزون[ما كنتم تعملون]﴾ ؟ قلت : لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع لنفعه في العاقبة ، بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير ، فأما الصبر على العذاب الذي هو الجزاء ، ولا عاقبة له ولا منفعة فلا مزية له على الجزع) ذكره في الكشاف [(١)] .

ولما بين حال الكافرين أعقبه بذكر حال المتقين فقال تعالى :﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ على ما هو عادة القرآن من بيان حال المؤمن ، بعد بيان حال الكافر ، وذكر الثواب عقيب ذكر العقاب ليتم أمر الترهيب والترغيب، والتنكير للتفخيم والتعظيم، أي: في أكمل جنات وأكمل نعيم ﴿فَاكِهِينَ﴾ في ذلك متلذذين ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

وفي البرهان : يعني فرحين معجبين .

﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ عطف على ﴿آتاهم﴾ وما مصدرية ، أي : فاكهين بإتيانهم ربهم ، ووقايته إياهم ﴿عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ويحتمل أن يكون ذلك جملة أخرى مسوقة على الجملة الأولى ، كأنه بين أنه أدخلهم جنات ونعيما ، ووقاهم عذاب الجحيم [(٢)].

ثم أخبر سبحانه أنه قال لهم :﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي : أكلا هنيئا وشرابا هنيئا ، وهنيئا صفة للطعام والشراب ، وهو الذي لا تنغيص فيه مأمون عاقبته من التخم والسقم[(٣)] [ثم] أعلمهم بم نالوا ذلك فقال :﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الصالحات .

---

(١) الكشاف ٤/٤٠٩.

(٢) فعلى الوجه الثاني محله الرفع على أنه معطوف على خبر إن ، وذكر الزمخشري وجها ثالثا ، وهو أن تكون الواو واو الحال، وقد بعدها مضمرة . وقال السيد العلوي : وإذا كانت موصولة فلا يصح العطف لفقدان العائد من الجملة المعطوفة ، إذ التقدير فاكهين بالذي آتاهم الله ، وبالذي وقاهم ربهم عذاب الجحيم ، وعلى هذا فلا عائد في الجملة المعطوفة .

(٣) ويحتمل أن يكون صفة للمصدر المحذوف ، وذكر السيد العلوي بأنه يحتمل أن يكون ﴿هنيئا﴾ من المصادر التي حذف عاملها ، وأقيمت مقامه ، والفاعل الآكل ، أو ﴿بما كنتم تعملون﴾ على أن الباء زائدة كما في قول كثير عزة :

هنيئا مريئا غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

لأن ما استحلت فاعل هنيئا مريئا .

ثم أخبر عن حالهم فقال :﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ﴾ أي : مستندين فوقها ، والسرر : جمع سرير ﴿مَصْفُوفَةٍ﴾ أي : التي صفت ، والوسائد والفرش ، وقيل : متواصلة متقابلين ، لاينظر بعضهم إلى أقفاء بعض ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ أي : قرناهم ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ جمع عيناء ، واسعة العين ، والحور : شديدة البياض .

وفي البرهان : والعين : الواسعات الأعين في صفاء ونقاء ، ولذلك قيل لبقر الوحش : عين ، قال زهير :

بها العين والآرام يمشين خلفه وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

وإنما سميت حورا لنقائهن وبياضهن ، كما يقال : دقيق حواري إذا كان نقيا .اهـ

ففي هذا بيان أسباب النعيم على الترتيب ، فأول ما يكون المسكن ، وهي الجنات ، ثم الأكل والشرب ، ثم الفرش والبسط ، ثم الأزواج ، فهذه أمور أربعة ذكرها الله على الترتيب ، وذكر في كل واحد منها ما يدل على كماله .

وقوله :﴿هنيئا﴾ إشارة إلى خلوهما عما يكون فيهما من المفاسد في الدنيا [١].

ثم قال تعالى :﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي : بسبب إيمان عظيم رفيع المحل ، وهو إيمان الآباء ألحقنا بدرجاتهم ذرياتهم ، وإن كانوا لا يستأهلونها تفضلا على الآباء وعليهم ، ليكمل سرورهم وسرور الآباء [٢] وتنكير الإيمان للدلالة على أنه إيمان خاص عظيم المنزلة ، ويجوز أن يراد إيمان الذرية الداني المحل ، كأنه قيل : بشيء من الإيمان [٣] لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم .

قال الهادي عليه‌السلام : يريد سبحانه أن كل مؤمن اتبعته ذريته بإيمان مثل إيمانه ، ولقيت الله بذلك فإنهم يلحقون[٤] به في دار الثواب .

---

(١) من قوله : ففي هذا .. إلى هنا مثله في الرازي ٢٤٨/٢٨. قال السيد العلوي : والهنيء والمريء صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ ؛ إذا كان سائغا لا تنغيص فيه .

(٢) ومثله في الكشاف ، وعبارة الزمخشري (تفضلا عليهم وعلى آبائهم لتتم سرورهم ونكمل نعيمهم) .

(٣) فالتنكير في هذا الوجه الثاني للتحقير ، وفي الوجه الأول وهو قوله : على أنه إيمان خاص عظيم . للتعظيم .

(٤) عبارة المجموع (يلتقون) وهنا يلتحقون ، وهو الأنسب للآية .

قلت : ويؤيده ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ترفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه لتقر [بهم]عينه) ثم تلا الآية [١] .

قلت لأن شفقة الأبوة كما هي في الدنيا متوفرة كذلك في الآخرة ، ولهذا طيب الله تعالى قلوب عباده ، بأنه لا يولههم بأولادهم ، بل يجمع بينهم كما قال سبحانه :﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ﴾ قال عليه السلام : يريد وما أنتقصناهم مما وعدناهم على إيمانهم شيئا ، فأما قوله : ﴿ مِنْ عَمَلِهِمْ﴾ فإنما يقول : من جزاء عملهم ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ . اهـ

ومثل هذا في البرهان [٢] والبلغة ، والمعنى : ما نقصناهم من ثوابهم شيئا نعطيه الأبناء حتى يلحقوا بهم ، أي : ما نقصنا الآباء من ثواب عملهم بعد أن قرنا بهم ذرياتهم ؛ إنما ألحقناهم بهم على سبيل التفضل على الآباء وعلى الأبناء .

ثم قال سبحانه :﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ قال عليه السلام : فهو يخبر أن كل أمرؤ بعمله مرتهن ، وبكسبه مجازى ، خيرا فخيرا وشرا فشرا . اهـ

قال الواحدي : هذا عود إلى ذكر أهل النار ، فإنهم مرتهنون في النار ، وأما المؤمن فلا يكون مرتهنا ، قال تعالى :﴿كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين﴾ [٣] وهو قول مجاهد .

وقال الزمخشري : ﴿كل المرء بما كسب رهين﴾ عام في كل أحد مرهون عند الله بالكسب ، فإن كسب خيرا فك رقبته ، وإلا أغلق الرهن ،ومعنى ﴿رهين﴾ أي :

---

(١) ما بين القوسين من الكشاف . قال ابن حجر في تخريجه : أخرجه البزار ، وابن عدي ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن مردويه ، والثعلبي ، من طريق قيس بن الربيع ، عن عمرو بن مرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس مرفوعا ، قال البزار : تفرد قيس برفعه ، ورواه الثوري موقوفا ، ورواه الحاكم والبيهقي في الاعتقاد ، والطبري وابن أبي حاتم من طريق الثوري عن عمرو بن مرة به موقوفا .(الكشاف ٤/٤١١) .

(٢) لفظ البرهان : قوله عز وجل ﴿والذين آمنوا ..﴾ هو أن يكون الأبناء مثل طاعة الآباء فيجمع الله تعالى بينهم في الجنة ﴿وما ألتناهم من عملهم من شئ﴾ يعني : ما نقصناهم وقد مر الاستشهاد فيه ، أي : ما نقصنا الآباء بما أعطينا الأبناء ، ويجوز أن يكون معنى ألتناهم ظلمنا ، كما قال الشاعر :

أبلغ بني جحل عني مغلغلة جهد الرسالة لا ألتا ولا كذبا (البرهان ٣٥٩)

(٣) المدثر : ٣٨ .

محتبس ، كأن نفسه مرهونة عند الله بالعمل الصالح الذي هي مطالبة به كما يرهن الرجل عبده بدين عليه ، فإن خلص وإلا أوبقها[١] .

ومنه : الرهن لاحتباسه بالحق . شعر

وما كنت أخشى أن أكون رهينة لأحمر قبطي من القوم معتق[٢]

ثم قال تعالى :﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ﴾ من الإمداد وهي الزيادة ، أي : زدناهم وقتا بعد وقت ، والفاكهة : كلما يتلذذ به ﴿وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ على حسب ما يخطر ببالهم من طبيخ أو شوي فقد جمع أوصافا حسنة في قوله :﴿مما يشتهون﴾ لأنه لو ذكر نوعا فربما يكون ذكر النوع غير مشتهى عند بعض الناس فقال سبحانه : كل يعطى ما يشتهي .

ثم قال تعالى :﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي : خمرا ، والكأس : الزجاجة إذا كان فيها خمر ، وتسمى الخمر نفسها كأسا .

قال في البرهان : ﴿يتنازعون﴾ أي: يتعاطون ويتساقون ، وكل إناء مملوء من الشراب، يقال له : كأس[٣] ، وإذا فرغ الإناء لم يسم كأسا .

﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا﴾ أي : في شربها ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي : لا باطل الخمر ولا مأثمه .

قال الهادي عليه السلام : اللغو فهو الهذيان ، والكلام الذي يخرج ممن قد زال عقله ، فيلغو[٤] في لفظه عند سكره وشربه لخمره ، فأخبر الله أن خمر الآخرة لا تفسد منها العقول ، ولا ينطق شاربها باللغو والفضول . وأما قوله :﴿ولا تأثيم﴾ فهو : لا إثم على شارب خمر الآخرة [٥]. اهـ

---

(١) لفظ الزمخشري في ٤١١/٤ : ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ أي : مرهون ، كأن نفس العبد رهن عند الله بالعمل الصالح الذي هو مطالب به ، كما يرهن الرجل عبده بدين عليه ، فإن عمل صالحا فكها وخلصها ، وإلا أوبقها وقد نقلها المصنف بالمعنى .

(٢) ومثله في البرهان ٣٥٩ ، ولفظ البرهان :﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ أي : محتبس ، ومنه الرهن .. الخ .

(٣) زيادة في البرهان بعد قوله : يقال له كأس [والمنازعة كما قال الأخطل :

وشارب مرتج بالكأس نادمني لا بالحصور ولا فيها بسآر] وإذا فرغ الإناء .. إلى قوله : ولا مأثمه . اهـ (٣٥٩)

(٤) في المجموع (فيلغي) ص ٤٧٤.

(٥) في المجموع زيادة بعد قوله : خمر الآخرة [من الإثم والعقوبات ، وما أوعد الله عليها شاربها من النكرات] .

وقيل : معناه لا يفعلون ما يؤثم به فاعله، أي : ينسب إلى الكذب والشتم والفواحش، وإنما يتكلمون بالحِكَمِ [والكلام الحسن] متلذذين بذلك لأن عقولهم ثابتة[(١)] .

لا كفعل المنادمين في الدنيا على الشرب من السفه والعربدة وسقط الحديث ، وهو اللغو المنفي عن أهل الجنة .

ثم قال تعالى :﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ لخدمتهم ﴿غِلْمَانٌ لَهُمْ﴾ أي : مملوكون لهم إعلاما لهم بقدرتهم على التصرف فيهم بالأمر [والنهي] والاستخدام ، وهذا هو المشهور ، ويحتمل وجها آخر ، وهو أنه تعالى لما بيّن امتياز خمر الآخرة على خمر الدنيا بيّن امتياز غلمان الآخرة عن غلمان الدنيا ، فإن الغلمان في الدنيا إذا طافوا على السادة والملوك يطوفون عليهم لحظ أنفسهم ، إما لتوقع النفع ، أو لتوفر الصفح ، وأما في الآخرة فطوافهم عليهم متمحض لهم ولنفعهم ، ولا حاجة لهم إليهم ، والغلام الذي هذا شأنه له مزية على غيره ، وربما يبلغ درجة الأولاد ، ذكر هذا الرازي[(٢)] .

ثم وصفهم سبحانه فشبههم باللؤلؤ في صفاء الألوان فقال :﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ مستور في الصدف ، وهو أوعيته ؛ لأنه رطبا أحسن وأصفى منه بعد استعماله في الأيدي ، أو ﴿مكنون﴾ مخزون ؛ لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة .

قال في البرهان : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل فقيل [له]: هذا الخادم مثل اللؤلؤ المكنون فكيف المخدوم ؟ قال :(والذي نفسي بيده لفضل ما بينهم كفضل القمر على النجوم ليلة البدر) [(٣)].

---

(١) صاحب القيل هو الزمخشري ٤/٤١١، ٤١٢. ولفظ الزمخشري (أي : لا يتكلمون في أثناء الشرب بسقط الحديث وما لا طائل تحته كفعل المتنادمين في الدنيا على الشراب في سفههم . ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله ، أي : ينسب إلى الإثم لو فعله في دار التكليف من الكذب والشتم والفواحش ، وإنما يتكلمون بالحكم والكلام الحسن متلذذين بذلك ؛ لأن عقولهم ثابتة غير زائلة وهم حكماء علماء . (وقد نقله المصنف بتقديم وتأخير وتصرف يسير) .

(٢) انظر التفسير الكبير للرازي ٢٨/٢٥٤. وقد أصلحنا اللفظ منه .

(٣) وذكره أيضا في الكشاف عن قتادة ، قال ابن حجر في تخريجه : أخرجه عبد الرزاق ، أخبرنا معمر عن قتادة به ، قال : فذكره . وأخرجه الثعلبي من رواية الحسن مرسلا .

ثم قال تعالى :﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي : يتحادثون ، ويسأل بعضهم بعضا عن أحواله وأعماله ، وما استوجب به نيل ما عند الله تعالى ، قال ابن عباس : يتذاكرون ما كانوا فيه من الدنيا من الخوف والتعب . ذكره في التجريد .

وهذا إشارة إلى أنهم يعلمون ما جرى عليهم في الدنيا ويذكرونه ، وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم في الدنيا ، فتزداد لذة المؤمن من حيث يرى نفسه انتقلت من السجن إلى الجنة ، ومن الضيق إلى السعة ، ويزداد الكافر ألماً حيث يرى نفسه منتقلة من الشرف إلى التلف ، ومن النعيم إلى الجحيم .

ثم يقولون ما حكى الله عنهم ما كانوا عليه في الدنيا من الخشية والخوف حيث يقول سبحانه :﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾[1] .

قوله :﴿قبل﴾ يريد : قبل لقاء الله ، أي في دار التكليف ، وهذا جواب المسئول منهم

قال الهادي عليه‌السلام : هذا قول من المؤمنين عند ما ينجيهم الله في الآخرة من العذاب [المهين] يخبرون أنهم كانوا في الدنيا وهم بين أهليهم مشفقين من عذاب الله ، ومعنى ﴿مشفقين﴾ فهو : خائفين وجلين[2] ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بصرف ما كان منه وجلنا وإشفاقنا ، فبسبب ذلك أنعم علينا بما نحن فيه ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ أي : من عذاب السموم ، وإنما اشتق [السموم]من الأمر الشديد من وهج السموم ، والسموم : فهي النار ذات الحريق ، والحر المهيل ، ومنه اشتق اسم السموم للريح الحارة [الشديدة الحر] التي يلفح الوجه منها كمثل لفح وهج النار . اهـ

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ لقاء الله في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ إِنَّهُ﴾ أي : لأنه[3]﴿هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ البر : هو اللطيف المحسن ، والرحيم : العظيم الرحمة ، الذي إذا أطيع أثاب ، وإذا سئل أجاب .

---

(١) من قوله : هذا إشارة .. إلى هنا . مثله في الرازي ٢٨/٢٥٤، ٢٥٥.

(٢) في أصل هذا التفسير (هو : خائفين وجلين) وذلك بناء على أنه تفسير لقوله تعالى :﴿مشفقين﴾ . وفي المجموع : خائفون وجلون ، بناء على أنه خبر لهو . (انظر المجموع ٤٧٤) وما بين الأقواس من المجموع .

(٣) هذا بناء على قراءة من قرأ ﴿أنه هو البر الرحيم﴾ بفتح الهمزة .

ثم قال تعالى :﴿ فَذَكِّرْ﴾ يا محمد ، أي : اثبت على تذكير النـــاس ووعظهـــم ، ولا يثبطك قولهم : كاهن أو مجنون .

قال الهادي عليه‌السلام : هذا أمر من الله ، أمر نبيئه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن يذكر به ويدعو إليه، ثم أخبر أنه ليس كما يقول الكافرون فيه ، ويقذفونه به من الكهانة والجنون ، فنفى الله ذلك عنه فقال :﴿ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ بل [أنت] الرسول الكريم الأمين [1]. اهـــ أي : فما أنت بحمد الله وإنعامه عليك بالنبوة ورجاحة العقل بكـــاهن : وهو الذي يلقي عليه مسترقة السمع ، وهو يحتاج إلى فطنة ودقة نظـــر ﴿ولا مجنـــون﴾ وهو: المغطى على عقله ، وبين الفطنة والجنون تناقض ، فقولهم فيك متناقض ، وما أنت ـــ بحمد الله ـــ أحد هذين .

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ أم : منقطعة بمعنى همزة الإنكار وبل ، أي : بل أهو شـــاعر ، وقال أبو عبيدة : هي بمعنى بل فقط ، تقديره : يقولون إنه شاعر قولا بـــل يعتقدونـــه عقلا، ويدخل في عقولهم ذلك ، أي ليس ذلك قولا منهم من غير عقل ، بل يعتقـــدون كونه كاهنا ومجنونا ، ويدل عليه قراءة من قرأ ﴿بل هم قوم طاغون﴾ لكن بل هاهنـــا واضح ، وفي قوله :﴿بل تأمرهم أحلامهم﴾ خفي [2].

ومعنى ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ﴾ أي : ننتظر به ﴿رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ حوادث الدهر المقلقة للنفوس ، والريب : القلق ، قالوا : ننتظر به نوائب الزمان فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء .

قال الهادي عليه‌السلام : هذا إخبار من الله عما يقول الكافرون في رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كانوا يقولون : إنه شاعر لا رسول ، وكان بعضهم يقول لبعض : تربصوا به ريب المنون ، ومعنى تربصوا : فهو انتظروا وتوقعوا ريب المنون ، والريب : فهـــو الوقـــوع والنزول ، والمنون : فهو الموت ، فأمر الله نبيئه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن يقول لهـــم :﴿ قُـــلْ

(١) ما بين قوسي الزيادة من المجموع ٤٧٤.

(٢) ومثل هذا في الرازي ٢٥٧/٢٨، ولكن الرازي جعل كونها متصلة قولا راجحا ، والمنقطعة قولا ثانيا بعد أرجحية الأول ، أما المصنف فقد اكتفى بالقول الثاني ، ولم يتعرض لصحة كونها متصلة إلا آخرا عند نقله عن الزجاج .

﴿تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾ يقول : انتظروا [بي] فإني أنتظر بكم مثل ما تنتظرون بي ، أي : أنتظر هلاككم كما تنتظرون هلاكي على زعمكم ، وأعظم من ذلك ما أرجوه من نزول عذاب الله عليكم [فعذبوا في يوم بدر بالسيف] [1] .

ثم قال تعالى :﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا﴾ يقول : أليس يزعمون أن لهم أحلاما وعقولا ، فأحلامهم تأمرهم وتدلهم على المكابرة للحق وقول الباطل ﴿أم هم قوم طاغون﴾ مجاوزون الحد في العناد والمكابرة مع ظهور الحق ، قال عليه‌السلام : يريد أم هم قوم قد طغوا وبغوا عليك فينزل بهم البلاء على طغيانهم ويحل بهم النقم على كفرهم . اهـ

والإشارة ﴿بهذا﴾ إلى كفرهم وإنكار النبوة ، وهذه إشارة مبهمة ، أي : إلى هذا الذي يظهر منهم قولا وفعلا ، حيث يعبدون الأصنام والأوثان ، ويقولون الهذيان من الكلام .

ويحتمل أن هذا إشارة إلى قولهم : هو كاهن ، هو شاعر ، هو مجنون .

أو هو إشارة إلى التربص ، فإنهم لما قالوا : نتربص قال الله تعالى : أعقولهم تأمرهم بتربص هلاكهم ، فإن أحدا لم يتوقع هلاك نبيئه إلا وهلك ، وأم منقطعة بمعنى بل على قول [2] .

وقال الزجاج : هي متصلة ، والمعنى : أتأمرهم أحلامهم بترك القبول ممن يدعوهم إلى التوحيد ، أم يكفرون طغيانا وعنادا ، وقد ظهر لهم الحق .

ثم قال تعالى :﴿ أم يقولون تقوله﴾ أي : القرآن ، وهو متصل بقوله تعالى :﴿أم يقولون شاعر نتربص به﴾ وتقديره : أيقولون كاهن ، أم يقولون : شاعر ، أم تقوله .

قال عليه‌السلام : أم يقولون : إنه كذبه ، وادعى أنه من الله وليس من الله .

﴿بل لا يؤمنون﴾ يقول : بل هم لا يصدقون أنه من الله [3] .

فلكفرهم وعنادهم عابوه ، وبهتوه بهذه المقالات مع علمهم ببطلان قولهم .

ثم قال لبطلان جميع الأقسام :﴿ فليأتوا بحديث مثله﴾ أي : مثل القرآن في فصاحته

---

(١) ما بين القوسين ساقط في المجموع . ٤٧٥

(٢) ومثله في الرازي ٢٨/٢٥٧.

(٣) مجموع تفسير الأئمة ٤٧٥.

وحسن نظمه ﴿ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في أنك تقولته ، فليأتوا بحديث مثله ، والمعنى أنه إن كان شاعرا ففيكم الشعراء البلغاء ، والكهنة الأذكياء ، ومرتجل الخطب والقصائد، ومقتص القصص ، ولا يختلف الناقص والزائد فليأتوا بمثل ما أتى به ؛ لأنه إن كان منك فسيقدرون على أن يأتوا بمثل ما أتيت به،وإن كان من عندنا فلن يقدروا على ذلك أبدا؛ لأن قوله تعالى :﴿فليأتوا﴾ أمر تعجيز ، والفاء للتعقيب ، أي إن كان كذلك فيجب عليهم أن يأتوا بمثل ما أتى به ليصح كلامهم ويبطل كلامه .

ثم أشار سبحانه إلى دليل الأنفس فقال تعالى :﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي : أحدثوا وقدروا هذا التقدير الذي عليه فطرهم من غير مقدر : أي خالق ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ لأنفسهم .

والمعنى كما قال الهادي عليه‌السلام : أفلا يعتبرون فينظروا في خلقهم أمن شئ خلقوا ؟ أم من غير شئ جعلوا ؟ فإن نظروا فسنبين لهم من أثر صنعنا ما يدلهم على أن ما جئت به من عندنا ، ثم لينظروا أهم الخالقون أم غيرهم الخالق ! فإن أقروا بخلق غيرهم لهم ، وبأنهم لم يخلقوا أنفسهم فسيعلمون أن الذي أرسلك إليهم هو الخالق لهم [1]. اهـ

قال الرازي : إن قيل : ما وجه تعلق الآية بما قبلها ؟ نقول : لما كذبوا النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ونسبوه إلى الكهانة والجنون والشعر ، وبرأه الله من ذلك ، ذكر الدليل على صدقه إبطالا لتكذيبهم ، وبدأ بأنفسهم ، فكأنه يقول : كيف يكذبونه وفي أنفسهم دليل صدقه؛ لأن قوله في ثلاثة أشياء في التوحيد والحشر والرسالة ، ففي أنفسهم ما يعلم به صدقه ، وبيانه هو أنهم خلقوا ، وذلك دليل التوحيد لما بينا أن

(في كل شئ له آية تدل على أنه واحد) وقد بينا وجهه مرارا .

---

(١) مجموع تفسير الأئمة ٤٧٥ .

وأما الحشر فلأن الخلق الأول دليل على جواز الخلق الثاني وإمكانه ، ويدل عليه ما ذكرنا أن الله تعالى ختم الاستفهامات بقوله :﴿أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون﴾[1]

ثم أشار تعالى إلى دليل الآفاق فقال سبحانه :﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي : بل أخلقوهما فليس عليهم أمر ولا نهي ؟! ﴿بَل لَا يُوقِنُونَ﴾ لأنهم إذا سئلوا من خلقهم ؟ أو خلق السموات والأرض ؟ قالوا : الله ، فما لهم لا يوحدونه ويطيعونه إن كان قولهم ذلك صدقا ، بل هم شاكون فيما يقولون ؛ لأنهم لا يعلمون بمقتضاه .

وقيل : معناه لا يوقنون أصلا من غير ذكر مفعول ، يقال : فلان ليس بمؤمن ، وفلان [ليس بـ]ـكافر لبيان مذهبه ، وإن لم ينو مفعولا ، وحينئذ يكون تقديره أنهم ما خلقوا السموات والأرض ، ولا يوقنون بهذه الدلائل ، بل لا يوقنون أصلا وإن جئتهم بكل آية ، يدل عليه قوله تعالى بعد ذلك :﴿وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم﴾[2] وهذه الآية إشارة إلى دليل الآفاق . وقوله من قبل :﴿أم خلقوا﴾ دليل الأنفس ثم قال تعالى :﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ أي : خزائن رزقه حتى يرزقوا النبوة من شاؤا أو يرزقون أنفسهم ، فهم يستغنون عن الله تعالى ، فلذلك أعرضوا عنه ، أو خزائن علمه فهم يعلمون من هو أصلح [3].

قال الهادي عليه السلام : وكل هذا يريد سبحانه أنهم إن كانوا كذلك ، وكانوا يفعلون ذلك فالقول قولهم ، وإن كانوا ليسوا بفاعلين ذلك ، ولا قادرين عليه فليعلموا أن الفاعل لما عجزوا عنه هو الباعث لك ، والمنزل لما معك مما عجزوا عن أن يأتوا بمثله﴿ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ يريد : أم هم المستحصون لكل الأشياء الموكلون عليها ، الحافظون لقليلها وكثيرها ، فلن يكونوا كذلك أبدا ، ولن يكون غير الله كذلك ، ولن يعلمه ويحصيه سواه [4]. اهـ

---

(١) الطور : ٤٣ . انظر الرازي ٢٥٩/٢٨ . وأما القسم الثالث ، وهو الرسالة فهذه الآيات تدل على إثباتها ، ولهذا اكتفى المصنف بالتنبيه على المبدأ والمعاد اعتمادا على ما أسلفه من التفسير في بيان صدق الرسالة والمرسل .

(٢) الطور : ٤٣ .

(٣) ومثله في الرازي ، وما بين القوسين إصلاح منه (٢٦١/٢٨).

(٤) المجموع ص ٤٧٦.

وقرئ بالسين أيضا ، والمصيطر : المتسلط الغالب ، أي : هم الأرباب الغالبون ، حتى يدبروا أمر الربوبية ، ويبنوا الأمر على مشيئتهم ، أو فهم لا يؤمرون ولا ينهون .

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ منصوب إلى السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي : صاعدون فيه مستمعون إلى كلام الملائكة ، وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا بقدم هلاكك على هلاكهم ، أو ظفرهم في العاقبة دونك .

قال الهادي عليه السلام : وهذا مثل مثّله الله تبارك وتعالى يقول : ﴿أم لهم سلم﴾ يرقون فيه إلى السموات حتى يسمعوا[1] وحي الله الذي ينطق به ملائكته عنه ، فإذا كان ذلك كذلك عندهم ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ﴾ الذي استمع من السماء في السلم لهم ﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي : حجة تدل على ذلك وتبينه . اهـ

وذلك إشارة إلى لطيفة ، وهي أنه لو طلب منهم ما سمعوه ، وقيل لهم :﴿فليأت مستمعهم﴾ بما يسمع لكان للواجد أن يقول : أنا سمعت كذا وكذا فيفتري كذبا ، فقال: لا بل الواجب أن يأتي بدليل يدل عليه ، وإلا فهم مبطلون ، فالحجة : هي السلطان ، والمبين : بين ظاهر يصدق ما يدعي مستمعهم .

ثم قال تعالى :﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ إشارة إلى نفي الشرك وفساد ما يقولون بطريق آخر وهو أن المتصرف إنما يحتاج إلى الشريك لعجزه ، والله قادر فلا شريك له .

قال الهادي عليه السلام : هذا إنكار من الله لقولهم : إن الملائكة بنات الله ، فقال الله تبارك وتعالى ردا لقولهم : هل يكون ما قلتم من ذلك ، أو يجوز أن يصفيكم بالبنين ، ويدع لنفسه البنات لو كان كما تقولون تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وتقدس عما يقول[فيه] الكافرون تقديسا عزيزا كريما [2]. اهـ

فرضوا له بما لم يرضوا لأنفسهم ، ونسبوا إليه التوالد واستخفوا بهم وهم أشرف خلقه، فجعلوهم إناثا ، وهذا من الالتفات ، وهو يفيد هنا قوة الإنكار عليهم .

ثم قال تعالى :﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على التبليغ والهداية لهم إلى السعادة ﴿ فَهُمْ مِنْ

(١) في الأصل (يستمعون) وفي مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام (حتى يسمعوا) .

(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ، وما بين القوسين منه (٤٧٦) .

مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ أي : يثقلهم ، والمغرم : أن يلتزم الإنسان بما ليس عليه .

قال الهادي عليه‌السلام : يقول : أم هذا الصدود والمنافرة لك لأجر تسألهم إياه ، والأجر : فهو الأجرة على ما جاء به ﴿فهم من مغرم﴾ يقول : من شدة الغرم الذي ألزمتهم إياه ومعنى ﴿مثقلون﴾ فهو مفدوحون لا يطيقون ما كلفتهم ، ولا يجدون ما سألتهم فهم كارهون لأمرك ، لعظم ما كلفتهم من أجرك .

واعلم أن في سؤال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم حيث قال :﴿أم تسألهم﴾ و لم يقل : أم تسألون أجرا كما قال تعالى :﴿أم تقولون﴾ وقال تعالى :﴿أم يريدون كيدا﴾ إلى غير ذلك فائدتين إحداهما : تسلية قلب النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ؛ وذلك لأنهم لما امتنعوا من الاستماع ، واستنكفوا من الإتباع صعب على النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فقال له ربه : أنت أتيت بما عليك ، فلا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا فأنت غير ملوم ، وإنما تلام لو كنت طلبت منهم أجرا ، فهل طلبت ذلك فأثقلهم ؟ لا ، فلا حرج عليك إذاً .

ثانيهما : أنه لو قال : أم تسألون لزم نفي طلب أجر مطلقا ، وليس كذلك ، وذلك لأنهم كانوا يشركون ويطالبون بالأجر من رؤسائهم ، وأما النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فقال [له]: أنت لا تسألهم أجرا ، فهم لا يتبعونك ، وغيرك يسألهم وهم يسألون ويتبعون السائلين ، وهذا غاية الضلال [1].

ثم قال سبحانه :﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ قال الهادي عليه‌السلام : يقول ﴿أم عندهم الغيب فهم﴾ يعلمون كل شئ ، فيكون ما قالوا من علم غيبهم ، ومعنى ﴿يكتبون﴾ فهو : يعلمون . اهـ

وقال ابن قتيبة : ﴿يكتبون﴾ يحكمون بما تقولون ، ولعله من قولهم : كتب الله الصيام فَرَضَهُ وأوجبه [2].

---

(١) ومثله في الرازي ٢٦٤/٢٨ ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

(٢) ذكره الرازي في تفسيره ٢٦٦/٢٨، وذكر أن ابن قتيبة تمسك بقوله صلى‌الله‌عليه‌وآله : (اقض بيننا بكتاب الله) أي : حكم الله . ثم قال الرازي : وليس المراد ذلك ، بل هو من باب الإضمار معناه : بما في كتاب الله تعالى .

ثم قال تعالى :﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ قال عليه‌السلام : يقول أم هذا الذي يقولون من التكذيب وغيره مكر يمكرونه بك ، وكيد لك يريدونه . اهـ

قيل : هو كيدهم برسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وبالمؤمنين ، حين تشاوروا عليه في دار الندوة ، يريدون به قبيحا ، وكان قريش يجتمعون فيها للتشاور في المهمات ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إشارة إليهم ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ الذين يعود عليهم وبال كيدهم(١) .

قال الهادي عليه‌السلام : أي هم المعذبون الذي يقع عليهم الكيد ، ويخصهم دون غيرهم حتى يكون ما أملوا إيقاعه بك من الكيد عليهم ، وتكون أنت سالما من ذلك ، وهم فيه واقعون .

وفائدة تنكير الكيد الإشارة إلى وقوع العذاب من حيث لا يشعرون ، فكأنه قال : تأتيهم بغتة ، ولا يكون لهم [به] علم ، أو يكون إيرادا لعظمته(٢) .

ثم قال تعالى :﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ قال عليه‌السلام : يقول ـ أم لهم خالق [ومدبر] غير الله فهم إليه يلجؤن ، وبه يتعززون ، كلاّ ما لهم من إله غير الله الذي عليه يجترون ، وبه يكفرون(٣).

﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول : تعالى الله وتنزه عما يقولون ، ويفعلون من شركهم وكفرهم . اهـ

ثم قال تعالى :﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي : قطعة من السحاب ﴿سَاقِطًا﴾ عليهم لعذابهم ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ ولم يصدقوا أنه العذاب لشدة طغيانهم وعنادهم ، وهذا جواب قولهم :﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا﴾(٤) قال الهادي عليه‌السلام : والكسف هو العذاب النازل من السماء ، فأخبر سبحانه أنهم عند معاينتهم له لو عاينوه لقالوا : هذا سحاب مركوم ، والمركوم : فهو الذي بعضه على بعض ، فإذا رأوه توهموا أنه سحاب حتى يقع عليهم فيهلكهم ، وذلك مثل قوله سبحانه :﴿فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم﴾(٥) .

---

(١) القائل : هو الزمخشري . انظر الكشاف ٤/٤١٤.

(٢) ومثل هذه الفائدة في الرازي ٢٨/٢٦٧. وقد أصلحنا بعض الألفاظ منه .

(٣) انظر المجموع ٤٧٧، وما بين الأقواس منه .

(٤) الإسراء : ٩٢ .

(٥) الأحقاف : ٢٤ .

ويجوز أن يراد لو جئتهم بآية مما يقترحون لأنكروها ، فلو أسقط عليهم بعض السماء لقالوا : هذا سحاب مركوم .

قال الرازي : ووجه الترتيب فيه هو أنه تعالى لما بين فساد أقوالهم وسقوطها عن درجة الاعتبار أشار إلى أنه لم يبق لهم شئ من وجه الاعتذار ، فإن الآيات ظهرت ، والحجج بهرت[1] ، و لم يؤمنوا ، وبعد ذلك إن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا : سحاب ، أي : ينكرون الآية .

ثم قال تعالى :﴿ فَذَرْهُمْ﴾ أي : إذا تبين أنهم لا يرجعون فدعهم يتمكنوا ، أي : اتركهم ترك تخلية وخذلان .

وقال زيد بن علي عليه‌السلام ﴿ذرهم﴾ أي : يكذبوا ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي : يموتون . اهـ ومثله في البرهان .

قيل : يموتون عند نفخة إسرافيل الأولى نفخة الصعق لا نفخة البعث .

قال في التجريد: وفيه نظر ؛ لأنه لا يموت بها إلا الأحياء يومئذ [2].

وقيل : يوم يعذبون ، وهو يوم القيامة .

وقيل : معنى ﴿يصعقون﴾ يصيحون ويُعَوِّلون . إذا قرئ بنصب الياء والعين ، وإذا قرئ بغير ذلك فهو : يغشون .

وقيل : هذه الآية منسوخة بآية السيف [3] وهو ضعيف ، لأنه ليس المراد الأمر ، إنما المراد التهديد .

و﴿حتى﴾ للغاية ، فيكون كأنه تعالى قال : ذرهم إلى ذلك اليوم ولا تكلمهم ، ثم ذلك اليوم تجدد الكلام ، وتقول : ألم أقل لكم : إن الساعة آتية ، وإن الحساب يقوم ، والعذاب يدوم .

ثم لما قال :﴿يلاقوا يومهم﴾ وكل بر وفاجر يلاقي يومه أعاد صفة يومهم و[ذكر] ما

---

(١) في الرازي ، والحجج تميزت (٢٦٨/٢٨) .

(٢) القائل : هو الزمخشري ، وقد رد عليه صاحب تجريد الكشاف كما تراه هنا . الكشاف ٤١٥/٤.

(٣) قال هذا القول كثير من المفسرين ، ومنهم الإمام أبو الفتح الديلمي في تفسير البرهان (انظر البرهان ٣٥٩).

يتميز به من يوم المؤمنين فقال تعالى :﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ وهو يخالف يوم المؤمنين فإنه تعالى قال فيه :﴿يوم ينفع الصادقين﴾ والمعنى : لا يدفع عنهم كيدهم شيئا ، ولا ينفعهم شيئا من النفع ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم ، إما بشفاعة شفيع ، أو بنصر ناصر .

ثم قال تعالى :﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي : لهؤلاء الظلمة ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي : قبل يوم القيامة ، ويؤيده قوله تعالى :﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر﴾ (١) .

قال في البرهان : وهذا العذاب هو الانتقام الذي ينتقم به أهل المعاصي في دار الدنيا (٢).

قال في الكشاف : وهو القتل ببدر ، والقحط سبع سنين [وقيل] : عذاب القبر (٣).

وقيل : مصائبهم في الدنيا ، ويجوز أن يراد بـ﴿دون ذلك﴾ أخف منه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأنهم يقعون في ذلك لغفلتهم عن التدبر ، وأراد بالأكثر الكل جريا على عادة العرب حيث تعبر عن الأكثر بالكل ، كما قال تعالى :﴿أكثرهم بهم مؤمنون﴾ .

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يعني : فيما امتحنك به من مقاساة قومك ، وما حكم به عليك من دعائهم مع تمردهم ، وقوة شوكتهم .

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ قال في البرهان : فيه وجهان أحدهما : بعلمنا ، والثاني : بمرأى منا (٤) اهـ

وهذا كناية عن الحفظ ، وعن العلم أيضا ، أي : بحفظنا بحيث نراك ونحفظك منهم ، وجمعت الأعين لإضافتها إلى لفظ الجمع ، ألا ترى إلى قوله :﴿ولتصنع على عيني﴾ فأفردها لإضافتها إلى مفرد ، وقيل : بأعين رسلنا الذين وكلهم الله بحفظ الأعمال ، والعرب تقول : جعلنا عليهم عيونا يحفظون أعمالهم ، قال الشاعر :

فإن الذي كنتم تحذرون جاءت عيون به تعرب

---

(١) كون معنى ﴿دون ذلك﴾ أي : قبل يوم القيامة . ذكر الرازي أنه قول أكثر المفسرين الرازي ٢٧٣/٢٨.

(٢) السجدة : ٢١ . وزاد في البرهان بعد قوله : في دار الدنيا. وهو دون عذاب الآخرة . البرهان ٣٥٩.

(٣) لفظ الكشاف ٤١٥/٤ وهو القتل ببدر ، والقحط سبع سنين ، وعذاب القبر . وهنا زاد لفظ : [وقيل] عذاب القبر .

(٤) ولفظ البرهان (٣٥٩) : قوله :﴿فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ يعني فيما امتحناك به من مقاساة قومك ﴿فإنك بأعيننا﴾ فيه وجهان : أحدهما ــ بعلمنا ، والثاني : بمرأى منا .

قال الرازي : لما قال تعالى :﴿فذرهم﴾ كان [هاهنا] فيه إشارة [1] إلى أنه لم يبق في نصحهم نفع ، ولا سيما وقد تقدم قوله تعالى :﴿وإن يروا كسفا من السماء﴾ وذلك مما يحمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الدعاء عليهم ، كما قال نوح عليه السلام :﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾[2] وكما دعا يونس عليه السلام فقال الله تعالى : ﴿فاصبر﴾ وبدّل اللعن بالتسبيح ﴿وسبح بحمد ربك﴾ بدل قولك : اللهم أهلكهم ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم﴾[3] .

وقوله تعالى :﴿فإنك بأعيننا﴾ لما بين تعالى أنهم يكيدونه كان مما يقتضي في العرف المبادرة إلى إهلاكهم لئلا يتم كيدهم ، فقال : اصبر ولا تخف فإنك محفوظ بأعيننا . اهـ

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي : قل سبحان الله وبحمده ، وقيل : معناه إذا فرغت من وظائف الصلاة فقل : سبحان الله وقد ورد في الحديث (من قال عقيب الصلاة : سبحان الله عشر مرات ، والحمد لله عشر مرات ، والله أكبر عشر مرات كتب له ألف حسنة) .

قلت : والحديث في أمالي أبي طالب عليه السلام عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال :(خصلتان ـــ أو خلتان ـــ لا يحافظ عليهما عبد مسلم إلا دخل الجنة هما يسير ومن يعمل بهما قليل ، يسبح دبر كل صلاة عشرا ، ويحمد عشرا ، ويكبر عشرا فذلك خمسون ومائة باللسان ، وألف وخمس مائة في الميزان ، ويكبر أربعا وثلاثين إذا أخذ مضجعه ، ويحمد ثلاثا وثلاثين ، ويسبح ثلاثا وثلاثين ، فذلك مائة باللسان وألف في الميزان ، فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعقدهما بيده ، قالوا : يا رسول الله كيف هما يسير ، ومن يعمل بهما قليل ؟ قال : يأتي أحدكم الشيطان في منامه فينوِّمُه قبل أن يقولها ، ويأتيه في صلاته فيُذَكِّرُهُ حاجة قبل أن يقولها) .

وروى علامة العترة محمد بن القاسم عليه السلام في كتاب الهجرة: أن عليا قال لفاطمة(ع)

---

(١) ما بين القوسين غير موجود في الرازي ٢٨/٢٧٤ ولفظه : كان فيه الإشارة ، وبقية النص موجود في الرازي بلفظه .

(٢) نوح : ٢٦ .

(٣) القلم : ٤٨ .

إن الطحن واختدامك نفسك قد أجهداك ، فلو أتيت أباك فسألتيه خادما ، قالت: فانطلق معي ، قال : فأتينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت له ذلك ، فقال : ألا أدلكما على عمل خير لكما من ذلك ، تسبحان الله إذا آويتما فراشكما ثلاثا وثلاثين وتحمدانه ثلاثا وثلاثين ، وتكبرانه أربعا وثلاثين ، فتلك مائة على اللسان ، وألف في الميزان ، قال علي عليه السلام : فما تركتها منذ سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد كل صلاة فريضة وعند كل نوم ، فقال له رجل : ولا ليلة صفين يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ولا ليلة صفين) . اهـ

قال الإمام شرف الدين عليه السلام بعد أن روى هذا التسبيح في الأثمار عقيب الصلوات الخمس ما لفظه :(هذا الذكر الوارد فضله على هذا الترتيب مع التصور والتدبر لمعانيه الشريفة أعظم الأذكار ، وأشرف الأسرار) إلى آخر كلامه عليه السلام في تفسير هذا الذكر المأثور .

وقال في البرهان :﴿وسبح بحمد ربك﴾ فيه وجهان : سبح بحمد ربك ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من مجلسك ليكون خاتمة كلامك تسبيحا لله تعالى ، والثاني : أن يسبح إذا قام من نومه ليكون فاتحة عمله ذكر الله عز وجل .

﴿وَمِنْ اللَّيْلِ﴾ أي : بعض الليل ﴿فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ ﴿ومن الليل﴾ المراد به صلاة الليل ﴿وإدبار النجوم﴾ ركعتا الفجر . اهـ

ومعنى ﴿إدبار النجوم﴾ يريد إذا ولت وأدبرت ، وذلك في آخر الليل ، وعند الصبح ، أي : إدبار وقتها . وفي التجريد : قال ابن عباس : وصَلِّ حين تقوم من منامك عموما ، وقيل : من قائلتك وهي صلاة الظهر ، ومن الليل : فسَبِّحْهُ صلاة المغرب والعشاء ، وإدبار النجوم: صلاة الفجر ، قاله الضحاك ، وابن زيد .

وقيل : الركعتان قبل صلاة الفجر عن علي عليه السلام ، وقيل : التسبيح قول : سبحان الله وبحمده ، حين تقوم من نومك ، وقيل : حين تقوم إلى صلاتك ، قل : سبحانه اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ، ولا إله غيرك .﴿وإدبار النجوم﴾ إذا أدبرت للغروب ، أي : أدبر ما كان منها طالعا أول الليل ، والله أعلم .

قال الواحدي : إدبارها مغيبها بضوء الصبح .

سورة الذاريات

ستون آية مكية إجماعاً

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ قال الهادي إلى الحق عليه السلام : ﴿الذاريات﴾ هي الرياح التي تذرى ما تذري من التراب وغيره مما تحمله الرياح وتذروه ﴿ذروا﴾ فهو تأكيد لذروها ، وتعجب لأمرها ، وهو كقول الرجل : فلان يضرب ضربا شديدا ، وفلان جرى جريا.

﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ فهن : السحاب تحمل مطرا يوقرها ، أي : يثقلها ، والوقر فهو ما فيهن من الماء ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ فقد قيل : إنهن السفن تجري في البحر جريا ذا يسر ، أي : سهولة .

﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ فهي الملائكة التي تقسم رحمة الله بأمره وتسوق رزقه إلى خلقه من ماء السماء ، الذي به حياة جميع الأشياء [1]. اهـ

---

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٦٨.

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الشهيد زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام في قوله تعالى :﴿والذاريات ذروا﴾ معناه : الرياح ﴿فالحاملات وقرا﴾ معناه : السحاب ﴿فالجاريات يسرا﴾ معناه : السفن ﴿فالمقسمات أمرا﴾ يعني : الملائكة .

وقوله تعالى :﴿وإن الدين لواقع﴾ يعني : الحساب .

وقوله تعالى :﴿والسماء ذات الحبك﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام : معناه ذات الطرائق ، ويقال : ذات الإستواء والحسن ، وقوله تعالى :﴿يؤفك عنه من أفك﴾ معناه : يدفع عنه .

وقوله تعالى :﴿قتل الخراصون﴾ معناه : الكذابون . وقوله تعالى :﴿الذين هم في غمرة﴾ يعني : في شك .

وعن علي عليه‌السلام أنه قال وهو على المنبر : سلوني قبل ألا تسألوني ، ولـــن تســـألوا بعدي مثلي ، فقام ابن الكوّاء فقال : ما الذاريات ؟ فقال : الرياح ، قال : فالحـــاملات وقرا ؟ قال : السحاب ، قال : فالجاريات يسرا ؟ قال : الفلك، قال : فالمقسمات أمرا ؟ قال: الملائكة الذين يقسمون الأرزاق [1].

وقوله تعالى :﴿يسئلون أيان يوم الدين﴾ معناه : يوم الجزاء والحساب .

وقوله تعالى :﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ معناه : يعذبون . وقوله تعالى :﴿آخذين ما آتاهم ربهم﴾ معناه : الفرائض .

وقوله تعالى :﴿كانوا قبل ذلك محسنين﴾ أي : قبل أن تنزل الفرائض .

وقوله تعالى :﴿قليلا من الليل ما يهجعون﴾ معناه : ينامون. وقوله تعالى :﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾ معناه : يصلون

وقوله تعالى :﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه‌وعلى‌آبائه‌الصلاة‌والسلام: معناه السائل الذي يسأل بكفه ، والمحروم : الذي لا يسأل الناس شيئا .

وقوله تعالى :﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه‌وعلى‌آبائه‌الصلاة‌والسلام : إلى خلقكم .

وقوله تعالى :﴿وفي السماء رزقكم﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه‌وعلى‌آبائه‌الصلاة‌والسلام : معناه المطر ﴿وما توعدون﴾ يوم القيامة من الثواب والعقاب .

وقوله تعالى :﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه‌وعلى‌آبائه‌الصلاة والسلام : كان كرامتهم أنه قام بنفسه يخدمهم .

وقوله تعالى :﴿فراغ إلى أهله﴾ معناه : عدل إليهم ، وقوله تعالى :﴿بعجل سمين﴾ معناه : مشوي .

وقوله تعالى :﴿فأوجس منهم خيفة﴾ معناه : أضمر خوفا .

وقوله تعالى :﴿فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه‌وعلى‌آبائه‌الصلاة والسلام معناه : ضربت بيدها على وجهها . وقوله تعالى :﴿عجوز عقيم﴾ معناه : لا تلد .

وقوله تعالى :﴿فما خطبكم﴾ معناه : فما أمركم . وقوله تعالى :﴿من طين مسومة﴾ معناه : معلمة .

وقوله تعالى :﴿فتولى بركنه﴾ معناه : بجانبه وناحيته . وقوله تعالى :﴿أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ معناه : التي لا تلقح

وقوله تعالى :﴿والسماء بنيناها بأيد﴾ معناه : بقوة .

وقوله تعالى :﴿والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾ معناه : بسطناها . والماهد : الباسط .

وقوله تعالى :﴿أتواصوا به﴾ معناه : تحاثوا عليه .

وقوله تعالى :﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ معناه : إلا ليقروا بالوحدانية .

وقوله تعالى :﴿فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم﴾ معناه : نصيبا ، وقال : سجيلا ، وقال : سبيلا

(١) وذكر هذه الرواية عن أمير المؤمنين ـــ الحاكمُ الجشمي في تفسيره ، ثم قال بعده : وعن ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد مثل ذلك .

وقال في البرهان : يعني الملائكة تنزل بما قسم الله عز وجل لخلقه من الفرائض والحدود والأحكام ، فجبريل : هو صاحب الوحي ، وميكائيل وكله الله عز وجل بالرحمة والمطر، وعزرائيل وكله الله بقبض الأرواح [1] . اهـ

ثم قال تعالى :﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ قال الهادي عليه السلام : هذا جواب قسم ما أقسم الله به من هذه الأشياء المتقدمة إعظاما لها ، أي : أقسم بالرياح فبالسحاب ، فبالفلك ، والفاء للتعقيب ، فأخبر أن وعده حق ، وأن قوله في ذلك كله صدق .

ومعنى ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ فهو : الجزاء ، والجزاء هو يكون في يوم الدين ، ويوم الدين فهو يوم حشر العالمين ، وفي ذلك (اليوم) [2] يقع الدين ، [والدين فهو ما] [3] ذكرنا أنه الجزاء للخلق على أفعالهم ، يجازى ويدان أهل المعاصي بعذاب النيران ، ويدان ويجازى أهل الإيمان بالثواب الكريم في الجنان ، ومعنى [قوله]﴿لواقع﴾ فهو:نازل بأهله، حَالٌّ بمستأهله .

ثم قال سبحانه :﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ الحبك : فهو الاستواء والانحباك ، والمنحبك من الأشياء : فهو المعتدل المستوي ، الذي لا اختلاف فيه ولا افتراق . اهـ

وقيل : الحبك الطرائق ، مثل حبك [الرمل و] الماء إذا ضربته الريح ، والدرع محبوكة ؛ لأن حلقها [مطرق] طرائق ، ويقال : إن خلقة السماء كذلك [4] .

وفي التجريد عن الحسن : حبكها نجومها ، والمعنى : أنها تزينها كما تُزَيِّنُ المُوَشَّى طرائقُ الوشي [5] اهـ

﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ قيل : قولهم في الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تارة يقولون : إنه أمين ، وأخرى : إنه كاذب ، وكاهن ، وساحر ، وشاعر ، ومجنون ، قال الرازي :

---

(١) البرهان ٣٥٦.

(٢) ما بين القوسين ساقط في المجموع .

(٣) ساقط من المصابيح ، وثابت في المجموع .

(٤) ومثله في الكشاف ٣٩٦/٤ ، وما بين القوسين منه .

(٥) وانظر الكشاف أيضا ١٩٢/٤.

وهذا محتمل لكنه ضعيف إذ لا حاجة إلى اليمين على هذا ؛ لأنهم كانوا يقولون ذلك من غير إنكار حتى يؤكد بيمين [١]. اهـ

وقيل في القرآن : شعر ، سحر ، أساطير الأولين .

وقيل : منكم مصدق ومكذب ، ومقر ومنكر [٢].

وقال الهادي عليه‌السلام : يقول : إنكم لفي آراء ، وأقاويل ومذاهب مختلفة ، لا تجتمعون على الحق ، ولا تقولون ما يجب [٣] من كلمة الصدق ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ فهو : يعجز عن قبول [٤] حقه واتباع صدقه من عجز ، والعاجز هاهنا عن قبوله : فهو المكذب بما يسمع من قيله .

قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : معناه يصرف عنه من صرف ، قال الشاعر :

إن تك عن حسن الصنيعة مأفو كا ففي آخرين قد أفكوا

أي : صرفوا [٥].

---

(١) انظر الرازي ٢٨/١٩٧.

(٢) القولين في الكشاف ، ونسب القول الثاني إلى قتادة (الكشاف ٤/٤٩٦).

(٣) في المصابيح (بما يجب) ، وفي مجموع الأئمة (ما يجب) . (المجموع ٤٦٨).

(٤) في المصابيح (قبول) ، وفي مجموع تفسير الأئمة (قول) والصواب ما في نسخة المصابيح .

(٥) ذكره الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام في تفسيره : ومما جاء فيه أيضا : تفسير غريب سورة الذاريات

﴿والذاريات﴾ هن الرياح . والحاملات وقرا : هو السحاب ، والوقر : هو الحمل الثقيل ، ومعنى ﴿والسماء ذات الحبك﴾ أي : ذات الطرائق والطباق ، قال الشاعر :

مكلل بأصول النبت تنسجه ريح الجنوب بضاح ما به حبك

وقال آخر : تلف بناعم المتنين جعدا على الأرداف كما حبك رداما

﴿يؤفك عنه من أفك﴾ هو : يصرف عنه من صرف ، قال الشاعر :

إن يك عن أحسن الصنيعة مأ فوكا ففي آخرين قد أفكوا

أي : صرفوا ﴿قتل الخراصون﴾ أي : لعن الذين يخرصون ويظنون ، يعني : بغير يقين يتوهمون ، قال الشاعر :

ولقد تعلم القبائل أنـا عصبة الجود غير ظن اختراص

وهذا الاختراص لا يجوز في دين الله ، وغير ذلك مما لا يحل وهو الذي لا يجوز من الظن فاعلم ذلك . ومعنى ﴿في

غمرة ساهون﴾ أي : في جهل قد غمرهم فهم لاهون . ومعنى ﴿أيان يوم الدين﴾ أي : متى يوم الجزاء، قال الشاعر :

أيان تدفع بالرماح عليهم　　يا صاح قبل منيتي وذهابي

أي : متى . ﴿على النار يفتنون﴾ أي : يعذبون . ومعنى ﴿قليلا من الليل ما يهجعون﴾ أي : قليلا ما يرقدون ، قال الشاعر : سمعن صويتا بعد ما نمن هجعة　　من الليل فاقلولت بهن المضاجع

أي : نومة من الليل ، والمحروم : هو الذي لا يسأل أحدا من الناس حياء وعفة . ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ الآيات: العلامات والأمارات والدلالات ، والعرب تقول إذا أرسلت إلى بعض إخوانها : قل لفلان يفعل ذا وذا بآية كذا وكذا، أي : بعلامة كذا وكذا ، قال الشاعر :　　(بآية ما جنيت لنا الخزامى)

وقال آخر :　　بآية ما أني مررت عليكم　　بأسفل وادي الدوم والثوب يغسل

﴿فراغ إلى أهله﴾ أي : انقلب عنهم ومال ﴿فجاء بعجل سمين﴾ فالعجل : هو التبيع من البقر ، ومعنى ﴿فأوجس منهم خيفة﴾ أي : حصل على قلبه خوف ﴿في صرة﴾ أي : في صيحة ، وقيل : في جماعة نساء ، وكل ذلك يمكن . والله أعلم ومعنى ﴿فصكت وجهها﴾ أي : وضعت يدها على وجهها تعجبا وفكرا ﴿وقالت عجوز عقيم﴾ أي : عاقر . ومعنى قوله :﴿قال فما خطبكم﴾ أي : ما خبركم وما شأنكم ؟ ومعنى قوله :﴿حجارة من طين﴾ أي : لون من الطين ، وهي حجارة في القسوة ﴿مسومة﴾ أي : بسوم وعلامات ، قال الشاعر :　　حرداء صافية الأديم مسومة

ومعنى قوله :﴿غير بيت من المسلمين﴾ البيت : هو القبيلة من القبائل ، قال الإمام المرتضى لدين الله يمدح أباه الهادي إلى الحق صلوات الله عليهما :

من آل محمد في خير بيت　　منيف سمكه فوق السحاب

﴿فتولى بركنه﴾ أي : بجانبه معرضا عن الحق . ومعنى ﴿وهو مليم﴾ أي : مذنب ، يعني فرعون ، قال الشاعر :

(ولكن المسيء هو المليم)

ومعنى ﴿الريح العقيم﴾ هي الريح التي لا تلقح شجرا ، ولا تسوق مطرا ، ولا تجلب خيرا ، وأصل العقيم : هو المنع ، والعرب تقول : عقمنا الأرض من السيل ، أي : سددناها ومنعناها ، وكذلك هذه الريح مانعة للرخاء والحياة ، عاقمة لذلك . ومعنى ﴿كالرميم﴾ أي : كالعيدان المنكسرة من العلف ، قال سيد العابدين عليه السلام :

فأضحوا رميما في التراب وأقفرت　　مجالس منهم عطلت ومقاصد

﴿فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون﴾ يعني الصيحة التي حلت بهم . ومعنى ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾ أي : بقوة . والموسع : هو الغني ، ولم يرد سعة السماء في هذه الموضع ، ومعنى قوله :﴿ففروا إلى الله﴾ أي : اهربوا إليه والمتين في اللغة هو القوي ، قال الشاعر :

خطاطيف حجن في حبال متينة　　تمد بها أيد إليك نوازع

﴿وإن للذين ظلموا ذنوبا﴾ أي : نصيبا ، قال الشاعر :

وفي كل حي قد حظيت بنعمة　　فحق لشاس من نداك ذنوب

قال في الكشاف : والضمير في ﴿عنه﴾ للقرآن أو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، أي : يصرف عنه من صرف الصرف الذي لا [صرف] أشد منه وأعظم ، كقوله : لا يهلك على الله إلا هالك [1]...ويجوز أن يكون الضمير لما توعدون أو للدين ، أقسم بالذاريات على أن وقوع أمر القيامة حق ، ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه ، فمنهم شاك ومنهم جاحد ، ثم قال:﴿يؤفك﴾ عن الإقرار بأمر القيامة من هو المأفوك [2]

وعن زيد بن علي عليه السلام ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي : يصرف الناس عنه من هو مأفوك في نفسه ، وعنه أيضا ﴿يؤفك [عنه] من أفك﴾ أي : يدفع ويصرف الناس عنه من هو أفّاك ، أي : كذّاب [3]. اهـ

ثم قال تعالى :﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ قال الهادي عليه السلام : معناه : لُعن الخرّاصون ، والخرّاصون : فهم الكذّابون [4] المتقوّلون على أهل الحق

أي : نصيب . وقيل : إن الذنوب أيضا هو الدلو ، قال الشاعر :

أهرق لها من قرقر ذنوبا ... إن الذنوب ينفع المغلوبا

وقال آخر : إني إذا نازعني شريب ... فلي ذنوب وله ذنوب

(١) قال السيد العلوي في حاشيته على الكشاف : قوله : يصرف عنه من صرف الصرف الذي لا أشد منه (الانتصاف) إنما دل النظم على هذا ؛ لأن قوله :﴿يصرف عنه﴾دال على من صرف ، فكأنك قلت : لا يثبت الصرف في الحقيقة إلا لهذا ، وكل صرف دونه كلا صرف ، وقيل : يصرف عن القرآن من يثبت له الصرف الحقيقي ، وذلك من إطلاق صرف ، وجعله بمنزلة يعطي ويمنع ، وقلت : ولعل ذلك استفيد من الإبهام ، في قوله :﴿من أفك﴾ فإن معناه : من أفك الإفك التام العظيم ، ولولا هذا التقدير لم يفد قوله :﴿من أفك﴾ لأنه بمنزلة يضرب من ضرب ، إذا لم يحمل على المبالغة ، فإنه لا يفيد ، ومعنى (لا يهلك على الله إلا هالك) الهلاك الكلي ، الذي لا هلاك فوقه . وقوله : (ويجوز أن يكون الضمير لما توعدون) عطف على قوله : الضمير للقرآن . حاشية العلوي خ ٢٩١، ٢٩٢.

(٢) في المصابيح (عن الإقرار بيوم القيامة) وما أثبتناه هو ما في الكشاف . انظر الكشاف ٣٩٦/٤ ، وموضع النقط حذف من كلام الكشاف لم يذكره المصنف ، وفي الكشاف وجه آخر : وهو أن يرجع الضمير إلى ﴿قول مختلف﴾ وعن مثله في قوله : ينهون عن أكل وعن شرب ، أي : يتناهون في السمن بسبب الأكل والشرب ، وحقيقته يصدر تناهيهم في السمن عنهما ، وكذلك يصدر إفكهم عن القول المختلف .

(٣) انظر تفسير الإمام زيد عليه السلام المطبوع ٣٠٣ ، ٣٠٥ والمخطوط ٢٩٤، ٢٩٦.

(٤) في المجموع (الكاذبون) . وما في المصابيح هو الموافق للفظ الآية .

بالباطل ، الذين ينطقون فيهم بالمنكر ما ليس فيهم ، ويقولون بالمحال والكذب عليهم وقيل : هو دعاء عليهم بالقتل ، ثم جرى مجرى لعن وقبح [١].

﴿في غمرة﴾ أي : جهل يغمرهم ﴿ساهون﴾ أي : في غفلة،ويجوز جهالة ، والمعنى: أنهم معرضون غافلون عما يجب عليهم في تكذيبهم ، وعن ما هو نازل بهم من العقوبة على كفرهم ، وقيل : ساهون عما أمروا به .

وقوله :﴿ساهون﴾ يحتمل أن يكون خبرا بعد خبر ، والمبتدأ هو قوله :﴿هم﴾ وتقديره: هم كائنون في غمرة ساهون ، كما يقال : زيد جاهل جائر لا على قصد وصف الجاهل بالجائر [بل الإخبار بالوصفين] عن زيد

ويحتمل أن يكون ﴿ساهون﴾ خبرا ، و﴿في غمرة﴾ ظرف [له]، كما يقال : زيد في بيته قاعد ، يكون الخبر هو القاعد لا غير ، وفي بيته لبيان ظرف [القعود ، وكذلك ﴿في غمرة﴾ لبيان ظرف السهو الذي يصحح وصف]المعرفة بالجملة [٢] .

ثم قال تعالى :﴿يَسْأَلُونَ﴾ فيقولون :﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ قال الهادي عليه‌السلام : هو إخبار من الله عن قولهم ، وذلك أنهم كانوا يقولون : أيان يوم الدين ، ومعنى ﴿أيان﴾ أي : متى يوم الدين ، وأي يوم يوم الدين الذي تصف يا محمد ؟ والدين : فهو الجزاء ، فقال الله تبارك وتعالى :﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ يريد : هذا اليوم الذي يسألون عن وقته ، ويكذبون بك وبه هو يوم هم في النار يفتنون ، فقامت على مقام في ، ومعنى ﴿يفتنون﴾ فهو : يعذبون ، فأخبر [٣] الله بأن يوم الدين يوم عذابهم في النار وخزيهم ، وحين ملاقاتهم لسوء فعلهم . اهـ

---

(١) وانظر الكشاف أيضا ٣٩٧/٤، والحاكم الجشمي خ .

(٢) ومثل هذا الكلام في تفسير الرازي ١٩٨/٢٨ ، وقد صححنا اللفظ منه ، وما بين أقواس الزيادة منه ، واللفظ فيه (جائز) من الجواز

(٣) في المجموع (فأخبرهم) ٤٦٩.

وجواب السؤال ﴿يوم هم﴾ أي : يقع يوم هم [١]، وقرئ بالرفع ، أي : هو يوم هم [٢].

قوله :﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ في محل [النصب] [٣] ، أي : مقولا هذا القول .

﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في الدنيا على وجه التكذيب ﴿هذا﴾ مبتدأ ، و﴿الذي﴾ خبره ، أي : هذا العذاب هو الذي كنتم به تستعجلون ، ويجوز أن يكون ﴿هذا﴾ بدلا من ﴿فتنتكم﴾ أي : ذوقوا هذا العذاب [٤].

ثم لما بين حال المغترين المجرمين ــ بيّن حال المحق المتقي فقال تعالى :﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ الجنة : البستان ، والجنة : اسم لدار الثواب كلها ، وهي مشتملة على جنان كثيرة ، والعيون : الأنهار ، والمتقي : من يتقي المحارم مع قيامه بالطاعات ﴿آخذين ما آتاهم ربهم﴾ أي قابلين راضين بما أعطاهم في الجنة ؛ لأن جميعه حسن طيب ، يعني أنه ليس فيما آتاهم إلا ما هو متلقي بالقبول مرضي غير مسخوط .

وقال زيد بن علي عليه‌السلام : ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ معناه : الفرائض ، ومثله في البرهان [٥] .

وقيل : معنى ﴿آخذين﴾ أي : قابضين ما آتاهم شيئا فشيئا ولا يستوفونه بكماله لامتناع استيفاء ما لانهاية له [٦].

---

(١) وحينئذ كما أنهم لم يسألوا سؤال مستفهم طالب لحصول العلم ، كذلك لم يجبهم جواب مجيب معلم مبين حيث قال :﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ وجهلهم بالثاني أقوى من جهلهم بالأول ، والكلامان في صورة سؤال وجواب ، ولا الأول يريد به السؤال ، ولا الثاني يريد به الجواب ، فقد قابل استهزاءهم بالإيعاد ، لا على وجه الإتيان بالبيان .

(٢) قال الزجاج : ﴿يوم هم على النار﴾ لفظه نصب ، ومعناه معنى الرفع ؛ لأنه مضاف إلى جملة ، تقول : أعجبني يوم أنت قائم ، ويوم أنت تقوم .

(٣) في الأصل (في محل الرفع) والصواب في محل النصب على الحال كما ذكره الزمخشري ٣٩٧/٤ . أو أنه مقولا للقول المضمر .

(٤) وانظر الكشاف ٣٩٧/٤ .

(٥) انظر تفسير الإمام زيد بن علي المتقدم ، والمطبوع ٣٠٤، وانظر البرهان خ ٣٥٦.

(٦) صاحب القيل هو الرازي (انظر تفسير الرازي ٢٨/٣٠٠) .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ العطاء في الدنيا دار التكليف ، وقيل : قبل أن تنزل الفرائض، وقيل : قبل دخولهم الجنات[1] ﴿مُحْسِنِينَ﴾ في أعمالهم .

ثم فسر الإحسان بقوله :﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي : بعضا قليلا من الليل ﴿مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي : قليلا ما يرقدون ، قال الشاعر :

سمعن صوتا بعدما نُمْنَ هجعة من الليل فاقلولت بهن المضاجع

أي : نومة من الليل ، والمراد بذلك أنهم كانوا يصلون صلاة الليل ، و﴿ما﴾ زائدة ، أي: كانوا يهجعون قليلا من الليل ، ويجوز أن تكون [ما]مصدرية ، أو موصولة[2] والهجوع : النوم اليسير ، والهجوع أيضا : السهر ، فهو من الأضداد ، ومنهم من يقف على ﴿قليلا﴾ ويبتدئ ﴿من الليل ما يهجعون﴾ أي : كانوا قليلا من الناس ، ومثله في البرهان[3] .

---

(١) ذكر الحاكم الجشمي بأن الوجه الأول للحسن ، ولم ينسب الثاني إلى معين ، ونسب الوجه الثالث ، وهو قبل دخولهم الجنات إلى سعيد بن جبير .

(٢) قال السيد العلوي : (الانتصاف) جعلها مصدرية يوجب أن يكون قليلا واقعا على الهجوع ، لأنه فاعله ، وقوله : ﴿من الليل﴾ لا يكون صفة للقليل ، ولا بيانا له ، ولا من صلة المصدر لتقدمه عليه ، ولا كذلك على أنها موصولة ، فإن قليلا حينئذ واقع على الليل ، كأنه قال : قليلا المقدار الذي كانوا يهجعونه من الليل ، فلا مانع أن يكون من الليل بيانا للقليل ، وهذا أيضا ذكره الزجاج ، ومنع الزمخشري نصب قليلا بيهجعون ، لأنه لا يتقدم معمول ما بعد النفي عليه، قال في الانتصاف : ويفسده من حيث المعنى أن طلب قيام جميع الليل غير مستثنى عنه وقت الهجوع ، ولم يرد به الشرع ، وقال الزجاج : المعنى كانوا يهجعون قليلا من الليل ، أي : ينامون قليلا منه ، وجائز أن تكون ما مؤكدة لغوا ، وجائز أن يكون ما بعدها مصدرا ، المعنى :قليلا من الهجوع هجوعهم ، وقال أبو البقاء : ﴿كانوا قليلا﴾ في خبر كان وجهان : أحدهما ﴿ما يهجعون﴾ وفي ما على هذا وجهان ، أحدهما : أنها زائدة ، أي : كانوا يهجعون قليلا ، وقيل : نعت لظرف أو مصدر ، أي : زمنا قليلا ، وهجوعا قليلا ، والثاني : هي نافية ، ذكره بعض النحويين ، ورد لأن النفي لا يتقدم ما في خبره ، والثاني : أن قليلا خبر كان ، وما مصدرية ، أي : كانوا قليلا هجوعهم ، كما تقول : كانوا يقل هجوعهم ، ويجوز على هذا أن ﴿ما يهجعون﴾ بدلا من اسم كان بدل الاشتمال ، و﴿من الليل﴾ لا يجوز أن يتعلق بيهجعون على هذا لما فيه من تقديم معمول المصدر عليه ، وإنما هو منصوب على التبيين ، ومتعلق بفعل محذوف يفسره يهجعون .

(٣) انظر البرهان ٣٥٧ .

ثم قال تعالى :﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي : هم الإخصَّاءُ بتعقيب آخر ليلهم بالاستغفار ، أي : يستغفرون من ذنوبهم ، ويصلون في الأسحار ، والسحر : آخر الليل، وفيه مبالغات ، لفظ الهجوع ، وقوله :﴿قليلا﴾ و ﴿من الليل﴾ وقت السبات والراحة ، وزيادة ما المؤكدة [1]لذلك وصفهم بأنهم يحيون الليل متهجدين ، فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار ، كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم ، وكانوا يقدمون العمل الصالح أول الليل ، ويدعون بعده آخر الليل لتفتح أبواب السماء للعمل فيستجاب الدعاء .

وفيه فائدة أخرى ، وهي أنه تعالى لما عطف ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾ على قوله : ﴿كانوا قليلا من الليل ما يهجعون﴾ فلو لم يؤكد معنى الإثبات بكلمة هم لصلح أن يكون معناه : وبالأسحار قليلا ما يستغفرون ، تقول : فلان [قليلا]ما يؤذي وإلى الناس محسن ، قد يفهم أنه قليل الإيذاء ، قليل الإحسان ، فإذا قلت : قليلا ما يؤذي ، وهو يحسن زال ذلك الفهم .

والاستغفار يحتمل وجوها أحدها : طلب المغفرة بالذكر بقولهم : ربنا اغفر لنا .

الثاني : طلب المغفرة بالفعل ، أي : بالأسحار يأتون بفعل آخر طلبا للغفران ، وهو الصلاة أو غيرها من العبادات .

الثالث : وهو أغربها الاستغفار من باب استحصد الزرع إذا جاء وقت حصاده ، فكأنهم بالأسحار يستحقون المغفرة ، ويأتيهم أوان المغفرة [2].

ثم قال تعالى :﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ أي : نصيب قال في البرهان : يعني حق الله عزوجل ، ثم ما تبرع الإنسان بعده ما يصل به رحما ، أو يقري به ضيفا ، أو يحمل به

---

(١) قال السيد العلوي : (الانتصاف) قال المصنف :وفي الآية مبالغات : لفظ الهجوع ، وهو القليل من النوم ، وقوله : ﴿قليلا﴾ وقوله :﴿من الليل﴾ ومعها زيادة ما المؤكدة ، وفي الوجه الأخير نظر فإن ما تؤكد الهجوع ، وتحققه ، إلا أنها تجعله في معنى القلة ، الإنصاف : بل تؤكد ما سبقها ، وهو قوله :﴿قليلا﴾ لأن الهجوع قليل ، ويحقق أنه قليل الطيبي : الظاهر أنها تؤكد المضمون ؛ لأن الإشارة بقوله لذلك ، إلى جميع ما سبق مما يعطيه معنى الهجوع من قلة النوم ولفظ قليل مما وضع له ، وتخصيص ذكر الليل ، من إرادة الراحة والقرار : القليل من النوم .

(٢) ومثل هذا المبحث في الرازي ٢٨/٢٠١ــ ٢٠٥ .

كَلاً ، أو يعين به محروما [1] .

﴿لِلسَّائِلِ﴾ الذي يسأل الناس ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ الذي لا يسأل أحدا من النـــاس حيـــاء وعفة فيحرم الصدقة لتعففه .

وقيل : الذي لا ينمو له مال ، وقيل : المحارف الذي لا يكتسب .

والمعنى في ذلك : أن (مالهم) ظرف لحقوقهم ، فإن كلمة (في) للظرفية ، لكن الظرف لا يطلب إلا للمظروف فكأنه تعالى قال : هم لا يطلبون المال ولا يجمعونه إلا ويجعلونه ظرفا للحق ، ولا شك أن المطلوب من الظرف هو المظروف [والظرف مالهم ، فجعل مالهم ظرفا] للحقوق ، ولا يكون فوق هذا مدح [2] .

ثم قال تعالى :﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ أي : علامات ودلائل على الصـــانع ، وقدرته وعجيب تدبيره وحكمته ، في برها وبحرها وســـهلها وجبلهـــا ، واختـــلاف أشجارها وثمارها في اللون والريح والطعم ، وغير ذلك مما لا يحصى ، والآيات : فهـــي العلامات والأمارات ، والعرب تقول إذا أرسلت إلى إخوانها : قل لفلان يفعـــل ذا وذا بآية كذا وكذا ، أي : بعلامة كذا وكذا ، قال الشاعر : (بآية ما جنيت لنا الخزامـــى) وقال آخر:

بآية ما أني مررت عليكما   بأسفل وادي الدوم والثوب يغسل [3]

وخص الموقنين لأنهم المنتفعون بها ، يعني : فيها عظات للمعتبرين من أهل الإســـلام واليقين ، الموحدين النظار ، المبرزين في آيات الأرض الموصلة إلى اليقين ، فهم نظـــارون بعيون باصرة ، وأفهام نافذة ، كلما رأوا آية عرفوا وجه تأملها فازدادوا إيمانا مع إيمانهم، وإيقانا إلى إيقانهم .

---

(١) انظر البرهان ٣٥٧ ، وقال بعد ذلك : وأما السائل : فهو الذي يسأل الناس ، والمحروم : المحارف الذي لا يكـــاد يتيسر له معيشته مع كثرة طلبه .

(٢) ومثل هذا بلفظه في الرازي ، وقد أصلحنا اللفظ منه . (الرازي ٢٠٦/٢٨) .

(٣) ومثل هذا عن الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام (أنظر أول السورة) .

يحتمل أن يكون هذا متعلقا بأفعال المتقين ، فإنهم خافوا الله فعظموه وأظهروا الشفقة على عباده ، وكان لهم آيات في الأرض وفي أنفسهم ، على إصابتهم الحق في ذلك ، فإن من لم يكن له في الأرض الآيات العجيبة يكون له القدرة التامة ، فيخشى ويتقى ، ومن له في أنفس الناس حكم بالغة [ونعم سابغة] يستحق أن يعبد ، ويترك الهجوع لعبادته ، وإذا قابل العبد العبادة بالنعمة يجدها دون حد الشكر فيستغفر على التقصير [١].

ثم أشار سبحانه إلى دليل الأنفس فقال تعالى :﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ في حال ابتدائها ، وتنقلها من حال إلى حال ، وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطَر ، وبدائع الخلق والصور ، ما تتحير فيه الأذهان ، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول ، وخصت به من أصناف المعاني ، وبالألسن والنطق ، [واختلاف] مخارج الحروف ، وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة ، والبينات القاطعة على حكمة المدبر ، دع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح ، وتأتّيها لما خلقت له ، وما سوى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثنّي [٢].

وقوله :﴿أفلا تبصرون﴾ تقرير وتحقيق لما ذكر من الآيات على وجه الإنكار للتعامي عنها إشارة إلى ظهورها ، أي : أفلا تبصرون بصر اعتبار ، كأنكم لا بصيرة لكم ، والبصير نور القلب . وقوله :﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ فيه وجوه ، أحدها : في السحاب المطر ، ثانيها : في السماء رزقكم مكتوب ، ثالثها : تقدير الأرزاق كلها من السماء ، ولولاه لما حصل في الأرض حبة قوت [٣].

وقوله :﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قيل : الجنة الموعود بها ؛ لأنها على ظهر السماء السابعة [٤]

---

(١) ومثله في الرازي ، من قوله : ويحتمل إلى هنا ، وقد جعله الرازي أحد وجهين ، اقتصر المصنف على أحدهما (الرازي ٢٨/٢٠٧)

(٢) ومثل هذا في الكشاف ٣٩٩/٤، ٤٠٠، وما بين القوسين من المصابيح ، وغير موجود في الكشاف . وفي الكشاف زيادة في آخر الكلام (فإنه إذا جسا شئ منها جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذل ، فتبارك الله أحسن الخالقين) .

(٣) مثل هذه الفقرة بلفظها في الرازي ٢٨/٢٠٨.

(٤) صاحب القول هو الرازي (التفسير الكبير ٢٨/٢٠٨) والزمخشري ٤/٤٠٠. والقول الثاني في الكشاف ، وغير موجود في الرازي . والثالث في الرازي ، وليس موجودا في الكشاف ،

أو أراد بما ترزقونه في الدنيا ، وما توعدونه في العقبى ، وقيل : ما توعدون من خير أو شر ، وهو نفع أو ضرر ، ذكره في البلغة ، فيكون إيعادا عامًا ، أي : توعدون الجنة والنار ، وحينئذ يكون الخطاب مع الكفار ، فيكون كأنه تعالى قال : ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ كافية ، وأما أنتم أيها الكافرون ففي أنفسكم آيات هي أظهر الآيات ، وتكفرون بها لحطام الدنيا وحب الرياسة ، وفي السماء الأرزاق ، فلو نظرتم وتأملتم حق التأمل لما تركتم الحق لأجل الرزق ، فإنه واصل بكل طريق ، ولاجتنبتم الباطل إتقاء لما توعدون من العذاب النازل من السماء .

[ثم] أقسم عز وجل على صدق ما وعد وعدد ، فقال تعالى :﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا قسم جوابه ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي : مثل نطقكم [1] كقول الناس :[أن هذا] لحَقٌّ كما أنك ترى وتسمع .

قال في البرهان : ﴿إنه لحق﴾ يعني ما عدد عليهم من آياته في هذه السورة ، وروينا عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنه قال :﴿قاتل الله أقواما [2] أقسم لهم ربهم فلم يصدقوه﴾

---

(١) قال الزمخشري : قرئ مثل بالرفع صفة للحق ، أي : حق مثل نطقكم ، وبالنصب على أنه لحق حقا مثل نطقكم ، ويجوز أن يكون فتحا لإضافته إلى غير متمكن ، وما مزيدة بنص الخليل ، وهذا كقول الناس : إن هذا لحق كما أنك ترى وتسمع ، ومثل : ما إنك هاهنا . الكشاف ٤/٤٠٠.

(٢) قال ابن كثير في تفسيره : قال مسدد عن ابن أبي عدى عن عوف عن الحسن البصري قال بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "قاتل الله أقواما أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا" ورواه ابن جرير عن بندار عن ابن أبي عدي عن عوف عن الحسن فذكره مرسلا.

وفي البرهان ص ٣٥٧ (قاتل الله قوما) ، ثم قال في البرهان : وكان قس بن ساعده الأيادي ينبه بعقله على هذه العبر، وهو في الجاهلية قد اتعظ واعتبر ، فروينا عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : رأيته على جمل بعكاظ ، وهو يقول: أيها الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاموا ، أم تركوا كما هم إلى نوم فناموا ، إن في السماء لخبرا ، وإن في الأرض لعبرا ، أسقف مرفوع ! وليل موضوع ، ونجوم تحور ثم تغور ! أقسم قس ما أثم : إن لله تعالى دينا هو أرضى من دين نحن عليه ، ثم تكلم بأبيات شعر :

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر

لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر

قال الهادي عليه‌السلام : يريد تعالى أن في السماء ومن السماء ينزل الماء ، الذي منه وبه حياة كل شئ ، وصلاح أرزاق كل شئ ، من الثمار والأشجار والزروع مما يأكله الأنام ، وتعيش به سوائم الأنعام ﴿وما توعدون﴾ يخبر أن من السماء ينزل عليهم كل وعيد ، من العذاب الفادح الشديد ، المهلك العنيد .

ثم أقسم سبحانه أن كل ما ذكر وعدد لنا ، وأخبر من البعث والحساب والثواب والعقاب ، وهبوط الأرزاق حق كما أنكم تنطقون حقا لا شك فيه[(١)] . اهـ

وعن الأصمعي : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود فقال : من الرجل ؟ قلت: من بني أصمع ، قال : من أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن ، قال: اتل علي ، فتلوت والذاريات ، فلما بلغت قوله :﴿وفي السماء رزقكم﴾ قال : يا أصمعي هذا كلام الرحمن ؟ قلت : إي والذي بعث محمدا بالحق نبيئا ، فقال لي : حسبك ، فقام إلى ناقته فنحرها ووزّعها على من أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولّى ، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف ، فإذا أنا بمن يهتف إليّ بصوت دقيق ، فالتفت فإذا بالأعرابي قد نَحُلَ واصفرّ ، فسلّم علي ، واستقرأ السورة فلما بلغتُ الآية صاح ، وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، ثم قال : هل غير هذا ؟ فقرأت ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق﴾ فصاح وقال : يا سبحان الله ، من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف ، فلم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين ، قالها ثلاثا ، وخرجت معها نفسه[(٢)] .

ثم أشار سبحانه إلى تسلية قلب النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ببيان أن غيره من الأنبياء عليهم‌السلام كان مثله فقال تعالى :﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ الاستفهام تفخيم للحديث ، وتنبيه على أنه مما لم يعلمه الرسول ، إنما عرفه بالوحي .

ورأيت قومي نحوها يمضي الأكابر والأصاغر
لايرجع الماضي ولا أحد من الحدثان عابر
أيقنت أني لامحالة حيث صار القوم صائر

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم‌السلام ص ٤٦٩.

(٢) حكاية الأصمعي ذكرها الزمخشري في الكشاف ٤/ ٤٠٠ .

قال في البرهان : كان عليه‌السلام يخدم ضيفه بنفسه ، وكان يسمى أبا الضيفان ، وكان لقصره أربعة أبواب لكيلا يفوته أحد [(١)].

ثم وصفهم بالمكرمين عند الله ، أو عند إبراهيم عليه‌السلام لأنه خدمهم ، وأخدمهم امرأته ، وعجل قراهم [(٢)]، وكانوا اثني عشر مَلَكاً، وقيل: تسعة عاشرهم جبريل عليه‌السلام، وقيل : كانوا أربعة من الملائكة مع جبريل [(٣)]، وإنما سموا مكرمين ؛ لأنهم عند الله معظمين ، وسماهم ضيفا ؛ لأنهم في صورة الضيف ؛ ولأنه حسبهم ضيفا ، وهو يقال للواحد والجماعة ؛ لأنه في الأصل مصدر ضَافَهُ.

وقوله تعالى :﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ متعلق ﴿إذ﴾ بالمكرمين ، أو بضيف إبراهيم [(٤)] أي : هم ضيفه حين دخلوا عليه .

قال الهادي عليه‌السلام : [ضيف إبراهيم] : هم الملائكة التي أرسلها الله إلى لوط تنجيه [وأهله]، وتهلك قومه الذين يعملون السيئات ، أتوا [إلى] إبراهيم بديا ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ سلموا عليه ، فرد عليهم السلام ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ ثم قال :﴿قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾ أي: لا نعرفكم من أهل دهرنا ، ونحن ننكر حليتكم ، وصورتكم [(٥)]. اهـ

أي : عليكم سلام ، وسلامه خير من سلامهم ، لما في رفع ﴿سلام﴾ من الدلالة على ثبات السلام ؛ لأن الرفع يفيد الاستمرار في الأوقات ، والنصب يتوقت بوقت فعله الناصب له ، وهذا من إكرامه لهم في كل حال ، وفي هذا تنبيه على أن الرد يكون أحسن من الابتداء [(٦)].

---

(١) البرهان مخطوط ٣٥٧،

(٢) وزاد الزمخشري وجها رابعا : فقال : أو أنهم في أنفسهم مكرمون . قال الله تعالى :﴿بل عباد مكرمون﴾ .

(٣) هنا ، وفي البرهان : أنهم أربعة مع جبريل ، وفي بعض الأقوال أنهم ثلاثة ، جبريل ، وميكائيل ، وثالث معهما .

(٤) تتعلق إذ بالمكرمين ، إذا فسر بإكرام إبراهيم لهم ، وأما إذا فسر بإكرام الله لهم ، أو بكونهم مكرمين في أنفسهم فلا ينتصب به ؛ لأن إكرام الله لهم ، وكونهم مكرمين في أنفسهم ليس بمتقيد بوقت دخولهم حتى ينصبه ، كما يقيد إكرام إبراهيم به . (انظر حاشية العلوي ٢٩٣) .

(٥) مجموع تفسير الأئمة عليهم‌السلام ص ٤٦٩، وما بين أقواس الزيادة من المجموع .

(٦) وهذا بناء على القاعدة ، بأن الجملة الاسمية تدل على الثبوت والدوام ، والجملة الفعلية تدل على الحدوث والتجدد والمراد بالابتداء هنا ، أي : ابتداء السلام .

ومعنى قوله سبحانه :﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ أي : ذهب إليهم في خفية من أضيافه ، ومن أدب المضيف أن يخفي أمره من الضيف لئلا يمنعوه ، وأن يعجل القرى ، قال قتادة : وكان عامة مال نبي الله إبراهيم البقر .

ولفظ الهادي عليه‌السلام في ذلك : ﴿فراغ﴾ يقول : عطف إلى أهله ومنزله ﴿فَجَاءَ﴾ إلى القوم ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ مشوي يطعمهم إياه [﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾] فوضعه بين أيديهم ليأكلوه ، فلم يأكلوه ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ لما رأى صلى الله عليه أيديهم لا تصل إليه كما ذكر في غير هذه السورة ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ والخيفة : فهي الفزع ، والمخافة، ومعنى ﴿أوجس﴾ أحس منهم بالخيفة ، وعلم عند ذلك أنهم ملائكة [أرسلوا للعذاب ، وقيل : مسح جبريل العجل بجناحيه فقام يدرج إلى أمه ، فلما فهموا منه الخوف][1] ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ بإسحاق صلى الله عليه ، فوهب [الله]له إسحاق بعد إسماعيل عليهماالسلام نافلة ، كما قال في غير هذه السورة . اهـ

ومعنى ﴿عليم﴾ أي : يبلغ ويعلم ، وهو إسحاق في أكثر الأقاويل وأصحها ؛ لأن الصفة صفة امرأة إبراهيم سارة ، أم إسحاق ، لا صفة هاجر أم إسماعيل ؛ لأنها جارية ، ومثله في البرهان [2]. وعن مجاهد : هو إسماعيل .

ثم قالوا : ومن أدب البشارة أن لا يخبر الإنسان بما يسره دفعة ، فإنه يورث مرضا ، يدل عليه أنهم لما جلسوا واستأنس بهم إبراهيم عليه‌السلام قالوا : نبشرك ، ثم ذكروا أشرف النوعين ، وهو الذَّكَرُ ، ثم إنهم تركوا سائر الأوصاف من الحسن والجمال والقوة والسلامة ، واختاروا العلم ، إشارة إلى أن العلم رأس الأوصاف ، ورئيس النعوت ثم قال تعالى :﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ قيل : أقبلت إلى بيتها ، وكانت في زاوية

---

(١) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٧٠، وما بين القوسين ليس من كلام الإمام الهادي ، بل هو من كلام المؤلف . ولفظ الجلالة ساقط من المصابيح ، وثابت في المجموع . وفي المصابيح (كما كان في غير هذه السورة) وفي المجموع (كما قال في غير هذه السورة) .

(٢) الذي في البرهان : أن المرأة سارة ، وأما بقية الكلام الموجود فليس في البرهان (انظر البرهان ٣٥٧) . وفي الكشاف مثل هذا الكلام بتمامه مع اختلاف يسير (الكشاف ٤٠٢/٤) .

تنظر إليهم ، لأنها وجدت حرارة دم الحيض .

قال الرازي ﴿فأقبلت﴾ أي : على أهلها ، وذلك لأنها كانت في خدمتهم ، فلما تكلموا مع زوجها بولادتها استحيت وأعرضت عنهم ، فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الإقبال على الأهل ، و لم يقل بلفظ الإدبار عن الملائكة [(١)].

وفي التجريد : قال الفراء وابن قتيبة : لم تُقْبِلْ من موضع إلى موضع ، وإنما هو كقولك: أقبل يشتمني ، وأقبل يصيح ويتكلم[(٢)]. قال في البرهان : والصرَّة : الرَّنة والتأوُّه [(٣)].

وقيل : معنى ﴿في صرة﴾ أي : في صيحة من صرّ القلم والباب ، أي تصيح كما جرت عادة النساء ، حيث يسمعن شيئا من أحوالهن ، يصحن صيحة معتادة لهن عند الاستحياء والتعجب ، وقيل : في جماعة نساء ، وكل ذلك ممكن والله أعلم .

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي : وضعت يدها على وجهها تعجبا وفكرا ، أنها تلد وهي عجوز عقيم ، فكيف ألد ؟! قيل : بشرت ولها ثمان وتسعون سنة، ولإبراهيم مائة وعشرون ، واستبعدت لوصفين من اجتماعهما أحدهما: كبر السن، والثاني : العقم ، لأنها كانت لا تلد في صغر سنها ، وعنفوان شبابها ، ثم عجزت وأيست فاستبعدت ، فكأنها قالت : يا ليتكم دعوتم دعاء قريبا من الإجابة ، ظنا منها أن ذلك منهم ، كما يصدر من الضيف على سبيل الإخبار من الأدعية ، كقول الداعي : الله يعطيك مالا ، ويرزقك ولدا [(٤)].

ثم ﴿قَالُوا﴾ ليس هذا منا بدعاء ، وإنما ذلك قول الله تعالى ﴿كَذَلِكَ﴾ أي : مثل ذلك القول قلنا لك ﴿قَالَ﴾ الله ﴿رَبُّكِ﴾ أي : إنما نخبرك عن الله ، والله قادر فلا تستبعدي، ثم دفعوا استبعادها وعللوا صحة ذلك بقوله :﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يقول إلا ما هو صدق وحكمة ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكيفية استيلاد العقيم .

---

(١) الرازي ٢١٤/٢٨. وقد أصلحنا اللفظ منه .

(٢) وفي الكشاف أيضا بمعناه ٤٠٢/٤.

(٣) البرهان ٣٥٧.

(٤) ومثل هذا في الرازي ٢١٤/٢٨، ٢١٥، وكذلك ما بعده مثله بمعناه .

روي أن جبريل عليه‌السلام قال لها : انظري إلى سقف بيتك ، فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة [(١)].

قال الرازي : فإن قيل : قال هاهنا ﴿الحكيم العليم﴾ وقال في هود ﴿حميد مجيد﴾ [قال] : نقول : لما بينا أن الحكاية هناك أبسط ، فذكروا ما يدفع الاستبعاد بقولهم : ﴿أتعجبين من أمر الله﴾ ثم لما صدقت أرشدوهم إلى القيام بشكر نعم الله ، وذكروهم بنعمته بقولهم :﴿حميد مجيد﴾ فإن الحميد هو الذي يتحقق منه الأفعال الحسنة ، وقولهم ﴿مجيد﴾ إشارة إلى أن الفائق العالي [الهِمَّة لا يحمده لفعله الجليل وإنما يحمده ويسبح له لنفسه] وهاهنا لما لم يقولوا :﴿أتعجبين﴾ إشارة إلى ما يدفع تعجبها من التنبيه على حكمه وعلمه ، وفيه فائدة ، وهي أن هذا الترتيب مراعى في السورتين ، فالحميد يتعلق بالفعل ، والمجيد [يتعلق] بالقول ، وكذلك الحكيم هو الذي فعله كما ينبغي لعلمه ، قاصدا لذلك الوجه ، بخلاف من يتفق فعله موافقا للمقصود اتفاقا ، كمن ينقلب على جنبه [فيقتل حية] وهو نائم ، فإنه لا يقال له : حكيم ، وأما إذا فعل [فعلا] قاصدا لقتلها بحيث يسلم لسعها يقال له : حكيم فيه ، والعليم : راجع إلى الذات ، إشارة إلى أنه يستحق الحمد بمجده ، وإن لم يفعل فعلا وهو قاصد لعلمه ، وإن لم يفعل على وفق القاصد [(٢)].

ثم قال تعالى حاكيا عن إبراهيم عليه‌السلام :﴿قال فما خطبكم﴾ أي : ما خبركم وشأنكم ؟ لما علم أنهم ملائكة لا ينزلون إلا بإذن الله لأمر عظيم **﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾** إلى قوم لوط .

ثم بين ما لأجله أرسلوا بقوله :**﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾** يريد : السجيل ، وهي طين طبخ كما يطبخ الآجر حتى عاد في صلابة الحجارة **﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ**

---

(١) ذكر هذه الرواية أيضا الزمخشري ٤/٤٠٢.

(٢) انظر الرازي ٢٨/٢١٥، وقد أصلحنا اللفظ منه ، وما بين أقواس الزيادة منه ، وفي نسخة من الرازي لفعله الجليل، ونسخة أخرى (لفعله الجميل) .

لِلْمُسْرِفِينَ﴾ معنى ﴿مسومة﴾ أي : فيها سوم وعلامات ، قيل : على كل واحد منها اسم من يهلك به ، وقيل : أعلمت أنها من حجارة العذاب ، وقيل : بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا ، وقوله :﴿للمسرفين﴾ أي للزائدين في القبح لتعديهم إلى نكاح الذكور ، وسماهم مسرفين كما سماهم عادين لإسرافهم وعدوانهم في عملهم حيث لم يقنعوا بما أبيح لهم [1]. ولذلك قال سبحانه في معصيتهم ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ أي لم يبلغ مبلغكم أحد .

ثم قال سبحانه :﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل : هم لوط وابنتاه ، وقيل: لوط عليه‌السلام وأهل بيته [الذين نجوا] ثلاثة عشر ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهو بيت لوط ، والتقدير : غير أهل بيت ،والضمير [في] ﴿فيها﴾ للقرية ، ولم يجر لها ذكر لكونها معلومة ، وفيه دليل على أن الإيمان والإسلام واحد ، وأنهما صفتا مدح [2].

ثم قال تعالى :﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾ أي : قريتهم ﴿آيَةً﴾ من علامة وعبرة ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي : عبرة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم ، قيل : المتروك فيها ماء أسود منتن ، انشقت أرضهم وخرج منها ذلك ، وقيل : صخر منضود فيها [3]، وقيل : حجارة مرمية في ديارهم ، وهي بين الشام والحجاز ، وأيما كان فالمعنى : أنا تركنا عبرة بائتفاكها .

ثم قال تعالى :﴿وفي موسى﴾ عطف على ﴿وفي الأرض [آيات]﴾ أو على ﴿[وتركنا فيها] آية﴾ فكأنه قيل : وفي الأرض آيات للموقنين ، ثم قال :﴿وهل أتاك حديث ضيف إبراهيم﴾ فإنه من آياته ، ثم قال : ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ﴾[4]

---

(١) إلى هنا مثله في الكشاف ٤٠٢/٤.

(٢) ومثل هذا في الكشاف بتقديم وتأخير ، وقد أصلحنا اللفظ منه ، وما بين أقواس الزيادة منه .(الكشاف ٤٠٢/٤)

(٣) القائل : هو ابن جريج . (الكشاف ٤٠٣/٤) .

(٤) ذكر هذين الوجهين أيضا الزمخشري ، ويكون الثاني على طريقة : علفتها تبنا وماء باردا ، وقد ذكر الرازي أوجها كثيرة فقال : ﴿وفي موسى﴾ يحتمل أن يكون عطفا على معلوم ، ويحتمل أن يكون عطفا على مذكور ، أما

دليل من المعجزات ﴿مُبِينٍ﴾ بيِّنٍ واضح لاشك فيه ، في إعجازه يحتمل أن يكون المراد المعجز الفارق بين سحر الساحر وأمر المرسلين ، ويحتمل أن يكون المراد منه ما كان معه من البراهين القاطعة التي حاجَّ بها فرعون .

ثم قال عز وجل :﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ أي : بجانبه معرضا عن الحق ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ﴾ أي: موسى ساحر ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ قال الهادي عليه السلام : معنى ﴿فتولى﴾ أي حول وجهه ، وثنى شقه وجانبه ، ملتفتا عن موسى ، معرضا عما جاء به من الهدى ، ناسبا ما جاء به موسى إلى السحر والجنون ، وهذا شئ يفعله الجبابرة المتكبرون ، والفراعنة الطاغون ، فإذا سمعوا ما لا يحبون ، أو واجهوا ما لا يريدون صدوا بأحد جانبهم ، وثنوا وجوههم مع مناكبهم منحرفين عمن يقاربهم [1]. اهـ

وقيل : معنى ﴿بركنه﴾ أي : بقوته ، قال عنترة :

فما أوهى مراس الحرب ركني ولكن ما تقدم من عهودي

ثم قال تعالى :﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾ [قال الإمام الهادي عليه السلام] أي : أوقعناه ﴿وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ أي : رميناهم ﴿فِي الْيَمِّ﴾ واليم : فهو البحر المالح الأعظم ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾

الأول ففيه وجوه ، الأول : أن يكون المراد : ذلك في إبراهيم وفي موسى ، لأن من ذكر إبراهيم يعلم ذلك . الثاني : لقومك في لوط وقومه عبرة ، وفي موسى وفرعون ، الثالث : أن يكون هناك معنى قوله تعالى : تفكروا في إبراهيم ولوط وقومهما ، وفي موسى وفرعون ، والكل قريب بعضه من بعض .

وأما الثاني ففيه أيضا وجوه ، أحدها : أنه عطف على قوله :﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ ﴿وفي موسى﴾ وهو بعيد لبعده في الذكر ، ولعدم المناسبة بينهما . ثانيها : أنه عطف على قوله :﴿وتركنا فيها آية للذين يخافون﴾ ﴿وفي موسى﴾ أي : وجعلنا في موسى ، على طريقة قولهم : علفتها تبنا وماء باردا ، وتقلدت سيفا ورمحا ، وهو أقرب ، ولا يخلو من تعسف إذا قلنا بما قال به بعض المفسرين : إن الضمير في قوله تعالى :﴿وتركنا فيها آية﴾ عائد إلى القرية ، ثالثها : أن نقول : فيها راجع إلى الحكاية ، فيكون التقدير وتركنا في حكايتهم آية ، أو في قصتهم . فيكون ، وفي قصة موسى آية وهو قريب من الاحتمال الأول ، وهو العطف على معلوم ، رابعها : أن يكون عطفا على ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم﴾ وتقديره : وفي موسى حديث إذ أرسلناه ، وهو مناسب إذ جمع الله كثيرا من ذكر إبراهيم وموسى عليهما السلام . (الرازي ٢٨/٢٢٠) .

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٧٠ .

أي : بما يلام عليه من كفره مستوجب للعقوبة بفعله [1] مستدع لدواعي اللائمة إلى نفسه، فاعل لكل ما يلام به .

واللائمة هنا : فهو الذنب الذي عوقب عليه ، ولامه الله فيه ، وقد قيل : إن المليم هو الصامت المتحير الهائب ، يرى من الأمر ما قد بهته وأفزعه ، والقول الأول أحبهما إلي وأصحهما عندي ذكره الحسين بن القاسم عليه السلام .

ثم قال تعالى :﴿وَفِي عَادٍ﴾ وهم قوم هود ، يقول [الهادي عليه السلام]: وفي عاد آية وعبرة وتذكرة لمن أراد التذكرة ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ أي : حين أرسلنا ﴿عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ والريح العقيم : فهي ريح العذاب الشديد الأليم ، الذي لا فسحة معها ، ولا فرج فيها ، ولا تنفيس لمن استوجبها ، فلما لم يكن فيها راحة ولا تخفيف ساعة واحدة قيل : هي عقيم من الفرج والراحة ، أي : لا فرج فيها كما يقال : رجل عقيم ، وامرأة عقيمة ، وهما اللذان لا يلدان ، ولا يكون منهما ولد ، فكذلك هذه الريح الشديدة العظيمة التي لا راحة فيها ، ولا يكون منها سكون طرفة عين لأهلها [2] حتى تدمر كلما أتت عليه .

فإن قيل : قد ذكرت أن المقصود هاهنا تسلية قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وتذكيره بحال الأنبياء ، فلِمَ [لَمْ] يذكر في عاد وثمود أنبياءهم كما ذكر إبراهيم وموسى ؟ قيل له : في ذكر الآيات ست حكايات : حكاية إبراهيم عليه السلام وبشارته ، وحكاية قوم لوط ونجاة من كان فيها من المؤمنين ، وحكاية موسى [عليه السلام]، وفي هذه الحكايات الثلاث ذكر الرسل والمؤمنين ؛ لأن الناجين فيهم كانوا كثيرين ، أما في حق موسى وإبراهيم عليهما السلام فظاهر ، وأما في قوم لوط فلأن الناجين وإن كانوا أهل بيت واحد لكن المهلكين أيضا كانوا أهل بقعة واحدة ، وأما عاد وثمود وقوم نوح فكان عدد المهلكين بالنسبة إلى

---

(١) في المصابيح (من فعله) ، وفي مجموع تفسير الأئمة (بفعله) ، وهذه الفقرة إلى قوله :﴿ما يلام به﴾ من المجموع ٤٧٠.

(٢) في المجموع (عن أهلها) المجموع ٤٧٠، ٤٧١ ، وقال الزمخشري في الكشاف ٤٠٣/٤ : ﴿العقيم﴾ التي لا خير فيها من إنشاء مطر ، أو إلقاح شجر ، وهي ريح الهلاك ، واختلف فيها ، فعن علي رضي الله عنه : النكباء ، وعن ابن عباس : الدبور ، وعن ابن المسيب : الجنوب .

الناجين أضعاف عدد المهلكين بالنسبة إلى الناجين من قوم لوط عليه السلام ، فذكر الحكايات الثلاث الأول للتسلية بالنجاة ، وذكر الثلاث المتأخرة للتسلية بإهلاك العدو ، والكل مذكور للتسلية بدليل قوله تعالى في آخر هذه الآيات ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ إلى أن قال :﴿فتول عنهم فما أنت بملوم وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[1] وفي هود قال بعد الحكايات :﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك﴾ إلى أن قال :﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾[2] فذكر بعدها ما يؤكد التهديد ، وذكر [بعد]الحكايات هاهنا ما يفيد التسلي[3]

ثم قال عز وجل :﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي : جرت عليه في مرورها ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ كل ما رمَّ أي : بلي وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك ، قال الشاعر :

تركتني حين كف الدهر عن بصري وإذ بقيت كعظم الرمة البالي

وأحسن من قول الشاعر قول زين العابدين عليه السلام :

فأضحوا رميما في التراب وأقفرت مجالس منهم عطلت ومقاصر[4]

قال الهادي عليه السلام : يقول تعالى : ضربته وطحنته وأبادته حتى تركته مثل الرميم ، والرميم : فهو الحشيش البالي القديم العهد بالحياة ، الذي قد بلي فاسود ، وفني فلم يبق فيه إلا فتات لا منفعة فيه .

﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ وهم قوم صالح ، يقول : كذلك آية وعبرة[5]. اهـ

---

(١) الذاريات : ٥٤، ٥٥ .

(٢) هود : ١٠٠، ١٠٢ .

(٣) ومثل هذا في الرازي ٢٨/٢٢١، ٢٢٢. وفي نسخة من المصابيح (وذكر بعد الحكايات ما يؤكد هاهنا ، مما يفيد التسلي) .

(٤) هذا البيت ذكره الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام في تفسيره (أنظره أول السورة) ، والبيت السابق : ذكره الإمام أبو الفتح الديلمي في البرهان خ ص ٣٥٨.

(٥) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٧١ .

ومعنى ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ أي : حين قيل لهم :﴿تَمَتَّعُوا﴾ انتفعوا ببقية عيشكم ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ تهديد لهم ، قيل : تفسيره قوله :﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ بعد قتلهم الناقة ، وكانت في تلك الأيام تتغير ألوانهم فتصفر وجوههم وتسود ، قيل ــ وهو ضعيف ــ لأن قوله تعالى :﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ بحرف الفاء دليل على أن العتو كان بعد قوله : ﴿تمتعوا﴾ فإذاً الظاهر أن المراد تمتعوا في الدنيا إلى وقت انقضاء آجالكم[1].

والمقول لهم ما حكاه الله سبحانه ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ إلى قوله :﴿وزرع ونخل طلعها هضيم﴾[2].

ومعنى ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ استكبروا عن امتثاله فعصوا أمره ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ يعني : الصيحة التي حلت بهم . والصاعقة : النازلة نفسها ، قيل : صيحة جبريل عليه السلام .

---

(١) ومثل هذه الفقرة إلى هنا في الرازي باختلاف يسير (انظر الرازي ٢٢٣/٢٨، ٢٢٤) .

(٢)) لا يوجد في القرآن في سورة واحدة هذا النص المكتوب في المصابيح ، وذلك لأن الآية الأولى ، وهي قوله : ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ هي الآية رقم (٦١) من سورة هود ، وليس بعدها ﴿وزروع ونخل طلعها هضيم﴾ وإنما هذه الآية وهي قوله تعالى : ﴿وزروع﴾ الخ من سورة الشعراء ، والنص في سورة الشعراء هو :﴿كذبت ثمود المرسلين(١٤١)إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون(١٤٢)إني لكم رسول أمين(١٤٣)فاتقوا الله وأطيعون(١٤٤)وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين(١٤٥)أتتركون في ما هاهنا آمنين(١٤٦)في جنات وعيون(١٤٧)وزروع ونخل طلعها هضيم﴾ وكان في أصل المصابيح (وزرع) وهو في القرآن بلفظ الجمع .

أما النص في سورة هود فهو : وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ(٦١)قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ(٦٢)قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ(٦٣)وَيَاقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ(٦٥)فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ(٦٦)وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٦٧)كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ فالظاهر أن المؤلف رحمه الله قد خلط بين السورتين ، فأخذ آية من هود ، وآية من الشعراء .

وقال في التجريد : يعني العذاب ، والصاعقة : كل عذاب مهلك ، وقيل : الصاعقة الموت عن ابن عباس

وقوله :﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إشارة إلى أنها كانت نهارا وهم يعاينون ، أو إشارة إلى تسليمهم وعدم قدرتهم على الدفع ، كما يقول القائل للمضروب : يضربك فلان وأنت تنظر ، إشارة إلى أنه لا يدفع[1] . وقيل : ﴿ينظرون﴾ بمعنى : ينتظرون العذاب ؛ لأنهم قد وعدوا به بعد ثلاثة أيام .

ثم قال تعالى :﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ على أقدامهم بل جثموا في الأرض كقوله : ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾[2] وقيل : من قولهم : ما يقوم به إذا عجز عن دفعه ، أي: فما قدروا على دفع العذاب عن أنفسهم ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ أي : ممتنعين من العذاب .

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ بالنصب ، أي : أهلكنا قوم نوح ؛ لأن ما قبله يدل عليه[3] ، أو واذكر قوم نوح، [أ]و هو عطف على الضمير في ﴿أخذتهم﴾[4] وقرئ بالجر ، أي : وفي قوم نوح آية[5] .﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي : قبل المذكورين ، والمعنى : وفي قوم نوح لكم عبرة من قبل ثمود وعاد وغيرهم .

ثم قال تعالى :﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي : خارجين متوغلين في الكفر .

ثم رجع بعد التهديد إلى إقامة الدليل فقال سبحانه :﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ لأن بناء السماء دليل على القدرة على خلق الأجسام ثانيا كما قال تعالى :﴿أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾[6] .

ومعنى ﴿بنيناها﴾ قال الهادي عليه السلام : فهو جعلناها وخلقناها وقدرناها سقفا عليكم، ودبرناها ، ومعنى ﴿بأيد﴾ فهو بقوة واقتدار ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ يقول : إنا لها لمعظمون

---

(١) ومثل هذا إلى هنا في الرازي بتقديم وتأخير واختلاف يسير (الرازي ٢٨/٢٢٤) .

(٢) هود : ٦٧ ، هود : ٩٤ ، والآية في نسخة المصابيح (أصبحوا في ديارهم) وهي في المصحف بلفظ ﴿فأصبحوا﴾.

(٣) أي : ما تقدم من ذكر الهلاك دل على أن المحذوف هنا أهلكنا .

(٤) ويشكل عليه أنهم لم يهلكوا بالصاعقة ، وإنما بالغرق .

(٥) أي : أنه عطف على ما تقدم وهو قوله تعالى :﴿وفي عاد﴾ ﴿وفي موسى﴾ .

(٦) يس : ٨١ .

موسعون ، فهي واسعة عظيمة ، طبق على طبق غير ناقصة ولا صغيرة .

ثم قال تعالى استدلالا بالأرض :﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ يقول : بسطناها لكم ومهدناها فصارت لكم بتقديرنا فراشاً ، ولأحيائكم وأمواتكم برحمتنا كفاتا ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي : فنعم نحن الماهدون ماهدوها ، أي : الباسطون المسوون الموطئون لصعبها ، المسهلون لسهلها ، والمهد : ما يمهد أي يفرش ليضطجع عليه[1] .

ثم قال تعالى استدلالا بما بينهما :﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي : من كل الحيوان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ قال [الإمام الهادي إلى الحق][2] عليه‌السلام : يريد سبحانه أنا خلقنا من كل صنف ذكرا وأنثى ، ثم خلقنا منهما نسل ذلك الصنف ، فأخبر سبحانه بأصل التناسل ، وأنه من الزوجين ، والزوجان فهو الزوج والزوجة المتزاوجان ، وقوله :﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول : لعلكم تتفكرون في قدرة من جعل ذلك ودبره كذلك ، حتى توالد كل صنف ذكر وأنثى ، فتعلمون أن الذي دبر ذلك في الابتداء قادر سبحانه على أن يحي الموتى . اهـ

وفي الكشاف :[﴿لعلكم تذكرون﴾] أي فعلنا ذلك كله من بناء السماء ، وفرش الأرض ، وخلق الأزواج ، إرادة أن تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه[3] .

ثم قال :﴿ففروا﴾ أي : قل لهم يا محمد :﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي : اهربوا إليه وإلى طاعته وثوابه من معصيته وعقابه ، ووحدوه ولا تشركوا به .

وقوله :﴿ففروا﴾ ينبي عن سرعة الهلاك ، كأنه يقول : العذاب والهلاك أسرع وأقرب من أن يحتمل الحال الإبطاء في الرجوع ، فافزعوا إلى الله سريعا[4] .

﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ للإنذار ، وموضّح ومصدّق بالمعجزات ، وهو تعليل لما قبله .

---

(١) انظر مجموع تفسير الأئمة عليهم‌السلام ص ٤٧١ .

(٢) في المصابيح قال الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام ، ولما لم يكن هذا الكلام موجودا في تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام ، وهو موجود في مجموع تفسير الأئمة عليهم‌السلام عن الإمام الهادي ، استحسنا تصويب العبارة ، فليعلم ، وانظر المجموع ص ٤٧١ . وتفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام أول السورة .

(٣) الكشاف : ٤٠٤/٤ . وما بين القوسين منه .

(٤) وفي الرازي : (فافزعوا إلى الله سريعا وفروا) (الرازي ٢٢٨/٢٨) .

ثم نهى سبحانه عن الشرك فقال :﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي إنما كرر ﴿إني لكم منه نذير مبين﴾ عند الأمر بالطاعة ، والنهي عن الشرك ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل ، كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان ، وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما ، ألا ترى إلى قوله :﴿لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا﴾[1] .

ثم قال تعالى :﴿كَذَلِكَ﴾ أي : أمر الذين من قبلهم مثل ذلك ، والإشارة إلى تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وتسميته ساحرا ومجنونا .

ثم فسر ما أجمل بقوله :﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي : قريش[2] ﴿مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ الضمير للقول ، يعني : أتواصى الأولون والآخرون من الكفرة بهذا القول حتى قالوه جميعا متفقين عليه[3] ، ومعناه : التعجب ، أي : كيف اتفقوا على قول واحد ، كأنهم تواطؤوا عليه ، وقال بعض لبعض : لا تقولوا إلا هذا .

ثم قال سبحانه :﴿بَلْ هُمْ﴾ كلهم ﴿قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ زائدون في الظلم ، أي : لم يتواصوا به ؛ لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد ، بل جمعتهم العلة الواحدة ، وهي الطغيان، والطغيان هو الحامل عليه .

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن الذين كررت عليهم الدعوة فلم يجيبوا ، وعرفت منهم العناد واللجاج ، وأيست من إجابتهم إلى الإيمان .

﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ في إعراضك بعد أن بذلت الجهد ، ولا تدع التذكير والموعظة ، واعرض عن أذاهم ، واصبر على بلائهم ، وقيل : إنه بمعنى ترك الإنذار ، فتكون منسوخة ، واختلفوا فقيل : ناسخها ﴿وذكر فإن الذكرى﴾ وقيل : آية السيف ، وليس

---

(١) الأنعام : ١٥٨.

(٢) هذا تفسير للضمير في ﴿قبلهم﴾ أي : قبل قريش .

(٣) إلى هنا مثل ما تقدم في الكشاف بلفظ قريب مع تقديم وتأخير . وما بعده مثله في الرازي بتصرف . وفي الرازي : ومعناه : التعجيب ، وفي المصابيح : التعجب . (انظر الكشاف ٤/٤٠٥) والرازي ٢٨/٢٣٠.

هذا بالوجه ؛ لأن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كان من كرم الأخلاق ينسب نفسه إلى تقصير ويقول : إن عدم إيمانهم لتقصيري في التبليغ ، فيجتهد في الإنذار والتبليغ ، فقال تعالى : قد أتيت بما عليك ولا يضرك التولي عنهم ، وكفرهم ليس لتقصير منك ، فلا تحزن فإنك لست بملوم بسبب التقصير ، وإنما هم ملامون بالإعراض والعناد [1].

ثم قال تعالى : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني : ليس التولي مطلقا ، بل قل وأقبل وأعرض وادع ، فلا التولي يضرك إذا كان عنهم ، ولأن التذكير ينفع إذا كان مع المؤمنين .

وروي أنها لما نزلت ﴿فتول عنهم﴾ حزن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم واشتد ذلك على أصحابه ، ورأوا أن الوحي قد انقطع ، وأن العذاب قد حضر ، فأنزل الله تعالى : ﴿وذكر﴾ أي لا تدع التذكير والموعظة بآيات الله فسكنت قلوبهم [2] .

واعلم أنه تعالى لما قال : ﴿وذكر﴾ يعني أقصى غاية التذكير ، بين سبحانه أن الخلق ليس إلا للعبادة ، فقال عز وجل : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فالمقصود من الإيجاد هو العبادة ، فذكرهم به ، ودلت الآية على أنه تعالى يريد الطاعة من كل عباده ، ولا يريد المعصية له ، والكفر به من أحد .

فإن قالت المجبرة : لو كان مريدا للعبادة منهم لكانوا كلهم عبادا ؟

قلنا : إنما أراد سبحانه منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها ؛ لأنه خلقهم ممكنين فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدا لها ، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم ، والمعنى على قولنا : إن الله خلقهم لينعم إليهم ، وفي هذا أنه لم يخلقهم ليعينوه في أمر ، ولا يكفوه مهما ، كما هو شأن السادة مع عبيدهم ، وإنما خلقهم ليتفرغوا لعبادته ، وإنما أمرهم بعبادته ، وأكمل عقولهم ليصلوا بها إلى الثواب الذي هو الغرض الأصلي بخلقهم [3] .

---

(١) من قوله : لأن النبي .. إلى قوله : إذا كان مع المؤمنين . مثله في الرازي باختلاف يسير ٢٨/٢٣٠، ٢٣١.

(٢) انظر الكشاف ٤/٤٠٥ .

(٣) انظر الكشاف ٤/٤٠٦ .

واعلم أن شُغْلَ الأنبياء صلوات الله عليهم وأئمة الهدى عليهم السلام منحصر في أمرين : عبادة الله ، وهداية الخلق .

وقوله تعالى :﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ تقرير لكونهم مخلوقين للعبادة ، وذلك لأن الفاعل في العرف لابد له من منفعة ، والمعنى : ليس شأني مع عبادي كشأن السادة مع عبيدهم يصرفونهم في أنواع المهن لتحصيل أرزاقهم والمعيشة ؛ لأني غني فلا آمرهم إلا بما يسعدهم في أخراهم ، وأنا ضامن لهم رزق دنياهم .وقيل : المراد ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ﴿وما أريد أن يطعمون﴾ أي : يطعموا خلقي ، فهو على تقدير مضاف ، وإنما أسند الطعام إلى نفسه ؛ لأن الخلق عيال الله ، ومن أطعم عيال أحد فكأنما أطعمه . وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم يقول الله عز وجل يوم القيامة: (يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني) أي : لم تطعم عبيدي .

قال الهادي إلى الحق عليه السلام : هذه شهادة من الله ، وقول بالحق ، وإخبار من فعله بالصدق ، وأنه لم يخلق خلقا إلا لطاعته ، والعمل بمرضاته ، لا ما يقول الكفرة الفاسقون ، الجورة المجترون : من أنه خلق فريقا للمعصية وفريقا للطاعة ، فأكذبهم الله تبارك وتعالى بما ذكر في هذه الآية . ثم أخبر أنه لم يخلقهم ليرزقوه ، ولا ليطعموه ، وإنما هذا على المثل تبارك وتعالى عن الأكل والشرب والحاجة إلى الرزق ، الذي ليس كمثله شئ ، ولا يشبهه شئ ، وهو على خلاف كل شئ ، وهو السميع العليم .

ثم أخبر أنه الرازق غير المرزوق ، الذي لا يحتاج إلى المخلوقين ، وهم إليه محتاجون ، وإلى رزقه وفضله مضطرون فقال سبحانه :﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ يقول : ذو القوة والسطوة ﴿المتين﴾ فهو : العظيم المحال الشديد النكال [1]. اهـ

والمعنى في وصفه بالقوة والمتانة : أنه القادر البليغ الاقتدار على كل شئ .

ثم لما ثبت أن الإنسان مخلوق للعبادة ــ بين سبحانه أن من يضع نفسه في موضع عبادة غير الله يكون وضع الشيء في غير موضعه فيكون ظالما فقال عز وجل :﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ

---

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٧١، ٤٧٢ .

﴿ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ من القرون الماضية ، وعيد لأهل مكة على ظلمهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتكذيبه ، والمعنى : أن لهم نصيب نظرائهم من الماضين المكذبين لرسلهم .

قال الهادي عليه السلام : يقول الله : لهم سجال من العذاب واقع بهم (كما وقع بأصحابهم ممن عمل كعملهم ، وظلم كظلمهم ، والذنوب : فهي السجال والنصيب والدول عليهم من العذاب كما دال على إخوانهم الأولين ، فينزل بالآخرين من العذاب نصيبهم كما نزل بالأولين ، والذَّنُوبُ : الدلو العظيمة ، وهذا تمثيل أصله في السقاة يقتسمون الماء بها)[1] قال الشاعر :

لنا ذَنُوبٌ ولكم ذَنُوبُ فإن أبيتم فلنا القليبُ

يقول : لنا جزء ولكم جزء ، ولنا دلو ولكم دلو ، فإن أبيتم أن نستقي وتستقوا طردناكم عن القليب وأخذناه كله ، والقليب : فهو البير العادية . اهـ

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ في إنزاله عليهم ، فإنه آت ، وكل آت قريب ، وكان أهل مكة يستعجلون بالعذاب تكذيبا واستهزاء .

ثم أعاد ما ذكر في أول السورة ، وقال :﴿فَوَيْلٌ﴾ أي : هلاك ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة ، أو يوم بدر .

والحمد لله رب العالمين

---

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام (٤٧٢) وما بين القوسين ساقط من نسخة المجموع التي بأيدينا ، وثابت في المصابيح .



سورة ق

أربعون آية وخمس آيات (مكية إجماعا)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إن جعل اسما للسورة فالتقدير : هذه السورة التي أعجزت العرب ، ﴿والقرآن المجيد﴾ قسم جوابه محذوف ، أي : لتبعثن .

والمجيد : فهو ذو المجد والشرف على غيره من الكتب .

وإن جعل تعديدا للحروف للتحدي والتنبيه على إعجاز القرآن ، فالقرآن قَسَمٌ أيضا ، ولا يحتاج إلى تقدير محذوف قبل ق ، وقد قيل : إن مثل هذه الحروف تنبيهات قدمت على القرآن ليبق السامع مقبلا على استماع ما يَرِدُ عليه فلا يفوته شئ من الكلام الرائق، والمعنى الفائق .

و﴿ق﴾ قيل : هو جبل محيط بالأرض كلها ، هذا قول جماعة من المفسرين ذكره في التجريد [1].

---

(١) وانظر البرهان ٣٥٣ .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليهما السلام

قال : أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام في قوله تعالى :﴿ق﴾ معناه : اسم من أسماء القرآن ويقال : فواتح يفتح الله بها .

وقوله تعالى :﴿ذلك رجع بعيد﴾ معناه : رد بعيد . وقوله تعالى :﴿في أمر مريج﴾ معناه : مختلط ، ويقال : الشيء المتغير . وقوله تعالى :﴿وما لها من فروج﴾ معناه : من فتوق . وقوله تعالى :﴿والأرض مددناها﴾ معناه : بسطناها . وقوله تعالى :﴿وألقينا فيها رواسي﴾ معناه : طوال . وقوله تعالى :﴿طلع نضيد﴾ أي : منضود .

وقوله تعالى :﴿كذلك الخروج﴾ معناه : يوم القيامة .

وقوله تعالى :﴿بل هم في لبس من خلق جديد﴾ معناه : من إحيائهم بعد الموت .

وقوله تعالى : ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام : فالحبل : حبل العاتق ، والوريد : العرق الذي في الحلق .

وقوله تعالى :﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ معناه : فكاتب الحسنات عن اليمين ، والسيئات عن الشمال .

وقوله تعالى :﴿رقيب عتيد﴾ معناه : حافظ ، عتيد : أي : حاضر .

وقوله تعالى :﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ أي : تعدل عنه .

وقوله تعالى :﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام : فالسائق : الذي يسوقها إلى أمر الله تعالى ، والشهيد : الذي يشهد عليها بما عملت .

وقوله تعالى :﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾ معناه : قربت .

وقوله تعالى :﴿لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام : إن الرجل يسكن في الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول ، ثم تأتيه امرأة فتضرب على منكبه ، وتنظر في وجهه فخدها أضوأ من المرآة ، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب ، فتسلم عليه ، فيرد عليها السلام ، ويسألها من أنت ، فتقول : أنا من المزيد ، ويكون عليها سبعون ثوبا أدناها مثل شقائق النعمان من طوبى ، ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من رواء ذلك . وإن عليها لتيجانا أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب .

وقوله تعالى :﴿فنقبوا في البلاد﴾ معناه : تباعدوا فيه . وقوله تعالى :﴿هل من محيص﴾ أي : هل من معدل .

وقوله تعالى :﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ أي : عقل .وقوله تعالى :﴿أو ألقى السمع﴾ معناه : استمع .

وقوله تعالى :﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾ معناه : صل .

وقوله تعالى :﴿وأدبار السجود﴾ معناه : ركعتان بعد المغرب ﴿وإدبار النجوم﴾ الركعتان قبل صلاة الفجر .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم عليه السلام : تفسير غريب سورة ق

تأويل قوله :﴿ق﴾ قسم ﴿المجيد﴾ هو الجيد الرفيع الكريم ، قال الشاعر : سهل الخليقة ما جد الأصل .

وقال آخر : تخبرك عني أن شيمتي المجد

ومعنى ﴿رجع بعيد﴾ أي : مرجع غير ممكن عندهم ، لما هم عليه من كفرهم وجهلهم .

ومعنى ﴿فهم في أمر مريج﴾ أي : ملتبس . ومعنى ﴿ما لها من فروج﴾ أي : من صدوع ومعنى ﴿من كل زوج بهيج﴾ أي : من كل صنف مليح جميل ، قال الشاعر :

فتلك شبيه الماهي إذ طلعت بهجتها من الخدر

أي : بجمالها وحسنها . ومعنى ﴿تبصرة﴾ أي : تبصيرا وتذكيرا ﴿كل عبد منيب﴾ والمنيب : هو الراجع إلى الحق ، والإنابة : هي الرجعة ، قال الحسين بن علي صلوات الله عليهما :

فبادر بالإنابة قبل موت على ما فيك من هضم الجناح

ومعنى ﴿وحب الحصيد﴾ هو القصب المحصود ، والحصد : هو القطع ، قال المرتضى لدين الله صلى الله عليه :

الروس تحصد بالسيوف ألذ من بيضاء ناعمة تجر رداها

أي : تقطع بالسيف ﴿والنخل باسقات لها طلع نضيد﴾ الباسق في اللغة : هو المنتصب المعتدل ، قال الشاعر :

كأن حوافر أرساغه هو القشب في الحجل البسق

والطلع النضيد : هو المتراكم ، قال الشاعر : ربابا ثقالا ومزنا نضيدا . أي : بعضه فوق بعض .

﴿وأصحاب الرس﴾ قيل في ذلك بأقاويل والله أعلم ، وقيل : إن الرس بلد بين حضرموت ونجد ونجران ، وقيل : إن الرس هو البئر ، وإن قوما قتلوا نبيئهم وطرحوه في الرس ، وهو البئر القليلة الماء فأهلكهم الله ، وانتصر لنبيه وعذبهم والرساس في اللغة : هي البيار ، قال الشاعر : (تنابلة يحفرون الرساسا) أي : البيار ، والتنابلة : هم أخس الناس وسفلهم ومعنى ﴿أفعيينا بالخلق الأول﴾ هذا توقيف لهم على أنه لم يعي بالخلق الأول ، والعيٌ : هو العجز ، قال الشاعر :

أقول بلا عي ولا بجهالة .

ومعنى ﴿من حبل الوريد﴾ هو عرق بين الحلق والعلباء ، ومعنى ﴿إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ فالمتلقيان : هما هذان الملكان اللذان وكلهما الله عز وجل بحفظ أعمالنا ، فنستغفر الله مما كتبا من قبيح أفعالنا . والقعيد : هو المقتعد الذي يرقب ويجتهد ، والعتيد : هو الحاضر القريب ، قال الشاعر :

نبذ القوم بالقنا وتساقوا بضباة السيوف موتا عتيدا

أي : حاضرا قريبا ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾ والسكرة : هي الغمة والغشوة ، ومعنى ﴿تحيد﴾ أي : تهرب وتميل ، قال الشاعر :

تحيد عني وتراني في السند كما يحيد الذئب عن جرو الأسد

ومعنى ﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ الغطاء : هو الجهل ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ أي : ثاقب النظر حين لا ينفعك السمع والبصر . ﴿وقال قرينه﴾ أي : صاحبه وأخوه ومقارنه ، قال الشاعر :

وقارن إذا قارنت حرا فإنما يزين ويزري بالفتى قرناؤه

يريد إخوانه وخلانه وأخدانه ﴿هذا ما لدي عتيد﴾ أي : هذا ما عندي حاضر قريب .

ومعنى ﴿كل كفار عنيد﴾ أي : كل جاحد معرض عن الحق معاند للصدق ، قال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه :

ويحكم بالكتاب بكل فج ويرجع عن تعديه العنيد

ومعنى ﴿كل معتد مريب﴾ أي : كل ظالم جائر عن الحق . والمريب : فهو الظالم قال الشاعر :

ألا لا أبالي من رماني بريبة إذا كنت عند الله غير مريب

وقال الهادي عليه‌السلام :﴿ق﴾ هو جبل كريم جعل الله فيه بركة وخيرا عظيما ، ويقال: إنه أكبر جبال الدنيا وأعظمها عظما ، وأبعدها مدى ، وأشدها ارتفاعا .

﴿والقرآن المجيد﴾ قال عليه‌السلام : هو قرآن محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، ومعنى ﴿المجيد﴾ فهو: العظيم الكريم .

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ معناها : لقد عجبوا [1] وهو جواب القسم بـ ﴿ق والقرآن المجيد﴾ فقامت الباء مقام اللام ، والمعنى فهو باللام ﴿أن جاءهم منذر﴾

﴿وأزلفت الجنة﴾ أي : قربت ﴿لكل أواب حفيظ﴾ أي : راجع إلى ربه ، ومعنى ﴿حفيظ﴾ أي : محتفظ على دينه ورع طاهر ، مجتهد في طاعة ربه . ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾ أي : من أمة وطبقة ، قال الشاعر :

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم وخلفت في قرن فأنت غريب

﴿فنقبوا في البلاد هل من محيص﴾ أي : ساروا في أقطار البلاد هل من مهرب ، قال الشاعر :

نقبوا في البلاد من حذر الموت وجالوا في الأرض أي مجال

وقال آخر : وقد نقبت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

ومعنى ﴿ألقى السمع﴾ يعني أصغى بسمعه للحق ﴿وهو شهيد﴾ أي : حاضر .

ومعنى ﴿وما مسنا من لغوب﴾ أي : من تعب ؛ لأن اليهود قالوا : خلق الله السموات والأرض يوم الأحد ، وفرغ منها يوم الجمعة فاستراح يوم السبت فهو يوم راحة ، قال الكميت بن زيد رحمة الله عليه :

إذا قيل هذا الحق لا ميل دونه فأنضاؤهم في الحق حسرى ولغب

يعني من اللغوب ، وهو التعب والنصب . ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ يريد ما أنت عليهم بجابر ولا متكبر ظالم غاشم قال الشاعر : وكنا إذا الجبار صعر خده أقمنا له من ميله فتقوما

(١) قال السيد العلوي رحمه الله : اعلم أن بل إذا وليها الجملة فقد تكون لتدارك الغلط كما في المفرد ، وقد تكون للانتقال من كلام إلى كلام أهم من الأول ، فلا قصد إلى إهدار الأول ، وجعله في حكم المسكوت عنه كما في هذه الآية ، وكما في قوله :﴿بل هم في شك منها بل هم منها عمون﴾ ولا يجب في بل إذا وليها جملة أن تكون للانتقال من جملة إلى أخرى ، بل تجئ بعد الاستفهام أيضا ، كقوله تعالى :﴿أتأتون الذكران من العالمين ...﴾ إلى قوله :﴿بل أنتم قوم عادون﴾ وبعد القسم كما في هذه الآية ، وكما في آية ص فإنه أضرب فيها عن القسم إلى الإخبار عنهم ، بأنهم إنما امتنعوا من الإقرار بحقية القرآن لعزتهم وشقاقهم ، والضمير في عجبوا يعود للكافرين ، في قوله :﴿فقال الكافرون﴾ مع كونه متأخرا ؛ لأنه يجري مجرى المفسر بما بعده ، وقال الراغب : بل هاهنا لتصحيح الأول وإبطال الثاني ، أي ليس امتناعهم من الإيمان بالقرآن بسبب أن لا مجد للقرآن ، ولكن بجهلهم ، ونبه بقوله :﴿بل عجبوا﴾ على جهلهم ؛ لأن التعجب من الشيء يقتضي الجهل بسببه . حاشية العلوي ٢/٢٨٧.

فالمنذر فهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومعنى ﴿منذر﴾ فهو : مُخوِّفٌ مُعْذِرٌ بين يدي عذاب الله ونقمته ، وأخذه سبحانه وبطشه [1].

وهذا إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب ، وهو أن ينذرهم [بالمخوف]رجل منهم ، قد عرفوا وساطته فيهم وعدالته ، وأمانته ، ومن كان بهذه الصفة لم يكن إلا ناصحا لقومه[2] .

ثم قال سبحانه إنكارا لتعجبهم من البعث ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ دلالة على أن تعجبهم من البعث أدخل في الاستبعاد ، وأحق بالإنكار ، أي : هذا الرجع شئ عجيب ، وإنما عجبوا حيث دعاهم إلى إله واحد ، وهو بشر مثلهم ، فأعلمهم بالبعث والنشور ، والثواب والعقاب ، تعجبوا أولا من أن يبعث إليهم رجلا منهم ، وثانيا من البعث بعد الموت ، وصيرورتهم ترابا ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ إذا : منصوب بمضمر [3] أي : حين نموت ونبلى نرجع ، أي : نبعث .

ثم قالوا : ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي : مرجع [4]غير ممكن مستبعد مستنكر ، كقولك : هذا قول بعيد ، ومعناه : بعيد من الوهم والعادة عندهم لما هم عليه من كفرهم بالله ،

---

(١) مجموع تفسير الأئمة ٤٦٢.

(٢) ومثله في الكشاف ٤/٣٧٩، ٣٨٠، وفيه زيادة (مترفرفا عليهم ، خائفا أن ينالهم سوء ، ويحل بهم مكروه ، وإذا علم أن مخوفا أظلهم لزمه أن ينذرهم ويحذرهم ، فكيف بما هو غاية المخاوف ، ونهاية المحاذير .

(٣) قال السيد العلوي : إذا كان الرجع بمعنى المصدر صح أن يكون دالا على عامل الظرف ؛ لأن كليهما من كلام القوم .

(٤) في الأصل (مرجع) فينظر في صحة اللفظ ، فلم يذكره صاحب الكشاف وإنما ذكر مرجوعا ، فيحتمل أنه أراده . وقال الرازي : والرجع : مصدر رجع يرجع إذا كان متعديا ، والرجوع مصدره إذا كان لازما ، وكذلك الرجعى مصدر عند لزومه ، والرجع : يصح أن يكون مصدرا للازم ، فيحتمل أن يكون المراد بقوله :﴿ذلك رجع بعيد﴾ أي : رجوع بعيد ، ويحتمل أن يكون المراد الرجع المتعدي (الرازي ٢٨/ ١٥٢) (والكشاف ٤/٣٨٠) .

وقال السيد العلوي : قوله : الرجع : بمعنى المرجوع ، أي قال الله تعالى جوابا لقولهم ، وردا لزعمهم :﴿ذلك رجع بعيد﴾ بمعنى ما يرجع إليه حاصل كلامهم ، ومآله بعيد ، وعن بعضهم ، وهو الجواب ، أي الجواب الذي جاء به الكفار جواب بعيد ، والجواب هو قولهم :﴿أئذا متنا﴾ فإنهم إنما قالوا ذلك جوابا لقول المسلمين : إنا نبعث ونرجع بعد الموت . ثم إن قوله :﴿ذلك رجع بعيد﴾ إن كان من تتمة كلامهم لم يجز التوقف على ترابا ، وإن كان من كلام

وجهلهم ، وإنما أنكر عليهم تعجبهم من البعث لإقرارهم بالنشأة الأولى بقدرة الله على خلق السموات والأرض ، ومن قدر على ذلك قدر على البعث .

ثم إن الله تعالى قال :﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ إشارة إلى دليل جواز البعث وقدرته تعالى عليه ؛ وذلك لأن الله تعالى عالم بجميع أجزاء كل واحد من الموتى لا يشتبه عليه جزء أحد على الآخر ، وقادر على الجمع [والتأليف] [١].

قال الهادي عليه السلام : يخبر سبحانه أنه عالم بكل ما تنقص الأرض ممن يقع في جوفها من موتاها ، فأخبر أنه يعلم ما تأكل منهم الأرض ، وما يبقى من ترابهم ورميمهم [٢]. اهـ

وهذا رد لاستبعادهم الرجع ؛ لأن من لطف علمه حتى تغلغل إلى ما تنقص الأرض من أجساد الموتى ، وتأكله من لحومهم [وعظامهم] ــ كان قادرا على رجعهم أحياء كما كانوا [٣].

وفي ذلك إشارة إلى أنه تعالى كما يعلم أجزاءهم يعلم أعمالهم[٤] ــ يرجعهم ويعذبهم بما كانوا يقولون ، وبما كانوا يعملون .

ثم مثّل سبحانه علمه بالأشياء وحفظه لها بالشيء المكتوب فقال تعالى :﴿ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ وقيل : معناه حافظ لما كتب فيه من البعث وأعمالهم وكفرهم بالبعث وغيره ، أو محفوظ من التغيير ، ومن الشياطين ، قالوا : وهو اللوح المحفوظ .

قلت : وعند القاسم والهادي وغيرهما من أئمة العترة عليهم السلام أن اللوح والكتاب في

الله جوابا عن قولهم جاز الوقف لاختلاف القائلين ، وفي المرشد : الوقف الكافي ﴿وكنا ترابا﴾ ، والتام ﴿ذلك رجع بعيد﴾ وقال الزجاج : جواب القسم محذوف يدل عليه ﴿أئذا متنا﴾ المعنى : ق والقرآن المجيد إنكم مبعثون فعجبوا فقالوا : أئذا متنا ، ويجوز أن يكون الجواب ﴿قد علمنا﴾ أي لقد علمنا وحذف اللام لأن ما قبلها عوض منها ، كما ﴿والشمس وضحاها﴾ إلى قوله :﴿قد افلح من زكاها﴾ .

(١) ومثله في الرازي ، وزيادة (والتأليف فليس الرجوع منه ببعد) (الرازي ١٥٢/٢٨) وما بين القوسين منه .

(٢) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٦٢.

(٣) إلى هنا مثل هذه الفقرة في الكشاف (٣٨٠/٤) .

(٤) في نسخة (أفعالهم) .

هذا الموضع ونحوه عبارة عن علم الله تعالى وحفظه للأشياء ، قال القاسم عليه السلام : لأن أحفظ ما يحفظ الآدميون ما يوقعون في الكتب ويكتبون ، فمثل الله ذلك لهم من علمه وحفظه بما يعرفون ، وأخبرهم أن الذي عنده سبحانه من ذلك وفيه كله على خلاف ما يصفون لفرق ما بينه وبين خلقه في كل صفة ، وليعرفوه في ذلك كله من الفرق بما يجب من المعرفة [1]. اهـ

ولفظ الهادي إلى الحق عليه السلام في معنى قوله تعالى :﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾ يقول : عندنا من ذلك علم محفوظ حتى نردهم من حيث ما كانوا ، ونجمع أجزاءهم وأعضاءهم من حيث ما توجهوا حتى نَلُمَّ بعضها إلى بعض من حيث ما كانت من الأرض [2]. اهـ

وقال عليه السلام في غير هذا الموضع : والكتاب يكون على ثلاثة معان أحدها : بمعنى العلم كما في هذه الموضع ونحوه ، والثاني : بمعنى الحكم من الرحمن ، والثالث : فهو اسم الكتاب المنزل نفسه ، قال عليه السلام : فعلى هذه الثلاثة المعاني يخرج معنى الكتاب ، ولن يوجد معنى رابع بسبب من الأسباب ، وسيأتي له ذلك بلفظه إن شاء الله تعالى حيث ذكره في قوله تعالى :﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل﴾[3] .

ثم قال تعالى ردا عليهم :﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يعني ﴿بالحق﴾ القرآن والنبوة الثابتة بالمعجزات ، وقيل : الحشر الذي لابد من وقوعه ، فهو حق ، وهذا إضراب أتبع الإضراب الأول دلالة على أنهم جاؤا بما هو أفظع من تعجبهم وهو تكذيبهم بالنبوة ، أي : عاندوا ، وليست عقولهم تنكر البعث ، ولا نبوة رجل من البشر ، والتقدير في المضروب عنه أنه لم يكذب المنذر بل كذبوا هم .

وتقريره هو أنه تعالى لما قال عنهم : إنهم قالوا هذا شئ عجيب ، كان فيه معنى قولهم: إن المنذر كاذب ، فقال تعالى : لم يكذب المنذر ﴿بل﴾ هم ﴿كذبوا بالحق لما

(١) انظر كلام الإمام القاسم في الجزء الأول سورة البروج وغيرها .

(٢) مجموع تفسير الأئمة ٤٦٢,

(٣) آل عمران : ١٥٤ .

جاءهم﴾ أي : في أول وهلة من غير تفكر بصحته ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ قيل : والمريج المختلط الملتبس ، الذي بان فساده ، فقال أبو ذؤيب :

مرج الدين فأعددت له مشرف الحارك محبوك الكبد[1]

المعنى : انهم في أمر مضطرب مختلط ، يقولون تارة : شاعر ، وتارة : ساحر ، ومرة : كاهن ، وهو الذي يلقى عليه مسترقة السمع ، يقال : مرج الخاتم في إصبعه ، إذا كان فيه سعة ، فقيل :﴿في أمر مريج﴾ لكونهم لا يثبتون عن قول واحد .

قال الرازي : والأصح أن يقال : هذا بيان للاختلاف المذكور في الآيات ، وذلك لأن قوله تعالى :﴿بل عجبوا﴾ يدل على أمر سابق أضرب منه ، وقد ذكرنا أنه الشك ، وتقديره : والقرآن المجيد إنك لمنذر ، وإنهم شكوا فيك ، بل عجبوا ، بل كذبوا ، وهذه مراتب ثلاث ، الأولى : الشك ، وفوقها التعجب لأن الشاك يكون الأمران عنده سيين ، والمتعجب يترجح عنده عدم وقوع العجيب ، لكنه لا يقطع به ، و[المكذب]الذي يجزم بخلاف ذلك ، فكأنهم كانوا شاكين ، وصاروا ظانين ، وصاروا جازمين ، فقال : ﴿فهم في أمر مريج﴾ [2].

ثم قال تعالى :﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ إشارة إلى الدليل الذي يدفع قولهم :﴿ذلك رجع بعيد﴾ وهذا كما في قوله تعالى: ﴿أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾[3] ونحوها ، والمعنى : ألم ينظروا حين كفروا إلى آثار قدرة الله إلى العالم السماوي .

ومعنى ﴿كيف بنيناها﴾ هو: كيف رفعناها بغير عمد ﴿وزيناها﴾.قال الهادي عليه السلام: تزيينها : فهو بما فيها من النجوم ،وذلك قوله سبحانه :﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح

---

(١) هكذا في الأصل : وفي لسان العرب لابن منظور ٦١٥/١، ترتيب يوسف خياط : الحارك : منبت أدنى العرف إلى الظهر ، الذي يأخذ به الفارس إذا ركب ، وقيل : الحارك عظم مشرف من جانبي الكاهل ، اكتنفه فرعا الكتفين ، قال لبيد : مغبط الحارك محبوك الكفل .

(٢) انظر الرازي ١٥٤/٢٨، وما بين القوسين منه .

(٣) يس : ٨١ .

وجعلناها رجوما للشياطين﴾[1] ومعنى قوله :﴿وما لها من فروج﴾ هو : ما فيها من فروج ، فقامت اللام مقام في لأنها من حروف الصفات ، يعقب بعضها بعضا ، والفروج : فهي الفتوق والشقوق والاختلاف بالفطور ، بل هي ملساء سليمة من العيوب ، لا صدع فيها ولا خلل ، فأخبر سبحانه أنها مستوية ليس فيها من كل ذلك شئ ، وأصل ما أراد بذكر السماء وأمرها ، وما جعل فيها من زينتها ، ونفى عنها من فطورها ـ أنه أراد سبحانه : أفلا يوقن يريد يا هذا من فعلنا بقدرتنا على ما أنكر بما ذكرنا له من حشرنا لعبادنا ، وبعثنا البشر من فعل ما فعل في السماء ـ بقادر على أن يحشر ويعيد الأشياء[2]. اهـ

ثم أشار سبحانه إلى دليل آخر فقال تعالى :﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي : بسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي : جبالا ترسيها من الاضطراب والانقلاب وتُسَكّنُهَا ، ولولا هي لانقلبت بأهلها ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي : من كل صنف من أصناف النبات ﴿بَهِيجٍ﴾ أي : حسن عجيب ، يتبهج [به]لحسنه ، أي : تظهر البهجة وهي الحسن في وجه ناظره ﴿تَبْصِرَةً﴾ يبصر بها عباده ، وبرهانا دل به الخلق على عظمته وقدرته ﴿وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ أي : فعلنا ذلك لأجل أن يتبصر المكلف ، أي : يعرف ويتذكر ، والمنيب : الذي أخلص توبته ، الراجع إلى ربه ، المتفكر في بدائع خلقه

ثم أشار سبحانه إلى دليل آخر هو ما بين السماء والأرض ، فيكون الاستدلال بالسماء والأرض وما بينهما فقال تعالى :﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ كثير المنافع ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ يعني المطر ؛ لأن به يحي الحيوان والنبات ، فأنشأنا به ﴿جنات﴾ أي : بساتين ، وهي الأشجار التي تستر[3] الأرض من الفواكه ونحوها [﴿وحب الحصيد﴾] البر والشعير وكل ما يحصد من الحبوب .

---

(١) الملك : ٥ .

(٢) مجموع تفسير الأئمة ٤٦٣.

(٣) في الرازي ، وهي الأشجار التي يقطف ثمارها ، وأصولها باقية . وما بين أقواس الزيادة ليتم الكلام.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ طوالا في السماء مرتفعات قال الهادي عليه السلام في تفسيره لهذه الآيات : هذا مثل قوله سبحانه :﴿وجعلنا من الماء كل شئ حي﴾[1] فأخبر أنه أنزل من السماء ماء فأنبت به ما أنبت من الجنات ، والحب الحصيد ، والنخل الباسقات ذوات الطلع النضيد .

فأما معنى قوله :﴿جنات﴾ فالجنات هي البساتين والحدائق ذوات الالتفاف والثمار والائتلاف ، ذوات الأنهار الجاريات ، والثمار المذللات ، اللواتي قد جمعن كل الثمار ، وجرت فيما بينهن وخلالهن الأنهار ، فما كان هكذا فالعرب تسميه جنانا ، فعلى هذا يخرج ما سمي حصيدا ليبسه وبلوغه واستحصاده ، فكل شئ بلغ غايته وينع سَمّته العرب مستحصدا وحصيدا ، أي : قد جاء وقت حصاده وقطعه ، وبلوغ غاية ما ينتظر به آخذه .

ومعنى قوله في النخل :﴿باسقات﴾ فالباسقات : هن المشرفات الطوال المرتفعات. الساميات ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ فالطلع هو هذا الطلع الذي يخرج في النخل المعروف [وهو شئ أبيض ، أول ما يخرج من النخلة مثل الكرم ، وهو أول ما يخرج من العنب].

ومعنى ﴿نضيد﴾ فهو : منضود بعضه إلى بعض ، متداخل بعضه في بعض ، مجتمع متقارب ، وتلك صفته مادام في أكمامه حتى تنفلق عنه أغشيته ، ثم تتفرق من بعد التناضد شماريخه ، وتتباعد حيطانه [2]. اهـ

وفي التجريد : النضيد إما أن يراد به كثرة الطلع وتراكمه ، أو كثرة ما فيه من الحب[3]

ثم قال تعالى :﴿ رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ فيه وجهان : أحدهما ــ نصب على المصدر ؛ لأن الإنبات رزق ، فكأنه تعالى قال : أنبتناها إنباتا للعباد ، والثاني : نصب على كونه مفعول له ، كأنه قال : أنبتناها لرزق العباد[4] .

---

(١) الأنبياء : ٣٠ .

(٢) مجموع تفسير الأئمة ٤٦٣ ، وما بين القوسين ساقط من المجموع ، وثابت في المصابيح .

(٣) انظر الكشاف ٣٨١/٤، وقد أصلحنا اللفظ منه .

(٤) ومثله بلفظه في الرازي ١٥٧/٢٨، ١٥٨.

ثم قال تعالى :﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾ عطفا على ﴿أنبتنا بـه﴾ فقولـه :﴿وأحيينـا به﴾أي: بالماء إشارة إلى أنه دليل على الإعادة ، كما أنه دليل البقاء ، ويدل عليه قولـه تعالى : ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ أي : مثل ذلك الإحياء لهذه الأرض الميتة بـالجدب ـــ الخروج ، أي : تخرجون منها بعد موتكم ، تقديره : أحيينا به بلدة ميتا فتشققت وخرج منها النبات ، كذلك تشقق ويخرج منها الأموات .

جعل ذلك كله دليلا على البعث والنشور من وجهين ـــ أحدهما : أن النشـأة الأولى إذا خلقها من غير أصل كانت النشأة الثانية بإعادة ماله أصل أهون .

والثاني : أنه لما شوهد من قدرته إعادة ما مات من زرع ونبات كان إعادة ما مـات من العباد أولى للتكليف الموجب للجزاء .

ثم قال عز وجل تسلية لرسوله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وتنبيها بأن حاله كحال من تقدمه من الرسل كُذِّبوا وصبَرُوا فأهلك الله مُكَذِّبهم ونَصَرَهُم فقال تعالى :﴿كَذَّبَـتْ قَبْلَهُـمْ ﴾ يعني: قريشا ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَـادٌ وَفِرْعَـوْنُ وَإِخْـوَانُ لُـوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ وفيه وعيد لهم .

أما الرس ففيه وجهان أحدهما : أنه كل حفر في الأرض من بئر وقبر ، والثاني : أنـه البئر الذي لم يطو بحجر ولا غيره .

وأما أصحاب الرس فهم الذين قتلوا صاحب ياسين [في بئر لهم] [1]ودسوه ذكره في البرهان.

وقيل : هم قوم شعيب ، وكانوا أهل آبار ومواش فدعاهم فكذبوا ، فبيناهم حول هذه البئر انهارت بهم وبدوابهم فهلكوا ، وقيل : الرس قرية باليمامة .

﴿وثمود﴾ قال فيه : وهم قوم صالح ، وكانوا عربا بوادي القرى وما حولها ، وهـو مأخوذ من الثمد ، وهو الماء القليل ، قال النابغة :

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت ... إلى حمام سراع وارد الثمد

---

(١) البرهان ٣٥٤ ، من قوله : أما الرس .. إلى آخر ما ذكره هنا وما بين القوسين ساقط من المصـابيح ، وثـابت في البرهان .

﴿وعاد﴾ وهو اسم رجل من العماليق كثر ولده فصاروا قبائل ، وكانوا باليمن بالأحقاف ، والأحقاف الأرمال ، وهم قوم هود .

﴿وفرعون﴾ أي : قوم فرعون ، كانوا من أبناء مصر ، وروينا أنه عاش ثلاثمائة سنة ، منها مائتان وعشرون [سنة]لا تقذى عينه ، ودعاه موسى ثمانين سنة .

﴿وإخوان لوط﴾ يعني قومه وأتباعه ، وكانوا أربعة آلاف ألف ، وروينا في الآثار أنه ما يقوم أحد يوم القيامة من الأنبياء إلا وقام معه من أمته ناس إلا لوط فإنه يقوم وحده [1].

﴿وأصحاب الأيكة﴾ وهي الغيظة ذات الشجر الملتف، وكان عامة شجرها الدوم ، وكان رسولهم شعيبا [2]هلكوا بعذاب الظلة .

﴿وقوم تبع﴾ وتبع كان رجلا من ملوك حمير ، وسمي تبعا لكثرة تبعه ، وروي أن تبعا أسلم، وكفر قومه فلذلك ذكر قومه و لم يذكر ، وهو الذي حيَّرَ الحيرة [3]، وفتح سمرقند حتى أخربها ، وكان يكتب إذا كتب بسم الله الذي تسمى ، وملك برا وبحرا وصحاً[4] وريحا .

وقوله تعالى :﴿كل كذب الرسل﴾ الرسل : يحتمل وجهين أحدهما : أن كل واحد كذب رسوله فهم كذبوا الرسل ، واللام حينئذ لتعريف العهد ، وثانيهما : وهو الأصح هو أن كل واحد كذب جميع الرسل ، واللام حينئذ لتعريف الجنس ، وهو على وجهين أحدهما : أن المكذب للرسول مكذب لكل رسول ؛ لأن من كذب رسولا واحدا فقد كذب جميع الرسل لاتفاقهم على تصديق كل منهم ، وثانيهما : أن المذكورين كانوا منكرين للرسالة والحشر بالكلية[5] .

وقوله :﴿فحق وعيد﴾ أي : فحق وعيد عليهم وعيد الله ، أي ما أوعد الله من نصرة

---

(١) في البرهان (وحيدا)

(٢) في البرهان زيادة : أرسل إلى أمتين من الناس أهل مدين ، وأصحاب الأيكة . وقوله : هلكوا بعذاب الظلة . ساقط في البرهان.

(٣) أي بناها ، واختطها .

(٤) ليست منقوطة في المصابيح ولا في البرهان ، فيحتمل أنها: صحا ، أي ساكنة الريح ، أو صبحا [أي ملك الزمان والوقت] وضبحا . [أي : الخيل التي تضبح في عدوها] . وما تقدم مثله بلفظه في البرهان ، من قوله : أما الرس .. إلى قوله : وريحا.

(٥) وانظر أيضا الرازي ١٦١/٢٨.

الرسل عليهم وإهلاكهم .

قال في البرهان : وإنما ذكر الله سبحانه قصص هؤلاء لهذه الأمة ليعلم المكذبون منهم بالنبي صلى الله عليه وآله وبالأئمة من ولده أنهم كغيرهم ممن كذبوا الرسل إن أقاموا على التكذيب فلم يؤمنوا حتى أرشد الله من أرشد ، وتبعهم رغبا ورهبا من تبع[1] .

ثم قال تعالى استدلالا بدلائل الأنفس :﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ لما قرن الله دلائل الآفاق عطف بعضها على بعض بالواو فقال :﴿والأرض مددناها﴾ وقال :﴿ونزلنا من السماء ماء مباركا﴾ ثم في الدليل النفسي ذكر حرف الاستفهام والفاء بعدها إشارة إلى تلك الدلائل من جنس ، وهذا من جنس فلم يجعل هذا تبعا لذلك ، ومثل هذا مراعى في أواخر (يس) حيث قال تعالى :﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه﴾[2] .

ومعنى قوله :﴿أفعيينا﴾ عي بالأمر : لم يهتد لوجه علمه ، والهمزة للإنكار[3].

قال الهادي عليه السلام : هذا تقريع من الله للكافرين ، وإخزاء [منه]بالتبكيت للمكذبين ، الذين كذبوا النشأة الأخرى ، وأنكروا ما ذكر الله من البعث والقيامة ، وكبر ذلك في صدورهم ، و لم يوقنوا برد الأبدان بعد بلائها وفنائها وتمزقها في الأجداث وذهابها فقال سبحانه :﴿أفعيينا بالخلق الأول﴾ يريد : إن كان الخلق الأول أعيانا وأتعبنا فسيعيينا إعادته في النشأة الآخرة ، وإن لم يكن بُدُوُّ[4]خلقكم أعيانا فإن ردكم أهون من ابتدائكم علينا .

ثم قال :﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يريد : بل هم في شك من ردنا لهم بعد البلاء في خلق جديد[5]. اهـ

وفي تنكير الخلق الجديد دون الخلق الأول شأن عظيم وحال شديد ، حق لمن سمع به أن يهتم به ويخاف ، ويبحث [عنه]ولا يقعد على لبس في مثله[6] والمعنى : أنا لم نعجز كما

---

(١) انظر البرهان ٣٥٤. وفي البرهان (من مكذبي الرسل) بدلا (ممن كذبوا الرسل) .

(٢) يس : ٧٧ . وانظر الرازي ١٦١/٢٨ . باختلاف يسير .

(٣) انظر الكشاف ٣٨٢/٤.

(٤) بدو خلقكم ، أي : بدء خلقكم . ومعنى أعيانا أي أتعبنا .

(٥) مجموع تفسير الأئمة ٤٦٤.

علموا عن الخلق الأول حتى نعجز عن الثاني ، ثم قال : هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول واعترافهم بذلك في طيه الاعتراف بالقدرة على الإعادة ﴿بل هم في لبس﴾ أي:خلط وشبهة قد لبَّس عليهم الشيطان وحيَّرهم ، ومنه قول علي عليه‌السلام :(يا حار، إنه لملبوس عليك اعرف الحق تعرف أهله) . وليس الشيطان : تسويله إليهم أن إحياء الموتى [أمر]خارج عن العادة ، فتركوا لذلك القياس الصحيح لأن الإعادة أهون من الإنشاء [1].

قال في البرهان : وفيه تأول آخر معناه : أفعجزنا عن إهلاك الخلق الأول ، يعني من تقدم ذكره حين كذبوا بالرسل مع قوتهم وكثرتهم ، حتى تَشُكُّوا من إهلاكنا لكم مع ضعفكم إن كذبتم ، فيكون هذا خارجا مخرج الوعيد ، والأول خارج مخرج البرهان والدليل [2]. اهـ

---

(٦) قال السيد العلوي في معرض حكاية كلام الانتصاف : واعلم أنه يؤتى مرة بالتنكير للتفخيم لما فيه من الإيهام ؛ لأنه أفخم من أن يحيط به معرفة ، ومرة يقصد به تقليل المنكر ، فنكر اللبس للتعظيم ، كأنه قال : في لبس أي لبس ، وتنكير الخلق الجديد للتقليل ، والتهوين لأمره بالنسبة إلى الخلق الأول ، والتفخيم : كأنه قيل : هو أعظم من أن يكون ملتبسا ، فلعل إشارة المصنف إلى هذا . (الطيبي) : قد سلك المصنف مسلكا وعرا ؛ لأنه ذهب إلى أن قوله :﴿أفعيينا بالخلق الأول﴾ دل على أن ذلك الإنكار مما يلزم منه إنكار الخلق الأول ؛ لأنه لبس من الشيطان ، وخبره منهم ، وكان من حق الظاهر أنهم لا ينكرون الخلق الأول ، بل هم في لبس من الخلق الثاني ، فوضع موضعه مما يقوي شبهتهم واستبعادهم ، وهو قوله :﴿خلق جديد﴾ ونكره تنكير تعظيم لينبه على أنه خلق جديد له شأن عظيم ، ولذلك قالوا : ﴿هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد﴾ ﴿وقالوا أئذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد﴾ وبمثل هذا ينبغي أن يهتم ويخاف منه ، ويبحث عنه ، والحاصل : أن الخلق الجديد بالنسبة إليهم أمر عظيم ، وبالنسبة إلى الله أسهل وأهون ، فكان الواجب عليهم إزالة تلك الشبهة بالقياس الصحيح ، فهم ما بحثوا عن ذلك ، وداموا على ما كانوا عليه ، فوقعوا في تلك الورطة . (حاشية العلوي ٢٨٩) .

(١) مثله في الكشاف ٣٨٢/٤، بتقديم وتأخير ، وتصرف يسير .

(٢) نقله المصنف من البرهان بتصرف ، وقد اكتفى بالوجه الأول عما ذكره في البرهان ، ولفظ البرهان : قوله عز وجل :﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾ فيه تأويلان ، أحدهما : معناه : أفعجزنا عن إهلاك الخلق الأول ، يعني من تقدم ذكره حين كذبوا بالرسل مع قوتهم وكثرتهم ، حتى تشكُّوا من إهلاكنا لكم مع ضعفكم إن كذبتم ، فيكون هذا خارجا مخرج الوعيد . والثاني : معناه : أننا لم نعجز عن إنشاء الأول فكيف تشكون في إنشاء خلق جديد ، يعني البعث بعد الموت ، فيكون هذا خارجا مخرج البرهان والدليل . (البرهان للإمام الناصر أبو الفتح الديلمي ص ٣٥٤.

وقوله :﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ إشارة إلى أنه لا تخفى عليه خافية ، ويعلم ذوات صدورهم ، والوسوسة : كثرة الحديث في خفاء مما لا يتحصل .

وقوله :﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ بيان لكمال علمه ، والوريد : العرق الذي هو مجرى للدم فيه ، ويصل إلى [كل]جزء من أجزاء البدن ، أي : ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده الذي هو من نفسه لأنه عرق يخالط القلب ، فعلم الله أقرب إليه من علم القلب ، وهذا الوريد وريدان في العنق أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال ، ويحتمل أن يكون المعنى : ونحن أملك به من وريده الذي هو منه ، ووصف الله تعالى بالقرب مجاز ، والمراد قوة علمه به واقتداره ، لا يخفى عليه شئ من خفياته ، فكأن ذاته قريبة منه ، كقولهم : هو مني مقعد القابلة ، ومعقد الإزار [1]، وكما يقال : الله بكل مكان ، أي : علمه ، وحبل الوريد مثل في فرط القرب ، والحبل : هو العرق ، شبه بواحد الحبال ، والوريدان عرقان مكتنفان لصفحتي العنق في مقدمها متصلان بالوتين عرق الصدر ، يردان من الرأس إليه[2] ، وقيل : سمي وريدا ؛ لأن الروح ترده عند خروجها ، والحبل : هو الوريد ، وإضافته إلى الوريد للبيان ، كبعير سانية .

ثم قال تعالى :﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ إذ ظرف ، والعامل فيه ما في قوله تعالى :﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ وفيه إشارة إلى أن المكلف غير متروك سدى ، والمعنى أنه سبحانه لطيف يتوصل علمه إلى خطرات النفس ، وما لا شئ أخفى منه ، وهو أقرب من الإنسان من كل قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به إيذانا بأن استحفاظ الملكين أمر هو غني عنه [وكيف لا يستغني عنه] [3] وهو مطلع على أخفى الخفيات ، وإنما ذلك لحكمة اقتضت ذلك .

---

(١) مقعد القابلة ، ومعقد الإزار : يؤتى بهما كناية عن القرب .

(٢) الضمير يعود إلى الوتين .

(٣) وانظر الكشاف ٣٨٤/٤، ٣٨٥، وما بين القوسين زيادة في الكشاف .

والمتلقيان من الملائكة الحفظة عليهم السلام ، وهم أربعة ملكان بالنهار ، وملكان بالليل يتلقيان الأعمال من الحسنات والسيئات ، ومكان كاتب الحسنات على يمين المكتوب عليه ، ومكان كاتب السيئات على يساره . والتلقي : التلقن بالحفظ والكتاب ، والقعيد: الرصيد ، بمعنى المقاعد والمجالس ، كالجليس والشريب ، والمراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد من المتلقيين ، فحذف لدلالة الثاني عليه .

ثم أخبر سبحانه أنه ﴿مَا يَلْفِظُ﴾ أي : العبد ﴿مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ﴾ أي : عنده ملك ﴿رَقِيبٌ﴾ يرقب عليه ، أي : يحفظه ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر لا يغيب ، قيل : إلا عند الغائط والجماع ، قيل : يكتبان كل شئ حتى أنينه في مرضه ، والصحيح أنهما لا يكتبان إلا ما يثاب عليه ، أو يعاقب ، يدل عليه قوله صلى الله عليه وآله وسلم :(كاتب الحسنات على يمين الرجل يكتب الحسنة عشرا وهو أمين على كاتب السيئات فإذا عمل سيئة يقول له صاحب اليمين دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر)[1] .

وقيل : يكتبان أفعال القلوب يطلعهم الله على الضمائر ، وقيل : لا يكتبان أفعال القلوب بل يتولى الله حسابها من غير كتابه .

واعلم أنه سبحانه لما ذكر إنكارهم البعث واحتج عليهم بوصف قدرته [وعلمه] أعلمهم أنَّ ما أنكروه وجحدوه هم لاقُوهُ عن قريب عند موتهم ، وعند قيام الساعة ، ونبَّه على اقتراب ذلك بأن عبَّر عنه بلفظ الماضي ، وهو قوله عز وجل :﴿وَجَاءَتْ

---

(١) الحديث أيضا في الكشاف ٣٨٥/٤، ولفظه فيه :(كاتب الحسنات على يمين الرجل ، وكاتب السيئات على يسار الرجل ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا ، وإذا عمل سيئة ، قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر) قال ابن حجر في تخريجه : أخرجه الثعلبي والبغوي من طريق جعفر ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، ومن هذا الوجه أخرجه الطبراني ، وأخرجه البيهقي من هذا الوجه ، ومن رواية بشر بن نمير عن القاسم نحوه ، وأخرجه الطبراني من رواية ثور بن يزيد ، عن القاسم نحوه، وروى أبو نعيم في الحلية ، وابن مردويه من طريق إسماعيل بن عياش ، عن عاصم بن رجاء ، عن عروة بن رديم ، عن القاسم، عن أبي أمامة ، وعند الطبري من طريق علي بن جرير ، عن حماد بن سلمة ، عن عبد الحميد بن جعفر ، عن كنانة ، قال : دخل عثمان بن عفان على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله كم مع العبد ملك ؟ ..) الحديث .

سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [وسكرة الموت]:هي شدته الذاهبة بالعقل ، وعبّر عن اقتراب ما جحدوه بجاءت ، كأن مجيئها قد وقع ﴿بالحق﴾ أي : بحقيقة الأمر مما ينكشف للإنسان من سعادة أو شقاوة ؛ لأن الموت أول أحوال الآخرة ، وقوله :﴿بالحق﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون المراد منه الموت ، فإنه حق ، كأن شدة الموت تحضر الموت ، والباء حينئذ للتعدية يقال : جاء فلان بكذا ، أي : أحضره ، وثانيهما : أن يكون المراد من الحق ما أتى به من الدين ؛ لأنه حق ، وهو يظهر في[1] شدة الموت ، وما من أحد إلا وهو في تلك الحالة يظهر الإيمان ، لكنه لا يقبل إلا ممن سبق منه ذلك ، وآمن بالغيب ، ومعنى المجيء به : هو أنه يظهره ، كما يقال : الدين الذي جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم أي أظهره ، ولما كانت شدة الموت مظهرة له قيل فيه :جاء به وهو قوله تعالى :﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ يحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى الموت ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى الحق ، ومعنى ﴿تحيد﴾ أي : تفر وتهرب ، قيل: خطاب للكافر ، والأقوى أن يقال: هو خطاب عام مع السامع كأنه يقول :﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ أيها السامع[2] .

وفي الحفظة ومجيء سكرة الموت بالحق يقول الهادي عليه السلام : يخبر سبحانه بحفظ الحفظة له الذين عن يمينه وشماله وهما الملكان اللذان ذكرهما الله أنهما عن اليمين والشمال قعيد يحفظان عليه كل لفظه وفعله ، وهما الرقيب العتيد الذي مع كل آدمي ، والرقيب : فهو المحصي لفعل كل فاعل ، والعتيد: فهو الثابت الراتب الذي ليس بمفقود.

سكرة الموت : هي غشية الموت وشدته ، وإزالته لعقل الميت وكربته ، فشبه الله زوال عقل الميت وكربته ، وما ينزل به من غشيته بالسكرة التي تذهب العقل وتفسده ، والعرب تمثل كل شدة أزالت عقل صاحبها بالسكرة ــ تقول : مرت بنا من هذه الأمور

---

(١) في الرازي : وهو يظهر عند شدة الموت (١٦٤/٢٨) .

(٢) وانظر الرازي ١٦٤/٢٨ ، وقد أصلحنا اللفظ منه . قال في الكشاف : وعن بعضهم أنه سأل زيد بن أسلم عن ذلك ، فقال : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحكاه لصالح بن كيسان ، فقال : والله ما سن عالية ، ولا لسان فصيح ، ولا معرفة بكلام العرب ، هو للكافر ، ثم حكاهما للحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس ، فقال : أخالفهما جميعا : هو للبر والفاجر . (الكشاف ٣٨٦/٤) .

سكرات بعد سكرات ، تريد شدائد حالات بعد حالات .

ومعنى ﴿بالحق﴾ فهو: بحقائق ما وعد الله، من ذلك قوله :﴿كل نفس ذائقة الموت﴾[1] فجاء وعد الله على حقائقه ، ونزل بأهله على يقينه وصدقه ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ يقول : ذلك ما كنت منه يا هذا الميت تفر وتكره قربه ولا تريده نفسه[2] قال الشاعر :

تحيد مني وتراني في السند كما يحيد الذئب من جرو الأسد[3]

وفي البرهان : معنى ﴿تحيد﴾ تتنحي ، قال عدي :

ولقد قلت حين لم يكُ عنه لي ولا للرجال عنه محيد[4]

وقوله تعالى :﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ عطف على قوله :﴿وجاءت سكرة الموت﴾ ويكون قوله :﴿وجاءت سكرة الموت﴾ إشارة إلى الإماتة ، وقوله : ﴿ونفخ في الصور﴾ إشارة إلى الإعادة والإحياء [5].

ومعنى النفخ في الصور أي : في صُوَرِ الموتى ، وهو عبارة عن نفخ الروح فيها . وقيل: هو القرن ينفخ فيه إسرافي يوم القيامة .

وقوله تعالى :﴿ذلك يوم الوعيد﴾ قال الزمخشري : هو على تقدير حذف المضاف ، أي وقت ذلك يوم الوعيد ، والإشارة إلى مصدر نفخ[6] .

---

(١) آل عمران : ١٨٥ ، الأنبياء : ٣٥ ، العنكبوت : ٥٧ .

(٢) مجموع تفسير الأئمة ٤٦٤ .

(٣) قال الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه‌السلام في تفسيره :ومعنى ﴿تحيد﴾ أي تهرب وتميل قال الشاعر :

تحيد عني وتراني في السند كما يحيد الذئب عن جرو الأسد

(٤) البرهان مخطوط ٣٥٥.

(٥) في الرازي : وقوله تعالى :﴿ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد﴾ عطف على قوله :﴿وجاءت سكرة الموت﴾ والمراد منه إما النفخة الأولى ، فيكون بيانا لما يكون عند مجيء سكرة الموت . أو النفخة الثانية ، وهو أظهر ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ذلك يوم الوعيد﴾ بالنفخة الثانية أليق ، ويكون قوله :﴿وجاءت سكرة الموت﴾ إشارة إلى الإماتة ، وقوله :﴿ونفخ في الصور﴾ إشارة إلى الإعادة والإحياء . (تفسير الرازي الكبير ١٦٤/٢٨) .

(٦) انظر الكشاف ٣٨٦/٤ .

قال الرازي: وهو ضعيف ؛ لأن يوم لو كان منصوبا لكان ما ذكر ظاهرا ، وأما رفع يوم فيفيد أن ذلك نفس اليوم ، والمصدر لا يكون نفس الزمان ، وإنما يكون في الزمان ، فالأولى أن يقال : ذلك إشارة إلى الزمان المفهوم من قوله :﴿ونفخ﴾ لأن الفعل كما يدل على المصدر يدل على الزمان ، فكأنه تعالى قال : ذلك الزمان يوم الوعيد ، والوعيد : فهو الذي أوعد به من الحشر والإيتاء والمجازاة [1].

وقوله تعالى :﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ قال الهادي عليه السلام : هذا في يوم القيامة عند خروج الخلق من قبورهم ومصيرهم إلى حشرهم ، ووقت حسابهم حينئذ تأتي كل نفس ومعها ما ذكر الله من السائق والشهيد ، والسائق والشهيد : فهو الرقيب الذي ذكر الله العتيد ، وهما الملكان اللذان قال الله :﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ فهما يشهدان عليه ويسوقانه[2] . اهـ

يعني : إلى الموقف ، ومنه إلى مقعده ، والسائق لازم للبر والفاجر ، أما البر فيساق إلى الجنة ، وأما الفاجر فإلى النار ، قال تعالى : ﴿وسيق الذين كفروا﴾[3] ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم﴾[4] .

وقيل : المراد بالسائق والشهيد العمل ؛ لأنه يسوقه إلى الجنة والنار ذكره في البرهان [5].

وفي التجريد : قال الكلبي ــ السائق : الذي يكتب عليهما السيئات ، والشهيد : الذي يكتب الحسنات .

وقوله تعالى :﴿ لَقَدْ كُنْتَ﴾ أي : يقال للإنسان : ﴿لقد كنت في غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ أي: يوم القيامة ، قاله الضحاك ، ومقاتل ، أي : لإنكارك له وكفرك ، جعلت الغفلة كأنها غطاء على جسده كله ، وغشاوة غطى بها عينيه ، فهو لا يبصر ، فإذا كانت

---

(١) انظر الرازي ١٦٤/٢٨.

(٢) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٦٢.

(٣) الزمر : ٧١

(٤) الزمر : ٧٣

(٥) انظر البرهان ٣٥٥.

القيامة زالت عنه الغفلة وغطاؤها ، فأبصر من الحق ما لم يصره ، وهو معنى قوله :﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ أي : أزلنا عنك غفلتك ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ وكان من قبل كليلا .

قال الهادي عليه‌السلام : يقول سبحانه : قد كنت بتكذيبك وقلة نظرك لنفسك والإعراض عن العمل في الدنيا بما يخلصك في هذا اليوم في غفلة ، والغفلة : فهي من الترك للعمل ، ومعنى ﴿فكشفنا عنك غطاءك﴾ هو بما أظهر له من المعاينة لما كان فيه شاكا وعن العمل له معرضا ، حتى رآه عيانا ، وواجهه صراحا ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ أي : ثاقب النظر حتى لا ينفع السمع والبصر ، فهذا مَثَلٌ مثَّل به الله ، يريد أنك كنت من قبل تكذب بهذا وبرؤيته ، فقد أصبحت اليوم حديد البصر بمعاينته ، وزال عنك الخبر ووقع العيان [1]. اهـ وقيل : الغطاء هو الجهل .

ثم أخبر سبحانه عن قرينه المغوي له فقال تعالى :﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ قرينه : أي شيطانه الذي قيِّضَ له وقُرِنَ به من جنِّي وأنسيٍّ ، وقيل : المَلَكُ هو القرين ، أي : هذا وكلت به قد أظهرته ، ومثل هذا ذكره في البلغة [2].

قلت : ويدل على الأول قوله تعالى :﴿وقيضنا لهم قرناء﴾[3] وقال تعالى :﴿نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾[4] وقال تعالى :﴿فبئس القرين﴾ ونحو ذلك مما سيأتي إن شاء الله تعالى

قال الهادي عليه‌السلام : القرين الذي يقول هذا : فهو الصاحب الفاسق المغوي له في الدنيا ، والمشارك له في الإثم من جني موسوس ، أو إنسي رديء فاجر مؤذ ، ومعنى ﴿ما لدي﴾ فهو : ما عندي مما استوجبه بفعلي ﴿عتيد﴾ فهو : مقيم ، وهو عذاب الله الأليم النازل به وبقرينه المشارك له في آثامه[5] . اهـ

---

(١) مجموع تفسير الأئمة ٤٦٥ .

(٢) تفسير البلغة للطوسي مخطوط ، ولم نتحصل عليه إلى الآن .

(٣) فصلت : ٢٥ .

(٤) الزخرف : ٣٨ .

(٥) مجموع تفسير الأئمة ٤٦٥ .

وقيل : معنى ﴿عتيد﴾ أي : هذا ما عندي حاضر قريب .

ثم يقال للسائق والشهيد :﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي : كل جاحد معرض عن الحق معاند للصدق .

قال في البرهان : والمأمور بـ﴿ألقيا ...كل كفار﴾ في النار ملكان ، ويجوز أن يكون واحدا أُمِرَ بلفظ الاثنين ، كما قال الشاعر :

فإن تزجراني يا ابن عفان أنزجر وإن تدعواني أحم عرضا ممنعا[1]

قال في الكشاف : لأن العرب أكثر ما يرافق الرجل منهم اثنان ، فكثر في ألسنتهم أن يقولوا : خليليّ وصاحبيّ ، وقفا ، وأسعدا ، حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين[2] لكثرة خطابهما على ألسنتهم .

أو نزلت تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل لاتحادهما ، كأنه قيل : ألق ألق للتأكيد[3] .

وقوله :﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه ، والخير : اسم المال ، أو مناع لجنس الخير أن يصل إلى أهله .

وفي البرهان : الخير المال كله ، ومنعه أن ينفق في [غير][4] طاعة الله عز وجل ، وتحبس فيه الزكاة المفروضة . اهـ

وقوله تعالى :﴿مُعْتَدٍ﴾ أي : ظالم متجاوز للحق ، وقوله :﴿مُرِيبٍ﴾ فيه وجهان أحدهما : ذو ريب أي شاك في الله وفي دينه ، وثانيهما : مريب يوقع الغير في الريب بإلقاء الشبهة ، والإرابة جاءت بالمعنيين جميعا ، وفي الآية ترتيب آخر غير ما ذكرناه ، وهو أن يقال : هذا بيان أحوال الكفار بالنسبة إلى الله تعالى ، وإلى رسوله ، وإلى اليوم الآخر فقال :﴿كفار عنيد﴾ إشارة إلى حاله مع الله يكفر به ويعاند آياته ، وقوله :

---

(١) البرهان ٣٥٥.

(٢) إلى هنا نهاية ما في الكشاف ، وما بعده ليس من الكشاف (الكشاف ٣٨٧/٤) .

(٣) قال السيد العلوي : قوله : كأنه قيل : ألق ألق . وجه ذلك أنه حذف الفعل الثاني ، ثم أتى بفاعله ، وفاعل الفعل الأول على صورة ضمير الاثنين متصلا بالفعل الأول .

(٤) في المصابيح والبرهان : ومنعه أن ينفق في طاعة الله ، والصواب : ومنعه أن ينفق في غير طاعة الله . البرهان ٣٥٥.

﴿مناع للخير معتد﴾ إشارة إلى حاله مع رسوله فيمنع الناس من أتباعه ، ومن الإنفاق على من عنده ، ويتعمد بالإيذاء وكثرة الاعتداء [١]، وقوله :﴿مريب﴾ إشارة إلى حاله بالنسبة إلى اليوم الآخر يريب فيه ويرتاب ، ولا يظن أن الساعة قائمة .

وقيل : المريب هو الظالم قال الشاعر :

ألا لا أبالي من رماني بريبة إذا كنت عند الله غير مريب[٢]

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي : شريكا له في العبادة ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ أي : فبسبب ذلك القيام ﴿فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.

قال في الكشاف : ﴿الذي جعل﴾ مبتدأ مضمن معنى الشرك ، ولذلك أجيب بالفاء ، ويجوز أن يكون ﴿الذي جعل﴾ منصوبا بدلا من ﴿كل كفار﴾ ويكون ﴿فألقياه﴾ تكريرا للتوكيد [٣]. اهـ

كأنه قال : القيا في جهنم كل كفار عنيد ، وهو الذي جعل مع الله إلها آخر ، فألقياه بعد ما ألقيتموه في جهنم في عذاب شديد من عذاب جهنم .

قيل : نزلت في الوليد بن المغيرة كان يمنع بني أخيه من الإسلام ، ويتوعدهم إن أسلموا أنه لا ينفعهم بخير ما عاش [٤].

ثم قال تعالى :﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ وهو جواب لكلام مقدر ، كأن الكافر حين ما يلقى في النار يقول : ربنا أطغاني شيطاني ، فيقول الشيطان : ﴿ربنا ما أطغيته﴾ ولكنه طغى واختار الضلالة على الهدى ، كقوله لهم :﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾[٥] فاطرحت هذه المقاولة لما يدل عليها ، ويدل عليه أيضا قوله تعالى بعد هذا :﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾

---

(١) وفي الرازي : وكثرة الهذاء . (الرازي ٢٨/١٦٦) .

(٢) صاحب القول هذا هو الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه‌السلام ، وانظر كتابه تفسير غريب القرآن ١٧٣.

(٣) انظر الكشاف ٤/٣٨٧.

(٤) ذكره في مجمع البيان للطبرسي ٩/١٨٦، وفي الكشاف : ٤/٣٨٧.

(٥) إبراهيم : ٢٢ .

لأن الاختصام يستدعي كلاما من الجانبين ، وحينئذ هذا كما قال تعالى في هذه السورة، وفي ص ﴿قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم﴾[١] وقوله تعالى :﴿ربنا من قدم لنا هذا فـــزده﴾[٢] إلى أن قال :﴿إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾[٣] .

قال في الكشاف : الطغيان الزيادة في الظلم ، ولم يقل : وقال بالواو ، كما قال أولا ؛ لأن الجملة الأولى عطفها واجب للدلالة على الجمع بين معناها ومعنـــى مـــا قبلهـــا في الحصول ، أي مجيء كل نفس مع الملكين ، وقول قرينه ما قال [له]، بخلاف هذه الجملة فهي مستأنفة كالجملة الواقعة في حكاية التقاول [٤].

قال الرازي : فقوله ﴿في ضلال بعيد﴾ وصف المصدر بما يوصف به الفـــاعل ، كمـــا يقال : كلام صادق ، وعيشة راضية ، أي في ضلال ذي بعد ، والضلال إذا بعد مداه ، وامتد الضال فيه يصير بينا ويظهر الضلال ؛ لأن من حاد عن الطريق وأبعد عنه تتغـــير عليه السمات والجهات [ولا يرى عين المقصد] ويتبين له أنه ضل عن الطريق ، وربما يقع في أودية ومفاوز ، وتظهر [له] أمارات الضلال بخلاف من حاد قليلا ، فالضلال وصفه الله تعالى بالوصفين في كثير من المواضع ، فقال تارة :﴿في ضلال مبين﴾[٥] وأخرى قال : ﴿في ضلال بعيد﴾[٦] . اهـ

قال الهادي عليه‌السلام : ثم أخبر سبحانه باختصام الفاجر وقرينه وتلاومه هو ونظيره ، فكـــان من رد الله عليهما حين كان منهما ما كان من قولهما :﴿قال لا تختصموا لدي﴾ يقول : لا

---

(١) ص : ٦٠ .

(٢) ص : ٦١ .

(٣) ص : ٦٤ .

(٤) الكشاف ٣٨٧/٤ بتصرف يسير ، وتقديم وتأخير .

(٥) تكررت في القرآن في ثمانية عشر موضعا : آل عمران : ١٦٤ ، الأنعام : ٧٤ ، الأعراف : ٦٠ ، يوســف : ٨ ، ٣٠ ، مريم ٣٨، الأنبياء : ٥٤ ، الشعراء : ٩٧ ، القصص : ٨٥ ، لقمان : ١١ ، سبأ ٢٤ ، يس : ٢٤، ٤٧، الزمر : ٢٢، الزخرف : ٤٠ ، الأحقاف : ٣٢ ، الجمعة : ٢ ، الملك : ٢٩ .

(٦) مثله بلفظه في الرازي ، وقد أصلحنا اللفظ منه ، وما بين أقواس الزيادة من الرازي (الرازي ١٦٨/٢٨) .

تختصموا اليوم عندي ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ﴾ في دار التكليف على ألسنة رسلي ﴿بِالْوَعِيدِ﴾ يقول : قدمت إليكم بالإعذار والإنذار والوعيد لهذا النهار ، فلم ينفعكما إعذاري ، ولم يردعكما عن المعصية وعيدي ، فما تركت لكم عليَّ حجة ، فاليوم ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ فهو : تحريفه ، والتحريف فهو من الكافرين عند تخاصمهم ، يقول بعضهم لبعض : هذا بأفعالكم ، وهذا بأسبابكم نزل بنا ، وحق علينا وعيد ربنا ، ويقول الآخرون مثل مقالتهم ، وينسبون سبب ذلك إليهم ، فكلٌّ يطرح الذنب على صاحبه ، ويحيل الإغواء عليه [١]. اهـ

ثم نفى سبحانه عن نفسه الظلم فقال :﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي : ما أنا بمعذب من لم يجترم ، ولا بزائد في عقاب مسيء ، ولا ناقص من ثواب محسن ، والظلَّام : مبالغة في الظالم ، والوجه فيه كما قاله جار الله : إن ذلك أمر تقديري ، كأنه تعالى يقول : لو ظلمت عبدي الضعيف ، الذي هو محل الرحمة لكان ذلك غاية الظلم ، وما أنا بذلك فيلزم [من نفي كونه ظلَّامًا]نفيُ كونه ظالماً [٢].

ثم قال تعالى :﴿يوم نقول﴾ اذكر ، أو أنذر [٣]﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ وسؤالها وجوابها من باب التخييل الذي يقصد به تصوير المعنى في القلب [وتثبيته] وفيه معنيان أحدهما : أنه إنكار لموضع الزيادة ، أو لإمكان الزيادة بمعنى أنها قد امتلأت ، أي لا مزيد [٤].

---

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٦٥، ٤٦٦.

(٢) العبارة موجودة بلفظها في الرازي ١٧٢/٢٨، وقد نقلها الرازي من الكشاف بتصرف ، ولفظ الكشاف : فإن قلت : كيف قال :﴿بظلام﴾ على لفظ المبالغة ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون من قولك : هو ظالم لعبده وظلام لعبيده ، والثاني : أن يراد لو عذبت من لا يستحق العذاب لكنت ظلاما مفرطا الظلم ، فنفى ذلك . الكشاف ٣٨٨/٤.

(٣) أي : أنه منصوب بمضمر تقديره : اذكر ، أو أنذر .

(٤) قال السيد العلوي في حاشيته على الكشاف ٢٩١: قوله :﴿هل من مزيد﴾ ذكر فيه أربعة أوجه ، الأول : أن الاستفهام فيه لإنكار موضع المزيد . والثاني : أنه فيه لتقرير ثبوت موضع المزيد ، والثالث : أنه استكثار للداخلين من غير تعرض بالمكان ، وهو في الحقيقة إنكار للزيادة على الداخلين ، والرابع : أنه طلب للزيادة في الداخلين للغيظ على العصاة ، قيل : والطلب هاهنا بمعنى التمني ، كأنها تتمنى ذلك .

والثاني : أنه استدعاء للزيادة وطلب لها غيظا على العصاة ، و ﴿مزيد﴾ إما اسم مكان أو مصدر على الأول ، وعلى الثاني مصدر ، أو اسم مفعول كالمبيع ذكره في التجريد.

وقال الهادي عليه‌السلام ما لفظه :(هذا اليوم يوم القيامة ، يوم الحسرة والندامة ، ومعنى ﴿يوم نقول لجهنم﴾ هو قوله لخزنتها :﴿هل امتلأت﴾ وكذلك قوله :﴿وتقول هل من مزيد﴾ وهو قول خزنتها : هل من مزيد، لما أن كان الخزنة من أسبابها جاز أن يطرحوا، ويكون الخطاب لها على مجاز الكلام ، وهذا في القرآن موجود ، وفي اللغة ومن ذلك من كتاب الله سبحانه :﴿وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾[1] فالعجل لا يشرب في القلب ، وإنما الذي أشرب القلب حبه ، فأراد أشربوا في قلوبهم حب العجل ، فطرح حب ، وأقام العجل مقامه ، إذ كان من سببه ، وفي ذلك ما يقول الشاعر:

إلا إنني أسقيت أسود حالكا

فقال : أسقيت ، والأسود فلا يسقاه أحد ، وإنما سقي سم الأسود ، فطرح السم ، وأثبت الأسود مكانه ، إذ كان من سببه ، والشاهد على ذلك من كتاب الله سبحانه أيضا قوله :﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾[2] والقرية فإنما هي البيوت والأبنية ، وليس شئ من هذا يخاطب ولا يسأل ، وإنما أراد أهل القرية وسكانها ، فطرح الأهل والسكان إذ كانوا من سبب القرية ، وأثبت القرية ، فكذلك قوله :﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ أراد خزنة جهنم ، فطرح الخزنة إذ كانوا من سبب جهنم فجاء المعنى كأن المخاطبة لجهنم ، وإنما المخاطبة لخزنتها والقومة بها .

ومعنى ﴿وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فهو كرمت وشرفت وقربت منهم ، وقربوا منها ، وهذا مشتق من الزلفى ، والزلفى : فهي الكرامة بالخلاصة العالية[3] . اهـ

ومعنى ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي : مكانا غير بعيد منهم ، ومعناه التوكيد كما تقول : هو

---

(١) البقرة : ٩٣ .

(٢) يوسف : ٨٢ .

(٣) مجموع تفسير الأئمة عليهم‌السلام ٤٦٦، ٤٦٧ .

قريب غير بعيد ، وعزيز غير ذليل ، فإن قيل : فعلى هذا ليس إزلاف الجنة من المؤمن بأولى بإزلاف المؤمن من الجنة فما الفائدة في قوله :﴿أزلفت الجنة﴾ ؟ قيل له : إكراما للمؤمن كأنه تعالى أراد بيان شرف المؤمن المتقي أنه ممن يمشى إليه ، ويدنى منه .

ثم قال تعالى :﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي : يقال لهم هذا الثواب والتقريب الذي كنتم توعدون في الدنيا ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ لكل رَجَّاعٍ إلى الله بالتوبة .

قال مجاهد : هو الذي يذكر ذنوبه فيتوب منها ، ويستغفر ، وقال سعيد بن المسيب : هو الذي يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب .

﴿حفيظ﴾ لأمر الله وحدوده ، أي : حافظ [لها] لا يتعداها ، متحفظ على دينه ، ورع طاهر مجتهد في طاعة ربه . وقيل : حفيظ لذنوبه فيستغفر لها عن ابن عباس .

وفي البرهان : الأواب ــ الذي لا يجلس مجلسا فيقوم حتى يستغفر الله عز وجل ، والحفيظ : المحافظ على وصية الله عز وجل ، المطيع له في السر والجهر [١]. اهـ

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ قال الهادي عليه‌السلام : فهو خشيه في الغيب ، والغيب : فهو ما غاب من الناس واستتر من ضمير القلوب ، أو عمل مستور [٢]. اهـ

وقوله سبحانه :﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ قيل : جاء عند الموت وانقطاع التكليف ، وقيل: جاء إلى طاعة ربه بقلب منيب .

وقال الهادي عليه‌السلام : فهو جاء يوم القيامة بقلب تائب راجع ، قد رجع في دنياه إلى الله وأناب إلى طاعة الله [فكان لها في دنياه من العاملين ، ورجع إلى الله وهو من المنيبين المكرمين] [٣].

قال في الكشاف : فإن قلت : كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة ؟ فقال: للثناء البليغ على الخاشي وهو خشيته ، مع علمه أنه الواسع الرحمة ، كما أثنى عليه بأنه

---

(١) البرهان : ٣٥٥.

(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٦٧ .

(٣) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٦٧ ، وما بين قوسي الزيادة موجود في المجموع ، وساقط من المصابيح .

خاشٍ مع أن المخشي منه غائب ، ونحوه ﴿الذين يؤتون ما آتــوا وقلوبهــم وجلــة﴾[١] فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات ، ووصف القلب بالإنابة وهي الرجـــوع إلى الله ؛ لأن الاعتبار بما ثبت منها في القلب [٢].

ثم قال تعالى :﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي : يقال لهم : ادخلوا الجنة ﴿بسلام﴾ أي : سالمين من العذاب ، وزوال النعم ، أو مسلما عليكم ، يسلم الله عليكم وملائكته والمؤمنون .

﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي : يوم تقدير الخلود ، كقوله :﴿فادخلوها خالدين﴾[٣] أي : مقدرين الخلود ، والخلود : البقاء الذي لا انقطاع له ولا زوال لنعمه ، والفائدة في ذكر الخلود مع علم المؤمن أنه إذا دخل الجنة أخلد فيها ـــ أن اطمئنان القلب بالقول أكثر .

ثم قال تعالى :﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي : الجنة ، وهو ما لم يخطر ببـــالهم ، و لم تبلغه أمانيهم حتى يشاؤه .

ثم قال تعالى :﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ على ما يشاؤه قال زيد بن علي عليه‌السلام : إن الرجـــل ليسكن في الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول ، ثم تأتيه امرأة فتضرب على منكبه ، وتنظر في وجهه ، فخدها[٤] أضوأ من المرآة ، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بـــين المشـــرق والمغرب ، فتسلم عليه ، فيرد عليها السلام ، ويسألها من أنت ؟ فتقول : أنا من المزيد ، ويكون عليها سبعون ثوبا ، أدناها مثل شقائق النعمان من طوبى، ينفذها بصره حتـــى يرى مخ ساقها من وراء ذلك ، وإن عليها لتيجانا أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب[٥] .

قال الرازي : وفي الآيات ترتيب في غاية الحسن ، وذلك لأنه تعالى بدأ ببيان إكرامهم حيث قال :﴿أزلفت الجنة للمتقين﴾ و لم يقل : قرب المتقون من الجنة بيانا للإكرام حيث

---

(١) المؤمنون : ٦٠ .

(٢) انظر الكشاف ٤/٣٩٠.

(٣) الزمر : ٧٣ .

(٤) غير منقوط في المصابيح ، ولا في تفسير الإمام زيد عليه‌السلام المخطوط ، فيحتمل أن اللفظة : فخدها ، أو (فخذها)

(٥) تفسير غريب القرآن للإمام زيد عليه‌السلام ٣٠١. وقد أصلحنا بعض الألفاظ منه . ومن المخطوط ٢٩٣.

جعلهم ممن تنقل إليهم الجنان [بما فيها من الحسان] ثم قال لهم : هذا لكم بقوله :﴿هذا ما توعدون﴾ ... ثم قال ﴿ذلك يوم الخلود﴾ أي : لا تخافون ما لحقكم من قبل ، حيث أخرج أبويكم منها ، فهذا دخول لا خروج بعده منها .

ثم لما بين أنهم فيها خالدون قال : لا تخافوا انقطاع أرزاقكم ، وبقاءكم في حاجة ، كما كنتم في الدنيا ، من كان يعمر ينكس ويحتاج ، بل لكم الخلود ، ولا ينفد ما تمتعون به فلكم ما تشآؤن [1].

ثم قال تعالى :﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ يعني أهل مكة ، ومعنى ﴿كم﴾ التكثير ، أي: كثيرا أهلكناهم قبلهم ، ومعنى ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ أي : من أمة وطبقة ، قال :

إذا ذهب القرن الذي كنت فيهم وخلفت في قرن فأنت غريب

﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي : قوة وأوفر عددا من أهل مكة ، لما أنذرهم بما بين أيديهم من اليوم العظيم ، والعذاب الأليم ـ أنذرهم بما يعجل لهم من العذاب المهلك ، والإهلاك المدرك ، وبيّن لهم حال من تقدمهم .

فإن قيل : إذا كان كذلك للجمع بين الإنذار بالعذاب العاجل والعقاب الآجل فلم توسطهما قوله تعالى :﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾ إلى قوله :﴿ولدينا مزيد﴾ ؟ .

قيل في الجواب : ليكون ذلك دعاء بالخوف والطمع ، فذكر حال الكفور المعاند ، وحال الشكور العابد ـ في الآخرة ترهيبا وترغيبا .

ثم قال تعالى : إن كنتم في شك من العذاب الأبدي الدائم فما أنتم في ريب من العذاب العاجل المهلك الذي أهلك أمثالكم .

ثم قال تعالى :﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ التنقيب : البحث عن الأمر والطلب ، وقرئ بالتخفيف ، أي : فخرقوا ودوخوا ، والفاء سببية عن قولهم : هم أشد منهم بطشا ،

---

(١) الرازي ٢٨/١٨٠ ، وفيه زيادة بعد قوله : فلكم ما تشاءون ، في أي وقت تشاءون ، والى الله المنتهى ، وعند الوصول إليه ، والمثول بين يديه ، فلا يوصف ما لديه ، ولا يطلع أحد عليه ، وعظمة من عنده تدلك على فضيلة ما عنده . وفيه زيادة وهو واقعة بين قوله :﴿هذا ما توعدون﴾ وقوله : ثم قال :﴿ذلك يوم الخلود﴾ أنظرها هناك .

أي: شدة بطشهم أقدرتهم على التنقيب وقوتهم عليه ، وأصله من النقب ، وهو الطريق وجمعه نقوب ، كأنهم سلكوا كل طريق فلم يجدوا محيصا عن أمر الله ﴿فنقبوا﴾ أي : ساروا في أقطار البلاد وعملوا طرقا ومسالك ، قال الشاعر :

نَقَّبوا في البلاد من حَذَرِ الموتِ وجالوا في الأرض كلَّ مَجَالِ[1]

وقال آخر :

وقد نَقَّبْتُ في الآفاقِ حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

ذكره الحسين بن القاسم عليه السلام [2] وغيره .

قال الهادي عليه السلام : معنى نقبوا : هو ركضوا وهربوا خوفا من العذاب ، فلم يغنهم ذلك ولحقتهم من الله النقم والمهالك . اهـ

وقد شاهد أهل مكة آثار القرون المهلكين من نحو عاد وثمود في أسفارهم ، أو نقب أهل مكة في أرض القرون ، وأحاطوا بها خبرة ، فهل رأوا محيصا لأحد من المهلكين

ثم قال تعالى :﴿ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي : هل وجدوا من الله محيصا ، أي : مهربا وملجأ يحيصون إليه أو يروغون إليه ، أو يلجؤون نحوه .

ثم قال تعالى :﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من قصص المهلكين ﴿لَذِكْرَى ﴾ يقول : تذكرة وعبرة ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ واع ؛ لأنه من لا يعي قلبه كمن لا قلب له ، ومعنى ﴿قلب﴾ أي : عقل ، كني عنه بمحله .

قال الهادي عليه السلام : معناه من كانت له فكرة ونظر، واستعمال للتمييز بعقله إذا فكر. ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ فهو: ألقى بالطاعة إلى الله ورسوله فسمع لأمر الله وأطاع ، وكان لأحكام الله ذا قبول وإتباع ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ يقول : شاهد بالحق ، قائل فيه بالصدق ،

---

(١) الشاعر : هو الحارث بن حلزة ، وفي عليان : للحارث بن كلدة ، والنقب : الطريق ، ونقبوا : أي ساروا في طرق البلاد ، ونقروا وفتشوا على مهرب وملجأ ؛ لأجل حذرهم من الموت ، وجالوا : أي ذهبوا في الأرض ، والجول : الناحية والجانب ، أي : ساروا في نواحي الأرض وجوانبها . كل مجال : أي كل طريق ، أو كل جولان ، لأن مفعل صالح للمكان والحدث . انظر الكشاف ٣٩٠/٤.

(٢) تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام مخطوط ١٧٤.

يشهد أن ما جاء به نبيه من الله ، وأنه أنزل بأمر الله ، وأنه من عند الله. اهـ

ومعنى ﴿ألقى السمع﴾ هو : أصغى إليه سمعه ، والمراد بالسمع : المسموع به ، أي : وأصغى أذنه إلى الوحي للوعظ بذكره ، ومعنى ﴿شهيد﴾ أي : حاضر بذهنه وفطنته ؛ لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب .

وفي البرهان ــ أي : ألقى السمع في ما غاب عنه ، وهو شهيد فيما عاينه بالحضور أو سمع ما أنذر به من ثواب أو عقاب، وهو شهيد على نفسه بما عمل من سيئة أو حسنة[١].

ثم رجع عز وجل إلى الاستدلال بخلق السموات والأرض وما بينهما بيانا لكمال القدرة ، وردا على منكري الإعادة قال تعالى :﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي : في مدة مقدرة بستة أيام ؛ لأن اليوم لا يعرف إلا بالشمس ، ولا شمس هناك ، والله قادر على خلقها في لمحة طرفه ، لكن لحكمة علمها وإن جهلناها ابن المسيب : هو تعليم لعباده التثبت في الأمور .

قال في البرهان : نزلت هذه الآية في اليهود زعموا أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة ، واستراح يوم السبت فلذلك جعلوه يوم راحة[٢].

والظاهر أن المراد الرد على المشرك ، والاستدلال بخلق السموات والأرض وما بينهما.

وقوله تعالى :﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ أي : ما تعبنا بالخلق الأول حتى لا نقدر على الإعادة ثانيا والخلق الجديد ، كما قال تعالى :﴿أفعيينا بالخلق الأول﴾ وأما ما قاله اليهود ونقلوه من التوراة فهو إما تحريف منهم ، أو لم يعلموا تأويله ؛ وذلك لأن الأحد والاثنين أزمنة متميزة بعضها عن بعض ، فلو كان خلق السموات ابتدأ يوم الأحد لكان الزمان متحققا قبل الأجسام ــ والزمان لا ينفك عن الأجسام ــ فيكون قبل خلق الأجسام أجسام آخر ، فيلزم القول بقدم العالم وهو مذهب الفلاسفة ، ومن العجيب أن بين الفلاسفة والمشبهة غاية الخلاف .

---

(١) البرهان : ٣٥٥، ٣٥٦، وفيه (الثاني) بدلا عن (أو) فيما ذكره هنا .

(٢) البرهان : ٣٥٦. ومثله في الكشاف : ٤/ ٣٩٢ ، ومثله في مجمع البيان ٩/ ١٩٠.

ومعنى قوله :﴿من لغوب﴾ أي : من تعب ، قال الكميت (١):

إذا قيل هذا الحق لا ميل دونه فأنضاؤهم في الحق حسرى ولُغَّبُ

بعض من اللغوب ، وهو التعب والنصب والإعياء والوناء من الجهد ، لغب : إذا فتر وكل من المشقة ، وقال آخر :

إذا رقى الجاري المطي اللغبا

ثم قال تعالى :﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ ما يقول المشركون من إنكار البعث ، فأمر الله نبيئه صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر على ما يقولون بالتكذيب به فيما جاء ، والوعيد له بالقتل ، قيل : وهي منسوخة بآية السيف ، وليس كذلك ، بل الصبر مأمور به على كل حال ، وذلك أن تكذيبهم الرسول ، وتعجبهم من قوله ، واستهزاءهم به كان يوجب في العادة أن يشتغل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بلعنهم وسبهم ، والدعاء عليهم فقال : اصبر على ما يقولون ، واجعل كلامك بدل الدعاء عليهم [التسبيح لله والحمد له ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ أو كنوح عليه السلام] حيث قال :﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾ بل ادع إلى ربك ، فإذا ضجرت عن ذلك بسبب إصرارهم فاشتغل بذكر ربك في نفسك (٢).

---

(١) في نسخة المصابيح ، فأبصارهم ، وفي نسخة تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني ، فأنضاؤهم والكميت : هو الكميت بن زيد الأسدي ، أبو المستهل ، المولود سنة ٦٠هـ والمتوفى سنة ١٢٦هـ شاعر أهل البيت عليهم السلام ، وأشعر شعراء أهل الكوفة المقدمين في القرن الأول الهجري ، عالم بلغات العرب وأنسابهم وأيامهم ، معروف بالتشيع لآل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، مشهور بذلك ، كان خطيب بني أسد ، حافظا للقرآن ، راميا فارسا ، شجاعا ، جدليا ، وهو أول من ناظر في التشيع ، رثى الإمام زيد بن علي عليهما السلام ، وابنه الحسين عليه السلام ، ومدح بني هاشم ، وهجا بني أمية ، فأخذ وحبس ، وأخرج من الحبس بحيلة ، أراد بعض أهل البيت إعطاءه مالا مقابل مدحه ، فقال : والله ما أحببتكم للدنيا ، ولو أردت الدنيا لأتيت من هي في يده ، ولكن أحببتكم للآخرة ، أما الثياب التي أصابت أجسامكم فأنا أقبلها لبركتها ، وأما المال فلا أقبله ، قال في معجم أصحاب الإمام زيد : دخل الكميت على الإمام زيد بمدائح وقصائد ، وأسمعه إياها ، فأجابه عليه السلام بكلام فيه من الفصاحة والبلاغة ما أطربه ، حتى خرج من عنده وهو يقول : ما رأيت قط أبلغ من زيد بن علي . (انظر أعلام المؤلفين الزيدية تحت الطبع) .

(٢) ومثل هذا بلفظه في الرازي ١٨٥/٢٨ ، وقد أصلحنا اللفظ منه ، وما بين قوسي الزيادة موجود في الرازي ، وساقط من المصابيح .

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ المراد في هذين الوقتين ؛ لأن طلوع الشمس هو إقبال النهار ﴿وحين الغروب﴾ هو إدباره ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يعني صلاة التسبيح الذي في صلاة الليل ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ يعني أعقاب الصلوات ، ذكره في البرهان [1].

وذكر محمد بن القاسم في كتاب الوصية والهجرة قال عليه‌السلام فيها : وذكر عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنه قال : (من قال سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـه إلا الله ، والله أكبر ، كتب الله [له] بها عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات) [2].

وذكر عن علي عليه‌السلام من وجوه كثيرة حديث مشهور معروف عند أهل البيت عليهم‌السلام والعامة قد سمعته غير مرة (أن عليا عليه‌السلام قال لفاطمة عليها الرضوان : إن الطحن واختدامك على نفسك قد جهدك ، فلو أتيت أباك فسألتيه خادما فقالت : فانطلق معي ، قال : فأتينا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فذكرت له ذلك ، فقال : ألا أدلكما على عمل خير لكما من ذلك : تسبحان الله إذا آويتما فراشكما ثلاثا وثلاثين ، وتحمدانه ثلاثا وثلاثين ، وتكبرانه أربعا وثلاثين ، فتلك مائة على اللسان وألف في الميزان ، قال علي عليه‌السلام : ما تركتها منذ سمعتها من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بعد كل فريضة ، وعند كل نوم ، فقال له رجل : ولا ليلة صفين يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ولا ليلة صفين) . اهـ

ويحتمل قوله :﴿وسبح بحمد ربك﴾ أن يكون أمر النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم له شغلان أحدهما : عبادة الله ، وثانيهما : هداية الخلق ، فإذا هداهم ولم يهتدوا قيل له : أقبل على شغلك الآخر وهو عبادة الحق .

ثم قال تعالى :﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِي مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ هذا إشارة إلى بيان

---

(١) انظر البرهان ٣٥٦.

(٢) حديث (من قال : سبحان الله) شواهده كثيرة ، ذكرها في موسوعة أطراف الحديث النبوي ، وعزا بعضها إلى الطبراني ٣٨٨/٢، والحاكم في المستدرك ٥٠٢/١، والمنذري في الترغيب والترهيب ٤٢٥/٢/ ٤٣٥ ومجمع الزوائد ٨٩/١٠ ، ٩١. وكنز العمال رقم ٢٠٣٦.

غاية التسبيح ، بمعنى اشتغل بتنزيه الله وانتظر المنادي ، كقوله تعالى :﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ والمعنى : واستمع لما أخبرك به من حال يوم القيامة ، وفيه تهويل وتعظيم لشأن المخبر به ، وهو المحدث عنه .

وقوله :﴿يوم يناد المناد﴾ استئناف كلام ، قال العامة من المفسرين : والمنادي : إسرافي يقف على صخرة بيت المقدس فينادي أيها الناس هلموا إلى الحساب ، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء .

والمكان القريب : صخرة بيت المقدس هي أقرب الأرض إلى السماء باثني عشر ميلا .

قلت : وأحسن من هذا وأصح ما ذكره الإمام الناصر لدين الله عليه السلام في برهانه حيث قال في معنى ذلك : شبه الله عز وجل خلقه في اجتماعهم يوم القيامة عند بعثهم بمن يجمعهم الصوت والنداء من مكان قريب ؛ لأن الله قادر على جمعهم ، وإن بعدت ديارهم وأوطانهم وأماكنهم ؛ لأن ذلك البعد في مقدور الله عز وجل قريب[1] . اهـ

وقد تقدم في سورة القارعة للقاسم بن إبراهيم عليه السلام ما يؤيد هذا ، وأن الداعي يدعوهم يوم يكون الناس كالفراش المبثوث[2].

وأما قوله تعالى :﴿من مكان قريب﴾ فهو إشارة إلى أن الصوت لا يخفى على أحد ، بل يستوي في استماعه كل أحد ، وعلى هذا فلا يبعد حمل المنادي على الله تعالى ، إذ ليس المراد من المكان نفس المكان ، بل ظهور النداء ، وهو من الله تعالى أقرب ،وهذا كما قال في هذه السورة :﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ وليس ذلك بالمكان .

وقوله :﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ هي النفخة الثانية ، وقوله :﴿ بِالْحَقِّ ﴾ المراد به البعث والنشر للجزاء الذي هو حق ، وقيل : يسمعونها حقا ، أي : بلا شك ﴿ذَلِكَ﴾ أي : يوم يسمعون الصيحة ﴿يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ من القبور .

ثم قال :﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي﴾ في الدنيا ﴿وَنُمِيتُ ﴾ فيها أيضا ، أي : نحن المختصون

---

(١) البرهان ٣٥٦.

(٢) انظر الجزء الأول من المصابيح ، تفسير سورة القارعة .

بالقدرة على ذلك ، وكذلك على البعث ﴿ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ وهو المرجع ، والحياة للبعث والجزاء ، أي : لا يرجع جزاء العباد إلى غيرنا ، فقوله تعالى :﴿إنا نحن﴾ لتعريف عظمته ، يقول القائل : أنا أنا ، أي : مشهور ، و﴿نحيي ونميت﴾ أمور مؤكدة معنى العظمة ﴿وإلينا المصير﴾ بيان إلى المقصود .

ومعنى ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ ﴾ أي : تتفتح عنهم قبورهم ، وكانت منطبقة فيخرجون منها ﴿سِرَاعًا ﴾ فقوله تعالى :﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعا﴾ العامل فيه هو ما في قوله :﴿يوم الخروج﴾ من الفعل ، أي : يخرجون يوم تشقق الأرض عنهم ، وقوله : ﴿سراعا﴾ حال للخارجين ؛ لأن قوله تعالى :﴿عنهم﴾ يفيد كونهم مفعولين بالتشقق .

ثم قال تعالى :﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من حديث البعث ﴿حَشْرٌ﴾ أي : جمع العباد ، والحشر : الجمع ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي : سهل فعله ، لا يسهل إلا علينا ؛ لأنه أمر عظيم ، وقوله تعالى:﴿علينا يسير﴾ بتقديم الظرف يدل على الاختصاص ، أي : هو علينا هين ، لا على غيرنا ، وهو إعادة جواب قولهم ﴿ذلك رجع بعيد﴾ .

ثم قال تعالى :﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ يعني :من تصديق أو تكذيب ، من إنكار البعث وغيره ، وفيه تهديد لهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ يعني : بمتسلط متجبر عليهم ، تكرههم على الإيمان ، وقيل : أراد التحلم عنهم وترك الغلظة عليهم[1] .

ثم أمر تعالى نبيئه صلى الله عليه وآله وسلم بمقتضى ما في القرآن من الأوامر الواردة بالتبليغ والتذكير فقال سبحانه :﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي : ينتفع بالوعظ والذكرى ، وهو الذي يخاف وعيدي ؛ لأن الذكرى لا تنفع إلا فيه ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ .

والله أعلم

(١) ومثل هذا في البرهان ، وتفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني .

سورة الحجرات

ثماني عشرة آية باتفاق (مدنية)

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله عز وجل ﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [1] أي لا تقطعوا أمرا قبل أن يحكم الله ورسوله . قاله الواحدي [2]

---

(١) وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليهما السلام :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام في قوله تعالى :﴿لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ معناه : لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه . وقوله تعالى :﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ معناه : اصطفاهم .

وقوله تعالى :﴿لعنتم﴾ معناه أصابكم العنت ، وهو الضرر .

وقوله تعالى :﴿فإن فاءت﴾ معناه رجعت . وقوله تعالى :﴿وأقسطوا﴾ معناه اعدلوا .

وقوله تعالى :﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ معناه لا تعيبوا ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ معناه : لا تقولوا : يا كافر ، يا فاسق .

وقوله تعالى :﴿إن بعض الظن إثم﴾ معناه : كل الظن . وقوله تعالى :﴿ولا تجسسوا﴾ معناه : لا تبحثوا .

وقوله تعالى :﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل﴾ قال الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام : فالشعوب أكبر القبائل .

وقوله تعالى :﴿لتعارفوا﴾ معناه : لتعلموا . وقوله تعالى :﴿ثم لم يرتابوا﴾ معناه : لم يشكوا .

وقوله تعالى :﴿لا يلتكم من أعمالكم شيئا﴾ معناه : لا ينقصكم .

وقوله تعالى :﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ معناه : استسلمنا لخوف القتل والسبي .

ومن تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم عليه السلام تفسير غريب سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أن تحبط أعمالكم﴾ أي : تهلك وتبطل ، والعرب تقول مما بلغنا : حبط الجمل إذا مات ، ومعنى ﴿لا تشعرون﴾ أي : لا تعلمون ، قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه :

فطن بكل مصيبة في ماله وإذا يصاب بدينه لم يشعر

أي : لم يعلم ، ومعنى يغضون أصواتهم : الغض هو : الحفظ ، قال الله عز وجل فيما حكى عن لقمان عليه السلام (واغضض من صوتك) . ومعنى ﴿امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ أي : اختبر قلوبهم للتقوى ، أي : بالتقوى ، ولكن اللام تقوم مقام الباء . ومعنى ﴿ينادونك من وراء الحجرات﴾ أي : من وراء الجدر ، ومعنى ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ يريد إن جاءكم بخبر فلا تعجلوا حتى يتبين الأمر ﴿أن تصيبوا قوما بجهالة﴾ يريد أن لا تصيبوا قوما لم يذنبوا ، فحذف لا كما قال الشاعر : نزلتم منزل الأضياف منا فعجلنا القرى أن تشتمونا

فحذف لا وهو يريدها ، وإنما أراد أن لا تشتمونا ، ومعنى ﴿لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم﴾ قال الشاعر :

رأيتك تبتغي عنتي وتسعى مع الساعي علي بغير ذحل

أي : تطلب تعبي وغمي .

ومعنى ﴿وإن طائفتان من المؤمنين﴾ الطائفة : هي الجماعة ، والطائفتان : هما الجماعتان ، ومعنى ﴿من المؤمنين﴾ أي: من المتسمين بالإيمان المقرين ، ولم يرد المؤمنين المحقين ، ومعنى ﴿حتى تفيء إلى أمر الله﴾ أي : حتى ترجع ، قيل : نزلت في رهط عبد الله ابن أبي الأنصاري ، وفي رهط عبد الله بن رواحه الأنصاري ، مر رسول الله صلى الله عليه وآله بعبد الله بن أبي بن سلول في مجلسه فداسه حمار رسول الله صلى الله عليه وآله فوضع يده على أنفه ، وقال : إليك حمارك فقد آذاني ، فقال عبد الله بن رواحه : لا تتأذ بحمار رسول الله صلى الله عليه وآله ، فوالله إنه خير منك ، فوقع القتال بينهما وبين قومهما على هذه الكلمة .

ومعنى ﴿لا يسخر قوم من قوم﴾ أي : لا يتهزأ قوم بقوم ، ولا يتلعبوا بذكرهم وعيبهم ، فلعلهم خير منهم ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ النبز : هو اللقب ، وهو الاسم القبيح الذي يشتهر به صاحبه ، ويطعن عليه به ، قال الكميت بن زيد رحمة الله عليه : اسم هو المستبان لا النبز الـ ـكاذب من قاله ولا اللقب

واللفظ يختلف ، والمعنى واحد مؤتلف ، ومعنى ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ بئس : كلمة ذم ، ونعم : كلمة مدح ، وفي هذا تقديم وتأخير ، والمعني فيه الفسوق بعد الإيمان بئس الاسم ، والفسوق : هو الخروج من الدين .

ومعنى ﴿اجتنبوا كثيراً من الظن﴾ هو اعتزلوا ، قال الشاعر :

قالت وردت مع رسول الله منتدب لا والذي حجت له الشعث العصب

مالك عندي من نوال فاجتنب أرضا بها ذكري وأمعن الهرب

يريد : فاعتزل أرضا بها ذكري . ومعنى ﴿ولا تجسسوا﴾ أي : لا تجسسوا على الناس ، ولا تبحثوا عن أسرارهم ، والعرب تقول للكلب إذا توحش ودار لطلب المأكل : إنه ليتجسس . فنهاهم الله عز وجل من توجس الأسرار ، والبحث عن مالا يعنيهم من الاعوار ، وفعل الخونة الأشرار .

ومعنى ﴿ولا يغتب بعضكم بعضا﴾ هذا نهي عن غيبة المؤمنين ، والطعن عليهم إذا غابوا من مجالس الفاسقين .

﴿وجعلناكم شعوبا﴾ أي : قبائل متشعبة مفترقة ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ أي : أرفعكم قدرا أتقاكم ، ولو كان عبدا .

ومعنى قوله في الأعراب :﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ أي : سلمنا ولم نحارب .

وقال المفسرون : لا تعجلوا بقول أو فعل قبل أن يقوله رسول الله أو يفعله [1].

قال أبو عبيدة : العرب تقول : لا تقدم بين يدي الإمام ، وبين يدي الأب ، أي : لا تعجل بالأمر والنهي قبله [2].

المعنى : لا تتكلموا بين يدي كلامه ، ولا تتقدموه في شئ من أفعاله .

يوضح ذلك تفسير الإمام الهادي عليه السلام لهذه الآية حيث قال : هذا نهي من الله سبحانه للمؤمنين أن لا يتقدموا في شئ من الأشياء ببسط ، أو أمر ، أو أخذ ، أو إعطاء ، وإيمان عدو ، أو مسالمة ، أو لقاء دون الله ورسوله ، والإذن في ذلك من الله ورسوله [3].اهـ

[سبب النزول]

واختلف في سبب نزولها ، فقيل : إن عمرو بن أمية الضمري ، ورجلين معه قتلوا رجلين من بني سليم ظنوهما مشركين من بني عامر ، قبل أن يستأذن عمرو رسول الله فقال صلى الله عليه وآله :(بئس ما صنعتم) ووداهما [4].

ومعنى ﴿لا يلتكم من أعمالكم﴾ أي : لا ينقصكم ، قال الشاعر : (جهد الرسالة لا ألتا ولا كذبا)

أي : لا نقص . ومعنى ﴿ثم لم يرتابوا﴾ أي : لم يشكوا . ومعنى ﴿يمنون عليك أن أسلموا﴾ يريد : أنهم يستكبرون لك ويمتدحون عليك بإسلامهم وشهادتهم وإقرارهم ﴿والله بصير بما تعملون﴾ يريد : أنه عليم بكل ما يفعلون .

(٢) وذكره الحاكم الجشمي عن ابن زيد .

(١) قال الحاكم الجشمي : وقيل : لا تسبقوه بقول ولا فعل حتى يأمركم به عن السدي ، والكلبي ، وأبي علي لأن التقدم هو أن يفعل ما لم يؤمر به ، وقيل : لا تقطعوا أمرا من دونه عن ابن زيد ،

(٢) في النسخ (أبو عبيد) والصواب (أبو عبيدة) ، وهو في مجمع البيان بلفظه ٨٤/٦ ط مكتبة الحياة بيروت .

(٣) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٥٦ .

(٤) وذكر الحاكم الجشمي مثله عن عطاء الخراساني ، وأيضا في الكشاف ، قال : وقيل : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى تهامة سرية سبعة وعشرين رجلا ، وعليهم المنذر بن عمرو الساعدي ، فقتلهم بنو عامر ، وعليهم عامر بن الطفيل ، إلا ثلاثة نفر نجوا ، فلقوا رجلين من بني سليم قرب المدينة ، فاعتزيا لهم إلى بني عامر لأنهم أعز من بني سليم فقتلوهما وسلبوهما ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : بئس ما صنعتم ، كانا من بني سليم ، والسلب ما كسوتهما ، فوداهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونزلت .

وقيل : نزلت في النهي عن تعجيل الذبح يوم الأضحى[(١)] قبل الصلاة ، وقالت عائشة : نزلت في النهي عن صوم يوم الشك[(٢)] ، وقيل : غير ذلك[(٣)] .

وذكر اليدين في حق الله مجاز على طريق التخييل ، ويراد بقولهم : بين يدي كذا في غيره تعالى : قدام الشيء وأمام الشيء ، ومنه :﴿بين يدي عذاب شديد﴾[(٤)] ويجوز أن يكون ذكر الله تعالى مقدمة لذكر رسوله يفيد التأكيد ، نحو قولهم : أعجبني زيد وأدبه ، أي: أعجبني أدب زيد ، فيراد لا تقدموا بين يدي رسول الله ، ويجوز أن يقدر مضاف ، أي: لا تقدموا بين يدي وحي الله ، أو بين يدي أمر الله ونهيه .

وقرأ ابن مسعود وقتادة ويعقوب (تَقَدَّموا) بفتح التاء والدال ، قال الفراء والزجاج : ومعناهما واحد ، قدمت وتقدمت[(٥)] . ذكره في التجريد .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك ما نهاكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعني : سميعا لقولكم ، عليما بفعلكم ، وحقه أن يتقى .

قال ابن حجر في التخريج : أخرجه البيهقي في الشعب ، في الخامس عشر من طريق مقاتل بن حيان ... ورواه في الدلائل من طريق ابن إسحاق ، ومن طريق موسى بن عقبة : هذه القصة على غير هذا السياق ، وأن المقتولين من بني كلاب ، وأن الثلاثة قتل منهم واحد ، وهو المحفوظ والمشهور في المغازي . (الكشاف ٤/٣٥٠) .

(١) نسب الحاكم هذا القول إلى عامر بن عبد الله ، والحسن . وفي الكشاف عن الحسن ، وقال ابن حجر في التخريج: أخرجه عبد الرزاق ...، وأخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة ... وقال الحسن : هم أناس .. فذكره . الكشاف ٤/٣٥٠.

(٢) قال الحاكم الجشمي : وقيل : نزلت في قوم صاموا قبل صوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن عائشة ، قال مسروق : دخلت عليها يوم الشك فأمرت لي بغسل ، فقلت : إني صائم ، فقالت : نهى النبي صلى الله عليه وآله عن صوم هذا اليوم . وذكره أيضا الزمخشري في الكشاف ، قال ابن حجر في تخريجه : هكذا ذكره الثعلبي بغير سند ، وذكره الدار قطني من رواية مالك بن حمزة بضم المهملة ، والراء عن مسروق ... وذكر مثله . الكشاف ٤/٣٥٠.

(٣) قال الحاكم : وقيل : نزلت في أناس كانوا يقولون : لو أنزل في كذا ، أو وضع كذا ، فكره الله ذلك ونزلت الآية عن قتادة . وقيل : نزلت في الشرائع والقتال ، يعني لا تقضوا أمرا دونه عن الضحاك . وقيل : نزلت في قوم كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله فإذا سئل خاضوا فيه قبله وأفتوا فنهوا عن ذلك عن أبي علي .

(٤) سبأ : ٤٦ .

(٥) لف ونشر غير مرتب ، فتقدمت لقراءة النصب ، وقدمت لقراءة رفع التاء وكسر الدال .

ثم قال تعالى :﴿ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ إذا نطق ونطقتم ، فلا تبلغ أصواتكم ، وراء الحد الذي يبلغه بصوته ، وعليكم أن تغضوا بحيث يكون كلامه عاليا لكلامكم ، حتى تميز مرتبته .

قوله :﴿لا تقدموا﴾نهي عن فعل ينبي عن كونهم عاجلين[1] .

وقوله :﴿لا ترفعوا﴾ نهي عن قول ينبي عن ذلك الأمر ، لأن من يرفع صوته عند غيره يجعل لنفسه اعتبارا أو عظمة ، وأن رفع الصوت دليل قلة الاحتشام ، وترك الاحترام ، وتكرير النداء عليهم استدعاء منهم لتحديد التيقظ عند كل خطاب ، وتطرية للإنصات لكل حكم نازل لئلا يفتروا عن تأمله ، ويغفلوا عما أخذوا به من الإنصاف في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ لأن إعظام صاحب الشرع إعظام لما جاء به .

[سبب النزول]

وفي البرهان قيل:إن رجلين من الصحابة تماريا عنده فارتفعت أصواتهما فنزل ذلك فيهما[2] .

ومعنى قوله تعالى :﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ أي إذا كلمتموه وهو صامت خفضتم أصواتكم كما تكون مخاطبة المهيب المعظم ، لا كما يجهر بعضكم لبعض .

وقال في البرهان : وإنما هذا الجهر هو المنع من دعائه باسمه ، أو كنيته ، كما يدعو بعضهم بعضا ، وليكن دعاؤه بالنبوة أو الرسالة كما قال عز وجل :﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا﴾[3] .اهـ

وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف ، وإنما الغرض ألا ينتهي ذلك إلى حد لا يناسب ما يخاطب به العظماء ، لكن يتكلف من الغض ما يدل

---

(١) في الرازي : ﴿لا تقدموا﴾ نهي عن فعل ينبي عن كونهم جاعلين لأنفسهم عند الله ورسوله بالنسبة إليهما وزنا ومقدارا ومدخلا في أمر من أوامرهما ونواهيهما . ثم ذكر بعده ما ذكره المصنف (الرازي ١١٢/٢٨) .

(٢) البرهان ٣٥٠ .

(٣) سورة النور : ٢٣ ، البرهان ٣٥٠ .

على توقير المخاطب ، ولم يتناول النهي أيضا الرفع الذي لا يتأذى بـه صلى الله عليه وآله وسلم [وهو ما كان منهم] [١] في حرب أو مجادلة معاند ، أو إرهاب عدو ، ونحو ذلك .

ثم علل ذلك بقوله عز وجل :﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي : تهلك وتبطل ، والعرب فيما تقول : حبط الجمل إذا مات .

[وعن] ابن عباس : نزلت في ثابت بن قيس ، وكان في أذنه وقـر ، وكـان جهوري الصوت، فإذا كلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ربما يتأذى ، وأنه لما نزلت فقد ثابت فتفقده صلى الله عليه وآله وسلم فأخبر بشأنه ، فسأله فقال : أخاف أن يكون عملي قد حبط ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : (لست هناك ، إنك تعيش بخير ، وتموت بخير ، وإنك من أهل الجنة) [٢]

قلت : وروى الإمام الناصر للحق الحسن بن علي الأطروش في كتابه البساط : أن هذه الآية نزلت في الخيرين أبي بكر وعمر ، قال عليه السلام : فإذا كان مثل عمل أبـي بكـر وعمر، وإقرارهما الذي هو إيمانهما ــ تحبط وتبطل إذا رفعا أصواتهما فوق [صـوت] النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع مكانهما في الإسلام ، فما يكون حال سواهما !؟ .

قال عليه السلام : قال : حدثنا بشر بن عبد الوهاب [٣] بدمشق ، قال : حدثنا وكيع بـن الجراح[٤]، قال:حدثنا نافع [٥] بن عمر الجمحي ، عن ابن أبي مليكة [٦] :(كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر،لما قدم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفد بني تميم أشار أحدهما بالأقرع

---

(١) ومثل هذا الكلام في الكشاف بتصرف ، وما بين القوسين من الكشاف ٣٥٢/٤ .

(٢) أخرج مثله البخاري في التفسير ٥٩٠/٨، ومسلم في الإيمان برقم ١١٩ ، والنسائي في التفسير ٣١٦/٢ ، وابـن جرير ١١٨/٢٦ ، والواحدي برقم ١٠١٥ ، وهو في الكشاف ٣٥٣/٤ ، قال ابن حجر في تخريجه : متفق عليه مـن حديث أنس ، ورواه أحمد والطبراني .

(٣) بشر بن عبد الوهاب الأموي ، عن وكيع (٣١) في البساط ،وفي أمالي أبي طالب عليه السلام بشـر بـن عبـد الوهاب، عن عبيد الله بن موسى ، وعنه الناصر ، وأحمد بن محمد بن فراس بن الهيثم الغراسي البصري .

(٤) وكيع بن الجرّاح بفتح الجيم والراء المشددة ، وبحاء مهملة الرؤّاسي ، حافظ للحديث ، ثبت ، كان محدث العراق في عصره ، عن هشام ، والأعمش ، والباقر ، وأبي حنيفة ، والثوري ، وشعبة ، وغيرهم ، وعنه علي بن حكيم أبـو كريب، وابن المديني ، وابن أبي شيبة ، وبشر بن عبد الوهاب ، وخلائق ، أثنى عليه العلماء ، وهو من محدثي الشيعة ،

ابن حابس الحنظلي [1] أخي بني مجاشع ، وأشار الآخر بغيره فقال أبو بكر لعمر: إنما أردت خلافي فقال عمر: ما أردت خلافك فارتفعت أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ إلى قوله :﴿أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ [2] قال ابن أبي مليكة : قال ابن الزبير [ولم يذكر ذلك عن

ولد سنة ١٢٩هـ ، وتوفي سنة ١٩٧هـ ، خرج له الجماعة ، وأئمتنا الخمسة ، وغيرهم .

(٥) نافع بن عمر الجمحي : هو نافع بن عمر بن عبد الله بن جميل القرشي الجمحي المكي ، حافظ للحديث ، كان محدث مكة في زمانه ، عن ابن أبي مليكة ، وسعيد بن أبي هند ، وعمرو بن دينار ، وغيرهم ، وعنه ابن القطان ، وابن مهدي ، ووكيع ، وأبو نعيم وخلق ، أثنى عليه العلماء ، توفي سنة ١٦٩هـ ، احتج به الجماعة .

(٦) ابن أبي مليكة : هو عبد الله بن عبيد الله التيمي المكي ، قاض من رجال الحديث الثقات ، ولاه ابن الزبير قضاء الطائف ، عن العبادلة الأربعة ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وأسماء ، وعائشة ، وأم سلمة ، وعثمان بن عفان وغيرهم ، وعنه ابنه يحيى ، وعطاء ، وحميد الطويل ، ونافع بن عمر الجمحي ، وأبو هلال الراسبي وجماعة ، مات سنة ١١٧هـ من ثقاة التابعين .

(١) الأقرع بن حابس : هو الأقرع بن حابس بن عقال ، المجاشعي ، التميمي ، صحابي ، من سادات العرب في الجاهلية ، قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله في وفد من بني دارم من تميم فأسلموا ، وشهد فتح مكة ، وكان من المؤلفة ، وقتل بالجوزجان سنة ٣١هـ .

(٢) أخرج البخاري ٦/ ٢٤٣(٣٣٩) وابن المنذر ، والطبراني ، عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا .. الخ وأخرجه الترمذي من طريق ابن أبي مليكة ، وابن جرير . الدر المنثور ٧/ ٥٤٨.

وابن الزبير : هو عبد الله بن الزبير بن العوام ، القرشي ، أبو بكر ، أول مولود في المدينة بعد الهجرة ، روي عن النبي صلى الله عليه وآله وعن أبيه ، وجده أبو بكر ، وعلي عليه السلام ، وعمر ، وعثمان ، وعائشة ، وغيرهم ، وعنه أولاده عباد ، وعامر ، وأم عمرو ، وأخوه عروة ، وغيرهم ، بويع له بالخلافة سنة ٦٤هـ عقب موت يزيد بن معاوية، فحكم مصر والحجاز ، واليمن ، وخراسان ، والعراق ، وأكثر الشام ، وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة ، قتل في إحداها سنة ٧٣هـ وكانت مدة خلافته سبع سنين ، وقد ذاق أهل البيت منه الويلات ، وحبسهم في شعب أبي طالب ، ونفى ابن عباس إلى الطائف ، وله ترجمة مستوفاة في لوامع الأنوار ، للمولى العلامة مجد الدين المؤيدي الجزء الثالث .

والزبير : هو الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي ، أبو عبد الله ، ابن عمة النبي صلى الله عليه وآله ولد سنة ٢٨ ق هـ أسلم وله اثنتا عشرة سنة ، وشهد بدرا ، وأحدا ، وغيرهما ، روي عن النبي صلى الله عليه وآله ، وعنه ابناه

أبيه] : ذكر أن عمر بعد ذلك كان إذا حدَّث النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحديث حدَّثه كأخي السرار، لا يسمعه حتى يستفهمه ؛ من خفيض صوته .

قلت : ومثل هذا في البخاري بإسناده إلى ابن أبي مليكة ، وهو في التجريد أيضا ، قال عليه السلام : وإني لأكثر التعجب ، من قوم لهم عقول وتمييز وفهم ، يسمعون الله سبحانه يقول : لمن عصاه ، وعصا رسوله صلى الله عليه وآله وسلم :﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾[1] فيقولون : بلى هم مؤمنون ، إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل . فالله المستعان ! .اهـ

قال في الكشاف : وقوله ﴿أن تحبط أعمالكم﴾ منصوب الموضع على أنه مفعول له ، [وفي متعلقه وجهان أحدهما أن] يتعلق بمعنى النهي ، أي : انتهوا عما نهيتم لخشية حبوط أعمالكم ، أي : بطلانها ، من حبطت الإبل إذا أكلت الخضراء ، أي : بقل الربيع فتنتفخ بطونها فتهلك .

ويجوز أن تتعلق بنفس الفعل ، ويكون المعنى أنهم نهوا عن الفعل الذي فعلوه لأجل الحبوط ؛ لأنه لما كان بصدد الأداء إلى الحبوط ، جعل كأنه جعل لأجله ، فكأنه العلة والسبب في إيجاده على سبيل التمثيل ، كقوله :﴿ليكون لهم عدوا﴾ ذكره في الكشاف[2] ثم قال تعالى :﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ حبوطها ، أي : لا تعلمون .

قال أمير المؤمنين عليه السلام :

فطن بكل مصيبة في ماله وإذا يصاب بدينه لم يشعر

فعلى المؤمن أن يكون في تقواه كالماشي في طريق شائك لا يزال يتوقى .

واعلم أن الله تعالى لما أمر المؤمنين باحترام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإكرامه وتقديمه على أنفسهم، وعلى كل من خلقه الله تعالى أمر نبيئه بالرأفة والرحمة ، وأن يكون أرأف بهم من الوالد كما

عبد الله وعروة، والأحنف وغيرهم ، قتل يوم الجمل بواد السباع غيلة سنة ٣٦ ، خلف أملاكا بيعت بنحو أربعين مليون درهم وفي الأثر (مازال الزبير منا أهل البيت حتى نشأ ابنه عبد الله) .

(١) النور : ٤٧ .

(٢) انظر الكشاف ٣٥٤/٤ ، وما بين القوسين منه ، وهو ساقط في الأصل .

قال: ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾[1] وقوله تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم﴾[2] وقال: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾[3] إلى غير ذلك لئلا تكون خدمته خدمة الجبارين الذين يستعبدون الأحرار بالقهر، فيكون انقيادهم له لوجه الله تعالى[4].

ثم أثنى على المؤمنين باحترام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإكرامه وإجلاله وتعظيمه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي: يغضونها عند خطابه، والغض: هو الخفض، كما حكى الله عن لقمان ﴿واغضض من صوتك﴾ وفيه حث على ما أرشدهم إليه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ أي: امتحنها ليعلم منها التقوى، ومعناه: ليظهر معلومه منها.

وقال ابن عباس: معناه أخلصها. وقال الزجاج: اختبرها، يقال: امتحن الذهب إذا أخلصه من خبثه، والامتحان: هو اختبار بليغ.

قال الهادي عليه السلام: هذا ثناء من الله تبارك وتعالى على من يفعل ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وآله إجلالا وتعظيما مما يكون من غض صوته وتكريما، فأثنى الله على من فعل ذلك، وأخبر أنه ممن قد امتحن الله قلبه للتقوى، وامتحان الله لقلبه بما أمره به من تعظيم نبيئه، وإجلال ما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم من وحيه، فكان غضهم للأصوات عنده قياما منهم لمؤكد المحبة، وكان قيامهم بالامتحان تقوى منهم وإيمانا[5]. اهـ

ثم قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ المغفرة: إزالة السيئات، وفيها تعريض بتعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم، أو استيجاب ضد ما أستوجب هؤلاء.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الوراء: اسم للجهة، والذي يقول: ناداني [فلان] من وراء الدار لم يرد وجه الدار ولا دبرها،

---

(١) الحجر: ٨٨.

(٢) الكهف: ٢٨.

(٣) القلم: ٤٨.

(٤) ومثله في الرازي، وقد أصلحنا اللفظ منه ١١٤/٢٨.

(٥) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٥٧

ولكن أي قطر من أقطارها ، والإنكار لم يتوجه عليهم من قبل أن النداء وقع منهم في أدبار الحجرات ، أو في وجوهها ، وإنما أنكر عليهم أنهم نادوه من البر والخارج منـاداة الأجلاف بعضهم ، من غير قصد إلى جهة دون جهة .

والحجرات : جمع حجرة البقعة من الأرض المحجورة بجدار يحيط بها ، والمراد حجرات نسائه صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان لكل واحدة حجرة ، ومناداتهم [من ورائها] يحتمل أنهم تفرقوا عليها [متطلبين له] فنادوا ، بعضٌ من وراء هذه ، وبعضٌ من وراء تلك ، وأنهم أتوه حجرة حجرة فنادوه من ورائها ، وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كـان فيهـا ، لكن جمعت إجلالا له صلى الله عليه وآله [ولمكان حرمته] والفعل وإن أسند إلى جميعهـم فإنـه يجوز أن يتولاه بعضهم ، ورضيه الباقون ، فكأنهم تولوه معا[1] .

فقد روي أن الذي ناداه عيينة بن حصن ، وكان اسمه حذيفة ، والأقرع بن حابس .

قال في التجريد : روي أن وفد بني تميم أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقت الظهـيرة وهو قائل ، فجعلوا ينادونه : يا محمد اخرج ، فاستيقظ وخرج ونزلت .

وقال الثعلبي : كان لكل امرأة من نسائه صلى الله عليه وآله بيت وحجرة ، فجعلوا ينادونـه وهو نائم القائلة في سبي لهم فآذوه فقال صلى الله عليه وآله : اجعل بيـني وبينكـم حكمـا ، فحكموا الأعور ، فقال : تفادي بعضهم وتعتق بعضهم ، ففعل صلى الله عليه وآله وسلم .

قال في الكشاف : ومن هنا يقتطف ثمرات الألباب ، وتقتبس محاسن الآداب ، كمـا يحكى عن أبي عبيد ومكانه من الزهد والعلم ، وثقة الرواية ما لا يخفى أنه قـال : مـا دققت على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه[2] .

وقال في البرهان : في سبب نزول هذه الآية قولان أحدهما : أن رجلا[3] جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فناداه من وراء الحجرات : يا محمد إن مدحي زين ، وإن ذمي شين ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ويلك ، ذلك الله [وحده][4] عز وجل ، فأنزل الله هذه الآية .

---

(١) ومثل هذا في الكشاف ، وقد أصلحنا اللفظ منه (٣٥٧/٤) .

(٢) الكشاف ٣٥٩/٤ .

والثاني : أن أناسا أتوا النبي صلى الله عليه وآله فقالوا : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل ، فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس بإتباعه ، وإن يكن ملكا نعش في حياته ، فأتوا النبي صلى الله عليه وآله وهو في حجرته فنادوا : يا محمد ، فأنزل الله هذه الآية .

وقيل : إنهم كانوا تسعة نفر ، قيس بن عاصم ، والزبرقان بن بدر ، والأقرع بن حابس ، وسويد بن هشام ، وخالد بن مالك ، وعطاء بن حابس ، والقعقاع بن معبد ، ووكيع بن وكيع ، وعيينة بن حصن . .اهـ

وقوله :﴿أكثرهم﴾ يحتمل أن يكون فيهم من قصد بالمحاشاة ، ويحتمل أنه قصد إلى نفي أن يكون فيهم من يعقل ، فإن القلة تقع موقع النفي في كلامهم .

وقوله تعالى :﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ﴾ الصبر ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ إشارة إلى حسن الأدب الذي على خلاف ما أتوا به من سوء الأدب .

ثم أخبر سبحانه عن قبوله التوبة فقال :﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بليغ الغفران والرحمة لهم، إذا تابوا .

ثم أرشد جل جلاله المؤمنين إلى حسن التثبت والتأني فقال تعالى :﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ يريد أن جاءكم بخبر فلا تعجلوا حتى يتبين لكم الأمر ويتحقق ﴿أَنْ تُصِيبُوا﴾ لئلا تصيبوا ﴿قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ أي : جاهلين حقيقة الأمر .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام : يريد أن لا تصيبوا قوما لم يذنبوا ، فحذف لا ، كما قال الشاعر : نزلتم منزل الأضياف منا فعجلنا القرى أن تشتمونا

وإنما أراد أن لا تشتمونا ، فحذف لا وهو يريدها .

وقد ذكر الرازي في قوله تعالى :﴿أن تصيبوا﴾ وجهين : أحدهما ـ مذهب الكوفيين،

---

(٣) ذكره الواحدي في تفسيره ، ونسبه إلى وفد بني تميم ، وهم الذين قالوا هذا القول ، ثم ذكر المحقق أن الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/١٥٩٠، والنسائي في تفسير ٣١٨/٢ ، والترمذي في التفسير برقم ٣٢٦٦، وابن جرير ١٢٢/٢٦ .(الوجيز ١٠١٦) .

(٤) ما بين القوسين موجود في الأصل لهذا التفسير ، وغير موجود في البرهان المخطوط .(البرهان ٣٥١) .

وهو أن المراد لئلا تصيبوا .

وثانيهما : مذهب البصريين ، وهو أن المراد كراهة أن تصيبوا [(١)].

[سبب النزول]

قال في البرهان : نزلت في الوليد [ابن عقبة بن أبي] [(٢)] معيط ، وسبب نزولها فيه أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله بعث الوليد إلى بني المصطلق ، فلما أبصروه أقبلوا نحوه ، فهابهم فرجع إلى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فأخبره أنهم ارتدوا عن الإسلام ، فبعث إليهم [رسول الله] صلى‌الله‌عليه‌وآله بعض أصحابه ، وأمره أن يتثبت ولا يعجل ، فانطلق الرسول حتى أتاهم ليلا ، فبعث عيونه ، فلما جاؤه أخبروه أنهم متمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم

---

(١) الرازي ١٢٠/٢٨ .

(٢) ما بين القوسين ثابت في البرهان ٣٥٢.

وهذا قول مجاهد في تفسيره ص ٦٠٦ ، وأخرجه أحمد بسند جيد ١٢٧٩/٤، وذكره الواحدي في الأسباب ص ٤٥٠، بزيادة (وكانت بينهم ترة في الجاهلية ، فخاف أن يأتيهم ، وانصرف من الطريق إلى رسول الله صلى الله عليه وآله) وأخرجه ابن جرير ١٢٣/٢٦ ، عن أم سلمة ، وهو في الكشاف ٣٥٩/٤، ولفظه : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الوليد ابن عقبة ـ أخا عثمان لأمه ـ وهو الذي ولاه عثمان الكوفة ، بعد سعد بن أبي وقاص ، فصلى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعا ، ثم قال : هل أزيدكم ؟ فعزله عثمان عنهم ـ مصدقا إلى بني المصطلق ، وكانت بينه وبينهم إحنة ، فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين له ، فحسبهم مقاتليه ، فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد ارتدوا ، ومنعوا الزكاة .. الخ ما ذكره هناك .

قال ابن حجر في تخريجه : أخرجه إسحاق ، والطبراني ، من حديث أم سلمة ، دون قوله :(فاتهمهم فقال : لتنتهن أو لأبعثن إليكم رجلا ، هو عندي كنفسي ، يقاتل مقاتلتكم .. الخ ، وعندهما بدل ذلك : فما زالوا يعتذرون إليه حتى نزلت فيهم الآية ، وفيه موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف ، ونحوه رواه أحمد ، والطبراني أيضا ، من حديث الحارث بن دثار الخزاعي ، وأخرجه ابن مردويه ، من طريق عبد الله بن عبد القدوس ، عن الأعمش ، عن موسى بن المسيب ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن جابر قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الوليد بن عقبة ، فذكر الحديث بنحوه ، وزاد فقال عليه الصلاة والسلام : لتنتهن أو لأبعثن إليكم رجلا ... فذكره . (الكشاف ٣٦٠/٤)

وقال ابن حجر في تخريج ما ذكره الكشاف ، من صلاة الوليد بن عقبة وهو سكران : أخرجه مسلم ، من طريق أبي ساسان حصين بن منذر ، قال : شهدت عثمان أخا الوليد بن عقبة ، وقد صلى الغداة بالكوفة أربعا .. الحديث بطوله، وأخرجه ابن إسحاق ، والنسائي من هذا الوجه ، وقالوا : فيه :(وقد صلى الغداة أربعا) .

وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم [الرسول] ، ورأى صحة ما ذكر له ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [فنزلت هذه الآية] (1).

قال في التجريد : أمر إليهم علي بن أبي طالب ، فوجدهم منادين بالصلاة متهجدين ، وسلموا إليه الصدقة ، فنزلت هذه الآية .

وروى الإمام محمد بن القاسم عليهما السلام في كتاب دعائم الإيمان ، في سبب نزول هذه الآية الكريمة ، عن عائشة ، والحارث بن ضرار الخزاعي ، وغيرهما ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أن خزاعة أتت النبي فأسلموا ، وكان رئيسهم الحارث بن ضرار ، فقال الحارث : يا رسول الله بيننا وبين هذا الحي من كفار قريش حروب ، وإنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام ، وإني صائر إلى قومي ، فأجمع صدقات من أسلم منهم ، فإذا كان الحول أرسلت من يحمل صدقاتنا ؛ فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أرسلُ نَعَم ، ووعده ، فلما كان رأس الحول أرسل إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، فلما صار في بعض الطريق خاف ورجع ، وقال : يا رسول الله ، أتيت الحارث بن ضرار وقومه ، فجدوا لي القتال ، وهموا بقتلي ، فوجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم جيشا إلى الحارث بن ضرار وإلى خزاعة ، فلما كان الجيش في بعض الطريق لقيهم الحارث بن ضرار في سروات قومه ، وقد حملوا صدقاتهم ، فقال أمير الجيش : يا حارث بن ضرار أردت قتل رسول رسول الله ، ومنعت الزكاة ، فارتددت عن الإسلام ؟ فقال الحارث : والذي بعثه بالحق ما أخرجني في سروات قومي إلا إبطاء خبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عني ، فقدم المدينة ، فلما أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : هيه يا حارث أردت قتل رسولي ، ومنعت الزكاة ، وجددت لي القتال ؟ فقال الحارث : والذي بعثك بالحق ما أخرجني في سروات قومي إلا إبطاء خبرك ، وهذه صدقات قومي ، فأنزل الله جل ذكره :﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة﴾ وقد ذكر الله الوليد بن عقبة فاسقا ، ونهاهم أن يقبلوا ما قال لهم الفاسق .

---

(1) ما بين أقواس الزيادة من البرهان ٣٥٢ ، وفي تفسير المصابيح (فرجع إلى الرسول)،وما أثبتناه هو ما في البرهان .

قال الرازي : هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ، وهي إما مع الله تعالى ، أو مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، أو مع غيرهما من أبناء الجنس ، وهم على صنفين؛ لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين ، وداخلين في رتبة الطاعة ، أو خارجا عنها وهو الفاسق ، والداخل في طائفتهم السالك لطريقتهم إما أن يكون حاضرا عندهم أو غائبا عنهم ، فهذه خمسة أقسام أحدها : متعلق بجانب الله ، وثانيها : بجانب الرسول ، وثالثها : بجانب الفساق ، ورابعها : بالمؤمن الحاضر ، وخامسها : بالمؤمن الغائب .

فذكرهم الله تعالى في هذه السورة خمس مرات [1] ، وأرشدهم في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة ، فقال : أولا :﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله ؛ لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله ، وقال ثانيا : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ لبيان وجوب احترام النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال ثالثا : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ﴾ لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم ، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم... [2]

وقال رابعا : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم﴾ وقال :﴿ولا تنابزوا﴾ لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين في حضورهم ، والازدراء بحالهم ومنصبهم .

وقال خامسا : ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن[إن بعض الظن إثم]﴾ وقال: ﴿ولا تجسسوا﴾ وقال :﴿ولا يغتب بعضكم بعضا﴾ لبيان وجوب الاحتراز عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته ، وذكر ما لو كان حاضرا لتأذى ، وهو في غاية الحسن من الترتيب [3].

---

(١) في الرازي (فذكرهم الله تعالى خمس مرات ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ . وقد حذفها المصنف لئلا يتوهم أن الفاسق مؤمن . (الرازي ٢٨/١١٩) .

(٢) هنا حذف عما في الرازي والزيادة التي في الرازي هي :(وبين ذلك عند تفسير قوله ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾) الرازي ٢٨/ ١١٩.

(٣) ما بين أقواس الزيادة من الرازي ، وفي الرازي (وهو في غاية الحسن من الترتيب) أي : وهذا الكلام في غاية الحسن من الترتيب . وفي أصل هذا التفسير (وهي في غاية الحسن) أي : وهذه الأوجه الخمسة في غاية الحسن . وقد أثبتنا ما في الرازي (١١٩/٢٨) .

ثم قال سبحانه :﴿فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ لأن الجاهل لابد أن يكون على فعله نادما ، وقوله :﴿فتصبحوا﴾ معناه : تصيروا ، قال النحاة : (أصبح) يستعمل على أحد ثلاثة أوجه ، أحدها : بمعنى دخول الرجل في الصباح ، كما يقول القائل : أصبحنا [نقضي عليه] وثانيها : بمعنى كان الأمر وقت الصباح كذا [وكذا] ، كما يقال : أصبح اليوم مريضنا خيرا مما كان . وثالثها : بمعنى صار ، يقول القائل : أصبح زيد غنيا ، ويريد به صار من غير إرادة وقت دون وقت .

ثم قال تعالى :﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فلا تقولوا الباطل ، فإن الله يخبره ، قاله الواحدي [1] .

المعنى : أن فيكم رسول الله إن كذبتموه أخبره فافتضحتم .

ثم استأنف فقال :﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ أي : لو أطاع [2] مثل هذا المخبر بما لا أصل له ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ أي : لأثمتم وهلكتم ، ووقعتم في الجهل ، يقال : فلان يتعنت فلانا ، أي : يطلب ما يؤديه إلى الهلاك ، وقد أعنت العظم : إذا هيض ـ أي : كسر ـ بعد الجبر ، وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا له صلى الله عليه وآله وسلم الإيقاع ببني المصطلق وتصديق الوليد [3] .

وقوله تعالى :﴿لو يطيعكم﴾ ليس بمستأنف ، وإنما هو متصل بقوله :﴿فيكم﴾ على أنه

---

(١) في كتابه الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، الجزء الثاني ص ١٠١٧ ، بلفظه .

(٢) قوله :(أي : لو أطاع) فيه إشارة إلى قول الزمخشري : فإن قلت : فلم قيل ﴿يطيعكم﴾ دون أطاعكم ، قلت للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه ، وأنه كلما عَنَّ لهم رأي في أمر كان معمولا عليه بدليل قوله :﴿في كثير من الأمر﴾ كقولك : فلان يقرئ الضيف ، ويحمي الحريم . تريد : أنه مما اعتاده ووجد منه مستمرا . الكشاف ٣٦١/٤.

(٣) ومثل هذا في الكشاف ، وزاد الزمخشري :(وأن نظائر ذلك من الهنات كانت تفرط منهم ، وأن بعضهم كانوا يتصونون ويزعهم جدهم في التقوى عن الجسارة على ذلك ، وهم الذين استثناهم بقوله تعالى :﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان﴾ أي : إلى بعضكم ، ولكنه أغنت عن ذكر البعض صفتهم المفارقة لصفة غيرهم ، وهذا من إيجازات القرآن ، ولمحاته اللطيفة ، التي لا يفطن إليها إلا الخواص .

حال منه . المعنى : أن فيكم رسول الله وأنتم على حالة يجب عليكم تغييرها ، وهي أنكم تطلبون منه أن يعمل في الحوادث على ما ترون من الرأي كما يفعل التابع لغيره [1] ولو فعل ذلك لعنتم .

قال في البرهان : ويحتمل أن يكون لنالتكم مشقة وشدة ، فإذا كانوا هم ورسول الله صلى الله عليه وآله فيهم بهذه الصفة ، فأهل عصرنا والله أسخف رأيا ، وأضعف عقولا [وأطيش أحلاما نسأل الله المعونة والمكافأة] [2].

ولفظ الهادي عليه السلام في ذلك : هذا خبر يخبر سبحانه بتوفيق الله لنبيئه ، ومعرفته بما جهله غيره من الأحكام والرأي في جميع أمور أهل الإسلام ، فيقول سبحانه : لو أطاعكم الرسول فيما تهوون وتريدون ، وتشاؤه قلوبكم وتظنون من طرق كثيرة ، وأسباب تميلون إليها جليلة ، من حمية وعصبية ـ لقد عنتم ، ومعنى العنوت : فهو هلكتم عند الله وعطبتم .

ثم أخبر سبحانه بمنته عليهم ، وأياديه العظيمة لديهم فيما مَنَّ به فيهم من تحبيب الإيمان [إليهم] وإدخاله في قلوبهم ، وتبغيض ما كانوا عليه من الكفر إليهم ، وإخراج ما كانوا فيه بديا من صدورهم ، حتى عادوا لجهالتهم الأولة مبغضين ، ولما دخلوا فيه من محض الحق محبين ، وحتى صاروا برحمة الله مطيعين ، وعن عصيانهما نازحين ، فصاروا

---

(١) وقد اختار هذا الوجه الرازي فقال : ولنذكر في تفسير هذه الآية ما قيل وما يجوز أن يقال : أما ما قيل : فلنختر أحسنه ، وهو ما اختاره الزمخشري ، فإنه بحث في تفسير هذه الآية بحثا طويلا فقال : قوله تعالى :﴿لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم﴾ ليس كلاما مستأنفا لأدائه إلى تنافر النظم ، إذ لا تبقى مناسبة بين قوله :﴿واعلموا﴾ وبين قوله :﴿لو يطيعكم﴾ ثم وجه التعلق هو أن قوله :﴿لو يطيعكم﴾ في تقدير حال من الضمير المرفوع في قوله :﴿فيكم﴾ كأن التقدير كائن فيكم ، أو موجود فيكم ، على حال تريدون أن يطيعكم أو يفعل باستصوابكم ، ولا ينبغي أن يكون في تلك الحال ؛ لأنه لو فعل ذلك ﴿لعنتم﴾ أي : لوقعتم في شدة ، أو لمتم به . (الرازي ٢٨/١٢٢) .

وقد ذكر الزمخشري بأنه يصح أن يكون حالا من الضمير المرفوع في فيكم ، أو المجرور ، وتقدير المجرور : أن فيكم رسول الله على حالة يجب عليكم تغييرها ، ولم يذكرها المصنف ، ولا الرازي . انظر الكشاف ٣٦١/٤.

(٢) انظر البرهان مخطوط ٣٥٢ ، وما بين القوسين زيادة منه .

لله من العداوة أولياء ، وبحقائق الإسلام بعد الكفر أتقياء ، فقال تعالى :﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ .

قال في البرهان : وإنما حببه بما جعل عليه من الثواب والمدح [1] .

وقال في الكشاف : معنى تحبيب الله [وتكريهه] هو اللطف والإمداد بالتوفيق ، وسبيله [سبيل] الكناية .. وكل ذي لب وراجع إلى بصيرة وذهن لا يغبى عليه أن الرجل لا يمدح بغير فعله ، وحمل الآية على ظاهرها يؤدي إلى أن يمدحوا بفعل الله ، وقد نفى الله هذا على من أنزل فيهم :﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ والعقل قاض بمنع المدح للإنسان بغير فعله، وأما مدح العرب بالجمال ، وحسن الوجوه ونحوه ، وهو فعل الله فالذي سوغ لهم ذلك أنهم رأوا حسن الْخَلْقِ يدل على حسن الْخُلُقِ، وأن حسن الرواء، ووسامة المنظر في الغالب يسفر عن مخبر رضي ، وأخلاق محمودة فلم يمدحوا به إلا لدلالته على غيره ، على أن من محققة النقاد ، وعلماء المعاني ــ من دفع ذلك ، وخَطَّأَ المادحَ به ، وقصر المدح على ما يقع باختيار فاعله ، وجعل المدح بالجمال والثروة والحفدة والأعضاد ، وغير ذلك مما ليس للإنسان فيه عمل ــ غلطا ، ومخالفة عن المعقول [2] .اهـ

ثم قال تعالى :﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي : بما دل من الشواهد على صحته ، وأبان من الآيات على سلامته .

وفي الكشاف : أي [حببه] إلى بعضكم ، لكن أغنى عن ذكر البعض ذكر صفتهم المفارقة لصفة غيرهم ، وهذا من إيجازات القرآن ولمحاته ، التي لا يفطن لها إلا الخواص [3]

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ﴾ هو : تغطية نعم الله بالجحود ﴿وَالْفُسُوقَ﴾ الخروج عن الإيمان ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾ ترك الانقياد للشرع والحق .

قال في البرهان : ﴿كره إليكم [الكفر والفسوق والعصيان]﴾ يعني : بما وصفه الله من

---

(١) انظر البرهان (٣٥٢) .

(٢) انظر الكشاف ٣٦٢/٤ ، وقد نقله المصنف بتصرف يسير .

(٣) ما بين القوسين غير موجود في الكشاف ٣٦١/٤ ، وهو موجود في أصل هذا التفسير .

العقاب عليه ، والفسوق : هو كلما خرج به الإنسان من طاعة ربه [١].

وقال بعض الناس : ﴿الكفر﴾ : ظاهر ﴿والفسوق﴾ : هو الكبيرة ﴿والعصيان﴾ : هو الصغيرة [٢].

وقال الرازي : هذه ثلاثة في مقابل الإيمان الكامل ؛ لأن الإيمان الكامل المزين هو أن يجمع التصديق بالجنان ، والإقرار باللسان ، والعمل بالأركان [أحدهما] قوله تعالى : ﴿كره إليكم الكفر﴾ وهو التكذيب ، وهو في مقابلة التصديق بالجنان ﴿والفسوق﴾ : هو الكذب . [وثانيها : هو ما قبل هذه الآية] وهو قوله تعالى : ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ﴾ سمى من كذب فاسقاً ، فيكون الكذب فسوقا . [ثالثها] ما ذكره بعد هذه الآية وهو قوله تعالى : ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ فإنه يدل على أن الفسق أمر قولي ... قال : فتخصيص الفسق بالأمر القولي أقرب [٣] ، وأما العصيان فترك الأمر ، وهو بالفعل أليق .اهـ كلامه .

ثم قال تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ[الرَّاشِدُونَ]﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة . والرشد : الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه من الرشادة ، وهي الصخرة ، قال أبو الوازع: كل صخرة رشادة [٤] .

ثم قال تعالى : ﴿أولئك هم الرَّاشِدُونَ﴾ بمعنى الإفضال والإنعام [﴿فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً﴾] وهما تعليل لمحذوف دل عليه الكلام ، أي : وقع ذلك بهم لأجل إفضال الله عليهم وإنعامه ، أو لما وقع الرشد عبارة عن التحبب والتزيين والتكريه ، مسندة إلى اسمه

---

(١) انظر البرهان ٣٥٢ ، وما بين أقواس الزيادة من البرهان .

(٢) ومثل هذا في تفسير الرازي ١٢٥/٢٨. ولم يبين من هو البعض .

(٣) ولفظ الرازي (ما الفرق بين الأمور الثلاثة وهي : الكفر ، والفسوق ، والعصيان ؟ فنقول : هذه أمور ثلاثة في مقابلة الإيمان الكامل .. الخ ما ذكره هنا ، وما بين الأقواس من الرازي ، والكلام من موضعين ، ومحل الموضع الثاني هو بعد نقط الفراغ الثلاث .(انظر الرازي ١٢٤/٢٨)

(٤) في الكشاف ٣٦٣/٤ : والرشد : الاستقامة على طريق الحق ، مع تصلب فيه .. الخ ما ذكره المصنف هنا ، ثم قال الزمخشري بعد قوله : رشادة ، وأنشد : وغير مقلد وموشمات صلين الضوء من صم الرشاد

تعالى ــ صار الرشد كأنه فعله ، فجاز أن ينتصب عنه ، [أ]و لا ينتصب عن ﴿الراشدون﴾ ولكن عن الفعل المسند إلى اسم الله ، والجملة التي :﴿أولئك هم الراشدون﴾ اعتراض ذكره في الكشاف [1] .

ويحتمل أن يكون ﴿فضلا﴾ مصدر ، وفيه وجهان أحدهما : أن يكون مصدرا من غير اللفظ ، ولأن الرشد فضل ، فكأنه قال : أولئك هم الراشدون رشدا .

وثانيهما : أن يكون مصدرا لفعل مضمر ، كأنه قال : حبب إليكم الإيمان ، وكره إليكم الكفر ، فأفضل فضلا ، وأنعم نعمة .

ويحتمل أن يكون مفعولا به ، والفعل مضمر دل عليه قوله : ﴿أولئك هم الراشدون﴾ أي : يبتغون ﴿فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ .

وقيل : الفرق بين الفضل والنعمة في الآية أن فضل الله جل جلاله إشارة إلى ما عنده من الخير ، وهو مستغن عنه ، والنعمة : إشارة إلى ما يصل إلى العبد ، وهو محتاج إليه [2]

---

(١) انظر الكشاف ٣٦٣/٤، وخلاصة ما ذكره المصنف رحمه الله ، والزمخشري : أن (فضلا إما مصدر ، أو مفعولا له، فإن كان مصدرا فهو إما مصدر من غير اللفظ ؛ لأن الرشد بمعنى الفضل والإنعام ، أو يكون مصدرا لفعل مضمر وسواء كان تقديره من لفظه ، كما ذكر المصنف ، أو من غير لفظه كما ذكره الزمخشري حيث قال تقديره : جرى ذلك [فمحله على هذا التقدير النصب على الحالية] أو كان ذلك [ومحله على هذا التقدير النصب على الخبرية].
والثاني أن يكون مفعولا له ، ولما كان هناك إشكال ، كيف يصح وقوعه مفعولا له ، والرشد فعل القوم ؟ والفضل فعل الله تعالى ، وشرط المفعول له أن يتحد الفاعل ؟ وقد أجاب عن هذه المصنف بقوله : أو لما وقع الرشد عبارة عن التحبب ، والتزيين ، والتكريه ــ مسندة إلى اسمه تعالى صار الرشد كأنه فعله ، فجاز أن ينتصب عنه . أو أنه منصوب عن الفعل :﴿حبب﴾ على أنه مفعول له أيضا . وقد ذكر المصنف رحمه الله وجها ثالثا ، وهو أنه مفعول به ، والتقدير: يبتغون فضلا . وقد ذكر هذا الوجه أيضا الرازي ١٢٥/٢٨. وكذلك بقية الأوجه .

(٢) وقد علل ذلك الرازي فقال : لأن الفضل في الأصل ينبي عن الزيادة ، وعنده خزائن من الرحمة لا لحاجة إليها ، ويرسل منها على عباده ما لا يبقون معه في ورطة الحاجة ، بوجه من الوجوه ، والنعمة : تنبئ عن الرأفة والرحمة ، وهو من جانب العبد، وفيه معنى لطيف، وهو تأكيد الإعطاء ، وذلك لأن المحتاج يقول للغني : اعطني ما فضل عنك وعندك ، وذلك غير ملتفت إليه ، وأنا به قيامي وبقائي ، فإذن قوله : (فضل من الله) إشارة إلى ما هو من جانب الله الغني ،والنعمة إشارة إلى ما هو من جانب العبد من اندفاع الحاجة ،وهذا يؤكد قولنا (فضلا) منصوب بفعل مضمر ، وهو الابتغاء والطلب . الرازي ١٢٦/٢٨.

ثم أخبر سبحانه عن علمه وحكمته في فعله فقال تعالى :﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين ، وما بينهم من التفاضل ، ﴿حَكِيمٌ﴾ حين يفضل ، وينعم بالتوفيق على أفاضلهم . ثم لما حذر الله المؤمنين من نبأ الفاسق ــ أشار إلى ما يلزم منه ، فقال تعالى :﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ كان القياس اقتتلتا[1]،كما قرئ ، ولكن حمل على المعنى؛لأن الطائفتين في معنى القوم .

قال في التجريد : والمراد بقوله :﴿اقتتلوا﴾ أرادوا القتال ، فلذلك سماهم مؤمنين[2] ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ والصلح بينهما واجب للآية ، ولم يذكر العدل في هذا الصلح كالثاني ؛ لأنهما هنا باغيتان معا ، أو راكبتان شبهة ، فيمشي بين الباغيتين بالصلح ، فإن أبتا إلا البغي قوتلتا حتى ترجعا إلى أمر الله ، ويوضح الحق لراكب الشبهة ، فإذا أصرتا قوتلتا كالباغيتين حتى تفيء كل واحدة ، وهو معنى ما ذكره الهادي إلى الحق [عليه السلام] فإنه قال عليه السلام : هذا أمر من الله سبحانه لنبيئه وللمؤمنين فيمن شاجر وخرج بالجهل والمعصية إلى ما ذكر الله من القتال فأمرهم إذا صارت فئتان من المؤمنين إلى هذا الحد أن يصلحوا بينهما فيمنعوهما من التقاطع في فعلهما .

﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ ــ [من البغي : وهو الاستطالة والظلم والامتناع من الصلح] ــ وأبت القبول ، وأقبلت الأخرى إلى الحق في الفعل والقول ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ وتأبى ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ في كتابه ، أي : حتى ترجع إليه وإلى الحق والتقوى ، والمقاتلة : هي المحاربة بالضرب والطعن والرمي أبدا ، حتى ترجع إلى ما خرجت منه من النصفة ، وترك ما صارت إليه من البغي والحَمِيَّة [3].اهـ

---

(١) وهي قراءة إبراهيم بن أبي عبلة ، وقرأ عبيد بن عمير (اقتتلا) على تأويل الرهطين أو النفرين .

(٢) ولهذا قيل : إنه لما ولي الاسم وهو طائفتان أداة الشرط ، ومن حقها أن يكون ما بعدها فعلا ، وذلك ليكون الابتداء بما يمنع من القتال ، فيتأكد معنى النكرة المدلول عليها بكلمة إن ، وذلك لأن كونهما طائفتين مؤمنتين يقتضي أن لا يقع القتال منهما .

(٣) انظر مجموع تفسير الأئمة ص ٤٥٨ ، وما بين قوسي الزيادة من تعريف للبغي هو من كلام المصنف ، لا من كلام الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام .

ثم قال سبحانه :﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ رجعت إلى الصلح فكفوا عن قتالها ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ أي : بين الفئتين ﴿بِالْعَدْلِ﴾ وهو أن ترد الباغية ما صار إليها من الأموال ، وتضمن ما جنت ، وأما المبغي عليها فلا تضمن ما جنت حال المدافعة ، ولا ترد ما أخذت عند الهادي والمنصور بالله ، وعند القاسم والمؤيد بالله أنها ترد ما كان باقيا ، وتضمن ما كان تالفا ، وهو قول الشيباني ، وهذا هو العدل المطابق للتنزيل .

وقرن الصلح الثاني بالعدل ؛ لأن الغرض به الفيء ، وهو التضمين بالعدل ، لا الأول ، فالواجب إظهار الحق والمواعظ ، ونفي الشبه ، دون الضمان فَعَامٌّ لكل منهما على ما جنت الأخرى في نفس أو مال ، لعدم الدليل المستفيض ، واكتفى بذكر العدل إجراءً لدلالته على مثله أولا ، فإن العدل محتاج إليه في كل قول وفعل .

قال في التجريد : والمذهب أن المظلومين إذا ظفروا بالباغية ، وغلب على ظنونهم أنهم إن أسلموا رجعوا إلى محاربتهم ــ جاز قتلهم حال الهزيمة .

وعن الإمام يحي : إذا خافوا منهم ذلك جاز قصدهم إلى ديارهم ، إذا كان لا يكتفى شرهم قال الهادي عليه‌السلام : معنى ﴿بالعدل﴾ فهو : بالحق .

ومعنى قول الله تعالى : ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ فهو : تحروا الحق في ذلك واعدلوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ يقول : يحب العادلين المحقين . وقوله :﴿فإن فاءت فأصلحوا بينهما﴾ يدل على أنه أراد فإن لم تف فقاتلوها ، حتى تفنوها وتهلكوها وتبيدوها ، أو ترجع إلى الحق الذي منه خرجت ، وتترك الباطل الذي فيه دخلت .

قال في الكشاف : أمر باستعمال القسط على طريق العموم ، بعد ما أمر به في إصلاح ذات البين ، والقول فيه مثل القول في الأمر باتقاء الله عقيب النهي عن التقديم بين يديه، والقسط ــ بالفتح ــ الجور [1] .

---

(١) انظر الكشاف ٣٦٥/٤، ٣٦٦، وقد نقله المصنف بتصرف يسير ، وقال الزمخشري بعد قوله : والقسط ــ بالفتح ــ الجور : من القسط : وهو اعوجاج في الرجلين ، وعود قاسط ، يابس ، وأقسطته الرياح : وأما القسط بمعنى العدل ، فالفعل منه أقسط ، وهمزته للسلب ، أي : أزال القسط وهو الجور .

ثم قال تعالى تتميما للإرشاد ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي : ما المؤمنون إلا إخوة في الدين ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ المقتتلين ، وخُصَّ الاثنان ؛ لأن أقل ما يقع الشقاق بين اثنين ، فإذا لزمت المصالحة في الأقل كانت بين الأكثر ألزم لعظم الفساد فيه .

وقال بعض أهل اللغة : الأخوة : جمع الأخوة من النسب ، والإخوان : جمع الأخ من الصداقة ، فالله تعالى قال :﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ تأكيدا للأمر ، وإشارة إلى أن ما بينهم ما بين الاخوة من النسب ، والإسلام كالأب ، قال قائلهم :

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

حكى هذا الرازي [١] .

ثم قال تعالى :﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بامتثال ما أمركم ، والتقوى أيضا تحملكم على الائتلاف ، والإزالة لما يفرط منكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي : لكي ترحموا ، وقيل : هو ترجية لهم ، أي : فإنكم ترجون بذلك الوصول إلى رحمته وثوابه ، والسلامة من غضبه وعقابه .

قال في البرهان : وهذه الآية نزلت في فريقين من الأنصار ، جرى بينهما مراء فأصلح النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بينهم [٢] .

وفي التجريد : أن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وقف على مجلس بعض الأنصار ، وكان يريد عيادة سعد بن عبادة ، وكان في ذلك المجلس عبد الله بن أبي ، وكان رسول الله راكبا على حمار ، فبال الحمار فأمسك ابن أبي على أنفه ، وقال : خل سبيل حمارك فقد آذانا نتنه ، فقال عبد الله بن رواحة : والله إن بول حماره لأطيب من مسكك ، ومضى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وطال بينهما الخصام حتى غضب لكل منهما من حضر من قومه فتجالدوا بالعصي والنعال والجريد ، فرجع إليهم رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فأصلح بينهم فنزلت . وقيل : قرأها عليهم فاصطلحوا [٣] .

---

(١) انظر الرازي (١٢٩/٢٨) .

(٢) البرهان ٣٥٢ .

(٣) الحديث في البخاري ومسلم عن أنس بلفظ قريب لما ذكره في التجريد . وهو في الكشاف أيضا ٣٦٤/٤ .

ثم قال تعالى :﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ﴾ أي : يهزأ ويضحك ﴿قَومٌ مِنْ قَــوْمٍ﴾ قال في البرهان : وفي هذه السخرية وجهان أحدهما : استهزاء الغني بالفقير إذا ســأله ، والثاني : استهزاء الفاسق المعلن بفسقه بالمسلم .اهــ

وهذا من الله عز وجل نهي ، لا يهزأ قوم بقوم ، ولا يلغو بذكرهم وغيبتهم .

والقوم : الرجال خاصة ؛ لقيامهم بأمور النساء .

قال في التجريد : فلذلك قال :﴿ولا نساء من نساء﴾ وقد يأتي لفظ القوم ، ويراد به الرجال والنساء على وجه التغليب .

قال في الكشاف : وهذا في الأصل جمع قائم كصُوَّم وزُوَّر ، وأمــا قولهــم في قــوم فرعون، وقوم عاد [إنهم] الذكور والإناث . فليس كذلك [1] وإنما قصــد الذكــور ، وتركوا ذكر الإناث لأنهن توابع لرجالهن .اهــ

ثم قال :﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا﴾ أي : المسخور بهم ﴿خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ عند الله ، والاعتبار بتطهير البواطن ، وخلوص الضمائر .

قال في التجريد : وقوله :﴿عسى أن يكونوا خيرا منهم﴾ كلام مســتأنف في معنــى التعليل للنهي عن السخرية ، ومعناه لا تسخروا من أحد لرثاثة حال أو عاهة ، أو نحــو ذلك ، فربما كان المسخور منهم خيرا عند الله من الساخرين ، والرجاء بعسى ، أو التوقع هو من جهة الساخر ، لا من جهة الله تعالى .اهــ

﴿وَلَا﴾ يسخر ﴿نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ عند الله ﴿وَلَا تَلْمِــزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي : لا يلمز بعضكم بعضا ، واللمز: الطعن والضرب باللســان ، أي : لا يطعن بعضكم على بعض ، أي : لا يعب بعضكم بعضا ، ومن سمع السخرية والعيب ، ورضي أو ضحك فهو شريك في إثمه ، فأما من هو على خلاف صفتكم في الدين فــلا حرج في غيبته ، وأما المؤمنون فهم كنفس واحدة ، فمن عاب مؤمنا فكأنما عاب نفسه

---

(١) عبارة الزمخشري : فليس لفظ القوم بمتعاط للفريقين . وما بين القوسين ليس في الكشاف ، وهو في الأصــل لهــذا التفسير . انظر الكشاف ٣٧٦/٤ .

﴿وَلَا تَنَابَزُوا﴾ وتداعوا ﴿بِالْأَلْقَابِ﴾ والمنهي عنه ما يكرهه المدعو به ، يقال : نبزه ، ونزبه إذا دعاه بلقب سوء يكرهه المدعو به ، فأما ما يحبه فلا بأس به .

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم :(من حق المؤمن على المؤمن أن يدعوه بأحب أسمائه إليه) [١] .

قال في البرهان : النبز : هو وضع اللقب المكروه على الرجل ، ودعاؤه به [٢] .

وقيل : هذه نزلت في ثابت بن قيس بن شماس ، وكان في أذنيه ثقل ، فكان يدنو من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى يسمع حديثه ، فجاء ذات يوم ، وقد أخذ الناس مجالسهم فقال : تفسحوا ، ففعلوا إلا رجلا كان بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يفسح ، وقال : قد أصبت موضعا ، فنبزه بلقب كان لأمه مكروها ، فنزلت فيه هذه الآية [٣] .

ومن النبز : أن يعير الرجل بعد إسلامه بما سلف من شركه ، أو يسميه بعد إسلامه باسم دينه قبل إسلامه ، فأما مستحب الألقاب ومستحسنها فغير مكروه .

وفي تفسير هذه الآية يقول الهادي إلى الحق عليه السلام : معنى ﴿لا تلمزوا﴾ هو : لا يقع بعضكم في بعض بالباطل ، ولا يؤذيه بالكذب والوقيعة [فيه] بالمحال .

ومعنى ﴿لا تنابزوا بالألقاب﴾ فالتنابز : هو التداعي بالألقاب ، وتسمية بعضهم بعضا بها والألقاب : فهي أسامي مكروهة عند سائر الناس ، ينبز بعضهم بعضا بها لينتقصه بذلك، فنهى الله من كان كذلك عن العودة إلى ما يورث الشحناء ، ويوقع البلية بين أهل التقوى .

ثم ذكر سبحانه أنه من جعل هذا بعد أن نهاه عنه فقد دخل في اسم الفسوق بالمعصية لله ، إذ نهاه عن ذلك فقال :﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ يقول : بئس الرجل رجل عصا، فسمي بعد ما كان مطيعا بفعله ومعصيته فاسقا ، فبئس البدل من تبدل الفسق بالإيمان [٤] .

---

(١) الحديث ذكره في الكشاف ٣٦٩/٤. قال في التخريج : لم أجده هكذا . وأورد له شواهد عن البيهقي في الشعب، وأبي يعلى ، والطبراني .

(٢) انظر البرهان ٣٥٢ .

(٣) انظر البرهان ٣٥٢ . قال في تخريج أحاديث الكشاف : ذكره الثعلبي ، ومن تبعه عن ابن عباس بغير سند (الكشاف ٣٧٠/٤) .

(٤) انظر مجموع تفسير الأئمة ص ٤٥٨، ٤٥٩ ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

وفي الكشاف : معنى ﴿بئس﴾ الذم ، والاسم هنا : الذكر ، من قولهم : طار اسمه في الناس بالكرم [أي : ذكره ، والفسق والفسوق : الخروج من الإيمان والمعنى]:[1] بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائر أن يذكروا بالفسق[2].

وفي هذا أن الداعي للمؤمن بلقب السوء يفسق بذلك .

وقيل : نزلت في قوم من بني تميم استهزءوا ببلال ، وخبّاب ، وصهيب ، وعمّار ، وأبي ذر ، وسالم مولى حذيفة[3].

وعن ابن عباس أن أم سلمة رضي الله عنها ربطت حقويها بنطاقها ، وأرخت إحدى طرفيه خلفها ، فقالت إحدى نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأخرى : انظري إلى ما خلفها كأنه لسان كلب ، وقيل : القائلة عائشة تقول لحفصة[4].

وعنه : نزلت ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ في شأن صفية بنت حيي ، قالت : يا رسول الله النساء يعيرنني ، ويقلن : يا يهودية بنت يهوديين ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : فهلا قلت : إن أبي هارون ، وإن عمي موسى ، وإن زوجي محمد[5] .

وقوله :﴿بعد الإيمان﴾ فيه ثلاثة أوجه : أحدها : لاستقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي يأباه الإيمان ، كما تقول : بئس الشأن بعد الكبرة الصبوة .

---

(١) ما بين قوسي الزيادة ليس من الكشاف . أنظر الكشاف ٣٧٠/٤ . وفيه زيادة بدلا عما في الأقواس : أو اللؤم كما يقال : طار ثناؤه وصيته ، وحقيقته ما سما من ذكره وارتفع بين الناس ألا ترى إلى قولهم : أشاد بذكره كأنه قيل: بئس الذكر المرتفع .. الخ ما ذكره هنا .

(٢) إلى هنا انتهى ما في الكشاف .

(٣) ذكره في الكشاف ، وقال : روي عن الضحاك (انظر الكشاف ٣٧٠/٤) .

(٤) ذكر هذه الرواية الزمخشري في كشافه ٣٧٠/٤ ، وأورد هذه الرواية أيضا الطبرسي في مجمع البيان ١٧٢/٩ .

(٥) قال ابن حجر في تخريج الكشاف : ذكره الثعلبي عن عكرمة ، عن ابن عباس ، بغير إسناد ، وفي الترمذي من رواية هاشم بن سعيد الكوفي ، حدثنا كنانة ، حدثتنا صفية بنت حيي ، قالت : دخلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ... إلى آخر الحديث، وقال : غريب ، وليس إسناده بذاك ، وروى الترمذي ، وابن حبان ، وأحمد ، والطبراني من رواية معمر ، عن ثابت ، عن أنس قال : بلغ صفية أن حفصة قالت : بنت يهودي ، فبكت . فذكر معناه . انظر الكشاف ٣٧٠/٤

والثاني : أنه كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود ، يا يهودي ، يا فاسق ، فنهوا عنه فقيل لهم : بئس الذكر أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه ، والجملة على هذا التفسير متعلقة بالنهي عن التنابز [١].

والثالث : أن يجعل من فسق غير مؤمن ، كما تقول للمتحول عن التجارة إلى الفلاحة: بئست الحرفة الفلاحة بعد التجارة . ذكره في الكشاف .

ثم قال تعالى :﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ﴾ عن هذه المناهي ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال الهادي عليه السلام : يقول سبحانه : من لم يتب عما نهي عنه من التنابز وغيره فهم الظالمون لأنفسهم بما أوقعوها فيه من الهلك عند الله على فعلهم [٢].اهـ

[بحث في الظن والتجسس والغيبة]

ثم قال تعالى :﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾ لأن الظن هو السبب فيما تقدم ، وهو ظن السوء بمن ظاهره الصلاح ، أي : أبعدوا عنه ، وأصله : اجعلوه في جانب ، والمأمور باجتنابه هو بعض الظن لا كله بدليل قوله :﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ إلا أن ذلك البعض موصوف بالكثرة .

وضابطه : أن كل ظن بلا أمارة صحيحة ، وهو أن يكون المظنون به ممن ظاهره الستر والصلاح فهو حرام بخلاف من اشتهر بالقبائح .

قال الحسن : كنا في زمن الظنُّ بالناس فيه حرام ، وأنت اليوم في زمن أعمل واسكت، وظن بالناس ما شئت ، وعنه : لا حرمة لفاجر [٣].

قال الهادي عليه السلام : هذا نهي من الله سبحانه لعباده عن سوء الظن في إخوانهم المؤمنين ، الذين قد عرفوا محض الإيمان ، وأيقنوا منهم بترك معاصي الرحمن .

ثم أخبر سبحانه أن من ظن بأخيه المؤمن ما قد علم خلافه من التقوى فقد دخل في

---

(١) من قوله : وقوله ﴿بعد الإيمان﴾ فيه ثلاثة أوجه إلى آخر الوجه الثالث في الكشاف ٣٧٠/٣.

(٢) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٥٩ .

(٣) وانظر الكشاف ٣٧٢/٤ .

الإثم والردي[1] .اهـ

ثم قال سبحانه :﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ تماما لما سبق ؛ لأنه تعالى لما قال :﴿اجتنبوا كثيرا من الظن﴾ فُهِمَ منه أن المعتبر اليقين . والتجسس ــ بالجيم والحاء ــ والمعنى قريب ، وقيل : بالحاء : الخير ، وبالجيم : الشر .

وفي البرهان : الفرق بين التجسس بالجيم ، والتحسس بالحاء ، التجسس بالجيم هو البحث ، ومنه سمي الجاسوس ، لأنه يبحث عن الأمور ، والتحسس بالحاء : ما أدركه الإنسان ببعض حواسه[2] .اهـ

والمعنى فيه كما قال الهادي عليه السلام : هو ﴿ولا تجسسوا﴾ من طريق طلب العيب من إخوانكم والبحث ، أن تجدوا لهم عيوبا تعيبونهم بها ، من بعد أن قد شهدتم بالإيمان ، وأقررتم بالتقوى لهم ، فهذا الذي نهى الله المؤمنين أن يتجسسوا عليه ، وفيه ، وله .

وأما ما كان ذا تهمة من أهل الزلة والعثرة ، والدخول فيما يسخط الله من المعصية ، فالتجسس عليه واجب ، ليظفر به ، وليشهد على فعله ، فتقام واجبات حدود الله عليه في صنعه ، فيكون ذلك نكاية به وبمن هو على شكله[3] .اهـ

ثم أشار تعالى إلى حفظ عرض المؤمن في غيبته فقال سبحانه :﴿وَلَا يَغْتَب بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [قال الهادي] : نهى سبحانه عن أن يقع بعضكم في بعض ، أو يرميه بالباطل والبهتان ، أو بالظن الكاذب في بعض الشأن[4] .

قال الإمام محمد بن القاسم عليهما السلام في كتاب دعائم الإيمان : وإنما الغيبة في الحقيقة المنهي عنها بقوله صلى الله عليه وآله :(من ذكر أخاه بما فيه فقد اغتابه ، وأما من قال فيه بما ليس فيه فقد بهته)[5] .

---

(١) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٥٩ .

(٢) انظر البرهان ص ٣٥٢ .

(٣) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٥٩ ، وفي المجموع بدلا عن قوله :(نكاية به وبمن هو على شكله) : نكالا له ولغيره من شكله .

(٤) المصدر السابق .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه رأى بعض نسائه وقد مرت مارية القبطية في طريق وكانت أم إبراهيم ، فأشارت إليها بيدها أنها قصيرة على وجه الهزؤ منها ، والعجب لها بذلك ، فجعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك منها غيبة لها بما لا عيب فيه عليها ، وبما ليس من كسبها .

وكذلك إذا عاب الرجل أخاه بقبح مخارج كلامه لبعض خلقه ، وكلما أشبه هذا مما لا فعل له فيه من قبحه في المنظر وغيره ، فهو غيبة لا تحل له ، وعليه الاستغفار والندم لما كان منه .

وكذلك إن عابه بأمر قد كان فعله وتاب منه ، فأما أن يقول فيه شئ ليس فيه قلّ أو كثر فهو بهت ، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فأما إذا كان فيه في معصية قد أصر عليها و لم يتب إلى الله منها فينبغي أن ينبهه على ذلك في ستر ، فإن لم يراجع فالواجب عليه هتكه ، والتنبيه على سوء حالته ، إلا أن يكون في ذلك هتك نفسه ، أو أيجاب حد عليه في ظاهر الحكم إذا كان الذي اطلع عليه مستورا في الظاهر عند الناس ، فأما إذا لم يكن كذلك فالذي يجب عليه من هتكه ما قاله النبي صلى الله عليه وآله وسلم :(اذكروا الفاسق بما فيه كي يحذره الناس)[1] .اهـ
ثم قال سبحانه :﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً﴾ [قال الإمام الهادي] :بالاغتياب له من ورائه ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ وجعلهما سيان في كل معنى[2] .

---

(٥) ولفظه في الكشاف : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الغيبة فقال :(أن تذكر أخاك بما يكره ، فإن كان فيه فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته) . قال ابن حجر في تخريجه : متفق عليه ، من حديث أبي هريرة .

(١) كتاب دعائم الإيمان مخطوط ، وهو غير متوفر لدينا حال تحرير هذا ، وحديث (اذكروا الفاسق ..) أورده في الكشاف بلفظ (اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس) قال ابن حجر في تخريجه : أخرجه أبو يعلى ، والترمذي الحكيم، في النوادر ، في الثامن والستين ، والعقيلي ، وابن عدي ، وابن حبان ، كلهم من رواية الجارود بن يزيد ، عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده مرفوعا ... ثم قال : وقال ابن طاهر : روي عن معمر ، عن بهز أيضا ، أخرجه عبد الوهاب أخو عبد الرزاق ، وعبد الوهاب كذاب ، وأخرجه الطبراني في الأوسط ، وقال : لم يروه عن معمر غيره ، قال : وله طريق أخرى عن عمر بن الخطاب رواه يوسف بن أبان ، حدثنا الأبرد بن حاتم ، أخبرني منهال السراج عن عمر . (انظر الكشاف ٣٦٩/٤) .

(٢) مجموع تفسير الأئمة ٤٥٩ .

قال الرازي : والحكمة في هذا التشبيه هو الإشارة إلى أن عرض الإنسان كدمه ولحمه، وهذا من باب القياس الظاهر ، وذلك لأن عرض المرء أشرف من لحمه ، فإذا لم يحسن من العاقل أكل لحوم الناس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الأولى ؛ لأن ذلك آلم ، وقوله :﴿لحم أخيه﴾ آكد في المنع ؛ لأن العدو يحمله الغضب على مضغ لحم العدو ، يقال : أصدق الأصدقاء من ولدته أمك ، فأكل لحمه أقبح ما يكون ، وقوله تعالى : ﴿ميتا﴾ إشارة إلى دفع وهم ، وهو أن يقال : القول في الوجه يؤلم فيحرم ، وأما الاغتياب فلا إطلاع عليه للمغتاب فلا يؤلم . فقال : أكل لحم الأخ وهو ميت أيضا لا يؤلم ، ومع هذا هو في غاية القبح ؛ لأنه لو اطلع عليه لتألم كما أن الميت لو أحس بأكل لحمه لآلمه ...وقوله تعالى :﴿ميتا﴾ حال عن اللحم ، وعن الأخ .اهـ كلام الرازي [1]

قال الهادي عليه السلام : وفي ذلك ما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال :(إن الله يبغض البيت اللحم) يريد الذي يوقع فيه بالمؤمنين ، ويغتابون ويؤذون ، وبالباطل فيه يرمون ، وفي ذلك ما يروى عنه صلى الله عليه وآله وسلم حين رجم ماعز بن مالك الأسلمي حين أقر عنده بالزنى فرجمه ، ثم انصرف المسلمون ، فقال طلحة والزبير : انظروا إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم يستر على نفسه حتى رجم مرجم الكلب . فسمعهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسكت عنهما حتى أجاز بجيفة حمار شاغر برجله ، فوقف ثم قال لهما : انزلا فأصيبا من هذه الجيفة ، فقالا : نعيذك بالله يا رسول الله ، أن نأكل الميتة ونصيب منها ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم :[لما أصبتما من أخيكما آنفا أعظم مما تصيبان من هذه الجيفة، إنه الآن يتقمص في أنهار الجنة) يريد]: لما أصبتما من ماعز بن مالك من الأذية والاغتياب أعظم عند الله من أكلكما هذه الميتة ؛ لأن الله قد حرم اغتياب المؤمنين كما حرم أكل الميتة ، ثم للمؤمن حرمة ليست للميتة ، فمن عصى الله بقطيعة ذي حق فاغتيابه أعظم من إصابته من الميتة المحرمة التي لا حرمة لها مع تحريمها [2].اهـ

---

(١) انظر الرازي ١٣٤/٢٨، ١٣٥ .

(٢) انظر مجموع تفسير الأئمة ص ٤٦٠ ، وما بين قوسي الزيادة من المجموع ، وهو ساقط في المصابيح .

واعلم أن الغيبة : ذكر السوء في حال غيبة المذكور ، وسئل صلى الله عليه وآله وسلم عن الغيبة، فقال : أن تذكر أخاك بما يكره ، فإن تكن فيه فقد اغتبته ، وإن لم تكن فيه فقد بهته) وكفى بهذه الآية الكريمة من تقبيح هذه الخصلة الذميمة، وتشنيعها وتهجينها وتفظيعها.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم :(إن الربا نيف وسبعون بابا ، وأهونهن بابا من الربا مثل من أتى أمه في الإسلام ، ودرهم ربا أشد من خمس وثلاثين زنية ، وأشد الربا وأخبث الربا انتهاك عرض المسلم ، وانتهاك حرمته) رواه الإمام عز الدين بن الحسن عليه السلام عن البيهقي وغيره .

وقوله :﴿لحم أخيه ميتا﴾ هذا تصوير وتمثيل لما يناله المغتاب من عرض من يغتابه على أفظع وجه وأفحشه ، وفيه مبالغات شتى منها : الاستفهام الذي معناه التقرير ، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة ، ومنها : إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحدا من الأحدين لا يحب ذلك ، ومنها : أنه لم يقتصر على مثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخا . ومنها : أنه لم يقتصر على لحم الأخ حتى جعل ميتا ، فتحققت ـ بوجوب الإقرار عليكم ؛ فإنكم لا تقدرون على دفع وإنكار ـ كراهتكم له وتقذركم منه، فليتحقق أيضا ما هو نظيره من الغيبة للمسلمين[1].

ثم قال تعالى :﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ عطف على ما تقدم من الأوامر والنواهي ، أي : اجتنبوا واتقوا ، معناه : اتقوا الله بترك ما أمرتم باجتنابه ، والندم على ما وجد منكم [منه] فإنكم إن اتقيتم تقبل الله توبتكم ، وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين،

---

(١) ومثله في الكشاف ، وقد أصلحنا بعض الألفاظ منه ، وفي الزمخشري (على دفعه وإنكاره) وفيه أيضا (فليتحقق أيضا ما هو نظيره من الغيبة والطعن في أعراض المسلمين) . انظر الكشاف ٣٧٣/٤، ٣٧٤ .وقال السيد العلوي في حاشيته على الكشاف : قال ابن الحاجب في الأمالي : إنه تعالى لما نهى عن الغيبة شبهها بما هو مكروه من معتادهم ، وهو أكل لحم المغتاب ميتا ، وأتى به على صيغة الإنكار ؛ تنبيها على أنه مما لا يفعلونه ، ثم كأن ذلك التشبيه مسببا عن هذا التشبيه سببا لذكر تحقق الكراهة ، فقال بعد ذلك :﴿فكرهتموه﴾ فكان ذلك تحقيق الكراهة وثبوتها مسببا عن هذا التشبيه ، الذي قصد به تأكيد كراهة ما نهى عنه ، إذ به تحقيق توبيخهم في وقوعهم في الغيبة ، المشبهة بما يأتونه ويكرهونه . (حاشية العلوي ٢٨٦) .

والمبالغة في التوّاب للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده ، أو لأنه ما من ذنب يقترفه المقترف إلا كان مغفورا عنده بالتوبة ، أو [لأنه] بليغ في قبول التوبة ، منزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط ﴿رحيم﴾ بسعة رحمته وكرمه فَعَلَ ذلك [1].

ثم قال تعالى :﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ هو آدم وحواء عليهما السلام نبيئنا لما تقدم وتقريرا له ، وذلك لأن السخرية من اللمز والعيب إن كان بسبب التفاوت في الدين والإيمان فهو جائز ؛ لأن قوله تعالى :﴿ولا يغتب بعضكم بعضا﴾ وقوله :﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ منع من عيب المؤمن وغيبته ، وإن لم يكن بذلك فلا يجوز .

ثم قال تعالى :﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ معناه : لتعلموا ، قيل : إن الشعوب النسب الأبعد ، والقبائل : النسب الأقرب ، قال الشاعر :

قبائل من شعوب ليس منهم كريم قد يُعَدُّ ولا نَجِيْبُ

وسموا شعوبا ؛ لأن القبائل تشعبت منها ، شعب شعوبا جمع شعب ، وهو أعم من القبيلة ؛ لأنها تفرع عنه ، وهو أول الطبقات التي عليها العرب ، وهي الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة ، وكل طبقة تجمع ما تحتها ، فالشعب يجمع القبائل ، والقبيلة تجمع العمائر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطن يجمع الأفخاذ ، والفخذ يجمع الفصائل ، جذيمة : شعب ، وكنانة : قبيلة ، وقريش : عمارة ، وقصي : بطن ، وهاشم : فخذ ، والعباس : فصيلة .

ثم بين فائدة ذلك وهي التعارف ، وفيه وجهان أحدهما : أن فائدة ذلك التناصر [لا التناكر] [2] ولا التفاخر . وثانيهما : أن فائدته التعارف لا التناكر واللمز والسخرية ، والغيبة تفضي إلى التناكر لا إلى التعارف .

ثم قال تعالى :﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ يعني : أن الفضل والكرم بالأفعال لا بالأنساب ، والمعنى : من يكن أتقى يكن عند الله أكرم ، أي : التقوى تفيد الإكرام ،

---

(١) ومثله في الكشاف بتقديم وتأخير ، وقد أصلحنا اللفظ منه ، وما بين الأقواس من الكشاف . (الكشاف ٣٧٤/٤)

(٢) ومثل هذين الوجهين أيضا في الرازي ، وما بين القوسين ليس موجودا في الرازي (١٣٨/٢٨) .

فأرفعكم قدرا أتقاكم ، ولو كان عبدا ، قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم :﴿أيها الناس ، إنما النـــاس رجلان : مؤمن تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله﴾ ثم قرأ الآية[1] .

فإن قال قائل : التقوى من الأعمال والعلم أشرف ؟ قال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم :(لفقيه [واحد] أشد على الشيطان من ألف عابد﴾ [2]؟ قيل له : التقوى ثمرة العلم ، قـــال الله تعالى :﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فلا تقوى إلا للعالم ، فالمتقي العالم أتم علمه ، والعالم الذي لا يتقي كشجرة لا ثمرة لها ، لكن الشجرة المثمرة أشرف من الشجر الذي لا يثمر ، بل هو حطب ، وكذلك العالم [الذي لا يتقي] حصب جهنم ، وأما العـــابد الذي يفضل [الله] عليه الفقيه فهو الذي لا علم له ، وحينئذ لا يكون عنده من خشية الله نصاب كامل [3].

فإن قيل : يؤخذ من هذه الآية عدم الكرم بالأنساب ؛ لأن الله قال :﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ قالوا : ولو كان عبدا حبشيا ؟ وقد احتج بها كثير في نفي اعتبار الكفاءة ؟

قلنا : ليس كذلك ، بل لا شبهة في ذلك إلا على من جهل وتابع نشوان وأضرابه ، بل هذه الآية الكريمة كما قال بعض محققي الشيعة من أعظم الأدلة في اعتبارها ، إذ هي من فوائد قوله :﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾ وكل واحد من لفظي ﴿أكرمكـــم﴾ و﴿أتقاكم﴾ مقصور على الآخر في المعنى الذي سيقت له الآية ، وهي بيان الحكمـــة في

---

(١) قال ابن حجر في تخريج هذا الحديث : أخرجه الترمذي ، وابن حبان ، وأبو يعلى ، وابن أبي حاتم ، من رواية عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر ، وفي الباب عن أبي هريرة ، أخرجه أبو داود ، والترمذي ، وأحمـــد ، والـــبزار ، وابـــن المبارك، في البر والصلة ، من رواية سعيد بن أبي سعيد ، عن أبيه ، عنه نحوه ، ومنهم من قال : عن سعيد ، عن أبـــي هريرة ، وعن عبد الملك بن قدامة الحاطبي ، حدثني أبي (أن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عام فتح مكة ، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد يا أيها الناس) فذكر نحوه ، وأخرجه . الكشاف ٣٧٥/٤.

(٢) ذكره الرازي في تفسيره ، وما بين قوسي الزيادة منه (انظر الرازي ١٣٩/٢٨) .

(٣) ومثل هذا في الرازي ، وكذلك ما بين أقواس الزيادة منه ، وفيه أيضا زيادة بعد قوله : نصاب كـــامل ، (ولعلـــه يعبده مخافة الإلقاء في النار ، فهو كالمكره ، أو لدخول الجنة فهو يعمل كالفاعل له أجرة ويرجع إلى بيته ، والمتقي : هو العالم بالله ، المواظب لبابه ، أي : المقرب إلى جنابه ، عنده يبيت .. الخ ما ذكره (الرازي ١٣٩/٢٨) .

الشعوب والقبائل ، وأن بمعرفتها يكون التعارف المقصود للشارع ، إذ لا طريق لنا إلى معرفة الأتقى من غيره إلا خبر الشارع إما تفصيلا كالمنصوص على أعيانهم بالتفضيل على غيرهم ، أو جملة كما في آيات الاصطفاء والاختيار ، فيستوي فيهما التقديم والتأخير ، وإلا لزم اصطفاء غير الأتقى ، واختيار غير الأكرم على الأكرم ، وهو قدح في الحكمة أو رجوع ـ والعياذ بالله ـ إلى مذهب أهل التطريف ، ومنكري تفضيل الخبير اللطيف[1] .اهـ

وقد نبه عز وجل على هذا المعنى فقال سبحانه :﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أي : بالحكمة التي رتبكم لأجلها شعوبا وقبائل ﴿خَبِيرٌ﴾ بما يوجب الكرم عنده ، وبكل خفي عليكم .

السبب أنه صلى الله عليه وآله وسلم مر في سوق المدينة على غلام أسود يقول : من اشتراني فعلى شرط : لا يمنعني عن الصلوات الخمس خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فاشتراه رجل ففقده صلى الله عليه وآله وسلم ، فسأل عنه ، فقيل : محموم ، فعاده صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم سأل عنه بعد أيام فقيل : هو لما به ـ أي : يعالج الموت ـ فجاءه وهو في ذمائه ـ أي : بقية حركته ـ فتولى غسله فدفنه ، فدخل على المسلمين أمر عظيم ، فنزلت[2] .

ثم قال تعالى :﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ هم نفر من بني أسد قدموا المدينة في جدب فأظهروا الشهادة ، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات ، وأغلوا أسعارها ، ويقولون : أتتك العرب بأنفسها على رواحلها ، وجئناك بالأنفال والذراري ، يريدون الصدقة ، ويمنون عليه صلى الله عليه وآله[3] .

ثم قال تعالى لنبيه ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ تكذيب لدعواهم مع أدب حسن ، حيث لم يصرحوا فلم يقل : كذبتم ، والإيمان التصديق مع الثقة وسكون القلب ، والإسلام :

---

(١) ينظر من المراد ببعض محققي الشيعة . وقد قال الرازي في تفسيره ١٣٧/٢٨: فإن قيل : هذا مبني على عدم اعتبار النسب ؟ وليس كذلك ، فإن للنسب اعتبارا عرفا وشرعا ، حتى لا يجوز تزويج الشريفة بالنبطي .

(٢) رواه في الكشاف عن يزيد بن شجرة . قال ابن حجر في تخريجه : هكذا ذكره الثعلبي ، والواحدي بغير سند . (الكشاف ٣٧٥/٤) .

(٣) ذكره أيضا الزمخشري في الكشاف ٣٧٧/٤، والرازي في تفسيره ١٤٠/٢٨، وكذلك في مجمع البيان ١٧٦/٩،

الدخول في السلم ، والخروج من أن يكونوا حربا للمؤمنين ، بإظهار الشهادتين باللسان، من دون مواطأة القلب له ، وهو المراد بقوله :﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي : أقررنا باللسان .

قال الهادي عليه السلام : هذا إخبار من الله سبحانه ، وشهادة منه ، على أن الإيمان قول مقول ، وعمل معمول ، واعتقاد في العقول ، وتكذيب لمن قال بغير ذلك : من أن الإيمان قول بلا عمل . فأخبر سبحانه عن الأعراب الذين قالوا ، وأقروا ، وصدقوا و لم يعملوا أنهم في قولهم : إنهم مؤمنون ـــ مبطلون وكاذبون ، وأمرهم أن يقولوا : أسلمنا. ومعنى ﴿أسلمنا﴾ فهو صدقنا ، واستسلمنا للحكم ، ألا ترى كيف قال :﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يريد : لم يصح الإيمان لكم ، و لم يدخل في قلوبكم بالقول دون العمل ، فلستم من المستسلمين العاملين ، ولستم من المؤمنين المخلصين [١]. .اهـ

قال في الكشاف : وقوله : ﴿ولما يدخل الإيمان﴾ إلى آخره ليس بتكرير لقوله :﴿لم تؤمنوا﴾ من غير زيادة فيه ، بل فيه زيادة ، وهي التوقيت ؛ لأنه حال من قوله : ﴿أسلمنا﴾ أي : التوقيت لما أمروا به أن يقولوه ؛ لأنهم لم يؤمروا بذلك القول مطلقا ، لكن ما دامت قلوبهم غير مواطئة لألسنتهم ، ولما فيها [٢]من معنى التوقع ، وذلك المعنى دال على أنهم قد آمنوا فيما بعد .

قال في التجريد : ويحتمل أنه إخبار من الله معطوف على ﴿تؤمنوا﴾ أي : لم تؤمنوا ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ أي : لم تصدقوا ، وإنما أسلمتم تعوذا من القتل ، ولَمَّا تفيد استمرار النفي إلى وقت الكلام .

وقال الهادي عليه السلام : معنى قوله :﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ أي : لم تعملوا أعمال الإيمان ، فلم تعزم عليها قلوبكم من الطاعة لله والعرفان ؛ لأن ذلك كله من

---

(١) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٦٠ ، وفي المصابيح (واعتقاد في المعقول) وفي المجموع (العقول) وهو ما أثبتناه .

(٢) الضمير عائد لـ(لَمَّا) ، وعبارة الزمخشري ، وما في (لما) من معنى التوقع ، والكلام منقول من الكشاف بتصرف، وانظر نص العبارة في الكشاف ٣٧٦/٤، ٣٧٧ .

شرط الإيمان ، ولا يكفي الإقرار بالله وبالرسول باللسان [١] .اهـ

قلت : ويدل على هذا ما رواه المرشد بالله [٢] عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه نادى بصوت أسمع العواتق في أجواف الخدور فقال : يا معشر من أسلم و لم يدخل الإيمان في قلبه لا تذموا المسلمين ، ولا تطلبوا عوراتهم ، فإنه من يطلب عورة أخيه المسلم هتك الله ستره ، وأبدى عورته ، ولو كان في ستر بيته) [٣] .

قال الهادي عليه السلام : ثم أخبر سبحانه أنهم إن تابوا ورجعوا إلى العمل فعملوا بعد القول ، واعتقدوا طاعة ذي الجلال والطول ، فعملوا بأمره كله ، وانتهوا عن نهيه كله، وكانوا مع إقرارهم بالوحدانية عاملين مجتهدين كانوا من بعد ذلك عنده من المفلحين ،

---

(١) هذا ساقط في مجموع تفسير الأئمة ، وهو في أصل المؤلف رحمه الله .

(٢) هو الإمام المرشد بالله يحي بن الحسين بن إسماعيل بن حرب بن زيد الجرجاني الشجري ، المولود سنة ٤١٢هـ والمتوفى سنة ٤٧٩ هـ أحد العلماء الأعلام ، وأئمة الزيدية في الجيل والديلم ، حافظ مسند ، متكلم ، نسابة ، مصنف، دعا إلى الله في الجيل ، والديلم ، والري ، وجرجان ، في أيام المستظهر العباسي ، وسلك مسلك أئمة الآل في العلم والعمل ، والجهاد والعدل ، وهو كثير الرواية عن مشاهير المحدثين في عصره ، ومنهم والده الإمام الموفق بالله الحسين بن إسماعيل الجرجاني ، مؤلف كتاب (الإحاطة) وكتاب (الاعتبار وسلوة العارفين) ومن مؤلفات المترجم له : (الأمالي الإثنينية) كان يمليها يوم الاثنين ، وتسمى : الأنوار في فضائل آل البيت عليهم السلام ، من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإمام زيد عليه السلام . ٢ـ الأمالي الخميسية ، في مكارم الأخلاق جزآن ، طبعا في مجلد واحد ٣ـ سيرة الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهاروني خطية (انظر أعلام المؤلفين الزيدية) تحت الطبع .

(٣) وذكره في الكشاف ، قال ابن حجر في تخريجه : أخرجه الطبراني والعقيلي ، وابن عدي ، من رواية قدامة بن محمد الأشجعي ، عن إسماعيل بن شبيب الطائفي ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس بهذا ، وفي الباب عن ابن عمر، رواه الترمذي ، وابن حبان في صحيحه ، ولفظه : صعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ...) وعن أبي بردة عند أبي داود ، وأحمد ، والطبراني ، وأبي يعلى ، وعن البراء بن عازب عند أبي يعلى والبيهقي في الشعب في التاسع والستين ، من رواية مصعب بن سلام عن أبي إسحاق ، عن البراء .

وعن ثوبان عند أحمد بلفظ :(ولا تؤذوا عباد الله ، ولا تعيروهم ، ولا تطلبوا عوراتهم ، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته) وعن بريدة عند الطبراني ، وابن مردويه ، ولفظه :(صلينا الظهر خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلما انفتل أقبل علينا غضبان ، فنادى بصوت أسمع العواتق في جوف الخدور) فذكر نحوه (الكشاف ٤/٣٧٣) .

وصح لهم به اسم المؤمنين ، وذلك قوله :﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ -[آلاته لَيْتاً ، وألَتّه لَتّا : نقصه نقصا ، وظلمه ظلما] يريد : لا ينقصكم من جزاء أفعالكم وسعيكم ، ولو كان كما يقول أهل الجهل والبهتان : إن الإيمان قول بلا عمل لما قال :﴿ولا يلتكم من أعمالكم شيئا﴾ ولما قال [للأعراب الذين وحدوا وشهدوا بالشهادتين ، وصدقوا وجاهدوا ، و لم يعملوا بكل الفرائض] ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا﴾ يريد سبحانه [أنهم] لن يكونوا أبدا مؤمنين ، حتى يكونوا للفرائض كلها عاملين[1] .اهـ

ثم أخبر سبحانه أنه يغفر لهم ويرحمهم إن تابوا فقال :﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي : يقبل توبتهم ، ويهب لهم مغفرته ورحمته بنعمته عليهم بجزيل الثواب .

ثم قال سبحانه مرشدا للأعراب الذين قالوا :﴿آمنا﴾ إلى حقيقة الإيمان ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ لم يشكوا فيما آمنوا به ، ولا توهموا من صدقوه

قال الهادي عليه السلام : فلم يحكم بحقائق الإيمان إلا لمن بعد منه الارتياب في وجوه الدين والإحسان ، فنسأل الله الثبات على دينه بالتوفيق لما يرضيه برحمته .اهـ

ومعنى ﴿ثم﴾ التراخي ، والبعد فيما بين إحداث الإيمان من الفضل ، وبين الاستمرار على الإخلاص ، أي : أنشأوا الإيمان ، وفعلوا ما هو أفضل منه وأعلى منزلة ، وهو الاستمرار على الإيقان والإخلاص .

قال في الكشاف : ارتاب : مطاوع رابه ، إذا أوقعه في الشك مع التهمة ....، قال : فإن قلت : ما معنى ثم هنا ، وهي للتراخي ؟ وعدم الارتياب يجب أن يكون مقارنا للإيمان ...؟ قلت : الجواب على طريقين أحدهما : أن من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان ، أو بعض المضلين بعد ثلج الصدر فشككه وقذف في قلبه ما يثلم يقينه ، أو

---

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٦١ ، وما بين قوسي الزيادة الأولين [آلاته ..] ليس من كلام الإمام الهادي عليه السلام بل من المصنف،وما بين أقواس الزيادة الآخرين ، فهو نقص في نسخة المصابيح ، وهو في مجموع تفسير الأئمة

نظر هو نظرا غير سديد يسقط به على الشك ، ثم يستمر على ذلك راكبا رأسه لا يطلب له مخرجا ، فَوُصِفَ المؤمنون [حقا] بالبعد عن هذه الموبقات ، ونظيره قوله :﴿ثم استقاموا﴾

والثاني : أن الإيقان ، وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان تنبيها على مكانه ، وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعارا باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضا جديدا [1].اهـ

ثم قال عز وجل في صفتهم :﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي : جاهدوا العدو المحارب ، والشيطان والهوى ، وقوله :﴿بأموالهم﴾ تناول كل قربة تعلق بالمال ، مما يخالف فيها الهوى ، وأنفسهم في الغزو ، أو كل العبادات في سبيل الله في الجهاد ، أو عام في كل القربات ، فكلها سبيل يرضي الله تعالى .

ثم قال عز وجل في الجامعين هذه الصفات :﴿أُولَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ﴾ الذين إيمانهم إيمان صدق ، وإيمان حق وجد وثبات ، ولم يكذبوا كما كذب أعراب بني أسد .

قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام : فهذه الآية بيان لمجمل لفظ المؤمنين ، فيجب أن يراعى فصولها ، وتتعرف معانيها ، إذ لا إيمان لمن أخل بشيء منها ؛ لأن الحكيم جل وعلا عقب التأكيد بالنفي ، ثم فصَّلَ معاني الإيمان ، فبدأ سبحانه بالتصديق باللسان والقلب ؛ لأن تصديق اللسان لا حكم له ، وقد كذب الله المنافقين لما قالوا : الحق في ألسنتهم . ولا علم في قلوبهم ، وذلك ظاهر في قوله تعالى :﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ فجرى التصديق باللسان من دون اعتقاد في القلب صحيح مجرى الاستهزاء، فلذلك استحق فاعله الذم والعقاب ، ولا يقع الإيمان بالله وبرسوله صلى الله عليه وآله وسلم إلا بمعرفة ، ولا يقع معرفة في ذلك مع التكليف إلا بدلالة ، سيما وقد أكد ذلك الارتياب ، ولا يزول الارتياب إلا بعد استحكام العلم بالبرهان .

---

(١) الكشاف ٤/٣٧٧ ، وقد نقله المصنف مع حذف يسير محل النقط التي أثبتناها .

فيجب معرفة الباري تعالى وصفاته ، وما يجوز عليه وما لا يجوز ، وأفعاله وأحكام أفعاله ، وما يجوز عليه من ذلك ، وما لا يجوز ، والنبؤة وما يتبعها ، والشرائع وما يتبعها، بأدلة واضحة ، وبالعمل بمقتضى ذلك ، ولذلك عقبه بذكر العمل ، وابتدأ بذكر أفضل الأعمال ، الذي هو الجهاد ؛ لأن به خمدت نيران الضلال ، واشتعلت أنوار الحق، وكبر به الحكيم تعالى من رؤوس الجبال ، وبطون الأودية ، ونكص الشيطان على عقبيه، وتبرأ ممن اعتمد عليه ، لما نظر إلى أولياء الله مستبسلين للموت كأنهم جمال تحطم نبتا أمامهم ، وقد قدم ذكر الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس ؛ لأن المقاتل أكثر من المنفق فيما نشاهده ، فكان الإنفاق أصعب الأمرين على النفوس ، وبه تجهز الجيوش ، وتعان الغزاة ، وتبلغ الأغراض في العدو ، ودرهمه بسبعمائة درهم ودينار ، وهذا الغرض العام، وقد يضاعف الله لمن يشاء ، وهم أهل المقصود والمعرفة بوجوده الإيقاعات أضعافا لا يعلم بها إلا الله ، وهذا المبيع المفيد ، والمتجر الربيح ، وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : ﴿من جهز غازيا أو حاجا ، أو خلفه في أهله كان له مثل أجره)

ثم عقب سبحانه الجهاد بالنفس لكونه أحد مرتبتي الجهاد ، وركني قاعدة الإسلام ، وقد روينا في ذلك عن عمران بن الحصين ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :(مقام الرجل في الصف في سبيل الله أفضل من عبادة رجل ستين سنة) .

وهذا أمر من حُرِمَهُ فقد حُرِمَ ، نسأل الله تعالى أن يرزقنا توفيقه وتسديده ، وعونه وتأييده إلى سبيل رضوانه .

ثم عقب ذلك بقوله سبحانه :﴿أولئك هم الصادقون﴾ فدل ذلك أن من ادعى الإيمان بغير ما ذكرنا فهو من الكاذبين ، وأن دعواه تلحق بدعوى المنافقين ، فالواجب التحفظ والاحتراز .اهـ

ثم أمر عز وجل نبيئه صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لبعض كبراء قريش :﴿**قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ**﴾ تجهيل لهم في قولهم : ﴿آمنا﴾ كأن الله لا يعلم ما في قلوبهم ، ولا حقيقة دينهم ، فعلموه ما لم يحط به منه ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾ ومن جملته حقيقة

دينكم ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فكيف تعلمونه بدينكم ، وتبطنون خلاف ما أظهرتم .

ثم قال تعالى فيهم :﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ أي : لأجل أن أسلموا ، والمنة : النعمة التي لا يطلب بها مسديها عوضا ، واشتقاقها من القطع ؛ لأنه إنما يسديها إليه ليقطع بها حاجته من غير أن يعمل لطلب مثوبة ، ثم قال : مَنّ عليه صنعه . إذا اعتده عليه منة وإنعاما ، ومنه ﴿يمنون عليك أن أسلموا﴾ .

ثم قال سبحانه فيهم أيضا :﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ أي : لا تعتدوا علي ما لا يعتد به ، وهو إسلامكم الذي زعمتموه إيمانا ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ أي : يعتد عليكم بما هو منة ، وهو ﴿أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي : الإسلام كما زعمتم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي : إن صح زعمكم أنكم مؤمنون ، إلا أنكم تزعمون ما الله عليم بخلافه .

ولم يقل سبحانه : يمن عليكم أن أسلمتم ، بل قال :﴿أن هداكم للإيمان﴾ لأن إسلامهم كان ضلالة ، حيث كان نفاقا فما مَنّ به عليهم ، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أي : إن كنتم صادقين فلله المنة عليكم .

وهذا كما قال الهادي عليه‌السلام : ذم من الله سبحانه لمن مَنّ على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بالطاعة له ، والمعاونة ، والقيام فيما أوجب الله عليه ، فأخبر سبحانه أنه مَنْ يَمُنُّ بطاعة رسول الله ، أو بالدخول في طاعة الله ، والقيام بواجب فرض الله مخط في فعله ، عاص لربه ، منتقص لدينه ، غير شاكر لنعمة خالقه .

ثم أمر نبيئه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن يبين لمن كان كذلك ، أو فعل شيئا من ذلك ، فيعلمه أنه ليس على رسوله له في إسلامه مِنّةٌ ، وأنه لم يفعل إليه في ذلك حسنة .

ثم أخبر أن المِنّة على من فعل ذلك هي لله ولرسوله ؛ إذ هداه إلى النجاة [وخلصه من الهلكة حتى صار من أهل الجنان] بعد أن كان من حطب النيران ، وحتى صار برحمة الله ومنته لله وليا ، مستوجبا لثوابه بعد أن كان حربا [عدوا] مستأهلا لعقابه .

ثم قال :﴿بل الله يمن عليكم﴾ إلى قوله :﴿إن كنتم صادقين﴾ يعني في أنكم مؤمنون ، وفيما تدعون من الإخلاص ، فأقروا بما قلنا ، واخضعوا لحقنا ، فإن لم تقروا بذلك

وتخضعوا فلستم بصادقين فيما تدعون من الإيمان ، وتنسبون إليه أنفسكم من الإخلاص للرحمن ، وهذه الآية نزلت في بعض من كان مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من كبار قريش ، وكان عتب عليه النبي في أفعاله ، فمَنَّ على النبي بإسلامه ، وإتباعه له ، وقيامه معه ونصرته ، فأنزل الله عز وجل فيه ما تسمع ، وأوقع عليه من الذم في ذلك ما أوقع [1].اهـ

ثم أخبر سبحانه أنه لا تخفى عليه أسراركم ، وأعمال قلوبكم الخفية ، فقال تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي : الغائب فيهما عن العباد ، فلا يخفى عليه ما في ضمائركم من الكذب ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بيان لكونهم غير صادقين، يعني أنه عز وجل يعلم كل مستتر في السموات والأرض ، ويبصر كل عمل تعملونه ، في سركم وعلانيتكم ، فيجازيكم بحسبه ، لا يخفى عليه منه شئ ، فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم ، ولا يظهر على صدقكم وكذبكم ، وذلك أن حاله مع كل معلوم واحدة لاتختلف .

والله أعلم

---

(١) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٦١، ٤٦٢ .

سورة الفتح

تسع وعشرون آية إجماعا (مدنية)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ هو فتح مكة ، وقد كان وعده الله تعالى به عام الحديبية ، عند انكفائه منها ، ذكره في البرهان[1] .

---

(١) انظر البرهان مخطوط ٣٤٩، وفي النسخة التي بأيدينا (وقد كان وعده الله أنه) وفي البرهان (به) ، وذكر في البرهان أيضا بعده ما ذكره المصنف هنا بقوله : وقيل الفتح ما كان من أمره بالحديبية .. الخ ما ذكره المصنف بتصرف يسير ، وتقديم وتأخير .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليهما السلام قال :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام في قوله تعالى :﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾ معناه : قضينا لك قضاء بينا ، وحكمنا لك حكما ، يريد فتح خيبر .

وقوله تعالى :﴿ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ قال الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام : معناه ليغفر الله لأمتك بك ما تقدم من ذنبهم وما تأخر ، وذلك أن لهم الشفاعة يوم القيامة .

وقوله تعالى :﴿وتعزروه وتوقروه﴾ معناه : تعظموه وتسودوه .

وقوله تعالى :﴿يد الله فوق أيديهم﴾ معناه : قدرته ومنته . وقوله تعالى :﴿وكنتم قوما بورا﴾ معناه : هلكى .

وقوله تعالى :﴿ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد﴾ معناه : إلى أهل الأوثان .

وقوله تعالى :﴿وأخرى لم تقدروا عليها﴾ معناه : فارس والروم .

وقوله تعالى :﴿وأثابهم فتحا قريبا﴾ معناه : فتح خيبر ، ويقال : الفتوح التي تفتح لهم .

وقوله تعالى :﴿ليس على الأعمى حرج﴾ معناه : إثم وضيق .

وقوله تعالى :﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ معناه : لا إله إلا الله .

وقوله تعالى :﴿فتصيبكم منهم معرة﴾ معناه : جناية وشر . وقوله تعالى :﴿تزيلوا﴾ معناه : امتازوا .

وقوله تعالى :﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية﴾ معناه : العصبية .

وقوله تعالى :﴿سيماهم في وجوههم﴾ معناه : الخشوع ، والسيماء : العلامة .

وقوله تعالى :﴿كزرع أخرج شطأه﴾ معناه : جوانبه .

وقوله تعالى :﴿فآزره﴾ معناه : ساواه فصار مثل الأم ﴿فاستغلظ﴾ معناه : غلظ ﴿فاستوى على سوقه﴾ قال الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام : فالساق : حاملة الشجر .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم عليه السلام : تفسير غريب سورة الفتح

تأويل قول سيدنا عز وجل :﴿وينصرك الله نصرا عزيزا﴾ يعينك الله ويؤيدك ، بعد أن غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، واحسب أن الله وعده بأن لا يعذبه على ما كان من نسيانه ، ولا يعاقبه بما أصاب من الذنوب على ظنه وحسبانه ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وآله لا يعمد كبائر العصيان فيما مضى ، ولا فيما تأخر من الزمان .

ومعنى قوله :﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ السكينة : هي الطمأنينة والخشوع واليقين ، والجنود : هم الجموع ، ومعنى ﴿عليهم دائرة السوء﴾ يريد : عليهم مصيبة السوء ، قال الشاعر :

ولقد خشوت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم

ومعنى ﴿وتعزروه وتوقروه﴾ فالتعزير هو التعظيم ، قال الشاعر :

عزروا الأملاك في دهرهم وأطاعوا كل كذاب أثيم

يريد : وقروا وعظموا ، ومعنى قوله :﴿بكرة وأصيلا﴾ أي : غدوة وعشيا ، قال أبو طالب :

وبالأسود المحجوب إذ يمسحونه إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل

يريد : بالضحى والعشايا ، ومعنى ﴿يبايعونك﴾ أي : يحلفون لك ، والبيعة : هي اليمين ، قال الشاعر :

والنقض للبيعة بعد الإصر .

أي : اليمين بعد العهد . ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ أي : قوة الله فوق قوتهم ، قال الشاعر :

وما من يد إلا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سيبلى بظالم

﴿فمن نكث﴾ أي : نقض ، ومعنى ﴿قوما بورا﴾ أي : هلكى عند الله عز وجل ، والبوار : هو الهلاك ، قال الشاعر :

فبار أبو حكم في الوغى . هناك وأسرته الأرذلونا

ومعنى ﴿واعتدنا للكافرين عذابا أليما﴾ أي : أحضرنا للكافرين وقربنا ، ومعنى ﴿سعيرا﴾ أي : نارا . ومعنى ﴿ليس على الأعمى حرج﴾ أي : ليس عليه ضيق ولا مأثم ، بل و معذور ، قال العالم صلوات الله عليه :

وأسلب ما كلفت به ويبقى الوزر والحرج

وقال الشاعر : يا ليتني قد زرت غير حارج ذات الوشاح الكنزة الدمالج

والفتح : الظفر بالبلد قهراً أو صلحا ، بحرب أو غيره ، ونزلت هذه عام الحديبية حين رده المشركون من مكة ، وهي عِدَةٌ له بالفتح ، وجاء على لفظ الماضي على عادة الله في أخباره ؛ لأنها في تحققها بمنزلة الكائنة ، فأخبر بصيغة الماضي إشارة إلى أنه أمر لا دافع [له] واقعٌ لا رافِعَ له [1].

أي : غير آثم . ومعنى قوله :﴿وكف أيدي الناس عنكم﴾ أي : لزم أيديهم بما شاء قال الشاعر :

وذي ظعن كففت الناس عنه وكنت على مساء ته مقيتا

أي : لزمت النفس عنه ﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها﴾ يعني مكة ، وذلك أن الله لزم نبيه عن دخول مكة حتي غنمه خيبر [وأخرى] فتح مكة فلم يقدر على دخولها وفتحها حتى دخل خيبر قبل فتح مكة ، فيما روي والله أعلم وأحكم .

ومعنى ﴿والهدي معكوفا﴾ أي : محبوسا بالحديبية ، وهي بالقرب من مكة فيما بلغني ، و لم أصل هنالك بعد إلى هذه الغاية ، ومعنى ﴿أن يبلغ محله﴾ يريد أن لا يبلغ محله ، يريد مكة في يوم النحر الذي يحل فيه النحر للهدي .

ومعنى ﴿معرة﴾ أي : مأثم قال الشاعر : أهل جور وعيون جمة ومعرات بكسب المكتسب

والمعرات : الذنوب والمآثم ، ومعنى ﴿لو تزيلوا﴾ أي : لو تفرقوا ، يعني المؤمنين الذين بمكة مع الكافرين ، قال الشاعر:

فألحقه بالهاديات ودونه حواجزها في صرة لم تزيل

أي : تفرق ، ومعنى ﴿الحمية حمية الجاهلية﴾ أي : المحاماة والأنفة والنكف على الكفر قال الشاعر :

أما من فتى من عامر ذي حمية طويل نجاد السيف همته شرار

﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ أي : أعطاهم من الملزم والأخذ ، لا من الإلزام والإكراه ، كما قالت القدرية الظلمة .

ومعنى ﴿ليظهره على الدين كله﴾ أي : ليعليه ويرفعه على جميع الأديان ، والظهور : هو الارتفاع .

ومعنى ﴿سيماهم في وجوههم﴾ أي : علامتهم من أثر السجود ، ذلك ﴿مثلهم في التوراة﴾ أي : صفتهم ﴿ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه ﴾ أي : ورقه ونباته ، قال الشاعر :

يخرج الشطأ على وجه الثرى ومن الأشجار أفنان الثمر

﴿فاستغلظ﴾ أي : علا وكثر ﴿فاستوى على سوقه﴾ أي : انتصب على سوقه ، أي : على قصبه ، ويحتمل وجها آخر، وهو استواؤه أي : بلغ إلى غايته ، وكمل على غاية نفاقه وكثرة قيمته ، والله أعلم .

ومعنى قوله :﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ أي ليغم أعداء الله بكمال محمد صلى الله عليه وآله وسلم تسليما ، وهذه الآيات في النبي وأهل بيته خاصة ، روي ذلك عن أمير المؤمنين الهادي إلى الحق صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين .

(١) وزاد الزمخشري على ما ذكره المصنف ، وفي ذلك من الفخامة ، والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى (الكشاف ٣٣٢/٤) قال السيد العلوي في حاشيته على الكشاف : قوله : وفي ذلك فخامة ، أي : في مجيء لفظ الوعد

ويحتمل أن معناه : فتحنا في حكمنا وتقديرنا [١]، والله أعلم .

وقيل : الفتح ما كان من أمره بالحديبية [٢]، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم أصاب فيها ما لم يصب في غيرها ، بويع بيعة الرضوان ، وأطعموا نخل خيبر .

وكان في فتح الحديبية آية عظيمة ، وذلك أنه نزح ماؤها [٣] حتى لم يبق فيها قطرة ، فتمضمض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [ثم] مجه فيها ، فَدَرَّت بالماء حتى شرب جميع من كان معه ،[وقيل] : فجاش الماء حتى امتلأت ، و لم ينفد ماؤها بَعْدُ[٤] .

على لفظ الماضي مسندا إلى ضمير العظمة ، وذلك لأن الوعد لا يأتي على هذا الأسلوب إلا ممن كملت قدرته ، واستحال العجز عليه ، وعلم بأنه لابد من وقوعه ، وقال الطيبي : لأن هذا الأسلوب لا يرتكب إلا في أمر معظم أمثاله ، ويعز الوصول إليه ، ولا يقدر على نيله إلا من له سلطان وقهر ، ومن يغلب ولا يغالب ، ولذلك ترى أكثر أحوال القيامة واردة على هذا المنهج ، لأن فتح مكة من أمهات الفتوح ، وبه دخل الناس في دين الله أفواجا ، وأمر رسوله بالاستغفار ، والتأهب للمسير إلى دار القرار ، ولو أخذ مع ذلك صيغة التعظيم بلغ الغاية .

(١) هذا أيضا تعليل لمجيء الفعل بصيغة الماضي . ومثله في الرازي ٨٨/٢٨.

(٢) قال الحاكم الجشمي في تفسيره التهذيب : قيل : هو فتح مكة عن جماعة من المفسرين منهم أبو علي ، قال : نزل بعد رجوعه من الحديبية كأنه بشر في ذلك الوقت ، والحديبية اسم بئر ، عن قتادة وأنس عن جابر (ما كنا نعلم بفتح مكة إلا يوم الحديبية . وقيل :﴿فتحنا﴾ قضينا لك بالفتح والنصر ، وقيل : هو فتح خيبر عن مجاهد ، قال الشعبي : بالحديبية يوم بيعة الرضوان ، وأطعموا نخيل خيبر ، وظهرت الروم على فارس ، وبلغ الهدي محله ، وفرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس ، لئن ذلك كان أمارة لعلو كلمة الإسلام ، وقيل : هو فتح الحديبية عن الضحاك ، وكان بغير قتال ، والصلح من الفتح ، وهو اختيار القاضي ، لئن السورة نزلت قبل فتح مكة ، وقيل : بشرناك بشرى مبينا عن مقاتل ، وقيل : فتح الله بالإسلام ليغفر لك الله عن الحسن ، وقيل : هو الفتح والظفر على الأعداء كلهم بالحجج والمعجزات الظاهر ، وقيل : هو فتح الإسلام وظهوره ، وذلك بأربعة أوجه ، أحدها : تعريف الله نبيه أمر الدين وإظهار الحجج حتى تكامل أصولها وفروعها ، وجعل يفتح على غيره بأن يعلمه ، وثانيها : تصديقه بالمعجزات الظاهرة نحو القرآن وحنين الجذع ، وانفجار الماء من بين أصابعه ، وانشقاق القمر ، وثالثها : أنه تكفل بنصرته على أعدائه حتى يظهر دينه على الأديان كلها ، ورابعها : أنه نصره حالا بعد حال ، ونصر أمته حتى علا أمره وظهر دينه، وقيل : أراد بالفتح ما عمله من القرآن وأنزل عليه من الوحي ، وبيان الدين ، فكأنه قال : علمتك القرآن والدين ، وأوحيت إليك لتبلغ الرسالة ، وتتقرب إليّ بجميع ما أمرتك فأغفر لك الأول والآخر من ذنبك عن أبي مسلم

(٣) أي : ماء البئر التي تسمى الحديبية ، قال الحاكم الجشمي في تفسيره ، والحديبية : اسم بئر . وكذا في البرهان كما سيأتي . ومثل هذا اللفظ في الكشاف ٣٣٢/٤. وقد أصلحنا اللفظ منه ، وكذلك ما بين أقواس الزيادة من الكشاف .

وظهرت الروم على فارس تصديقا بالخبر ، وبلغ الهدي محله .

وقيل : المراد فتح الإسلام بالحجة والبرهان ، والسيف والسنان .

وقيل : الحكم لقوله :﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾[١] وقوله :﴿ثم يفتح بيننا بالحق﴾[٢]

قال الرازي : والمختار من الكل وجوه : أحدها : فتح مكة ، والآخر : فتح الحديبية ، والثالث : فتح الإسلام بالآية والبيان والحجة والبرهان ، والأول مناسب لآخر ما قبلها[٣] من وجوه : أحدها ـــ أنه تعالى لما قال :﴿هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله﴾ إلى أن قال :﴿ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه﴾[٤] بين تعالى أنه فتح لهم مكة وغنموا ديارهم

---

(٤) قال ابن حجر في تخريج الكشاف ٣٣٣/٤ : متفق عليه من حديث البراء مطولا باللفظ الأول ، ولمسلم من حديث سلمة بن الأكوع ، قال : قدمنا المدينة ونحن أربع عشرة مائة ، وعليها خمسون شاة لا ترويها ، فقعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على جنب الركية فإما دعا ، وإما بصق . قال : فجاشت ، فسقينا واستقينا . وعند البخاري في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان : فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء ، فلم يلبث الناس أن سرحوه ، وشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العطش فانتزع سهما من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله ما زال يجيش لهم بالري ، ولا مخالفة في هذا لحديث البراء ، لما رواه الواقدي من طريق عطاء بن أبي مروان عن أبيه ، حدثني أربعة عشر رجلا من أسلم صحابة ، أن ناجية بن الأعجم قال : دعاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين شكي إليه من قلة الماء ، فدفع إلي سهما من كنانته ، وأمر بدلو من مائها ، فمضمض فاه منه ، ثم مجه في الدلو ، وقال لي : انزل الماء فصبه في البئر ، وفتحت الماء بالسهم ، ففعلت ، فوالذي بعثه بالحق ، ما كدت أخرج حتى كاد يغمرني) وروي أيضا من حديث قتادة ، قال : لما دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الرحل ، فنزل بالسهم وتوضأ ، ومج فاه منه ، ثم رده في البئر جاشت بالرواء .

(١) الأعراف : ٨٩ .

(٢) سبأ : ٢٦ .

(٣) ـــ هذا اللفظ هو الموجود في تفسير الرازي ٧٧/٢٨ ، وكأن المعنى بأن الأول وهو فتح مكة ، مناسب للثالث هنا، وهو فتح الإسلام بالآية والبيان ، والحجة والبرهان ، فإن الرازي قد ذكره قبل الحكم الأخير ، فقد قال الرازي : في الفتح وجوه : أحدها فتح مكة وهو ظاهر ، وثانيها : فتح الروم وغيرها ، وثالثها : المراد من الفتح صلح الحديبية ، ورابعها : فتح الإسلام بالحجة والبرهان والسيف والسنان ، وخامسها : المراد منه الحكم .. إلى آخر ما ذكره المصنف هنا ، ثم دلل على ذلك بأن الآيات الواردة كلها تدل على أن المراد فتح مكة ، وما كان مثله وجاريا مجراه .

(٤) محمد : ٣٨.

وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا ، ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك ، فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم .

ثانيها : لما قال :﴿والله معكم﴾ وقال :﴿وأنتم الأعلون﴾ بين برهانه بفتح مكة ، فإنهم كانوا [هم الأعلون][1] .

ثالثها : لما قال الله تعالى :﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم﴾[2] وكان معناه : لا تسألوا الصلح من عندكم ، بل اصبروا فإنهم يسألون الصلح ، ويجتهدون فيه كما كان يوم الحديبية . اهـ

قال الزهري : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا القرآن ، وكثر الإسلام وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير .

فإن قلت : كيف يكون فتحا وقد أحصروا ؟ قلت : كان فتحا مبينا بعد الهدنة وعقد الصلح ، والإحصار قبل ذلك ، قاله في التجريد [3].

قال في البرهان : والحديبية بئر ، وفيها تمضمض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجاشت بالرواء .

قال في الكشاف : فإن قلت : كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة [4]؟ قال : لم يجعل علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدد من الأمور الأربعة ، وهي المغفرة ، وإتمام النعمة[5] وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز ، كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ، ونصرناك

---

(١) ما بين القوسين لفظ الرازي ٧٧/٢٨ ، ولفظ الأصل (كانوا الأعلين) .

(٢) محمد : ٣٥ .

(٣) وذكره أيضا في الكشاف ٣٣٣/٤.

(٤) في المصابيح (علة للغفران) وفي الكشاف (علة للمغفرة) وفيه أيضا بدلا من قال : لم يجعل (قلت : لم يجعل ..) قال السيد العلوي في حاشيته على الكشاف مخطوط : قوله : كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ وجه السؤال أن الفتح فعل الله فلا يكون علة للمغفرة ، وخلاصة الجواب أن المعلل متعدد ، وهو المعطوفات الأربع ، فتؤخذ الزبدة والخلاصة من المجموع ، فيكون هو المعلل كما قال : لنجمع لك بين عز الدارين .

(٥) وإتمام النعمة) في المصابيح مؤخرة عن هداية الصراط المستقيم . وفي الكشاف موضعها هنا . ولما كان المصنف ناقلا عن الكشاف كما ذكر ، فقد استحسنا تقديمها ، موافقة للفظ الكشاف . انظر الكشاف ٣٣٢/٤ .

على عدوك لنجمع لك بين عز الدارين ، وأغراض العاجل والآجل ، ويجوز أن يكون فتح مكة — من حيث إنه جهاد [للعدو] — سبباً[1] للغفران والثواب .

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي : جميع ما فرط منك[2]، وقيل : ما تقدم في الجاهلية وما بعدها .

قال في البرهان : يعني ليستر بالفتح جميع ما أذنبوا عليك ، والذنب وإن كان في اللفظ مضافا إليه ، فهو لغيره من قريش وسائر الكفار حين آذوه وأتعبوه[3]. اهـ

قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : وأحسب — والله أعلم — أن معنى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر : هو أن الله عز وجل وعده بأنه لا يعذبه على ما كان من نسيانه ، ولا يعاقبه بما أصاب من الذنوب على ظنه وحسبانه ؛ لأن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لا يتعمد كبائر العصيان ، لا فيما مضى ، ولا فيما تأخر من الزمان[4]. اهـ

---

(١) خبر يكون ، وفتح مكة اسمها .

(٢) لفظ المصابيح (من جميع ما فرط منك) ولا وجه لمن هنا ، لأن المعنى : ليغفر الله لك جميع ما فرط منك ، أي : من ذنبك ، فلا حاجة لتقدم من على جميع ، وهكذا هي العبارة في الكشاف بدون لفظ من . الكشاف ٣٣٣/٤.

(٣) انظر البرهان مخطوط (٣٤٩) .

(٤) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام أول السورة . قال الرازي : (المسألة الثالثة) لم يكن للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ذنب فماذا يغفر له ؟ قلنا : الجواب عنه قد تقدم مرارا من وجوه ، أحدها : المراد ذنب المؤمنين ، ثانيها : المراد ترك الأفضل . ثالثها : الصغائر فإنها جائزة على الأنبياء بالسهو والعمد ، وهو يصونهم عن العجب ، رابعها : المراد العصمة ، وقد بينا وجهه في سورة القتال (الرازي ٧٨/٢٨) . وذكر الحاكم الجشمي في تفسيره قال بعد أن ذكر أوجها كثيرة : وقيل : ﴿ما تقدم من ذنبك﴾ ما تقدم من ذنب أبويك آدم وحواء ، وما تأخر : من ذنوب أمتك بدعوتك ، عن عطاء الخراساني ، وقيل : هو على التقدير ، أي : لو كان لك ذنب قديم ، أو حديث لغفرناه ...ثم قال : يدل قوله :﴿ليغفر﴾ على جواز الصغائر على الأنبياء قبل النبوة وبعدها ، خلاف قول الإمامية ، وتدل على أنها مغفورة ، ومتى قيل : كيف تكون مغفورة ؟ قلنا : بإيجاب ما يجبر نقصا دخل في ثوابه بتلك الصغيرة ، ومتى قيل : كيف يجوز ذلك عليهم؟ قلنا : ما يتعلق بالرسالة ومصالح الأمة لا يجوز عليه فيه الكبيرة ولا الصغيرة ، ولا السهو ولا الغلط ، ولا النسيان ، لأن في ذلك فوت المصالح ، فأما ما يتعلق بحاله ، فلا تجوز الكبيرة أصلا ، والصغير ما كان مسخفا ومنفرا لا يجوز عليه ، وما عدا ذلك لا مانع منه ، فيجوز . انظر التهذيب مخطوط ص ٢٤٣.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ وهي النبوة والرياسة بالدين يتمها بالفتح الذي خضع به من استكبر ، وأطاع من تجبر [1] وقيل : بإظهار دينك .

﴿وَيَهْدِيَكَ﴾ أي : يزيدك هدى ، أو يثبتك على ما أنت عليه ﴿صِرَاطًا﴾ أي : طريقا مختارا من بين الصراط ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ ثابتا عظيم الاستقامة ، وهو دين الإسلام ، أي : يثبتك عليه ، ويديم هدايتك إليه ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ﴾ هو : يعينك ويؤيدك ويظهرك على عدوك ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي : نصرا ذا عز لا يقع معه ذل .

قال في البرهان : روينا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه لما نزلت هذه الآية تلاها على أصحابه فقال قائل منهم : هنيئا مريئا يا رسول الله ، قد بين الله تعالى لنا ما يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما﴾ [2]. اهـ

ثم قال تعالى :﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ السكينة : هي الطمأنينة والخشوع والصبر على أوامر الله ، والثقة بوعد الله .

قال في الكشاف : السكون والطمأنينة بسبب صلح الحديبية ، والسكينة : السكون كالبهيته للبهتان [3]. اهـ

﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي : يقينا مع يقينهم ، وقيل : ليزدادوا إيمانا بالشرائع

---

(١) ومثل هذا ذكره الإمام أبو الفتح الديلمي في البرهان ٣٤٩ .

(٢) البرهان ٣٤٩.

(٣) لفظ الكشاف : السكينة : السكون ، كالبهيتة للبهتان ، أي : أنزل الله في قلوبهم السكون والطمأنينة بسبب الصلح والأمن . ٣٣٣/٤، ٣٣٤. وزاد الزمخشري : ليعرفوا فضل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف ، والهدنة غب القتال ، فيزدادوا يقينا إلى يقينهم ، وأنزل فيها السكون إلى ما جاء به محمد عليه السلام من الشرائع . قال السيد العلوي في حاشيته : قوله : السكينة : السكون . أراد بها بمعناه ، وهو زوال الرعب . .. ثم قال : فسر إنزال السكينة بوجوه: أولها حصول الطمأنينة والأمن في قلوبهم بعد الخوف ، ليتمكنوا من يزيد به إيمانهم ، فإن الخائف من العدو قلق مزعج وثانيها : السكون إلى التوحيد ، وهو بجرد التصديق ، والإزدياد بانضمام الأعمال الصالحة إليه ، وثالثها : حصول الاطمئنان في القلب ليكون سببا لقوة اليقين .

مقرونا مع إيمانهم ، وهو التوحيد ؛ لأن الله أنزل الشرائع شيئا فشيئا[1] و[قيل : ليزدادوا] ثقة بالنصر مع إيمانهم بالجزاء [2] وقيل : ليعرفوا فضل الله بتيسير الأمن بعد الخوف ، والهدنة عقيب القتال .

ثم قال تعالى :﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال في البرهان : يحتمل وجهين : أن يكون معناه : ولله ملك السموات والأرض ، ترغيبا للمؤمنين في خير الدنيا وخير الآخرة

والثاني : معناه ـ ولله جنود السموات والأرض إشعارا للمؤمنين بأن لهم في جهادهم أعوانا لهم على طاعة ربهم [3]. اهـ

---

(١) قال الحاكم الجشمي في التهذيب ﴿ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم﴾ قيل : ليزدادوا مع النصرة في الدين طاعة ، في مجاهدة أعداء الله ، وسائر أمور الدين ، وقيل : ليزدادوا : يقينهم بما يرون من الفتوح ، وعلو كلمة الإسلام على فوق ما وعد ، وقيل : تصديقا بشرائع الإسلام ، فإن الله تعالى بعث نبيه بشهادة أن لا إله إلا الله ، فلما صدقوه زادهم الصلاة ، فلما صدقوه زادهم الزكاة ، فلما صدقوه زادهم الصيام ، ثم زادهم الحج والجهاد ، حتى أكمل لهم دينهم عن ابن عباس ، وقيل : يقينا مع يقينهم ، عن الضحاك ، يعني ثقة بوعده ووعيده ، ويقينا .

(٢) صاحب القول هو الإمام أبو الفتح الديلمي ، وقد ذكره في البرهان فقال : ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ والسكينة : هي الصبر على أوامر الله ، والثقة بوعد الله ﴿ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم﴾ أي : ليزدادوا ثقة بالنصر مع إيمانهم بالجزاء . البرهان ٣٤٩.

(٣) انظر البرهان مخطوط ٣٤٩ ، وقال الحاكم الجشمي :﴿ولله جنود السموات والأرض﴾ من الملائكة والمؤمنين ، قيل: أنصار دينه ينتقم بهم من أعدائهم ، وقيل : كل الجنود عبيده ، ومتى قيل : كيف أضاف جميع المؤمنين أنهم جنوده ؟ قلنا : لأنهم يحاربون أعداءه بوجهين ، أحدهما : الذب عن دينه فينفون التشبيه عن صفاته ، والقبائح عن أفعاله ، وكذلك يذبون عن أنبيائه كل ذلك بالحجج الدالة ، فهم جنوده من هذا الوجه ، وهم أهل التوحيد والعدل ، كما أن المجبرة جنود الشيطان ينفون الشر عنه ، ويضيفونه إلى الله تعالى .

والثاني : المجاهدة بالسيف لإعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، وهم أيضا أهل التوحيد والعدل ؛ لأنهم يجاهدون بالسيف ليتركوا الكفر ، ويؤمنوا بالله ، ويدينوا بدين الله ، الذي أمر به ، وبعث أنبيائه بالدعاء إليه ، فأما أهل الجبر إذا قالوا : إن الكفر خلق الله وإرادته وقضاؤه ، ثم يحاربون في إزالته ، ولا يرضون به فهم يحاربون الله ، حيث لم يرضوا بما خلق وأراد ، وجاهدوا في دفعه ، فلم يكونوا جنده ﴿وكان الله عليما﴾ بالأشياء ﴿حكيما﴾ يفعل ما هو الصلاح لعباده .

قال ابن عباس : يعني الملائكة والجن والإنس والشياطين ، فلو أراد نصرة نبيئه بغيركم لفعل ، ولكنه اختاركم لذلك ، فاشكروه وأطيعوه ، وارضوا بحكمه ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فلا يسلط إلا بحسب المصلحة ، ومن حكمته أن سكن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ووعدهم أن يفتح لهم .

وقوله :﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات﴾ مردود على ﴿ليغفر لك الله﴾ بغير حرف، كأنه قيل : إنا فتحنا لك ليغفر لك الله [و]ليدخل المؤمنين والمؤمنات [1] .

وقيل : يتعلق بقوله :﴿هو الذي أنزل السكينة﴾ أي : أنزلها في قلوبهم ليدخلهم جنات، أو بما يفهم من قوله :﴿ولله جنود السموات والأرض﴾ أي : أمركم بالجهاد وإن كان غنيا عنكم ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الثواب المذكور ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي : في حكمه وقضائه ﴿فَوْزًا﴾ أي : ظفرا ﴿عَظِيمًا﴾ .

ثم قال تعالى :﴿ وَيُعَذِّبَ﴾ أي : وليعذب ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ إما في الدنيا بفعل الجهاد وغيره من التكاليف الشاقة ؛ لأنهم لا ينالون بها ثوابا ، وإنما هي فتنة لهم يظهر بها نفاقهم ، أو يعذبهم في الآخرة بترك الجهاد ؛ لأنهم كانوا يتخلفون عن رسول الله ، ويتسللون عنه لواذا .

وأما تعذيب المشركين في الدنيا بالجهاد فهو بما يقع من السبي والقتل ، أو في الآخرة ، أو فيهما معا .

﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ هو ظنهم أن الله لا ينصر الرسول والمؤمنين ، ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين ، فاتحيها عنوة وقهرا .

وقيل : ظنهم أن لله شريكا ، وقيل : ظنهم أن الله لا يبعث الموتى ، والأولى حمله على الجميع [2].

---

(١) قال الحاكم الجشمي في تهذيبه : كأنه قيل : فتحنا ليغفر لك ، وفتحنا ليدخل المؤمنين ، فهو على التكرير ، أي : ليدخلهم

(٢) قال الحاكم في التهذيب : ﴿الظانين بالله ظن السوء﴾ قيل : ظنهم أن الله لا ينصر نبيه والمؤمنين ، وقيل : هو في قوله :﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا﴾ أي : لا يرجعون من الحديبية سالمين ، وظنوا

والسوء في كلام العرب : عبارة عن رداءة الشيء وفساده ، والصدق : عبارة عن جودته وصلاحه .

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي : ما يظنونه ويتربصون به بالمؤمنين ، فهو حائق بهم ، ودائر عليهم ، والسوء ــ بالضم ــ : الهلاك والدمار ، وبالفتح : المراد الدائرة التي يذمونها ويسخطونها ، فهي عندهم دائرة سوء ، وما عند المؤمنين دائرة صدق ذكره في الكشاف[1] .

قال في التجريد : والفرق بين السَّوء ــ بفتح السين ــ والسُّوء ــ بضمها ــ : أن مفتوح السين يراد به ما كان مذموما قبيحا في الحقيقة ، يقال : رجل سوء ، ونقيضه رجل صدق في المدح ، ومضمومها : يراد به ما يسوء الإنسان ، أي : يحزنه حسنا كان أو قبيحا ، كقوله :﴿إن أراد بكم سوأ أو أراد بكم رحمة﴾ إذا ثبت هذا فمعنى ﴿دائرة السَّوء﴾ بفتح السين : الدائرة التي هي عندهم دائرة سوء وقبح وذم ، وإن كانت عند الله حسنة ؛ لأنهم يستحقونها ، ومعنى ﴿دائرة السُّوء﴾ بضم السين : التي تسوؤهم وتحزنهم قال في الكشاف : هما كالكَره والكُره ، والضَّعف والضُّعف ، إلا أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه من كل شئ ، وأما السوء ــ بالضم ــ فجار مجرى الشر ، الذي هو نقيض الخير ، يقال : أراد به السوء ، وأراد به الخير ، ولذلك أضيف الظن إلى المفتوح لكونه مذموما ، وكانت الدائرة محمودة ، فكان حقها أن لا تضاف إليه إلا على التأويل الذي ذكرنا[2]. اهـ

عليهم دائرة السوء ، وقيل : ظنهم أن الكفار يغلبون ، وقيل : ظنهم أن من عادى محمدا لا يغالب ، وكل ذلك فظنون قبيحة ، فخيب الله ظنهم ، وجعل كل مكروه عليهم

(١) الكشاف ٣٣٤/٤، وكذلك ما ذكره صاحب التجريد ، معناه في الكشاف .

(٢) الكشاف : ٣٣٤/٤ ، وفي المصابيح (وأما المذموم فجار مجرى الشر) وفي الكشاف (وأما السوء ــ بالضم ــ فجار مجرى الشر) فأثبتنا ما في الكشاف .

﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أراد انتقامهم[1]﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أبعدهم من رحمته ، قال : وغضب الله إشارة إلى أن الذي حاق بهم على وجه التعذيب ، وقوله :﴿ولعنهم﴾ أفاد به زيادة ؛ لأن المغضوب عليه قد يكون بحيث يقنع الغاضب بالعيب والشتم والضرب ، ولا يفضي غضبه إلى إبعاد المغضوب عليه من جنابه ، وطرده عن بابه ، وقد يكون بحيث يفضي إلى الطرد والإبعاد [فقال] :﴿ولعنهم﴾ لكون الغضب شديدا

ثم لما بين حالهم في الدنيا بين مآلهم في العقبى فقال تعالى :﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾[2] أي: هيأها لهم ﴿وَسَاءَتْ مَصِيراً وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي : هو قادر على أن يهلك أعداءه من المنافقين والمشركين بغير أيدي المؤمنين ، ولكنه أخر هلاكهم بالاستئصال ، وجعله بأيدي المؤمنين لما علمه من المصلحة ؛ لأنه عزيز حكيم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً﴾ قادرا على ما يشاء ، قاهرا لا يغالب ﴿حَكِيماً﴾ لا يفعل شيئا إلا على مقتضى العدل والحكمة .

ثم قال تعالى :﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾ على أمتك بالبلاغ ، و﴿شاهدا﴾ حال ﴿وَمُبَشِّراً ﴾ بالجنة لمن أطاعك ﴿وَنَذِيراً﴾ من النار لمن عصاك[3].

ثم بين فائدة الإرسال على الوجه الذي ذكره فقال تعالى :﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بالتاء في هذا وما بعده على أن الخطاب لأمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن قرأ بالياء فيهن على أن المراد الناس ﴿وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أي : الله ، أي : تجلوه وتنصروه ، أي : دينه[4] ﴿وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ تعظموه ، أي : الله .

---

(١) يحتمل أن اللفظ (أراد : انتقم منهم) فينظر في نسخ المصابيح .

(٢) من قوله :﴿ولعنهم﴾ .. إلى هنا مثله في الرازي ، باختلاف في أوله يسير ، فقد قال الرازي : ﴿ولعنهم﴾ زيادة إفادة .. الخ (الرازي ٢٨/٨٤) .

(٣) ومثله في البرهان ، ولفظ البرهان : ﴿إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا﴾ يعني على أمتك بالبلاغ ، وبشيرا بالجنة لمن أطاع ، ونذيرا من النار لمن عصى .(البرهان ٣٤٩) .

(٤) قال الزمخشري : والمراد بتعزير الله ، تعزير دينه ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن فرق الضمائر فقد أبعد (٤/٣٣٥) .

والتعزير : هو التوقير والتعظيم ، قال الشاعر :

عزروا الأملاك في دهرهمُ وأطاعوا كل كذاب أثيم

أي : وقروا وعظموا [١].

﴿وتُسَبِّحُوهُ﴾ أي : تنزهوه من القبائح ، والضمائر لله ، فمن فرق([٢]) فقد أبعد ، ويحتمل أن يراد بالتسبيح : الصلاة من السبحة ، وهي الصلاة ﴿بُكْرَةً﴾ أول النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾ آخر النهار .

ويحتمل أن يكون إشارة إلى المداومة ، ويحتمل أن يكون أمرا بخلاف ما كان المشركون يعملون ، فإنهم يجتمعون على عبادة الأصنام في الكعبة بكرة وعشية ، فأمروا بالتسبيح في أوقات كانوا يذكرون الفحشاء والمنكر .

قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : حتى تسبحوه ، وهو تقدسوه وتنزهوه ، وأفضل

---

(١) هذا القول ذكره الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام في تفسيره (أنظره في أول السورة). في المصابيح (عزروا الملوك في دهرهم) وفي تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام (عزروا الأملاك في دهرهم) .

(٢) وكذلك الزمخشري قد ذكر مثل هذا القول ، وأن من فرق بين الضمائر فقد أبعد ، قال السيد العلوي في حاشيته على الكشاف : وقوله : ومن فرق بين الضمائر فقد أبعد . أراد أن من جعل الضمير من الأولين في تعزروه وتوقروه للرسول باعتبار أنه لا يستعمل التعزير في حق الله تعالى ، والضمير الأخير في ﴿تسبحوه﴾ لله باعتبار أن التسبيح هو التنزيه عما لا يليق بجلاله وكبريائه لا يكون إلا له ، أو باعتبار أن المراد به الصلاة ، وهي مختصة به أيضا ، فقد أتى بما هو بعيد غير مناسب لبلاغة القرآن وفصاحته ، وذلك لأدائه إلى تباين النظم .

ولكن الحاكم الجشمي يخالفهم في هذا الرأي فقد قال : ﴿وتعزروه﴾ قيل : تعظموه ، وقيل : ﴿تعزروه﴾ تنصروه . ﴿وتوقروه﴾ تعظموه عن قتادة ، وقيل : لتقاتلوا معه بالسيف عن عكرمة ، وقيل : ﴿تعزروه﴾ تمنعوه عن الأعداء عن أبي مسلم ﴿وتسبحوه﴾ قيل : الوقف على قوله :﴿وتوقروه﴾ وقد تم ، ثم يبتدئ ﴿وتسبحوه﴾ أي : تنزهوا الله سبحانه ، وقيل : هو عبارة عن الدوام ، والتسبيح : التنزيه ، هذا كله على أن الكناية في تسبحوه يعود على اسم الله تعالى ، وقيل : الكناية تعود على اسم الرسول فيتصل بما قبله ، ولا يكون ثم وقف ، أي : تنزهوا الرسول عما لا يليق به ، كما يقوله الحشوية على يوسف وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء عليهم‌السلام ، وقيل : تابعوا الصلاة عليه ، وقيل : هذا من تلوين الخطاب ، وذلك الغاية في الفصاحة ؛ لأنه ابتدأ الخطاب إليه ، ثم عاد إلى خطاب الأمة ، وذكر الأمر بطاعة الرسول ، وتسبيح الله سبحانه ، ثم عقبه بذكر الذين بايعوه ، وحثهم على إتمام طاعته فيهما ..

التسبيح هو التنزيه لله ، والتبعيد له من شبه المخلوقين ، في معنى سبحان الله : هو بعدان الله من كل قبيح من الصفات [١].

ثم قال تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ لما بين أنه مرسل ذكر أن من بايعه فقد بايع الله تعالى ، وهذه بيعة الرضوان عام الحديبية .

قال في التجريد : وكانوا ألفا وأربعمائة رجل ، وقيل : ألفا وخمسمائة ، وقيل : ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين رجلا بايعوه في الحديبية حين بعث النبي صلى الله عليه وآله عثمان إلى أهل مكة ، فأُرْجِفَ بأنه قتل ، فبايع النبي أصحابه على أن يقاتلوا ولا يفروا ، وقيل : [على] الموت ، وقيل : كان منهم من بايع على أن لا يفر ، ومنهم من بايع على الموت .

وقوله :﴿إنما يبايعون الله﴾ أي : هم في الحكم كمن يبايع الله .

قال في البرهان : لأن بيعة نبيئه في طاعة الله عز وجل ، وإنما سميت بيعة ؛ لأنها عقد على الطاعة ، تشبيها بعقد البيع ، ولأن المبائع كأنه باع نفسه بالجنة [٢].

وقوله تعالى :﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يريد : أن يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي تعلو أيدي المبايعين هي يد الله تعالى ، فهو على طريق التخييل والتمثيل ، أي الحال مثل حال من يبايع ذوي الأيدي فيكون يده فوق يده ، والمراد بهذا التمثيل التأكيد الذي يستفاد به فضل مبايعة رسول الله تلك البيعة ، وتعظيم النكث ، والله يتعالى عن الأعضاء والجوارح ، وإنما تقديره أن عقد الميثاق مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما [٣].

وقال في البرهان : ﴿يد الله﴾ يعني قوة الله تعالى ونصره فوق قوتهم ونصرتهم ، ويجوز و﴿يد الله﴾ يعني مِنة الله في الهداية فوق أيديهم بالطاعة ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ أي : نقض البيعة

---

(١) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول السورة .

(٢) البرهان : ٣٥٠ .

(٣) قال السيد العلوي : قوله : على طريق التخييل ، أي : على طريق الاستعارة التخييلية ، التي تتبعها الاستعارة بالكناية ، وذلك لأن الله تعالى وتقدس شبه بالمبائع ، فاحتال الوهم فاخترع له ما قوام مبايعة البائع به ، وهو اليد ، ثم أطلق على ذلك المتخيل اسم اليد المتحققة مضافة إلى الله تعالى ، لتكون الإضافة إليه قرينة مانعة عن الحمل على الحقيقة، أعني على العضو المخصوص ، وذلك لكونه متنزها عن الجوارح ، وعن جميع صفات الأجسام .

والنكث : نقض العهد والكفر بعد الإيمان . اهـ

﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي : بما يعود ضرر نقضه عليه .

قال جابر : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحت الشجرة على الموت ، وعلى أن لا نفر، فما نكث أحد منا إلا جد بن قيس ، وكان منافقا ، اختبأ تحت إبط بعيره ، ولم يسر مع القوم ، أي : يبايع[1].

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾ من أمر النصيحة لرسوله ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني : ثوابا جزيلا ، لا يعلم كنهه إلا الله تعالى ، والعظيم فوق الكبير ، كما أن الحقير دون الصغير .

قال الرازي : [2] العظيم في الأجرام : إذا اجتمع فيه الطول البالغ والعرض الواسع ، والسمك الغليظ ، فيقال [في] [3]الجبل الذي هو مرتفع ، ولا اتساع لعرضه : جبل عال ، أو مرتفع ، أو شاهق ، وإذا انضم إليه الأتساع في الجوانب يقال : عظيم .

[والأجر كذلك ؛ لأن مآكل الجنة تكون من أرفع الأجناس ، وتكون في غاية الكثرة ، وتكون ممتدة إلى الأبد لا انقطاع لها ، فحصل فيه ما يناسب أن يقال له : عظيم] [4].

والعظيم في حق الله تعالى إشارة إلى كماله في صفاته ، كما أنه في الجسم[5] إشارة إلى كماله في جهاته.

ثم لما بين تعالى حال المنافقين ذكر المتخلفين عن الحديبية فقال سبحانه :﴿ سَيَقُولُ لَكَ﴾ يا محمد ﴿الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾[6] الذين امتنعوا عن الخروج مع رسول الله صلى

---

(١) قال ابن حجر : في حديث جابر :(أنه سئل كم كانوا يوم الحديبية ؟ قال : كنا أربعة عشر مائة ، فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة ، وهي سمرة ، فبايعناه ، وجد بن قيس اختبأ تحت بطن بعيره) أخرجه مسلم (انظر تخريج ابن حجر .الكشاف ٣٣٥/٤) .

(٢) لفظ الرازي ٨٦/٢٨ : وقد ذكرنا أن العظم في الأجرام لا يقال إلا إذا اجتمع فيه .. الخ الكلام الموجود هنا .

(٣) لفظ الأصل هنا فيقال للجبل ، وما بين القوسين من تفسير الرازي ٨٧/٢٨.

(٤) ما بين قوسي الزيادة من الرازي ، و لم يذكرها المصنف مع أنها بيت القصيد ، والذي ينبغي توضيحه هنا ، فأثبتنا ما يمكن أنه سها المصنف عنه عند نقله عن الرازي (انظر الرازي ٨٧/٢٨) .

(٥) لفظ الأصل كما أن الجسيم ، وما أثبتناه هو ما في الرازي ٨٧/٢٨ .

الله‌عليه‌وآله‌وسلم ــ عن ابن عباس : هم أعراب غفار ومزينة وجهينة ، وأشجع ، وأسلم ، والديل[1] :﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ النساء والذراري عن الخروج معك ، أي لم يكن لنا من يخلفنا فيهم ، وخفنا عليهم الضيعة ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ذنبنا لتخلفنا عنك ، وكأنهم قالوا هذا القول اعتذارا بعد رجوعه من الحديبية ، وذلك أنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمرا ــ دعا من حول المدينة من الأعراب ، وأهل البوادي ليخرجوا معه ، حذرا من قريش أن يعرضوا له ، ويصدوه عن البيت الحرام ، وأحرم صلى الله‌عليه‌وآله‌وسلم وساق معه الهدي ، ليعلم أنه لا يريد حربا ، فتثاقل كثير من الأعراب ، وقالوا : يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره[2] بالمدينة ، وقتلوا أصحابه فيقاتلهم ، وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة فاعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم ، وأنه ليس لهم

---

(٦) قال الإمام الهادي عليه‌السلام في مسائله التي يرد بها على ابن الحنفية : ومن قولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ما بقول الله سبحانه :﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾ فأخبر الله عنهم بما كان من كذبهم فيما ذكروا أنه شغلهم ، وأخبر بنفاقهم وتوهمهم ، وما وهموا نبيه صلى الله‌عليه‌وآله من إحقاقهم فيما طلبوا منه من الاستغفار لهم ، والصفح في ذلك عنهم ، فأمره الله سبحانه ، أن يخبرهم أن استغفاره لهم غير دافع عقوبة الله عنهم إذا أراد الانتقام في ذلك منهم ، فقال سبحانه :﴿قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا ، أو أراد بكم نفعا، بل كان الله بما تعملون خبيرا﴾ ثم أخبر نبيه صلى‌الله‌عليه‌وآله عن أمورهم بما كانوا يتوهمون أنه قد خفي عليه علمه ، بما كانوا ظنوه وأجنوه في صدورهم ، فقال ذو المعارج والجلال : ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا ، وزين ذلك في قلوبكم ، وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا﴾ فأخبرهم سبحانه بما ظنوا من الظن القبيح في الرسول والمؤمنين ، وتوهموا ، وما زين في قلوبهم الشيطان من ذلك وأملى ، وأنهم كانوا في ذلك قوما بورا﴾ (انظر رسائل العدل والتوحيد تحقيق سيف الدين الكاتب ص ٩٢ ، ٩٣ .

(١) ذكره في الكشاف ٣٣٦/٤، بدون إسناد ، وذكره الحاكم الجشمي في التهذيب فقال : قيل : نزلت الآية في غفار وجهينة ، وأشجع وأسلم ، والديل ، تخلفوا عن الحديبية ، وذلك أن رسول الله أشعر الأعراب حول المدينة لما أراد الخروج إلى مكة معتمرا حذرا من قريش ، وأحرم وساق الهدي ، ليعلموا أنه لا يريد حربا ، فتثاقل عنه كثير من الأعراب ، واعتلوا بالشغل ، فنزلت الآية عن ابن عباس ومجاهد ، وابن إسحاق ، وقيل : نزلت في المتخلفين عن غزوة تبوك عن الحسن . وذكره أيضا الطبرسي في مجمع البيان ، ١٤٧/٩.

(٢) في حاشية في الأصل : عقر الدار : بالفتح لغة أهل نجد ، وهي محلة القوم ، وبالضم لغة أهل الحجاز (عن شمس العلوم)

من يقوم بأشغالهم[1] فكذبهم الله تعالى وقال :﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وأن الذي خلّفهم إنما هو الشك في الله ، والنفاق ، وطلبهم الاستغفار ليس بصادر عن حقيقة ، أي : ليس في قلوبهم مبالاة بالاستغفار وعدمه ، وفي الآية دليل على أنها نزلت قبل أن يقولوا ذلك ، وهم قالوا ذلك بعد رجوع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غزوة الحديبية إلى المدينة ، أو في طريقه راجعا . والله أعلم .

ثم قال سبحانه :﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي : من يمنعكم من مشيئته وقضائه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا ﴾ أي : ما يضركم من قتل أو هزيمة ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ من ظفر أو غنيمة .

قال في التجريد : ظنوا أن تخلفهم يدفع عنهم الضر بسلامة أنفسهم وأموالهم ، فأخبرهم الله تعالى أنه إن أراد بهم شيئا لم يقدروا هم ولا غيرهم دفعه ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازيكم بحسبه ، وهذا وعيد على إظهار النفاق .

ثم قال تعالى :﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ﴾ من عمرته ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ وذلك أنهم قالوا : إن محمدا وأصحابه أكلة رأس،وإنهم لا يرجعون أبدا، و﴿أن﴾ مخففة عن الثقيلة ، أي : ظننتم أنهم لا ينقلبون ولا يرجعون ﴿وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي : التخلف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وظنهم أنه لا يرجع ، والذي زين تخلفهم هو الشيطان .

ويجوز أن يكون الله تعالى على طريق المجاز لخذلانه أو لتخليته بينهم وبين الشيطان ونحو ذلك .

قال الرازي [2]:﴿وزين ذلك في قلوبكم﴾ يعني ظننتم أولا ، فزين الشيطان ظنكم عندكم حتى قطعتم [به] ، وذلك لأن الشبهة قد يزينها الشيطان ويضم إليها مخايلة يقطع بها الغافل ، وإن كان لا يشك فيها العاقل) .

(١) قد تقدم ذكره عن الحاكم الجشمي في التهذيب ، وذكره أيضا الزمخشري في الكشاف ٣٣٦/٤، وقال ابن حجر في تخريجه : الحديث أخرجه البيهقي في الدلائل ، من رواية آدم عن ورقاء ، عن ابن نجيح ، عن مجاهد نحوه .

(٢) تفسير الرازي ٨٩/٢٨، وما بين قوسي الزيادة ثابت في الرازي .

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أي : الظن المذموم ، وأنهم لا ينقلبون ، ويحتمل أن يكون هذا العطف عطفا يفيد المغايرة ، فقوله ﴿وظننتم ظن﴾ غير الذي في قوله :﴿بل ظننتم﴾ وحينئذ يحتمل أن يكون الظن الثاني معناه : وظننتم أن الله يخلف وعده ، أو ظننتم أن الله كاذب في قوله [١].

ثم قال سبحانه :﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي : صرتم بذلك الظن بائرين هالكين ، و﴿بورا﴾ جمع بائر ، كعائذ وعوذ ، أي : هالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه ، والبوار : هو الهلاك ، قال الشاعر :

فبار أبو حكم في الوغى هناك وأسرته الأرذلونا [٢]

أو فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم ، لا خير فيكم [٣].

ويجوز أن يكون ﴿بورا﴾ مصدر من بار ، كالهلك من هلك بناء ومعنى ، ولذلك وصف به الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث[٤] .

ثم قال تعالى :﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أي : هيَّأنا وأحضرنا وقرّبنا ﴿لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ نارا مخصوصة عظيمة الالتهاب ، لذلك نكّر ﴿سعيرا﴾ .

ثم قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبره تدبير قادر حكيم ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ للتائبين ؛ لأنه لا يغفر ذنبا من غير توبة ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ من لم يتب لأن مشيئته تابعة لحكمه ، وحكمته المغفرة للتائب ، وتعذيب المصر ، وإنما أجمل المشيئة لبيانها في آي كثيرة لمن يغفر له ، من نحو قوله تعالى :﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل

---

(١) ومثل هذا الكلام في الرازي بتقديم وتأخير وتصرف يسير ، وفي الرازي (أو ظننتم أن الرسول كاذب في قوله) وفي المصابيح ما هو ثابت من إسناد الكذب إلى الله تعالى . (انظر الرازي ٨٩/٢٨) .

(٢) ومثل هذا في تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام ، أنظره في الحاشية أول هذه السورة . وانظر تفسير غريب القرآن للإمام زيد أول هذه السورة أيضا .

(٣) ومثل هذا أيضا في الكشاف عدا البيت الشعر ، بتقديم وتأخير (٣٣٧/٤) .

(٤) وانظر الكشاف ٣٣٧/٤.

صالحا ثم اهتدى﴾ [1] ولمن لا يغفر له نحو ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ [2] ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ [3] ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون﴾ [4] ﴿إن المجرمين في ضلال وسعر﴾ [5] ﴿وإن الفجار لفي جحيم﴾ [6] ﴿وإن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ [7] ﴿ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾ [8] ﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾ [9] ﴿إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحي ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى﴾ [10]

وقوله تعالى :﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ كان : عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإبهام ، وليس فيه دليل على عدم سابق ، ولا انقطاع طارئ ، ومنه ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ و﴿كنتم خير أمة﴾ كأنه قيل : وجدتم ، أي : أنتم خير أمة

وقوله تعالى : ﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ يفيد عظمة الأمرين جميعا ، لأن من

---

(١) طه : ٨٢ .

(٢) التوبة : ٩٦ .

(٣) يونس : ٨١ .

(٤) الزخرف : ٧٥ .

(٥) القمر : ٤٧ .

(٦) الانفطار : ١٤ .

(٧) الشورى : ٢١ .

(٨) الشورى : ٤٥ .

(٩) الشورى : ٤٦ .

(١٠) طه : ٧٤ ، ٧٥ . قال الحاكم الجشمي في تهذيبه : ﴿يغفر لمن يشاء﴾ بشرط التوبة والإيمان ﴿ويعذب من يشاء﴾ بترك الإيمان والطاعة والإصرار على الكبائر ، وقيل : أراد بهذا بيان قدرته ، أي : هو قادر على أن يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، ولكن لا يفعل إلا الحكمة ، فيغفر للمؤمنين ، ويعذب الكافرين ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ فإن غفر فبفضله ورحمته ، وإن عاقب فبعدله ، وقيل : يغفر الذنوب بالتوبة ، ويدخلهم الجنة بالرحمة . وقال الزمخشري في الكشاف ٣٣٧/٤ : ﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ يدبره تدبير قادر حكيم ، فيغفر ويعذب بمشيئته ، ومشيئته تابعة لحكمته ، وحكمته المغفرة للتائب ، وتعذيب المصر .

عظم ملكه يكون أجره وهبته في غاية العظم ، وعذابه وعقوبته في غاية النكال والألم[١].

ثم قال تعالى :﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ وهم الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ وهي خيبر ، وذلك أن الله وعد المؤمنين لما انصرفوا من الحديبية فتح خيبر ، وخص بها من شهد الحديبية :﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ وقرئ (كَلِمَ الله) واختلف في المراد بـ﴿كلام الله﴾ و(كلم الله) فقال ابن عباس : هو موعده لأهل الحديبية خاصة بغنائم خيبر[٢].

وقال مقاتل : هو قول الله تعالى لنبيه وأمره أن لا يسير معه منهم أحد[٣] ﴿قُلْ﴾ لهم جوابا عليهم ﴿لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ﴾ أي : مثل ذلك القول ﴿قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي : من قبل فتح خيبر ، أوضح الله سبحانه كذبهم حيث كانوا يقولون عندما يكون السير إلى مغانم يتوقعونها من تلقاء أنفسهم :﴿ذرونا نتبعكم﴾ فإن كان أموالهم وأهلوهم شغلتهم يوم دعوتكم إياهم إلى أهل مكة فما بالهم لا يشتغلون بأموالهم يوم أخذ الغنيمة، وفي المراد بهذا القول القولان المتقدمان عن ابن عباس ومقاتل[٤].

وقيل :﴿من قبل﴾ أي : من قبل هذا الوقت ، قيل : في (التوبة) وهي قوله :﴿لن تخرجوا معي أبدا﴾[٥] وقيل : هذا لا يستقيم لأن آية التوبة متأخر نزولها عن سورة

---

(١) ومثل هذه الفقرة بلفظها في الرازي ٢٨/٩٠.

(٢) قال الحاكم الجشمي : ﴿سيقول المخلفون﴾ قيل : عن الحديبية ، عن ابن عباس ، ومجاهد ، وابن إسحاق ، وقيل : من تبوك ، عن الحسن ، وأبي علي ، وهو الأظهر ؛ لأن التخلف عن تبوك عظيم ، على ما نطق به القرآن ، ووردت به السنة ، ولم يرو في التخلف عن الحديبية ذلك ﴿إذا انطلقتم إلى مغانم﴾ قيل : غنائم خيبر ، على أنه في شأن الحديبية، وقيل : غنائم مطلقة إذا ظنوا أن المسلمين غالبون.

(٣) كذا عن ابن عباس ومقاتل ، ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٩/١٤٧، ١٤٨.

(٤) معنى قول المصنف :(وفي المراد بهذا القول).. الخ أي : أن معنى ﴿كذلكم قال الله من قبل﴾ هو ما ذكره ابن عباس من أنه موعده لأهل الحديبية خاصة بغنائم خيبر ، وقول مقاتل : هو قول الله تعالى لنبيه وأمره أن لا يسير معه منهم أحد .

(٥) التوبة : ٨٣ .

الفتح، وإنما المعني بكلام الله وقوله هو قوله في هذه السورة ﴿وأثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها﴾ وهي مغانم خيبر ، فجعلها سبحانه لأهل الحديبية خاصة ، وما أخبر الله سبحانه به عن المتخلفين من الأعراب ، وما يقولونه هو متأخر عن نزول هذه الآية ؛ لأن الله أخبر بما يقولونه قبل وقوعه .

وقوله تعالى :﴿كذلكم قال الله من قبل﴾ من مقول القول ، أي : وقل لهم :كذلكم قال الله من قبل ، والجواب عليهم من النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله إنما يكون وقت قولهم :﴿ذرونا نتبعكم﴾ وذلك حين أراد النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم غزو خيبر ، فهذا الحق الذي يستقيم التنزيل عليه ولا يتدافع ؛ لأن سورة الفتح نزلت مرجع النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من الحديبية في الطريق قبل أن يصل إلى المدينة ، فافهم ذلك موفقا .

وفي البلغة : جعل الله غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ، وليس إشارة إلى سورة التوبة ، وهو الأظهر ؛ لأن الله تعالى قال لنبيه في الآية التي بعدها :﴿قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد﴾ فلو كان هؤلاء هم الذين ذكرهم في سورة براءة لما جاز دعاؤهم إلى القتال ؛ لأن الله تعالى قال فيهم :﴿فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا﴾ وهؤلاء الأعراب أمر الله نبيه عليه‌السلام يقول لهم :﴿ستدعون إلى قوم﴾ الآية ، فصح أن هؤلاء الأعراب غير أولئك [1]. اهـ

وهذا حق ؛ لأن سورة براءة ما نزلت إلا بعد سورة الفتح بمدة طويلة ؛ لأنها في ذكر غزوة تبوك وهي متأخرة بمدة طويلة مذكورة في الكتب .

ثم قال تعالى :﴿ **فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا** ﴾ أن نصيب معكم من الغنائم ، وهذا رد على قوله تعالى :﴿كذلكم قال الله من قبل﴾ كأنهم قالوا : ما قال الله كذلك من قبل ﴿بل تحسدوننا﴾ .

ثم قال تعالى ردا عليهم كما ردوا عليه :﴿ **بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ** ﴾ أي : لا يفهمون ﴿ **إِلَّا** ﴾ فهما ﴿ **قَلِيلًا** ﴾ وهو فطنتهم لأمور الدنيا دون أمور الدين ، كقوله تعالى :

---

(١) البلغة : تفسير الطوسي مخطوط ، وإلى الآن لم يتيسر لنا .

﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا﴾[1] والفرق بين حرفي الإضراب [أن] الأول : إضراب معناه : رَدٌّ أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم ، وإثبات الحسد ، والثاني : إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين ، إلى وصفهم بما هو أطم منه ، وهو الجهل وقلة الفهم[2] .

ثم قال تعالى :﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ﴾ أي : حرب قوم ﴿أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي : قتال شديد ، وهم هوازن وغطفان يوم حنين ، والداعي لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ لأن الكلام في متخلفي الأعراب عن الحديبية ؛ لأن الله سبحانه لما منعهم عن مغانم خيبر أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم : إن الجهاد باب واسع ، وإن الله سيدعوكم على يد رسوله إلى جهاد الكفار كهوازن وغيرهم ، فإن تبتم وأطعتم أثابكم وغفر لكم ، وإن توليتم واعتذرتم ﴿كما توليتم من قبل﴾ أي : يوم الحديبية ﴿يعذبكم عذابا أليما﴾ قال بعض علمائنا عليهم السلام : وهذا التفسير هو الحق ، ومن عدل عنه فهو غالط أو مغالط[3].

وقيل : هم بنو حنيفة قوم مسيلمة وأهل الردة الذين حاربهم أبو بكر .

والأولى ما ذكره في البلغة : من أن هذه الدعوة في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؛ لأنه بعد انصرافه من الحديبية كانت له غزوات ، وهؤلاء دعوا إلى قتال أولئك الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل لهم : إن أعرضتم كما أعرضتم من قبل يعذبكم الله ، وقد بينا أن هؤلاء غير أولئك الذين ذكروا في سورة براءة ، ولأن بني حنيفة اختلف أهل القبلة في أمورهم فمنهم من قال : إنهم مرتدون ، ومنهم من قال : بخلاف ذلك ، والخلاف فيه ظاهر .

---

(١) الروم : ٧ .

(٢) ومثل هذا في الكشاف ٣٣٨/٤، وفيه (وقلة الفقه) بدلا عن (وقلة الفهم) .

(٣) وذلك لأن بعض المفسرين منهم الزمخشري بأن المراد بهم بنو حنيفة قوم مسيلمة ، وغيرهم ممن حاربهم أبو بكر ، وقالوا : فيه دلالة على صحة إمامة أبي بكر .

قال الرازي : وأقوى الوجوه وهو أن الدعاء كان من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإن كان الأظهر غيره) ثم أوضح الدليل وأوسع الاحتجاج (١) على قوة أن الداعي لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(١) ـ قال الرازي في تفسيره ٩٢/٢٨ : وفي قوله ﴿ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد﴾ وجوه أشهرها وأظهرها أنهم بنو حنيفة حيث تابعوا مسيلمة وغزاهم أبو بكر ، وثانيها : هم فارس والروم غزاهم عمر ، ثالثها : هوازن وثقيف غزاهم النبي صلى الله عليه وآله ، وأقوى الوجوه هو أن الدعاء كان من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإن كان الأظهر غيره ، أما الدليل على قوة هذا الوجه :هو أن أهل السنة اتفقوا على أن أمر العرب في زمان النبي صلى الله عليه وآله ظهر ولم يبق ألا كافر مجاهر ، أو مؤمن تقي طاهر ، وامتنع النبي صلى الله عليه وآله من الصلاة على موتى المنافقين ، وترك المؤمنون مخالطتهم، حتى أن عبادة بن كعب مع كونه بين المؤمنين لم يكلمه المؤمنون مدة ، وما ذكره الله علامة لظهور حال من كان منافقا ، فإن كان ظهر حالهم بغير هذا ، فلا معنى لجعل هذا علامة ، وإن ظهر بهذا الظهور كان في زمان النبي صلى الله عليه وآله ؛ لأن النبي عليه [وآله] الصلاة والسلام لو امتنع من قبولهم لإتباعه لامتنع أبو بكر وعمر لقوله تعالى : ﴿واتبعوه﴾ وقوله :﴿فاتبعوني﴾ ، فإن قيل : هذا ضعيف لوجهين أحدهما : أن النبي صلى الله عليه وآله قال :﴿لن تتبعونا﴾ وقال :﴿لن تخرجوا معي أبدا﴾ فكيف كانوا يتبعونه مع النفي ، الثاني : قوله تعالى :﴿أولي بأس شديد﴾ ولم يبق بعد ذلك للنبي عليه [وآله] الصلاة والسلام حرب قوم أولي بأس شديد ، فإن الرعب استولى على قلوب الناس ، ولم يبق للكفار بعده بأس وشدة ، واتفاق الجمهور يدل على القوة والظهور ؟ .

نقول : أما الجواب عن الأول فمن وجهين أحدهما : أن يكون ذلك مقيدا ، تقديره : لن تخرجوا معي أبدا وأنتم على ما أنتم عليه ، ويجب هذا التقييد لأنا أجمعنا على أن منهم من أسلم وحسن إسلامه بل الأكثر ذلك ، وما كان يجوز للنبي صلى الله عليه وآله أن يقول لهم : لستم مسلمين لقوله تعالى :﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا﴾ ومع القول بإسلامهم ما كان يجوز أن يمنعهم ما كان من الجهاد في سبيل الله مع وجوبه عليهم وكان ذلك مقيدا ، وقد تبين حسن حالهم ، فإن النبي صلى الله عليه وآله دعاهم إلى جهاد فأطاعه قوم وامتنع آخرون ، وظهر أمرهم وعلم من استمر على الكفر ممن استقر قلبه على الإيمان .

الثاني : المراد من قوله :﴿لن تتبعونا﴾ في هذا القتال فحسب ، وقوله :﴿لن تخرجوا معي﴾ كان في غير هذا ، وهم المنافقون الذين تخلفوا في غزوة تبوك .

وأما اتفاق الجمهور ، فنقول : لا مخالفة بيننا وبينهم ؛ لأنا نقول النبي صلى الله عليه وآله دعاهم أولا ، وابوبكر رضي الله عنه أيضا دعاهم بعد معرفته جواز ذلك من فعل النبي صلى الله عليه وآله ، إنما نحن نثبت أن النبي صلى الله عليه وآله دعاهم . فإن قالوا : أبو بكر رضي الله عنه دعاهم لم يكن بين القولين تناف ، وإن قالوا : لم يدعهم النبي صلى الله عليه وآله فالنفي والجزم به في غاية البعد لجواز أن يكون ذلك قد وقع ، وكيف لا والنبي عليه وآله الصلاة والسلام قال من كلام الله :

وقوله تعالى: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي: يكون أحد الأمرين المقاتلة أو الإسلام لا ثالث لهما.

قال الهادي عليه السلام: المخلفون الذين تخلفوا في أهليهم، وتخليف رسوله صلى الله عليه وآله وسلم لهم فلم يكن بالإذن منه لهم، ولكن باختيارهم لمعصية ربهم، وإنما جاز أن يقول: ﴿للمخلَّفين﴾[1] وهم المتخلفون، من أجل أن رسول الله صلى الله عليه وآله أعرض عنهم حين اختاروا التخلف، ولم يغصبهم على الخروج معه، فلذلك جاز أن يقول: ﴿المخلفين﴾ والقوم الذين هم أولي[2] البأس الشديد: هم الروم، وأنها وقعة مؤتة، وهذا عندي أشبه بالحق بأسباب تدخل فيه، ومعاني توضح ذلك وتبينه، فقال: ﴿ستدعون﴾ إلى قتالهم ﴿أو يسلمون﴾[3]. اهـ

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾ في ذلك ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الجنة ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ عن الطاعة فلا تجيبون إلى قتالهم وتتخلفوا ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُمْ﴾ وتخلفتم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾[4] في غزوة تبوك والحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ شديد الألم، فجعل لقبول توبتهم علامة، وهو أنهم سيدعون إلى قتال قوم أولي بأس شديد، وتطيعون بخلاف

﴿إن كنتم تحبون الله فاتبعوني﴾ وقال: ﴿واتبعوني هذا صراط مستقيم﴾ ومنهم من أحب الله واختار إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله؛ لأن بقاء جمعهم على النفاق والكفر بعد ما اتسعت دائرة الإسلام واجتمعت العرب على الإيمان بعيد، ويوم قوله صلى الله عليه وآله: ﴿إن تتبعونا﴾ كان أكثر العرب على الكفر والنفاق؛ لأنه كان قبل فتح مكة، وقبل أخذ حصون كثيرة. الخ كلامه ٢٨/٩٢، ٩٣.

(١) أي: بصيغة المفعول، كأن أحدا خلّفهم، مع أنهم تخلفوا من أنفسهم

(٢) لم يقل: (أولو) إشارة لما في الآية من جر أولي، وحكاية لها بلفظها، وإلا فمحلها هنا الرفع.

(٣) انظر مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٥٦، وفيه أيضا، قال الهادي عليه السلام: أولوا البأس الشديد: فهم أهل فارس وخراسان، فقال: ستدعون إلى قتالهم أو يسلمون.

(٤) في تفسير الأئمة عليهم السلام المخطوط ص ٤٥٦ ـ قال الهادي عليه السلام: ﴿فإن تطيعوا﴾ في ذلك ﴿يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا﴾ عن قتالهم، وتخلفوا ﴿كما توليتم﴾ وتخلفتم ﴿من قبل يعذبكم عذابا أليما﴾ فكان دعاهم إلى جهاد أهل فارس من بعد النبي صلى الله عليه وآله، وقد قيل: إن أولي البأس الشديد هم الروم، وإنها وقعة مؤتة، وهذا عندي أشبه المعنيين بالحق، بأسباب تدخل فيه، ومعاني توضح ذلك وتبينه.

حال ثعلبة[1] .

ثم ذكر سبحانه من يجوز له التخلف وترك الجهاد وما بسببه يجوز ترك الجهاد فقال تعالى :﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ المعنى : أن الله تبارك وتعالى نفى الحرج عن هؤلاء من ذوي العاهات ، وعذرهم في التخلف عن الغزو في الحديبية وغيرها .

والحرج : الضيق والمأثم قال الشاعر :

يا ليتني قد زرت غير حارج ذات الوشاح الكنزة الدمالج

وأحسن من هذا قول نجم آل الرسول القاسم بن إبراهيم عليه‌السلام :

فأسلب ما كلفت به ويبقى الوزر والحرج[2]

قوله تعالى :﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ مع أن

---

(١) ثعلبة : هو الصحابي الذي طلب من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله أن يدعو له بأن يرزقه الله ، فلما صار ذا مال منع من المال حقه من الزكاة ، فلم يقبل الله منه شيئا بعد أن امتنع أولا من أداء حق الله في هذا المال .

(٢) ومثل هذا من قوله : والحرج .. إلى هنا ذكره الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام في تفسيره غريب القرآن (أنظره أول هذه السورة) . والبيت من قصيدة رائقة للإمام القاسم بن إبراهيم الرسي عليه‌السلام : أوردها الإمام أبو طالب الهاروني في ترجمة القاسم من كتاب الإفادة في تاريخ الأئمة السادة ص ١١٧، ١١٨. قال : ومن فحول أشعاره ما أنشدنيه أبو العباس الحسني رحمه الله قال : أنشدني عبد الله بن أحمد بن سلام ، قال : أنشدني القاسم بن إبراهيم لنفسه:

ونبي التهجير والدلج وأقصر في المنى لجج
وطاف بحالكي وضح عليه من البلى نهج
فقلت لنفس مكتئب علاه من الردى ثبج
قطي ما دمت في مهل فإن الحبل مندمج
ولا تستوقري شبها فوجه الحق منبلج
وزور القول ممحق إذا طافت به الحجج
فهبك رتعت في مهل أليس وراءك اللجج
وعاذلة تؤرقني وجنح الليل معتلج
فقلت رويد عاتبة لكل مهمة فرج
أسرك أن أكون رتعت حيث المال والبهج
وإني بت يصهرني لحر فراقه وهج
فأسلب ما كلفت به ويبقى الوزر والحرج
ذريني حلف قاضية تضايق بي وتنفرج
ولا ترمين بي غرضا تطاير دونه المهج
إذا أكدى جنى وطني فلي في الأرض منفرج

طاعة كل واحد منهما طاعة للآخر ، بيان لطاعة الله ، فإن الله تعالى لو قال : ومن يطع الله ، كان لبعض الناس أن يقول : نحن لا نرى الله ولا نسمع كلامه فمن أين نعلم أمره حتى نطيعه ؟ فقال : طاعته في طاعة رسوله ، وكلامه يُسْمَعُ من رسوله .

ثم قال سبحانه :﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أي : يعرض عما أمر الله به ورسوله ، ويخالف ما نهى الله عنه ورسوله ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

ثم أخبر سبحانه برضاه عن المؤمنين حين بايعوا رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقال تعالى : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ أي : حين يبايعونك ﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ كانت سمرة ، وهذه بيعة الرضوان سميت بهذه الآية .

[بيعة الرضوان]

قصتها عنه صلى الله عليه وآله وسلم حين نزل الحديبية بعث عثمان إلى مكة يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت ، فعظَّموه وأذنوا له بالطواف بالبيت ، فقال : ما كنت لأطوف قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واحتبس عندهم ، فأرجف بأنهم قتلوه ، فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : لا نبرح حتى نناجز القوم ، أي نحاربهم ، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة على الموت ، وعلى أن لا يفروا ، فقال لهم : أنتم اليوم خير أهل الأرض ، وكانوا ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين [1] وقيل : ألفا وأربع مائة ، وقيل : ألفا وثلاثمائة ، كذا في الكشاف[2] .

قال الهادي عليه السلام : الشجرة التي بايع المؤمنون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحتها فهي شجرة بالحديبية بايعوا تحتها رسول الله على الصبر والبلوى ، أو يدخلوا مكة ، وهم بالحرم وبجانب فخ ، فأنزل الله على نبيه ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على

---

(١) في الأصل هنا وفيما سبق عند ذكر هذه العدد (وخمسة وعشرون) برفع (عشرين) والظاهر أنه معطوف على خبر كان والمعطوف عليه منصوب ، وهو في الكشاف أيضا بالنصب ٣٤٠/٤.

(٢) الكشاف ٣٣٩/٤، ٣٤٠، وقد نقلها المصنف باختصار وتصرف ، وانظر تخريجها في الكشاف .

الله﴾[1] فلما طلبوا السلم أجابهم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ذلك ، فكتب الكتاب بينه وبين سهيل بن عمرو على الهدنة عشر سنين ، وعلى شروط شرطوها بينهم ، ونحر هدي عمرته في الموضع ، على أن يأتي في السنة الأخرى فيدخل مكة هو وأصحابه ، ويقيمون بها ثلاثا ، ويخرجون ، وكذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من السنة المقبلة ، وتم لهم على الهدنة حتى نقضوا .

ومعنى قوله :﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يقول : علم ما في قلوبهم من النية والصبر والاحتساب له سبحانه ، وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : السكون والطمأنينة .

الظاهر أن سببها بعض كلام سمعوه في الصلح فاشمأزوا منه في الآية الآتية ﴿وَأَثَابَهُمْ ﴾ من الثواب ﴿فَتْحًا﴾ وهو الجزاء ﴿قَرِيبًا﴾ يقول : أعطاهم ورزقهم فتحا قريبا ، وهو فتح خيبر ومغانمها الكثيرة ، التي أخذوا منها من النخيل والأثاث ، والذهب والفضة ، والتي لم يقدروا عليها في ذلك الوقت ، ثم قدروا عليها من بعد ، فهي بلاد الروم والشامات ، وما والاها ، ثم افتتحوها في غزوة تبوك ، ثم افتتحوها من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لنبيئه[2] . اهـ

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ هي أرض خيبر ، وكانت ذات عقار[3] وأموال فقسمها بين المسلمين ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ قاهرا قادرا على أن يظفركم بالفتح والغنائم ﴿حَكِيمًا﴾ لا يفعل ذلك إلا لحكمة وتدبير .

ومعنى ﴿عزيزا﴾ كامل القدرة غنيا عن إعانتكم إياه ﴿حكيما﴾ حيث جعل هلاك أعدائه على أيديكم ليثيبكم عليه ، أو لأن في ذلك إعزاز قوم وإذلال آخرين ، قال : يذل من يشاء بعزته ، ويعز من يشاء بحكمته .

(١) الأنفال : ٦١

(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٣٩٢.

(٣) في حاشية الكشاف (عليان) قوله :(ذات عقار) في الصحاح : العقار ـ بالفتح ـ الأرض والضياع والنخل (٣٤٠/٤) .

ثم قال تعالى :﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ وهي ما يغنم المؤمنون إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ المغانم ، أي : مغانم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أيدي أهل خيبر وحلفائهم ، وهم أسد وغطفان الحليفان ، عليهم عيينة بن حصن ومالك بن عوف ، جاؤا لينصروا أهل خيبر ، فألقى الله في قلوبهم الرعب فانهزموا ، وقيل : أيدي أهل مكة [بالصلح][1] ، وقيل : بل معنى ﴿كف أيدي الناس﴾ أي : منع سائر الناس أن يخرجوا معكم في غزو خيبر لئلا يشاركوكم في هذه الغنائم .

قال الحاكم : كانت غنائم خيبر لأهل الحديبية خاصة دون غيرهم ، وروي أنه لم يغب أحد من الحديبية عن خيبر إلا جابر بن عبد الله فأسهم له رسول الله صلى الله عليه وآله كمن حضر .

وروى ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق : أن غنائم خيبر قسمت على أهل الحديبية من شهد خيبر ومن غاب عنها ، ولم يغب عنها إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، فقسم له رسول الله كسهم من حضرها ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : هذه الكفة .

وفي البلغة ، ولتكون الأموال والغنائم التي يأخذها المسلمون على حسب ما أخبرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم آية للعالمين ، ودلالة على صدق رسوله صلى الله عليه وآله وسلم [2]. اهـ

لأن صدق الإخبار عن الغيوب معجزة وآية وعبرة ، يعرفون بها أن الله ضامن نصرتهم، وأنهم منه بمكان .

ثم قال عز وجل :﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي : يزيدكم ثقة بفضل الله ، وبصيرة وهداية وإيقانا بالتصديق بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به .

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ أي : وعدكم الله مغانم لم تقدروا عليها في الحال ، وستقدرون عليها في المستقبل ، كذا في البلغة . وفي البرهان : يعني فتح مكة .

وفي الكشاف : ﴿فعجل لكم هذه........وأخرى﴾ وهي مغانم هوازن في حنين ،

---

(١) من قوله :﴿وكف أيدي الناس عنكم﴾ إلى هنا ، مثله في الكشاف ٣٤٠/٤ ، وما بين قوسي الزيادة من الكشاف

(٢) البلغة في تفسير القرآن تأليف محمد بن أحمد بن الحكم الطوسي مخطوط .

وقال :﴿لم تقدروا عليها﴾ لما لحقهم في حنين من الهزيمة[1].

وقال عطا وابن عباس : هي فارس والروم ، وما كانت العرب تقدر على قتالهم ، وفتح مدائنهم ، بل كانوا خولا لهم ، فأقدرهم الله بالإسلام [2].

﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي : قدر عليها ، واستولى ، وأظهركم عليها .

وقال الفراء : كأنه قال : حفظها الله لكم ، ومنعها عن غيركم حتى تفتحوها ، وقد أحاط بها علمه أنها ستكون لكم .

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المقدورات ﴿قَدِيرًا﴾ والوفاء بما وعد من هذه الغنائم من جملة المقدورات .

ثم قال تعالى :﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من أهل مكة ، ولم يصالحوا ، أو حلفاء أهل خيبر ﴿لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ﴾ لغلبوا وانهزموا مدبرين هاربين ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا ﴾ يتولاهم بالإعانة ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم لدفع المؤمنين عنهم ، يريد : وليس إذا ولوا الأدبار يتخلصون ، بل بعد التولي الهلاك لاحق بهم

ثم قال :﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ إرسالك ، يعني عادة الله السالفة في نصرة أوليائه ورسله على أعدائه، ولن تغير عادة الله في نصرك على أعدائك [وأعدائه][3].

والمعنى : أن الله سن غلبة أوليائه سنة ، وهو قوله :﴿لأغلبن أنا ورسلي﴾[4] .

﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ لا تغير ولا تحول .

وفي البلغة : ما من نبي أمره الله بمحاربة الكفار إلا نصره الله عليهم ، ولو أمرتك يوم الحديبية بمحاربتهم لكانت هذه السنة حاصلة .

---

(١) الكشاف ٣٤١/٤ ، والذي في الكشاف (﴿وأخرى﴾ معطوفة على هذه ، أي : فعجل لكم هذه المغانم ، ومغانم أخرى ﴿لم تقدروا عليها﴾ وهي مغانم هوازن في غزوة حنين ، وقال :﴿لم تقدروا عليها﴾ لما كان فيها من الجولة .

(٢) انظر مجمع البيان ١٥٨/٩، عن ابن عباس ، والحسن ، والجبائي ، وهو كذلك عن الإمام زيد ، انظر تفسيره أول هذه السورة .

(٣) في البرهان مثله ، من قوله : يعني عادة الله .. إلى هنا ، وما بين القوسين من البرهان .

(٤) المجادلة : ٢١ .

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ أهل مكة ﴿عَنكُمْ﴾ بإلقاء الرعب في قلوبهم ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ بالنهي لكم عن القتال[1] وإنما نهى عن قتالهم إتقاء المؤمنين الذين في أيديهم، ولمصلحة علمها الله سبحانه في المصالحة . اهـ

قوله :﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ هو موضع الحديبية ، وقيل : وادي مكة ، وقيل : التنعيم ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : قضى بينكم بالمكافة بعد أن أظفركم عليهم ، قيل : وذلك يوم الفتح ، ولهذا احتج أبو حنيفة أن مكة فتحت عنوة لا صلحا ، وهو رأي أهل البيت عليهم السلام ، وقيل : كان ذلك في الحديبية لما روي أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة ، فبعث صلى الله عليه وآله وسلم من هزمه ، فأدخله حيطان مكة[2] .

ابن عباس : أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت .

وفي البلغة : إن هذا الموضع الذي نزل به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان في أيدي المشركين من جملة بلادهم ، فلما نزل به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على كره منهم كان ذلك ظفرا ونعمة .

وفي التجريد عن الواحدي ، وعن عبد الله بن مغفل المزني[3] : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أصل الشجرة ، إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح ، فثاروا في وجوهنا ، فدعا عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فأخذ الله بأبصارهم ، فقمنا إليهم فأخذناهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله : هل جئتم في عهد ؟ قالوا : لا ، فخلى سبيلهم ، فأنزل الله تعالى :﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم﴾ .

وعن أنس أن ثمانين من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من جبل التنعيم

---

(١) وفي البرهان ٣٥٠ مثله من قوله :﴿وهو الذي كف أيديهم﴾ .. إلى قوله بالنهي لكم عن القتال ، مع اختلاف في هذه اللفظة ففي البرهان (والنهي إلى وقت القتال) .

(٢) قال ابن حجر في تخريج الكشاف : أخرجه الطبري ، عن شيخه محمد بن حميد ، عن يعقوب القمي ، عن جعفر ، هو ابن أبي المغيرة ، عن ابن أبزى .... ثم قال : وأخرجه ابن أبي حاتم من هذا الوجه . (الكشاف ٣٤١/٤، ٣٤٢) .

(٣) وذكره أيضا القرطبي في تفسيره عن عبد الله بن مغفل .

متسلحين ، يريدون غرة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، فأخذهم سلما فاستحياهم ، فأنزل الله تعالى :﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم﴾[1] .

والمعنى : أن الله تعالى ذكر منته بحجزه بين الفريقين ، حتى اتفق بينهم الذي كان أعظم من الفتح .

قال الهادي عليه السلام في جواب الحسن بن محمد بن الحنيفية [2] وقد احتج على ما زعم من صحة الجبر بهذه الآية ، فقال عليه السلام : وأما ما سأل عنه من قوله الله سبحانه : ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾ فقال : هل كان يستطيع أحد أن يمد يده إلى عدوه ، وقد كف [الله سبحانه] أيدي حزبه من رسوله والمؤمنين عن حزب الشيطان الفاسقين ، وأذن لرسوله وأطلق لهم مهادنة قريش ومن تبعهم من المشركين ، نظرا منه سبحانه للمؤمنين ، ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [لما أن طلبته قريش منه ، ولو لم يأذن الله له ـ عز وجل ـ في ذلك لم يفعله ، ولم يك ليرجع يوم الحديبية حتى يقاتلهم وعلى الحق وبالحق ينازلهم ، ولقد أراد ذلك صلى الله عليه وآله] وبايع أصحابه على الموت فيه بيعة ثانية ، وهي البيعة التي ذكر الله عن المؤمنين ، ورضي بها عنهم ، وأنزل السكينة عليهم ، وصرف القتال ، وكف أيدي الكل من الرجال بما أطلق لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم من إجابته لهم إلى ما طلبوا من المهادنة في ذلك العام ، والرجوع عنهم والدخول في السنة المقبلة إلى البيت الحرام ، فأطلق الله له الرجوع عنهم ، والترك لمقاتلتهم لما ذكر سبحانه [في من كان بمكة من المؤمنين والمؤمنات لئلا يطأوهم] فيقتلوهم بغير علم، فتصيبهم منهم معرة عند الله بالحكم .

---

(١) وفي البرهان ص ٣٥٠ (وقيل سبب نزول هذه الآية ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من قبل التنعيم عند صلاة الفجر ليقتلوهم ، فأخذهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأعتقهم).

ورواه ابن كثير في تفسيره ، عن أحمد بن حنبل ، عن يزيد بن هارون ، عن حماد ، عن أنس بن مالك .

(٢) الحسن بن محمد بن الحنيفية : هو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن محمد بن الحنفية ، كان من أئمة الكيسانية، وممن قالوا بالجبر والتشبيه ، وهو غير الحسن بن علي بن محمد بن الحنفية ، العف الورع ، الذي ترجم له ابن حجر في تقريب التهذيب (رسائل العدل والتوحيد تحقيق سيف الدين الكاتب ص ١٠٩) .

والمعرة هاهنا : فهي الدية ، لا ما قال غيرنا به فيه من الإثم ، وكيف يأثم من بر وكر، وقاتل على الحق ــ كما ذكر الله عز وجل ــ من خالفه من الخلق ، فقتل مؤمنا بغير علم ولا تعمد ، وهو فإنما قتله وهو يحسبه كافرا ، ويظنه في دين الله فاجرا ، فهو ــ والحمد لله ــ في ذلك غير آثم ، ولا متعد في فعله ولا ظالم ، ولكنه مخطئ فعليه ما على مثله ، وهو ما ذكر الله في قوله حين يقول :﴿ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله﴾(١) وإنما جعل عليه العتق والدية تعظيما لقتل المؤمن ، وتشديدا على المؤمنين في التثبت والتبيين عند قتال الكافرين ، كما قال سبحانه :﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾(٢) .

وأما معنى قوله سبحانه :﴿من بعد أن أظفركم عليهم﴾ فهو : الحكم لهم من الله عز وجل بالنصرة إذ نصروه ، ومن ذلك ما قال ذو العز والجلال :﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾(٣) ولا نصر يكون أكبر من نصره لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من المؤمنين [فحكم الله سبحانه لهم على أعدائه بالنصر إذا التقوا ، وبالغلبة] إن احتربوا ، ألا تسمع كيف يقول :﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا ، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾(٤) يقول : حكم الله للمؤمنين بالنصر على الكافرين الفاسقين ، ولن تجد لما حكم به رب العالمين للمؤمنين تبديلا ، فهذا معنى الآية وتفسيرها ، لا كما قال من نسب إلى الله جل ثناؤه فاحش المقال ، من جبر العباد على الخير ، وإدخالهم قسرا في كل شر وضير (٥). اهـ

ثم قال تعالى :﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي : عليما بما تعملون فيجازيكم عليه ، وكان الله يرى من المصلحة وإن كنتم لا ترون ذلك بقوله :﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

(١) النساء : ٩٢ .

(٢) الحجرات : ٦ .

(٣) محمد : ٧ .

(٤) الفتح : ٢٣ .

(٥) انظر رسائل العدل والتوحيد ، بتحقيق سيف الدين الكاتب ص ١٢٩ــ ١٣١ . وما بين أقواس الزيادة منه .

يعني قريشا ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني : كفار مكة جمعوا بين الكفر وبين صدكم عن المسجد الحرام ، حين أحرم النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بعمرة عام الحديبية ، وسمي الحرام لعظم حرمته ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا﴾ أي : صدوكم ، وصدوا الهدي ، و﴿معكوفا﴾ بيان لحال الهدي ، أي : محبوسا ﴿ أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ معناه : أن لا يبلغ ، فحذف لا .
و﴿محله﴾ هو مكانه الذي يحل فيه نحره ، أي : يجب ، ومحل الدين : وقت حلوله ، أي : وجوبه ، أي : لم يبلغ المحل المعهود ، وهو مكة ؛ لأنها محل هدي العمرة ، ومحل هدي الحج منى ، وإلا فقد نحره صلى‌الله‌عليه‌وآله في الحرم ، لأن بعض الحديبية من الحرم .

وروي أن مضارب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كانت في الحل ومصلاه في الحرم ، وفيه دليل لأبي حنيفة أن المحصر محل هديه الحرم [1].

والهدي : ما يهدى إلى الكعبة ، وهي البدن التي ساقها رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم معه ، وكانت سبعين بدنة .

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ﴾ بمكة ﴿وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ أي : لم تعلموا بإيمانهم ، أو غير متميزين لكم ، وقيل : رجال ونساء علم الله أنهم مؤمنون .

وقوله :﴿ أَنْ تَطَئُوهُمْ ﴾ بدل اشتمال من هم في ﴿تعلموهم﴾ أي: لم تعلموا وطأهم، والوطء : عبارة عن الإيقاع والإهلاك ﴿فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ﴾ بإهلاكهم ﴿مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ والمعرة هاهنا : هي الدية ، وقيل : عيب من المشركين وتعيير ، فيقولون : قتلوا أهل الله، وقيل : غم وحزن ، وقيل : معنى ﴿معرة﴾ أي : مأثم ، والمعرات : هي الذنوب والمآثم.

فإن قيل : أي معرة تصيبهم إذا قتلوهم ، وهم لا يعلمون ؟ قيل : له : يصيبهم وجوب الدية والكفارة ، وسوء قالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز [2].

وقوله :﴿بغير علم﴾ متعلق بـ﴿أن تطؤهم﴾ أي : تطؤهم بغير علم ، وجواب لولا محذوف دل عليه الكلام أي : لولا أن تهلكوا ناسا مؤمنين .. إلى آخره لما كف أيديكم عنهم

---

(١) وانظر الكشاف ٣٤٢/٤ .

(٢) وزاد الزمخشري سببا ثالثا للمنع فقال : والمأثم إذا جرى منهم بعض التقصير . (الكشاف ٣٤٣/٤) .

ويحتمل أن يقال : جواب لولا ما دل عليه قوله تعالى :﴿هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام﴾ يعني : قد استحقوا أن لا يهملوا ﴿ولولا رجال مؤمنون﴾ لَوَقَعَ ما استحقوه ، كما يقول القائل : هو سارق ولولا فلان لقطعت يده ، وذلك لأن لولا لا تستعمل إلا لامتناع الشيء لوجود غيره ، وامتناع الشيء لا يكون إلا إذا وجد المقتضي له فمنعه الغير ، فذكر الله تعالى أولا المقتضي التام البالغ ، وهو الكفر والصد والمنع ، وذكر ما امتنع لأجله مقتضاه ، وهو وجود الرجال المؤمنين . ذكره الرازي[1] .

وقوله :﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ تعليل لما دلت عليه الآية من كف أيدي المؤمنين عن أهل مكة ، صونا لمن بين أظهرهم من المؤمنين ، كأنه قيل : كان ذلك الكف ومنع التعذيب ﴿ليدخل الله في رحمته﴾ أي : في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنيهم ، أو ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم .

ثم قال :﴿لو تزيلوا﴾ أي : لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض ، وهو كالتكرير لـ﴿لولا رجال مؤمنون﴾ لمرجعهما إلى معنى واحد ، والمعنى : أنه كان بمكة مسلمون مختلطون بالمشركين غير متميزين منهم ، ولا معروفي الأماكن ، فقيل : لولا كراهة أن تهلكوا ناسا من المؤمنين بين [ظهراني] المشركين ، وأنتم غير عارفين بهم ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ من الذين بمكة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالقتل والأسر[2].

ثم قال تعالى :﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي : واذكر حين جعل الذين كفروا من أهل مكة[3] ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ الأنفة والكبر ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ هي أنفتهم أن يقروا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة ، والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم[4] وذلك ما يروى أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما نزل الحديبية بعثت إليه قريش سهيل بن عمرو وغيره ،

---

(١) انظر الرازي ٢٨/١٠٠.

(٢) انظر الكشاف ٣٤٣/٤، ٣٤٤. ففيه مثل هذا الكلام مع تقديم وتأخير ، وتصرف يسير .

(٣) وقد ذكر الزمخشري وجها آخر للنصب ، وهو أن يعمل فيه ما قبله ، أي : لعذبناهم ، أو صدوهم عن المسجد الحرام في ذلك الوقت . (الكشاف ٣٤٤/٤) .

(٤) وزاد في البرهان (ومنعهم عن دخوله مكة) . البرهان ٣٥٠ .

وأمروهم أن يعرضوا عليه صلى الله عليه وآله وسلم أن يرجع من عامه ذلك ، على أن يخلوا له مكة في العام القابل ثلاثة أيام ، ففعل ذلك ، وكتبوا بينهم كتابا فقال صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل وأصحابه : ما نعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللهم ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله صلى الله عليه وآله أهل مكة، فقالوا : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك ، ولا قاتلناك ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم اكتب ما يريدون ، فأنا أشهد أني رسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله ، فهَمَّ المسلمون أن يأبوا ذلك ، ويشمئزوا منه[1] ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني الصبر الذي صبروا ، والإجابة إلى ما سألوا ، والصلح الذي عقدوه حتى عاد إليهم في مثل هذا الشهر من السنة الثانية قاضيا لعمرته ، ظافرا لطلبته .

وفيه لطائف معنوية [ولفظية] الأولى[2] : هو أن الله تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن ، إشارة إلى ثلاثة أشياء : أحدها ـــ جعل ما للكافرين بجعلهم فقال :﴿إذ جعل الذين كفروا﴾ وجعل ما للمؤمنين بجعل الله فقال ﴿فأنزل الله﴾ وبين الفاعلين ما لا يخفى ، ثانيها : جعل الحمية للكافرين ، وللمؤمنين السكينة ، وبين المفعولين تفاوت . ثالثها : أضاف الحمية إلى الجاهلية ، وأضاف السكينة إلى نفسه حيث قال :﴿حمية الجاهلية﴾ وقال :﴿سكينته﴾ وبين الإضافتين ما لا يذكر .

ثم قال تعالى : ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ كلمة التقوى هي بسم الله الرحمن الرحيم ، ومحمد رسول الله قد اختارها

---

(١) إلى هنا مثله في الكشاف بتصرف يسير جدا (الكشاف ٣٤٤/٤) . وقال ابن حجر في تخريجه : أخرجه البيهقي في الدلائل ، من رواية عروة في قصة الحديبية ، وفيه : ثم بعثت قريش إلى سهيل بن عمرو .. الخ مطولا ، والقصة في الصحيح من رواية البراء بن عازب ، ومن رواية مروان ، والمسور ، وفي النسائي مختصرة ، من رواية ثابت البناني ، عن عبد الله بن مغفل .

(٢) لم يذكر المصنف اللفظية ، ولكن ليتبين معنى الأولى ، وأن المراد بها المعنوية ، ذكرنا ما هو موجود في الرازي ، وإن لم يتعرض المصنف للطائف اللفظية . وفي الرازي ، فأشار إلى ثلاثة أشياء ، بدلا عن (إشارة إلى ثلاثة أشياء) وفي الرازي أيضا :(جعل للكافرين الحمية) (انظر الرازي ١٠٢/٢٨) .

الله لنبيئه ، وقيل : هي كلمة التوحيد لا إله إلا الله [١] قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك والسدي وغيرهم ، وروي مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم [٢].

وعن الحسن : كلمة التقوى الوفاء بالعهد .

ومعنى إضافتها إلى التقوى أنها سببها وأساسها ، أعني لا إله إلا الله ذكره في التجريد .

وفي البلغة : وألزم المؤمنين كلمة الإخلاص ﴿وكانوا أحق بها﴾ أولى بها وبالهداية من غيرهم ﴿وأهلها﴾ لأنها من الخير ، وهم أهل الخير .

ثم قال تعالى :﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ أي : صدقه فيما رأى ، وفي حصوله صدقا متلبسا بالحق ، أي : بالغرض الصحيح ، والحكمة البالغة لما فيه من الابتلاء والتمييز بين [المؤمن] المخلص ، وبين من في قلبه مرض ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين ، وقد حلقوا وقصروا ، وقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا ، وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم ، وقالوا : إن رؤيا رسول الله حق، فلما تأخر ذلك وصالح قريشا بالحديبية ارتاب المنافقون حين قال النبي صلى الله عليه وآله : فما رأيت في هذا العام ، فقال عبد الله بن أبي ، وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحارث :

---

(١) لأن بها يقع الاتقاء عن الشرك .

(٢) قال الحاكم الجشمي في تهذيبه : ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ قيل : كلمة التقوى : لا إله إلا الله ، عن ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد ، وعمرو بن ميمون ، ومجاهد ، والضحاك ، وسلمة بن كهيل ، وعبيد بن عمير ، والسدي ، وقيل: كان شعارهم في الحرب : لا إله إلا الله ، فلزموا ذلك ، وقيل : كلمة الإخلاص عن مجاهد ، وقيل : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، عن علي وابن عمر ، وقيل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شئ قدير ، عن عطاء ابن أبي رباح ، وقيل : بسم الله الرحمن الرحيم عن الزهري ، وقيل : التوحيد وعبادة الله وحده عن أبي مسلم ، وقيل : طاعة الله قبول لجميع ما أمرهم به عن أبي علي ، وقيل : ألزمهم ثواب كلمة التقوى . ﴿وكانوا﴾ يعني : المؤمنين ﴿أحق بها﴾ قيل : أحق بالتوحيد ، وكلمة الإخلاص ، والتقوى عن أبي مسلم ، وأبي علي ، وقيل : كانوا أحق بالحمية والتشديد ؛ لأنهم كانوا على الحق ، وقيل : كانوا أحق بثواب التقوى ؛ لأنهم أهلها وفعلوها ، وقيل : أهلها ؛ لأنهم عليها يحيون ، وعليها يموتون ، وعليها يبعثون .

والله ما حلقنا ولا قصرنا ، ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت[1] فكان تأخير الوعد بالفتح فتنة للناس .

قال الهادي عليه السلام : ومعنى ﴿أريناك﴾ فهي التي أخبرناك بها وأعلمناك ، وهو ما وعده من فتح مكة ، فكانوا يتقاضونه ذلك ، ويقولون : يا رسول الله قلت لنا كذا ، ووعدتنا بالفتح ، وقد أبطأ ذلك ، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول :(لم أوقت لكم وقتا ، وإنما وعدتكم أمرا ، وستصلون إليه) وكان في قلوب المنافقين أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يصدقهم [2]. اهـ

فكان تأخير تصديق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حين عاد إليهم في مثل ذلك الشهر من السنة الثانية ، قاضيا لعمرته ، ظافرا بطلبته فتنة للناس بما يقع في قلوبهم من استبطاء الموعد ، وتصديق الرؤيا ، والله أعلم .

وقوله :﴿إن شاء الله﴾ فيه سؤال لأنه لا يقوله إلا الشاك ؟ وهذا وحي من الله . وجوابه من وجوه أحدها : أنه تعليم لعباده أن يتأدبوا بآدابه ، فيقولوا في عداتهم مثل ذلك ، وإن كان تعالى قد علم أن ذلك كائن لا محالة ، وثانيها : أنه متعلق بآمنين لا بالدخول ، فلا شك فيه ، فعلى هذا إن ﴿آمنين﴾ ليس من الوحي ، بل هو من قول قائل في المنام ، وفيه نظر ؛ لأن رؤيا الأنبياء وحي ، وثالثها : أنه على الحكاية كأن رسول الله رأى في المنام أن قائلا يقول : ﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله﴾ تعالى كذا في التجريد ، ومثل هذا الوجه الثالث ذكره في البرهان[3] .

---

(١) مثل هذه الرواية موجودة في الكشاف بلفظها إلا قوله (وصالح قريشا بالحديبية ارتاب المنافقون حين قال النبي صلى الله عليه وآله : فما رأيت هذا العام) فإن هذا اللفظ موجود في البرهان ٣٥١ ، وانظر أيضا التخريج من الكشاف ٣٤٥/٤.

(٢) لم أجده في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام .

(٣) قال الحاكم الجشمي :﴿إن شاء الله آمنين﴾ اختلفوا في أن الاستثناء عما ذا ؟ وقد طعن بعض الملحدة فيه ، فقالوا: كيف يكون في كلام الله ورسوله استثناء ، وهلا قطع على ذلك ؟ قلنا : من قال : إنه كلام رسول الله قال : إنه استثنى بأن أتى بأدب الله ، حيث قال : ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله﴾ فإنما هو انقطاع إليه ،

قوله :﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي : البعض محلق ، والبعض مقصر لأجـــل الإحرام ، أي : لأجل التحلل منه ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ من أهل مكة ، أي : غير خـــائفين ، وليس ﴿لا﴾ للنهي [1] ﴿فَعَلِمَ﴾ من الحكمة والمصلحة في تأخير فتح مكة إلى العام القابل ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ يعني : فعلم أن دخولها إلى سنة و لم يعلموا .

﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يعني : فتح خيبر ، لتستروح [إليـــه] [2] قلـــوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود به وهو فتح مكة .

ثم قال تعالى :﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ هو دين الإســـلام ، والهدى : هو القرآن كما قال تعالى :﴿أنزل فيه القرآن هدى للناس ﴾ ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَـــى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ والظهور هو الارتفاع ، أي : ليعليه ويرفعه على الأديان كلهـــا ، أديـــان المشركين والجاحدين من أهل الكتاب ، وقيل : هو عند نزول عيسى عليه‌السلام لا يبقـــى على وجه الأرض كافر [3] .

قال الرازي : وأكثر المفسرين على أن الهاء في قوله :﴿ليظهره﴾ راجعة إلى الرســـول ، والأظهر أنه راجع إلى دين الحق ، أي : أرسل الرسول بالدين الحق ﴿ليظهـــره﴾ أي : ليظهر الدين الحق على كل الأديان ، وعلى هذا فيحتمل أن يكون الفاعل للإظهار هـــو الله ، ويحتمل أن يكون [هو] النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، أي : ليظهر النبي دين الحق . اهــ

لا أنه شك فيه ، عن ابن كيسان . وقيل : إن معنى (أن يشاء) تقديره : إن شاء الله ، كقوله :﴿إن أردن تحصنا﴾ عن أبي عبيدة ، وقيل : الاستثناء من الدخول لا من الرؤيا ، وبين الدخول كانت مدة ، وقد هلك أناس فهـــو لدخـــول الجميع ، أي : ليقعن ، عن أبي علي ، وقيل : الاستثناء واقع على الخوف والأمن على الدخـــول ، أي : إن شـــاء الله أمنكم فتدخلوا آمنين ، وقيل : كانت تلك الرؤيا ، والرؤيا منها : ما يوجد كما رئي ، ومنها : ما يكون تأويله مخالفا لما رئي ، فاستثنى ليعلم أن تأويله وفق ظاهره ، وهو حكاية الرؤيا ، فكأنه أري ذلك ، وعلق بالمشيئة ، عن أبي مسلم

(١) ومعلوم أن لا ليست للنهي ، والدليل رفع تخافون ، وإنما هي للنفي بمعنى غير خائفين ، ومحلها النصب على الحالية من فاعل لتدخلن ، أو من الضمير في آمنين ، أو في محلقين .

(٢) ما بين القوسين زيادة من الكشاف ٣٤٦/٤ .

(٣) ومثله في الكشاف ٣٤٦/٤ .

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن ما وعده كائن .

الحسن : شهيد على نفسه أنه سيظهر دينك يا محمد .

وقيل : كفى بالله شهيدا في أنه رسول الله ، وهذا مما يسلي قلوب المؤمنين، فإنهم تأذوا من رد الكفار عليهم العهد المكتوب ، وقالوا : لا نعلم أنه رسول الله فلا تكتبوا محمد رسول الله ، بل اكتبوا محمد بن عبد الله ، فقال تعالى :﴿وكفى بالله شهيدا﴾ في أنه رسول الله [1].

وقوله تعالى :﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ فيه وجوه أحدها : خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هو محمد الذي سبق ذكره بقوله :﴿أرسل رسوله﴾ محمدا ، و﴿رسول الله﴾ عطف بيان [2].

وثانيها : أن ﴿محمد﴾ مبتدأ وخبره ﴿رسول الله﴾ وهذا تأكيد لما تقدم .

وثالثها : وهو مستنبط ، وهو أن يقال : ﴿محمد﴾ مبتدأ و﴿رسول الله﴾ عطف بيان ، أو نسق للمدح لا للتمييز ، و﴿الذين معه﴾ عطف على ﴿محمد﴾ وقوله :﴿أشداء﴾ خبرهم ، قاله الرازي .

قوله :﴿أشداء﴾ و﴿رحماء﴾ جمع شديد ورحيم ، بلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم ، وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى المؤمن مؤمنا إلا صافحه وعانقه ، والمصافحة لم

---

(١) صاحب القيل هذا هو الرازي (انظر التفسير الكبير ١٠٧/٢٨) فهو موجود فيه بلفظه .

(٢) قال السيد العلوي في حاشيته على الكشاف : قوله : (وإما مبتدأ ورسول الله عطف بيان) قال صاحب التقريب : وفيه نظر ؛ لأنه يخالف ما ذكره قبل من اشتراط العلمية في عطف البيان ، قيل : وعلى تقدير كونه مبتدأ ورسول الله عطف بيان فالخبر أشداء .

أقول : المصنف لم يذكر أن يكون محمد مبتدأ ، ورسولُ الله عطفَ بيان إلا في الوجه الثالث ، الذي نسبه إلى الرازي ، ويمكن أن يحمل كلام الزمخشري على ما اقتصر عليه المصنف من الوجهين الأولين ، ويجعل قوله :(ورسول الله عطف بيان) من تمام الوجه الأول ، لا من تمام الوجه الثاني ، وقد اقتصر الزمخشري على ذكر احتمال أن يكون محمد مبتدأ ، وترك ذكر الخبر لوضوحه . (انظر حاشية العلوي ، والكشاف ٣٤٦/٤) (والرازي ١٠٧/٢٨) .

يختلف فيها الفقهاء ، وأما المعانقة ، فقد كرهها أبو حنيفة ، وكذلك التقبيل ، قال : ولا أحب أن يقبل الرجل من الرجل وجهه ولا يده ولا شيئا من جسده ، وقد رخص أبو يوسف في المعانقة ، ومن حق المسلمين [في كل زمان] أن يراعوا هذا التشدد ، وهذا التعطف[١] . كذا في الكشاف .

وقوله تعالى :﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ لا يكون خطابا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بل يكون عاما أخرج مخرج الخطاب ، تقديره : تراهم أيها السامع كائنا من كان [٢].

ومعنى ﴿يَبْتَغُونَ﴾ أي : يطلبون ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ﴾ وهو الجنة ﴿وَرِضْوَانًا﴾ منه عنهم

وقوله تعالى :﴿يبتغون فضلا من الله﴾ لتمييز ركوعهم وسجودهم عن ركوع الكفار وسجودهم ، وركوع المرائي وسجوده ، فإنه لا يُبْتَغَى به ذلك .

ثم قال سبحانه :﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾ أي : علاماتهم من آثار صلواتهم وسجودهم تبدو في وجوههم ، ونور يكسوها الله عز وجل على ما جاء في الحديث من صلاة الليل ، أو المراد السمة التي تحدث في جبهة السجاد من كثرة السجود ، وقوله :﴿ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ يفسرها ، أي : من تأثير السجود ، وقيل: صفرة الوجوه من خوف ربهم ، وقيل : ندى الطهور وتراب الأرض [٣].

---

(١) الكشاف ٣٤٧/٤ ، وفيه زيادة بعد قوله : وهذا التعطف : فيتشددوا على من ليس على ملتهم ودينهم ويتحاموه ، ويعاشروا اخوتهم في الإسلام متعطفين بالبر والصلة ، وكف الأذى ، والمعونة ، والاحتمال ، والأخلاق السجيحة [أي: السهلة] .

(٢) ومثل هذه الفقرة موجود في تفسير الرازي ، وزيادة في آخره : كما قلنا : إن الواعظ يقول : انتبه قبل أن يقع الانتباه ، ولا يريد به واحدا بعينه .

(٣) ذكره في الكشاف ، ونسبه إلى سعيد بن المسيب . وقال أيضا : وكان كل من العليين ، علي بن الحسين زين العابدين ، وعلي بن عبد الله بن عباس أبي الأملاك يقال له : ذو الثفنات ؛ لأن كثرة سجودهما أحدثت في مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير (٣٤٧/٤) .

وقال الحاكم الجشمي في تهذيبه : ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ قيل: علامتهم يوم القيامة ، عن ابن عباس، والحسن ، وعطاء ، والربيع بن أنس ، قال شهر بن حوشب : تكون مواضع سجودهم كالقمر ليلة البدر ، وقيل : علامتهم في الدنيا من أثر الخشوع عن مجاهد ، وقيل : أثر التراب على وجوههم ، عن عكرمة وسعيد بن جبير ، وأبي

﴿ذَلِكَ﴾ الوصف ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي : وصفهم ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ لأن المثل يراد به الوصف ، أي وصفهم العجيب الشأن في الكتابين جميعا .

قال في التجريد : اختلف في قوله :﴿ومثلهم في الإنجيل﴾ على ثلاثة أقوال أحدها : أن مثلهم في الكتابين واحد ، وهو ما تقدم ، ثم ابتدأ فقال :﴿ كَزَرْعٍ ﴾ أي : هم كزرع .

وثانيها : أن مثلهم في الكتابين واحد أيضا ، وهو قوله :﴿كزرع﴾ [١] .

وثالثها : أن مثلهم في التوراة ما تقدم ، ومثلهم في الإنجيل ﴿كزرع أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ فراخه ، أي : أوله عند نباته ، أشطى الزرع إذا فرخ ، وهو ما يتولد منه ، أي ورقه ونباته قال الشاعر :

يخرج الشطأ على وجه الثرى ومن الأشجار أفنان الثمر

﴿فَآزَرَهُ﴾ من المؤازرة ، فهي : المعاونة ، أي : فشد أزره وقواه ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ غلظ وكثر ، أي : صار من الرقة إلى الغلظ[٢] يعني باجتماع الفراخ مع الأصول ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ جمع ساق ، أي : على عوده الذي يقوم عليه فيكون ساقا له ، أي : فاستقام على قصبه ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ تكامله وغلظه ، وهذا مثل ضربه الله لبدو الإسلام ، وترقيه في الزيادة إلى أن قوي واستحكم ؛ لأن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قام وحده ، ثم قواه بمن آمن معه كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع بما يحتف بها مما يتولد منها ، حتى يعجب الزراع ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ يعني بذلك رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ومن

العالية ، قال سفيان : يصلون بالليل ، فإذا أصبحوا رئي ذلك في وجوههم ، وعن عطاء الخراساني : دخل في هذه الآية كل من صلى الخمس ، وقيل : من الصفرة والنحول عن الضحاك ، قال الحسن : إذا رأيتم حسبتهم مرضى ، وما هم بمرضى ، وقيل : صفرة السهر ، وغض البصر .

قال في حاشية الأصل لهذا التفسير : جاء في أمالي الشجري عن الإمام زيد بن علي عليه‌السلام قال : صفرة الوجوه ، وعمشة العيون .

(١) فعلى هذا يكون (مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل) مبتدأ ، وقوله :﴿كزرع﴾ خبر المبتدأين المعطوف ، والمعطوف عليه . وفي الوجه الثالث : هو خبر عن قوله :﴿ومثلهم في الإنجيل﴾ والواو للابتداء ، وليست للعطف .

(٢) أي : أنه من باب استنوق الجمل .

آمن به وصدقه ، لأن ما أعجب [المؤمنين] [١]من قوتهم ، كإعجاب الزراع بقوة زرعهم هو الذي غاظ المشركين منهم .

قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ ليغم أعداء الله بكمال محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذه الآيات في النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي أهل بيته خاصة ، روي ذلك عن أمير المؤمنين الهادي إلى الحق عليه السلام [٢]. اهـ

وهو تعليل لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوة ، أي : أنماهم الله عز وجل بالكثرة ليغيظ بهم الكفار .

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي : وعدهم الأجر العظيم على العمل الصالح ، وقيل : الفعل المعلل هو قوله تعالى :﴿وعد الله الذين آمنوا﴾ ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ يقال : رغما لأنفك أنعم الله عليه .

وقوله :﴿منهم﴾ من لبيان الجنس ؛ لأنهم كلهم مؤمنون عن الزجاج ، أي : من جنس الصحابة ، وقيل : للتبعيض ، والمراد الذين استقاموا على الإيمان إلى الموت .

والحمد لله رب العالمين أولا وآخرا

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين .

---

(١) ما بين القوسين زيادة من البرهان ، وكان في أصل التفسير إشكال من حيث فهم المعنى ، وبالرجوع إلى البرهان ، ووجود هذا بلفظه فيه أصلحناه منه .

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول السورة .

سورة محمد صلى الله عليه وآله وسلم

تسع وثلاثون آية في الحجازي والمكي والشامي ، وثمان وثلاثون في الكوفي ، وأربعون في البصري (مدنية) وعن الضحاك وسعيد بن جبير (مكية) وهي سورة القتال .

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطاني المئين مكان الإنجيل ، وأعطاني مكان الزبور المثاني ، وفضلني ربي بالمفصل)[1]

وفي تفسير الماوردي[2] : اختلف في المفصل على ثلاثة أقوال أحدها : ـ وهو الأكثر من سورة محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى سورة الناس ، والثاني : أنه من سورة ق إلى سورة الناس. والثالث : من سورة الضحى إلى سورة الناس . عن ابن عباس ، وكان يفصل بين كل سورتين بالتكبير ، وبه سمي المفصل ، وقيل : سمي لكثرة الفصل بين سوره .

---

(١) الحديث في كنز العمال برقم (٢٥٨٢) بلفظ : أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ، وأعطيت مكان الزبور المئين وأعطيت مكان الإنجيل المثاني ، وفضلت بالمفصل) وعزاه إلى الطبراني ، والبيهقي عن واثلة ، وبرقم (٢٥٨٥) بلفظ: (أعطاني ربي السبع الطوال مكان التوراة ، والمئين مكان الإنجيل ، وفضلت بالمفصل) وعزاه إلى الطبراني عن أبي أمامة، وبرقم (٢٥٨١) بلفظ (إن الله تعالى أعطاني السبع مكان التوراة ، وأعطاني الراءات إلى الطواسين مكان الإنجيل ، وأعطاني ما بين الطواسين إلى الحواميم ، مكان الزبور ، وفضلني في الحواميم والمفصل ، ما قرأهن نبي قبلي) وعزاه إلى محمد بن نصر ، عن أنس ، وفي موسوعة أطراف الحديث النبوي ، غزا الحديث إلى الكنز ، وإلى الدر المنثور ٣٤٤/٥، والقرطبي ٨٧/١٣ .

(٢) الماوردي : هو علي بن محمد بن حبيب ، أبو الحسن الماوردي (٣٤٦ ـ ٤٥٠هـ) فقيه شافعي : أصولي ، مفسر، أديب ، ولد في البصرة ، وسكن بغداد ، وولي القضاء في بلدان كثيرة ، ثم جعله القائم بأمر الله العباسي قاضي القضاة سنة ٤٢٩هـ وكان يميل إلى مذهب الاعتزال ، وبلغ منزلة عند ملوك بني بويه ، وسمي الماوردي نسبة إلى بيع ماء الورد، توفي ببغداد ، ومن كتبه : النكت والعيون في تفسير القرآن . المصادر (طبقات الشافعية للسبكي ٢٦٧/٥ ، تاريخ بغداد ١٠٢/١٢ ، المنتظم ١٩٩/٨، وفيات الأعيان ٢٨٢/٣، معجم الأدباء ٥٢/١٥، شذرات الذهب ٢٧٥/٣، معجم المفسرين ٣٧٥/١ ، وانظر بقية المراجع فيه .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى :﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيد الله ﴿ وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : امتنعوا عن الدخول في دين الإسلام ، أو صدوا غيرهم عنه ، قيل : وهو عام يدخل فيه كل كافر .

وعن ابن عباس :(هم المطعمون يوم بدر)[1] [يمنعون عن الدخول في الإسلام ، ويأمرون بالكفر] .

وعن مقاتل :(كانوا اثني عشر رجلا من المشركين ، يصدون [الناس] عن الإسلام [ويأمرونهم بالكفر])[2].

قال في البرهان : نزلت في اثني عشر من كفار مكة ، منهم [3]: أبو جهل بن هشام ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عقبة ، وعقبة بن أبي معيط ، وأمية بن خلف ، ومنبه ونبيه ابنا الحجاج ، وأبو البحتري ، وزمعة بن الأسود ، وحكيم بن حرام ، والحارث بن عامر بن نوفل . اهـ

وقيل : هم من أهل الكتاب ، كفروا وصدوا من أراد الإسلام منهم ومن غيرهم .

أو صدوا عن بيت الله بمنع قاصديه ، ودفع زائريه ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[4] : أحبطها ، من ضلت إبله : ضاعت ، كما يقال : أضل بعيره إذا تركه مسيبا فضاع ، وهي ما عملوه

---

(١) إلى هنا انتهى كلام ابن عباس ، وما بين أقواس الزيادة من المصنف ، وليست من كلام ابن عباس (انظر الكشاف ٣١٤/٤)

(٢) ما بين أقواس الزيادة لفظة (الناس) مقدمة من تأخير ، وقوله : (ويأمرونهم بالكفر) غير ثابتة في المصابيح ، وهو موجودة في الكشاف من كلام مقاتل (الكشاف ٣١٤/٤) .

(٣) في المصابيح والبرهان (منهم) والصواب : وهم ؛ لأنه ذكر الإثني عشر كلهم . فلا مناسبة لمن هنا (البرهان ٣٤٦)

(٤) **وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليهما السلام ما لفظه :**

أخبرنا أبو جعفر قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام في قوله تعالى :﴿أضل أعمالهم﴾ معناه : لا يقبل مع الكفر عملا وقد كانت لهم أعمال ، فأضلها يوم القيامة ، فلا يقدرون على شئ مما كسبوا .

وقوله تعالى :﴿عرفها لهم﴾ معناه : بينها لهم ، وعرفهم منازلهم .

وقوله تعالى :﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا﴾ معناه : وليهم وناصرهم .

وقوله تعالى :﴿من ماء غير آسن﴾ معناه : غير متغير ، ولا منتن . وقوله تعالى :﴿اتبعوا الباطل﴾ معناه : الشيطان .

وقوله تعالى :﴿فقد جاء أشراطها﴾ قال : أعلامها ، ويقال : أولها . وقوله تعالى :﴿سول لهم﴾ معناه : زين لهم .

وقوله تعالى :﴿فإذا عزم الأمر﴾ معناه : جد . وقوله تعالى :﴿فلو صدقوا الله﴾ معناه : ناصحوه .

وقوله تعالى :﴿فلا ناصر لهم﴾ معناه : لا مانع لهم . وقوله تعالى :﴿في لحن القول﴾ معناه : في فحوى القول .

وقوله تعالى :﴿حتى نعلم المجاهدين﴾ معناه : حتى نميز . وقوله تعالى :﴿فلا تهنوا﴾ معناه : تضعفوا .

وقوله تعالى :﴿ولن يتركم أعمالكم﴾ معناه : لن ينقصكم ، ولن يظلمكم . وقوله تعالى :﴿إن يسألكموها﴾ يفترض عليكم . وقوله تعالى :﴿فيحفكم﴾ معناه : يلح عليكم . وقوله تعالى :﴿وأصلح بالهم﴾ معناه : حالهم .

وقوله تعالى :﴿ويخرج أضغانكم﴾ معناه : أحقادكم .

وقوله تعالى :﴿وآتاهم تقواهم﴾ معناه : ثوابهم في الآخرة ، ويقال : بين لهم ما يتقون .

وقوله تعالى :﴿متقلبكم﴾ معناه : متقلب كل غاية . ﴿ومثواكم﴾ معناه : مثوى كل دابة بالليل والنهار .

وقوله تعالى :﴿وأنتم الأعلون﴾ معناه : الغالبون . (انظر تفسير الإمام زيد عليه‌السلام تحقيق الحكيم ص ٢٩٤ ، ٢٩٥)

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم عليه السلام ما لفظه :

تأويل قول سيدنا عز وجل :﴿وصدوا﴾ أي: أعرضوا ومالوا ﴿أضل أعمالهم﴾ أي : أبطلها وضللها ، قال الشاعر :

إن من الرأي الذي تضلله مشورة النصح لمن لا يقبله

ومعنى ﴿كفر عنهم سيئاتهم﴾ أي : غطى عنهم ذنوبهم وسترها ، ومعنى ﴿وأصلح بالهم﴾ أي : حالهم وشأنهم ، قال الشاعر : (وخالف بال أهل الدار بالي) أي : خالف حالهم حالي .

ومعنى ﴿أثخنتموهم﴾ أي : أذللتموهم ، قال الهادي إلى الحق عليه‌السلام :

وقد أثخنت عند ذاك عداتي فهم في الهوان أسرى وقتلى

﴿فشدوا الوثاق﴾ أي : رباط الأسارى ، قال إبراهيم بن إسماعيل أبو القاسم العالم عليه‌السلام :

قد موتت قلبي الهموم وطولت ليلي مهانا في الصفاد وثاقا

﴿فإما منا بعد وإما فداء﴾ أي : تفضلا ، أو فدية بمال ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ أي : عددها وأهبتها ، قال الشاعر :

وأعددت للحرب أوزارها رماحا طوالا وخيلا ذكورا

﴿ليبلو بعضكم ببعض﴾ البلوى : هي الاختبار . ومعنى ﴿عرفها لكم﴾ أي : زينها لكم ، وهيأها ، ونصبها ، وشرفها

ومعنى قوله :﴿والذين كفروا فتعسا لهم﴾ أي : تعبا وعسرة ، قال العالم صلوات الله عليه :

بذلك أوصاني سلالة أحمد بحفظي لأصحابي على اليسر والعسر[والتعس]

ومعنى ﴿عاقبة الذين من قبلهم﴾ أي : آخر أمرهم ، ومجازاة الله لهم ، قال الإمام المرتضى لدين الله صلوات الله عليهم : (مهين ضعيف فعله في العواقب) ، أي : في أواخر الأمر .

﴿دمر الله عليهم﴾ أي : أهلكهم ، قال الشاعر : إني بوجه الله من شر البشر أعوذ من لم يعذ الله دمر

أي : هلك ، ومعنى ﴿الله مولى الذين آمنوا﴾ أي : وليهم ﴿وكأين من قرية﴾ أي : وكم من قرية ، قال الشاعر :

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم

أي : وكم ، وقال آخر : وكائن تخطت ناقتي من مفازة إلى داري سهلها وحزونها

أي : وكم تخطت ، ومعنى ﴿هي أشد قوة من قريتك﴾ لم يرد القرية ، وإنما أراد أهلها ، فاختصر ، وهذا جائز ، قال الشاعر : هلا سألت الخيل يا بنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

فقال : هلا سألت الخيل ، وإنما أراد أهل الخيل ، وقول الله عز وجل أصدق من قول الشاعر ، حين يقول فيما حكى عن أولاد يعقوب صلى الله عليه :﴿واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها﴾ وقد علم كل الناس أن خطاب القرية لا تسأل ، وأن الجمال أيضا لا تسأل ، ولا يقول بذلك ولا يتوهمه أحد يعقل ، وإنما أراد أهل القرية ، وأهل العير ومعنى ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار﴾ أي : صفة الجنة ؛ لأنه لم يأت بمثل غير الصفة التي وصف من أنهار الماء ، وأنهار اللبن ، وأنهار الخمر ، وأنهار العسل ، ومعنى ﴿غير آسن﴾ أي : غير أجن ، ولا متغير الطعم ، قال الشاعر : وماء آسن بركت عليه وكان مناخها ملقى لجام

والأمعاء : هي آلات البطن ، التي تحمل الأغذية ، ومعنى ﴿ماذا قال آنفا﴾ أي : ماذا قال منذ ساعة ، قبل هذا الحين

﴿طبع الله على قلوبهم﴾ أي : ختم عليها ، إذ خلاها على انطباعها وتركها ، فأما هو فلم يجبرها على ذلك من أمرها ومعنى ﴿أن تأتيهم بغتة﴾ أي : مفاجأة ، ومعنى ﴿فقد جاء أشراطها﴾ أي : علامتها ﴿فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ أي : كيف لهم بالتذكر ، إذا جاءتهم الساعة ، وليس ينفع التذكر والاعتبار ، و(أنى) في اللغة هو كيف ، قال الشاعر:(أنى ومن أين جاءك الطرب)أي: كيف أتاك الطرب،ومن أين أتاك ؟ثم قال : (من حيث لا صبوة ولا لعب) ومعنى ﴿متقلبكم ومثواكم﴾ المتقلب : هو المتحرك والمذهب ، والمغدا ، والمراح ، والمثوى : هو المستقر ، والمقام ، والوطن ، قال الشاعر : (رب ثاو يمل منه الثواء) أي : المقام ، ومعنى ﴿في قلوبهم مرض﴾ أي : شك وجبن ، قال المرتضى لدين الله صلوات الله عليه :

فلرب اليوم قد شاهدته بجنان صح ما فيه مرض

ومعنى ﴿فأولى لهم طاعة وقول معروف﴾ أي : طاعة ، وقول حسن أولى بهم وأحق ، وخير لهم . ومعنى ﴿فهل عسيتم إن توليتم﴾ يريد عساكم ﴿أن تفسدوا في الأرض﴾ على وجه التقرير والتفهم ، وكم عسى أن تقيموا في الدنيا، أليس آخر أمركم إلى الموت والبلى ، أقول ــ وأنا عبد الله بن محمد المذنب : بلى والله بلى . قال الشاعر :

كم ذا عسيت وكم أقاوم ذا الهوى وأظل في درج الصبابة أرتقي

ومعنى ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ أي : مالهم لا يتدبرون وينظرون هو حكمة وصواب ؟ أم هو عبث ولعاب ؟ قال العالم صلوات الله عليه :

ألم يتدبر آية فتدله على بعض ما يأتي أم القلب مقفل

في كفرهم مما كانوا يعدونه مكارم ، نحو صلة الأرحام ، وإطعام الطعام ، وفك الأسارى ؛ لأنه لا قربة لكافر ، وقيل : أبطل ما كادوا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما صدوا عن سبيل الله ، فنصره عليهم .

ثم إن الله تعالى لما بين حال الكفار بين حال المؤمنين فقال سبحانه :﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا

والمقفل : هو المهمل الذي ترك على جهله ، ولم يفتح بالعلم ، ولم يستعمل ، ومعنى ﴿الشيطان سول لهم وأملى لهم﴾ أي : مناهم ، وزين لهم . ثم ابتدأ الخبر عن إملائه سبحانه لهم ، فقال :﴿وأملى لهم﴾ وإبليس اللعين هو المُسَوِّلُ ، والله هو المملي ، أي : أجَّلَهُمْ ، ولكنه اختصر ، ولم يذكر اسم الله ، فجاء الكلام مستبهما ، ومعنى ﴿أضغانهم﴾ أي : حقدهم وعداوتهم ، قال الشاعر :

وذي ضغن كففت النفس عنه وكنت على مساءته مقيتا

أي : ذي عداوة ، ولزمت النفس عنه ، ومعنى ﴿لتعرفنهم في لحن القول﴾ أي : لتعرفنهم في مقصدهم وقولهم ، ومرادهم وغرضهم وهمتهم ، قال الشاعر :

وأعرف غش المرء في لحن قوله لذي العقل قبل اليوم ما تقرع العصا

أي : في مقصد قوله ، ومعنى ﴿ولنبلونكم﴾ أي : لنمتحنكم ، ونختبركم ، قال الشاعر :

فاليوم أبلوك وتبتليني واليوم تبلو غلظي وليني

أي : اختبرك وتختبرني . ومعنى ﴿وشاقوا الرسول﴾ أي : باينوه وقاطعوه ، والشاقة : مأخوذة من اشتقاق العصا حتى يبين أحد الشقين عن الآخر ولا يلائمه ، قال الشاعر :

فإلى عدو بالشقاق مباين بل عن صديق بالنفاق مداهن

فلقد يطاق دفاع شر ظاهر ما لا يطاق دفاع شر باطن

ومعنى قوله ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم﴾ أي : لا تضعفوا ، والوهن : هو الضعف ، قال مولانا زكرياء عليه السلام ﴿إني وهن العظم مني﴾ أي : ضعف ، ومعنى ﴿وتدعو إلى السلم﴾ أي : إلى الصلح والسلامة من الحرب ، قال : (وفي السلم يدعو بالسواك ويحتبي) أي : في المسالمة من الحرب ، ومعنى :﴿ولن يتركم أعمالكم﴾ أي : لن يظلمكم أعمالكم ، قال الكميت بن زيد رحمة الله عليه :

على الطرد من آل الوجيه ولاحق تذكرها أوتارنا حين تصهل

وقال مولانا زيد بن علي صلوات الله عليه : نحن الموتورون ، ونحن طلبة الدم ، أي : نحن المظلومون المقتولون ، ومعنى قوله عز وجل :﴿إن يسألكموها فيحفكم﴾ الإحفاء : مأخوذ من الحفا ، والأصل في ذلك الاستقصاء على الظفر ، على يحفى ، وكذلك المسألة للناس تحفيهم وتؤلمهم ﴿ويخرج أضغانكم﴾ أي : عداوتهم وحقدهم قال الشاعر :

(وأضمر أضغانا علي كشوحها) .

وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد ﴾

قال في البرهان : هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب صلوات الله عليه[١] .

ومعنى ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: أن إيمانهم هو الحق من ربهم بما هداهم الله إليه[٢] .اهـ

قوله :﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾ اختصاص للإيمان بالمنزل على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من بين ما يجب الإيمان به تعظيما لشأنه وتعليما ، لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا بــه ، وأكد ذلك بالجملة الإعتراضية [التي] هي قوله :﴿وهو الحق من ربهم﴾قاله في الكشاف[٣]

ثم قال تعالى :﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي : غطّى عنهم ذنوبهم وغفرها بإيمـانهم وعملهم الصالح وسترها ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي : حالهم وشأنهم بالتوفيق في أمر الدين ، والنصر في الدنيا قال المبرد : البال هنا الحال ، قال الشاعر :

(وخالف بال أهل الدار بالي)

أي : خالف حالهم حالي .

﴿ذَلِكَ﴾ أي : الإضلال لأعمال الكافرين ، والتكفير لسيآت المؤمنين ﴿بِـأَنَّ الَّذِيـنَ كَفَرُوا﴾ أي : بسبب أن الذين كفروا ﴿اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أي:الأمر الباطل، الذي لا ينتفع به

قال في البرهان : يعني من الأصنام والرؤساء الذين أضلوهم ، وإنما سمـوا بالبـاطل لدعائهم إليه . اهـ

وعن مجاهد ــ الباطل : الشيطان . وإتباع المؤمنين : الحق الثابت .

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ في الكشاف : ﴿ذلك﴾ مبتدأ وما بعده خبره ، أي : ذلك الأمر وهو إضلال أحد الفريقين ، وتكفير سيئات الثاني كائن بسبب إتباع هؤلاء الباطل ، وهؤلاء الحق ، ويجوز أن يكون ﴿ذلك﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أي:

---

(١) وانظر ما ذكره الحاكم الحسكاني في كتابه شواهد التنزيل ٢/١٧١، ١٧٢ .

(٢) لفظ البرهان : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ هذه الآية نزلت في علي بن أبي طـالب صلـوات الله عليـه [﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾ صلى الله عليه يعني القرآن] ﴿وهو الحق من ربهم﴾ أي : أن إيمانهم هو الحق من ربهم بما هداهم الله إليه). فما بين قوسي الزيادة في الحاشية محذوف من نسخة المصابيح ، وثابت في البرهان (٣٤٦) .

(٣) انظر الكشاف ٤/٣١٥.

الأمر كما ذكر ، بهذا السبب[1]

قال في البرهان : وعنى بالذين آمنوا : أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وكل آية في القرآن فيها ذكر المؤمنين فعلي عليه‌السلام قائدها وسائقها ، والحق : القرآن ، وسمي حقا لإتيانه بالحق ، ولموافقة أحكامه الحق .[2] اهـ

ثم قال تعالى :﴿كَذَلِكَ﴾ أي : مثل ذلك الضرب ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ يعني صفات أعمالهم من خير أو شر .

قال فيه[3]: و(الناس) فيه وجهان : أحدهما ــ [يجوز] أن يكون المعني به رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، والثاني : يجوز أن يكون المراد به سائر الناس . اهـ

والضمير يرجع إلى الناس [أو إلى] المذكورين من الفريقين ، على معنى أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم .

فإن قيل : أين ضرب [الله][4] الأمثال ؟ قيل له : ضرب الأمثال بأن جعل إتباع الباطل مثلا لعمل الكفار ، وإتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين ، أو بأن جعل الإضلال مثلا لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلا لفوز المؤمنين .

---

(١) في المصابيح (لهذا السبب) وفي الكشاف (بهذا السبب) وهو الأنسب لقوله تعالى :﴿بأن الذين كفروا﴾ ومحل الجار والمجرور على الوجه الثاني النصب على الحال ، أي : ملتبسا ، ومرفوعا على الأول خبر عن اسم الإشارة .

(٢) انظر البرهان مخطوط . ٣٤٧ .

(٣) الضمير عائد إلى البرهان ، وما بين قوسي الزيادة من البرهان . وكذلك تفسير قوله تعالى :﴿يضرب الله للناس أمثالهم﴾

(٤) لفظ الكشاف : فإن قلت : أين ضرب الأمثال ؟ قلت : ... الخ ما ذكره هنا وقد نقل كلام الكشاف هذا والذي بعده بتصرف يسير (انظر الكشاف ٣١٦/٤) قال السيد العلوي رحمه الله تعالى : قوله (أين ضرب الأمثال) يعني : معنى ضرب المثل : استعمال القول المشبه مضربه بمورده ، وأين ذلك هاهنا ، وأجاب بأن المثل هاهنا مستعار للتمثيل ، وتشبيه حالتي المؤمنين والكافرين ، ووصفتهم العجيبة الشأن ، ثم إن المشار إليه بقوله :﴿كذلك﴾ إما معنى الآية الأولى أو الثانية ، فالمعنى على الأول حالة أولئك البعداء عن الله ، في أن أعمالهم الحسنة ضلت وبطلت ، وصارت هباء منثورا، وحالة هؤلاء المقربين في أن أعمالهم السيئة اضمحلت وتلاشت ، وما اكتفى بذلك ، بل زادهم إصلاح بالهم من الصفات العجيبة الشأن ، التي يصح أن يكون موقعا لضرب المثل ، وتسير في الآفاق ، وعلى الثاني صفة الكفار في أنهم اتبعوا الباطل مع وضوح الحق فخابوا ، وصفة المؤمنين في أنهم اتبعوا الحق ففازوا ــ من الأمثال .

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أصله: فاضربوا الرقاب ضربا [١] أي: فاقتلوهم، لكن لما كان أكثر القتال بهذه الصفة وقع بهذه العبارة، والمراد القتل، ولما فيها من الغلظة والشدة، التي ليست في لفظ القتل لما فيها من تصوير القتل بأشنع صورة، وهو حز العنق، وإطارة الرأس، ذكره في الكشاف[٢].

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أي: الرباط للأسرى، قال إبراهيم بن إسماعيل [٣] أبو القاسم العالم عليهما السلام:

قد موتت قلبي الهموم وطولت ليلي مهانا في الصفاد وثاقا

والوثاق بالفتح والكسر: اسم ما يوثق به من حبل وقِدٍّ ونحوهما، والمراد: فأسروهم وقيل: الوثاق هذا: الإيثاق، ويقال: وثقته إيثاقا ووثاقا إذا شد أسره كيلا يفلت، ومعنى ﴿أثخنتموهم﴾ أي: أذللتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبتم عنهم النهوض، أي: أثقلتموهم بالقتل والجراح، أو أغلظتموه، من الشيء الثخين، وهو الغليظ، ذكره في التجريد وغيره، وحتى لبيان غاية الأمر لا لبيان غاية القتل.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ﴾ وهو الإطلاق بغير شيء، كما مَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ثمامة بعد أسره، ويحتمل أنه العتق ﴿وَإِمَّا فِدَاءً﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه المفاداة على مال يؤخذ، أو أسير يطلق كما فادى رسول الله صلى الله عليه وآله أسرى بدر، كل أسيرين بأربعة آلاف درهم، وفادى في بعض المواضع رجلا برجلين، والثاني: أنه

---

(١) قوله: أصله فاضربوا الرقاب ضربا، أي: أنه حذف الفعل، وقدم المصدر، فأنيب منابه مضافا إلى المفعول، وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد، لأنك تذكر المصدر، وتدل على الفعل بالنصبة التي فيه (ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/٣١٦).

(٢) وذكر السيد العلوي رحمه الله: أراد أنه لو قال: فاضربوا الأعناق منهم والبنان لكان فيه غلظة، فلما أتى بلفظ فوق وكل ازدادت الغلظة.

(٣) هو: إبراهيم (طباطبا) بن إسماعيل (الديباج) بن إبراهيم (الشبه) بن الحسن، بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، والد الإمامين العلمين، أبي القاسم محمد بن إبراهيم، والإمام القاسم بن إبراهيم جد الإمام الهادي إلى الحق يحي بن الحسين عليهم السلام، كان في حبس محمد الملقب بالمهدي العباسي، ثم في حبس موسى وهارون، ومات في الحبس (انظر الإفادة ترجمتي الإمامين محمد بن إبراهيم، والقاسم بن إبراهيم).

البيع ، أي : فبعد الأسر لكم هذا التخيير بين المن والفداء .

قال في التجريد : للإمام أن يفعل بأسرى المشركين البالغين أحد أربعة أشياء : القتل، والاسترقاق ، على تفصيل يذكر في كتب الفقه ، والفداء ، والمن ، وهو قولنا والشافعي، وقال أبو حنيفة : ليس له إلا قتلهم واسترقاقهم ، ويقول في المن والفداء : إنه منسوخ بقوله : ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ وهو قول مجاهد والسدي وابن جريج .

ثم قال تعالى :﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ حتى متعلق بالضرب والشد ، أي : اقتلوهم حتى تضع ، أو بالمن والفداء ، أي : لا تزالون على ذلك إلى أن لا يكون حرب من المشركين ، وذلك إذا لم تبق لهم شوكة ، بأن يكونوا من أهل الذمة ، أو يسلموا ، أو يوادعوا ، وأوزار الحرب : آلاتها وأثقالها ، وعددها وأهبتها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع قال الشاعر [١]:

وأعددت للحرب أوزارها رماحا طوالا وخيلا ذكورا

وسميت أوزارا ؛ لأن الحرب لا تقع إلا بها ، فكأنها تحملها ، فإذا انقضت فكأنها وضعتها ، والمعنى حتى يضع أهل الحرب سلاحهم ، وقيل : ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ يعني : أوزار كفرهم بالإسلام ﴿ذَلِكَ﴾ أي : الأمر ذلك الذي ذكروا ، أو فعلوا ذلك ، والمبتدأ محذوف ، ويحتمل أن يقال : ذلك واجب أو مقدم ، كما يقول القائل : إن فعلت فذاك ، أي : فذاك مقصود ومطلوب [٢] .

ثم بين أن قتالهم ليس طريقا متعينا بل الله لو أراد أهلكهم بغير جند فقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ بغير قتال ، أي : انتقم ببعض أسباب الهلاك ، من خسف أو موت ، أو غرق ﴿وَلَكِنْ﴾ أمركم بالحرب ﴿ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي : ليختبر المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوا ويصبروا ليستحقوا الثواب ، والكافرين بالمؤمنين

---

(١) هو الأعشى : واستعار الأوزار لآلات الحرب على طريق التصريحية ، ويحتمل أنه شبه الحرب بمطايا ذات أوزار أي: أحمال ثقال على طريق المكنية ، وإثبات الأوزار تخييل ، ورماحا ، بدل .

(٢) أي : فهو مبتدأ ، والخبر محذوف . والأول خبر ، والمبتدأ محذوف .

بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض ما وجب من العذاب .

إن قيل : ما التحقيق في قولنا : التكليف ابتلاء وامتحان ، والله يعلم السر وأخفى ؟ وماذا يفهم من قوله :﴿[ولكن] ليبلو بعضكم ببعض﴾ ؟ .

قيل له : إن المراد منه يفعل ذلك فعل المبتلين ، أي : كما يفعل المبتلي المختبر ، وذلك أن الله تعالى يبلو ليظهر الأمر لغيره إما الملائكة ، وإما الناس ، والتحقيق هو أن الابتلاء والامتحان والاختبار فعل يظهر بسببه أمر غير متعين عند العقلاء ، وهو إما الطاعة أو المعصية ، أي : ليظهر معلوم الله ، لأنه تعالى لا يعاقب ولا يثيب على ما يعلم حتى يظهر الفعل ، وهو لا يكون إلا بذلك[1] .

ثم قال تعالى :﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ قال الهادي عليه السلام: فهو لن يبطلها ولن يلتهم إياها [بل] [2]سيجازيهم عليها ، ويعظم لهم الأجر فيها .

[ومعنى]﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ هو يهديهم إلى دار ثوابه ، ويصيرهم إلى ما أعد لهم من دار كرامته ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ فهو : يصلح حالهم ، البال : الحال والأمر[3] .

قال في التجريد : وظاهره أنه لا يكون الهدى وإصلاح البال إلا في الدنيا للأحياء ، وقد اختلف فقيل : ﴿سيهديهم﴾ أي : يوفقهم ويلطف بهم في التكليف ، ويصلح حالهم في أمر الدين ، وهذا على قراءة الأكثرين وهي ﴿قاتلوا﴾ والأقلين ﴿قتلوا﴾ .

وقيل : ﴿سيهديهم﴾ لجواب منكر ونكير ، وقيل : إلى طريق الجنة في الآخرة ، وهذان يصحان على قراءة أبي عمرو .

ثم قال سبحانه :﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ قال الهادي عليه السلام : هو طيبها لهم، وتطييبه لها فهو: جمعه فيها للخيرات التي هي مجموعة فيها حتى طابت لأهلهابوجودهم، كلما يحبون فيها.

وفي التجريد قيل : عرفهم منازلهم فيها [فهم] [4] يستدلون عليها ، بل يكونون أعرف

---

(١) وذكر الرازي قريبا من هذا (التفسير الكبير ٢٨/٤٦) .

(٢) ما بين القوسين من المجموع .

(٣) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٥٦ .

(٤) في الأصل : فلا يستدلون عليها .

من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم ، وهو قول قتادة وعامة المفسرين .

وعن مقاتل : [إن] الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه ، فيعرفه كل شئ أعطاه الله ، وقيل : ﴿عرفها﴾ طيّبها ، أي : طيب رائحتها [1]، قال ابن قتيبة : وهو قول أصحاب اللغة .

ثم إنه تعالى لما بين ما على القتال من الثواب والأجر ، وعدهم بالنصر في الدنيا زيادة في الحث ليزداد منهم الإقدام ، فقال سبحانه :﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّـهَ﴾ أي : دين الله ونبيئه بالصبر في مواطن القتال ﴿يَنصُرْكُمْ ﴾ على عدوكم ، ويفتح لكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في نصره في مواطن الحرب ، أو على محجة الإسلام .

ثم قال تعالى :﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ﴾ هذا زيادة في تقوية قلوبهم ؛ لأنه تعالى لما قال :﴿ويثبت أقدامكم﴾ جاز أن يتوهم أن الكافر أيضا يصبر للقتال فيدوم القتال والحراب والطعان والضراب ، وفيه المشقة العظيمة ، فقال تعالى : لكم الثبات ، ولهم الزوال والتغيير والهلاك ، فلا يكون العثار[2] .

ومعنى ﴿فتعسا لهم﴾ قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : أي : تعبا وعسرا ، قال العالم صلوات الله عليه :

بذلك أوصاني سلالة أحمد بحفظي لأصحابي على اليسر والتعس[3]

وفي البرهان : التعس : الانحطاط والعثار[4] . كأنه قال : أتعسهم الله تعسا ، وهو دعاء عليهم بعدم الانتعاش إذا عثروا .

قال ابن قتيبة والزجاج : هو من قولك : تعست ، بفتح العين إذا عثرت ، وتعسا له :

---

(١) وانظر الكشاف ٣١٨/٤ .

(٢) أي : فلا يكون العثار للمؤمنين . وفي الرازي (فلا يكون الثبات) أي : لا يكون الثبات للكافرين .

(٣) العالم : هو الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام ، وكلما ورد العالم فالمراد به هو . وفي المصابيح (عليه السلام) بدلا من (صلوات الله عليه) الموجودة في تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام ، وفي تفسير الغريب للإمام الحسين بن القاسم عليه السلام (على اليسر والعسر) ولكن على هذه الرواية ليس فيها شاهد لما ورد في الآية ، فالصحيح ما ورد في المصابيح .

(٤) إلى هنا انتهى ما في البرهان ، وما بعده ليس من البرهان بل هو من المصنف رحمه الله .

نقيض لعا له ، يقال للعاثر : لعا لك ، معناه الدعاء له ، والقوة على الثبوت ، وتعسا له معناه : الدعاء عليه بالعثور ، قال ابن عباس : يريد في الدنيا القتل ، وفي الآخرة التردي في النار ، ذكره في التجريد وغيره [1].

وقوله تعالى :﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ معطوف على أتعس المقدر[2] قبل ﴿الذين كفروا﴾ أي : ضيع وأبطل أعمالهم ، وفيه إشارة إلى بيان مخالفة موتاهم لقتلى المسلمين ، حيث قال في حق قتلاهم :﴿فلن يضل أعمالهم﴾ وقال في موتى الكافرين :﴿وأضل أعمالهم﴾.

ثم بين الله تعالى سبب ما اختلفوا فيه فقال :﴿ ذَلِكَ ﴾ الواقع على الذين كفروا﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن ، وما فيه من التكاليف ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ التي يعدونها مكارم ، أي : أبطلها ؛ لأنها لم تكن مع إيمان .

ثم قال تعالى :﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ المعنى : ترك الستر[3] للنظر والاعتبار بعاقبة الذين كفروا من قبلهم كعاد وثمود وما جرى عليهم بسبب الكفر منهم والمعاصي ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : أهلك عليهم ما يختص بهم[4] من أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، وقيل : ﴿دمر الله عليهم﴾ مثل دمرهم هنا أي : أهلكهم .

ثم قال تعالى :﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ أي : لمن يشاركهم في موجب التدمير أمثال هذه العاقبة ، أو الهلكة ؛ لأن التدمير يدل عليها ، يحتمل أن يكون المراد : لهم أمثالها في

---

(١) وفي الكشاف أيضا ٣١٩/٤.

(٢) هذا على وجه نصب الذين كفروا ، وفي قوله :﴿الذين كفروا﴾ وجه ثان ، وهو أن يكون مبتدأ ، وما بعده الخبر، فعلى هذا يكون معطوفا على الخبر . قال الزجاج : الذين مبتدأ ، والخبر (فتعسا لهم) ويجوز أن يكون نصبا على معنى : أتعسهم الله تعسا ، وقال مكي : الذين كفروا مبتدأ وما بعده الخبر ، وتعسا نصب على المصدر ، وهو مشتق من فعل مستعمل ، ويجوز الرفع على الابتداء ولهم الخبر ، والجملة خبر الذين . (انظر حاشية العلوي) .

(٣) لفظة (الستر) غير معجمة في المصابيح ، فيحتمل أنها الستر ، أي : أن الله ترك الستر على المهلكين بأن جعل آثار العاقبة التي نزلت عليهم ظاهرا ، لأجل النظر والاعتبار ، ويحتمل انه (السير) أي : أنهم تركوا السير للنظر والاعتبار بآثار المهلكين من قبلهم .

(٤) انظر الكشاف ٣١٩/٤ ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

الدنيا ، وحينئذ يكون المراد من الكافرين هم الكافرون بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ويحتمل أن يكون لهم أمثالها في الآخرة ، فيكون المراد من تقدم ، كأنه يقول : دمر الله عليهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة أمثالها [1].

ثم قال تعالى :﴿ ذَلِكَ﴾ المذكور من نصر المؤمنين ، والتعس للكافرين ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ أي : بسبب أن الله ﴿مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي : وليهم وناصرهم ﴿ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ لا ولي لهم ، ولا ناصر ؛ لأن عدم النصرة من آلهتهم واجب الوقوع ؛ إذ لا قدرة لها ، وإلا فهو مولى جميع خلقه ، أي : مالكهم ﴿وردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ [2].

ثم لما بين الله تعالى حال المؤمنين والكافرين في الدنيا بين حالهم في الآخرة فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ قد مر تفسيره .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ ينتفعون بمتاع الدنيا أياما قلائل ، والتمتع الانتفاع القليل بالعاجل ﴿وَيَأْكُلُونَ﴾ غافلين عن أمر الآخرة ﴿كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ في معالفها غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ والمثوى: موضع الثواء ، وهو الإقامة ، أي : منزل لهم ومقام .ولما ضرب الله لهم مثلا بقوله :﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ فلم ينفعهم مع ما تقدم من الدلائل ضرب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مثلا تسلية [له] فقال سبحانه وتعالى : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ معناها : التكثير ، مثل كَمْ ، أي : وكثير من أهل قرية ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ﴾ يعني مكة ﴿ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ أي : التي كان أهلها سبب خروجك إلى المدينة[3] ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ بعذابنا ، كذلك نفعل بهم ، فاصبر كما صبر رسلهم ، وقوله :﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ أي : فلا مانع لهم منا ، وهذا وعيد لهم .

---

(١) ومثل هذا في الرازي بتقديم وتأخير وتصرف يسير (الرازي ٢٨/٥٠) .

(٢)يونس : ٣٠ .

(٣) قال مكي : ﴿من قريتك التي أخرجتك﴾ مما حذف فيه المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، أي : التي أخرجك أهلها ، فحذف الأهل ، فقام ضمير القرية مقامهم ، فصار مرفوعا بأخرج ، واستتر فيه ، وظهرت علامة التأنيث . (حاشية العلوي ٢٧٩) .

ثم قال تعالى :﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي : على حجة ظاهرة ، وهي القرآن المعجز ، وسائر المعجزات ، يعني الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أهل مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم ، وقيل : هو كل مؤمن وكافر ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ في الشرك وعداوتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ لأن الشرك لا يقضي به عقل ولا سمع ، وإنما دليلهم فيه إتباع الهوى .

وقوله تعالى :﴿على بينة﴾ فرق فارق ، وقوله :﴿من ربه﴾ مكمل له ، وذلك أن البينة إذا كانت نظرية تكون كافية للفرق بين المتمسك بها ، وبين القائل قولا لا دليل عليه ، فإذا كانت البينة مُنَزَّلَةً من الله تعالى تكون أقوى وأظهر فتكون أعلى وأبهر ، وكذلك ﴿كمن زين له سوء عمله﴾ فرق فارق ، وقوله :﴿واتبعوا أهواءهم﴾ تكملة ، وذلك أن من زين له سوء العمل ، وراجت الشبهة عليه في مقابلة من تبين له البرهان وقبله[1]

ثم لما بين الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال ــ بين الفرق بينهما في مرجعهما ومآلهما فقال سبحانه :﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي : صفة الجنة ؛ لأنه لم يمثل بمثل غير الصفة التي وصف من أنهار الماء ، وأنهار اللبن والخمر ، وأنهار العسل ، وقوله: ﴿مثل الجنة﴾ هذا مبتدأ خبره ﴿كمن هو خالد في النار﴾[2] .

﴿مثل الجنة﴾ أي : صفتها العجيبة الشأن ، ثم أخذ في بيان غايتها ، وهو كلام في صورة الإثبات ، ومعناه النفي والإنكار لدخوله تحت حكم [كلام مصدر بحرف الإنكار، ودخوله في حيزه ، وانخراطه في سلكه وهو قوله تعالى] :﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله﴾ فكأنه قال : أمثل الجنة الموصوفة كمن هو خالد في النار، أي:

---

(١) انظر الرازي ٢٨/٥٣ ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

(٢) قال السيد العلوي : قوله : وهو مبتدأ ، خبره ﴿كمن هو خالد﴾ قال الفراء : أراد من كان في هذا النعيم ﴿كمن هو خالد﴾ يدل على هذا المحذوف ﴿وعد المتقون﴾ أو حرف التشبيه الدال على المشبه ، ذكره صاحب المطلع ، وعلى هذا لا بد من تقدير شئ إما عند المشبه كما ذهب الفراء ، وإما عند المشبه به كما قدره المصنف ، وهو : كمثل جزاء من هو خالد .

كمثل جزاء من هو خالد في النار! وأراد المبالغة في نفي تقارب ما بينهما[1].

وقوله :﴿فيها أنهار﴾ جواب قائل قال : ما مثلها ؟ فقيل :﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾[2] أي : غير متغير ، يقال : أَسِنَ الماء وأَجِنَ إذا تغير طعمه وريحه قال الشاعر :

وماء آسن تركت عليه وكان مناخها ملقى لجام[3]

قال الرازي : قوله تعالى :﴿مثل الجنة﴾ يستدعي أمرا يمثل به فما هو ؟ قال : نقول : فيه وجوه الأول : [4] قول سيبويه حيث قال : المثل هو الوصف ، معناه : وصف الجنة ، وذلك لايقتضي ممثلا به ، وعلى هذا ففيه احتمالان ، أحدهما :أن يكون الخبر محذوفا ، ويكون ﴿مثل الجنة﴾ مبتدأ تقديره : فيما قصصناه مثل الجنة ، ثم يستأنف ويقول : ﴿فيها أنهار﴾ .

والاحتمال الثاني : أن يكون ﴿فيها أنهار﴾ [خبرا كما يقال : صف لي زيدا ، فيقول القائل : زيد أحمر قصير][5].

والقول الثاني : إن المثل زيادة والتقدير : الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار .

---

(١) ومثل هذا في الكشاف ٣٢١/٤ ، وما بين القوسين من الكشاف . وقد أضفناه ليتضح المعنى المراد . قال السيد العلوي : قال في الانتصاف : ومن هذا النمط قوله تعالى :﴿أجعلتم سقاية الحاج كمن آمن﴾ أي : أهل سقاية الحاج فيكون حينئذ تنظيرا بعد التسوية بين المتمسك بدينه ، وراكب الهوى ، ببعد التسوية بين المنعم في الجنة ، والمعذب في النار ، وهو من باب تنظير الشيء بنفسه باعتبار حالين ، أحدهما أوضح بيانا من الأخرى ، فالمتمسك بالبينة هو المنعم في الجنة ، والمتبع للهوى هو المعذب في النار .

(٢) وعلى هذا فمحله الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير : هي فيها أنهار ، وأن تكون في موضع الحال ، أي: مستقرة فيها أنهار .(وانظر الكشاف ٣٢٢/٤) . قال السيد العلوي : و﴿فيها أنهار﴾ في جملة مبينة ، أي هي مثل الجنة التي وعد المتقون ، كأن قائلا قال : وما مثلها ؟ فقيل : فيها أنهار ، و(هي) المقدرة هنا ضمير مبهم مفسر بالخبر ، ومنه : هي العرب تقول ما شاءت .

(٣) وقد استشهد بهذا البيت أيضا الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام في تفسيره ، أنظره أول هذه السورة .

(٤) في الأصل : (فيه وجوه الأول : أحدها) هكذا في النسختين الموجودتين لدينا ، وقد صححنا اللفظ من تفسير الرازي، وكذلك ما أثبتناه بين أقواس الزيادة ـــ تفسير الرازي ٥٣/٢٨.

(٥) ما بين القوسين من الرازي ، ولا يتم المعنى إلا بقوله : خبرا ،

الوجه الثاني : هاهنا الممثل به محذوف غير مذكور ، وهو يحتمل قولين أحدهما : قول الزجاج حيث قال : ﴿مثل الجنة﴾ [جنة]تجري ﴿فيها أنهار﴾ كما يقال : مثل زيد رجل طويل أسمر فيذكر عين صفات زيد في رجل منكر لا يكون [هو]في الحقيقة إلا زيدا .

الثاني من القولين : هو أن يقال : معناه ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ مثل عجيب أو شيء عظيم ، أو مثل ذلك ، وعلى هذا يكون قوله :﴿فيها أنهار﴾ كلاما مستأنفا محققا لقولنا : مثل عجيب .

الوجه الثالث : الممثل به مذكور ، وهو قول الزمخشري حيث قال : ﴿كمن هو خالد في النار﴾ مشبه به على طريقة الإنكار ... [1]كأنه تعالى قال : ﴿مثل الجنة ....كمن هو خالد في النار﴾ وهذا أقصى ما يمكن أن يقرر به قول الزمخشري ، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فيها أنهار﴾ وما بعدها جمل اعتراضية وقعت بين المبتدأ والخبر .[2] والله أعلم .

ثم قال تعالى :﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ كما تغير ألبان الدنيا لطول المدة فيها ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ تأنيث لذ[3] ، أي : اللذيذ ، المعنى : ما هو إلا التلذذ الخالص ، وليس معه ذهاب عقل ولا آفة من آفات الخمر ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ ليس فيه شمع وغيره مما يكون في عسل الدنيا ؛ لأنه لم يخرج من بطون النحل .

ثم قال تعالى بعد ذكر المشروب إشارة إلى المأكول :﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ولما

---

(١) هنا حذف عما في تفسير الرازي والمحذوف هو :[وحينئذ فهذا كقول القائل : حركات زيد أو أخلاقه كعمرو ، وكذلك على أحد التأويلين،إما على تأويل كحركات عمرو ، أو على تأويل زيد في حركاته كعمرو وكذلك ههنا ..] إلخ ما ذكره هنا (٥٤/٢٨)

(٢) ما بين الأقواس أثبتناه من تفسير الرازي ، ليكون المعنى واضحا ، وفي التفسير زيادة بعد قوله : بين المبتدأ والخبر (كما يقال : نظير زيد فيه مروة وعند علم وله أصل عمرو) .الرازي ٥٤/٢٨.

(٣) في المصابيح (اللذ) وفي الكشاف (لذ) ٣٢٢/٤) قال الشهاب في حاشيته على البيضاوي : فهو صفة مشبهة كصيغته ، ومذكرها (لذ) ، أو هو مصدر بتقدير مضاف ، أو بجعلها عين اللذة ، مبالغة على التجوز فيه ، أو في الإسناد كما هو معروف في أمثاله (حاشية الشهاب ٤٥) وقال محي الدين الدرويش في إعراب القرآن : ولذة للشاربين نعت ثان، وللشاربين : متعلق بلذة؛ لأنها مصدر بمعنى الالتذاذ ، ووقعت صفة للخمر ، ويجوز أن تكون مؤنث لذ ، ولذ : بمعنى لذيذ ، وعلى الأول لابد من تأويلها بالمشتق ، ليصح النعت بها ، على حد زيد عدل ، بمعنى عادل (إعراب القرآن ٢٠٨/٩) .

كان في الجنة الأكل للذة لا للحاجة ذكر الثمار فإنها تؤكل للذة ، بخلاف الخبز واللحم.

وقوله تعالى :﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ كقوله :﴿ورضوان من الله أكبر﴾ لأن المغفرة لا تكون إلا للمرضي عليه .

ثم قال تعالى :﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أي : هذه الجنة التي مثلها ما ذكرنا كمثل جزاء من هو خالد في النار .

﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ شديد الحر ، قيل : إذا دنوا منه شوى وجوههم فانخلعت جلدة رؤوسهم ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ وخرج من أدبارهم ، والأمعاء : هي آلات البطن التي تحمل الأغذية .

قال الهادي عليه السلام : أراد الله هل يستوي من كان في هذه الجنة ، وفي أشربتها ولذاتها ومن هو خالد في النار يسقى الحميم لا يستويان ، صدق الله تبارك وتعالى ، ولا يستوي محل أوليائه ، ولا محل أعدائه في عذاب النار ، وأشرّ قرار ، وأولياؤه في خير دار، والخمر : هي الخمر التي لا فيها غول ، والغول : فهو ما اغتال العقول ﴿ولا هم عنها ينزفون﴾[1] والنزف : فهو ما ينزل بِشُرَّابِ خمر الدنيا النجسة فينزفون من طرفيهم مشيا وقيئا ، فأخبر الله تبارك وتعالى بطهارة هذه ، وبعدها مما تفعل خمر الدنيا بأهلها.

ثم [لما] بين الله تعالى حال الكافر ذكر حال المنافق بأنه من الكفار ، فقال تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي : المنافقون كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله ليستمعوا كلامه فلا يعونه تهاونا منهم به .

﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة ﴿مَاذَا قَالَ﴾ أي : ما الذي قال ﴿آنِفًا﴾ أي : قبيلا ، أي : الساعة التي تقرب منا [2]، بمعنى أنهم يستعيدون كلامه من الابتداء كما يقول المستعيد للمعيد : أعد كلامك من الابتداء حتى

---

(١) الصافات : ٤٧ / وقد ذكرها الإمام الهادي عليه السلام هنا ، ليبين بها أوصاف خمر الآخرة ، وعدم مشابهتها لخمر الدنيا (انظر مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٥٦ .

(٢) قال في إعراب القرآن : قال في القاموس : وقال آنفا : كصاحب وكتف ، وقرئ بهما ، أي : مذ ساعة ، أي : في أول وقت يقرب منا) . كأنه يميل إلى نصبه على الظرفية . إعراب القرآن ٢١١/٩.

لا يفوتني شئ [منه]، قالوه على وجه الاستهزاء و لم يعقلوه [١].

ثم قال تعالى :﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي : ختم عليها ؛ إذ خلاها على انطباعها وتركها ، أي : خذلهم حتى صاروا كالمطبوع على قلوبهم، أي : المختوم عليها ، لعلمه أنهم لا يقبلون اللطف حيث تركوا إتباع الحق بعد وضوحه ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ بغير دليل .

ولما بين الله تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع ، ويستعيد ولا يستفيد ـــ بين أن حال المؤمن المهتدي بخلافه فقال تعالى :﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ بالتوفيق والترغيب في الطاعة ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أي : أعانهم على التقوى ، أو آتاهم جزاء تقواهم ، وقيل: بين لهم ما يتقون[٢] .

قال في البرهان : وهذه الآية في أمير المؤمنين علي عليه‌السلام ، والأئمة الراشدين من ولده زادهم هدى على اهتدائهم ؛ لأنهم علموا بما سمعوا ، وعملوا بما علموا ﴿وآتاهم تقواهم﴾ أي : ثواب ما عملوا [٣].

وقيل : معناه كانوا مهتدين فزادهم الله على الاهتداء هدى حتى ارتقوا من درجة المهتدي إلى درجة الهادين[٤] .

ويحتمل أن يقال قوله :﴿زادهم﴾إشارة إلى العلم ﴿وآتاهم تقواهم﴾ إشارة إلى الأخذ بالاحتياط فيما لم يعلموه ، وهو مستنبط من قوله تعالى :﴿فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾[٥] .

---

(١) صواب اللفظ : (أو لم يعقلوه) بأو لأن هذا وجه لتفسير آخر ، وهو أنهم قالوا ذلك لأنهم لا يعون ولا يفقهون ما يقوله لهم ، وهو يناسب قوله ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾ والأول يؤكده قوله تعالى :﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنما نحن مستهزئون) انظر الرازي ٥٨/٢٨.

(٢) قال في حاشية الشهاب ٤٦/٨ : فالإيتاء مجاز عن البيان أو الإعانة ، أو هو على حقيقته ، والتقوى مجاز عن جزائها لأنها سبب ، أو فيه مضاف مقدر . وهي على هذا مفعول ثان لآتاهم .

(٣) انظر البرهان مخطوط ٣٤٨ .

(٤) صاحب القيل : هو الرازي ، وكذلك الفقرة التي بعد هذا من الرازي . (انظر تفسير الرازي ٥٩/٢٨) .

ثم قال تعالى :﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ يعني : الكافرون والمنافقون [1] لا ينتظرون إلا الساعة، أي : القيامة .

وقوله تعالى :﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ ﴾ بدل من الساعة[2] ، أي فهل ينتظرون إلا إتيان الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ أي : مفاجأة على غفلة ، وذلك لأن البراهين قد ظهرت ، والأمور قد اتضحت، وهم لم يؤمنوا فلا يتوقع منهم الإيمان .

وقوله تعالى :﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ يحتمل وجهين أحدهما : لبيان غاية عنادهم .

وتحقيقه : هو أن الدلائل لما ظهرت و لم يؤمنوا (فُهِم) [3] لم يبق إلا إيمان اليأس وهو[4] عند قيام الساعة ، لكن أشراطها ثابت[5] وكان ينبغي أن يؤمنوا و لم يؤمنوا ، فهم في لجة الفساد وغاية العناد .

و[ثانيهما] : أن يكون لتسلية قلوب المؤمنين كأنه تعالى لما قال :﴿فهل ينظرون﴾

---

(٥) الزمر : ١٨ / يقول الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام : ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ فأخبرنا سبحانه أنه ولي المتقين ، مجانب خاذل للفاسقين ، وكذلك قال سبحانه رب العالمين :﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ يريد سبحانه أنه ولي الذين آمنوا ، والمتولي في كل الأسباب لهم ، وأنه الخاذل للكافرين ، والتارك لتأييدهم ، الرافض لتوفيقهم وتسديدهم ، ألا ترى كيف يقول ويخبر بتأييده وصنعه وتسديده ولطفه للمؤمنين ، وتخليته بين المؤمنين والكافرين ، وممن أطغاهم من الطواغيت ، والطواغيت : فهم الذين أجابوا إلى دعاتهم ، واتبعوهم في أهوائهم ، من مستجيبي الشيطان ، وأبالسة الإنس الملاعين الذين أطغوهم ، واستغووهم في الردى والطغيان ، ومنّوهم مع الإقامة على ذلك من الله الغفران ، قال الله سبحانه :﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ (الرسائل تحقيق سيف الدين الكاتب ٩٨) .

(١) الكافرون والمنافقون ، ذكرهما بالرفع ؛ لأنه تفسير لفاعل ينظرون ، أو أن الفعل (يعني) دخل على جملة : الكافرون والمنافقون لا ينتظرون ، فهي منصوبة محلا .

(٢) بدل اشتمال ، على تقدير : لا ينظرون إلا الساعة إتيانها بغتة .

(٣) في المصابيح (و لم يؤمنوا [فهم] لم يبق إلا إيمان اليأس) الخ فإذا كان هذا ضميرا ، فلا معنى له ، وإن كان فعلا من الفهم فهو يحتاج إلى زيادة [أنه] ، إلا أن يكون معناه : فهم معنى الجملة التي وليته . فلينظر في نسخة صحيحة من الرازي لأنه لا يوجد في النسخة الموجودة زيادة (فهم) (٢٨/٦٠) .

(٤) في النسخة أ : وهم عند قيام الساعة ، وما أثبتناه هو من النسخة ب .

(٥) في الرازي (بانَتْ) وفي المصابيح ثابت .

فهم منه تعذيبهم ، والساعة عند العوام مستبطأة ، فكأن قائلا قال : متى تكون الساعة ؟ فقد جاء أشراطها ، كقوله تعالى :﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ وأشراطها: علاماتها ، قيل : مبعث محمد صلى الله عليه وآله منها ؛ لأنه خاتم الأنبياء ، وانشقاق القمر ، والدخان المذكور في سورة الدخان .

وعن الكلبي : كثرة المال ، والتجارة ، وشهادة الزور ، وقطع الأرحام ، وقلة الكرام وكثرة اللئام[١] .

ثم قال تعالى :﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ أي : فكيف لهم بذكراهم ، أي : توبتهم واتعاظهم إذا جاءهم ، لا تنفعهم الذكرى حينئذ لأجل الإلجاء .

ثم قال تعالى :﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ معناه : قد ذكر ما ذكر من سعادة هؤلاء ، وشقاوة هؤلاء ، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله ، وعلى هضم نفسك بالاستغفار من ذنبك وذنوب من على دينك[٢] .

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يستغفر في اليوم مائة مرة .

وروى الثعلبي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (من لم يكن عنده ما يتصدق به فليستغفر للمؤمنين والمؤمنات فإنها صدقة) .

ثم قال سبحانه :﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ متقلبكم في معائشكم ومتاجركم ﴿ومثواكم﴾ حيث تستقرون في منازلكم ، أو متقلبكم في حياتكم ، ومثواكم في القبور أو متقلبكم في أعمالكم ، ومثواكم من الجنة والنار ، ومثله حقيق بأن يتقي ويخشى ويستغفر[٣].

ثم قال تعالى :﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي : بألسنتهم فقط[٤] ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾بينة غير متشابهة لا تحتمل إلا وجوب القتال ﴿وَذُكِرَ فِيهَا

---

(١) ذكر هذا عن الكلبي الزمخشري في الكشاف ٣٢٣/٤.

(٢) ومثل هذه الفقرة في الكشاف باختلاف يسير (انظر الكشاف ٣٢٣/٤، ٣٢٤) .

(٣) انظر الكشاف ٣٢٤/٤ .

﴿القتال﴾ أي : أمروا فيها بما تمنوا ﴿رأيت الذين في قلوبهم مرض﴾ أي : شك ونفاق ﴿ينظرون إليك﴾ يا محمد عند تلاوتك ما نزل في الجهاد ﴿نظر المغشي عليه من الموت﴾ أي : لأجل الموت ، أي : تشخص أبصارهم جبنا وخوفا كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت .

وقيل : أراد المؤمنين المخلصين ، قال في البرهان : كان المؤمنون إذا تأخر نزول القرآن اشتاقوا إليه وتمنوه ليعلموا أوامر الله عز وجل فيهم ، وتعبده لهم ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة﴾ يعني : التي أحكمت بالحلال والحرام ، والأمر فيها بالجهاد ﴿رأيت الذين في قلوبهم مرض[ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت]﴾ أي : أن المنافقين إذا رأوا سورة فيها ذكر القتال قد نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نظروا إليه نظر المغشي غما بها وجزعا منها [1].

ثم قال تعالى :﴿ فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ﴾ يعني : فأولى بهم طاعة ﴿وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ من أن يجزعوا عند فرض الجهاد عليهم ، فالطاعة في طاعة الله عز وجل ، وطاعة رسوله ، وطاعة أولي الأمر من ولده فيما أمره الله عز وجل به ، ونهي عنه .

﴿وقول معروف﴾ هو الصدق . اهـ

قال في التجريد : وهو متصل بقوله :﴿فأولى لهم﴾ معناه الإخبار بأن الطاعة أولى لهم و(أولى) على هذا بمعنى أحق ، وقيل : ﴿فأولى لهم﴾ وعيد بمعنى فويل لهم ، وهو أفعل من الوَلْيُ وهو القرب[2] ومعناه : الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه ، وقوله : ﴿طاعة﴾

---

(٤) تعليل لإطلاق لفظ الإيمان على الذين في قلوبهم مرض . والوجه الثاني :هو ما ذكره المصنف من إطلاقه على المؤمنين حقا حيث يقولون استباقا للوحي وحرصا على الجهاد : لولا نزلت سورة بأمر الجهاد ، فالمؤمنون يبادرون إلى الجهاد والعمل بما أمروا ، والمنافقون الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظرا المغشي عليه من الموت هلعا وجبنا .

(١) انظر البرهان خ ٣٤٨ ، وفيه (نظروا إليها نظر المغشي) وفي المصابيح (إليه) وهو المناسب للفظ الآية . وما بين قوسي الزيادة من الآية القرآنية ثابت في البرهان .

(٢) قال الشهاب في حاشيته : والأكثر على أنه اسم تفضيل من الولي بمعنى القرب ، وقال أبو علي : إنه اسم تفضيل من الويل ، والأصل أويل ، فقلب فوزنه أفلع ، ورد بأن الويل غير متصرف ، وأن القلب خلاف الأصل ، وفيه نظر ،

على هذا كلام مبتدأ ، أي : طاعة لله ولرسوله وقول معروف خير لهم .

وقيل : هو حكاية قولهم ، أي : قالوا أمرنا طاعة وقول معروف ، ويشهد له قراءة أُبَيٍّ (يقولون طاعة وقول معروف) أرادوا أنهم لا يفعلون إلا الطاعة ، ولا يقولون إلا المعروف ، أي : الحسن[1] .

وقوله تعالى :﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ جوابه محذوف تقديره : فإذا عزم الأمر خالفوا وتخلفوا ، وهو مناسب لقراءة أبي ، كأنه يقول في أول الأمر قالوا : سمعا وطاعة ، وعند آخر الأمر خالفوا ، وأخلفوا موعدهم ، ونسبة العزم إلى الأمر والعزم لصاحب الأمر مجاز، كقولنا : جاء الأمر[2] .

قال في البرهان : ﴿فإذا عزم الأمر﴾ يعني : جد الأمر في القتال . اهـ

والعزم والجد لأصحاب الأمر ، وإنما يسندان إلى الأمر مجازا ، ومنه قوله :﴿إن ذلك

وقد قيل : إنه أفعل فعلى من آل يؤول كما سيأتي ، وقال الرضي : إنه علم للوعيد ، وهو مبتدأ لهم خبره ، وقد سمع فيه أولاة بتاء تأنيث ، وهو كما قيل : يدل على أنه ليس بأفعل تفضيل ، ولا أفعل فعلى ، وأنه علم ، وليس بفعل ، بل مثل أرمل وأرملة ، إذا سمي بهما ، فلذا لم ينصرف ، ولا اسم فعل ؛ لأنه سمع فيه أولاة معربا ، مرفوعا ، ولو كان اسم فعل بني ، وفيه أنه لا مانع من كون أولاة لفظا آخر بمعناه ، فلا يرد شئ منه عليهم أصلا ، كما جاء اول أفعل تفضيل، واسم ظرف كقبل ، وسمع فيه أولة ، كما نقله أبو حيان (حاشية الشهاب ٤٨/٨) .

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره : واختلف المفسرون في قوله :﴿طاعة وقول معروف﴾ على أقوال ثلاثة ، الأول : أنه يتصل بما قبله ، ثم اختلفوا فقيل : العقاب أو الوعيد لهم على ما ذكرنا ، وقيل : بعدا وسحقا ، وقيل : أولى بهم طاعة ، وقيل : تقديره إذا أنزلت سورة ذكر فيها القتال طاعة وقول معروف رأيت الذين في قلوبهم مرض .

وثانيها : أنه كلام مبتدأ ، ثم اختلفوا فقيل : يقول هؤلاء المنافقون عند نزول الآية : طاعة ، أي : أمرنا طاعة ، وقول معروف حسن لا ينكره السامع . وقيل : قول معروف أن يقول : سمعنا وأطعنا ، وقيل : الذي أمروا به طاعة وقول معروف عن ابن عباس ، وقيل : طاعة وقول معروف أمثل بهم ، وأولى بالحق ، وقيل : طاعة وقول معروف خير لهم من جزعهم عند فرض الجهاد ، عن الحسن وأبي علي : الطاعة خير لهم من الجبن والجزع ، وإظهار الكراهة .

وثالثها : أنه يتعلق بما بعده ، وفيه تقديم وتأخير ، تقديره : فإذا عزم الأمر فليكن طاعة ، وقول معروف . (انظر التهذيب مخطوط) .

(٢) إلى هنا مثله هذا في الرازي (٦٣/٢٨) .

من عزم الأمور﴾[1] أي : عزم أصحاب الأمور .

ثم قال تعالى :﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ يعني : بأعمالهم وواطأت قلوبهم ألسنتهم في إيمانهم ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ من نفاقهم الذي أضمروه ، وقوله :﴿فلو صدقوا﴾ جواب ﴿فإذا عزم الأمر﴾ وقيل : جواب إذا محذوف تقديره : نكلوا ، ودل عليه بقوله :﴿فلو صدقوا الله﴾ .

وقوله تعالى :﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ التفات من الله من الغيبة إلى الخطاب ، لأنه أبلغ في التوبيخ ، ومعناه : هل يتوقع منكم الإفساد في الأرض ، والاستفهام على الله لا يجوز ؛ لأنه عالم بما كان وبما يكون ، لكن المعنى : أنكم لأجل ما عرف منكم أحقاء بأن يقول لكم من ذاقكم وعرف نفاقكم :﴿هل عسيتم﴾ أي : هل يتوقع منكم ﴿إن توليتم﴾ أمور الناس وتأمّرتم عليهم ، وأعرضتم عن الإسلام إلا الفساد في الأرض بالمعاصي ، وبما يظهر من ظلمكم ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ بالقتل ، أو بمنع الحقوق تغالبا على الملك ، وتهالكا على الدنيا[2] .

---

(١)لقمان : ١٧ ومثل هذه الفقرة إلى هنا في الكشاف ٣٢٥/٤) .

(٢) ومثل هذا أيضا في الكشاف ٣٢٥/٤ . وزاد فيه (وفي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه (تُوُلِّيتُم) أي : إن تولاكم ولاة غشمة خرجتم معهم ، ومشيتم تحت لوائهم ، وأفسدتم بإفسادهم . وزاد الرازي : وقطعتم أرحامكم ، والنبي عليه السلام لا يأمركم إلا بالإصلاح ، وصلة الأرحام ، فلم تتقاعدون عن القتال ، وتتباعدون عن الضلال . (الرازي ٦٤/٢٨) .

وقال الحاكم في التهذيب : ﴿فهل عسيتم إن توليتم﴾ فيه قولان ، الأول : أعرض من الإعراض ، وهو ترك القبول ، أي : أمرتم بالطاعة فأعرضتم عنها . الثاني : من الولاية . والمعنى : هل تقدرون أنكم إذا أمرتم بالطاعة أعرضتم ، وتفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ، وعلى الوجه الثاني : هل تقدرون أنكم تتمكنون في الأرض فتفسدوا بالقتل والأسر والغارة ، وتقطعوا أرحامكم بمحاربة أقاربكم من المسلمين ، فآيسهم الله مما قدروا في أنفسهم ، وقيل : قل للمؤمنين هل تحبون أن تكونوا مثل هؤلاء المنافقين تتولوا عن الرسول ، وتفسدوا في الأرض ، وتقطعوا الأرحام ، عن أبي مسلم ، وقيل تقديره : هل تقدرون أن يخليكم الله والإفساد في الأرض وقطع الأرحام إن أردتم ذلك وتوليتم عن الرسول ، وقيل : معناه :لعلكم إن أعرضتم عن القرآن أن تفسدوا في الأرض ، وتعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الفرقة ، قال قتادة : كيف رأيتم القوم حين تولوا عن القرآن ؟ ألم يسفكوا الدم ؟وقطعوا الأرحام؟وعصوا الرحمن؟.

قال في البرهان : وهذه الآية نزلت في المنافقين .

ثم قال تعالى :﴿ أُوْلَئِكَ﴾ من يفعل ما ذكر من التولي والإفساد ، وقطع الأرحام ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى من سبق ذكرهم من المنافقين ، فأخبر سبحانه أنه أبعدهم من رحمته ؛ لإفسادهم وقطعهم أرحامهم ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ منعهم الألطاف لعلمه أنهم لا يقبلونها ، وخذلهم حتى صموا عن استماع الموعظة .

﴿وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ فلم يبصروا طريق الهدى ، والعمى عن رؤية الأدلة ، ويجوز أن يكون بمعنى : الحكم والتسمية [١].

ثم قال تعالى :﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي : يتفهمونه ويتصفحون ما فيه من الأدلة والمواعظ والوعيد حتى لا يجسروا على المعاصي .

﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : والمقفل : المهمل الذي ترك على جهله ، ولم يفتح بالعلم ، ولم يستعمل ، أي : مالهم لا يتدبرون وينظرون أهو حكمة وصواب ؟ أم هو عبث وألعاب ؟ قال القاسم بن إبراهيم عليه‌السلام :

أَلم يتدبر آية فتدله على بعض ما يأتي أم القلب مقفل [٢] اهـ

و﴿أم﴾ بمعنى بل والهمزة للتسجيل عليهم بأن قلوبهم [مقفلة] لا يتوصل إليها ذكر قال في التجريد : والمعنى إنكار أن يكون على قلوبهم أقفال تمنعها من دخول الهدى ، وهو رد لقولهم :﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ [٣] ونحوه .

---

(١) قال الحاكم في التهذيب ﴿الذين لعنهم الله﴾ أي : أبعدهم من رحمته ﴿فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ أي : لا يعون ما يسمعون ، ولا يبصرون ما به يعتبرون ، فهم بمنزلة الأصم والأعمى ، عن أبي مسلم ، وقيل : في الآخرة لا يهتدون إلى الجنة بمنزلة الأعمى في الدنيا ، عن أبي علي ، ولا يجوز حمله على أنهم صاروا صماً عمياً ؛ لأنهم لو كانوا كذلك لما ذموا على أنهم لا يسمعون ولا يبصرون ، وقيل : الصمم لا يذكر إلا في الأذن فلذلك أطلق ، والعمى يذكر مقروناً بالبصر وبالقلب وغيره ، فلذلك قرنه بالأبصار .

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول هذه السورة ، وفيه قال العالم بدلا عن (قال القاسم بن إبراهيم عليه السلام) وفي المصابيح (ألم يتدبروا آية فتدلهم) وفي تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام ما أثبتناه هنا

(٣) فصلت : ٥ .

وقيل : ﴿أم﴾ بمعنى : بل ، والمعنى إثبات الأقفال على قلوبهم ، وهو نحو الطبع والختم . اهـ

ونَكَّرَ القلوب ؛ لأنه أراد على قلوب قاسية شديدة القسوة ، وأضاف الأقفال إليها لأنه أراد الأقفال المختصة بها ، وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح ، والأقفال استعارة لانغلاق القلب عن معرفة الإسلام [١].

ثم قال تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ إشارة إلى جماعة منعهم حب الرئاسة عن إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وكانوا يعلمون أنه الحق ، قالوا : وفيهم قولان أحدهما : أنهم المنافقون ، عن ابن عباس ، والسدي ، والثاني : أنهم اليهود ، قاله قتادة ومجاهد .

والصحيح الذي عليه آل محمد صلوات الله عليه وعليهم ما ذكره في البرهان : [وهذه] الآية في كل من رفض الهداة من آل الرسول عليهم السلام من بعد ما بان لهم أنهم أهل الحق المأمور بإتباعهم ونصرتهم وطاعتهم [٢].

والهدى : هو الإسلام وصحته ، ومن قال : نزلت في اليهود قال : الهدى صفة محمد في كتابهم ونعته [٣].

ومعنى ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي : زين لهم الخطأ ، وسهل لهم ركوب العظائم من السَّوَلِ ، وهو الاسترخاء في المفاصل ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ في الآمال والأماني [٤].

---

(١) وزاد الزمخشري ، وجها آخر في تنكير القلوب ، وهو أن يكون المراد من التنكير التبعيض ، قال الرازي : لأن النكرة لا تعم ، فقال : أو يراد على بعض القلوب ، وهي قلوب المنافقين . انظر الكشاف ٣٢٦/٤. والرازي ٦٣/٢٨ وقال في التهذيب : ﴿أم على قلوب أقفالها﴾ قيل : أم بمعنى الاستفهام ، أي : على قلوب أقفال تمنعهم عن الإيمان ، وقيل : أم بمعنى بل ، أي : بل على قلوبهم أقفال ، والأول إنكار ، أي : ليس على قلوبهم ما يمنعهم من الإيمان ، والثاني : بل في قلوبهم من الكفر والإلف والعادة ما يمنعهم من الإيمان .

(٢) انظر البرهان خ ٣٤٨ . وما بين قوسي الزيادة منه .

(٣) والقائل هو الزمخشري : قال في الكشاف ٣٢٦/٤ : فإن قلت : من هؤلاء ؟ قلت : اليهود ، كفروا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم من بعد ما تبين لهم الهدى ، وهو نعته في التوراة .

وقال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : ﴿سول لهم﴾ أي : مناهم وزين لهم [1].

ثم ابتدأ الخبر عن إملائه سبحانه لهم فقال :﴿وأملى لهم﴾ فإبليس اللعين هو المسول ، والله هو المملي، ولكنه اختصر و لم يذكر اسم الله فجاء الكلام مشتبها[2] .

﴿ذَلِكَ﴾ الارتداد ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أو : ذلك التسويل والإملاء بسبب أنهم ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ اختلف في القائلين ، فقيل : هم المنافقون ، والذين كرهوا ما نزل الله : اليهود ، وقيل : عكسه ، واختلف ما ﴿بعض

---

(٤) يقول الإمام الهادي عليه السلام في جوابه على ابن الحنفية : ألا تسمع كيف أثبت لهم الفهم بما يقال لهم ، والمعرفة بما يتلى عليهم في قوله سبحانه :﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم﴾ فأخبر الله الواحد الجليل فيما أوحى ، ونزل من التنزيل أن الهدى قد تبين لهم ، وصح لديهم ، وثبت في قلوبهم ، ولولا سلامة القلوب من الختم الذي يذهب إليه الجاهلون ، ويقول به على الله سبحانه الظالمون ، لم يثبت أبدا في قلوبهم الهدى ، ولو لم يثبت لم يبن ، ثم أخبر الله ما سبب ارتدادهم في الطغيان ومعصيتهم ، من بعد أن بين لهم ذلك الرحمن ، فقال :﴿الشيطان سول لهم وأملى لهم﴾ و لم يقل : الرحمن ردهم وأضلهم ، ثم أخبر بالسبب الذي كان عنهم فتمكن ، إذ قالوا الشيطان منهم ، فقال سبحانه :﴿ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر ، والله يعلم إسرارهم﴾ ثم أخبر بما يصيرون إليه عند موتهم ، من ضرب الملائكة لوجوههم وأدبارهم ، فقال :﴿فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ ثم أخبر لم فعل ذلك بهم ، وحتم عليهم بضرب الملائكة لوجوههم وأدبارهم فقال :﴿ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾ ثم قال :﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾ أفيظن أحد ممن وهب لبا وتمييزا وعلما أن الله سبحانه أوجب ما أوجب عليهم ، وذكر ما ذكره عنهم ، وأمرهم بالسير في الأرضين ، والنظر في آثار الأولين ممن هلك بما هم عليه من الكفران ، وبما يختارونه من الفجور والعصيان ، و لم يجعل لهم إلى ذلك سبيلا ، ويركب إليهم فيه دليلا ، وهم لا يقدرون على ذلك لما قد فعله بهم من الختم ، على أسماعهم وأبصارهم ، والطبع على قلوبهم ، التي بها يعقلون ، وبسلامتها يميزون ويفهمون ،كذب العادلون بالله ، والقائلون الزور على الله ، بل سلم ذلك لهم ووفره ؛ لإكمال الحجة عليهم ، ثم أمرهم بالتسديد وما ربك بظلام للعبيد(رسائل العدل والتوحيد تحقيق سيف الدين الكاتب ٨٨) .

(١) انظر تفسيره أول هذه السورة : وقال الحاكم في تهذيبه : ﴿الشيطان سول لهم﴾ قيل : زين لهم من أفعالهم ما وافق هواهم ، وأعطاهم سولهم وقبلوا منه ، أي : دعاهم الشيطان إلى ما يريدون ووافق دعاؤه مرادهم وسؤلهم وأمنيتهم عن أبي مسلم ، وقيل : سهل لهم وأملى لهم ، وقيل : أوهمهم طول العمر مع الأمن من المكاره ، وأبعد لهم في الأمل والأمنية ، وقيل : بسط لهم آمالا فاغتروا بها ، واتكلوا عليها ، وقيل : الله أملى لهم ، أي : مد لهم حتى اغتروا .

(٢) انظر الرازي ٦٦/٢٨ ، ويشهد لهذا قراءة من قرأ :(وأُمْلِيَ لهم) بفتح الياء ، وضم الهمزة على البناء للمفعول .

الأمر﴾ ؟ فقيل : التكذيب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أو ترك نصرته .

وقيل : هو قولهم ﴿لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا﴾ [1] الآية .

ومن قال : القائلون هم اليهود ، فبعض الأمر إخفاء صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قاله الزجاج .

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ لأنهم قالوا ذلك ، فأفشى الله سرهم ، وأظهره لنبيئه صلى الله عليه وآله وسلم

وقال في البرهان : هو قول اليهود للمنافقين : سنطيعكم في كتم ما علمناه من نبوءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقول المنافقين لليهود : سنطيعكم في تخلفنا عن الجهاد مع محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿والله يعلم أسرارهم﴾ أي : ما أسر بعضهم إلى بعض من هذا القول .اهـ

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي : فكيف يعملون وما حيلتهم عند الموت !؟ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ كما قال الله تعالى : ﴿والله يعلم إسرارهم﴾ قال : فهب أنهم يسرون والله لا يظهره اليوم فكيف يبقى مخفيا وقت وفاتهم !؟ وكيف يعملون !؟ وما حيلتهم وحالهم عند الموت ، إذا ضرب في وجوههم وأدبارهم !؟.

قيل : لا تتوفى الملائكة أحدا على معصية إلا تضرب في وجهه وفي دبره [2].

وقال في البرهان : يعني يضربون وجوههم في القتال نصرة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند الطلب ، وأدبارهم عند الهرب .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ إشارة إلى التوفي المذكور ، وقيل : ﴿ذلك﴾ أي : الضرب بسبب أنهم ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ من كتمان نعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ الإيمان برسوله .

---

(١) الحشر : ١١ .

(٢) في الكشاف ٣٢٧/٤ : وعن ابن عباس رضي الله عنهما (لا يتوفى أحد على معصية الله إلا يضرب من الملائكة في وجهه ودبره) .

قال الرازي : إن الله تعالى ذكر أمرين ضرب الوجه ، وضرب الأدبار ، وذكر بعدهما أمرين آخرين إتباع ما أسخط الله ، وكراهة رضوانه ، فكأنه تعالى قابل الأمرين فقال : ﴿يضربون وجوههم﴾ حيث أقبلوا على سخط الله [1]، فإن المتبع للشيء متوجه إليه ، ويضربون أدبارهم ؛ لأنهم تولوا عما فيه رضى الله ، فإن الكاره للشيء يتولى عنه .

وما أسخط الله يحتمل وجوها الأول : إنكار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ورضوانه : الإقرار به والإسلام ، الثاني : الكفر [هو] ما أسخط الله ، والإيمان يرضيه يدل عليه قوله تعالى : ﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم﴾ [2] .

الثالث : ﴿ما أسخط الله﴾ تسويل الشيطان ، ورضوان الله : التعويل على البرهان والقرآن[3] .

ثم قال تعالى :﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ التي كانوا عدوها مكارم .

قال الهادي عليه السلام : إن قال قائل : ما هذه الأعمال التي أحبطها ، وهم فلم يؤمنوا فتكون لهم أعمال ؟ قيل له : هذا خبر من الله سبحانه عن فعل من مضى ممن لم يقبل الهدى ، وهو وعيد لمن بقي من أهل الدنيا ، ممن يدعي الإسلام من سائر الأنام إلى يوم الدين ، وحشر العالمين ، فأما أعمال من لم يؤمن بالله ورسوله فإنه لم تكن أمة من الأمم إلا وهي تعلم أن الله خالقها ، وخالق غيرها ، وذلك قوله :﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ [4] وكل أمة قد كانت لها أعمال ترى أنها أفضل الأديان ، من عبادة الشمس والقمر والنجوم والأوثان والأنصاب ، ومنهم من كان يعبد الملائكة المقربين ، ويزعمون أنهم يريدون بذلك التقرب إلى رب العالمين ،

(١) في المصابيح (السخط) وفي الرازي (سخط الله) .

(٢) الزمر : ٧

(٣) إلى هنا انتهى ما في الرازي ، وقد أصلحنا اللفظ منه ، وفي المصابيح حذف يسير عما في الرازي (انظر الرازي ٦٨/٢٨) .

(٤) الزخرف : ٩ .

ومنهم من كان يعبد اللات والعزى ، وهما قبتان كانتا بالطائف ونخلة ، فأخبر الله أن ذلك كله بور حابط ، وأنه بكل شئ محيط ، وإحباطه إياه هو حكمه بالبطلان والبور ، وجعله إياه هباء منثورا ، لا يُرفَعُ منه قليل ولا كثير ، فلا ينتفعوا منه وإن جهدوا فيه بحقير ولا خطير ، إذ ذلك عند الله كفر وشرك ، وأنه لا يرضى من أحد من خلقه بغير الإخلاص والإيثار ، وترك عبادة كلما كانوا دونه يعبدون ، ورفض ما كانوا يؤثرون .

فأما وعيده لمن بقي من بعد أولئك ممن يدعي الإسلام ، وينتحل دين محمد عليه السلام فقوله :﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ فأخبر أن أعمال من كان غير متق ، وكان من أهل الاجتراء والمعاصي ، وكان مقرا بالتوحيد ـ غير مقبولة ولا مرفوعة ، ومن كان عارفا بما جاء به الرسول ، قائما بفرائض ربه ، مؤديا لكل أمره ، غير مقارف للمظالم والعصيان ، ولا داخل في كبائر ما نهى عنه ذو المن والسلطان ، فإن أعماله مقبولة مرفوعة ، لا يرفع إلا ما يقبل من الأعمال ؛ لأن رفعه هو تقبله ، وتقبله هو رفعه لا فرق بينهما ، فكل ما تقبله فقد رفعه ، وكل ما رفع فقد تقبل .

وكذلك حال من كان في الأرض من أهل الملل وغيرهم ، من المجوس ونظرائهم من السامرية [1] والسودان والروم ، وغيرهم من أهل البلدان .

وقوله تعالى :﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إشارة إلى المنافقين ، وأم تستدعي جملة أخرى استفهامية إذا كانت للاستفهام ؛ لأن كلمة أم إذا كانت متصلة استفهامية تستدعي [سبق] جملة أخرى استفهامية ، يقال : أزيد في الدار أم عمرو ، وإذا كانت منقطعة لا تستدعي ذلك ، يقال : إن هذا لزيد أم عمرو ، وكما يقال : بل عمرو والمفسرون على أنها منقطعة [2].

---

(١) السامرية : هم قوم موسى الذين عبدوا العجل بعد أن صنعهم لهم السامري ، وأغواهم به ، وقد نسبوا إليه .

(٢) ومثل هذه الفقرة في الرازي بلفظها ، وما بين الأقواس من الرازي (٦٩/٢٨) وزاد فيه أيضا : ويحتمل أن يقال : إنها استفهامية ، والسابق مفهوم من قوله تعالى :﴿والله يعلم إسرارهم﴾ فكأنه تعالى قال : أحسب الذين كفروا أن لن يعلم الله إسرارهم ، أم حسب المنافقون أن لن يظهرها ، والكل قاصر ، وإنما يعلمها ويظهرها ، ويؤيد هذا أن المنقطعة لا تكاد تقع في صدر الكلام ، فلا يقال ابتداء : بل جاء زيد ، ولا أم جاء عمرو .

فقوله تعالى :﴿أم حسب﴾ إنكار لحسبانهم ، أي : بل حسب المنافقون ؛ لأن النفاق مرض في القلب ﴿أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أي : يظهر أحقادهم وعداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين ، أن يطلعهم بالوحي على ذلك ، وكانت صدورهم تغلي حنقا عليهم .

ثم قال تعالى :﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ أي : لعرفناكهم ، تقول : أريتك هذا ، أي: عرفتك إياه ، والمعنى : لدللناك عليهم بعلامة لا يخفون عليك ، وهي السيماء ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي : بتلك العلامة ، وقوله :﴿فلعرفتهم﴾ لزيادة فائدة ، وهي أن التعريف قد يطلق فلا تلزمه المعرفة ، يقال : عرَّفته فلم يعرِف ، وفهَّمتُه فلم يفهم ، فقال هاهنا :﴿فلعرفتهم﴾ يعني : عرفناهم تعريفا تعرفهم به ، إشارة إلى قوة التعريف ، واللام في قوله :﴿فلعرفتهم﴾ هي التي تقع في جزاء لو ، كما في قوله :﴿لأريناكهم﴾ أدخلت على المعرفة إشارة إلى أن المعرفة كالمرتبة على المشيئة ، كأنه قال : ولو نشاء لعرفتهم ، ليفهم أن المعرفة غير متأخرة عن التعريف ، فتفيد تأكيد التعريف ، أي : لو نشاء لعرفناك تعريفا معه المعرفة لا بعده[1] .

عن أنس (ما خفي على رسول الله صلى الله عليه وآله بعد هذه الآية شئ من المنافقين)[2] .

ثم قال :﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ في أسلوبه ، أي : لتعرفنهم في مقصدهم وقولهم ومرادهم ، وهمتهم ، قال الشاعر :

وأعرف غش المرء في لحن قوله لذي العقل قبل اليوم ما تقرع العصا[3]

أي : في مقصد قوله .

وعن ابن عباس : هو قولهم : مالنا إن أطعنا من الثواب ؟ ولا يقولون : ما علينا أن عصينا من العقاب

---

(١) ومثله في الرازي بلفظه ٦٩/٢٨ . وزاد : وأما اللام في قوله ﴿ولتعرفنهم﴾ جواب لقسم محذوف ، كأنه قال : ولتعرفنهم والله .

(٢) ذكر هذه الرواية الزمخشري في الكشاف ٣٢٧/٤ .

(٣) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول هذه السورة . في المصابيح (أي : في مقصود قولهم) وفي تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام (في مقصد قوله) وهو المناسب لقوله : لتعرفنهم في مقصدهم وقولهم .

وقيل : اللحن أن تميل كلامك من جهة إلى جهة ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية ، وقيل للمخطئ : لاحن لأنه يميل بالكلام عن الصواب [١].

قال الواحدي عن المفسرين : ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ وفحوى الكلام ومعناه ، وما يعرضون به من تهجين أمرك وأمر المسلمين ، وكان بعد هذا لا يتكلم عنده منافق إلا عرفه بكلامه ، لما نبهه الله على ذلك [٢].

واللام في قوله : ﴿ولتعرفنهم﴾ جواب لقسم محذوف ، كأنه قال : ولتعرفنهم والله ثم قال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ ظاهرها وباطنها حسنها وقبيحها ، فيجازي بحسب ذلك ، وهو وعد للمؤمنين ، وبيان لكون حالهم على خلاف حال المنافقين .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي : نختبركم في الجهاد ، أي : نفعل فعل المختبر الذي يريد أن يعلم الشيء باختباره ، أي : ننزل بكم بلايا وشدائد من التكليف حتى يوجد الإيمان أو عدمه ، وأراد بالعلم وقوع المعلوم ووجوده بحيث يتعلق به الجزاء [٣].

---

(١) وانظر الكشاف ٣٢٧/٤، ٣٢٨ . وأنشد الزمخشري قول الشاعر :

ولقد لحنت لكم لكيما تفقهوا والللحن يعرفه ذووا الألباب

قال السيد العلوي في حاشيته على الكشاف : أي أملت لكم الكلام ، وأنشد الزجاج قول الشاعر :

منطق صائب وتلحن أحيانا وخير الكلام ما كان لحنا

أي : خير الحديث ما لا يعرفه كل أحد ، إنما يعرف غرضها في أنحاء قولها ، هذا هو المراد من قول المصنف : كالتعريض والتورية .

وقال الراغب : اللحن ضرب الكلام عن سننه الجاري عليه ، إما بإزالة الإعراب والتصحيف ، وهو اللحن المذموم ، وذلك أكثر استعمالا ، وإما بإزالته عن التصريح ، وصرف معناه إلى تعريض وفحوى ، وهو محمود من حيث البلاغة ، وإياه قصد الشاعر عند أكثر الأدباء (وخير الكلام ما كان لحنا) وكذا قصد بقوله : ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ وفي الحديث (لعل بعضكم ألحن بحجته) أي : ألسن وأفصح ، وأبين كلاما ، وأقدر على الحجة . حاشية العلوي خ ص ٢٨٠ .

(٢) وفي مجمع البيان ١٣٦/٩ ، قال : أي : وتعرفهم الآن في فحوى كلامهم ومعناه ، وقصصه ومغزاه ؛ لأن كلام الإنسان يدل على ما في ضميره ، وعن أبي سعيد الخدري قال : لحن القول بغضهم علي بن أبي طالب ، وقال : وكنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ببغضهم علي بن أبي طالب ، وروي مثل ذلك عن جابر بن عبد الله ، وعن عبادة بن الصامت .

في قوله سبحانه :﴿ حتى نعلم المجاهدين منكم﴾ نعلم ﴿والصابرين﴾ علما يتعلق به الجزاء ، أي نعلم الشيء موجودا ﴿ونبلو أخباركم﴾ أي : ما يحكى عنكم وما يخبر به عن أعمالكم ؛ ليعلم حسنها من قبيحها ؛ لأن الخبر على حسب المخبر عنه ، إن حسنا فحسن ، وإن قبيحا فقبيح .

ثم قال تعالى :﴿ إن الذين كفروا﴾ قيل : هم المطعمون يوم بدر من المشركين ، وقيل : هم قريظة والنضير ﴿وصدوا عن سبيل الله﴾ امتنعوا عن دين الله ، أو منعوا غيرهم .

﴿وشاقوا الرسول﴾ أي : باينوه وقاطعوه ، والمشاقة : مأخوذة من انشقاق العصا ، حتى يبين أحد الشقين عن الآخر ولا يلائمه ، قال الشاعر:

فإلى عدو بالشقاق مباين لاعن صديق بالنفاق مداهن

فلقد يطاق دفاع شر ظاهر مالا يطاق دفاع شر باطن[1]

وقوله تعالى :﴿ من بعد ما تبين لهم الهدى﴾ أي : تبين لهم صدق محمد صلى الله عليه وآله وسلم بما في كتابهم من نعته صلى الله عليه وآله ، وإن كانوا المشركين من قريش فهو فيما جاء به من المعجزات .

وقوله تعالى :﴿ لن يضروا الله شيئا﴾ من الضر تهديد معناه : هم يظنون أن ذلك الشقاق مع الرسول ، وليس كذلك بل الشقاق مع الله ، فإن محمدا رسول الله ، ما عليه إلا البلاغ ، فإن ضروا يضروا الرسل ، لكن الله تعالى منزه عن أن يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق ، وإنما يعود ضررهم على أنفسهم ﴿وسيحبط أعمالهم﴾ أي : يبطل مكائدهم

---

(٣) قال الحاكم في تهذيبه : ﴿ولنبلونكم﴾ أي : نعاملكم معاملة المختبر بالأمر والنهي ﴿حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾ قيل : نعلم أوليائي ، وقيل :نعامله معاملة من يطلب العلم ،وقيل: حتى يتميز المعلوم ، يعني المجاهد والمخلص من غيره ، وذكر العلم وأراد المعلوم ، لأن الاختبار يراد ليعلم المعلوم ، وقيل : حتى يعلم المجاهد واقعا ، كما علمه غير واقع قبل وقوعه ، ولما كان ذلك بالتكليف صار ذلك عبارة عن البلوى ، ولا يجوز أن يحمل على أنه تعالى يعلمه في الحال ، و لم يكن عالما به ؛ لأنه تعالى عالم لذاته لم يزل ولا يزال لجميع المعلومات ، فلا يجوز عليه حدوث العلم ، ولأن الإعلام قط لا يكون لظهور العلم ، بل يكون لظهور المعلوم .

(١) من قوله :﴿وشاقوا الرسول﴾ إلى هنا مثله في تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أنظره أول هذه السورة وفيه (بل عن صديق بالنفاق مداهن) .

للإسلام ، أو التي يرجون بها الثواب ؛ لأنها مع كفرهم برسول الله باطلة . وقيل : هم رؤساء قريش .

ثم قال تعالى :﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ بتوحيده ، وامتثال أوامره ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بتصديقه .

قال الرازي : وهذا إشارة إلى العمل بعد حصول العلم ، كأنه تعالى يقول : يا أيها الذين آمنوا علمتم الحق فافعلوا الخير [1].

ثم قال تعالى :﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ الصالحة بارتكاب الكبائر .

ثم قال تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ قيل : الذين دفنوا في قليب بدر ، والظاهر العموم [2].

ثم لما بين أن عمل الكافر الذي له صورة الحسنات محبط ، وذنبه الذي هو أقبح السيئات غير مغفور ، وبين أن لا حرمة له في الدنيا ولا في الآخرة ، وقد أمر الله تعالى بطاعة الرسول بقوله :﴿وأطيعوا الرسول﴾ وأمر بالقتال [بقوله]﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ [أي] : فلا تضعفوا بعدما وجد السبب ، في الجد في الأمر والاجتهاد في الجهاد [3]ـ قال تعالى : ﴿فلا تهنوا﴾ أي : لا تضعفوا وتذلوا للعدو ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ المسالمة والموادعة أي: لا تكونوا أول من يطلبه ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ الأغلبون الأقهرون ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي : ناصركم ، أي : لا تدعوا والله معكم .

﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي : لن ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئا ، قال الشاعر :

إن تترني عن الإجارة شيئا لا تفتني عن الصراط بحقي [4]

وقيل : معناه لن يظلمكم أعمالكم [5] .

---

(١) تفسير الرازي ٧٢/٢٨ .

(٢) ومثله في الكشاف ٣٢٩/٤ .

(٣) من قوله : ثم لما بين أن عمل الكافر .. إلى هنا ، مثله بلفظه في الرازي ، وما بين الأقواس منه (الرازي ٧٢/٢٨)

(٤) ومثله في البرهان . ومعنى البيت : أنك إن حرمتني ونقصتني وظلمتني عن إجارتي شيئا ، فإنك لا تفوتني غدا عند الصراط

(٥) عن ابن عباس وقتادة ، وابن زيد والضحاك (تهذيب الحاكم الجشمي) .

قال زيد بن علي عليه‌السلام : نحن الموتورون ، ونحن طلبة الدم[١] . أي : نحن المظلومون المقتولون ، من وترت الرجل إذا قتلت له من يحب ، وأخذت ماله ، وحقيقته أفردته من ماله أو قريبه ، أو من الوتر ، وهو الفرد ، فشبه إضاعة العمل بوتر الرجل الواتر[٢].

ثم أخبر سبحانه عن صفة الدنيا وحقارتها فقال تعالى :﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ كلعب الصبيان ساعة ، ثم يتفرقون عنه ﴿وَلَهْوٌ﴾ بمعنى اللعب .

ثم قال تعالى :﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾ أي : تصدقوا ﴿وَتَتَّقُوا ﴾ الله بطاعته واجتناب معصيته ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ والإضافة للتعريف ، أي : الأجر الذي وعدكم بقوله : ﴿أجر كريم﴾[٣] و﴿أجر كبير﴾[٤] و﴿أجر عظيم﴾ [٥].

ثم قال تعالى :﴿ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي : جميعها ، بل يقتصر على ربع العشر ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ ﴿يحفكم﴾ أي : يجهدكم ، والإحفاء : المبالغة في كل شئ ، وهو هنا المبالغة في المسألة ، واشتقاقه من الحفاء ، وهو المشي بغير حذاء [٦] والأصل في ذلك الاستقصاء على الظفر حتى يحفى ، وكذلك المسألة للناس تحفيهم وتؤلمهم ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ أحقادكم على الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وعداوتكم ، أي: تضيق صدوركم لذلك ، وتظهر كراهتكم لدين يذهب بأموالكم ، وفي الضمير الفاعل لقوله :﴿ويخرج﴾ قولان : أحدهما ــ أنه الله تعالى ، والثاني : ضمير البخل ، حكاهما الفراء [٧].

---

(١) ذكره الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام في تفسيره ، وذكره الحاكم الجشمي عن مجاهد .

(٢) انظر الكشاف ٣٣٠/٤ .

(٣) يس : ١١ ، الحديد : ١١ ، الحديد : ١٨ .

(٤) هود : ١١ ، فاطر : ٧ ، الملك : ١٢ .

(٥) المائدة : ٩ ، الأنفال : ٢٨ ، التوبة : ٢٢ ، الحجرات : ٣ ، التغابن : ١٥ .

(٦) انظر البرهان . قال الحاكم في التهذيب : الإحفاء : الإلحاح في السؤال حتى ينتهي إلى مثل الحفا ، والمشي بغير حذاء ، أحفى يحفي إحفاء ، قال أبو مسلم : الإحفاء في المسألة الإلطاف ، ومنه ﴿إنه كان بي حفيا﴾ .

(٧) وانظر أيضا الكشاف ٣٣٠/٤ . قال الحاكم في التهذيب : ﴿إن يسألكموها﴾ فيه ثلاث كنايات ، أولها يسأل ، قيل : كناية عن الله تعالى ، وقيل : عن الرسول ، وثانيها : يسألكموها خطاب لمن تقدم ذكره في قوله : ﴿لا

ثم قال تعالى بياناً لما قاله :﴿ هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله﴾ في الغزو ، وقيل : هي الزكاة ، وها أنتم : هي هاء التنبيه دخلت على أنتم ، وأولاء : اسم إشارة وقيل : بمعنى الذي ، كأنه قال : هؤلاء الذين تدعون لتنفقوا في سبيل الله ﴿فمنكم من يبخل﴾ بربع العشر ، أو بالكل ، كأنه قيل : الدليل على أنه لو أحفاكم لبخلتم وكرهتم العطاء ، واضطغنتم ـــ أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر ، فمنكم ناس يبخلون به [1] .

ثم قال :﴿ ومن يبخل ﴾ بالفريضة ﴿فإنما يبخل عن نفسه﴾ لأن ضرر بخله لا يعود إلا عليه ، فلا يتعداه ضرر بخله ، يقال : بخلت عليه وعنه بمعنى واحد ، قاله في التجريد.

﴿والله الغني﴾ فهو لا يدعوكم إلى حاجة إليه ، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب، وهو معنى قوله :﴿ وأنتم الفقراء﴾ .

﴿وإن تتولوا﴾ عن طاعته من الإيمان والتقوى ﴿يستبدل قوماً غيركم﴾ يخلق سواكم على خلاف صفتكم .

وفي البرهان : هم الأنصار من اليمن [2] .

وقيل : فارس والروم [3] ﴿ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ يعني في البخل والإنفاق في سبيل الله، وفي المعصية وترك الطاعة . اهـ

يسألكم أموالكم﴾ وثالثها : كناية عن الأموال ، يعني إن عنكم مالكم فيحفكم ، أي : يلح عليكم ويلحف وقيل : يسألكم ذلك ويلطف في السؤال بأن يعد عليه لا ثواب الواجب ﴿ويخرج أضغانكم﴾ قيل : البخل يخرج أضغانكم وحقدكم وعداوتكم ، وقيل : يخرج الله تعالى المشقة التي في قلوبهم بسؤال أموالكم ، أي : يظهرها ، وقيل : السؤال يظهر أحقادكم .

(١) ومثل هذا الكلام والفقرة التي تلي هذا في الكشاف ٤/٣٣٠، ٣٣١ .

(٢) انظر البرهان خ ٣٤٩ . وقوله :(وقيل : فارس والروم) ليس من البرهان ، وما بعده من البرهان إلى قوله .اهـ .

(٣) ذكره في الكشاف عن عكرمة . ثم قال : وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن القوم ، وكان سلمان إلى جنبه ، فضرب على فخذه وقال : هذا وقومه ، والذي نفسي بيده لو كان الإسلام منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس (الكشاف ٤/٣٣١) وقال الحاكم في التهذيب : وليس في الآية بيان البدل ، واختلفوا فيه ، قيل : هم كندة والنخع عن الكلبي ، وقيل : العجم عن الحسن ، وروي ذلك مرفوعاً ، وقيل : فارس والروم عن عكرمة ، وقيل : يجوز أن يكون قوماً في المعلوم يثبتون على الإيمان والحق بدل المعرضين ، وقيل : يجوز أن تكون ملائكة ، فإنهم نصروه في

قال الرازي : وقوله :﴿ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ فيه مسألة نحوية [يتبين] منها فوائد عزيزة ، وهي أن النحاة قالوا : يجوز في المعطوف على جواب الشرط بالواو والفاء وثم ــ الجزم والرفع ، تقول : إن تأتني آتك بالجزم والرفع ، قال الله تعالى هاهنا :﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ بالجزم ، وقال في موضع آخر :﴿وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون﴾[1] بالرفع بإثبات النون ، وهو مع الجواز ففيه تدقيق ، وهو أن هاهنا لا يكون متعلقا بالتولي ؛ لأنهم إن لم يتولوا يكونون ممن يأتي بهم الله على الطاعة ، وإن تولوا لا يكونون مثلهم ، لكونهم عاصين ، وكون من يأتي بهم مطيعين ، وأما هناك سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون ، فلم يكن للتعلق هناك وجه فرفع بالابتداء ، وهاهنا جزم للتعلق [2]. اهـ

والله أعلم

وصلى الله على محمد وآله وسلم

مواطن ، وقيل : لا يكونوا في الصورة أمثالكم ، وقيل : أراد به الأنصار ، وأهل المدينة بدلا من أهل مكة ، وقد فعل ، فإنهم قاموا بنصرته في حياته ، وبعد وفاته عن الحسن ، وقيل : الإبدال مشروط بالتولي ، وحيث لم يتولوا لم يجب الاستبدال ، فهذا كقوله تعالى :﴿إن طلقكن أن يبدله أزواجا﴾ .

(١) آل عمران : ١١١ .

(٢) انظر الرازي ٧٦/٢٨ .

سورة الأحقاف

أربع وثلاثون آية في الأكثرين، وقيل: خمس في الكوفي (مكية)

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿حم﴾[1] قال الحسين بن القاسم عليه السلام: هو قسم أقسم الله به.

---

(١) وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم عليه السلام ما لفظه:

تأويل قول مولانا عز وجل ﴿حم﴾ هو قسم أقسم الله به، وسنذكر أسرار كتاب الله أن بلغنا الله ذلك، ومعنى ﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ أي: للحق؛ لأن الحكيم لم يصنع ذلك إلا للحق والصدق، ولكن الباء الزائدة قامت مقام اللام، ثم قال عطفا على الحق، وأجل مسمى، أي: ولأجل مسمى، يعني: يوم القيامة.

ومعنى ﴿أو أثارة من علم﴾ والأثارة: هي الرواية، والآثار: هي الأخبار، ومعنى ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ يريد: أن الناس إذا حشروا رجعوا يعادون آلهتهم، ويمقتون بها، ويكفرون بعبادتها، ومعنى ﴿هو أعلم بما تفيضون فيه﴾ أي: هو أعلم بما تمشون فيه، وتعملون وتلقون، وتخوضون، والإفاضة: هي العمل في الشيء، والقيام بأمره.

ومعنى ﴿ما كنت بدعا من الرسل﴾ أي: أولا، وبديا، والابتداع: هو الابتداء الذي لم تجر به العادة من قبل.

ومعنى ﴿إفك قديم﴾ أي: كذب، قال الشاعر: (هذا الحديث فقلنا الإفك والزور)

﴿ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة﴾ الإمام: هو القدوة، الذي يتبع ويقتدى به، وينتفع.

ومعنى ﴿لسانا عربيا﴾ أي: كلاما عربيا.

ومعنى ﴿حملته أمه كرها ووضعته كرها﴾ أي: مكرهة مجبورة على الحمل والولادة، وذلك إلزام لها من الله ذي الفضل والأياد

ومعنى ﴿قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك﴾ يريد: ألهمني أن أشكر على نعمتك، ولكنه اختصر قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه:

لو شكروا النعمة زادتهم مقالة الله التي قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم لا كنما كفرهم غالها

فقال صلى الله عليه: لو شكروا النعمة، ولكنه اختصر.

ومعنى :﴿ونتجاوز عن سيئاتهم﴾ فالتجاوز : هو الترك والتخلية عن حسابهم والمغفرة لما أخطأوا به من جميع أسبابهم .
ومعنى ﴿أف لكم﴾ فالتأفف معروف ، وهو المقت ، والتقزز .
ومعنى ﴿وقد خلت القرون﴾ أي : مضت وانصرمت ، قال الشاعر : (هل يرجعن لكم الزمان الخالي) أي : الماضي .
﴿وهما يستغيثان الله﴾ أي : يدعوان بالغوث ، وهو النجاة من النار ، قال المرتضى لدين الله صلوات الله عليه :

(أدي الفروض لخالقي وغياثي) أي : منقذي من الهلاك .

وإنما سمي الغيث غيثا ؛ لأنه يغيث العباد ، وينجيهم من الهلاك .
ومعنى ﴿حق عليهم﴾ أي : وقع بهم الوعيد .
ومعنى ﴿يوم يعرض الذين كفروا على النار﴾ العرض لهم على النار : هو النشر لهم فيها .
ومعنى ﴿عذاب الهون﴾ أي : عذاب الهوان ، قال الشاعر :

إنا وجدنا بلاد الله واسعة تنجي من الذل والمخزاة والهون

ومعنى قوله :﴿إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾ أي : بالرمال ، قال الشاعر : (مثل الأفاعي اهتز بالحقوف) .
ومعنى ﴿لتأفكنا عن آلهتنا﴾ أي : لتصرفنا وتعدلنا ﴿فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم﴾ يعني العذاب ، وكل ما عرض فهو عارض لاعتراضه للناظرين ، وظهوره وبيانه ، قال الشاعر :

فدع ذا وما فات من ذكرها وابعث لهم عارضا مستطيرا

قال الإمام المرتضى لدين الله عليه السلام : (أقتل القرن إذ القرن اعترض)
أي : بان للقتال وظهر ، ومعنى ﴿تدمر كل شئ بأمر ربها﴾ أي : تهلكه وتغيره .
ومعنى ﴿ولقد مكناهم﴾ أي : رزقناهم ، وأقدرناهم ، والتمكين : هو العطاء والاقتدار على الشيء ، وكل شئ قدرت عليه فهو يمكنه ، قال الشاعر : (قد أمكن العدو لمن يعدو بهم)
ومعنى ﴿فيما إن مكناكم فيه﴾ أي : فيما قد مكناكم فيه ، من أمور الدنيا ، ولذاتها ، وحطامها وشهواتها .
ومعنى ﴿وحاق بهم﴾ أي : أحاط بهم ولزمهم ، ونزل بهم ، وسمعت حيا من العرب يقولون : حقنا الأحـران مـن الثمار، حتى لم نترك بها شيئا . وهو القم في لغة أهل الحجاز ، والحوش في لغة اليمن ، يقولون : حشنا البيت حوشـا ، وسألت رجلا من أهل اللغة ، فقال : معناه الإحاطة بالشيء ، والقلع له ، وأنشد بيتا من الشعر :

تحدر من إشراق كوكب برهة فهوٌ لترب الساعدية حائق

ومعنى ﴿وصرفنا الآيات﴾ أي : بينا الآيات بالتكرير والترديد ، وهو التصريف .
ومعنى ﴿من دون الله قربانا آلهة﴾ فالقربان بزعمهم ما يتقربون به إلى الله ﴿وذلك إفكهم﴾ أي : كذبهم .
ومعنى ﴿يفترون﴾ أي : يخترعون ويخترقون من المحال .
ومعنى ﴿أنصتوا﴾ أي : أصغوا آذانكم ، وأصيخوا واسمعوا .
ومعنى ﴿فلما قضي﴾ أي : فرغ منه ، وقطع .

وقلت : وقول القاسم والهادي عليهما السلام في هذا ونحوه : إنها حروف ، وتولى الله علمها، لم يبينها لأحد من خلقه ؛ إذ ليس أمر ، ولا نهي ، ولا فرض ، ولا أمر تَعَبَّدَ به عباده فيحتاجون إلى علمه ومعرفته ، وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى بلفظه .

وقد قال المفسرون في ﴿حم﴾ : إن جعلت اسما للسورة مبتدأ ، خبره ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ﴾ ويكون الكتاب على هذا السورة [١].

وإن جعلت تعديدا للحروف كان تنزيل الكتاب مبتدأ، وصح أن يراد بالكتاب القرآن[٢]

وقوله :﴿ الْعَزِيزِ﴾ القادر على ما يشاء من تنزيل وغيره ﴿الْحَكِيمِ﴾ الذي لا يفعل إلا ما هو مصلحة وحكمة وصواب .

ومعنى ﴿يجركم من عذاب أليم﴾ أي : ينجيكم من العذاب ، ويبعدكم منه .

ومعنى ﴿كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ أي : كما صبر الرسل أولوا العزم ، على التقديم والتأخير ، و(من) زيادة وصلة ، مثل قوله عز وجل :﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ والمعنى : يغفر لكم كل ذنوبكم ، وقد توهم بعض الجهال أن من الرسل من ليس بذي عزم ، وهذا من أكبر المحال ؛ لأن الرسل كلها قد عزمت على إنفاذ أمر الله خالقها ، والعزم هو الإزماع ، والعزيمة والرحلة ، والإجماع .

ومعنى ﴿بلاغ﴾ أي : بيان بالغ كامل ، يعني القرآن ﴿فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ أي : ليس يهلك إلا القوم الكافرون .

(١) وذلك حتى يستقيم وجود رابط بين المبتدأ والخبر ، فالكتاب بمنزلة الضمير العائد على حم التي معناها هذه السورة . وقد ذكر العلوي أيضا في جعل تنزيل الكتاب خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هذا تنزيل الكتاب ، بأن هذا إشارة إلى أقرب ملفوظ ، وهو السورة (انظر حاشية العلوي تفسير سورة الزمر) .

(٢) ويكون خبره الظرف وهو (من الله) قال السيد العلوي : وإنما كان الظاهر على هذا الوجه أنه القرآن ؛ لأنه لا مخصص للسورة بالإخبار عنها ، بأنها من الله ، فيكون المراد جميع القرآن من الله .ثم قال : وأما على القراءة بالنصب ، فالظاهر أنه القرآن .

وقريب مما ذكره المصنف ماذكره الزمخشري في الكشاف ١١٠/٤ ، في تفسير سورة الزمر ، فقال : ﴿تنزيل الكتاب﴾ قرئ بالرفع على أنه مبتدأ أخبر عنه بالظرف ، أو خبر مبتدأ محذوف والجار صلة التنزيل ، كما تقول : نزل من عند الله، أو غير صلة ، كقولك : هذا الكتاب من فلان إلى فلان ، فهو على هذا خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هذا تنزيل الكتاب ، هذا من الله . .. ثم قال : فإن قلت : ما المراد بالكتاب ؟ قلت : الظاهر على الوجه الأول أنه القرآن ، وعلى الثاني : أنه السورة .

ثم قال تعالى :﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا خلقا ملتبسا بالحكمة والغرض الصحيح[1]، وهو منافع العباد في الدين والدنيا ، ويجوز أن تكون الباء للسببية[2]، قال ابن عباس : لم يخلقهما إلا للجزاء ، الثواب والعقاب .

﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي : وبتقدير أجل مسمى تنتهي إليه[3] ، وهو يوم القيامة[4]، وهذا يدل على أن إله العالم ما خلق هذا العالم ليبقى مخلدا سرمدا ، إنما خلقه ليكون دار العمل، ثم إنه سبحانه يفنيه ، ثم يعيده فيقع الجزاء في الدار الآخرة ، فعل هذا الأجل المسمى هو الوقت الذي عينه الله تعالى لإفناء الدنيا[5]

ثم قال تعالى :﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا﴾ من هول ذلك اليوم الذي لابد لكل خلق من انتهائه إليه ﴿مُعْرِضُونَ﴾ ويحتمل أن المراد مع نصب الله تعالى هذه الدلائل ، ومع إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، ومع مواظبة الرسل على الترغيب والترهيب ، والإعذار والإنذار ، بقي هؤلاء الكفار معرضين عن هذه الدلائل غير ملتفتين إليها ، وهذا يدل على وجوب النظر والاستدلال، وعلى أن الإعراض عن الدليل مذموم في الدين والدنيا[6].

واعلم أنه تعالى لما قرر هذه الأصل الدال على إثبات الإله ، وعلى إثبات كونه حكيما عادلا رحيما ، وعلى إثبات البعث والقيامة بنى عليه التفاريع ، والرد على عبدة الأصنام ، فقال تعالى :﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي : أخبروني ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ أي : تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي : بأي سبب عبدتموهم وسميتموهم شركاء لله ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي : هل لهم صنع في خلق شئ من الأرض .

---

(١) جعله المصنف هنا في موقع المصدر ؛ لأن المقترن بالحكمة وتقدير المدة هو الخلق حقيقة لا المخلوق .

(٢) فالجار والمجرور في محل نصب على الحال من الفاعل ، أو المفعول .

(٣) وقدر المصنف هنا التقدير ، بقوله :(وبتقدير أجل مسمى) لأن الخلق إنما يلتبس به ، لا بالأجل نفسه .

(٤) وزاد البيضاوي : أو كل واحد وهو آخر مدة بقائه المقدرة له (حاشية الشهاب ٢٥/٨) .

(٥) من قوله : وهذا يدل .. إلى هنا مثله بلفظه في الرازي ٣/٢٨ .

(٦) ويحتمل أن المراد مع نصب الله .. إلى هنا ، في تفسير الرازي مثله بلفظه (٣/٢٨) والوجه الأول ،وهو قوله : من هول .. مثله في الكشاف (٢٩٤/٤) .

قال في البرهان : و لم يقل : [ماذا]خلقت ، ولا خلقن ، لأنه إنما أراد الأصنام فجعل فعلهم كفعل الناس وأشباههم ؛ لأن الأصنام تعبد وتعظم كما يعظم الأمراء وأشباههم ، فذهب بها إلى مثل الناس ، وهي في قراءة ابن مسعود (أفرأيتم من تدعون من دون الله) فجعلها من ، فهذا تصريح بشبه الناس في الاسم والفعل [1] . اهـ

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ التي لا يمسكها إلا قدرته ، أي : أبل لهم شرك فيها ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ القرآن ، يشهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير الله ، يعني أن القرآن وجميع ما تقدم من الكتب ناطقة بتوحيد الله ﴿أَوْ أَثَارَةٍ﴾ أي : بقية ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ بقيت من علوم الأولين ، يقال : ناقة ذات أثارة ، أي : بقية من شحم ، قاله ابن قتيبة [2] .

---

(١) هذا تعليل لمجيء ضمير الجمع العقلاء كناية عن الأصنام ، وهي التي لا عقل لها . (البرهان خ ٣٤٥) .

(٢) في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليهما السلام من تفسيره لهذه السورة ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام في قوله تعالى :﴿أو أثارة من علم﴾ معناه : بقية من علم ، وقال : هو الخط في الأرض ، فكان علم نبي من الأنبياء فيما خلا .

وقوله تعالى :﴿قل ما كنت بدعا من الرسل﴾ معناه : ما كنت أولهم .

وقوله تعالى :﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ معناه : في الدنيا .

وقوله تعالى :﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام : فالحمل : ستة أشهر ، وهو أقله ، والفصال والفطام في الحولين ، وأكثر الحمل سنتان .

وقوله تعالى :﴿حتى إذا بلغ أشده﴾ معناه : ثلاثة وثلاثين سنة ، واستوى : أي : بلغ أربعين سنة .

وللإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليهما الصلاة والسلام قول ثان : أن يبلغ الحلم ، إذا كتب على الإنسان الحسنات والسيئات .

وقوله تعالى :﴿أوزعني﴾ معناه : ألهمني .

وقوله تعالى :﴿أنذر قومه بالأحقاف﴾ فالأحقاف : بلاد رمل باليمن ، واحدها : حقف .

وقوله تعالى :﴿لتأفكنا﴾ معناه : لتصرفنا .

وقوله تعالى :﴿هذا عارض ممطرنا﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام : فالعارض : السحاب الذي يرى في ناحية من نواحي السماء بالعشي ، ثم يصبح وقد جثا حتى استوى .

وقال المبرد : يريد ما يؤثر من علم الأولين ، أي : يروى ، والآثار : هي الرواية ، والآثار : هي الأخبار

وقرئ شاذا (أَثَرَة) بوزن شجرة[1] ، أي : من شئ أوثرتم به ، وخصصتم من علم لا إحاطة لغيركم به ، وقرئ (أثرة) بالحركات الثلاث في الهمزة مع سكون الثاء في الشاذ أيضا ، فمكسور الهمزة بمعنى الأثرة مفتوحة الثاء ، ومفتوحة الهمزة[2]: المرّة ، من مصدر: أثر الحديث إذا روي ، ومضمومها : اسم ما يؤثر كالخطبة اسم لما يخطب به ، ذكره في التجريد[3] .

وجواب قوله تعالى :﴿ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أي : إن كنتم صادقين في أنكم على حق فأتوني بذلك .

ثم لما بين تعالى أن القول بعبادة الأصنام قول باطل ، من حيث أنها لا قدرة لها البتة على الخلق والفعل والإيجاد والإعدام ، والنفع والضر ــ أردفه بدليل آخر يدل على

وقوله تعالى :﴿وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام : بلغني أنهم كانوا تسعة ، أحدهم زوبعة ، أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ببطن نخلة ، وهو قائم يصلي ، فاستمعوا القراءة .

وقوله تعالى :﴿فلما حضروه قالوا أنصتوا﴾ معناه : قالوا : صه .

وقوله تعالى :﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ معناه : أولوا العزم أربعة : نوح وإبراهيم ، وهود ومحمد ، عليهم السلام ، وقيل : كان لوط ، وشعيب ، وهود انظر أيضا الكشاف ٤/٢٩٥ .

(١) ذكرها الحاكم الجشمي فقال : وعن علي بن أبي طالب (أو أثرة) بفتح الهمزة .

(٢) أي : (الأَثَرَة) .

(٣) وانظر الكشاف أيضا ٤/٢٩٥ . قال الحاكم الجشمي في تهذيبه :﴿أو أثارة من علم﴾ قيل : خبر عن الأنبياء عليهم السلام عن عكرمة ، ومقاتل ، وأبي علي ، وقيل : بكتاب منزل من السماء ، أو أثارة من علم من تقدم من الأمم والأنبياء تنسبون إليه ذلك ، عن أبي بكر بن عياش ، وأبي مسلم ، وقيل : خاصة من علم أوثرتم به عن سلمة ابن عبد الرحمن ، وقتادة ، وميمون بن مهران ، وقيل : إسناد تذكرونه عن القرظي ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما تزعمونه ، فهاتوا إحدى هذه الثلاث ، أولها : دليل العقل ، كتعلق الفعل بالفاعل ، فهل هلم خلق يدل عليهم ، الثاني : الكتاب ، فهل كتاب منزل يدل على ما قلتم ، والثالث : الأخبار المتواترة ، فهل معكم ذلك ، فإذا لم يكن من ذلك شئ فهو باطل (انظر تفسير الحاكم التهذيب خ) .

بطلان ذلك المذهب فقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ لأنه جماد لا قدرة له على الاستجابة ما دامت الدنيا ، والدعاء إن كان بمعنى العبادة ، فالاستجابة بمعنى الثواب ، وإن كان بمعنى النداء فالاستجابة بمعنى التلبية والاستفهام لإنكار أن يكون في الضُّلَّال كلهم أبلغ ضلالا ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له ، ويترك دعاء السميع المجيب القادر على تحصيل كل بغية .

وقوله :﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يحتمل أن يريد به التأبيد ، ويحتمل أنهم يستجيبون لهم يوم القيامة باللعن والتبري ، ذكره في التجريد وغيره [١].

وقوله تعالى :﴿ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ وإنما أسند إليهم ما يسند إلى العقلاء [٢] من الاستجابة لوصفهم إياهم بالتميز ، ولو كان جهلا ؛ لأنهم لما عبدوها ، ونزلوها منزلة من ينفع ويضر ـ صح أن يقال فيها : [إنها] بمنزلة الغافل الذي لا يسمع ولا يجيب .

أو يريد كل معبود من دون الله تعالى ، وفيهم العقلاء ، وغُلِّبوا على من لا يعقل [٣] .

ثم قال تعالى :﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ أي : جمعوا في الآخرة ﴿ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴾ أي: كانت الأوثان للمشركين أعداء ﴿وَكَانُوا ﴾ يعني المشركين ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي : بعبادة الأصنام ﴿كَافِرِينَ﴾ يريد أن الناس إذا حشروا رجعوا يعادون آلهتهم ، ويمقتونها ، ويكفرون بعبادتها .

---

(١) اقتصر في الكشاف على الوجه الأول ، وأن المراد به التأبيد ، وذكر هذا أيضا السيد العلوي في حاشيته ، وابن المنير في الانتصاف فقال : وفي قوله :﴿إلى يوم القيامة﴾ نكتة حسنة ، وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة ، ومن شأن الغاية انتهاء المغيا عندها ، لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية ، لأنهم في القيامة أيضا لا يستجيبون لهم ، فالوجه ـ والله أعلم ـ أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها وإن وافق ما قبلها ؛ إلا أنه أريد منه زيادة بينة تلحق بالثاني ، حتى كأن الحالتين وإن كانتا نوعا واحدا لتفاوت ما بينهما كالشيء وضده ، وذلك أن الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة لا تزيد على عدم الاستجابة ، والحالة الثانية التي في القيامة زادت على عدم الاستجابة بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم ، فهو من وادي ما تقدم آنفا في سورة الزخرف في قوله :﴿بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾ . الكشاف ٢٩٥/٤ .

(٢) وذلك بقوله :﴿ومن ... وهم﴾

(٣) انظر تفسير الرازي ٦/٢٨ . والكشاف ٢٩٥/٤ ، ٢٩٦ .

واعلم أنه تعالى لما تكلم في تقرير التوحيد، ونفي الأضداد والأنداد ــ تكلم في النبؤة، وبين أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم كلما عرض عليهم نوعا من أنواع المعجزات زعموا أنه سحر، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ المتلو عليهم، أي: لأجل الحق، وهو الآيات[1] ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أراد أنهم بادؤه بالجحود أول ما سمعوه قبل التدبر لصحته، وسموه سحرا مبينا، أي: ظاهر أمره في البطلان.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي: بل يقولون ﴿افْتَرَاهُ﴾ أي: الحق، الذي هو الآيات، أي: كذبه على الله، وهذا إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا إلى ذكر قولهم: إن محمدا افتراه، ومعنى الهمزة في أم الإنكار والتعجب[2].

ثم إنه تعالى بين بطلان شبههم فقال: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ على سبيل الفرض عاجلني بعقوبة ذلك الافتراء ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: فلا تقدرون على كفه عن معاجلتي، فكيف أتعرض لعقابه بالافتراء.

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: بما تندفعون فيه من العيب والقدح في وحي الله، وتسمية آياته سحرا تارة، وفرية أخرى ﴿كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالصدق [والبلاغ]، ويشهد عليكم بالكذب والجحود، ومعنى ذكر العلم والشهادة ــ الوعيد بجزاء إفاضتهم[3].

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ قيل: هو وعيد أيضا، بمعنى أنكم تستحقون تعجيل العقوبة لولا أنه غفور رحيم، فأخر عقوبتكم، وقيل: موعدة بالغفران والرحمة

---

(١) قال الشهاب في حاشيته(٢٧/٨): يعني أن اللام متعلقة بقال، لا على أنها لام التبليغ، بل لام العلة، وما يقال في أمره وشأنه فهو مسوق لأجله، وأما تعلقه بكفروا، واللام بمعنى الباء، أو حمل على نقيضه وهو الإيمان، فإنه يتعدى بها نحو ﴿أنؤمن لك﴾ فبعيد عن السياق بمراحل، ومخالف للظاهر.

(٢) قال السيد العلوي في حاشيته على الكشاف: هذا الإضراب مثل الغاية السابقة، لكون ما بعده أزيد مما قبله، فنزل لزيادته عليه كالمنافي له، إذ تكذيب الآيات أبلغ من قوله: إنها سحر.

(٣) انظر الكشاف ٢٩٦/٤، ٢٩٧، وتفسير الرازي ٦/٢٨، والبيضاوي (حاشية الشهاب ٢٨/٨).

إن تابوا عن الكفر وآمنوا .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم طعنوا في كون القرآن معجزا بأن قالوا : إنه يختلقه من عند نفسه ، ثم ينسبه إلى أنه كلام الله تعالى على سبيل الفرية ـــ حكى عنهم نوعا آخر من الشبهات ، وهو أنهم كانوا يقترحون منه معجزات عجيبة قاهرة ، ويطالبونه بأن يخبرهم عن المغيبات ، فأجاب الله تعالى عنه قال :﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ فتستنكرون ما أتيت به ، وتستعظمون ما نطقت به ، هي سبل الرسل كلما أتيت ، وإلى ما دعت به من طاعة [الله] ، يقول :[ما أتيت بغير] ما أتت به الرسل من الدعاء إلى الله وإلى حقه ذكره الهادي عليه‌السلام[1] ، فمعنى ﴿ما كنت بدعا من الرسل﴾ أي: ما كنت أولهم ، فلا ينبغي أن تنكروا إخباري بأني رسول الله إليكم ، ولا تنكروا دعائي لكم إلى التوحيد ، ونفي الشريك ، فإن كل الرسل إنما بعثوا بهذه الطريق .

وقيل : ما كنت بدعا من الرسل فأخبركم بكل ما تسألون عنه من المغيبات ، فإن الرسل قبلي لم يكونوا يخبرون إلا بما يوحى إليهم ، لا بكلما يُسْألُونَ عنه ، وأنا مثلهم .

ومعنى ﴿بدعا﴾ بديعا ، أي : أولا ، والبدع والبديع من كل شئ : المبتدأ الذي لم تجر به العادة من قبله ، وقيل : إنهم كانوا يعيبونه بأنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وبأنه فقير ، وبأن أتباعه فقراء ، فقال :﴿قل ما كنت بدعا من الرسل﴾ فكلهم كانوا على هذه الصفة وبهذه المثابة ، فهذه الأشياء لا تقدح في نبؤتي كما لا تقدح في نبوتهم

ثم قال تعالى :﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ في مستقبل الزمان .

قال الهادي عليه‌السلام : يقول من موت ولا حياة ولا خير ولا شر في الدنيا ، إذ لست أعلم الغيب ، وما يعلم الغيب إلا الله [﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ يعني : أني لا أقول

---

(١) قال في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام : وسألت عن قول الله سبحانه وتعالى :﴿قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي ، وما أنا إلا نذير مبين﴾ قال : يقول : ما أتيت بغير ما أتت به الرسل من الدعاء إلى الله ، وإلى حقه ، ومعنى ﴿بدعا من الرسل﴾ فهو فتستنكرون ما أتيت به ، وتستعظمون ما نطقت به ، هي سبل الرسل كلما أتيت ، وإلى ما دعت به من طاعة الله .

في المصابيح (وإلى ما دعت به من طاعة الرسل) والصواب ما في المجموع .

قولا ، ولا أعمل عملا إلا بمقتضى الوحي] ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ يقول : منذر لكم أنذركم ما أمرت به ﴿مُبِينٌ﴾[أي : موضح الإنذار] يقول : مبين بقولي ، مظهر لما أتيت به إليكم [بالمعجزات] من ربي[1] .

ثم قال تعالى :﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أي : اخبروني ﴿إِنْ كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ جواب الشرط المحذوف ، قال الهادي عليه‌السلام : [هذا كلام تحته ضمير][2] يريد قل : إن كان من عند الله وكفرتم به ألستم متعرضين للنقمة أن تنزل بكم .

وأما قوله تعالى :﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فقال الهادي عليه‌السلام : فالشهادة التي هي مثل هذه التي شهد بها شاهد بني إسرائيل [فهي الشهادة] [3] التي شهد بها مؤمن آل فرعون ، مثل هذه الآية وضميرها سواء سواء ، وهو قوله :﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه﴾ إلى قوله :﴿مسرف كذاب﴾ فشهد بأنه إن كان موسى صادقا أصابهم بعض ما يعدهم به موسى من النقم ، من تكذيبهم بآيات الله .

ومعنى ﴿عَلَى مِثْلِهِ﴾ يريد على مثل الآية الأولة ، وضميره على أن من كذب بآيات الله ورسله نزل به من الله تعالى ما نزل بغيره من النقم المهلكات ، والآفات المتتابعات [4]. اهـ

قال بعض المفسرين[5] في قوله تعالى :﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل﴾ : إنه ليس المراد منه شخصا معينا ، بل المراد منه أن ذكر محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم موجود في التوراة ، والبشارة بمقدمه حاصلة فيها ، فتقدير الكلام : ولو أن رجلا منصفا عارفا بالتوراة أقر

---

(١) انظر مجموع تفسير الأئمة ٤٥٥، وما بين أقواس الزيادة ليست موجودة في تفسير الأئمة ، وهي موجودة في المصابيح ، وقد أصلحنا اللفظ من المجموع

(٢) ما بين القوسين في المجموع .

(٣) ما بين القوسين من المجموع .

(٤) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٥٥ .

(٥) هو الشعبي ومسروق ، وجماعة آخرون ، أنكروا أن يكون الشاهد المذكور في هذه الآية هو عبد الله بن سلام ، قالوا : لأن إسلامه كان بالمدينة ، قبل وفاة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بعامين ، وهذه السورة مكية ، فكيف يمكن حمل هذه الآية المكية على واقعة حدثت في آخر عهد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بالمدينة ، وأجاب الكلبي بأن السورة مكية إلا هذه الآية ، فإنها مدنية ، وإن الله تعالى أمر رسوله

بذلك واعترف به ، ثم [إنه] آمن بمحمد [صلى الله عليه وآله وسلم وأنكرتم] ألستم ظالمين لأنفسكم ؟ ضالين عن الحق ؟ فهذا الكلام متقرر سواء كان المراد بذلك الشاهد شخصا معينا ، أو لم يكن كذلك ؛ لأن المقصود من هذا الكلام أنه ثبت بالمعجزات القاهرة ، أن هذا الكتاب من عند الله ، وثبت أن التوراة مشتملة على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومع هذين الأمرين كيف يليق بالعاقل إنكار نبوته[1] .

وقوله تعالى :﴿على مثله﴾ ذكروا فيه وجوها ، والأقرب أنه نقول : كأنه عليه السلام قال لهم : أرأيتم إن كان [هذا] القرآن من عند الله ، كما أقول ، وشهد شاهد من بني إسرائيل على [مثل] ما قلت ﴿فآمن واستكبرتم﴾ ألستم كنتم ظالمين أنفسكم ؟ .

وقيل : ﴿على مثله﴾ أي : مثل القرآن[2] ، وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة لمعاني القرآن من التوحيد والوعد والوعيد ، والشاهد عبد الله بن سلام ﴿واستكبرتم﴾ عن الإيمان بما آمن به .

لما قدم صلى الله عليه وآله وسلم المدينة نظر عبد الله في وجهه ، فعلم أنه النبي المنتظر بما يجد ، وسأله عن مسائل ، وقال : لا يعلمهن إلا نبي ، فأجابه صلى الله عليه وآله وسلم عنهن ، فقال : أشهد أنك رسول الله ، وقيل : الشاهد موسى ؛ لأن الآية مكية ، وإسلام ابن سلام في المدينة .

وقوله :﴿على مثله﴾ هو التوراة ﴿[فَآمَنَ] وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم يا معشر العرب أن تؤمنوا بمحمد والقرآن ، وأجيب عن ذلك بأن السورة مكية إلا هذه الآية فإنها مدنية ، وكانت الآية تنزل فيؤمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يضعها في سورة كذا ، فهذه الآية نزلت بالمدينة ، وأن الله أمر رسوله بأن يضعها في هذه السورة المكية في هذا الموضع المعين منها . والله أعلم

ولما كان هؤلاء المستكبرون [3] لا يقبلون الهداية قال عز وجل :﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ولا يحكم لهم بالهدى ، أو لا يسميهم به .

صلى الله عليه وآله وسلم بأن يضعها في هذه السورة المكية ، في هذا الموضع المعين .(تفسير الرازي ٢٨/١٠) .

(١) انظر تفسير الرازي ٢٨/١٠ . وكذلك الفقرة التي تلي هذه .

(٢) في الكشاف ٤/٢٩٩ : (أي : مثل القرآن في المعنى .. إلى قوله والوعيد) .

ثم قال تعالى :﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كفار مكة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي : لأجلهم ، لا أنهم خاطبوهم ، وإنما خطاب بعضهم مع بعض بدليل قوله :﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ بالغيبة ؛ لأنه قد يحكى اللفظ والمعنى ، فجاء هذا على حكاية المعنى ، قالوا : عامة أتباع محمد هؤلاء السقاط ، يعنون الفقراء ، كصهيب وابن عمار وابن مسعود ، ولو كان ما دعا إليه محمد خيرا ما سبقنا إليه هؤلاء ؛ لأنا أعز وأفضل [1].

وقيل : القائلون اليهود ، ومرادهم لو كان خيرا ما سبقونا إليه ؛ لأنا نعلم وهم أميون .

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ ﴿وإذ﴾ الذي هو الظرف متعلق بمحذوف ، أي : حين لم يهتدوا بالقرآن ظهر عنادهم [2] ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي : كذب متقدم ، أخذه عن غيره ، وقيل: يعنون أساطير الأولين ، ثم رد الله عليهم بقوله :﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ أي : القرآن ، أوالمرسل

---

(٣) في النسختين أ و ب (ولما كان هؤلاء المستكبرين) ولما كانت المستكبرون بدلا من هؤلاء وهو اسم كان فهي مرفوعة ، وخبر كان هو قوله :(لا يقبلون الهداية) فقد أبدلنا اللفظ المنصوب بالمرفوع .

(١) قال الشهاب ٢٩/٨ : وقوله : لأجلهم ، فاللام ليست لام المشافهة والتبليغ ، وإلا لقيل : ما سبقتمونا ، وليس من مواطن الالتفات ، وكونهم قصدوا تحقيرهم بالغيبة لا وجه له . قلت : وفي هذا رد على الرازي لما ذهب إليه من هذه الأوجه .

(٢) قال السيد العلوي : أراد من الظروف اللازمة للإضافة إلى الجمل ، وقد أضيفت إلى قوله :﴿لم يهتدوا﴾ فلا تعمل فيها ، وكذا لا يعمل فيها ﴿فسيقولون﴾ لأن إذ للمضي ، وهو للاستقبال ، وأيضا الفاء في ﴿فسيقولون﴾ يقتضي سببا، وأجاب بأن العامل في إذ مقدر ، وهو السبب في فسيقولون ، والتقدير إذا لم يهتدوا ظهر عنادهم فسيقولون ، وحذف عامل الظرف جائز ، كما في قوله تعالى :﴿فلما ذهبوا به﴾ وهو : فعلوا به ما فعلوا ، أو غيره مما قدر ، وكذا في قول الناس حينئذ الآن ، أي : كان ذلك حينئذ واسمع الآن .

وقال الواحدي : إذ بمعنى إن ، والمعنى : إن لم يصيبوا الهداية بالقرآن فسيقولون : إنه كذب ، وقال بعضهم : إذ هنا بمعنى إذا ، كما في قوله :﴿فسوف يعلمون إذ الأغلال﴾ أراد أنها قد تأتي للاستقبال كإذا ، على أنه يمكن أن تؤول بالتعليلية .

وقال ابن الحاجب : يجوز أن تكون إذ متضمنة معنى الشرط ، لدلالة الفاء بعدها ، وكونها في معنى إذا ، وحسن تغييرها بها لدلالتها على تحقق ذلك ، لكونها للماضي ، ويجوز أن تكون إذ معمولا للقول ، باعتبار إرادة الاستمرار ، كما في قولهم : فلان يقري الضيف ويحمي الذمار .

وقال صاحب الانتصاف : إن لم يمنع عمل فسيقولون إلا الاستقبال فلا مانع ، لأن الاستقبال إنما جاء للإشعار بدوام ما وقع ، وأنهم حرموا به ، وقالوا : هذا إفك وأساطير ، فمعناها : وقالوا إذ لم يهتدوا به : هذا أفك قديم ، وداموا عليه ، فعبر عن الوقوع والدوام بالاستمرار . (حاشية العلوي ٢٧٥) .

به ﴿كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ التوراة ﴿كتاب موسى﴾ مبتدأ و﴿من قبله﴾ خبر مقدم عليه[١].

ومعنى قوله تعالى :﴿ إِمَامًا﴾ أي : قدوة في دين الله وشرائعه ، كما يؤتم بالإمام ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن وعمل بما فيه ، و﴿إماما ورحمة﴾ منصوبان على الحال ، وكذا ﴿لسانا عربيا﴾ حالان ، ولسان مُوَطِّئٌ لعربي ، كما تقول : جاءني [زيد] رجلا صالحا، تريد جاءني [زيد] صالحا[٢].

[مناسبة الآيات لما قبلها]

ووجه تعلق هذا الكلام بما قبله ، هو أن القوم طعنوا في صحة القرآن ، وقالوا :﴿لو كان خيرا ما سبقونا إليه﴾ هؤلاء الصعاليك ، فكأنه تعالى قال : الذي يدل على صحة القرآن أنكم لا تنازعون في أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام ، وجعل هذا الكتاب إماما يقتدى به ، ثم إن التوراة مشتملة على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فإذا سلمتم كون التوراة إماما يقتدى به فاقبلوا حكمه في كون كتاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم حقا من عند الله[٣].

ثم قال تعالى :﴿ وَهَذَا﴾ أي : القرآن ﴿كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى ، ولما تقدمه من الكتب .

وقوله :﴿ لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ بيان لحال الكتاب[٤]، أو مفعول لمصدق ، أي : مصدق صاحب لسان عربي ، وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(١) قال في الكشاف٤/٣٠١:﴿كتاب موسى﴾ مبتدأ و﴿من قبله﴾ ظرف واقع خبرا مقدما عليه،وهو ناصب ﴿إماما﴾ على الحال .

(٢) قال السيد العلوي : (قال الزجاج : المعنى مصدقا لما بين يديه عربيا ، وذكر لسانا توكيد ، كما تقول : جاءني زيد رجلا صالحا ، أي : جاءني زيد صالحا ، ورجلا توكيد . وابن يعيش يسمي هذه الحال موطئة .(حاشية العلوي) .

(٣) ومثله في الرازي ٢٨/١٢ .

(٤) أي : أنه حال من (كتاب) المذكور ، وصح لتخصه بالصفة ، والعامل فيه معنى الإشارة ، أو أنه حال من ضمير الكتاب في مصدق ، والعامل فيه مصدق ، والوجه الثاني : أن يكون نصبه مفعولا لمصدق ولا بد من تقدير ذا ، أو صاحب لأن التصديق لصاحب اللسان لا للسان . وانظر الكشاف ٤/٣٠١، والشهاب ٨/٣٠ ، وحاشية العلوي خ . وقال الحاكم في التهذيب : ﴿إماما ورحمة﴾ نصب على الحال عن الكسائي ، وقال أبو عبيدة : فيه إضمار ، أي :

قال في التجريد : وفي الكلام حذف تقديره : فلم يهتدوا به ؛ لأن المشركين لم يهتدوا بالتوراة لما قالوا : إن القرآن إفك قديم ، وقيل : لا يحتاج إلى هذا التقدير ، بل قوله : ﴿ومن قبله كتاب موسى﴾ متصل بقوله :﴿وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا﴾ أي : ومن قبل هذا الكتاب الحق الصحيح ، وهذا مصدق له ، فيكون مثله حقا صحيحا ؛ لأن ما وافق الحق وصدقه فهو حق مثله .

ثم قال تعالى :﴿ لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ في أعمالهم ، وحاصل الكلام أن المقصود من إنزال هذا الكتاب إنذار المعرضين وبشارة المطيعين .

ثم أعلم أنه تعالى لما قرر دلائل التوحيد والنبوءة ، وذكر شبهات المنكرين ، وأجاب عنها ذكر بعد ذلك طريقة المحققين ، فقال سبحانه :﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي : آمنوا ووحدوا ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي : داموا على الإيمان[1] ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي : لا يلحقهم غم في الآخرة لتوقع مخوف ، ولا هم يغتمون لواقع نزل بهم ؛ لأنهم في دار السرور ، و﴿ثم﴾ لبيان فضل الاستقامة وبعد مرتبتها[2] .

دلت الآية على بطلان قول من زعم أن المؤمنين يوم القيامة إذا زفرت جهنم جثوا إلى الركب خوفا من عذاب الله ؛ لأن الله تعالى أخبر أنه لا خوف عليهم في الآخرة ، ولا هم يحزنون ، فدعوى خلاف نص كتاب الله يفتقر إلى دليل صحيح ، والله يقول فيهم :﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ وسيأتي إن شاء الله ما يؤيد هذا في مواضع كثيرة من نصوص أئمتنا عليهم السلام .

ثم قال سبحانه :﴿ أُولَئِكَ﴾ لا غيرهم ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الصالحات .

أنزلناه، أو جعلناه إماما ورحمة ، وقال الأخفش نصب على القطع ، لأن قوله :﴿كتاب موسى﴾ معرفة بالإضافة ، وقوله: ﴿لسانا عربيا﴾ نعت للسان ، ويجوز أن يكون نصب لسانا ؛ لأنه مفعول به .

(١) ﴿أن الذين قالوا ربنا الله﴾ تدل على الإيمان بالقول والاعتقاد ﴿ثم استقاموا﴾ تدل على العمل ، وفيه دلالة أنه لا يتم الإيمان إلا باجتماع القول والاعتقاد والعمل .

(٢) وذلك مستفاد من ثم ، التي تفيد التراخي ، والتراخي هنا هو باعتبار المرتبة ، ويمكن أن يحمل على التراخي الوجودي فإن التوحيد سابق للعمل .

واعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ثم استقاموا﴾ وكان من أعظم أنواع الاستقامة الإحسان إلى الوالدين ، لا جرم أردفه بهذا المعنى فقال سبحانه :﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ أمرناه بإيتاء والديه ﴿إِحْسَانًا﴾ أي : فعلا ذا حسن .

وقوله : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ بيان لحالها في مشقة حملها له في بطنها ، أي : حملته ذات كره ، أو حملا ذا كره[١] ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ يريد شدة الطلق .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : أي مكرهة مجبورة على الحمل والولاد ، وذلك إلزام لها من الله ذي الفضل والأياد[٢] . اهـ وقرئ بضم الكاف وفتحها ، وهذا زيادة وتوصية في حق الأم بما يلحقها من المشقة في حمله ووضعه .

ثم قال تعالى :﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ﴾ أي : مدة حمله وفصاله ، أي : فطامه ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ سمي الرضاع فصالا لملابسته له لأنه ينتهي به ويتم ، وفيه دليل على أن أقل الحمل ستة أشهر[٣] ، وروي عن عمر أن امرأة رفعت إليه ، وكانت قد ولدت لستة أشهر فأمر برجمها ، فقال علي عليه السلام : لا رجم عليها ، وذكر الطريق التي ذكرنا .

ثم قال تعالى :﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ الأشد : أن يكتهل ويستوفي السن التي يستحكم فيها قوته وعقله ، وذلك إذا أناف على الثلاثين ، وقارب الأربعين ؛ لأن قوله :﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ظاهره أن الأشد قبل أربعين سنة للعطف[٤] .

قال ابن قتيبة : أشدُّ الرجل غير أشدِّ اليتيم ؛ لأن أشد الرجل الاكتهال والحنكة حتى يشتد رأيه وعقله ، وهو ثلاثون سنة في قول ، وفي قول : ثلاث وثلاثون ، وفي قول : ثمان وثلاثون ، وفي قول : أربعون ، وقد يجمع بين هذه فيقال : أوله ثلاثون سنة ، وكمال الأشد أربعون سنة ، وقيل[٥] : لم يبعث نبي [قط] إلا بعد أربعين سنة ، أو على

---

(١) يعني أن كرها على هذا الوجه صفة للمصدر ، وعلى الوجه الأول نصبا على الحال من الفاعل بتقدير مضاف .

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول هذه السورة .

(٣) لأن مدة الرضاع إذا كانت حولين ، لقوله تعالى :﴿حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ بقيت للحمل ستة أشهر .

(٤) قال الحاكم في تهذيبه : ﴿حتى إذا بلغ أشده﴾ كمال قوته ، قيل : ثلاث وثلاثون سنة ، عن ابن عباس وقتادة ، وقيل : بلوغ الحلم عن الشعبي ، وقيل : قيام الحجة عن الحسن ، وقيل : هو أربعون سنة ؛ لذلك فسر به .

رأس أربعين سنة .

وأما أشد الغلام : فهو أن يشتد خلقه ويكمل عقل التكليف ، وهو البلوغ الشرعي خمس عشرة سنة في قول ، أو ثماني عشرة سنة ، أو تسع عشرة سنة في قول ، وهذه الآية على العموم لم يرد بها شخص معين من المؤمنين ، ذكره في التجريد .

ومعنى ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي : وفقني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ قال صاحب الصحاح : أوزعته بالشيء أغريته به فأوزع به ، فهو موزوع به أي : مغرى به ، واستوزعت الله شكره فأوزعني أي : استلهمته فألهمني .

قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : يريد ألهمني أن أشكر على نعمتك،ولكنه اختصر ، قال أمير المؤمنين عليه‌السلام :

لو شكروا النعمة زادتهم	مقـالة الله التي قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم	لكنما كفركم غالها

فقال : لو شكروا النعمة ، وإنما أراد : لو شكروا الله على النعمة ، ولكنه اختصر [١]. اهـ

وفي التجريد : ﴿أوزعني﴾ أي : اجعلني وازعا ، أي : كافا حافظا بالشكر ، والمراد نعمة التوحيد والإسلام ، وجمع بين شكر النعمة عليه وعلى والديه ؛ لأن النعمة عليهما نعمة عليه ؛ لأن الولد يشرف بشرفهما ، ويشفعان له ، وينتفع بدعائهما في الدنيا ، ويحاط بصلاحهما ، قال :﴿وكان أبوهما صالحا﴾ [٢] الآية . ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ وقيل : في الصلوات الخمس .

ثم قال :﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي : اجعلهم موقعا للصلاح ومظنة ، كأنه قال : هب لي الصلاح في ذريتي وأوقعه فيهم [٣] . واعلم أنه تعالى لما حكى عن ذلك الداعي أنه طلب هذه الأشياء الثلاثة [٤]، قال بعد ذلك ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من جميع الذنوب

(٥) انظر الكشاف ٣٠٢/٤ .

(١) كذا في المصابيح ، وفي تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام (لكنما كفرهم غالها) . انظر تفسيره أول هذه السورة .

(٢) الكهف : ٨٢ .

(٣) هذا تبيين لمعنى (في) في قوله :﴿وأصلح لي ذريتي﴾ وانظر الكشاف ٣٠٢/٤ .

(٤) وهي ١ـ أن يوفقه الله للشكر على النعمة ٢ـ أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله ٣ـ أن يصلح له في ذريته

﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المخلصين الدين لوجهك ، والمراد أن الدعاء لا يصح إلا مع التوبة، ومع كونه من المسلمين ، فتبين إني إنما أقدمت على هذا الدعاء بعد أن تبت من الكفر ، ومن كل قبيح ، وبعد أن دخلت في الإسلام والانقياد لأمر الله ولقضائه[1] .

ثم قال تعالى :﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أي : عملهم الذي هو عندهم حسن ، وعند الله أحسن ، وقوله تعالى :﴿الذين نتقبل عنهم﴾ قرئ بضم الياء على بناء الفعل للمفعول ، وقرئ بالنون المفتوحة ، وكذلك ﴿نتجاوز﴾ وكلاهما في المعنى واحد ؛ لأن الفعل وإن كان مبنيا للمفعول فمعلوم أنه لله سبحانه وتعالى ، [فهو كقوله : ﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾ فبين تعالى][2] بقوله :﴿أولئك الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا﴾ أن من تقدم ذكره ممن يدعو بهذا الدعاء ، ويسلك هذه الطريقة التي تقدم ذكرها ﴿نتقبل عنهم﴾ عملهم ، والتقبل من الله هو بإيجاب الثواب [له] على عمله[3] .

قلت : وهذه الآية الكريمة تبطل قول أهل الموازنة القائلين : بأن طاعات الفاسق متقبلة، وأنها تسقط من عقاب عصيانه بقدر ثوابها ؛ لأن الله سبحانه قال :﴿أولئك﴾ الذي معناه : لا غيرهم ممن لم يثبت له صفاتهم ، والله أعلم .

فإن قيل : و لم قال تعالى :﴿أحسن ما عملوا﴾ والله يتقبل الأحسن فما دون ؟ .

قيل : في الجواب وجهان الأول : أن المراد بالأحسن الحسن ، كقوله تعالى ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾[4] وكقولهم : الناقص والأشج أعدلا بني مروان ، أي : عادلا بني مروان .

الثاني : الحسن من الأعمال هو المباح الذي لا يتعلق به ثواب ولا عقاب ، والأحسن ما يغاير ذلك ، فهو كل ما كان مندوبا أو واجبا[5] .

---

(١) انظر الرازي ٢٨/٢١ .

(٢) ما بين القوسين ساقط من المصابيح ، وهو ثابت في الرازي بلفظه ٢٨/٢١ .

(٣) من قوله : واعلم أنه تعالى لما حكى عن ذلك الداعي .. إلى هنا مثله في الرازي بلفظه ٢٨/٢١ .

(٤) الزمر : ٥٥ .

(٥) ومثل هذا في الرازي ٢٨/٢٢.

ثم قال تعالى :﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي : الصغائر ، أو التي تابوا منها ، والتجاوز : هو الترك والتخلية عن حسابهم ، والمغفرة لما أخطأوا به من جميع أسبابهم .

وقوله :﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ محله النصب على الحال ، أي : كائنين ، أو معدودين في جملة أصحاب الجنة ، كقولك : أكرمني الأمير في ناس من أصحابي ، وقوله :﴿ وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ مصدر مؤكد لقوله :﴿أولئك الذين نتقبل عنهم﴾ وما بعده ؛ لأن قوله : ﴿نتقبل﴾ و ﴿نتجاوز﴾ وعد من الله لهم ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل ، فبين سبحانه أنه صدق لاشك فيه .

ثم اعلم أنه تعالى لما وصف الولد البار بوالديه ، وصف العاق لوالديه فقال سبحانه : ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾ ﴿الذي قال﴾ مبتدأ ، خبره ﴿أولئك الذين حق عليهم القول﴾ .

ومعنى ﴿أف﴾ صوت يدل على تضجر قائله ، واللام في لكما للبيان معناه : وهذا التأفيف لكما خاصة ولأجلكما دون غيركما ، والمراد بـ﴿الذي قال﴾ الجنس ، وقيل : هو الكافر العاق لوالديه ، المكذب بالبعث[1] .

[وعن] قتادة : هو صفة عبد سوء [عاق لوالديه] فاجر[2] .

ثم حكى الله تعالى عنه مقاله فقال :﴿ أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ من الأرض ، أي : أبعث بعد الموت ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ﴾ أي : مضت الأمم ﴿مِنْ قَبْلِي﴾ أي : و لم يبعث منهم أحد ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ أي : يدعوان بالغوث وهو النجاة من النار ، يقولان : الغياث بالله منك ومن قولك .

وقوله :﴿ وَيْلَكَ آمِنْ﴾ دعاء عليه بالهلاك ، والمراد الحث على الإيمان ، لا الدعاء حقيقة ، والإشعار بأن ما هو عليه موجب لهلاكه[3] .

---

(١) نسب الزمخشري هذا القول إلى الحسن ، وفي المصابيح (المكذب لهما بالبعث) وفي الزمخشري (المكذب بالبعث) ٣٠٣/٤.

(٢) انظر الكشاف ٣٠٣/٤ ، وما بين أقواس الزيادة منه .

(٣) قوله : دعاء عليه بالهلاك ، والمراد الحث . قال السيد العلوي رحمه الله في حاشيته على الكشاف : قالوا : الويل بمعنى الهلاك ، ودلالته على الحث على الفعل من حيث أن فيه إشعارا بأن ما هو مرتكب له حقيق بأن تهلكته فيه ، وأن يطلب له الهلاك ، فإذا سمع ذلك كان باعثا على تركه ، هكذا قيل ، وهو لا يناسب معنى الحث ، بل نقول : إنما دل

ثم قال تعالى :﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي : وعده بالبعث صحيح واقع لا محالة ﴿فَيَقُولُ﴾ لهما :﴿مَا هَذَا﴾الذي تقولانه من البعث وتدعوانني إليه ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي : أكاذيبهم ، وما كتبوه لاعن حقيقة .

قال في التجريد : قيل نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه[1] ، قال الزجاج ، ويضعف هذا القول أنه قال تعالى :﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمْ الْقَوْلُ﴾ وهذا لا يقوله الله تعالى في من علم أنه يؤمن ، والصحيح أن هذا كالذي قبله في غير معين ، وإنما هو مثل ضربه الله تعالى لعباده ليقتدوا ، مثل البار بوالديه الصالح ، وما يفعله من الدعاء ، ومثل العاق الفاجر وما يفعله .

ومعنى ﴿حق عليهم﴾ هو وجب ووقع عليهم وعيد الله ، ومعنى ﴿فِي أُمَمٍ﴾ أي : في جملة أمم ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي : مضت ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ وقوله :﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ تعليل لقوله :﴿حق عليهم القول﴾ أي : لأنهم كانوا في الدنيا مختارين ؛ بسبب خسران أنفسهم بوقوعها في النار .

ثم قال تعالى :﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي : ولكل من الجنسين مراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر .

ثم قال تعالى :﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ وقري بالياء والنون تعليل لمحذوف دل عليه الكلام ، كأنه قيل : وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم . قَدَّرَ جزاءهم على مقادير أعمالهم ، فجعل الثواب درجات ، والعقاب دركات[2] .

ثم قال سبحانه :﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص شئ من أجورهم .

ولما بين الله تعالى أنه يوصل حق كل أحد إليه بين أحوال [أهل] العقاب فقال سبحانه :

على الحث على الفعل من حيث أن فيه إشعارا بأن الفعل الذي أمر به مما ينبغي أن يحسد عليه ، فيدعى عليه بذلك ، فيكون باعثا من هذه الجهة .

(١) والزمخشري في كشافه ٣٠٣/٤ ، والرازي في تفسيره ٢٨/ ٢٣ . والحاكم الجشمي في تهذيبه خ ١٩٩.

(٢) انظر الكشاف ٣٠٤/٤ .

﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار﴾ أي : واذكروا يوم يعرض ، وعرضهم على النار تعذيبهم بها ، أو يجاء بهم إليها ، وذلك قبل دخولهم فيها ، فيقال لهم : ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ قرئ (آذهبتم) بهمزة الاستفهام ، ويراد به التوبيخ ، وبغير همزة استفهام ، قال الفراء والزجاج : العرب توبخ بهمزة وبغير همزة ، فتقول : أذهبت ففعلت كذا ؟ أو ذهبت ففعلت كذا[١] ، قال المفسرون : طيباتهم : ما كانوا فيه من اللذات مشتغلين بها عن الآخرة معرضين عن شكرها ، ومعنى الآية : ما بقي لكم شئ من الطيبات إلا ما قد استوفيتموه وأصبتموه في الدنيا ، فلم يبق لكم في الآخرة شئ .

ومعنى ﴿واستمتعتم بها﴾ أي : انتفعتم بها لمجرد التلذذ .

ولما وبخهم الله بذلك ، آثر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الصالحون اجتناب نعيم الدنيا ولذتها ليتكامل أجرهم ، ولئلا تلهيهم عن الآخرة .

وعن عمر بن الخطاب أنه دخل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مشربة له ، وهو مضطجع على خصفة ، وبعضه على التراب ، وتحت رأسه وسادة محشوة ليفا ، فقال : يا رسول الله أنت نبي الله وصفوته ، وكسرى وقيصر على فرش الذهب ، وفرش الديباج والحرير ، فقال : يا عمر أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم ، وهي وشيكة الانقطاع ، وإنا أخرت لنا طيباتنا[٢] .

---

(١) قال القرطبي في تفسيره : أي يقال لهم أذهبتم، فالقول مضمر. وقرأ الحسن ونصر وأبو العال ويعقوب وابن كثير "أأذهبتم" بهمزتين مخففتين، واختاره أبو حاتم. وقرأ أبو حيوة وهشام "آذهبتم" بهمزة واحدة مطولة على الاستفهام. الباقون بهمزة واحدة من غير مد على الخبر، وكلها لغات فصيحة ومعناها التوبيخ، والعرب توبخ بالاستفهام وبغير الاستفهام، وقد تقدم. واختار أبو عبيد ترك الاستفهام لأنه قراءة أكثر أئمة السبعة نافع وعاصم وأبي عمرو وحمزة والكسائي، مع من وافقهم شيبة والزهري وابن محيصن والمغيرة بن أبي شهاب ويحيى بن الحارث والأعمش ويحيى بن وثاب وغيرهم، فهذه عليها جلة الناس. وترك الاستفهام أحسن، لأن إثباته يوهم أنهم لم يفعلوا ذلك، كما تقول: أنا ظلمتك؟ تريد أنا لم أظلمك. وإثباته حسن أيضا، يقول القائل: ذهبت فعلت كذا، يوبخ ويقول: أذهبت فعلت كل ذلك جائز. ومعنى "أذهبتم طيباتكم" أي تمتعتم بالطيبات في الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات، يعني المعاصي.

(٢)وفي مسلم وغيره : أن عمر دخل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في مشربته حين هجر نساءه قال: فالتفت فلم أر شيئا يرد البصر إلا أهبا جلودا معطونة قد سطع ريحها ، فقلت: يا رسول الله، أنت رسول الله وخيرته، وهذا كسرى وقيصر في الديباج والحرير؟ قال: فاستوى جالسا وقال: (أفي شك أنت يا بن الخطاب. أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا) فقلت: استغفر لي فقال: (اللهم اغفر له) (أنظر تفسير القرطبي) .

وروى جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب رأى في يده لحما معلقا ، فقال : ما هذا يا جابر ؟ فقلت : اشتهيت لحما فاشتريته ، قال : افكلما اشتهيت اشتريت يا جابر ما تخاف هذه الآية ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾[1] .

والاستمتاع : الانتفاع اليسير المعجل ، هكذا في التجريد .

قلت : [وأحسن][2] من هذا كله في معنى هذه الآية الكريمة هو تفسير الهادي عليه السلام حيث قال ما لفظه : الطيبات الذي أذهبوها في حياتهم فهي طيبات الجنان ، التي جعلها الله لأهل الطاعة والإيمان ، بما ذكر أنه أعد لأهل التقوى والإحسان ، من أزواج الفواكه والرمان ، وغير ذلك من النخيل واللحمان[3] وكل ما تشتهيه الأنفس من اللباس والنسوان ، وإذهابهم إياها فهو بعصيانهم لربهم وجرأتهم على خالقهم ؛ لأن الله عز وجل إنما حكم بالطيبات لمن أطاعه ، وحرمها على من عصاه ، فمن أطاعه فقد استوجبها بطاعته ، ومن عصاه فقد أذهبها بمعصيته ، فهذا تفسير إذهابهم للطيبات ، لا ما يقول من جهل فلم يعلم ، وضل عن مذهبه فلم يفهم : إن من إذهابهم للطيبات هو أكلها في حياتهم ، فإن من أكلها في الدنيا الفانية حرمها في الآخرة الباقية ، وإن من لبس الثياب السرية ، وأكل الطعام الفائق وركب الخيول حلالا كان أو حراما فقد أذهب طيبات الآخرة ، بما أطلق لنفسه من استعمال طيبات الدنيا ، وحاش لله أن يكون الجواب على ذلك ، أو يكون [قول] من علم كذلك [فأما الكافر وأشباهه فقد استغنينا عن الفتش عنه وعن أمره بما قد عندنا من حاله ، كثرت دنياه أو قلّتْ ، فمصيره إلى النار، وأما المؤمن به ، والعامل بطاعة خالقه ، المحتذي بأمره فيما أمر به ربه فكيف يكون

---

(١) في تفسير القرطبي : وقال جابر: اشتهى أهلي لحما فاشتريته لهم فمررت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: ما هذا يا جابر؟ فأخبرته، فقال: أو كلما اشتهى أحدكم شيئا جعله في بطنه أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية: "أذهبتم طيباتكم" الآية

(٢) ما بين الأقواس من النسخة (ب) .

(٣) بمعنى : اللحم . وزيادة الألف والنون تدل على المبالغة والكثرة . وكذلك النسوان بمعنى النساء .

تلك حاله ، وإنما جعل الله الطيبات للمؤمنين خاصة دون الفاسقين][1] ألم يسمعوا قول الله في القرآن ، وما نزل من النور والبرهان حين يقول :﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ ومعناها : ويوم القيامة ، فجعلها لهم في الحياة الدنيا ، وفي الآخرة التي تبقى ، فكيف يقال: أو يستجاز في ذي الجلال والإكرام أنه جعلها لهم رزقا ، وأعطاهم إياها عطاء حقا في دار الدنيا ، ثم حرمهم إياها في الآخرة التي تبقى عقوبة على أخذ ما أعطاهم ، وقبول ما امتن به عليهم وآتاهم ، وفي ذلك ما يقول الله عز وجل :﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم﴾ فأمر رسله أن يأكلوا من الطيبات ، وأن يعملوا له ما يرضيه من الصالحات ، وفي أقل من ذلك ما أجزأ من كان ذا حجى . والحمد لله العلي الأعلى[2] . اهـ

ثم بين عز وجل سبب عذابهم فقال سبحانه :﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي :

---

(١) ما بين قوسي الزيادة من قوله : فأما الكافر .. إلى دون الفاسقين . هذا النص أقحمه المصنف هنا من نص آخر موجود في صفحة أخرى ، وتمام هذا النص المقحم هنا (في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام) — هو : (فقال في كتابه عز وجل لأنبيائه عليهم السلام :﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا﴾ وقال في كتابه :﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ ومعناها : ويوم القيامة، وقال في كتابه :﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح ..﴾ الخ فلم يجعل الله عز وجل على المؤمنين حرجا في شئ مما رزقهم ، إذا حذوا على ما جعل هلم وأمرهم به ، فساروا فيه بطاعة الله ، ولم يتعدوا إلى شئ مما يسخط الله ؛ لأن الله عز وجل — أيها السائل — لم يجعل في هذه الدنيا من خيرها ومراكبها التي خلقها لشرار أهلها ، ولا لمن عند عن طاعة خالقها ، وإنما جعلها للصالحين ، ولعباده المتقين ، يأمرون فيها بأمره ، وينهون عن نهيه ، مقيمون أحكامه ، منفذوه لأمره عليها ، وللطاعة والمطيعين خالقها رب العالمين .ثم أمرهم ونهاهم ، وبصرهم عنها وهداهم ، وجعل لهم الاستطاعة إلى طاعة مولاهم ، ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾ وإنما معنى الآية ، وقول الله سبحانه :﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ فتبكيتا منه سبحانه لأهل النار ، وتوقيفا على تفريطهم في طاعة ربهم ، ومعنى ﴿أذهبتم طيباتكم﴾ أي : تركتم ومحقتم وعطلتم ما جعله الله لكم بالطاعة من النعيم المقيم ، والخلد مع المتقين ، في الثواب الكريم ، بارتكابكم المعاصي ، وترككم الطاعة ، حتى خرجتم مما جعله الله للمطيعين ، وصرتم إلى حكم الفسقة الكافرين ، في عذاب مهين ، فهذا معنى ﴿أذهبتم طيباتكم﴾ . المجموع ص ٥٠٩ .

(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٥١١، ٥١٢ .

الهوان والصغار ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ فقابل تعالى ذلك العذاب بأمرين أولهما : الاستكبار والترفع ، وهو ذنب القلب ، والثاني : [1] ذنب الجوارح ، وقدم الأول على الثاني ؛ لأن أحوال القلوب أعظم وقعا من أعمال الجوارح . وأما الفسق : فهو المعاصي

قال الهادي عليه السلام : والاستكبار : فهو الجرأة على الله الواحد الجبار ، والمخالفة له في أمره ، من ذلك التجبر على عباد الله في أرضه .

والفسق : فهو الفسق في الدين [والفسق في الدين] [2] فهو المخالفة لرب العالمين . اهـ

وقوله :﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ لأن الاستكبار بالحق لا يكون إلا لله تعالى ، وقالوا : وللمؤمن على المتكبر .

وقوله :﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي : وبسبب فجوركم ، الذي خرجتم به عن طاعة الله تعالى .

واعلم أنه تعالى لما أودع أنواع الدلائل في إثبات التوحيد والنبوة ، وكان أهل مكة سبب تكبرهم قد أعرضوا عنها ، ولم يلتفتوا إليها ، ولهذا السبب قال تعالى في حقهم : ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ بين عز وجل أن قوم عاد كانوا أعظم منهم قوة وجاها ، فقال تعالى :﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [أي] : اذكر يا محمد لقومك أخا عاد هودا عليه السلام ؛ لأنه منهم ، أي عظهم بقصته ﴿إذ أنذر قومه﴾ أي : حذرهم عذاب الله إن لم يؤمنوا ، فلما كذبوه سلط الله العذاب عليهم بسبب شؤم كفرهم ، فذكر هذه القصة هاهنا ليعتبر بها أهل مكة ، فلهذا المعنى ذكر الله تعالى هذه القصة في هذا الموضع ، وهو مناسب لما تقدم ؛ لأن من أراد تقبيح طريقة عند قوم كان الطريق ضرب الأمثال ، وتقديره : أن من واظب على تلك الطريقة نزل به من البلاء كذا وكذا .

---

(١) انظر الرازي ٢٨/ ٢٥ ، وفيه (والثاني : الفسق وهو ذنب الجوارح) .

(٢) ما بين القوسين من (ب) والمجموع ص ٥١٢ .

وقوله :﴿بالأحقاف﴾ أي : فيها قال أبو عبيد : الحقف : الرمل المعوج ، ومنه قيل للمعوج : محقوقف[1] والأحقاف : جمع حقف ، وهي رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، من احقوقف الشيء إذا اعوج ، قال الشاعر : (مثل الأفاعي اهتز بالحقوف)[2]

---

(١) في الرازي : ومنه قيل للمعوج : محقوف . قال في إعراب القرآن لمحي الدين الدرويش : قال في القاموس : (الحقف بالكسر : المعوج من الرمل ، والجمع أحقاف ، وحقاف ، وحقوف ، وجمع الجمع حقائف ، وحقفة ، أو : الرمل العظيم المستدير ، أو المستطيل المشف ، أو : هي رمال مستطيلة بناحية الشحر) وقال شارحه في التاج : (وبه فسر قوله تعالى :﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾ قال الجوهري : وهي ديار عاد ، وقال ابن عرفة : قوم عاد كانت منازلهم بالرمال ، وهي الأحقاف .

وروي عن ابن عباس أنها واد بين عمان وأرض مهرة ، وقال ابن إسحاق : الأحقاف : رمل فيما بين عمان إلى حضرموت، وقال قتادة : الأحقاف : رمال مشرفة على هجر بالشحر من ارض اليمن. الخ ما ذكره (٨/١٨١، ١٨٢).

وقال القرطبي في تفسيره : والأحقاف: ديار عاد . وهي الرمال العظام, في قول الخليل وغيره . وكانوا قهروا أهل الأرض بفضل قوتهم. والأحقاف جمع حقف, وهو ما استطال من الرمل العظيم وأعوج و لم يبلغ أن يكون جبلا, والجمع حقاف وأحقاف وحقوف. واحقوقف الرمل والهلال أي : اعوج. وقيل: الحقف جمع حقاف. والأحقاف جمع الجمع. ويقال: حقف أحقف. قال الأعشى: بات إلى أرطاة حقف أحقفا

أي رمل مستطيل مشرف. والفعل منه احقوقف. قال العجاج: طي الليالي زلفا فزلفا سماوة الهلال حتى احقوقفا

أي انحنى وأستدار. وقال امرؤ القيس:

كحقف النقا يمشي الوليدان فوقه بما احتسبا من لين مس وتسهال

وفيما أريد بالأحقاف ها هنا مختلف فيه. فقال ابن زيد: هي رمال مشرفة مستطيلة كهيئة الجبال, و لم تبلغ أن تكون جبالا, وشاهده ما ذكرناه. وقال قتادة: هي جبال مشرفة بالشحر, والشحر قريب من عدن, يقال: شحر عمان وشحر عمان, وهو ساحل البحر بين عمان وعدن. وعنه أيضا: ذكر لنا أن عادا كانوا أحياء باليمن, أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشحر.

وقال مجاهد: هي أرض من حسمى تسمى بالأحقاف. وحسمى (بكسر الحاء) اسم أرض بالبادية فيها جبال شواهق ملس الجوانب لا يكاد القتام يفارقها. قال النابغة: فأصبح عاقلا بجبال حسمى دقاق الترب محتزم القتام

قاله الجوهري. وقال ابن عباس والضحاك: الأحقاف جبل بالشام. وعن ابن عباس أيضا: واد بين عمان ومهرة. وقال مقاتل: كانت منازل عاد باليمن في حضر موت بواد يقال له مهرة, وإليه تنسب الإبل المهرية, فيقال: إبل مهرية ومهاري. وكانوا أهل عمد سيارة في الربيع فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم, وكانوا من قبيلة إرم.

وقال الكلبي: أحقاف الجبل ما نضب عنه الماء زمان الغرف, كان ينضب الماء من الأرض ويبقى أثره.

أي : بالرمال ، وكانت عاد أهل عمد بين رمال مشرفين على البحر بالشحر من اليمن، وكانوا ينزلون ما بين عمان وحضرموت ، واليمن كله عن ابن إسحاق .

وقيل : الأحقاف جبل بالشام ، وقيل : أحقاف الجبل : مَدَرُهُ ، كذا في البرهان .

وقوله تعالى :﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ﴾ أي : مضت ، النذر : جمع نذير ، بمعنى منذر ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي : من قبله ومن بعده ، أي : الرسل كلها قد أنذرت عاقبة الشرك كإنذاره ، فذكر قومك بهم ليحذروا سوء العاقبة .

وقوله تعالى :﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ تفسير للإنذار ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة ، ووصف بالعظم لما يقع فيه من الشدائد ، وأعلمهم أن الذين قبله من الرسل والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون كإنذاره بـ﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾ جاؤا بالتوحيد ، واتفقوا عليه ، وهذا اعتراض بين حكاية إنذار هود[1].

وروى الطفيل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: خير واديين في الناس واد بمكة وواد نزل به آدم بأرض الهند. وشر واديين في الناس واد بالأحقاف ، وواد بحضر موت يدعى برهوت تلقى فيه أرواح الكفار. وخير بئر في الناس بئر زمزم ، وشر بئر في الناس بئر برهوت ، وهو في ذلك الوادي الذي بحضر موت. (أنظر تفسير القرطبي) .

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول هذه السورة . وفيه (بالحقوف) بدلا عن (الحقوفى) كما في بعض النسخ

(١) قوله : وهذا اعتراض .. الخ ، أي : أن قوله ﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾ من بقية الجملة المعترضة وهي قوله تعالى : ﴿وقد خلت ..﴾ ولم أجد أحدا من المفسرين الذين مراجعهم بين يدي ذكر مثل هذا القول ، والوجه الثاني وهو قوله: ويجوز أن يكون الاعتراض قد تم .. الخ هو الذي عليه أكثر المفسرين ، قال في الكشاف : إشارة إلى قوله :﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾ فإنه اعتراض بين المفسر وتفسيره . (انظر الكشاف ٣٠٦/٤) . وقال السيد العلوي في حاشيته على الكشاف : يحتمل أن تكون ﴿قد خلت النذر من بين يديه﴾ حالا من فاعل أنذر ، أو من مفعوله ، أي : ﴿أنذر قومه﴾ معلما لهم ، أو أنذرهم وهم عالمون بذلك ، وأن تكون اعتراضا بين التفسير والمفسر ، لأن (أن) بمعنى أي: لأن النهي عن الشيء إنذار عن مضرته ، فعلى أن يكون حالا ينبغي أن يتقدم للقوم علم بمقتضى الحال ليدخل تحت الإنذار ، ويحصل الاعتبار ، وعلم ذلك إما بإعلام هود إياهم قطعا ، إذا أريد بمن خلفه الذين سيبعثون بعده ، أو بمشاهدتهم ذلك ، إذا أريد بهم الذين بعثوا في زمانه ، وأنذروا بعد إنذاره ، وعلى أن تكون معترضة المخاطب رسول الله صلى الله عليه وآله ، والمعنى : اذكر يا محمد إنذار هود قومه عاقبة الشرك ، واذكر أيضا أنه قد أنذر من تقدمه من الرسل، ومن تأخر عنه مثل ذلك الإنذار ، بخلاف الحال ، وهذا التفسير إشارة إلى تفسير ابن عباس .

وقال الشهاب في حاشيته على البيضاوي ٣٤/٨ : قوله : والجملة [وهي ﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾]

ثم رجع إلى كلام هود بقوله :﴿إني أخاف عليكم﴾ ويجوز أن يكون الاعتراض قد تم بقوله :﴿من خلفه﴾ وقوله :﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ من كلام هود ، أي : وقد خلت النذر ينذرون أقوامهم ، وإنما قيل : خلت من خلفه ؛ لأنه ماض بالنسبة إلى نزول القرآن على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ذكره في التجريد .

ثم حكى الله عن الكفار أنهم :﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ أي : لتصرفنا وتقلبنا ، والإفك: هو القلب ، وقيل : من الإفك الذي هو الكذب ، أي : لتصرفنا بالإفك ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي : عن عبادتها ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي : عجل لنا ما تعدنا من عذاب الشرك ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعيدك ، استعجال منهم على وجه التكذيب ، فقال لهم هود عليه‌السلام ما حكى الله عنه ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ معناه : لا علم عندي بالوقت الذي يكون فيه تعذيبكم حكمة وصوابا [1] ، فكيف أدعوه بأن يعجله كما تقترحون بخلاف ما علم صلاحه ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ﴾ تقديره : وأنا أبلغكم ، أي : ما شأني إلا تبليغ [2] ﴿مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ مما هو شأني وشرطي وهو الإنذار لكم بجهدي من العذاب ، فأما العلم بوقته فما

حال ، أي : من فاعل أنذر ، أي : معلما بأنها خلت ، أو من المفعول ، أي : عالمين ذلك بإعلامه لهم ، أو بغيره ، أو المعنى : أنذرهم على فترة من الرسل ، فلا يؤول بما ذكر ، ويجوز عطفه على أنذر ، وقوله : (أو اعتراض) أي: بين المفسر والمفسر ، أو بين الفعل ومتعلقه ، كأنه قيل : اذكر زمان إنذار هود بما أنذر به الرسل قبله وبعده ، وهو أن لا تعبدوا .. الخ تنبيها على أنه إنذار ثابت ، قديما وحديثا ، اتفق عليه الرسل ، فهو مؤكد لما اعترض فيه ، مع الإشارة إلى أنه مقصود ، لا قيد تابع ، كما في الحالية ، ولذا رجحه في الكشف ، مع ما فيه من التفسير بعد الإبهام ، والسلامة عن تكلف الجمع بين الماضي والمستقبل ، قوله : (أي : لا تعبدوا) فأن مفسرة بمعنى أي ، لتقدم ما فيه معنى القول دون حروفه ، وهو الإنذار ، والمفسر معموله المقدر ، وقوله : بأن لا تعبدوا .. الخ على أنها مصدرية ، أو مخففة من الثقيلة ، فقبلها حرف جر مقدر ، متعلق بأنذر ، كما مر تحقيقه ، وقوله :(لأن النهي ..) الخ . بيان لكون ﴿أن لا تعبدوا﴾ مفسرا للإنذار ، أو مقدرا به على الوجهين ، واشتمال ما بعده ، أو مجموع الكلام على الإنذار لا يغني عما ذكر ، وقوله :(إني أخاف .. الخ استئناف لتعليل النهي .

(١) هذا مدلول الحصر بإنما مع كون تعريف العلم للعهد ، فالمراد به العلم بوقت وقوع ما استعجلوه .

(٢) فيه إشارة إلى أنه يفيد الحصر الإضافي بقرينة السياق ، واحتاج أيضا إلى تقدير : أنا ، لتتوافق الجملتان المعطوفتان بالواو ، ويكون التقدير : وأما أنا فإنما مهمتي التبليغ .. انظر الشهاب ٣٥/٨ ، وإعراب القرآن ١٨٥/٩ .

أوحاه [الله] إلي ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أن الرسل لم يبعثوا إلا منذرين غير سائلين غير ما أذن لهم[١]، أو المعنى : تجهلون حيث تصرون على طلب العذاب ، وهب أنه لم يظهر لكم كوني صادقا ، ولكن لم يظهر أيضا كوني كاذبا ، فالإقدام على الطلب الشديد لهذا العذاب جهل عظيم[٢].

ثم قال تعالى :﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ ضمير الهاء يرجع إلى ما تعدنا ، أي رأوا العذاب الموعود به ﴿عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ وقيل : الضمير عائد إلى غير مذكور، ويبينه قوله : ﴿عارضا﴾ كما قال :﴿ما ترك علي ظهرها من دابة﴾[٣] و لم يذكر الأرض لكونها معلومة، فكذا هاهنا الضمير عائد إلى السحاب ، كأنه قيل : فلما رأوا السحاب عارضا ، وهذا اختيار الزجاج ، ويكون من باب الإضمار [لا] على شريطة التفسير ، والعارض : السحاب الذي يعرض في أفق السماء[٤].

كَانَ المطرُ قد حبس عن عاد فساق الله تعالى إليهم سحابة سوداء فخرجت عليهم من واد لهم يقال له : المغيث ، ففرحوا حين رأوها ، و﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ والمعنى : ممطر إيانا[٥] ، وكلما عرض فهو عارض لاعتراضه للناظرين ، وظهوره وبيانه ، قال الشاعر :

فدع ذا وما فات من ذكرها وابعث لهم عارضا مستطيرا[٦]

قيل : كان هود قاعدا في قومه فجاءه سحاب مكفهر ، فقالوا : هذا عارض ممطرنا ، فقال :﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ من العذاب ، ثم بين ماهيته فقال ﴿رِيحٌ﴾ أي : هي

---

(١) فيه إشارة إلى أن الفعل تجهلون متعد . وقوله : أو المعنى : تجهلون حيث تصرون الخ فيه إشارة إلى أن الفعل لازم غير متعد

(٢) انظر تفسير الرازي ٢٨/٢٧ .

(٣) فاطر : ٤٥ .

(٤) قال الرازي ٢٨/٢٨ : قال أبو زيد : العارض : السحابة التي ترى في ناحية السماء ثم تطبق .

(٥) قوله : ممطر إيانا . فيه إشارة إلى أن الإضافة فيه مجازية غير معرفة ، بدليل وقوع (ممطر) وهي مضافة إلى معرفة وصفا للنكرة وهو عارض . انظر الكشاف ٤/٣٠٧ .

(٦) من قوله : وكلما عرض .. إلى هنا ــ مثله في تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام . أنظره أول هذه السورة

ريح [١]﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم وصف تلك الريح فقال :﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي : تهلك كل شئ من نفوس عاد وأموالهم الجم الكثير ، فعبر عن الكثرة بالكلية .

قوله :﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ إضافة الرب إلى الريح للدلالة على أن تصريفها مما يشهد بعظم قدرته ؛ لأنها من أعاجيب خلقه ، وأكابر جنوده ، وأن هذا ليس من باب تأثيرات الكواكب ، بل هو أمر حدث ابتداء بقدرة الله تعالى لأجل تعذيبكم .

ثم قال في صفة هلاكهم [٢] ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ يعني عادا ﴿ لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ قرئ بفتح (تا) ترى ، على أن الخطاب لغير معين ، ونصب مساكنهم ، وبضمها على التأنيث، ورفع مساكنهم عن علي وأبي عبد الرحمن السلمي [٣] ، والحسن ، وقتادة ، والقياس التذكير ، كما تقول : ما قام إلا هند ، وهي قراءة حمزة [٤]، وعاصم [٥] ، وإنما لم تر إلا مساكنهم ؛ لأن الريح أهلكتهم ، والمعنى أنهم لا يرون أحياء فصاروا كالمعدومين .

---

(١) قوله : هي ريح ، فيه إشارة إلى أن المبتدأ محذوف ، وريح خبر ، وفيها : خبر مقدم ، وعذاب : مبتدأ مؤخر . وفيه وجه آخر ، وهو أن تكون (ريح) بدل من ما في قوله :﴿ما استعجلتم به﴾ .

(٢) في النسخة (أ) (في صفة عذابكم) .

(٣) أبو عبد الرحمن السلمي : هو عبد الله بن حبيب بن رُبَيِّعة (بالتصغير) أبو عبد الرحمن السلمي ، الكوفي ، القارئ ، الضرير ، أحد التابعين ، كان يقرئ القرآن بالكوفة ، من زمن عثمان ، إلى إمرة الحجاج ، قال أبو إسحاق السبيعي : أقرأ أبو عبد الرحمن السلمي القرآن في المسجد أربعين سنة ، روى عن حذيفة بن اليمان ، وأمير المؤمنين ، وعمر،وعثمان، وغيرهم ، وعنه سعيد بن جبير ، وعاصم بن بهدلة ، وإسماعيل السدي ، وغيرهم ، قيل : مات سنة ٧٢ هـ وقيل : سنة ٩٢ هـ ، وقيل : سنة ٧٤ هـ ، وقيل : سنة ١٠٥هـ انظر تهذيب الكمال ١٤/ ٤٠٨ ، وبقية مصادر الترجمة مذكورة فيه .

(٤) حمزة : هو حمزة بن حبيب بن عمارة ، بن إسماعيل التيمي الزيات ، أحد القراء السبعة ، كان يجلب الزيت من الكوفة إلى حلوان في آخر سواد العراق ، مما يلي بلاد الجبل ، ويجلب الجبن ، والجوز إلى الكوفة ، وكان عالما بالقرءآت، انعقد الإجماع على تلقي قراءته بالقبول ، توفي بحلوان سنة ١٥٦ هـ وقيل : سنة ١٥٨هـ . أما مولده ففي سنة ٨٠هـ انظر الأعلام ٢/ ٢٧٧ .

(٥) عاصم : هو عاصم بن أبي النجود بهدلة الكوفي الأسدي بالولاء ، أبو بكر ، أحد القراء السبعة ، تابعي من أهل الكوفة ، كان ثقة في القرءآت ، قيل : اسم أبيه عبيد ، وبهدلة اسم أمه ، توفي في الكوفة سنة ١٢٧هـ . انظر الأعلام ٣/ ٢٤٨ .

وقيل : أمالت الريح عليهم الأحقاف ، فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين عظيم، ثم كشفت عنهم الريح فاحتملتهم فطرحتهم في البحر .

روي أن الريح كانت تحمل الفسطاط ـ أي : الخيمة ـ أو الضعينة فترفعها [في الجو]حتى ترى كأنها جرادة ثم تطرحها .

وقيل : أول من أبصر العذاب امرأة [منهم] قالت : رأيت ريحا فيها كشهب النار .

وروي أن أول ما عرفوا به أنه عذاب ـ أنهم رأوا ما كان في الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير بهم الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم ، وأغلقوا أبوابهم فقلعت [الريح]الأبواب وصرعتهم ، ولم يبق إلا هود ومن آمن معه .

وروي أن هودا [لما أحس بالريح]خط على نفسه وعلى المؤمنين معه خطا إلى جنب عين تنبع .

ابن عباس : اعتزل ومن معه في حظيرة ما يصيبهم إلا ما [يلين على الجلود و]تشتهيه[1] الأنفس ، وإنها لتمر من عاد بالضعن بين السماء والأرض ، وتدمغهم بالحجارة .قاله في التجريد وغيره[2] .

قال الرازي : وأثر المعجزة إنما ظهر في تلك الريح من هذا الوجه[3] .

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان إذا رأى الريح فزع ، وقال : اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها ، وشر ما أرسلت به[4] .

---

(١) في الكشاف (وتلذه الأنفس) /٣٠٨

(٢) وهذا كله مثله في الكشاف ، بتقديم وتأخير ، وما بين أقواس الزيادة من الكشاف ٣٠٧/٤، ٣٠٨.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/٢٨ .

(٤) قال ابن حجر : أخرجه مسلم ، والترمذي والنسائي وابن ماجه ، والبزار ، وأبو يعلى ، والبخاري في الأدب المفرد، كلهم من رواية عطاء عن عائشة ، ولفظ مسلم قريب من لفظ الكتاب (انظر تخريج ابن حجر على الكشاف ٣٠٨/٤) وقال القرطبي في تفسيره : قال الإمام أحمد : حدثنا عبدالرحمن عن سفيان عن المقدام بن شريح عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت إن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم كان إذا رأى ناشئا في أفق من آفاق السماء ترك عمله وإن كان في صلاته ثم يقول "اللهم إني أعوذ بك من شر ما فيه فإن كشفه الله تعالى حمد الله عز وجل وإن أمطر قال

ثم قال تعالى :﴿ كَذَلِكَ﴾ أي : مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ والمقصود تخويف كفار مكة .

فإن قيل : لما قال الله تعالى :﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾[1] فكيف يبقى التخويف ؟ قلنا :[2] قوله ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ إنما نزل في آخر الأمر ، فكان التخويف حاصلا قبل نزوله .

ثم إنه تعالى خوف كفار مكة ، وذكر فضل عاد بالقوة والجسم عليهم فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَاكُمْ فِيهِ﴾ أراد بالتمكين تمكينهم من أمور الدنيا ولذاتها ، وحطامها وشهواتها ، بكثرة المال والرجال والقوة ، والمعنى على هذا : ولقد مكناهم في الذي لم نمكنكم فيه يا قريش ، (ما) بمعنى الذي ، و(إن) نافية [بمنزلة ما] أي في الذي ما مكناكم فيه ، واختير (إن) على (ما) لأنها أحسن في اللفظ ؛ لما فيه من مجامعة (ما) مثلها، من التكرير المستبشع ، ومثله يجتنب .

وقد جعلت إن زائدة[3] ، وتؤول بأنا مكناهم في مثل ما مكناكم ، والصحيح الأول لقوله :﴿كانوا أكثر منهم وأشد قوة﴾[4] فدل على أن تمكينهم فوق تمكين قريش لا مثله ، وهو أبلغ في التوبيخ ، وأدخل في الحث على الاعتبار[5] .

اللهم صيبا نافعا " "طريق أخرى" قال مسلم في صحيحه حدثنا أبو بكر الطاهر أخبرنا ابن وهب قال سمعت ابن جريج يحدثنا عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه [وآله]وسلم إذا عصفت الريح قال "اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها ، وشر ما فيها ، وشر ما أرسلت به " الخ ما ذكره القرطبي . (أنظر تفسير القرطبي) .

(١) الأنفال : ٣٣ ، في أصل المصابيح (وما كان الله معذبهم وأنت فيهم) ونص الآية ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ .

(٢) في المصابيح (قلنا : قالوا : قوله :﴿وما كان الله ..) الخ وفي الرازي (قلنا : قوله : ﴿وما كان الله ..﴾ الخ ما هنا

(٣) ذكر هذا الرازي في تفسيره (٢٩/٢٨) ونسبه إلى ابن قتيبة . وقد غلطه الرازي من ثلاثة أوجه فقال : الأول أن الحكم بأن حرفا من كتاب الله عبث لا يقول به عاقل. والثاني : أن المقصود من هذا الكلام أنهم كانوا أقوى منكم قوة، ثم إنهم مع زيادة القوة ما نجوا من عقاب الله ، فكيف يكون حالكم،وهذا المقصود إنما يتم لو دلت الآية على أنهم كانوا أقوى قوة من قوم مكة . الثالث : أن سائر الآيات تفيد هذا المعنى قال تعالى : ﴿هم أحسن أثاثا ورئيا﴾ وقال : ﴿كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض﴾ .

ثم قال تعالى :﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ يريد سبحانه : أنا فتحنا عليهم أبواب النعم ، وأعطيناهم سمعا فما استعملوه في سماع الدلائل ، وأعطيناهم أبصارا فما استعملوها في تأمل العبر ، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله تعالى ، بل صرفوا هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[1] من الإغناء ، وهو القليل منه ، بمعنى : أنه جعل لهم آلةً صحيحة ، السمع والبصر والأفئدة ، للفهم والتدبر فما انتفعوا بها فيما خلقت له من الأمور الدينية .

وقوله :﴿ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (إذ) متعلق بأغنى ، جار مجرى التعليل ، أي : ما أغنى عنهم إذ كانوا يجحدون بآيات الله ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي : جزاء استهزائهم﴿وحاق﴾ أي: رجع عليهم وأحاط بهم . قال الحسين بن القاسم عليه السلام : وسألت رجلا من أهل اللغة فقال : معناه الإحاطة ، وأنشدنا من الشعر فقال :

تحدر من إشراق كوكب برهة فَهُوَّ لترب الساعدية حائق[2]

فبين عز وجل أنه إنما لم يغن عنهم سمعهم وأبصارهم ؛ لأجل أنهم كانوا يجحدون ، ولفظ (إذ) قد يذكر لإفادة التعليل ، تقول : ضربته إذ أساء ، والمعنى ضربته لأنه أساء .

وفي هذه الآية تخويف لأهل مكة ، فإن قوم عاد لما اغتروا بدنياهم ، وأعرضوا عن قبول الدليل والحجة نزل بهم عذاب الله ، و لم تغن عنهم قوتهم ولا كثرتهم ، فأهل مكة مع

---

(٤) غافر : ٨٢ .

(٥) انظر الكشاف ٣٠٨/٤، ٣٠٩. وفيه : والوجه هو الأول . قال السيد العلوي في حاشيته على الكشاف : لما نبه عليه من موافقة للآي الأُخَر ، لأن التوبيخ والإمراء فيه أبلغ ، وقيل : لأن المعنى الثاني يؤدي إلى أن يقال : مكناهم في مثل ما مكناكم فيه ، فيلزم تفضيل هؤلاء على أولئك ؛ لأن المشبه به أقوى في الوجه غالبا ، والأول معناه : ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه ، والذي سيق له الكلام أن كفار مكة دون أولئك الكفار في التمكين في الأرض ، لقوله تعالى : ﴿أو لم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لهم﴾ والمعنى لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عادا وثمود وغيرهم من البسط لهم في الأجسام ، والسعة في الأموال ، والاستظهار بأسباب الدنيا .

(١) من قوله : يريد سبحانه .. إلى هنا مثله في الرازي ٢٩/٢٨ .

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول هذه السورة .

عجزهم وضعفهم أولى أن يحذروا من عذاب الله ، ويخافوا .

واستهزاؤهم : أنهم كانوا يطلبون نزول العذاب ، وإنما [كانوا][1] يطلبونه على سبيل الاستهزاء،ثم نزل بهم ذلك العذاب الذي كانوا يطلبونه على سبيل الاستهزاء ، والله أعلم

ثم قال تعالى :﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ﴾ يا قريش ﴿مِنْ الْقُرَى﴾ أي : من أهل القرى ، من نحو حجر ثمود ، وقُرَى قوم لوط ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ أكثرنا تصريفها ، وهو ترديدها ، أي : جئنا بآيات كثيرة على أنحاء مختلفة ، وقيل : صرفناها : بيّنّاها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي : ليرجعوا عن كفرهم .

ثم قال تعالى :﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمْ﴾ أي : فهلا نصر أهلَ القرى أصنامُهم ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ أي : اتخذوهم ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أي : تقربا إلى الله ، والقربان : ما تُقُرِّب به ، وهو[2] حال من الآلهة متقدمة ، والتقدير : فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله آلهة متقربا بهم إلى الله حيث قالوا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

ويجوز أن يكون ﴿قربانا﴾ مفعول ﴿اتخذوا﴾ و﴿آلهة﴾ بدلا منه ، والمعنى : فهلا منعتهم من الهلاك نصرة آلهتهم لهم[3] ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي : غابوا عن نصرتهم ونفعهم

---

(١) ما بين القوسين من الرازي ٢٩/٢٨ .

(٢) الضمير يعود على (قربانا) . وقدم على حد قوله : لمية موحشا طلل . قال الرازي في تفسيره ٣٠/٢٨ : وفي إعراب الآية وجوه ، الأول : قال صاحب الكشاف : أحد مفعولي اتخذ الراجع إلى الذين هو محذوف ، والمفعول الثاني (آلهة) و﴿قربانا﴾ حال ، وقيل عليه : إن الفعل المتعدي إلى مفعولين لا يتم إلا بذكرهما لفظا ، والحال مشعر بتمام الكلام ، ولا شك أن إتيان الحال بين المفعولين على خلاف الأصل . الثاني : قال بعضهم (قربانا) مفعول ثان قدم على المفعول الأول ، وهو آلهة ، فقيل عليه : إنه يؤدي إلى خلو الكلام عن الراجع إلى الذين . والثالث : قال بعض المحققين : يضمر أحد مفعولي اتخذوا ، وهو الراجع إلى الذين ، ويجعل قربانا مفعولا ثانيا ، وآلهة عطف بيان .

(٣) وقد منع الزمخشري أن يكون ﴿قربانا﴾ مفعولا ثانيا ، وآلهة بدل منه ، لفساد المعنى ، قال السيد العلوي رحمه الله في حاشيته على الكشاف (٢٧٧) : قال صاحب التقريب : وغاية تقديره أن اتخاذها قربانا وشفعاء جهة معتبرة في النصر، ولو جعل بدلا منه لكان في حكم الطرح ، وخرج عن الاعتبار ، وفيه نظر ، وقال رضي الله عنه : إنه لا يصح تقربوا بها من دون الله ؛ لأن الله لا يتقرب به ؛ لأنك إذا جعلت آلهة بدلا من قربنا ، وجعلت قربانا مفعولا ثانيا لاتخذ كأنك قلت : اتخذوا الأصنام قربانا من دون الله ، وغاية تقرير هذا أن يقال : فهم من هذا الكلام أنهم فقدوا النصر

﴿وَذَلِكَ﴾ الضلال وعدم النصرة ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي : ثمرة إفكهم ، أي : كذبهم ، وأثر شركهم وافترائهم على الله من كونه ذا شركاء .

ثم قال :﴿ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي : يجترئون ويجترفون من المحال ، وقيل : ﴿ذلك﴾ إشارة إلى اتخاذهم الآلهة دون الله ، أي : واتخاذهم الآلهة هو كذبهم وافتراؤهم .

[قصة دعوة النبي الجن للإسلام]

ولما بين تعالى أن في الناس من آمن ، وفيهم من كفر ، بين أيضا أن الجن فيهم من آمن، وفيهم من كفر فقال سبحانه :﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾ أي : واذكر إذ صرفنا إليك ﴿نَفَرًا مِنْ الْجِنِّ﴾ أي : أملناهم وأقبلنا بهم ، والنفر دون العشرة ، وجمعه أنفار ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي : سمعوه يقرأ منه في سورة صلاة الفجر بوادي نخلة ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي : حضروا القرآن ، أو النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ أي : قال بعضهم لبعض : اسكتوا مستمعين .

لإخطائهم الطريق ، فلو كان قربانا مفعولا ثانيا لفهم أن الإخطاء إنما كان لأجل أنهم اتخذوا الأصنام قربانا من دون الله، ولو اتخذوا الله قربانا من دونها لم يخطئوه ، و لم يفقدوا النصر ، كما أن المفهوم من الكلام على تقدير كون آلهة مفعولا ثانيا : أنهم أخطأوا الطريق لاتخاذهم الأصنام آلهة من دون الله ، ولو اتخذوا الله إلها دونها لم يخطئوه ، ولا شك أن هذا كلام صحيح ، خلاف ما قبله ، لأن الله لا يتخذ قربانا ، فلهذا فسد المعنى على تقدير كون قربانا مفعولا ثانيا .

ويمكن أن يقال : فساد المعنى إنما لزم من حيث أن آلهة إذا كان بدلا من قربانا ، وإن كان قربانا في حكم الطرح ، يكون تقدير الكلام فلولا نصرهم الذين اتخذوهم آلهة من دون الله ، وهذا فاسد لأنهم لم يتخذوهم آلهة من دون الله حتى ينسب ذلك إليهم ، بل كانوا مقرين بإلهية الله مع قولهم بأن الأصنام آلهة ، والمفهوم من قوله :﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوهم آلهة من دون الله﴾ أنهم قالوا بإلهية الأصنام ، وإن لم يقولوا بإلهية الله ، وهذا بخلاف ما إذا كان قربانا حالا ؛ لأن المعنى أنهم اتخذوهم آلهة حال تقربهم بهم إلى الله ، فإنه لا يفهم من هذا نفي إلهية الله ، وهذا الموضع موضع تأمل .

وقال صاحب الإيضاح : يفسد المعنى ؛ لأنه لا يستقيم أن يقال : كان من حق الله أن يتخذ إلها ، وهم اتخذوا الأصنام من دونه قربانا ، كما استقام كان من حق الله أن يتخذ إلها ، وهم اتخذوا الأصنام من دونه آلهة ، وهو قريب مما قلناه .

وقال صاحب الانتصاف : لا يصح أن يكون قربانا مفعولا ثانيا ، وآلهة حال ؛ لأنه يصير معنى الذم متوجها إلى ترك اتخاذ الله متقربا به ؛ لأنه إذا قلت لعبدك : اتخذت فلانا سيدا دوني . لمته على نسبة السيادة على غيرك ، والله تعالى لا يتقرب به ، ولكن يتقرب إليه .

روي أن الجن كانت تسترق السمع فلما حرست السماء ، ورجموا بالشهب ، قالوا : ما هذا إلا لنبأ حدث ، فنهض سبعة نفر أو تسعة ، من أشراف جن نصيبين أو نينوى ، منهم زوبعة ، فضربوا حتى بلغوا تهامة ، ثم اندفعوا إلى وادي نخلة ، فوافوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو قائم يصلي في جوف الليل ، أو في صلاة الفجر ، فاستمعوا لقراءته ، وذلك عند منصرفه من الطائف حين خرج يستنصرهم فلم يجيبوه ، وأغروا به سفهاء ثقيف[1] .

وعن سعيد بن جبير : ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الجن ، ولا رآهم ، وإنما كان يتلو في صلاته فمروا به ، فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر ، فأنبأه الله باستماعهم[2] .

﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ فرغ من قراءته ﴿وَلَّوْا﴾ رجعوا ﴿إِلَى قَوْمِهِم﴾ من الجن ﴿مُنذِرِينَ﴾ لهم بما يستمعون من القرآن .

وقال ابن مسعود وغيره : بل أمر الله رسوله أن ينذر الجن ، فصرف إليه نفرا منهم جمعهم له ، فقال : إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة ، فمن يتبعني ؟ فاتبعه ابن مسعود لا غير ، حتى إذا كان في شعب الحجون خط النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطاً ، وقال : لا تخرج منه حتى أعود إليك ، ثم افتتح القرآن ، وسمعت لغطا شديدا حتى خفت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه ، حتى ما أسمع صوته ، ثم انقطعوا كقطع السحاب ، فقال لي رسول الله : هل رأيت شيئا ؟ قلت : رأيت رجالا

---

(١) في الكشاف : (فلم يجيبوه إلى طلبته) قال ابن حجر في تخريج الكشاف ٣١١/٤ : متفق عليه من رواية سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، دون أوله ، ودون قوله :(وكانوا تسعة نفر ، أحدهم زوبعة) ودون قوله :(في جوف الليل يصلي) ودون قوله (من نينوى) ودون قوله :(عند منصرفه ..) إلخ ، وأما زوبعة فأخرجه الحاكم من رواية [أبي]ذر عن ابن مسعود ، قال :(هبطوا ــ يعني ــ الجن على النبي صلى وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا ، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة ، فأنزل الله :﴿وإذ صرفنا إليك نفرا﴾ الآية . وقوله :(نينوى) أخرجه الطبري من رواية قتادة في هذه الآية ، قال : ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى ..) الحديث .

وذكر القصة أيضا بطولها من مسير النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى الطائف إلى حين التقائه بهم ، وعدد أسماءهم القرطبي في تفسيره وعزاها الى ابن عباس وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وغيرهم . (أنظر تفسير القرطبي) .

(٢) قال ابن حجر في تخريج الكشاف ٣١١/٤ : متفق عليه من رواية سعيد بن جبير ، وهو في الذي قبله .

سودا مستثفرين[1] بثياب بيض ، فقال : أولئك جن نصيبين ، وكانوا اثني عشر ألفا ، والسورة التي قرأها عليهم ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾[2] .

وقد ضعف هذا بأن النفر لا يطلق على الكثير ، ويمكن الجواب بأنه أريد بالنفر رؤساؤهم .

ثم قال تعالى :﴿ قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ أي : من بعد عهده وزمانه ، ولم يقولوا : من بعد عيسى ، فعن عطاء : كانوا على اليهودية . ابن عباس : لم يسمعوا[3] بعيسى .

ثم وصفوه بوصفين ، الأول : كونه ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المتقدمة ، والثاني : أنه ﴿يَهْدِي﴾ متبعيه ﴿ إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ثابت ، وهو دين الإسلام ﴿ يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ هذا من جملة قول أصحابهم ﴿وَآمِنُوا بِهِ﴾ أي :

---

(١) في الكشاف (مستثفري ثياب بيض) قال في حاشية الكشاف : في القاموس :(الاستثفار) أن يدخل إزاره بين فخذيه ملويا ، وإدخال الكلب ذنبه بين فخذيه حتى يلزقه ببطنه) (الكشاف ٣١٢/٤) .

(٢) القلم : ١ . قال ابن حجر في تخريجه على الكشاف : لم أجده بتمامه في سياق واحد ، بل وجدته مفرقا ، فروى الطبري من رواية قتادة :(ذكر لنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إني أمرت أن أقرأ على الجن . فأيكم يتبعني ، فأطرقوا ثلاثا إلا ابن مسعود فاتبعه حتى دخل شعبا ، يقال له شعب الحجون ، قال : وخط على ابن مسعود خطا .. فذكر إلى قوله : حتى خفت عليه . وزاد فيه : فقلت : ما هذا اللغط ؟ فقال : اختصموا إلي في جبل قضيت بينهم بالحق) وروى الحاكم والطبراني والدار قطني ، من طريق أبي عثمان بن شيبة الخزاعي ، وكان رجلا من أهل الشام ، أنه سمع عبد الله بن مسعود يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه وهو بمكة : من أحب منكم أن يحضر الليلة أمر الجن فليفعل ، فلم يحضر منهم أحد غيري ، قال : فانطلقت حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لي برجله خطا ، ثم أمرني أن أجلس فيه ، ثم انطلق حتى قام ، فافتتح القرآن ..) الخ الحديث . ولم يذكر رجالا سودا .. إلى آخره ، وروى الطبري من رواية عمرو بن غيلان الثقفي ، أنه سأل ابن مسعود ، فذكر القصة ، وفيها فقال :(رأيت رجالا سودا مستشعرين بثياب بيض ، فقال : أولئك جن نصيبين ، سألوني المتاع ــ فذكر الحديث . وليس فيه عددهم ، ولا اسم السورة ، وروى ابن أبي حاتم ، من رواية عكرمة في هذه الآية قال : كانوا من جن نصيبين ، جاؤا من جزيرة الموصل ، وكانوا اثني عشر ألفا ، فهذه الأحاديث من مجموعها ما ذكر إلا اسم السورة . (الكشاف ٣١٢/٤) .

(٣) لفظ الكشاف :(وعن ابن عباس رضي الله عنهما : إن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام ، فلذلك قالت : من بعد موسى . (الكشاف ٣١٢/٤) .

الله إيمانا كاملا ، وهو أن تؤمنوا به وبكتابه ورسوله .

وقد دلت [الآية على أنه صلى الله عليه وآله وسلم] [١] كان مبعوثا إلى الجن ، كما كان مبعوثا إلى الإنس ، قال مقاتل : ولم يبعث الله نبيئا إلى الجن والإنس قبله[٢] .

وقوله تعالى :﴿أجيبوا داعي الله﴾ أمر بإجابته في كل ما أمر به ، فيدخل فيه الأمر بالإيمان ، إلا أنه أعاد ذكر الإيمان على التعيين ، لأجل أنه أهمّ الأقسام وأشرفها ، وقد جرت عادة القرآن بأنه يذكر اللفظ العام ، ثم يعطف عليه أشرف أنواعه ، كقوله : ﴿وملائكته [ورسله]وجبريل﴾[٣] .

وقوله :﴿وإذ أخذنا من النبيئين ميثاقهم ومنك ومن نوح﴾[٤] ولما أمر بالإيمان به ـ ذكر فائدة ذلك الإيمان وهي قوله تعالى :﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي : بعضها ؛ لأن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان مما يتعلق بالعباد من أعراضهم كالذم ونحوه ، ومن أموالهم كالديون ونحوها [٥].

وقيل : من هاهنا زائدة ، والتقدير : يغفر لكم ذنوبكم ﴿ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وبهذه الآية قيل : لا ثواب للجن إلا النجاة من النار ، وإليه ذهب أبو حنيفة ، والصحيح أنهم كبني آدم مكلفون .

[بحث للإمام المرتضى في الجن وثوابهم وشهواتهم]

وقد سئل المرتضى عليه السلام عن مؤمني الجن : هل يكونون في الآخرة يأكلون ويشربون ويتنعمون ؟ قال عليه السلام : الأكل والشرب والنكاح ، فإنما هو شئ ركبه الله في الآدميين

---

(١) ما بين القوسين زيادة من (ب) .

(٢) ومثل هذه الفقرة بلفظها في الرازي ٣٢/٢٨، ٣٣ ، وكذلك الفقرة التي بعدها .. إلى قوله : وهي قوله تعالى : ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ .

(٣) البقرة : ٩٨ . في المصابيح (وملائكته وجبريل) ولا يوجد في القرآن لفظ كهذا ، وإنما الموجود (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين)

(٤) الأحزاب : ٧ .

(٥) من قوله :(لأن من الذنوب) إلى هنا قريب منه في الكشاف ٣١٢/٤ .

وجعل لهم فيه لذة وشهوة ، والله تبارك تعالى فقد ركب في الجن أسبابا ، ينالون بها لذة وفرحا وطربة في الآخرة ، شبها مما ينال بها الآدميون أو أكثر ، إذ اللذة في الآدميين من الله ، جعلها سبحانه فيهم ، فصارت لذة إذ جعلها من طباعهم ، كذلك عز وجل يجعل لهم على طاعتهم وحسن استقامتهم ، من الجزاء والثواب ما يقنعهم ويكون ألذ لهم من لذتكم ، أو لستم ترون ذلك في هذه الدنيا في خلق الله سبحانه ، قد جعل لكل ذي روح غذاء وطربة وراحة لا يجدها الآخر ، من ذلك بنو آدم يأكلون الفواكه والأطعمات، ومن ذلك الخيل والدواب تأكل الحشيش ، وما أشبه ذلك من النبات، وكل قد قامت بُنيتُه على ما جعل من غذائه ، وحسنت حالته على ذلك ، ولو أطعم أحد الجنسين غذاء صاحبه ، إذاً لم تحسن بذلك حالته ، و لم تقم عليه بُنيتُه ، وكان من الهالكين ، فهذا دليل على أن كلا قانع بما ركب فيه ، لا يريد غيره ، ولا تحسن حالته إلا به . اهـ

واعلم أن ذلك الجني لما أمر قومه بإجابة الرسول ، والإيمان به حذرهم من ترك الإجابة فقال :﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي : فليس ينجي منه مهرب ، ولا هو بفائت ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أنصار يتولونه بدفع العذاب عنه .

ثم بين أنهم في ذهاب بين عن طريق الحق والنجاة ، فقال سبحانه :﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي : هو بين ظاهر .

ثم خاطب قريشا فقال إنكارا عليهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾[أي : أو لم يعلموا] ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر في أول السورة ما يدل على وجود الإله القادر الحكيم المختار ، ثم فرع عليه فرعين الأول : إبطال قول عبدة الأصنام ، والثاني : إثبات النبوة ، وذكر شبهاتهم في الطعن في النبوة ، وأجاب عنها ، و[لما] كان [أكثر] إعراض أهل مكة عن قبول الدلائل بسبب اغترارهم بالدنيا ، واستغراقهم في استيفاء طيباتها وشهواتها ، وبسبب أنه كان يثقل عليهم الانقياد لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والاعتراف بتقدمه عليهم ، ضرب لذلك مثلا في قوم عاد ، فإنهم كانوا أكمل في منافع الدنيا من قوم محمد صلى الله عليه

وآله‌وسلم ، فلما أصروا على الكفر أبادهم الله وأهلكهم ، فكان ذلك تخويفا لأهل مكة بإصرارهم على إنكارهم نبوة محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله .

ثم لما قرر نبؤته على الإنس أردفه بإثبات نبوته في الجن ، وإلى هاهنا قد تم الكلام في التوحيد وفي النبوة ، ثم ذكر عقيبها تقدير مسألة المعاد ، ومن تأمل في هذا [البيان الذي ذكرناه] علم أن المقصود من كل القرآن تقرير التوحيد والنبوة والمعاد ، وأما القصص فالمراد من ذكرها ما يجري مجرى ضرب الأمثال في تقرير هذه الأصول .

والمقصود من هذه الآية إقامة الدلالة على كونه تعالى قادرا على البعث ، والدليل عليه : أنه تعالى أقام الدلائل في أول هذه السورة ، على أنه هو الذي خلق السموات والأرض ، ولا شك أن خلقها أعظم وأفخم من إعادة هذا الشخص حيا بعد أن صار ميتا ، والقادر على الأقوى الأكمل لابد وأن يكون قادرا على الأقل الأضعف .

ثم ختم الآية بقوله :﴿إنه على كل شئ قدير﴾ والمقصود منه أن تعلق الروح بالجسد أمر ممكن ، إذ لو لم يكن ممكنا في نفسه لما وقع أولا ، والله تعالى قادر على كل الممكنات، فوجب كونه قادرا على تلك الإعادة ، وهذه الدلائل يقينية وظاهرة ، ذكر هذا الرازي[١] .

وأما قوله تعالى :﴿و لم يعي بخلقهن﴾ فمعناه : لم يخف عليه خلقهن ، يقال : عي بالأمر إذا لم يهتد لوجه عمله ، و لم يعرف جهة الصواب فيه ، و لم يقدر عليه ، ويقال : أعييت إذا تعبت[٢] ، وقوله :﴿بقادر﴾ محله الرفع ؛ لأنه خبر إنّ[٣] ، يدل عليه قراءة عبد الله (قادر) وقد سد مسد مفعولي[٤] (يروا) والباء زائدة ، كما تزاد مع النفي في نحو ما أظنك بقائم

---

(١) انظر الرازي ٣٤/٢٨ ، وما بين أقواس الزيادة منه .

(٢) قال الكسائي : يقال : أعييت من التعب ، وعييت : من انقطاع الحيلة ، والعجز والتحير في الأمر .

(٣) أي : أن الباء فيه زائدة لتأكيد النفي ، لأن النفي مشتمل على إن وما في حيزها ، وكأنه قال : أليس الله بقادر . قال الشهاب ٣٨/٨ : إشارة إلى ما مر من أن الباء تزاد بعد النفي ، وما في حيز إن مثبت ، لكن لانسحاب النفي عليه عومل معاملة المنفي ، ولهذا أجاب عنه بقوله : بلى ؛ لأن بلى تختص بجواب النفي وتفيد إبطاله ، على المشهور ، وإن ورد فيالإثبات نادرا ، وأجازه بعض النحاة .

وحكى الواحدي وابن الجوزي هذا عن الكسائي والزجاج ، وعن الأخفش أيضـــا ، وأبي عبيدة ، قال ابن الجوزي : وقرأ يعقوب (يقدر) بياء مفتوحة مضارع قدر .

واعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة على صحة القول بالحشر والنشر ذكر بعض أحوال الكفار فقال :﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ (يوم) متعلق بمحذوف مقدر قبل ﴿أليس﴾ أي : يوم يعذبون في النار يقال لهم :﴿ أَلَيْسَ هَذَا﴾ أي : العذاب ﴿بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى﴾ أي : هو الحق ﴿وَرَبِّنَا﴾ قسم جوابه محذوف دل عليه ما قبله ، أي : وربنا إنه لحق ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وتكذبون بالجزاء ، والمقصود التهكم بهـــم ، والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله ووعيده ، وقولهم :﴿وما نحن بمعذبين﴾[1] .

ثم اعلم أنه لما قرر المطالب الثلاثة ، وهي التوحيد والنبوة والمعـــاد ، وأجـاب عـن الشبهات ـــ أردفه بما يجري مجرى الوعظ والنصيحة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلك لأن الكفار كانوا يؤذونه ، ويوحشون صدره ، فقال تعالى :﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَــزْمِ مِنْ الرُّسُلِ﴾ أي : أولوا الجد والصبر والثبات ، و(من) للتبيين ، ولا يبعث الله إلا من كان ذا عزم وحزم [ورأي وكمال عقل]، وهو قول [ابن] زيد ، وابن الأنباري وغيرهما .

وقيل : يجوز أن تكون (من) للتبعيض [2]، قيل : وهم نوح كان يضربه قومه حتى يغشى

---

(٤) قوله :(وقد سد مسد مفعولي يروا) معناه : وقد سدت (أن وما في حيزها من الاسم والخبر مسد مفعولي يـــروا . وكان صواب اللفظ ، وقد سدت مسد .. الخ

(١) الشعراء : ١٣٨ ، سبأ : ٣٥ . الصافات : ٥٩ .

(٢) القائل هو الزمخشري : قال في الكشاف ٣١٣/٤ : و(من) يجوز أن تكون للتبعيض ، ويراد بأولي العزم بعض الأنبياء وقال الحاكم الجشمي في تهذيبه : ﴿كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ قيل : من هنا للتأكيد والبيـــان ، لا للتبعيـــض ، فجميع الرسل أولوا العزم عن ابن زيد ، وأبي علي ، وجماعة ، لأنهم عزموا على أداء الرسالة ، والصبر فيـــه ، وتحمـــل الشدائد ، وأداء ما أمروا به ، وهذا هو الوجه ، وقيل : من للتبعيض ، وأراد بعضهم ، ثم اختلفوا من هـــم ؟ قيـــل : المذكورون في سورة الأنعام ، وقيل : الذين أمروا بالقتال ، وأظهروا المكاشفة ، وجاهدوا وقاسوا قومهم ، كـــإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم ، عن أبي مسلم ، والكلبي ، وقيل : اثنا عشر من أنبياء بني إسرائيل ، منهم من قتلوا ، ومنهم من نشر بالمناشير ، ومنهم من سلخ جلده ، وقيل : هم ستة نوح وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وموسى ، وهـــم المذكورون في سورة هود والشعراء ، وقيل : أصحاب الشرائع ، وهم خمسة ، نوح وإبراهيم ، وموســـى ، وعيســـى ،

عليه ، وإبراهيم صبر على النار ، وعلى ذبح ولده ، ويعقوب على فقد ولده وبصره ، ويوسف على الجب والسجن ، وأيوب على الضر ، وموسى قال له قومه :﴿إنا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين﴾[١] وداود بكى على ذنبه أربعين سنة .

وقال المرتضى عليه‌السلام : أولوا العزم : هم كل من امتحن ، وفرض عليه الجهاد بالسيف، فكل من كان من الأنبياء قد افترض عليه الجهاد ، فهو من أولي العزم ، فكان محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من أولي العزم ، وكذلك موسى وداود وسليمان ومن قاتل من الأنبياء فهو من أولي العزم صلوات الله عليهم أجمعين .اهـ

وقال الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام في تفسيره ما لفظه : معنى ﴿كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ أي : كما صبر الرسل أولوا العزم ، على التقديم والتأخير ، و(من) زيادة وصلة ، مثل قوله :﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾[٢] والمعنى : يغفر لكم كل ذنوبكم ، وقد توهم بعض الجهال ، أن من الرسل من ليس بذي عزم ، وهذا من أكبر المحال ؛ لأن الرسل قد عزمت على إنفاذ أمر خالقها،والعزم فهو الإزماع والعزيمة والرحلة والإجماع[٣].

قال الرازي ما لفظه : (من) في قوله :﴿من الرسل﴾ تبيين لا تبعيض كما يقال : كسيته[٤] من الخز ، فكأنه قيل : اصبر كما صبر الرسل من قبلك على أذى قومهم ، ووصفهم بالعزم لصبرهم وثباتهم . ومثل هذا في البلغة ، أي : اصبر يا محمد على أداء الرسالة ، واحتمال الأذى ، كما صبر الرسل الذين كانوا قبلك .

ومحمد ، وقيل : نوح ، وإبراهيم ، ويعقوب ، ويوسف ، وأيوب ، ومحمد صبروا على ما نالهم ، عن مقاتل ، وقيل : أربعة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، عن قتادة ، وقيل : ثلاثة ورابعهم محمد صلى‌الله‌عليه وآله عن أبي العالية واختلفوا في معنى أولي العزم ، قيل : ذووا الحزم ، عن ابن عباس ، وقيل : ذووا الجد والصبر عن الضحاك ، وقيل : ذووا الرأي الصواب عن القرظي ، وقيل : الذين عزموا على أداء الرسالة ، وتحمل المشقة فيها ، وهم جميع الرسل ، عن أبي علي ، وأبي مسلم .

(١) الشعراء : ٦١ ، ٦٢ .

(٢) الأحقاف : ٣١ ، نوح : ٤ .

(٣) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام أول هذه السورة .

(٤) في الرازي (كسيته) وفي المصابيح (اكسه من الخز) . (الرازي ٢٨/٣٥) .

﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ بنزول العذاب [١] بهم في دار الدنيا ؛ لأن في تأخيره حكمة بالغة ، وإذا رأوا عذاب يوم القيامة كان حالهم ما ذكر الله في الآية التي بعد هذه ، وهذا معنى قوله تعالى :﴿ولا تستعجل لهم﴾ يعني كفار مكة ، أي : لا تدع بتعجيل العذاب فإنه نازل بهم لا محالة ، فأمر بالصبر وترك الاستعجال .

ثم أخبر أن ذلك [العذاب] منهم قريب ، وأن عند نزول ذلك العذاب بهم يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبوها ساعة من نهار فقال سبحانه :﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا أو البرزخ ﴿ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ لأن ما مضى كأن لم يكن ، وقيل : في جنب طول الآخرة ، قيل : وهذا لشدة العذاب ؛ لأن أيام السرور قصار .

قال في التجريد : وهنا تم الكلام .

ثم قال تعالى :﴿ بَلَاغٌ﴾ أي : هذا القرآن ، وهذا الكلام بلاغ [٢]، أي : بالغ أقصى الغرض [٣] ، أي : كفاية في الموعظة ، أو هذا بيان كامل ، وتبليغ من الرسول .

وقال ابن جرير : المعنى أنهم لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، ذلك لبث ﴿بلاغ﴾ أي بلاغ لهم في الدنيا إلى آجالهم [٤] .

---

(١) قوله : بنزول العذاب ، يريد أن المحذوف في محل نصب مفعول تستعجل .

(٢) فبلاغ على هذا خبر مبتدأ محذوف

(٣) أي : أنه من بَلَغَ بلاغا وبلوغا ، وقوله : وتبليغ من الرسول : فماضيه بلَّغ تبليغا . قال في الشهاب : ويشهد له قراءة (بلغ) على صيغة الأمر . قال الراغب : البلوغ والبلاغ : الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى مكانا أو زمانا ، أو أمرا من الأمور .. ثم قال : والبلاغ : التبليغ . والبلاغ : الكفاية .(مفردات الراغب ١٤٤) .

(٤) فبلاغ على هذا مبتدأ خبره محذوف ، تقديره : بلاغ لهم ، وقيل : خبره (لهم) السابق في قوله ﴿ولا تستعجل لهم﴾ وما بينهما اعتراض ، فيوقف على قوله :﴿ولا تستعجل﴾ ويبتدي بقوله : ﴿لهم ..... بلاغ﴾ وما بينهما من التشبيه معترض بين المبتدأ والخبر ، وهو ضعيف جدا لما فيه من الفصل ، ومخالفة الظاهر ، لأن الظاهر تعلق ﴿لهم﴾ بتستعجل . (حاشية الشهاب ٣٩/٨) .

ومعنى ﴿بلاغ﴾ على هذا : القليل ، أي : الذي تبلغ به ، كما تقول : نعيم الدنيا بلاغ إلى الآخرة ، أي بلاغ قليل ، كقولهم : ما معه من الزاد إلا بلاغ .

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ بالعذاب ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن الاتعاظ به ، والعمل بموجبه[1] قال قتادة : اعلم أنه لا يهلك على الله إلا من عتا عتوا ، وتمرد تمردا ؛ لأنه تعالى قد أبلغ في الإنذار ، والإمهال[2] .

والحمد لله كثيرا

يتلوه الجزء الثالث

وأوله سورة الجاثية

نسأل الله العلي القدير الإعانة والتوفيق

(١) ونظيره في الرازي ٣٦/٢٨ والكشاف ٣١٤/٤، وفيهما : (بموجبه) وفي المصابيح (بمواجبه) ،

(٢) قال السيد العلوي رحمه الله : ويعضده ما روى الواحدي عن الزجاج تأويله : لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون ، ولهذا قال قوم : ما في الرجاء لرحمة الله آية أقوى من هذه الآية .

الفهارس